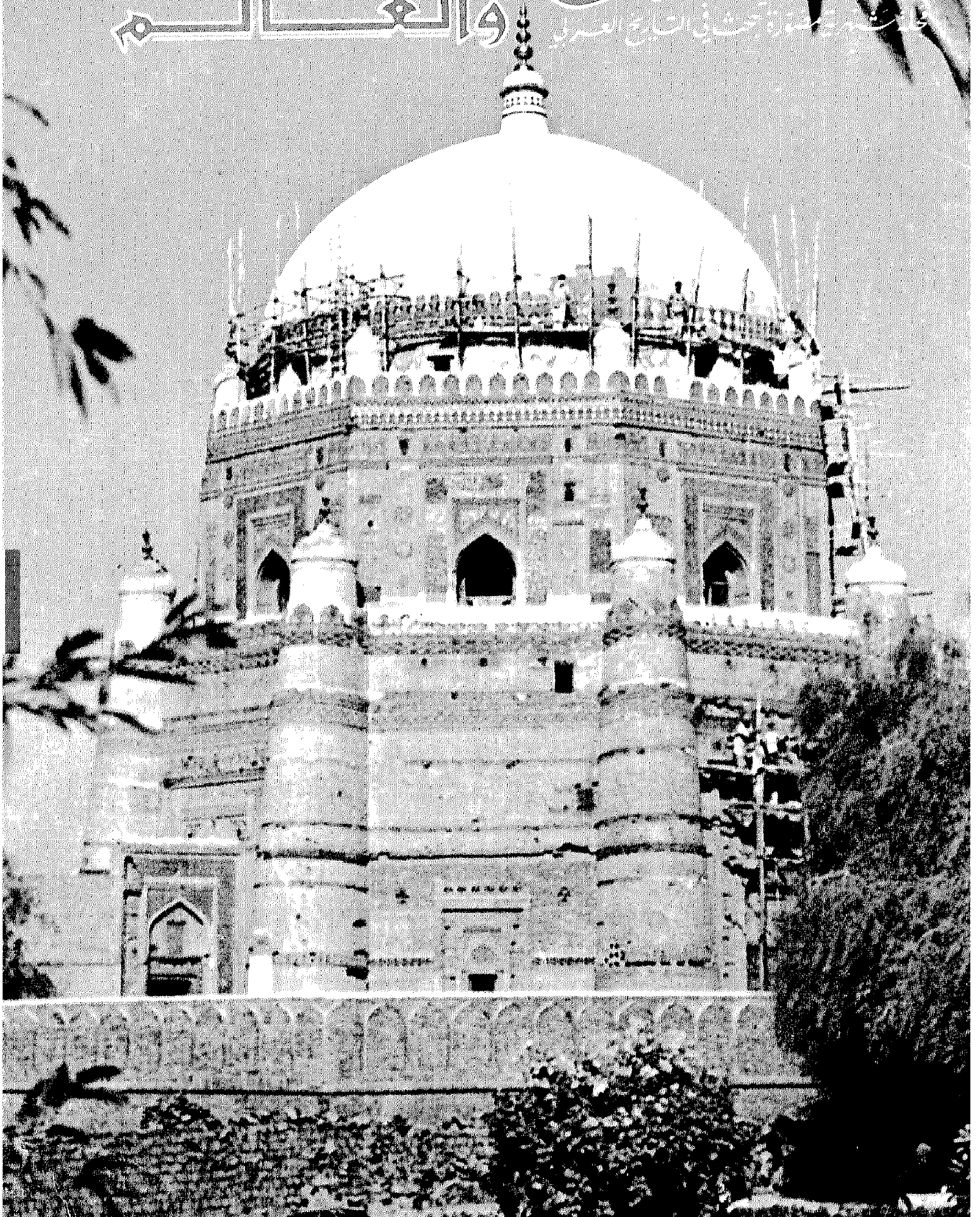
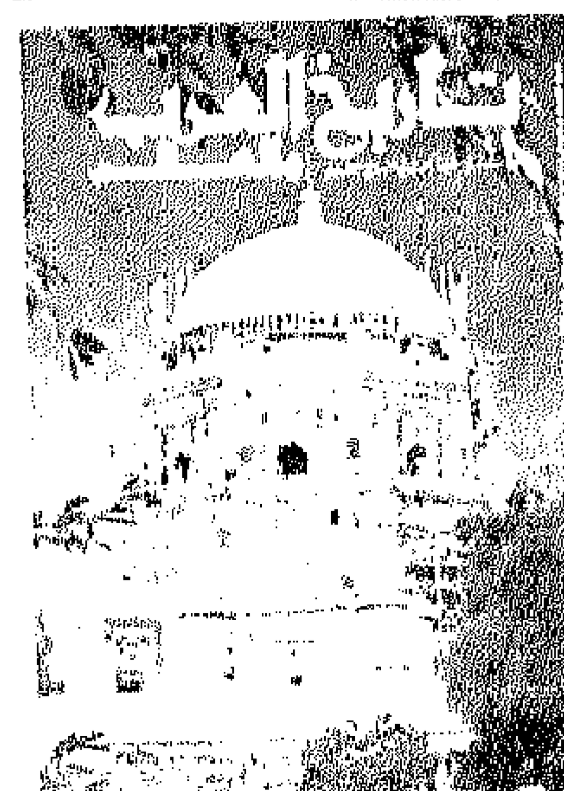
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



□ فن إيراني يعود لعهد أسرة قاجار (القرن الثالث عشر هجري ــ التاسع عشر ميلادي) ويمثل عائلة إيرانية تتناول المرطبات على شرفة المنزل.



الغلاف الأول

□ قبر الشيخ ركن الدين الملطاني في مدينة ملطان في الهند. وهذا البناء يعتبر من روائع الفن الاسلامي في القارة الهندية.

من كتاب: The World of Islam; Edited by Bernard Lewis.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٠١/١٠٢ ● آذار ـ نيسان ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 9. No. 101/102 ● Mars-April 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

الإمام الغزالي في كتابه: المنقذ من الضلال



د. نقولا زيادة

ولد الإمام الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للميلاد) وتوفي فيها سنة ٥٠٥ (١١١١). وبين هذين التاريخين عاش الإمام الغزالي حياة مليئة بطلب العلم والتأمل فيه والمشاركة العقلية ودرس الفلسفة والعناية بالفقه واتباع التصوف. وهذه التجارب الروحية والعقلية والفكرية التي مرت به من اغنى ما عرف الفكر الإسلامي قاطبة. وقد كانت نتيجتها عدداً كبيراً من المؤلفات يتفاوت في الحجم بين المنقذ من الضلال وأيها الولد في الجهة الواحدة وإحياء علوم الدين في الجهة الأخرى.

والسنون التي عاشها الغزالي تتوسط تماماً فترة تمتد من أول القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) إلى أواسط القرن السابع (الثالث عشر). وهي فترة عرفت فيها الخلافة العباسية وسلطات بغداد تقلباً في السياسة وتنوعاً في الحكم وارتفاعاً وانخفاضاً في السلطة المركزية. بدات الفترة بتغلب الجنود الاتراك على عاصمة الخلافة وتلى ذلك (اواسط القرن الرابع) قيام البويهيين وتسلطهم على الخلفاء. وجاء السلاجقة قبيل مولد الغزالي إلى بغداد، حيث تولوا الحكم إذ لقب الخليفة القائم زعيمهم طغرل بك «السلطان» ومنحه سلطات معينة. ومع أن السلاجقة ظلوا أصحاب الحل والربط في اجزاء مختلفة من الامبراطورية، فإن الخلافات دبت بينهم منذ أواسط القرن السادس (الثاني عشر).

تتفق حياة الغزالي مع ثلاثة من مشاهير السلاجقة وهم السلاطين طغرل بك ٤٢٩ ــ ٤٥٥هـ (١٠٣٨ ــ ١٠٦٣م) والب ارسلان ٤٥٥ ــ ٤٦٥هـ (١٠٦٣ ــ ١٠٧٢م) وملكشاه ٤٦٥ ــ ٤٨٥هـ (١٠٧٢ ــ ١٠٩٢). إلا ان السنوات الأخيرة من عمره اتفقت مع عهد بركيارق ٤٨٧ ــ ٤٩٨هـ (١٠٩٤ ــ ١١٠٥م) ومحمد ٤٩٨ ــ ٥١١هـ (١١٠٥ ــ ١١١٨م)، اللذين لم يكونا في مستوى الأولين. ومعنى كل ذلك أن القسم الأكبر من حياة الغزالي مر في عهد منظم نسبياً. ولا شك أن للوزير السلجوقي نظام الملك، الذي وزر لكل من الب أرسلان وملكشاه، فضلاً كبيراً على سير أمور الدين والدنيا في ذلك الوقت.

على أنه جدير بنا أن نذكر أموراً أخرى كان لها أثر في حياة الغزالي بالإضافة إلى الوضع السياسي. في أيامه كانت آثار الاتصال بين الفكر الإسلامي والفكر الفلسفي اليوناني قد بدت واضحة، والتأثر والتأثير كانا قد عرفا تماماً. والعصر الذي عاش فيه الغزالي كان عصر ازدهار التصوف، بعد أن انتظمته طرق وفلسفات وأنظمة بينة. إلى هذا يجب أن نضيف نضج علم الكلام وقيام التقليد في أمور الفقه والشريعة. كل هذه الأمور عاشها الغزالي بعقله وقلبه وكان لها في تجاربه الروحية والفكرية أثر كبير، ولذلك كانت منزلة الغزالي في توضيح معالم التفكير الإسلامي كبيرة. وليس بالغريب أن يسمى حجة الإسلام.

ولد الغزالي بطوس سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) وتلقى علومه الاولى هناك ثم انتقل إلى نيسابور حيث لازم الإمام الجويني إمام الحرمين، حتى وفاة هذا الأخير سنة ٤٧٨ (١٠٨٥). وعندها انتقل إلى صحبة الوزير نظام الملك حيث انضم إلى نصحائه ومستشاريه. وعهد إليه الوزير أن يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية التي كان قد أنشأها نظام الملك ببغداد، فقام بذلك بدءاً من سنة ٤٨٤ (١٠٩١) واستمر في عمله إلى سنة ٤٨٨ (١٠٩٥)، مع أن نظام الملك قتله الإسماعيلية سنة ٤٨٥ (١٠٩٢). وقد ظهرت له في التدريس شهرة، فأقبل الطلاب عليه من كل حدب وصوب، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثمئة طالب.

إلا أن الغزالي كانت تعتوره أزمات نفسية اشتدت عليه في ذلك الوقت حتى انه اعتزل التدريس في النظامية وخرج من بغداد فأقام سنتين متنقلاً بين دمشق وبيت المقدس وأدى فريضة الحج ٤٨٩ ــ ٤٩٠ (١٠٩٦ ــ ١٠٩٧) وعاد إلى بلاده لكنه لم يشتغل بالحياة العامة حتى سنة ٤٩٩ (١١٠٦) حيث التحق بنظامية نيسابور بناء على إلحاح فخرالملك بن نظام الملك، ولكنه لم يلبث في عمله سوى سنة وبعض السنة. ذلك بأنه بعد أن اغتال الإسماعيلية فخرالملك سنة ٥٠٠ (١١٠٦)، ترك الإمام الغزالي نيسابور وعاد إلى مسقط رأسه طوس حيث عاش حياة تأمل وتعليم إلى الإشراف على خانقاه (زاوية) للصوفية، حتى تغمده الله برحمته ٥٠٥ (١١١١).

لسنا نقصد في هذا المقال إلى التحدث عن الإمام الغزالي ومنزلته في عالم الفكر الإسلامي، فذلك أمر يحتاج إلى اكثر من مقال واحد. ولسنا ننوي حتى التحدث عن مؤلفاته الكثيرة ولو عرضاً. ولكننا نود أن نقف عند هذا الكتاب الصغير من كتبه الذي سماه «**المنقذ من الضلال**»، وتتمة الاسم هي: «**والموصل إلى ذي العزة والجلال**».

فما هو هذا الكتاب؟

يقرر الإمام الغزالي في فاتحة كتابه أن أخاً في الدين سأله أن يبث إليه «غاية العلوم وأسرارها وغائلة المذاهب وأغوارها» وأن يحكي له ما قاساه «في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق». والسائل المجهول، على ما يبدو من فاتحة المنقذ، كان يعرف أن الإمام الغزالي قد مرت به أزمات نفسية حادة، فقد طلب إليه أن يوضحها. أو لعلّ الغزالي نفسه وجد أنه لا يستطيع أن يوضح غاية العلوم وأسرارها ومقاساته في استخلاص الحق دون أن يبين، ولو بشكل مختصر، ما مر به من أزمات فتحدث عنها. ومع أن الغزالي لم يفصل الدقائق، فالواقع أن في الذي كتبه الكثير الكثير من النظرة العميقة الثاقبة بحيث أن

قراءة هذا الكتاب الصغير بعناية يضع بين أيدينا سيرة ذاتية عقلية روحية لهذا العقل النفـاذ. ولنقرر قبل كل شيء بضعة أمور توضـح لنا مراحل تفكير الغزالي على ما تبدو في المنقذ.

١ ــ ارتفع الغزالي عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار، وكان هذا في وقت مبكر في حياته.

٢ ــ انصرف عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ثم عاوده بنيسابور بعـد عشر سنوات ونيف.

٣ ــ لم يزل منذ عنفوان شبابـه وريعان عمره قبل بلوغ العشرين وهو يقتحم لجة هذا البحر (أي اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة والمذاهب، على كثرة الفرق وتباين الطرق) ويخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور.

٤ ــ إن هـذا استمـر إلى أن نيف عـلى الخمسين من عمره أي لما وضع كتاب المنقذ من الضلال وهو يدرس في نيسابور. ولعله في ذلك الوقت كان قد توصل إلى حقائق الإيمان، واطمأن نفسياً إلى ذلك.

٥ ــ إن التعطش إلى درك حقائق الأمور كان دأبه وديدنه غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلته لا باختياره وحيلته.

٦ ــ إنـه تفكر في نيتـه في التدريس (في بغداد) فوجدها انها غير صالحة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت.

٧ ــ هنا تردد ستة شهور في ترك التدريس والانقطاع عن الدنيا. وفي ذلك يقول:

«فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأوخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقـام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعـد الآن للآخـرة فمتى تستعـد؟ وإن لم تقطع الآن [هذه العلائق] فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: «هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعـة الزوال؛ فإن اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة».

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبيباً لقلوب المختلفـة [إلي]، فكان لا ينـطق لساني بكلمـة [واحدة] ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب: فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم (لي) لقمة؛ وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم».

٨ ــ فلما استقر رأيه وصدق عزمه فارق بغداد وفرق ما معه من المال، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال.

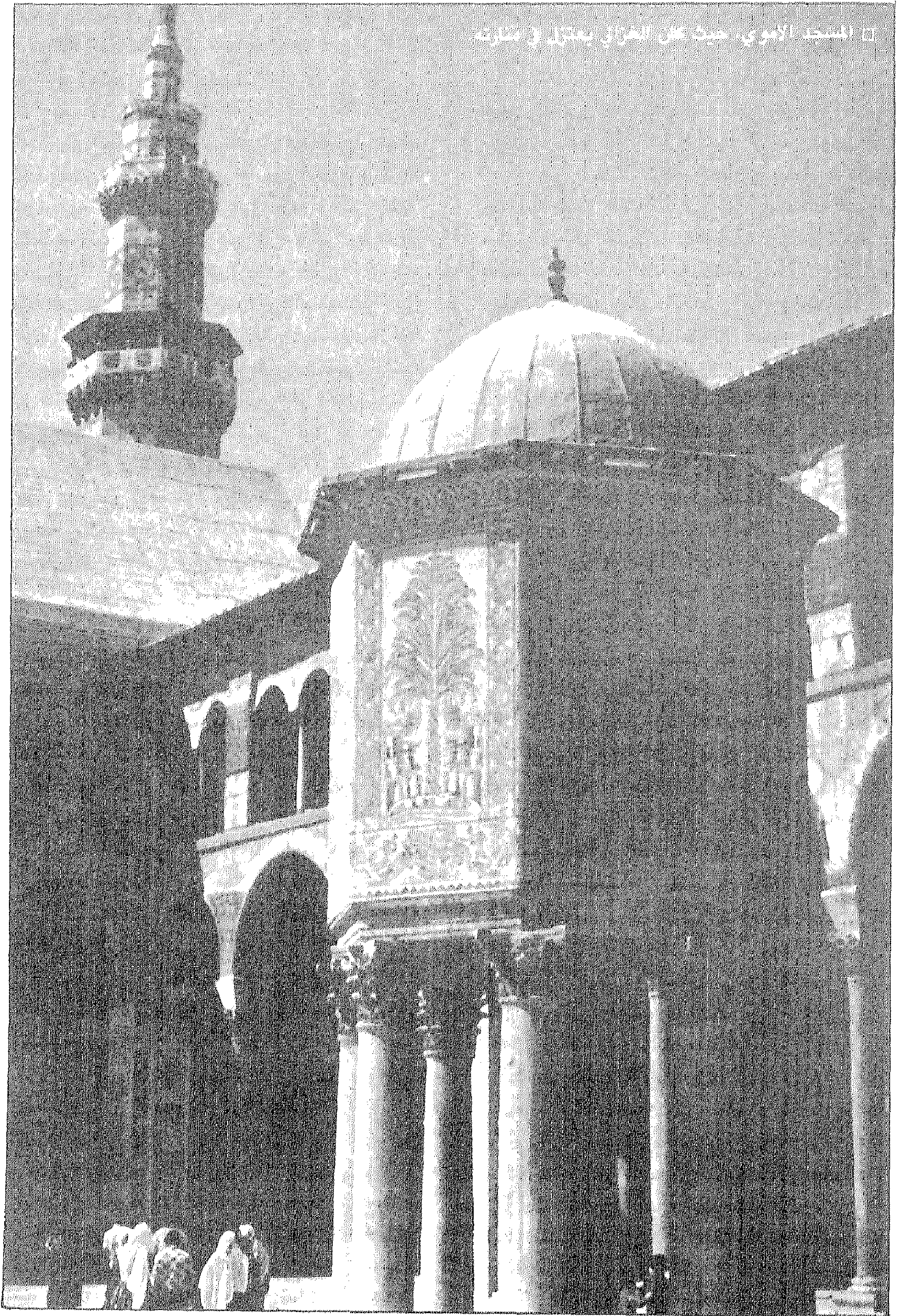
٩ ــ عندها دخل الشام وأقام قريبـاً من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة. فكان يعتكف مدة في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار ويغلق بابها على نفسه.

١٠ ــ وتحركت فيه داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركـات مكة والمـدينة وزيـارة رسول الله بعد الفراغ من زيارة الخليل فسار إلى الحجاز.

١١ ــ ثم جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعـاوده بعد أن كـان أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثر العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

١٢ ــ دام على ذلك عشر سنين ويزيد.

١٣ ــ ثم رأى أصناف الخلق قد ضعف


□ المسجد الأموي، حيث كان الغزالي يعتزل في منارته

إيمانهم، وجاء طلب داعية سلطان الوقت، أي فخرالملك، بالذهاب إلى نيسابور، فشاور في ذلك جماعة فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة فخرج من بغداد سنة ٤٩٩ (١١٠٦)، بعد عزلة استمرت إحدى عشرة سنة، إلى نيسابور. وهناك أخذ يدعو «إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه». ويقول الغزالي عن فترة التعليم بنيسابور «هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي... وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري. ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أخترم دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإني لم أتحرك لكنه حركني، وإني لم أعمل لكنه استعملني، فأسأله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي، ويهديني ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه».

والسؤال الذي يدور في خلد كل منا الآن — ما الذي انتهى إليه الغزالي بعد هذه الرحلة الروحية الطويلة التي دامت نيفاً وثلاثين سنة؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يتحتم علينا أن نسير مع الغزالي في المنقذ متابعين تفاصيل رحلته في مجالات العلم والمعرفة كما جربها واختبرها حتى خلص منها إلى النتيجة الحقيقة — الإيمان.

يلخص الغزالي أصناف الطالبين للمعرفة عنده في أربع فرق وهم:

١ — المتكلمون الذين يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢ — الباطنية الذين يزعمون بأنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ — الفلاسفة الذين يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ — الصوفية الذين يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة. وأخذ الغزالي نفسه بسلوك هذه الطرق ليتعرف إلى أصولها وأسسها ونظرتها ووجهتها. فما الذي وجده عند كل منها؟

وهذا الترتيب هو الترتيب الذي سار عليه الغزالي في محاولاته الفكرية. فقد كان من الطبيعي أن يبدأ بعلم الكلام، وهو أول ما عني بتناوله على أيدي إمام الحرمين ومن إليه. وعلم الكلام بما فيه من فقه وتقليد كان أول ما استخدمه الغزالي في السنوات التي اتصل فيها بنظام الملك قبل ذهابه للتدريس في نظامية بغداد. وقد وصف الغزالي علم الكلام بقوله:

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي... لما نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور (لا بقبول التقليد أو الإجماع فحسب)، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك (أي البحث عن الحقائق والجواهر) ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق.

في الوقت الذي كان فيه الغزالي يدرس العلوم الشرعية ويصنف فيها كان يختلس الأوقات في تحصيل الفلسفة من الكتب بدون استاذ، وصرف في ذلك ثلاث سنوات وقف خلالها على ما في الفلسفة من ضعف. ولسنا نزعم، ولا نحسب أن هناك من يزعم، أن الغزالي طوى صفحة الفلسفة بعد ذلك إلى لا رجعة. فما كان لرجل له عقل الغزالي الديناميكي اليقظ الفعال أن يقفل على ناحية من نواحي الحياة الفكرية الباب نهائياً.

والغزالي يعدد في المنقذ أصناف الفلاسفة وأقسام علومهم. ويرى أن الفلاسفة «على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه».

فما هي الزاوية التي نظر منها الغزالي إلى الفلاسفة والفلسفة حتى قال عنهم ما قال؟ الغزالي كان يجتاز أزمة فكرية روحية. لذلك كان يبحث عما يبعد الشك والتشكيك عن نفسه، ويزيل غشاوته عن عينيه وينير قلبه. وقد نظر إلى الفلاسفة من زاوية مطابقتها للعقيدة والإيمان. قد وجد:

١ — أن الفلاسفة (أو بعضهم على الأقل)

قد آمنوا بالله وصفاتـه ولكنهم جحدوا اليـوم الآخر.

٢ ــ وإنهم لم يقبلوا (في الأمـور الإلهية) بحشر الأجساد وقالوا بأن المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

٣ ــ وإنهم قالوا إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات.

٤ ــ وقالوا بقدم العالم وأزليته هذا تسوية بين الخالق والمخلوق.

وهذه الأمور المجملة هنا فصلها الغزالي في كتابه: «تهافت الفلاسفة».

والذي وصل إليه الغزالي من درس الفلسفة هو «أن العقل ليس مستقلاً بالإحـاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات».

بعد الفراغ من علم الفلسفة عنّ له أن يبحث عن مقـالات التعليمية أي الجمـاعة البـاطنية وخاصة الإسماعيلية. وقد اتفقت هذه الرغبة مع ورود «أمر جازم من الخلافة بتصنيف كتـاب يكشف عن حقيقة مذهبهم... فصار ذلك مستحثاً من خارج وضميمة للباعث الأصلي من الباطن». ويبـدو أن الغزالي شغـل الباطنيـة زمناً. فهم لم يكونوا كالفلاسفة اصحاب راي فحسب، بل كانوا كثرة من الناس لهم تعاليم وعقائد ومنظمات وكان لهم أيام البويهيين والحمدانيين شأن، كما انه في الوقت الذي كان فيه الغزالي يقارعهم الحجة كانت لهم في القاهرة خلافة قائمة. وقد صنف الغزالي في الرد على الباطنية ومقارعتهم الحجة خمسة كتب على الأقل هي: «المستظهري» و «حجة الحق» و «مفصل الخلاف» و «الدرج المرقوم بالجداول» و «القسطاس المستقيم». وإذا نحن أخذنا بما جاء في المنقذ، وهو الآن موضع اهتمامنا، فالنقطة الرئيسيـة التي حاجّ فيهـا الغزالي أهل التعليم هي موقفهم من نظرية الإمام المعصوم. وهو لا يقبل إلا بمعلم معصوم واحد هو محمد رسول الله. وانتهى الأمر بالغزالي، على حد تعبيره، إلى أن نفض اليد عنهم.

في كتبه المتعددة، سواء أكان يبني نـظرية او يقيم هيكلاً او يحاج فئة من الناس، كـان الغزالي يضع بين أيدي قرائه المخطط والبينات ويعرض التفاصيل ويبني ويشعر القارىء بذلك كله فيتعلم منه القارىء. لكن في المنقذ لم يكن الغزالي معلماً للتفاصيل، لذلك فإنه كان يتناول القضايا الأساسية لآرائه والقواعد التي تنبني عليها نظريات الآخرين التي نُقضها. ونلاحظ أن موقفه من علم الكلام والفلسفة والباطنية كان موقفاً سلبياً.

فماذا كان موقفه من الصوفية، كما عرضه في المنقذ؟

يختلف الأمر مع الصوفية بالنسبة للغزالي. فهو لم يتعرف إليهم ليبين أخطاءهم أو يرفض أمورهم. ذلك بأن الغزالي، على ما يقرر في المنقذ، لما هم بالتعرف إلى طرق الصوفية، وقرأ ما كتبوا، راى أن الأمر الأهم بالنسبة لهم هو العمل الذي يكتسب بالذوق والسلوك. واتجه إلى هذا يتعرف إليه واقعاً. ثانياً أنه كان قد حصل معه من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية «إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر». ويؤكد الغزالي أن هذه الأصـول الثلاثـة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسه لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها. ثالثاً: أنه كان يجتاز أزمته النفسية العنيفة التي مر بنا ذكرها.

وقد دخل التجربة الصـوفية وهـو في هذه الحالة. وأفاد من التجربة كثيـراً. فقد صفت تجـاربه واختبـاراتـه، وصفت معهـا حيـاتـه، واتضحت أهدافه وغاياته. ويذكر، توضيحاً لموقفه بعد الخلوة التي دامت نيفاً وعشر سنين، أموراً عن الصوفية يمكن تلخيصها في ما يلي:

١ ــ إن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعـالى، «فإن جميـع حركـاتهم وسكنـاتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نـور يستضاء به».

٢ ــ «إن طريقتهم هي استـغـراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله».

٣ ــ الخطأ في بعض الصوفيـة انهم قد ينتهي بهم الأمر بحيث يكادون يتخيلون الحلول والاتحاد والوصول. وهذه الطوائف على خطأ، وقد أبان الغزالي أخطاءها في كتاب «المقصـد الأسني».

٤ ــ بان للغزالي بالضرورة من ممارسة طرق الصوفية حقيقة النبوة وخاصيتها. وحري بالذكر أن الغزالي، بعد أن عرف هذه الصوفية الصحيحة ثابر على التمسك بها حتى آخر حياته. وكان أثره في رد التصوف إلى حظيرة النبوة كبيراً.

ونعود الآن إلى السؤال الذي سألناه قبلاً وهو «ما الذي انتهى إليه الغزالي بعد هذه الرحلة الروحية الطويلة التي دامت نيفاً وثلاثين سنة؟

والغزالي يجيب على هذا في المنقذ:

١ ــ «إن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى)، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال: (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك، وكان إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات، ونعني بالعوالم، أجناس الموجودات».

٢ ــ «وراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأموراً أخرى، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز».

٣ ــ إن الناس ضلوا السبيل واختلطت عليهم الأمور، وحتى جماعة من المتصوفة جرفهم التيار.

٤ ــ بانتهاء الأزمة النفسية وعودة الغزالي إلى الهدوء النسبي بسبب الإيمان الذي ملأ قلبه ونفسه، أخذ يفكر بالخروج من العزلة للتعليم والإصلاح. وفي ذلك يقول:

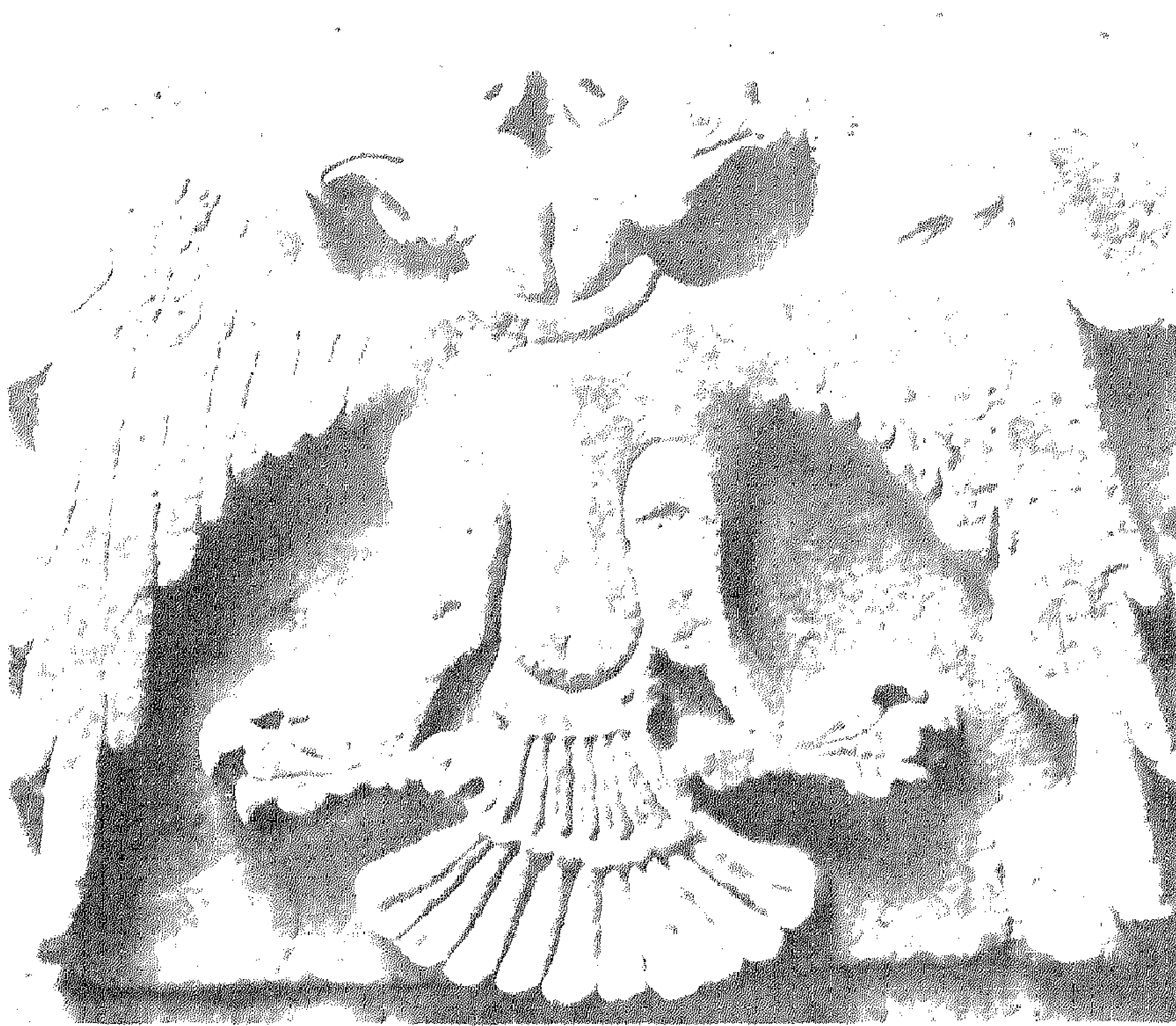
«فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ــ أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء ــ انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك، ثم قلت في نفسي: «متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادفة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، لو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟».

«فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة. فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج. فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة. وبلغ الإلزام حدا كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم: الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم) الآية. ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه: (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ويقول عز وجل: (بسم الله الرحمن الرحيم، يس. والقرآن الكريم) إلى قوله: (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب). فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية».

٥ ــ يصف الغزالي العالم الحقيقي، وكأنه يصف نفسه، بالعبارات التالية:

«إن العالم الحقيقي، لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً. إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك، وأن الآخرة خير من الدنيا. ومن عرف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى منه.

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس. فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقي، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات. وذلك لا يدل على



□ بعض آثارات السلاجقة، الذي حكموا أجزاء مختلفة من الامبراطورية الإسلامية (أواخر القرن الحادي عشر اواسط القرن الثاني عشر ميلادي).



ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتن تواب، وهو بعيد عن الإصرار والإكباب.

نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه».

للإمام الغزالي عدد كبير من الكتب، بعضها لا يزال مخطوطاً لا يعرفه الناس، والمنشور منها كثير. وهذا وحده ضخم. وكتب الغزالي ترمي في أكثرها أما إلى بناء نظرية أو توضيح خطأ. لكن كتاب «إحياء علوم الدين» هو كتاب الغزالي الذي يمكن اعتباره نظاماً فكرياً تاماً. والباحثون على أن نواة هذا الكتاب وضعت أثناء اعتكاف الإمام الغزالي في دمشق وبيت المقدس. إلا أن الكتاب يمثل عملاً ضخماً متواصلاً استمر سنوات طويلة.

أما «المنقذ من الضلال» فهو فريد في نوعه بين كتب الغزالي. إنه سيرة ذاتية عقلية روحية وسياحة داخلية في أعماق نفس الرجل أراد منها أن يبين كيف انتهى إليه بعد معاناة شاقة في آفاق التفكير والإيمان. وصفة الكتاب الأصلية في نظرنا هي الإخلاص. فالرجل لبى دعوة وجهت إليه وأجاب عن سؤال طرح عليه. ولما كتب المنقذ كان يضع نفسه وفكره وقلبه وعقله على المشرحة ويصف خلجات نفسه وخطرات فكره وصفاً صادقاً أميناً. على هذا يجب أن يقرأ المنقذ، وبمثل هذا يجب أن يفهم، وإلا فقد الكتاب قيمته الأصيلة الأصلية.

* * *

ونود أن ننقل، في خاتمة هذه العجالة، فقرة من مقال للدكتور إحسان عباس عن رحلة ابن العربي إلى المشرق والتقائه بالغزالي في بغداد سنة ٤٨٩ (١٠٩٦) لارتباط ذلك بما كان الغزالي يحس به في ذلك الوقت:

«وأما صلته [ابن العربي] بأبي حامد الغزالي فتمثل فرحة شاب بلغ الغاية التي كان يرجوها لنفسه، إذ أن ابن العربي على تقديره لجميع شيوخه الذين درس عليهم في مختلف الأقطار كان يرى للغزالي مكانة تسمو به فوقهم جميعاً، وعن هذه الفرحة يعبر بقوله: «فلما طلع لي ذلك النور، وتجلى لي ما كان يغشاني من الديجور، قلت: هذا مطلوبي حقاً، هذا بأمانة الله منتهى السالكين وغاية الطالبين للعلم المبين».

وقد عرض الغزالي ما درسه على غيره من الشيوخ، واهتدى برأيه في مسائل مختلفة، وكانت نفسه تجيش بالأسئلة جيشان القدر، فلم يجد ما يشفي غليله إلا عند أستاذه، وخاصة في الأمور الخلافية وفي مسائل عويصة مما يتحدث عنه المتكلمون والمتفلسفة. وفي الخزانة العامة بالرباط مخطوطة صغيرة تقع في ٢٧ ورقة كتب في أولها: «هذه أجوبة أسولة ابن العربي رضي الله عنه إذ سأل شيخه الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي نفعنا الله بهما، حذفت الأسولة وأثبتت الأجوبة لعذر مانع إلا سؤاله عن الروح وبه أبتدىء فأقول: «... وتعد هذه الرسالة نموذجاً لما كان يساور نفس ابن العربي من المشكلات. ومن أمثلة تلك الأسئلة: «الروح هل هو أجزاء نورانية بعدد المخلوقات أو جوهر روحاني يلقي إلى كل جسد من شعاعه كما تلقيه الشمس إلى من لم يحجب عنها؟.. السؤال الثاني: في الفرق بين الطيرة والفأل؟... السؤال الثامن: في حقيقة تمثل جبريل عليه السلام»... ما معنى قوله عليه السلام: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؟... الخ.

وفي معرض بعض الأجوبة قدم الغزالي لتلميذه ولمن كان على شاكلته شديد الظمأ إلى المعرفة هذه الوصايا:

١ ـ أن لا يطمع في الإجابة على كل ما يعترض في نفسه لأن ذلك طمع في غير مطمع وإن يتلو قوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

٢ ـ أن لا يكذب برهان العقل فإن العقل لا يكذب إذ به عرفنا الشرع.

٣ ـ أن يكف عن تعيين التأويل عند تعرض الاحتمال فإن الحكم على مراد الله تعالى ومراد رسوله بالظن والتخمين خطر.

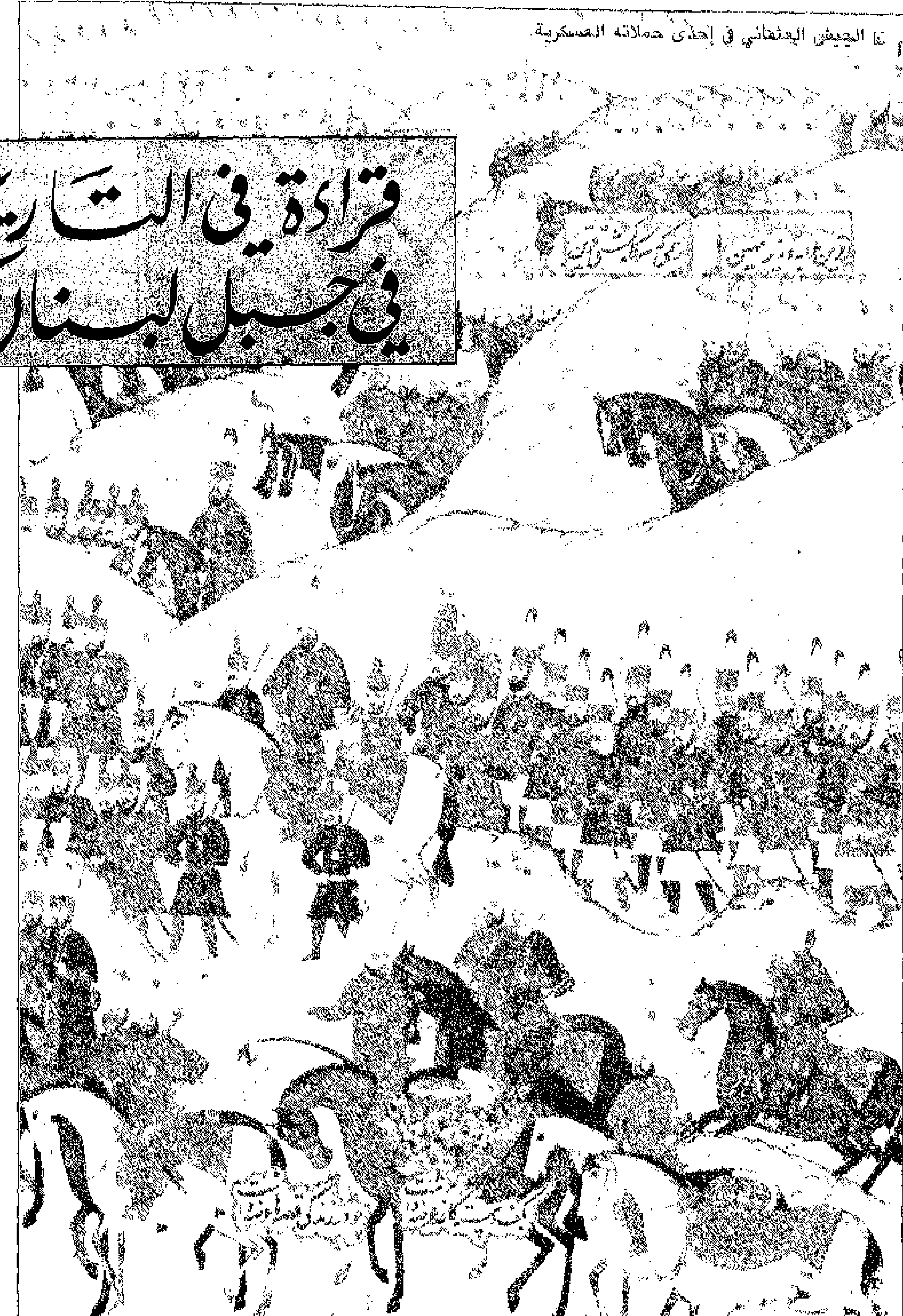
وكان أبو بكر ابن العربي يأخذ نفسه في معاملته لأستاذه الأكبر ببعض الشروط التي وضعها من بعد وسماها «شروط التعليم»، وهي سبعة: الإخلاص والتواضع للمعلم حتى لو تحقق خطؤه وعدم مخالفة المعلم فيما يشير به وعدم



□ كان عصر الغزالي عصر ازدهار التصوف.

الخوض في العلوم دفعة بل الانتقال من علم أهم إلى علم مهم والتذكر لما حفظ والعمل بما تعلمه، وقد أشار عليه الغزالي ذات مرة بالإعراض عن بعض مؤلفاته، ولكنه خالف هذه الوصية فنظر في كتاب «معيار العلم» ثم أدركه خجل شديد عندما اطلع استاذه على هذه المخالفة، قال حاكياً قصته: «ثم نظرت في كتاب المعيار فأعجبني فاستحسنته، وجئت إليه وعلى كمي كراسة منه فقال لي: ما معك؟ فاستحييت ودفعته إليه، فقرأه ملياً، وأنا أسارقه النظر، وأرفض عرقاً، ثم دفعه إلي وقال: كتاب حسن ولكن لا تغتر بمخالفتنا فيه».

وأتاحت له صلته بالغزالي أن يدرس الفلسفة وعلوم الأوائل جملة، وهو يشعرنا بأنه شديد الاعتزاز إذ تلقى تلك الدراسة على أستاذ حجة فيها فيقول: «يعلم الله وتشهد لي كتبي ومسائلي وكلامي مع الفرق بأني جد بصير بأغراض القوم ومقاصدهم، فإن معلمي كان فحلاً من فحولهم عظيماً من عظمائهم»، غير أن هذا لا يعني أنه قبل كل رأي لأستاذه، ولكن شرط التواضع مع المعلم جعله يلزم جانب الاحتشام معه: «وتا لله إني كنت محتشماً له غير راض عنه وقد رددت عليه فيما أمكن واحتشمت جانبه في ما تيسر»●



الجيش العثماني في إحدى حملاته العسكرية

قراءة في التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ - ١٨٤١

إعداد: د. حسين سلمان سليمان

يبدو أن مطالبتنا من على صفحات الصحف بضرورة إعادة كتابة تاريخ لبنان الحديث، خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني لبلاد الشام، لكي نتمكن من إعطاء صورة واضحة عن تاريخ بلادنا خلال هذه القرون الثلاثة، التي شهدت حكم الامارتين المعنية والشهابية، هذه الدعوة بدأت تعطي ثمارها الفعلية نتيجة الجهد الذي بذله السفير الدكتور عادل إسماعيل وشقيقه الدكتور منير إسماعيل، بنشرهما الجانب الأكبر من الوثائق الفرنسية. وتجاوباً مع هذه الحاجة، أصدر زميلنا د. مسعود ضاهر دراسة بعنوان «الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية»، كما صدرت أخيراً دراسة للزميل د. عباس أبو صالح بعنوان «التاريخ السياسي للامارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ ــ ١٨٤٢». ويبدو جلياً دور «الوثائق الدبلوماسية»، من خلال مراجعة هوامش الدراستين المذكورتين، وسوف نستعرض بإيجاز لأهم الموضوعات التي تعرض لها د. عباس أبو صالح، ثم نقدم بعدها بعض الملاحظات.

بعد الفتح العثماني لبلاد الشام، وجدت السلطات العثمانية أن مصلحتها تقضي بعدم التعرض للزعامات المحلية في تلك البلاد، فأقرت هؤلاء الزعماء حكاماً في مقاطعاتهم، لكي تضمن تأديتهم الضرائب المفروضة على بلادهم للخزينة، وقد طبق هذا النظام على بعض المقاطعات اللبنانية التي كان يحكمها الأمراء المعنيون مباشرة، لا سيما بلاد الشوف، وتوابعها التي أصبحت تدعى منذ القرن السابع عشر، بلاد الدروز أو إمارة جبل الدروز أو جبل ابن معن.

ولقد اتخذ منصب الإمارة في المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المعني، شكلاً من أشكال السلطة السياسية وفق تقاليد معينة ذات صلة بنظام إقطاع الأرض والالتزام الذي كان سائداً في بلاد الشام خلال العهد العثماني، ولم يتغير هذا النظام عندما ورث الشهابيون حكم الإمارة المعنية في أواخر القرن السابع عشر. فقد شملت الإمارة الشهابية معظم المقاطعات التي كان يحكمها الأمراء المعنيون لا سيما منطقة جبل الدروز، وقد عرف الأمير الشهابي الحاكم في مختلف المصادر المحلية والأجنبية بأمير الدروز.

أما من حيث نظام الحكم فقد كان يوجد منصبان رئيسيان في الامارة الشهابية، الأمير الحاكم والمقاطعجي، فالأمير الشهابي الحاكم الذي يتولى السلطة السياسية العليا في الإمارة يسمى الحاكم، وكان الباب العالي العثماني يصدر فرمان تعيينه في هذه المرحلة باسم حاكم

جبل الدروز وكسروان، وكان يتم تنصيبه عادة باسم السلطان العثماني عن طريق والي صيدا، وكانت مدة ولايته سنة واحدة قابلة للتجديد. ويدير الأمير الحاكم شؤون التزامه بحسب العرف والتقاليد وليس بحسب أنظمة وقوانين، ولم يكن هناك تميز رسمي بين المقاطعجيين من حيث الحقوق والامتيازات، بل كان هنالك تميز من حيث اللقب والبروتوكول ومقدار النفوذ.

وشكلت العائلات المقاطعجية الهيكل الأساسي للإمارة الشهابية، فالمقاطعجي يمثل عادة عائلة كلها مقاطعجيون يسيطرون على الأرض باسم السلطان، ويتلقون كل أشكال الدعم من الوالي او السلطة المركزية. فهم يجبون الضرائب وعلى الفلاحين العمل بالأرض وتقديم الضرائب المفروضة عليهم.

وكان السلطان يعتبر المالك الشرعي الوحيد للأرض، أما الباقون من أصحاب السلطة فقد كانوا يمارسون عليها حق التصرف، ولقد احتفظ المقاطعجيون بحق الاستمرار في جباية الضرائب على مقاطعاتهم طالما ظل باستطاعتهم تأدية الضرائب عنها لخزينة السلطنة، وقد ساعد هذا الإجراء المقاطعجيين في مرحلة تفكك السلطنة على تملك القسم الأكبر من تلك الأراضي. وإذا ما تذكرنا بأن المقاطعجي كان ينتمي إلى أسرة جميع أفرادها مقاطعجيون بالوراثة، عرفنا كيف أن عائلة معينة استطاعت أن تفرض سلطتها على منطقة معينة لقرون عدة أحياناً.

وكانت الطبقية عرفاً سائداً في الإمارة الشهابية، فالناس غير متساوين، فهم إما من طبقة المقاطعجية على مختلف درجاتها أو من العامة. وهذا الترتيب الاجتماعي ينطبق على مختلف الطوائف الدينية في الإمارة، فكان هناك مقاطعجيون من مختلف الطوائف كما أن طبقة العامة شملت مختلف الطوائف أيضاً. ولم يكن الولاء السياسي قائماً على أساس مذهبي طائفي، بل بحسب الفئات السياسية، فالولاء السياسي للمقاطعجي أولاً سواء كان من هذا المذهب أو ذاك، والذي كان يتبع المقاطعجي كان يتمتع بحق رعاية الأخير وحمايته. ثم أن ولاء الفرد لم يقتصر في مرحلة لاحقة على المقاطعجي وأسرته، بل تجاوزه في ما بعد إلى الحزب، الغرضية بتعبير ذلك العصر — الذي ينتمي إليه الاثنان، أي أن يكون الفرد يزبكياً أو جنبلاطياً أو نكدياً، وهذه الفرضية كانت تشمل جميع الطوائف.

وينفرد د. أبو صالح عن جميع الذين أرَّخوا هذه المرحلة التاريخية، بأن الانقسام اليزبكي — الجنبلاطي له جذوره في العهد المعني، ولكنه ظهر إلى العلن بعيد موقعة عين داره عام ١٧١١ في عهد الأمير حيدر الشهابي بالذات، وبأن الأمير ملحم عمل على إذكاء هذا الانقسام بين المقاطعجيين الدروز بالدرجة الأولى، وذلك من أجل تثبيت أركان الحكم الشهابي في الإمارة. ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذا الانقسام السياسي لم يقتصر على المقاطعجيين الدروز فيما بعد، بل امتد ليشمل سائر الطوائف في الإمارة ومنهم الموارنة. وبأن الانقسام إلى يزبكي وجنبلاطي أضعف بشكل عام موقف هؤلاء المقاطعجيين تجاه الأمير الحاكم. وقضت التقاليد والأعراف الاقطاعية على أفراد الأسرة الشهابية الحاكمة أن لا يتحزبوا لأي من الحزبين لأنهم أمراء، بل يجب أن تميل إليهم إحدى الفئتين أو الاثنان معاً. أما مشايخ النكدية فقد كانوا يقفون على الحياد، ولكنهم كانوا أحياناً — يميلون إلى أحد الحزبين فيرجحون كفة على أخرى.

وكان على الأمير الشهابي الحاكم إزاء هذا الوضع أن يعتمد في بعض الأحيان على إحدى الفئتين لدعم سياسته في الداخل، وعلى الإثنتين معاً للوقوف في وجه الخطر الخارجي. وكثيراً ما استغل أمراء آل شهاب هذا الانقسام السياسي (يزبكي — جنبلاطي)، لتأليب بعض المقاطعجيين ضد البعض الآخر وأحياناً ضد الأمير الحاكم نفسه. وإذا استتب السلم في الداخل تدخل ولاة صيدا وطرابلس ودمشق من الخارج وأيقظوا الفتن من جديد، فكانت تلك المؤامرات والفتن تصرف الأمير الحاكم عن الاهتمام بشؤون البلاد الملزمة له وعمرانها، وتشغله بكيفية إخضاع العصاة والتخلص من المناوئين والمعارضين له في السلطة.

فقد شهد عهد الأمير يوسف ملحم الشهابي صراعاً عنيفاً بين الأمير وأخويه سيد أحمد

وأفندي، ثم بينه وبين كبار المقاطعجيين الدروز وقام مدبر[١] الأمير يوسف الشيخ سعد الخوري بدور أساسي في تأجيج ذلك الصراع، معززاً بذلك سلطة المدبر وما أخذ يمثله على الصعيد الماروني في الحكم، وبتأثير من الشيخ سعد الخوري دشن الأمير يوسف سياسة تعزيز دور الموارنة الاقتصادي والسياسي في الإمارة على حساب المقاطعجيين الدروز، ويمكن اعتبار ضريبة الشاشية[٢] التي فرضها الأمير على عقال الدروز، رمزاً لسياسة التحيز والتحدي الطائفيين، التي اتبعها الأمير يوسف بوحي من مدبره الشيخ سعد، لقد أثارت تلك الضريبة نقمة عارمة بين الدروز كافة من الحزبين اليزبكي والجنبلاطي ضد سياسة الأمير يوسف الضرائبية، كما أدت سياسة البطش والتنكيل التي اتبعها الأمير تجاه خصومه من الأمراء الشهابيين وتجاه بعض المقاطعجيين الدروز إلى إضعاف موقع الأمير السياسي وزوال سلطانه.

ولم يكن القضاء على الأمير يوسف الشهابي نهاية الصراع على السلطة داخل الإمارة الشهابية، بل إن ذلك الصراع ما لبث أن احتدم من جديد بين الأمير بشير قاسم والأميرين حيدر ملحم وقعدان محمد الشهابيين، ثم بعد أن عجز الأخيران عن الإمساك بزمام السلطة، تسلم الحكم بعدهما ولدا الأمير يوسف حسين وسعد الدين. وانقسم أعيان الإمارة بين مؤيد للأمير بشير ومعارض له. لكن هذا الانقسام السياسي بين أعيان الإمارة لم يكن مصدره الوحيد الصراع على السلطة بين الأمراء الشهابيين، أو بين هؤلاء وباقي أعيان الإمارة وجلهم من كبار الاقطاعيين الدروز، بل كان أيضاً نتيجة لتدخل الوالي العثماني المشهور أحمد باشا الجزار في شؤون الامارة الداخلية، وإذكاء الأخير لهذا الصراع بغية الابتزاز المالي والسياسي. إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن تدخل الجزار هذا، لم يكن ليبلغ درجة الخطورة لولا طغيان شهوة السلطة والحكم لدى بعض الأمراء الشهابيين من جهة، ولولا انسياق كبار المقاطعجيين الدروز إلى حلبة الصراع بغية إحراز بعض المكاسب السياسية من جهة ثانية.

ومنذ بداية عهد الأمير بشير وقف مشايخ النكدية إلى جانب خصومه، كما تحالف مشايخ آل عماد مع النكدية، أما مشايخ الجنبلاطية فقد كانوا من مؤيدي الأمير بشير، وتحالف معهم بعض الأمراء اللمعيين. وقد أظهر النكديون عام ١٧٩١ مقاومة عنيفة للقوات التي أرسلها أحمد باشا الجزار، لقمع حركة التمرد الشعبية التي قامت في مختلف أنحاء الإمارة احتجاجاً على سياسة الأمير بشير التعسفية لجمع الأموال التي فرضها الجزار. ولا شك أن إجماع أعيان الإمارة على مقاومة الجزار وأعوانه هو أمر بعيد الدلالة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمارة، إذ كانت بمثابة تمرد على الظلم والطغيان وتحد سافر لأحد أقوى الولاة العثمانيين آنذاك، إلا أن هذا التمرد لم يبلغ درجة المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية، بل كان عبارة عن مطلب داخلي يقضي أولاً برفض الأمير بشير الشهابي حاكماً على بلاد الدروز.

وكانت خطة الجزار في تعامله مع الإمارة الشهابية ترمي إلى نصرة فريق ضد الآخر، فإذا ما خسر أحد الفرقاء المعركة يلجأ لطلب مساعدة الجزار، وكثيراً ما ينجده مقابل مبلغ كبير من المال، وبعد أن يستنفد أموال الفريق الحاكم، يلجأ إلى دعم فريق آخر لابتزاز أموال جديدة. ولعل هذه السياسة تفسر ظاهرة استمرار الصراع داخل الإمارة الشهابية طيلة حكم الجزار في ولاية صيدا (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤). وقلما نجح حكام الشهابيون طيلة هذه المدة في توحيد كلمتهم، ليقفوا صفاً واحداً في وجه طغيان الجزار، أو في وجه تدخله في شؤون الإمارة، بل كثيراً ما عمد الحاكم الشهابي للاقتصاص من أعيان خصومه في الداخل بدل أن يوجه جهوده للتصدي لمظالم الجزار. وما أن يصل خصمه إلى السلطة بدعم من الجزار نفسه، حتى يلجأ إلى الأخذ بالثأر ويقتص من الفريق الآخر.

لكن الذي دفع ثمن ذلك التناحر سياسياً ومادياً، هم بالدرجة الأولى مناصب الدروز ورعاياهم من مختلف الفئات، ذلك أن أعيان الدروز كانوا لا يزالون يملكون معظم الأراضي ضمن حدود الإمارة، فكان من الطبيعي أن يتحملوا العبء الأكبر في تأدية الأموال التي فرضها الجزار ثمناً لخلع التزام جبل الدروز على



□ محمد علي باشا في اجتماع مع الكولونيل كامبل وبعض المهندسين الفرنسيين.

الأمراء الشهابيين. وعبثاً حاول بعض الأعيان التمنع عن دفع تلك الأموال، أو على وضع حد لتنافس كل من الأمير بشير وأولاد الأمير يوسف الذين حاولوا استرضاء الجزار عن طريق دفع مزيد من المال مقابل بقائهما في سدة الحكم. والأسوأ من هذا كله أن كلاً من الفريقين لم يتورع عن الاستعانة بقوات الجزار لفرض نفسه على الفريق الآخر، مما كان يؤدي إلى خراب القرى وبوار المواسم، الأمر الذي أدى إلى إضعاف بنية الإمارة السياسية، حتى أنه لما قدم نابليون بونابرت في حملته الشهيرة على مصر وبلاد الشام، لم يتمكن أعيان الإمارة من اتخاذ موقف موحد منها.

وتعتبر وفاة الجزار عام ١٨٠٤ بداية الطريق الذي سلكها الأمير بشير للتخلص من معارضيه والمنافسين له على السلطة والنفوذ، خصوصاً أولئك الذين أجبروه أكثر من مرة للتخلي عن كرسي الحكم خلال عهد الجزار، وعلى رأس هؤلاء أبناء الأمير يوسف الشهابي ومدبراهما عبدالأحد وجرجس باز ثم زعماء الحزب اليزبكي. وكان جرجس باز قد أصبح من كبار رجال السياسة في عهد الأمير بشير، ويحظى بتأييد واسع بين معارضي الأمير ولا سيما اتباع الحزب اليزبكي، كما حظي بدعم الكنيسة المارونية ورهبانيتها، وكان هو المتصرف بكل شؤون جبيل وشمالي لبنان، في حين كان أبناء الأمير يوسف يحكمون بالاسم. فأثارت هذه المكانة خشية الأمير بشير من أن يتآمر عليه الاخوان باز لإيصال أبناء الأمير يوسف إلى سدة الحكم، فتخلص منهما بالاتفاق مع شقيقه الأمير حسن. ولما كان العرف والتقليد لا يسمحان بقتل أبناء الأمير يوسف نظراً لأنهما سبق أن تولوا سدة حكم الإمارة، فقد أمر الأمير بشير بسمل أعينهم وفرض عليهم الإقامة الجبرية ومنعهم من الزواج، فصفا الجو له إثر هذه الحادثة وهابه الجميع. واستأثر بالسلطة والنفوذ طوال عهد والي صيدا سليمان باشا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩)، دون أن يجرؤ أحد من معارضيه ومنافسيه على

طلب التزام جبل الدروز، بل كان حريصاً على إجهاض أي تحرك يحاك ضده بمساعدة حليفه الشيخ بشير جنبلاط.

وبوفاة سليمان باشا عام ١٨١٩ خلفه في ولاية صيدا عبدالله باشا، فلم يكن من مصلحته أن يكون الحكام التابعون له من القوة والنفوذ ما كان للأمير بشير، ولهذا عمد إلى إضعاف الأمير، فاتبع لفترة من الزمن سياسة ابتزاز نحو الإمارة الشهابية. واستقبل الباشا في عكا القوى السياسية المعارضة للأمير في جبل الدروز، التي كان قد أنزل بها الأخير البطش والتنكيل ومصادرة الممتلكات، وخشية من عودة معارضيه إلى السلطة رضخ الأمير لمطالب عبدالله باشا حتى ولو كانت ستؤدي إلى إيقاع الظلم على الرعية، فأمر بجباية الأموال الأميرية قبل أوانها، ونجح الدروز برفع هذه الضريبة عن كاهلهم، فوقع العبء على كاهل عامة النصارى، فاجتمعوا في انطلياس واتفقوا أن لا يؤدوا الضرائب المفروضة عليهم إلا مرة واحدة، ولعب الأكليروس الماروني دوراً بارزاً في تنظيم وتوجيه الحركة الفلاحية في الإمارة، كما شجعهم عبدالله باشا على التمرد بالإيعاز لهم بعدم دفع الضرائب إلا مرة واحدة. فاضطر الأمير بشير إلى التخلي عن الحكم وسار برفقة حليفه الشيخ بشير جنبلاط إلى حوران، فأحال عبدالله باشا التزام جبل الدروز إلى الأميرين حسن وسلمان الشهابيين، مقابل تعهدهما بدفع الأموال المطلوبة.

وما أصاب الأمير بشير في جمع المال المطلوب لوالي صيدا، أصاب الأميرين الحاكمين حسن وسلمان، إذ عجزا بدورهما عن تأمين المبلغ الذي تعهدا بدفعه إلى عبدالله باشا، فاتفقا مع زعماء الحزب اليزبكي ومشايخ آل نكد للسعي من أجل التفاهم مع الأمير بشير وحليفه الشيخ بشير جنبلاط واستفاد الأمير بشير من درس عامية انطلياس، فعزل وكلاء عامية[3] انطلياس عن حلفائهم مناصب المتن والشوف وكسروان، ففرض ضرائب غير اعتيادية على أهالي مقاطعتي جبيل وكسروان، لكن الأهالي تمنعوا عن دفع أكثر من الضريبة الاعتيادية وأعلنوا العصيان في لحفد، وجرت مناوشات بينهم وبين قوات الأمير بشير، أسفرت عن هزيمة قوات العامية وتشتتها أمام زعماء الاقطاع ورجالهم.

وساند الأمير بشير والي صيدا عبدالله باشا في الصراع السياسي الذي نشب عام ١٨٢٢ بين الأخير ووالي دمشق درويش باشا، وأحرزا نصراً عسكرياً في المزه سرعان ما انقلب إلى خسارة سياسية عليهما، بحيث اضطر الأمير بشير إلى مغادرة البلاد إلى مصر، وخلفه في الحكم الأمير عباس الشهابي مقابل مئة ألف غرش تعهد بدفعها الشيخ بشير جنبلاط، الذي أصبح الحاكم الفعلي والمتصرف بكل شؤون جبل الدروز، في حين لم يكن الأمير عباس الشهابي حاكماً إلا بالاسم.

وبعد أن أمضى الأمير بشير ما يقارب السنة في مصر، كان خلالها موضع التكريم من قبل محمد علي باشا، عاد إلى جبل الدروز وفي نيته أن يكون دون منازع صاحب السلطة المطلقة في الجبل، ولم يكن ذلك ممكناً دون التخلص من الشيخ بشير جنبلاط، الذي كان يشاركه في مظاهر السلطة والنفوذ في جبل الدروز. فباشر بتطبيق الخطة التي اعتاد سلوكها عند القضاء على خصومه السياسيين، عن طريق استنزاف هؤلاء الخصوم مادياً وإفقارهم، بحيث يصبحون عاجزين عن تأمين ما تتطلبه مكانتهم الاجتماعية من موارد مالية، ففضل الشيخ بشير الرحيل مع بعض الأمراء الأرسلانيين إلى حوران. واستفاد الأمير بشير من غياب الشيخ لتعويض المصاريف الباهظة التي تكبدها أثناء فراره إلى مصر، أو تلك التي أنفقها من أجل عودته إلى منصبه، ففرض ضرائب باهظة على مقاطعات التزامه، بحيث جعلها تدفع إحدى عشرة مرة ما اعتادت أن تدفعه مرة واحدة. مما جعل أعيان الجبل يدركون أن غياب الشيخ بشير جنبلاط هو الذي ساعد الأمير بشير على التصرف بحرية، فتكاتلت كل القوى المستاءة في جبهة واحدة مناوئة للأمير الحاكم، بهدف إسقاطه والتخلص من ضرائبه وتسلطه. وبنتيجة المساعدة العسكرية التي أمنها عبدالله باشا للأمير بشير، تمكن الأمير بشير من الانتصار على خصومه، وانتهى الشيخ بشير شنقاً في عكا عام ١٨٢٥، بإيعاز من محمد علي الذي ألح عليه

الأمير بشير بأن يضغط على عبدالله باشا لتنفيذ ذلك.

وخلا الجو السياسي للأمير بشير بعد القضاء على كبير منافسيه الشيخ بشير جنبلاط، مما مكنه من القضاء على جميع معارضيه ومنافسيه داخل الإمارة، وأصبح صاحب السلطة المطلقة بعد أن تمت له السيطرة على مقدرات أعيان الدروز تدريجياً. ابتداء من تصفية زعماء آل نكد مروراً بالأرسلانيين والعماديين والتلاحقة والملكيين وانتهاء بالجنبلاطيين. ولا شك أن نجاح الأمير بشير في تحطيم الزعامة الدرزية قد ساهم في القضاء على تفوق الدروز السياسي والاقتصادي في جبل الدروز، وأفسح في المجال أمام القوى الأخرى خاصة المارونية منها لتحل مكان الدروز، ولكن تلك القوى الجديدة لم تكن حتى ذلك الحين في موقع المنافس له، بقدر ما كانت في موقع الخضوع له، مما جعله صاحب الكلمة العليا في الإمارة.

وبقضاء الأمير بشير على نخبة من المقاطعجيين الدروز بمساعدة والي مصر، صار مديناً للأخير وخسر في الوقت نفسه قوة رئيسية كانت تشد أزره في الماضي لمواجهة أي تهديد خارجي. فحين فشلت جهود محمد علي إقناع الباب العالي بإحالة بلاد الشام إليه، وجه حملة عام ١٨٣١ لاحتلالها بالقوة منذراً الأمير بشير بالانضمام إلى الحملة وإلا تعرضت منطقة الجبل للخراب والدمار، ولم يكن بإمكان الأمير مواجهة التحدي لأنه سبق وقضى على نخبة من المقاطعجيين الدروز بمساعدة والي مصر.

لكن الإجراءات العسكرية والاقتصادية التي اتخذها إبراهيم باشا في بلاد الشام، أدت إلى قيام عدة ثورات واضطرابات ضد حكمه عام ١٨٣٤، لكنه تمكن من إخمادها نتيجة المساعدات الهامة التي قدمها له اللبنانيون فباشر بتجريد الدروز من السلاح تحت التهديد، ثم ما لبث أن باشر بتجريد النصارى أيضاً خلافاً لتعهده. وحين رفض الدروز التطوع في الجندية خشية الاختلاط بباقي العساكر من غير ملتهم، أمر إبراهيم باشا بتشكيل فرق كاملة من هؤلاء الدروز.

وتحول جبل حوران ملجأ للفارين من التجنيد وللثائرين على الحكم المصري وللهاربين من ثقل الضرائب وللنازحين من مناطق الثورة في فلسطين. ومنع دروز حوران دخول القوات المصرية إلى المنطقة، واستجاب دروز وادي التيم إلى استغاثة أخوانهم في حوران وأعلنوا العصيان على الحكم المصري، كما التحق بالثوار دروز الشوف. واتخذ الأمير بشير قراراً بالتدخل العسكري ضد ثورة الدروز، ووافق على طلب إبراهيم باشا تجنيد شبان من النصارى للقتال ضد الثورة الدرزية، فكرّس الأمير بعمله هذا الانقسام السياسي في الإمارة ولأول مرة على أساس طائفي مذهبي، وزرع بذلك بذوراً للفتن الأهلية الطائفية التي نشبت في لبنان ما بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠، لكن تحركات الجيش العثماني على الحدود الشمالية، أجبرت إبراهيم باشا على التساهل مع دروز جبل حوران كما تساهل مع دروز وادي التيم من قبلهم.

وبانتصار محمد علي على القوات العثمانية في موقعة نزب (نصيبين) في منتصف عام ١٨٣٩، وجدت الدول الأوروبية (بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا)، أن انهيار الدولة العثمانية من شأنه أن يهدد مصالحها. وجميع هذه الدول باستثناء فرنسا كانت ترغب بإنهاء حكم محمد علي في بلاد الشام وإرجاع السيطرة العثمانية عليها، فباشرت بريطانيا تهيئة الأجواء الملائمة للثورة على الحكم المصري ليس في لبنان فحسب، بل في سائر أنحاء بلاد الشام. وسرعان ما انطلقت شرارة الثورة وعمت المناطق الساحلية والجبلية اللبنانية، وطالب الثوار عدم تجريدهم من السلاح وعدم تجنيدهم وإبطال أعمال السخرة ودفع ضريبة الفردة على الأحياء فقط، وتصلب الثوار في مواقفهم نتيجة الدعم الذي كانوا يتلقونه من الدول الأوروبية، حتى أن الحكومة البريطانية وزعت خمسة آلاف قطعة سلاح في مطلع عام ١٨٤٠، لكن الأمير بشير تمكن بمساعدة القوات المصرية من إخماد العصيان.

وفي حين كانت فرنسا تؤكد للبطريرك الماروني وللأمير بشير أنها لن تتخلى عن حماية الموارنة، ولكنها لا ترضى بأعمال الشغب التي يقوم بها بعض الموارنة ضد حكومة محمد علي تمكن

الانجليز من إقناع البطريرك والأكليروس الماروني بحث رعاياهم على عصيان الحكم المصري وتلقي السلاح من القوات العثمانية. وبإيعاز من بريطانيا أصدر الباب العالي العثماني أمراً بعزل الأمير بشير الشهابي الثاني وتعيين نسيبه بشير الثالث حاكماً على جبل الدروز، في وقت تمكنت خلاله القوات الأوروبية من السيطرة على المناطق اللبنانية، وتم لها إجلاء القوات المصرية عنها.

وهكذا انتهى عهد الأمير بشير الثاني الذي دام نحو نصف قرن، بعد أن أصيبت طبقة المقاطعجيين تدريجياً بالضعف نتيجة انقسامها السياسي وتناحرها مع بعضها البعض، أو مع الأمير بشير، وبرزت في الوقت نفسه اقتصادياً ثم سياسياً قوى جديدة. وبدا أن هذا التحول السياسي كان لصالح الأسرة الشهابية الحاكمة أولاً، ثم لصالح القوى الصاعدة بين الموارنة ثانياً.

فنتيجة للنقص في الأيدي العاملة الدرزية، استقدم المقاطعجيون الدروز مهاجرين جددا جلهم من الموارنة للعمل في أملاكهم، مما أدى إلى تحسن دخل اليد العاملة المسيحية، كما تحسن دخل المقاطعجيين الدروز مرحلياً من جهة ثانية. لكن الدور الاقتصادي لهؤلاء النصارى في المناطق الدرزية، أخذ يتعاظم بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث ظهرت المؤسسات الرهبانية الكاثوليكية كأكبر قوة اقتصادية منتجة في جبل الدروز، لكنها كانت في هذه المرحلة قليلة النفوذ على الصعيد السياسي.

ونتيجة الامتيازات التي تمتع بها بعض السكان المحليين من المنتمين إلى الطوائف الكاثوليكية بالذات ممن عملوا كوسطاء أو وكلاء للتجار الأوروبيين، تمكن بعضهم من جني أرباح طائلة، ساعدتهم على اكتساب مواقع اجتماعية وسياسية على حساب المقاطعجيين من مختلف الطوائف، فصاروا يقدمون القروض للمزارعين لقاء شراء محاصيلهم الزراعية وخاصة الحرير، وكثيراً ما اضطر المقاطعجيون إلى رهن مواسمهم لهؤلاء التجار المحليين مقابل الاستدانة منهم، وإذا لم يستطع المقاطعجي تسديد ديونه للتاجر يلجأ الأخير لوضع يده على أملاك المقاطعجي. فازداد غنى الطوائف الكاثوليكية جزئياً على حساب الدروز، والذين كانوا فلاحين لدى مقاطعجيي الدروز قبل عام ١٨٢٠، أصبحوا في نهاية عهد الأمير بشير الثاني مقرضين أموالهم لهؤلاء المقاطعجيين أو لأبنائهم.

ولقد استغرقت عملية التردي الاقتصادي والسياسي للمقاطعجيين الدروز زمناً طويلاً، ولكن تبلورت بشكل خاص خلال عهد الأمير بشير الثاني، فسياسة التغريم والانتقام التي طبقها الأمير في العقد الذي سبق حملة إبراهيم باشا، ثم سياسة المصادرة والتغريم والتشريد والنفي والتجنيد التي طبقها إبراهيم باشا على الدروز انتقاماً لثورتهم ضده في جبل حوران، أرهقت الدروز اقتصادياً وأضعفتهم سياسياً، وأحل بشير الشهابي مكانهم قوى جديدة من الطوائف الكاثوليكية بشكل عام والموارنة بشكل خاص. وفيما كانت طبقة العامة لدى هذه القوى الأخيرة تتقدم بشكل مضطرد على طريق البحبوحة والغنى والنفوذ السياسي في الإمارة الشهابية برعاية الكنيسة وتخطيطها، فإن عامة الدروز لم تستطع أن تستفد من تلك التحولات إسوة بعامة الموارنة. ذلك أن ارتباط الدروز العميق بالمقاطعجيين الدروز من جهة وعدم توفر مؤسسات دينية أو غير دينية من جهة ثانية قادرة على النهوض بتلك الفئة تركتها عرضة للانهيار أسوة بطبقة المقاطعجيين.

وفيما كانت الكنيسة المارونية ترسخ نفوذها السياسي بين عامة الموارنة، وتقضي بذلك تدريجياً على سلطة المقاطعجيين الموارنة، كان التحالف القائم بين الأمير بشير الثاني والشيخ بشير جنبلاط يقضي تدريجياً على نفوذ مختلف الأعيان في الإمارة، وبدأت تتمحور الزعامة الدرزية في يد الشيخ بشير، فضلاً عما بقي لهذا الأخير من سلطة ونفوذ على سائر رعايا المناطق التي كانت بحوزته، ونتيجة لهذا التحالف بين البشيرين، فإن الكنيسة لم تبد رغبتها في تأييد الأمير بشير، ولكن بعد أن وقع الخلاف بين البشيرين، كشفت الكنيسة المارونية عن استعدادها لدعم الأمير بشير، متوخية بذلك ملء الفراغ السياسي الناجم عن تضعضع سلطة المقاطعجيين الدروز. وبانتصار الأمير على الشيخ والقضاء عليه

والاقتصاص من محازبيه، كانت بمثابة ضربة للزعامة الدرزية في الإمارة، مما شرع الباب لدخول الأكليروس الماروني إلى قلب النظام السياسي في الإمارة الشهابية، فقد شدد الأمير بشير من قبضته على مختلف الأعيان، وفقد المؤيدون منهم للشيخ بشير جنبلاط ممتلكاتهم لتصبح بيد أولاد الأمير وأقربائه. وكان لا بد للأمير من أن يعتمد على قوة بديلة، فإذا بالكنيسة المارونية المتحررة من سلطة المقاطعجيين تصبح القوة البديلة وربما الوحيدة.

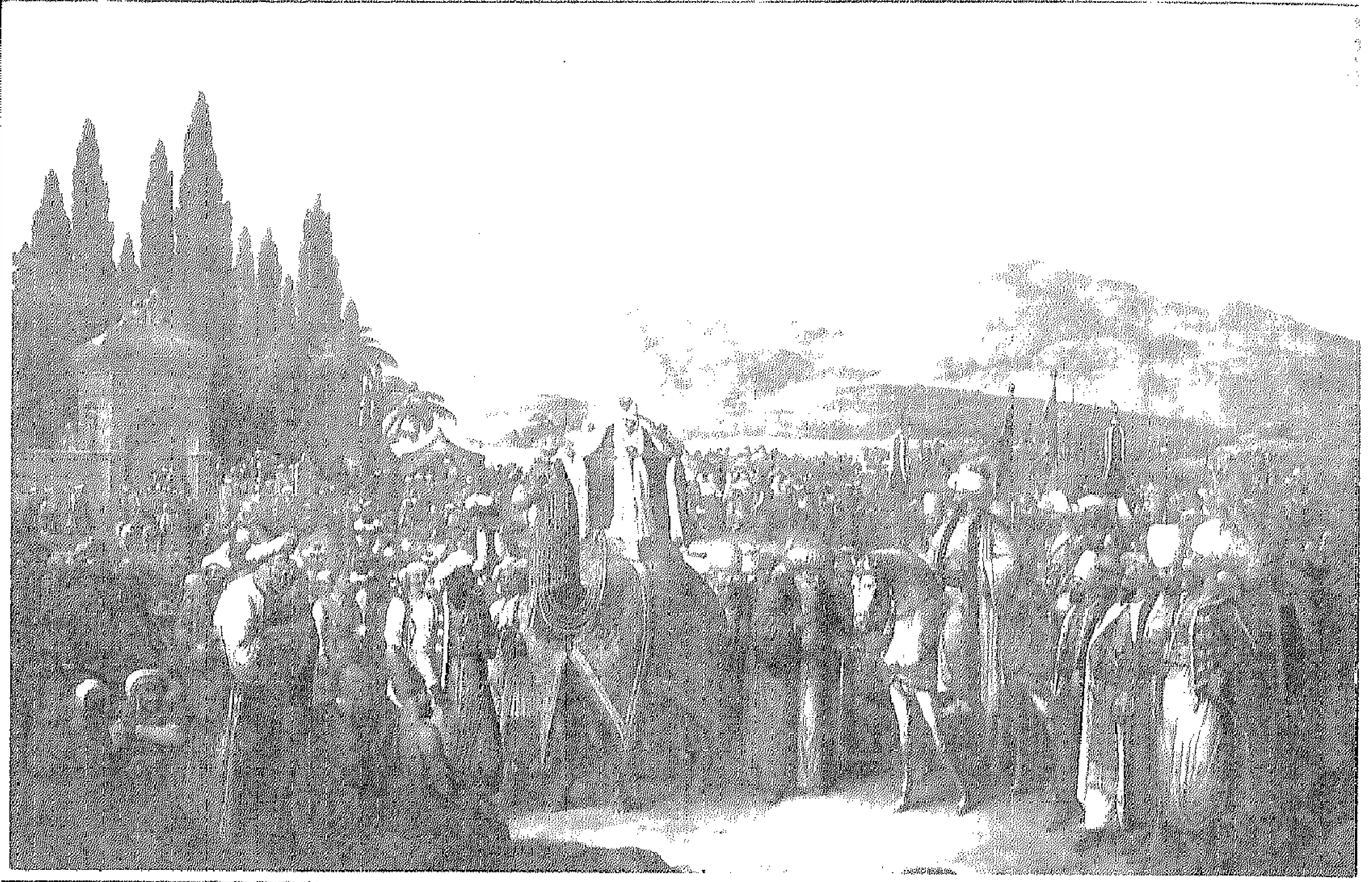
واستغلت الكنيسة بالتواطؤ مع الأمير بشير فرصة الضغط العسكري المصري على الدروز، وكذلك غياب زعماء الدروز في المنفى لتعزيز نفوذها السياسي في أوساط الموارنة ولا سيما في المناطق الدرزية، وعملت أولاً على تحطيم تلك العلاقات التي كانت قائمة بين الموارنة ومناصب الدروز خاصة السياسية والاجتماعية منها. وقد تمثلت هذه السياسة بإعداد قوات مارونية صرفة، لتحارب إلى جانب إبراهيم باشا الثائرين الدروز في وادي التيم، مما يعني أن سياسة الكنيسة المارونية هذه ساهمت عملياً في دفع تلك العلاقات من مرحلة التحالف العضوي إلى مرحلة الانفصال والخصام بين الدروز والموارنة. إلا أن هذا الفرز السياسي على أساس طائفي، لم يكن إلا خطوة تمهيدية اتخذتها الكنيسة نحو هدفها الأبعد في تحويل طابع الإمارة الشهابية اللاطائفي، إلى إمارة مارونية يحكمها أمير شهابي ماروني ولا يكون فيها للدروز أعيان تذكر.

ونجحت الكنيسة المارونية في قيادة الموارنة سواء أكانوا من العامة أم من المقاطعجيين، ونجحت بتقليص الفروقات الطبقية بين هؤلاء، كما نجحت من خلال ذلك بتفكيك تلك العلاقة (الطبقية) التي كانت قائمة بين الفلاحين الموارنة والمقاطعجيين الدروز من جهة، وبين المقاطعجيين الدروز والمقاطعجيين الموارنة من جهة ثانية، لقد نجحت عملية الفرز هذه على أساس طائفي، ودفعت الفلاحين الدروز إلى التحالف مع مقاطعجيي طائفتهم، وذلك كردة فعل دفاعية للوحدة التي أقامتها الكنيسة بين فلاحي ومقاطعجيي الموارنة. وأفرزت هذه التحالفات صراعاً سياسياً واجتماعياً من نوع جديد، هو الصراع الطائفي الذي كان أشد خطراً على مصير الإمارة من أي صراع مضى.

وفي مطلع عهد بشير الشهابي الثالث شعر المقاطعجيون الدروز أن الكنيسة المارونية تسعى فعلاً لإبعادهم عن مركز السلطة في الإمارة، وأن بشيراً الثالث متواطىء مع هذه السياسة، ولهذا سعوا إلى إجبار الأمير على التخلي عن الحكم أو إعادة سلطتهم ونفوذهم، لكن تحقيق أي من الغايتين لم يكن ممكناً إلا من خلال إقامة تحالف مع أقرانهم من النصارى، لكن البطريرك يوسف حبيش سارع إلى قطع هذه الطريق.

ووجدت القنصليات الأجنبية في هذا الانقسام السياسي الحاد فرصة للتدخل، فتنافست كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا للحصول على مركز نفوذ لها في المنطقة، عن طريق استغلال الانقسامات المذهبية والطائفية فيها. فقام الأب ريلو اليسوعي يستحث الموارنة الثورة على غرار اليونانيين وللمطالبة بوطن قومي لهم، في حين فشل القنصل البريطاني في محاولته إقامة علاقات وثيقة مع الأكليروس الماروني، فتقربت بريطانيا من بعض أعيان الدروز وتعهدت لهؤلاء باستعادة أملاكهم المغتصبة في عهد بشير الثاني، فيما تعهد أعيان الدروز بالمقابل بتسهيل مهمة المرسلين الإنجيليين في أنحاء الجبل.

وهكذا أتخذ الانقسام السياسي الحاد بين الدروز والموارنة طابعاً طائفياً، وقام التحريض الخارجي بدوره في تصلب المواقف وشحن النفوس بالحقد والبغضاء، حتى أصبح الصدام المسلح أمراً متوقعاً لإشعال نار الفتنة. فتأزم الوضع السياسي في العديد من المناطق، وصمم مناصب الدروز على التخلص من حكم بشير الثالث وإعادة حقوقهم وامتيازاتهم في الإمارة الشهابية، في حين ظل الموارنة بزعامة كنيستهم متمسكين بموقفهم المتصلب إزاء بقاء الحكم بيد أمير شهابي ماروني، وقرروا عدم التراجع عن هدفهم في تسلم زمام السلطة في الجبل، كما رفضوا التنازل عن أية مكتسبات جديدة حصلوا عليها إبان حكم بشير الثاني. فانتشر جو الاضطراب والقلاقل في الجبل، ووقعت في أواخر عام ١٨٤١ عدة حوادث دامية بين الطرفين



□ الأمير بشير الشهابي الثاني، يقدم ولاءه لإبراهيم باشا.

اتخذت طابعاً طائفياً، واستغل الباب العالي العثماني هذا الوضع للتدخل ووضع حد لاستقلال الإمارة الداخلي كما كان في العهدين المعني والشهابي، فاستدعى بشير الثالث إلى بيروت وأمره بالذهاب إلى الآستانة، فكان هذا الحدث نهاية الحكم الشهابي في الجبل وبداية الحكم العثماني المباشر.

ومن خلال مراجعتنا لهذه الدراسة برزت لنا مجموعة من الملاحظات سوف نحاول أن نشير إليها في إطار خطين رئيسيين.

ـ الخط الأول ـ

إبراز النواحي الإيجابية والسلبية في هذه الدراسة

ـ يسجل الدكتور أبو صالح بأن دراسته هي الوحيدة في تاريخ لبنان الحديث التي رصدت سعي أمراء آل شهاب لتدمير الزعامات الدرزية، وإيجاد قوى محلية أخرى من الطوائف الكاثوليكية بشكل عام والموارنة بشكل خاص لتحل مكان الدروز. والدور الذي لعبته الكنيسة المارونية للتحرر من سلطة المقاطعجيين الموارنة، وتمكنها من قيادة الموارنة سواء أكانوا من العامة أم من المقاطعجيين، ونجاحها في تفكيك العلاقة الطبقية التي كانت بين الفلاحين الموارنة والمقاطعجيين الموارنة من جهة ثانية.

ـ توقف الباحث عند عدد من المحطات التاريخية وقدم لنا تحليلاً موضوعياً موثقاً.

ـ تناول الباحث فترة زمنية تغطي القرن والنصف القرن تقريباً، وكنا نفضل لو اقتصر بحثه على فترة زمنية أقصر، لكان تمكن من تقديم بحث ذي فائدة أعم وأشمل للمكتبة التاريخية.

ـ اعتمد بشكل رئيسي في جمع المادة التاريخية على حيدر الشهابي وطنوس الشدياق ومجموعة د. عادل إسماعيل، ولكنه لم يستخدم هذه المصادر استخداماً مفيداً، كما أهمل العديد من المصادر والمراجع، إلى جانب رسائل جامعية أخرى منشورة، رغم أنها وردت في قائمة المصادر والمراجع.

ـ أهمل د. أبو صالح تحديد التأريخ الزمني لكثير من الموضوعات التي تعرض لها، كما غاب التسلسل التاريخي لكثير من الأحداث التاريخية.

ـ الخط الثاني ـ

إبراز النقاط التاريخية التي نتفق أو نختلف مع د. أبو صالح حولها

نتفق مع الباحث بأن اقتتال عين دارة الذي جرى عام ١٧١١، إنما هو نتيجة صراع حزبي بين القيسية واليمنية، وليس وفقاً لما أشار إليه البعض عن رغبة أعيان الدروز تعيين أمير درزي بدلاً من الأمير حيدر الشهابي السني المذهب[٤]. ذلك أن الإمارة الشهابية لم تشهد صراعاً درزياً سنياً، وإنما صراع حزبي قيسي ـ يمني، ثم تحول بعد القضاء على الحزب اليمني إلى صراع يزبكي ـ جنبلاطي.

نتفق مع الباحث أيضاً في أن الأمير يوسف الشهابي، كان أول أمير شهابي يعتنق المسيحية على المذهب الماروني، فمن يكون مربيه سعد الخوري الشخصية الأولى في الطائفة المارونية، والذي تربطه مراسلات ومودة مع الفاتيكان وملك فرنسا[٥] وصاحب السلطة الحقيقية في جبل الدروز معظم سنوات الربع الثالث من القرن الثامن عشر[٦]، من يكن لدى مربيه هذه الصفات لا يمكن أن يبقى على الدين الإسلامي، ومما يرجح هذا الرأي عندنا، رسالة بعث بها الأمير المذكور بتاريخ ٧ أيار ١٧٧٤ إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر (١٧٧٤ ـ ١٧٩١) وجاء فيها:

«جبل لبنان كون لا يخل ولا محل من وجود المسيحية، واغلب المعاطاة بيدهم، ومعهم ايضاً جملة طوايف وملل وغيرهم من عباد الله، محسودين منهم نظر إلى ميلنا الأكثر إليهم، كوننا ممارسين المساعدة لهم في جميع الأمور...»[٧].

وإذا كنا نتفق مع د. أبو صالح في هذين الموضوعين، فإننا في الواقع نختلف معه في كثير من الموضوعات الواردة في مؤلفه، فلقد وقع في مجموعة من الأخطاء التاريخية، سوف نحاول أن نصححها له على ضوء المصادر التاريخية، بغية التماس حدود الكمال في هذه الدراسة، إذا فكر في إعادة نشرها مرة ثانية في المستقبل.

ـ لا أدري لما أطلق د. أبو صالح على الكتاب عنواناً «التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ ـ ١٨٤١»، علماً أن تعبير «جبل لبنان» كان يطلق على المقاطعات اللبنانية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون)، ولم يستعمل العثمانيون هذا التعبير في مراسلاتهم السياسية مع أمراء الشهابيين، لأن الاسم لم يكن متداولاً إلا بين الموارنة، الذين لم يكن لهم كيان سياسي خلال الفتح العثماني، بعكس الدروز الذين عرف أمراؤهم كقادة سياسيين في غرب سوريا[٨]. في حين أطلق اسم جبل الدروز أو جبل الشوف على البلاد التي تشكل نصف دائرة طرفها الأول شمالاً في جبيل والثاني في صيدا[٩]. وعرفت بهذا الاسم على الصعيدين الشعبي والرسمي[١٠]، ومع ازدياد هجرة الموارنة من المقاطعات الشمالية إلى جبل الدروز، شاع منذ نهاية القرن الثامن عشر استعمال عبارة جبل لبنان[١١]. أما رسائل التنصيب المرسلة إلى الأمراء الشهابيين، فكانت توجه إلى جبل الشوف أو جبل الدروز، وظل هذا الأسلوب سائداً حتى أواخر حكم الشهابيين سنة ١٨٤١، ففي تلك السنة، صدر فرمان إلى الأمير بشير الشهابي الثالث، بصفته أميراً على قبائل الدروز[١٢]. ولذا كان يستحسن أن يطلق على الكتاب عنوان، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل الدروز، طالما أن الدراسة بمجملها، تدور حول التاريخ السياسي لهذه المنطقة.

ـ **ورد في الصفحة (د)** من المقدمة أن د. عادل إسماعيل لم ينشر جميع الوثائق وإنما نشر بعضها مجتزأً، لا أدري لما لم يكلف المؤلف نفسه مشقة العودة إلى الوثائق الأصلية في مراكز تواجدها في باريس، بحيث يقوم بجمع المادة العلمية مما لم ينشر منها.

ـ **وفي موضوع الفتح العثماني** لبلاد الشام عام ١٥١٦ جاء في المقطع الثالث من ص ١٥ بأن الأمير فخرالدين المعني كان ضمن الأمراء المحليين الذين انحازوا إلى معسكر السلطان سليم العثماني إبان موقعة مرج دابق، لكن هناك دراسة للدكتور كمال الصليبي نشرت عام ١٩٧٣، بشير فيها إلى أن الأمير المذكور قد توفي في ربيع ثاني ٩١٢هـ (آب ـ أيلول) ١٥٠٦[١٣]، أي قبل عشر سنوات من معركة

مرج دابق، فنشير عليكم بالعودة إليها وتصحيح معلوماتكم في الطبعات القادمة.

ــ وفي موضوع الصراع على الانفراد بمنصب أمير جبل الدروز، الذي نشب بين الأميرين أحمد ومنصور، فقد ورد في ص ٨٤ أن الأمير يوسف وقف إلى جانب عمه الأمير أحمد. وأشار د. أبو صالح بأنه لا يعلم السبب الذي دفع الأمير يوسف إلى اتخاذ هذا الموقف، وبأن جل ما يعرفه أن موقفه هذا اضطره إلى ترك دير القمر عاصمة الإمارة الشهابية، وذلك عندما دخلها الأمير منصور لمحاربة أخيه الأمير أحمد.

ــ نميل إلى الاعتقاد بأن سبب وقوف الأمير يوسف إلى جانب عمه الأمير أحمد، إنما كان بسبب استياء الأمير يوسف من عمه الأمير منصور الذي كان قد وعد بتزويجه ابنته أسما، ثم عاد وأخلف في وعده وزوجها إلى الأمير قاسم عمر الشهابي رغبة في استمالته، لأن الأخير كان يسعى بمساعدة الأمير ملحم الشهابي إلى خلع عميه الأميرين أحمد ومنصور عن التزام جبل الدروز، وأشار إلى ذلك المؤرخ شيبان الخازن[١٤] بقوله.

«زوجه ابنته التي كان أعطى بها قول الأمير يوسف لأجل ضم الأمير قاسم...».

كما أن الأمير يوسف لم يغادر دير القمر مباشرة عند دخول الأمير منصور، وإنما غادرها بعد ذلك بوقت طويل، فالأمير منصور دخل دير القمر في شهر أيار ١٧٦٣، في حين فرَّ الأمير يوسف من الجبل في عام ١٧٦٤ حين أمن له الشيخ بشير جنبلاط حكم المقاطعات الشمالية[١٥].

ــ الفصل الرابع من الدراسة وعنوانها: «الأمير يوسف والولايات المجاورة» كانت معالجته سطحية للغاية، أعتقد لو أنك عدت إلى ما كتبه د. عبد الكريم[١٦] رافق ود. محمد[١٧] رفعت رمضان وأمنون[١٨] كوهين ولوزينيان[١٩] وادوارد لمكروي[٢٠]، لو عاد المؤلف إلى هؤلاء المؤرخين، لتوفرت لديه مادة علمية مكنته من معالجة الموضوع بصورة أفضل.

ــ وفي موضوع حملة أبو الذهب الثانية على بلاد الشام جاء في ص ١١٢، بأن الأمير يوسف خشي من شر أبي الذهب لأنه سبق للأمير أن سار إلى الشام لمحاربته يوم قدمها سنة ١٧٧٠.

ورد في هذه الفقرة خطآن تاريخيان، الأول: أن أبا الذهب لم يأت لاحتلال الشام عام ١٧٧٠، وإنما في عام ١٧٧١، حين تمكن من هزيمة والي دمشق عثمان باشا الكرجي في معركة داريا يوم الاثنين الواقع في ٩ صفر ١١٨٥/ ٧ حزيران ١٧٧١، وفي هذه الحملة كان أبو الذهب متمرداً على السلطة العثمانية، ينفذ أوامر سيده علي بك الكبير، وقد انسحب من دمشق يوم الثلاثاء ٥ ربيع أول ١١٨٥/ ١٨ حزيران ١٧٧١[٢١].

أما من حيث سير الأمير يوسف إلى بلاد الشام لمحاربة أبي الذهب فهذا لم يحصل بتاتاً، حتى ولو ذهب فإن أبا الذهب كان عاصياً أثناء هذه الحملة على السلطة العثمانية، في حين أنه كان في أثناء حملته الثانية منفذاً لأوامر السلطان العثماني، علماً بأن الأمير يوسف رفض تلبية استغاثة والي صيدا درويش بن عثمان باشا الكرجي، حين أشيع في الخامس والعشرين من أيار عام ١٧٧١ بأن قوات المماليك والعامليين سوف تقوم بمهاجمة المدينة[٢٢]. وبعد هزيمة عثمان باشا الكرجي في معركة داريا، فرَّ إلى حمص ووجه من هناك آغا اليرلية[٢٣] يوسف بن حبري إلى جبل الدروز، لاستنهاض الأمير يوسف لمساعدته، بجمع ما يستطيع من مقاتلي الجبل والقدوم عليه بسرعة لقتال أبي الذهب. لكن الأمير أخذ يتمهل في تعبئة أنصاره منتظراً لمن سيكون الظفر في نهاية الصراع السياسي الدائر على السيادة في بلاد الشام. ولم يستطع حمل الدروز على مغادرة جبلهم والانضواء تحت لواء الجيش العثماني، لأنهم كانوا يأبون خوض غمار حرب تدور رحاها خارج بلادهم[٢٤].

ــ وفي موضوع حملة والي الشام لتدمير ضاهر العمر الوارد في الصفحة ١١٣ المقطع الثاني «لقتال والي عكا ــ أي ضاهر العمر ــ بعد حملة أبي الذهب حاول الأمير يوسف أن ينجد عثمان باشا بأربعين ألفاً من رجاله».

ورد هنا ثلاثة أخطاء تاريخية، **الأول:** أن عكا لم تكن مركز ولاية خلال هذه الفترة وإنما كانت تابعة لولاية صيدا، كما أن ضاهر العمر لم يكن

والياً وإنما مقاطعجي يلتزم الجباية للدولة العثمانية. **أما الثاني**: فهو أن الأمير يوسف لم يستطع إغاثة والي دمشق لأن عصبيات جبل الدروز كانت متنافرة فيما بينها، بعضها موال للأمير يوسف والبعض الآخر موالٍ للأمير منصور[٢٥]. **ثالثاً**: لا أدري كيف تصور د. أبو صالح أنه كان بإمكان الأمير يوسف أن يجمع أربعين ألف مقاتل، علماً أنه في تلك الفترة الزمنية قدر الرحالة فرنسوا[٢٦] فولني عدد سكان جبل الدروز بحوالي ١٢٠,٠٠٠ نسمة، فهل من المعقول أن يكون لدى الأمير يوسف ٤٠,٠٠٠ مقاتل؟

ـ وورد في ص ١١٦ المقطع الثاني، عن وفاة والي الشام عثمان باشا الكرجي وبأن خليفته كان يدعى عثمان باشا المصري.

ورد هنا خطآن تاريخيان:

أولاً: لم يتوف عثمان باشا الكرجي عام ١٧٧١، لكن الهزائم المتتالية التي مني بها على أيدي حزب المتمردين في بلاد الشام، دفعت السلطات العثمانية إلى إصدار فرمان بتاريخ ١٣ رجب ١١٨٥/ ٢٢ ت١ ١٧٧١، يقضي بنقله من ولاية دمشق إلى قونيه، وعينت بدلاً عنه محمد باشا العظم[٢٧].

ثانياً: لم يشغل عثمان باشا المصري منصب والي دمشق إنما عين بتاريخ ١٤ رمضان ١١٨٥هـ/ ٣١ك١ ١٧٧١ بمنصب «سر عسكر» عربستان، أي قائد الجيوش العثمانية في بلاد الشام. كما أسندت إليه في الوقت نفسه ولاية مصر، ولهذا السبب أطلق عليه لقب المصري، في حين يرد اسمه في بعض الحوليات باسم عثمان باشا الوكيل، لأنه كان وكيل السلطان أثناء التفاوض مع ضاهر العمر بشأن الصلح، ولم يعين هذا الباشا مطلقاً والياً على دمشق[٢٨].

ـ وفي موضوع العفو عن ضاهر العمر، ورد في المقطع الثاني من الصفحة ١١٩ بأن الأمير يوسف الشهابي هو الذي أوصى والي دمشق عثمان باشا طلب العفو من الباب العالي.

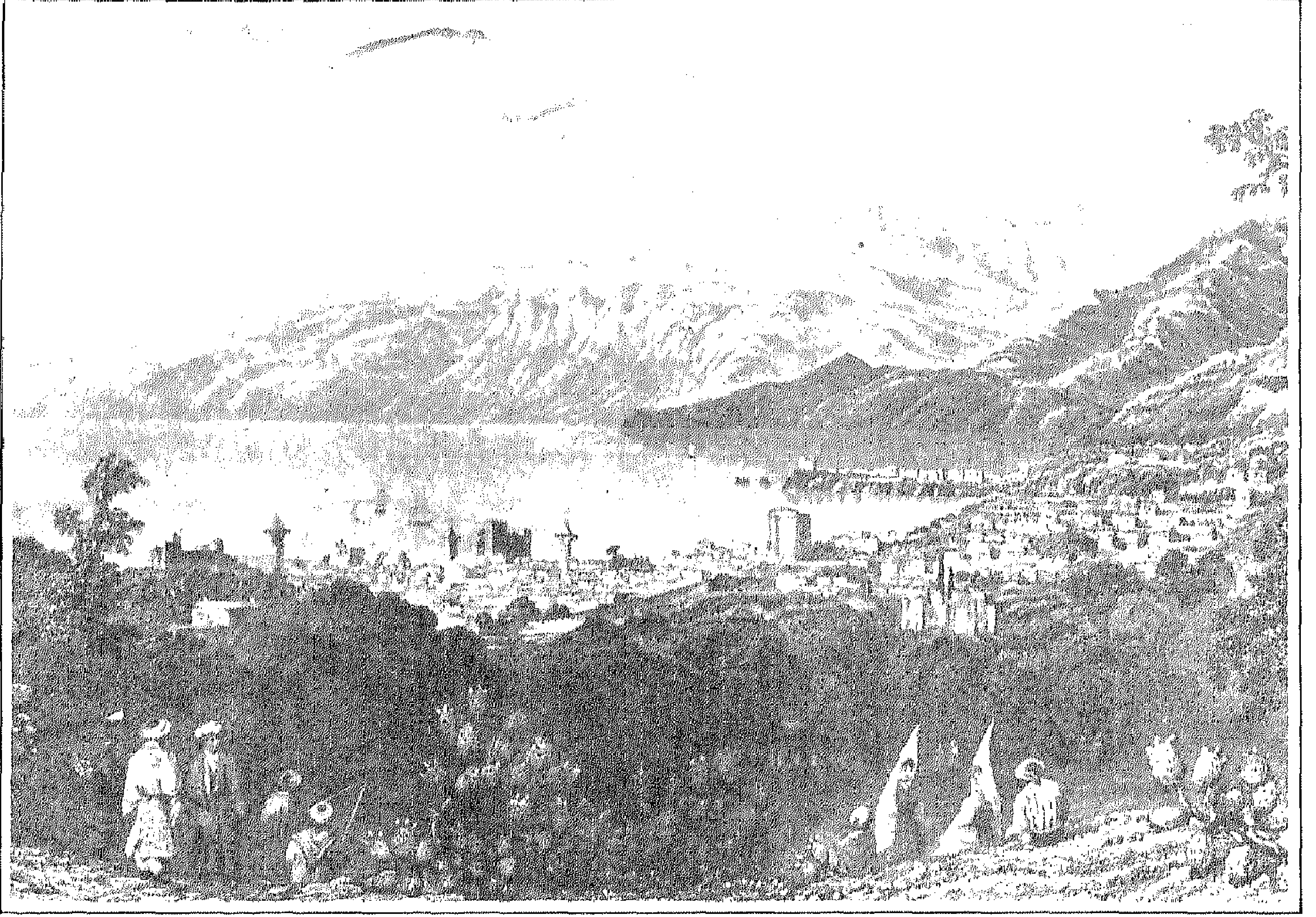
أولاً: سبق وأشرنا بأن عثمان باشا المصري لم يكن والياً على الشام.

ثانياً: لم يكن بإمكان الأمير يوسف أن يطلب من سلطات دمشق مساعدة الشيخ ضاهر العمر بالحصول على عفو له من الباب العالي، لأن تمنع السلطات المذكورة عن مساعدة الأمير على إنهاء تمرد الجزار في بيروت، اضطره إلى التعاون مع ضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل عامل في سبيل هذه الغاية، وبذلك أصبح الأمير يوسف حليفاً للمتمردين على السلطة العثمانية في بلاد الشام.

ثالثاً: تجمعت عوامل مشتركة لدى سلطات دمشق وضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل‌عامل، جعلتهم يميلون إلى ضرورة التوصل إلى حل للصراع الدموي الذي كانت تشهده بلاد الشام في ذلك الحين، فنجحت وساطة حاكم صور الشيخ قبلان وأحد أعيان دمشق يدعى حسين أفندي، فتم التوصل إلى اتفاق بين عثمان باشا المصري (سر عسكر) عربستان ووكيل السلطان من جهة، وضاهر العمر ومشايخ جبل عامل من جهة أخرى، فأذيع في دمشق في ٢٩ ك٢ ١٧٧٤ بيان يعلن عفو السلطان العثماني عن ضاهر العمر[٢٩].

ـ وفي موضوع هزيمة والي الشام في البقاع، جاء في الصفحة ١٢٠ بأن حنق الوالي المذكور على الأمراء الشهابيين إنما كان بسبب نهب الأمير سيد أحمد ملحم الشهابي لقافلة تحمل بضائع إلى تجار دمشق، وتسويف الأمير يوسف كلما طالبه الوالي في إعادة المسروقات وتأديب ناهبيها، مما دفع الأخير إلى تجهيز حملة لتأديب الناهبين، فاستنجد الأمير يوسف بضاهر وحلفائه مشايخ جبل عامل الذين أنجدوه وتصدوا لحملة والي الشام في البقاع.

أشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة إلى هذه الحادثة وأرّخت تطوراتها يومياً بخلاف ما ورد أعلاه، أن السبب الرئيسي للحملة هو فك الحصار البري والبحري الذي ضربه رجال الأمير يوسف والأسطول البروسي على الجزار المتمرد في مدينة بيروت، فأثار وصول هذه الحملة إلى البقاع خشية ضاهر العمر من أن تتابع زحفها إلى بيروت، وفي الثامن عشر من أيلول ١٧٧٣ توجهت إلى سهل البقاع قوة خيالة بقيادة علي ضاهر العمر والشيخ ناصيف النصّار لمواجهة القوات العثمانية. وفي يوم الثلاثين من أيلول أركنت القوات العثمانية إلى الفرار حين ترامى إلى مسامع الجند قدوم علي ضاهر العمر وناصيف



□ بيروت.

النصار، ولم يشترك الأمير يوسف في القتال المذكور لأنه كان يفرض حصاراً على بيروت. وهذه الهزيمة هي التي جعلت الجزار يفضل الاستسلام على يد ضاهر العمر[٣٠].

ـ وفي موضوع نهاية الشيخ ضاهر العمر ورد في ص ١٢٢ المقطع الثاني، بأن الأمير يوسف لم يمد يد المساعدة لا إلى ضاهر العمر ولا إلى قائد القوات العثمانية وبأن أيا منهما لم يستنجده.

تشير المصادر المعاصرة التي بحوزتنا بأن ضاهر العمر كان قد طلب من الأمير يوسف إمداده بقوات من عنده تمكنه من الصمود في وجه القوات المملوكية الزاحفة على عكا، فجمع الأمير يوسف أعيان جبل الدروز في حرش بيروت، وتدارس معهم الموقف الواجب اتخاذه، لكن سقوط يافا أشاع في صفوفهم الخوف، فاتفقوا على عدم نجدة الشيخ فاعتذر الأمير له[٣١]. وأشار إلى ذلك المؤرخ ميخايل الصباغ[٣٢] بقوله:

«ضاهر وأتباعه محتارين كيف يعملوا والدروز ما سعفوه».

ـ جاء في الصفحة ١٣١ بأن الجزار استخدم الأموال التي نهبها من بيروت، للتقرب من سلطات الأستانة فأسندت إليه عام ١٧٧٦ ولاية صيدا.

تشير المصادر التي بحوزتنا إلى خلاف ذلك، فالجزار كان يشغل في عام ١٧٧٥ منصب (متصرف سنجق قرى حصار) فأصدر إليه الباب العالي أمراً بالاشتراك في الحملة البرية التي أرسلها الأخير كجزء من الحملة البحرية التي تعد لتدمير ضاهر العمر، ومنحه لقب (حامي الساحل السوري)[٣٣]. وفي أواخر آب تمكن قائد الحملة القبطان العثماني من تدمير دولة ضاهر العمر[٣٤]، وعين محمد ملك باشا والياً على صيدا، وبوصول الجزار في ١٩ أيلول عينه القبطان محافظاً على عكا[٣٥]، وفي ١٨ ك١ (يناير) ١٧٧٥ نقل محمد ملك باشا إلى ولاية مرعش، وصدر بعد ذلك بيومين فرمان عثماني

بتولية أحمد باشا الجزار والياً على صيدا. وقد رقي إلى هذه الرتبة لكي يستطيع مد السلطة العثمانية إلى المنطقة الواقعة خلف عكا وأغلب الجليل، التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تحت سيطرة أبناء ضاهر العمر(٣٦).

المعلومات الواردة في ص ١٣٢ مشوشة ومضطربة، ولا تتضمن تأريخاً دقيقاً للفترة الزمنية التي جرت فيها الأحداث التاريخية، وأشار المؤلف في الصفحة المذكورة بأن القبطان حسن باشا قد تلقى هدية ووعده بتخليصه من والي صيدا الجديد أحمد باشا الجزار، دون أن نعلم بالتحديد متى حدثت هذه التطورات التاريخية. فقد قام القبطان المذكور بحملتين بحريتين على بلاد الشام، ففي عام ١٧٧٥ قدم إلى الساحل السوري حيث قام بتدمير دولة ضاهر العمر في عكا، وفي ٢٠ أيلول ١٧٧٥ غادر متوجهاً إلى قبرص ثم إلى استامبول(٣٧). وفي أواخر حزيران (يونيه) ١٧٧٦ عاد القبطان إلى الساحل الشامي وللمرة الثانية بحجة إعادة السلطة العثمانية على كل بلاد الجليل وتدمير من تبقى من أبناء ضاهر العمر، الذين رغم تدمير دولة والدهم في عكا، كانوا لا يزالون يستقلون في مقاطعات بلاد الجليل رغماً عن أنف والي صيدا، في حين كان الهدف الحقيقي للقبطان نهب مدن الشاطىء الشامي. لذا لم يحدد د. أبو صالح في أي من الزيارتين قدم الأمير يوسف الهدية للقبطان؟ إن التطورات المذكورة في الصفحتين ١٣٢ و ١٣٣ إنما حدثت أثناء العودة الثانية للقبطان حسن باشا إلى الساحل السوري(٣٨). ولكي تستقيم المعلومات الواردة في الصفحتين المذكورتين، يجب أن يكون المقطع الثالث في الصفحة ١٣٢ مكان المقطع الثاني.

ــ **وفي موضوع الخلاف** الذي وقع بين الأمير يوسف وخاله إسماعيل الشهابي حاكم حاصبيا، ورد في الصفحة ١٤٣ بأن الجزار أحال الإمارة الشهابية في جبل الدروز إلى الأميرين الشهابيين إسماعيل وسيد أحمد، وأمدهما بقوة عسكرية لمجابهة الأمير يوسف الذي استعد بدوره للقتال، وبأنه جرت بين الفريقين عدة مواقع كان النصر فيها حليف قوات الأمير يوسف.

لدى عودتي إلى المصادر المعاصرة لهذه الفترة التاريخية، وجدت أن تطور الأحداث كان بخلاف ذلك، فقد أشارت الوثائق الفرنسية بأنه لم يجر صدام مباشر في البداية، وإنما تقابلت القوتان وجهاً لوجه. فأثار ذلك استياء الجزار، فأبحر من عكا إلى بيروت في الرابع من أيار/مايو ١٧٧٤ بهدف زيادة حدة الانقسام الحاصل في الجبل(٣٩).

وخشي الأمير يوسف من عواقب اجتياح قوات الباشا لجبل الدروز، في وقت انكب فيه الفلاحون على جمع محصول الحرير وهو عماد اقتصادهم الوطني، فتظاهر برغبته الوصول إلى اتفاق مع الباشا، وأرسل وفداً لمقابلة الأخير والوقوف على شروطه، التي كانت ما يلي:

١ ــ أن يدفع الأمير يوسف مبلغ ٤٠٠ ألف قرش كضرائب(٤٠).

٢ ــ أن يجمع الأمير سلاح محالفيه(٤١).

وفي هذه الأثناء استفاد الأمير يوسف من الوقت الذي استغرقته المفاوضات، فعبأ سراً مقاتليه وأمن الحراسة على الممرات الجبلية المؤدية إلى بلاد الشوف، وأعلن أنه في أمان تام ولا يوجد دراهم في الجبل، وإنما سلاح في خدمة الأمير(٤٢).

هذه التطورات هي التي أدت إلى حدوث المناوشات التي أشار إليها المؤلف في ص ١٤٣، حيث هزمت قوات الجزار في مواقع عديدة، مما دفع الأخير إلى فرض حصار اقتصادي على الجبل في شهر أيار عام ١٧٨٤، عله يستطيع أن يحقق عن طريق التجويع ما فشل في تحقيقه عن طريق القتال(٤٣). ولم يكتف بذلك بل أنه جهز في الأول من حزيران/يونيه قوات لاجتياح الجبل وفرض إرادته بالقوة، لكن هذه القوات لم تكد تبتعد عن صيدا مقدار ساعة، حتى عادت وانسحبت في الأول من حزيران، بسبب نشوب اضطرابات في جبل عامل(٤٤)، وهذه الأحداث كلها لم ترد في مؤلف د. أبو صالح.

ــ **ورد في الصفحة ١٤٤** المقطع الثالث، بأن الأمير يوسف رفض عرض الأمير إسماعيل بأن يكون حاكماً على جبيل «استنكاراً منه واستصغاراً له».

ــ **كما ورد في ص ١٤٥** بأن الأميرين

إسماعيل وسيد أحمد فشلا في جمع المبالغ التي تعهدا بدفعها للجزار، وطلبا من الأخير قوة جديدة لإجبار الناس على الدفع، فوجد أن من الأفضل إعادة الأمير يوسف إلى الحكم، سوف نحاول أن نقوم للمؤلف هذه المعلومات ونضعها في مكانها الصحيح على الشكل التالي.

بتخلي عصبيات جبل الدروز عن مقاومة حكم الأميرين إسماعيل وسيد أحمد، انتقلا إلى دير القمر وأنعم عليهما الجزار بخلع التزام مقاطعات جبل الدروز، مقابل تعهدهما بدفع مبلغ مقداره ألف وثلاثماية كيس أي ٦٥٠ ألف قرش(٤٥). وليس مقابل ثلاثماية ألف قرش كما ورد في ص ١١٢ من الكتاب. ولكن حين حاول الأميران إسماعيل وسيد أحمد فرض ضرائب مستحدثة على السكان لتأدية المبلغ الذي تعهدا بدفعه للجزار، مقابل تعيينهما من قبله بصفة حاكمين على جبل الدروز، رفض أعيان الجبل ـــ الذين وقع عليهم عبء هذه الضرائب ـــ الاستجابة لقرار الأميرين، وامتنعوا عن دفع أي قرش زيادة عما هو على مقاطعاتهم(٤٦)، فاستنجد الأمير إسماعيل بالجزار وطلب منه أن يزوده بإمدادات عسكرية، معللاً تمرد الجبل إلى تحريض الأمير يوسف(٤٧).

بالفعل استجاب الباشا لطلب حليفيه، فوجه في العاشر من أيلول/سبتمبر قوات إلى بيروت، قامت باجتياح بلاد جبيل والبترون وعين عليها الجزار الأمير سيد أحمد حاكماً من قبله، رغم أن في ذلك تعدياً على صلاحيات والي طرابلس، لأن المقاطعات المذكورة تقع ضمن حدود ولايته(٤٨)، وهنا عرض الأمير إسماعيل على الأمير يوسف أن يكون حاكماً على نواحي مقاطعة جبيل من قبله(٤٩). لكن حدوث تطورات في عكا دفعت الجزار إلى العودة إليها من بيروت في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، فجهز والي طرابلس قوات من عنده وحرر بلاد جبيل والبترون التي اقتطعها الجزار غصباً من ولاية طرابلس، ودعا الأمير يوسف إلى حكمها كمتسلم من قبله(٥٠).

وشعر الجزار بضعف موقف الأميرين إسماعيل وسيد أحمد، وبأنهما لن يتمكنا من دفع الأموال التي تعهدا بدفعها له، بعد التكاليف الباهظة التي أنفقها مقابل تثبيت حكمهما بالقوة، فاستجاب لما أشار عليه مستشاره السكروج بإعادة تلزيم جبل الدروز إلى الأمير يوسف الشهابي(٥١).

ـــ **وجاء في الصفحة ١٤٦** بأن الجزار خلع على الأمير يوسف منصب الولاية، بعد أن تعهد بدفع ألف قرش (أي كيسين) خلال ثلاثة أشهر. وهنا أيضاً وردت لدى المؤلف ثلاثة أخطاء تاريخية.

لم يكن الأمير يوسف والياً لكي يخلع عليه الجزار الولاية، وإنما كان ملتزم جباية لوالي صيدا، ولذا فإن الاتفاق بين الأمير والأخير إنما كان على أن يمنح الأمير يوسف التزام جبل الدروز بالاضافة إلى التزام حاصبيا ومرجعيون مقابل ما يلي:

(أ) يتعهد الأمير بأن يدفع للباشا مقابل التزام البلاد المذكورة مبلغاً مقداره ألف كيس سنوياً.

(ب) يتعهد الأمير بأن يدفع بدل الالتزام الذي كان في عهدة الأميرين إسماعيل وسيد أحمد والبالغ قيمته ألف وثلاثماية كيس.

(ج) تقسط الأموال على دفعات مؤلفة من خمسمئة كيس كل ثلاثة أشهر(٥٢).

ـــ **وفي موضوع نكبة النكديين** جاء في الصفحة ١٦٨ «كان مشايخ النكديين آنذاك من أشد معارضي الأمير بشير ومن منافسي كلا الحزبين اليزبكي والجنبلاطي فاستغل الأمير بشير هذا التنافس لتدبير مؤامرة لهلاك النكديين». ولكن لدى مراجعتنا لبعض المصادر المحلية وجدنا أن تخلص الأمير بشير من مشايخ آل نكد إنما تم بالاتفاق مع الشيخ بشير جنبلاط وللأسباب التالية:

(أ) تجريد أبناء الأمير يوسف الشهابي، الذين كانوا يزاحمون الأمير بشير على السلطة في جبل الدروز، من أقوى حلفائهم.

(ب) تدعيم سلطة الأمير بشير في جبل الدروز عامة وفي دير القمر خاصة، فبالرغم من أن دير القمر كانت عاصمة الجبل ومقر إقامة الأمير الحاكم الذي كان يقيم في سرايتها، بحيث كان يتوجب عليه أن يكون صاحب السلطة المطلقة فيها دون منازع، ولكن الواقع كان بخلاف ذلك، فالمدينة أيضاً كانت عاصمة مقاطعة المناصف التي هي في الواقع إقطاعاً لآل نكد، ولذا

فقد كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقية فيها، إلى حد أن سلطة الأمير الحاكم لم تكن تتجاوز حدود سرايته. وأشار إلى ذلك المؤرخ المعاصر مخايل مشاقة[٥٣] بقوله: «لو أذنب إنسان في باب سراي الأمير وهرب لقاطع مجرى مياه الشالوط الفاصل بين السرايا وبيوت المشايخ، فلا يسمح لأتباع الأمير بلحوقه (مطاردته) لقاطع الماء ومسكه».

— وفي موضوع **«معركة أرض القفل»** التي جرت عام ١٨٠٠، فقد ورد في ص ١٨٣ بأن هزيمة ولدي الأمير يوسف الشهابي ومدبريهما جرجس وعبدالأحد باز أمام الأمير بشير في معركة ارض القفل، جعلهم يعجزون عن مجابهة إجماع عصبيات جبل الدروز حول الأمير بشير، فقرروا اللجوء إلى الصلح بدلاً من القتال بسيف الجزار فارتضوا لأنفسهم حكم منطقة جبيل. ولكن نميل إلى الاعتقاد بأنه كان هنالك شعور مشترك بين فريقي الأمير يوسف والأمير بشير بضرورة التوصل إلى حل سلمي، ويعود ذلك للأسباب التالية:

١ — فالشيخ جرجس باز الذي كان مع شقيقه عبدالأحد يعملان في الظاهر كمدبرين — أي كمستشارين — لأبناء الأمير يوسف، في حين كانا في الواقع المتصرفين والمخططين الموجهين لهؤلاء الأمراء، شعرا أنه لم يعد بإمكانهما القتال بعد أن تخلى عن مناصرتهما أعيان الحزب اليزبكي وتسرب كل أمل بإمكانية إعادتهم إلى صفوفهم، بعد مقتل زعيم الحزب الشيخ جهجاه العماد.

٢ — لم يعد بإمكان الأمير بشير الاستمرار في القتال، فقد دب الذعر والخوف بين مقاتليه من سكان جبل الدروز عامة والمتن خاصة، ولم يعودوا راغبين في القتال، فالمناوشات التي استمرت ما يقارب الشهر، قد أدت إلى تدمير قرى الساحل ومحاصيلها، ولم يعد بإمكان مقاتلي الجبل الاستمرار في القتال، فهم ليسوا سوى فلاحين لا يمكنهم ترك المواسم الزراعية وإلا تعرضوا للفناء، بعد أن أحرق جند الجزار محصول الحرير في قرى السفوح الجبلية التي توغلوا فيها، ففضلوا الاهتمام بأمورهم المعيشية[٥٤].

شعر جرجس باز بأن استمرار القتال سوف يكلفه مبالغ باهظة كرواتب وطعام وأعلاف للجند الذي يرافقه، وسوف تزداد حدة الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها السكان، نظراً لما سوف تقوم به هذه القوات من تخريب وتدمير ونهب حيثما مرت.

أدرك جرجس باز أن تثبيت مواليه بالقوة، سوف يجعله مضطراً لتلبية طلبات الجزار المالية الدائمة وإشباع نهمه، وهو أمر غير ممكن تأمينه دون العودة إلى سياسة فرض الضرائب، وما سوف ينجم عنها من عصيان وتمرد وخراب البلاد، ورحيل الفلاحين والتجار إلى مناطق أخرى تتمتع باستقرار أمني أفضل[٥].

— وفي موضوع **حكم الأمير عباس الشهابي** الوارد في ص ١٨٤ جاء بأن اقتسام حكم الامارة الشهابية بين الأمير بشير وأبناء الأمير يوسف لم يحظ برضى الجزار عام ١٨٠١، فاستغل آل العماد رفض أحمد باشا الجزار تجديد التزام جبل الدروز للأمير بشير في السنة التالية، فشجعوا الأمير عباس الشهابي على المطالبة بحكم الجبل ووافقهم الجزار على ذلك.

تشير المصادر المعاصرة للفترة موضوع البحث بأن الأزمة الداخلية التي شهدتها الإمارة الشهابية، لم تكن وفقاً لما أشار إليه د. عباس ابو صالح ولكنها للأسباب التالية:

بعد أن تم تصفية الخلافات بين زعماء جبل الدروز، نتيجة الاتفاق الذي أدى إلى اقتسام الامارة الشهابية، والذي يقضي بجعل أبناء الأمير يوسف الشهابي حكاماً على نواحي مقاطعة جبيل والأمير بشير حاكماً على مقاطعات جبل الدروز، صار من الضروري تصفية ذيول الأحداث السابقة، فطالب آل نكد بإعادة أملاكهم التي ضبطت عام ١٧٩٦ بعد النكبة التي حلت بهم، فتخلى أمراء آل شهاب ومشايخ آل جنبلاط عن تلك التي كانت قد دخلت في حوزتهم، في حين رفض الاستجابة لذلك مشايخ آل عماد وصدوا كل توسط في هذا السبيل، مرددين: «هذه الأملاك من جملة أملاكنا وفي تصريفنا ولا يمكن أن نردها»[٥٦].

وإزاء عجز الأمير عن استخلاص ممتلكات آل نكد بالقوة، باشروا في الإعداد للعصيان وتأمين أمير شهابي يقبل بأن تكون حركة

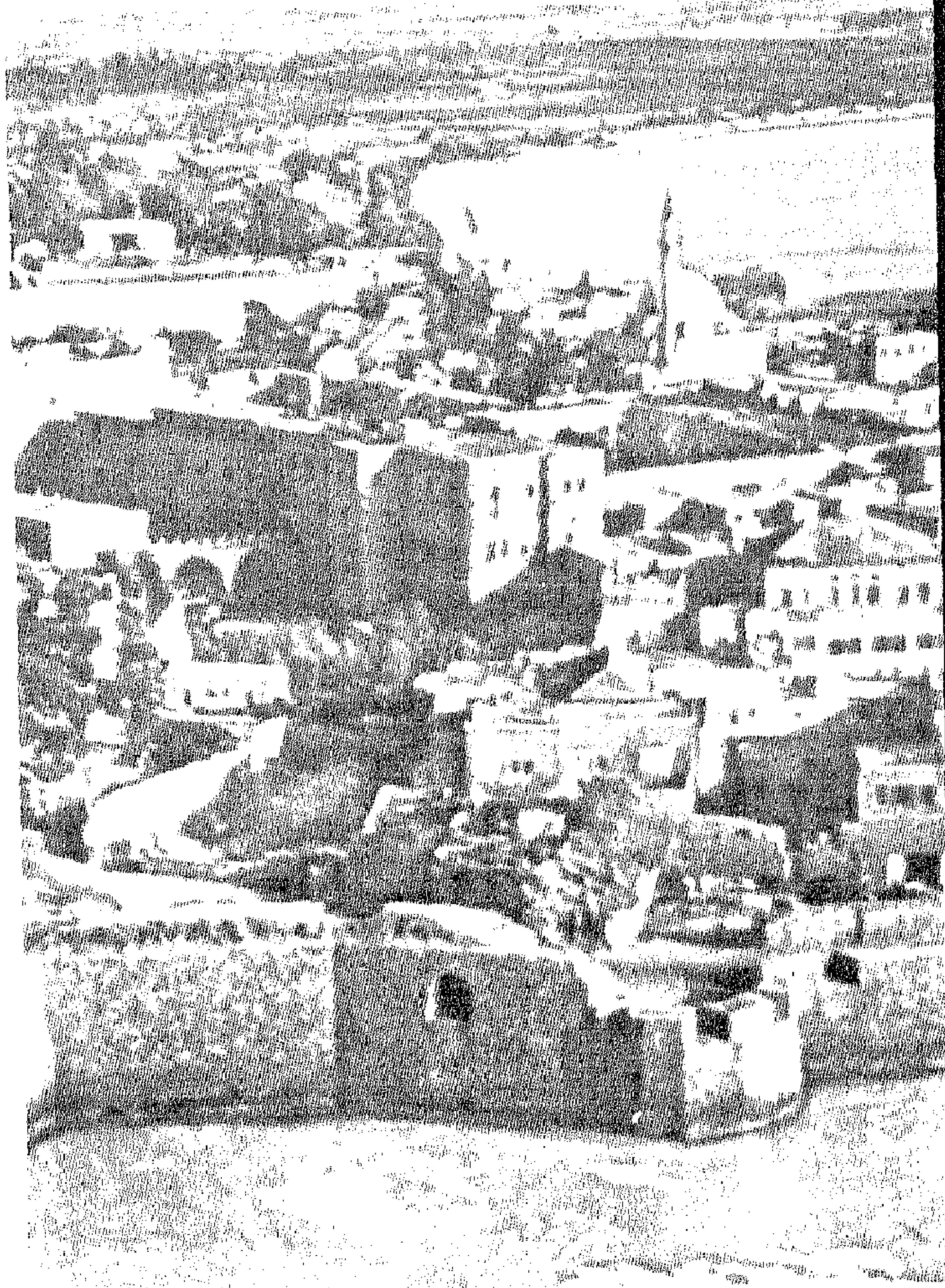
العصيان باسمه، فاستطاعوا استقطاب الأميرين قعدان وسيد أحمد ووعدوهما بأن تكون حركة الدعوة لمنصب أمير جبل الدروز باسمهما(٥٧).

ولم يكن بإمكان القوى الموجهة ضد مصالحها هذا التحرك أن تتغاضى عنه، فقام آل عماد بتشجيع الأمير قاسم الشهابي، الذي تربطه صداقة ومودة بالجزار، بأن يسعى لدى الأخير لمنحه حكم الجبل، وبالفعل استجاب الجزار لسعي صديقه الأمير عباس فمنحه التزام حكم جبل الدروز في آب ١٨٠١(٥٨).

— في موضوع عودة الأمير بشير إلى الحكم ورد في ص ١٨٨ بأن الأمير بشير استطاع استرضاء الجزار مقابل مبلغ أربعماية ألف قرش. لا أدري ما هي الأسباب التي جعلت المؤلف يعتمد فقط على طنوس الشدياق دون غيره من الحوليات التي لم تتفق على مقدار المبلغ، كما ورد في مجموعة د. عادل إسماعيل(٥٩) شروحاً أخرى في غاية الأهمية لم يشر إليها، وتقضي بسلخ إقليمي جزين وبرجا عن التزام جبل الدروز، وفي ذلك إضرار بالشيخ بشير جنبلاط السيد على هذه المقاطعات.

— في موضوع موت الجزار الوارد في ص ١٨٨ أشار المؤلف بأن الجزار قد توفي فجأة دون أن يشير أيضاً إلى السنة. إن الجزار





□ في خلف اسوار مدينة عكا قذف نابليون بونابرت قبعته، وعاد ادراجه عاجزاً عن احتلالها.

لم يمت فجأة ولكنه أصيب بمرض الاستسقاء وعاني منه لمدة عدة أشهر، وكانت سلطات الأستانة على علم بمرضه، ولكنها لم تكن تجرؤ على القيام بأي تحرك قبل معرفة مصير خزنته التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر. فأرسلت إلى إبراهيم باشا ـ والي حلب ـ فرمان بولايتي صيدا ودمشق، وزودته بأوامر بعدم إذاعة الفرمان إلا بعد التأكد من وفاة الجزار[٦٠] التي حدثت في الأسبوع الأول من أيار سنة ١٨٠٤[٦١].

ـ وفي موضوع الثأر من والي الشام الكنج يوسف عام ١٨١٠ الوارد في الصفحتين ٢٠٣ و ٢٠٤، جاء بأن الباشا استغاث بوالي صيدا سليمان باشا أن ينجده بعساكر لصد قوات الوهابيين، وبأن الكنج عند وصوله إلى حوران أطلق نيران مدافعه إرهاباً فتراجع الوهابيون لقلة عددهم إلى حدود العامرية. وفي حوزتي وثيقة مؤرخة في ١٤/٧/١٨١٠ تشير بأن الباب العالي كان قد طلب من والي حلب تزويده بقوات من عنده تحتاج إليها الاستانة في حربها مع روسيا مما دفع إنكشارية حلب الذين لم يكونوا راغبين بالتوجه إلى معسكر الوزير إلى رشوة قبائل عربية من أجل تهديد دمشق[٦٢].

ـ في موضوع عامية انطلياس جاء في الصفحتين ٢٠٨ و ٢٠٩ بأن الأمير بشير فضل أن يدفع إلى عبدالله باشا ألفي كيس، خشية أن يشجع الأخير معارضي الأمير بالعودة إلى السلطة، وبأن الدروز نجحوا في رفع الضريبة عن كاهلهم فوقع عبؤها على النصارى، فدعا النصارى إلى اجتماع في انطلياس وبأن الدروز اتفقوا معهم على أن يكونوا معاً يداً واحدة.

إن تطورات عامية انطلياس كانت على الشكل التالي: الشيخ بشير جنبلاط هو الذي أقنع الأمير بشير بدفع المبلغ تجنباً لتوغل قوات الباشا في جبل الدروز[٦٣]، وقد تم الاتفاق مع الأخير على الشكل التالي:

١ ـ أن يدفع الأمير بشير مبلغاً مقداره ألفي كيس تكاليف الميري[٦٤].

٢ ـ نزع أقاليم الخروب وجزين وجبل الريحان عن التزام جبل الدروز. وهي مقاطعات تابعة لسلطة الشيخ بشير جنبلاط.

ولم تجب الضريبة من كل نصارى البلاد، وإنما فقط من نصارى المقاطعات ذات الأغلبية النصرانية، لأنها لم يكن لها قيادات نافذة قادرة على التصدي لهذه السياسة الضرائبية. أما نصارى المقاطعات التابعة لسلطة الشيخ بشير جنبلاط، فلم يدفعوا الضريبة لأن الأخير أمن لهم الحماية التي أمنها لكل دروز البلاد[٦٥].

ـ **أما قضية اتفاق الدروز مع النصارى في دير مار الياس في انطلياس**، فقد تمت على الشكل التالي، فبعد تخلي الأمير بشير عن التزام جبل الدروز في ٢٨ آذار سنة ١٨٢١، حينها عبدالله باشا خلع الالتزام إلى الأميرين الشهابيين حسن وسلمان[٦٦]، في وقت اشتد فيه نفوذ النصارى في الجبل نتيجة مساعدة عبدالله باشا لهم، إلى حد أنهم اشترطوا على الأميرين الحاكمين مقابل الاعتراف بسلطتهما، أن يوقعا على سند بأن لا يطلبا في المستقبل أية ضرائب غير اعتيادية[٦٧]. لكن عبدالله باشا ما لبث أن تخلى عن سياسة التسامح للحركة الشعبية التي أوصلت الأميرين، وباشر بمضايقة السكان فانتزع إقليم التفاح من التزام جبل الدروز، وطالب بأن يدفع له السكان كل الضرائب التي سبق ودفعوها في تلك السنة[٦٨]. مما أثار استياء النصارى فعقد وكلاء العامة خلال الفترة الممتدة بين ٢٦ و ٢٩ نيسان عام ١٨٢١، اجتماعات متعددة في أديرة الرهبان في مار انطلياس والقديس أنطون في ميفوق، وتم الاتفاق على تأكيد ما سبق وأعلنوه في اجتماع وكلاء العامة الذي عقد في انطلياس في شهر آذار، بالامتناع عن دفع أية ضرائب زيادة عن التي اعتادوا دفعها[٦٩].

وأثار هذا التحرك خشية زعماء الحزب اليزبكي من حدوث انقسام في الجبهة الواحدة، التي طردت بشيراً وأمنت عودتهم المظفرة، وأن يتطرف زعماء النصارى فيتخذوا قرارات، تلغي الامتيازات التي يتمتع بها «المناصب» منذ القدم، وما قد يؤدي إليه ذلك من أخطار تهدد مصائر «مناصب» الدروز إذا انعكس صدى هذه القرارات بين رعاياهم في المقاطعات الدرزية والمختلطة. وتجنباً لذلك انتقل في الأول من أيار الشيخ علي العماد سراً إلى ميفوق، واجتمع مع قادة النصارى المجتمعين هناك، ثم عاد إلى

دير القمر، وأشارت «الوثائق الدبلوماسية»[٧٠]، إلى ذلك بقولها:
«شكل قضية واحدة مع النصارى المجتمعين هناك».

ــ وفي موضوع عامية انطلياس أثار الدكتور أبو صالح في المقطع الثاني من ص ٢٠٩ نقلاً عن وثيقة نشرتها مجلة أوراق لبنانية، أن الدروز اتفقوا في انطلياس مع النصارى على أن لا يؤدوا إلا «مال الأصل السلطاني المرتب منذ عهد الأمير حيدر الشهابي»[٧١]. هذا الاتفاق تم التوصل إليه في حزيران وليس في أثناء الاجتماع الأول الذي عقده وكلاء عامية النصارى في انطلياس في شهر آذار، أما سبب عقد اجتماع حزيران فهو عجز الأميرين الحاكمين حسن وسلمان عن إدارة حكم جبل الدروز نظراً لعدم تمكنهما من تأمين المبالغ التي تعهدا بدفعها لعبدالله باشا، فوجدا بالاتفاق مع زعماء الحزب اليزبكي، أن الوصول إلى اتفاق مع أخصامهم زعماء الحزب الجنبلاطي، ينقذ البلاد من سياسة الباشا الضرائبية، كما أن الأفكار التي نادت بها الحركة الشعبية بعدم دفع ضرائب غير اعتيادية قد امتد تأثيرها على المقاطعات الدرزية والنصرانية على حد سواء واتفق الجميع على عدم دفعها[٧٢]. ولذا نشط مشايخ عقل الدروز فدعوا إلى الاجتماع المذكور[٧٣]، وفي حزيران عقد في جزين اجتماع عام حضره معظم زعماء الجبل، وجرت مصالحة عامة تمت خلالها تصفية الأجواء السابقة، والتمس المجتمعون من الأمير بشير العودة إلى حكم جبل الدروز[٧٤]. وقد رصدت «الوثائق الدبلوماسية»[٧٥] الاجتماع المذكور وجاء في تقرير مؤرخ في ٢٣ حزيران سنة ١٨٢١:

«منذ عدة أيام وصل إلى جزين مشايخ عقل الدروز والأمير بشير أبي اللمع حاكم صليما وكذلك أعيان الجبل، وقدموا الولاء والطاعة للأمير بشير وسعوا لمصالحته».

ــ وبالنسبة للاتفاقية موضوع البحث، ألا يعتقد المؤلف معي بأنها تستحق من الباحث وقفة طويلة عندها وشرح مضامينها، وعدم الاكتفاء بنقل عبارة واحدة منها. فقد تضمنت نظرة مستقبلية لكيفية إدارة البلاد، من حيث مقاومة الظلم، والنظر في القضايا القضائية والضرائب، وبأن كل من يقوم من «أكابر البلاد» بالتعدي على أملاك الآخرين وأرزاقهم دون حق يتبرأ منه الجميع، وحصر التعرض في الأمور الروحية بأيدي رجال الدين، وهذه كلها أفكار جديدة في حياة الجبل السياسية[٧٦].

ولا نزال في موضوع عامية أنطلياس، فقد جاء في المقطع الثاني من ص ٢١١، بأن الأمير بشير اعتذر عن دفع الضرائب فوجه الباشا خلع الالتزام للأميرين حسن وسلمان وبأنه كافأ زعيم المعارضة علي العماد وعلي تلحوق بتولي مقاطعة جبيل باستثناء المدينة.

بالعودة إلى ج ٣ ص ١٦١ من مجموعة «Documents Diplomatiques» التي ينشرها تباعاً د. عادل إسماعيل والتي اقتبس منها د. أبو صالح معلوماته، فلم أجد أثراً للمكافأة المذكورة، وإنما عن ذهاب الشيخين المذكورين في ٢٠ أيار ١٨٢١ إلى عكا برفقة متسلم طرابلس علي بك الأسعد (المرعبي) تلبية لنداء الباشا الذي استدعاهم للاتفاق معهم حول وسائل تغريم سكان جبل الدروز ونواحي مقاطعة جبيل ضرائب جديدة تزيد عن المتوجبة عليهم، وبأنهم تداولوا معاً في الموضوع وتم الاتفاق على ما يلي:

١ ــ أن يدفعوا للباشا ألف كيس في يوم العاشر من حزيران وألفاً أخرى في نهاية الشهر نفسه.

٢ ــ أقنعوه مقابل دفع ألف ثالثة بأن يتخلى للأميرين عن مقاطعة جبيل، باستثناء المدينة التي أبقى عليها متسلماً من قبله.

ومما ينبغي الإشارة إليه بأن الشرطين المذكورين لم يتم التوصل إليهما، فور تلقي الأميرين جبل الدروز وفقاً لما أشار إليه د. أبو صالح، وإنما بعد مرور ما يقارب الشهر على تلقيهما الالتزام المذكور، وحلول موعد التجديد عن سنة جديدة، حيث تم الاتفاق على الشرطين المذكورين مقابل التجديد.

وعند معالجة د. أبو صالح **لموضوع عامية لحفد،** جاء في المقطع الثالث من ص ٢١٣: «أما في عامية لحفد فقد رفض سكان منطقة جبيل تأدية الأموال الأميرية إلى الأمير قاسم ابن الأمير بشير». كنا نتمنى لو أفادنا المؤلف ما هي

الأسباب التي جعلت الأمير بشير يفرض ضرائب؟ ولماذا حصرها في المتن وكسروان دون باقي المقاطعات؟ وما الدور الذي لعبه زعماء تلك البلاد أثناء العامية؟ بدلاً من هذا السرد التاريخي السريع.

ولا نزال في موضوع **عامية لحفد** فقد جاء في المقطع الثاني من ص ٢١٤ عن مفاوضات بين وكلاء العامة والأمير بشير، وبأن الوكلاء اشترطوا أن لا يدفعوا سوى مال واحد وجزية واحدة، وأن من يوليه الأمير بشير عليهم يجب أن يكون من بلادهم، فرفض الأمير طلب العامة وعزم على إخضاعهم.

تشير المصادر المعاصرة بأن الأمير بشير رفض الشرط الأخير ووافق على الشرط الأول، وأبلغ الوكلاء بأنه يتعهد بعدم إرسال المحصلين لجمع الضرائب، بل أن يقوم الوكلاء بأنفسهم بهذه المهمة[٧٧]، كما لم يشر المؤلف في تأريخه لعامية لحفد إلى الدور الذي لعبه المتاولة في هذه العامية؟

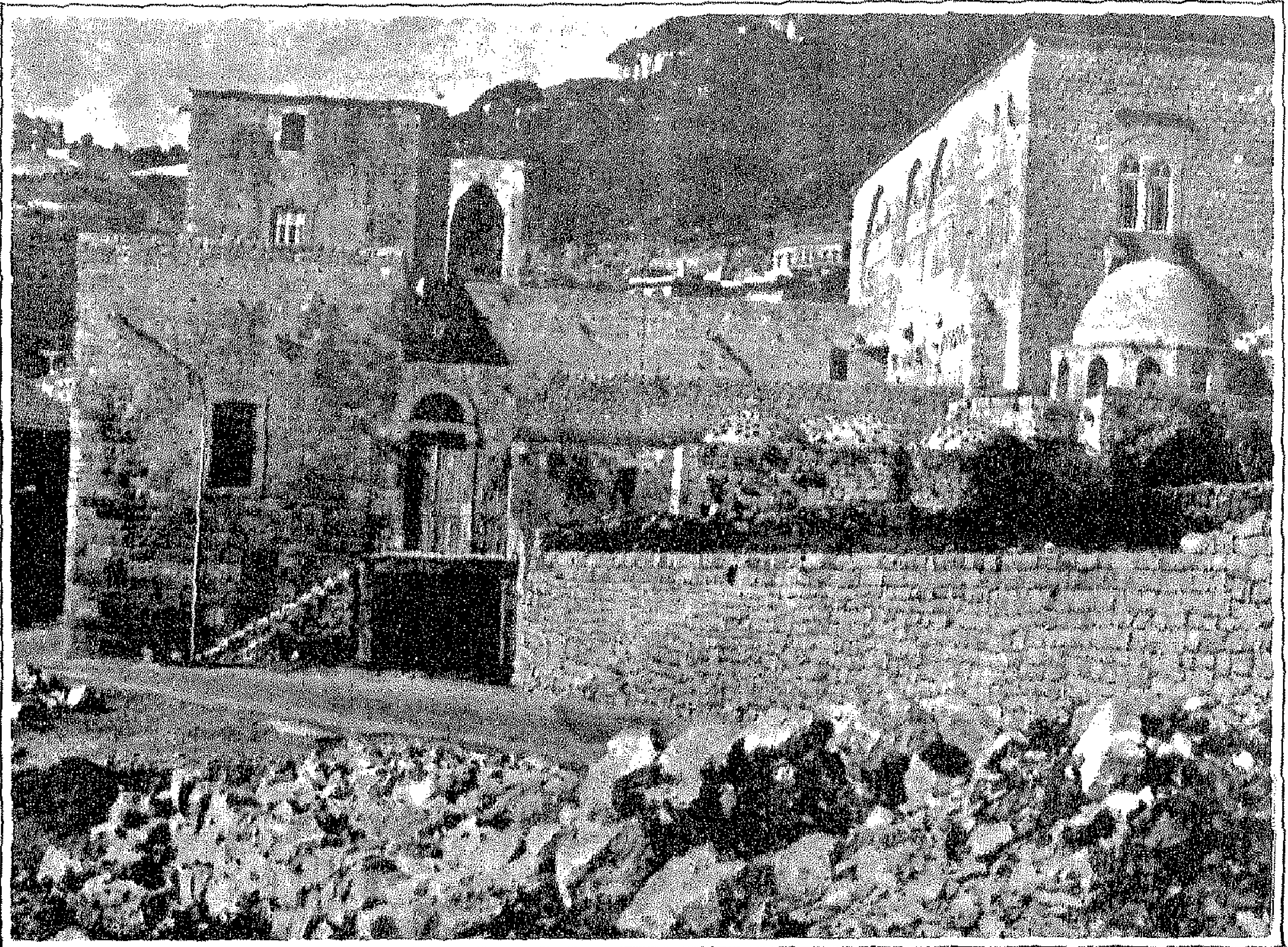
ـ وفي موضوع الصراع بين درويش باشا والي الشام وعبدالله باشا والي صيدا، فقد جاء في ص ٢١٥ بأن هذا الصراع أنما كان بسبب طمع كل منهما بولاية الآخر. ولكن المصادر التاريخية تشير إلى خلاف ذلك، وبأن السبب الرئيسي لهذا الخلاف إنما كان بسبب رغبة صرافي ولاية دمشق المعلمين سلمون ورفائيل شحادة فارحي وابن عمهما حزقيال صراف الباب العالي، الانتقام من عبدالله باشا بسبب قتله صرافه المعلم حاييم شحادة فارحي، فحرضوا والي دمشق على زميله عبدالله باشا في عكا[٧٨].

ولا نزال في موضوع الصراع بين عبدالله باشا ودرويش باشا فقد ورد في ص ٢١٦ عن تحرش والي الشام درويش باشا بالأمير بشير دون أن يشير د. أبو صالح إلى الأسباب؟ وهي حاجة درويش باشا إلى قوى محلية نافذة في المنطقة تقف إلى جانبه في صراعه مع والي صيدا، فعرض على الأمير بشير أن يتعاون معه على رأس مقاتلي جبل الدروز الأشداد، لكن الأمير بشير رغم الإغراءات الشديدة التي قدمها والي الشام رفض العرض ووقف إلى جانب والي صيدا عبدالله باشا[٧٩].

ولا نزال في موضوع الخلاف بين والي الشام ووالي صيدا، فقد جاء في الصفحتين ٢١٦ و ٢١٧ بأن الباشا الأخير أشار على الأمير بشير أن يقبل الدخول في مفاوضات مع والي الشام، وبأنه عاد وطلب من الأمير رفض عرض درويش باشا. دون أن يذكر أسباب الرفض، وهي اكتشاف عبدالله باشا لمؤامرة سرية تعدها سلطات الآستانة لتجريده من ثروته وتحريض كبار ضباطه للتآمر عليه[٨٠].

وأيضاً في موضوع الخلاف بين والي الشام درويش باشا ووالي صيدا عبدالله باشا، فقد جاء في الصفحة ٢١٩ أن درويش باشا كتب إلى الأمير بشير ينبئه بتوجيه ولاية صيدا إلى عهدته، وعن استعداده لتلبية جميع مطالبه مقابل تخليه عن عبدالله باشا، ولدى إرسال الأمير الجواب إلى الباشا الأخير، كان جوابه بأن يجمع الأمير عسكراً من بلاده، ويسير به لقتال درويش باشا، وبأنه وقع الكتاب هذا «عبدالله والي الشام وصيدا ويافا وطرابلس»، وفقاً لما ورد يتبين لنا بأن كلا من عبدالله باشا ودرويش باشا كان يحمل فرماناً بولاية صيدا، وبذلك صار الأمير بشير من الناحية الشرعية خاضعاً لسلطة الواليين المذكورين، فما الذي جعله يقف إلى جانب عبدالله باشا ويتخلى عن عرض درويش باشا؟ ولماذا لم يقف على الحياد في هذا الصراع؟ وكيف يمكن لعشائر جبل الدروز أن تنساق لإرادته دون أن تتحقق من شرعية الجهة التي يحاربون إلى جانبها؟ وهي تساؤلات لم يجب عليها د. أبو صالح، ولكن سوف نحاول أن نزيل هذا الابهام.

تشير المصادر التاريخية المعاصرة بأن عبدالله باشا حين علم بإحالة ولاية صيدا إلى درويش باشا، أبى أن يستسلم بعد الانتصارات التي أحرزها، لأن في ذلك مصادرة أمواله وإرسال رأسه إلى الآستانة كما جرت العادة في هكذا حالات، فقرر الاستمرار في العصيان اعتماداً على مناعة[٨١] عكا، ومحالفة عشائر جبل الدروز[٨٢] وبلاد[٨٣] عاملة، على أمل أن يتمكن مع الوقت عن طريق الرشوة ونفوذ أصدقائه في الآستانة من استصدار عفو عن جرائمه. لكنه خشي من عصيان حلفائه الدروز والعامليين في حال



□ قصر جرجس باز في الجهة الشرقية مع الحمّام الشرقي التابع له.

معرفتهم بأنه صار في نظر السلطات العثمانية عاصياً، فسعى أن يضفي على نفسه الصبغة الشرعية ويظهر درويش باشا بمظهر المتمرد على السلطة العثمانية، فاستفاد من إجادته تقليد الخطوط ومعرفتـه بأسلوب كتـابات الدولة من خلال إقامته الطويلة في ديوان ولاية صيداء فزور فرماناً صادراً عن الباب العالي بعزل درويش باشا عن ولاية دمشق، وتوجيه الولاية المذكورة بـالإضـافـة إلى ولايتي صيـدا ودمشق إلى عهدته[٨٤].

ونستمر في موضوع الصراع بين والي الشام ووالي صيدا، فقد أشار المؤلف في الصفحة ٢٢٠ إلى هزيمة درويش باشا في معركة المزة على يد رجال الأمير بشير وعبدالله باشا، ولكنه تجاهل موقف الحزب اليـزبكي من الاقتتال المـذكور، والدور الذي لعبه، والمؤامرة التي أعدها زعماء الحزب المذكور المشايخ علي وأمين وخطار وقاسم العماد، من حيث الاتفاق السري مع والي الشام على ترك معسكر الأمير بشـير والانضمام إلى معسكر أعدائه عند نشوب الاقتتال، وانعكاس تأثير الهزيمة على الزعماء المذكورين، والأسباب التي جعلت الأمير بشير يحجم عن دخول دمشق. اعتقد أن المؤلف يتفق معي أن التركيز على هذه النقاط أهم من ذكر عدد الأسرى الذين قبض عليهم الأمير بشير والغنائم التي أصابها.

تحدث د. أبو صالح **في الصفحة ٢٢١** عن محاولة السلطات العثمانية استمالة الأمير بشير إلى جانبها وبأنها عرضت عليه البقاء في منصبه، مكتفياً بإيراد شرط واحـد من شروط العرض مهمـلاً شرطين مهمـين، ودون أن يشـير إلى الأسباب التي جعلت الأمير بشير يرفض العرض، وكلها مذكورة في المصادر التاريخية. كما لم يذكر الأسباب التي جعلت الأمير بشير يفضل مغادرة جبل الدروز، واختياره للأمير عباس الشهابـي ليكون حاكماً في أثناء غيابه بدلاً من الأميرين الشهـابيين حسن وسلمـان؟ وكذلك أهمل ذكر

الأسباب التي جعلت الشيخ بشير جنبلاط ــ الحليف الرئيسي ــ للأمير بشير التخلي عنه؟ والدور الذي لعبه الأخير بإقناع والي دمشق بتولية الأمير عباس حاكماً على جبل الدروز؟

ــ وفي موضوع تفاقم الخلاف بين البشيرين (أي الشهابي والجنبلاطي) ص (٢٢٦ ــ ٢٢٣) أشار د. أبو صالح إلى قرار الشيخ التصدي للأمير بشير وبأنه ألب حوله جميع معارضي الأخير، وبأن الشيخ عقد تحالفاً لهذا الغرض مع زعماء الحزب اليزبكي، دون أن يذكر الأسباب التي جعلت الأخيرين يقفون إلى جانب خصمهم السياسي الشيخ بشير في خلافه مع الأمير، هل هي الرابطة المذهبية أم أن هناك اسباباً أخرى؟ سوف أوضح هذه النقطة وهي تتلخص بأن الأمير بشير بعد عودته من مصر، حاول تعويض المبالغ الباهظة التي تكبدها أثناء فراره إلى مصر، وتلك التي أنفقها من أجل عودته إلى منصبه، وتأمين طلبات عبدالله باشا المالية الملحة، ومساعدته في المصاريف الباهظة التي توجب عليه دفعها لاسترضاء سلطات الآستانة. فاتخذ الأمير بشير إجراءات في غاية القسوة لتعويض هذه المبالغ، إلى حد جعل مقاطعات التزامه تدفع إحدى عشرة مرة ما اعتادت أن تدفعه مرة واحدة، وبالطبع وقع عبء هذه الغرامات المالية على عاتق مناصب الدروز، لأنهم كانوا في ذلك الحين أصحاب الأملاك الواسعة. فانتشر البؤس في المقاطعات اللبنانية وقلت النقود بين الأهالي بحيث صاروا عاجزين عن تأمين الغذاء الذي يمكنهم من البقاء على قيد الحياة. وأشار إلى ذلك القنصل الفرنسي في حلب في تقرير له كتبه من اللاذقية بتاريخ ١٨٢٤/١/٢٤.

«لاحظت على جميع الوجوه وفي كل الأحاديث علامات الذعر والخوف واليأس»(٨٥).

فأدرك زعماء الدروز أن غياب الشيخ بشير جنبلاط هو الذي ساعد الأمير بشير على التصرف بهذا الشكل التعسفي، لأن الزعيم الجنبلاطي كان له سابقاً في المرصاد كلما حاول فرض ضرائب باهظة أو غير اعتيادية على المقاطعات المختلطة أو ذات الأغلبية الدرزية(٨٦).

كما لم يشر المؤلف في الصفحة ٢٢٧ إلى الأسباب التي جعلت بعض زعماء الحزب اليزبكي من آل تلحوق ونكد وحمادة وعبدالملك يرفضون الوقوف إلى جانب الشيخ بشير جنبلاط ويؤثرون الوقوف إلى جانب الأمير بشير؟ سأوضح لكم ذلك، أنه وعد الأمير لهؤلاء الزعماء بمنحهم إقطاعات خصومه عند النصر(٨٧).

ــ وجاء في الصفحة ٣٠٢ أن مظهر التقشف لدى سكان الإمارة كان يعود إلى قلة الدخل مع ما كان يتعرض له الجبل من كوارث طبيعية تشير المصادر التاريخية أن حالة التقشف التي تحدث المؤلف عنها إنما كانت متعمدة من قبل السكان، لأن مظاهر الثراء والنعم ستؤدي إلى شقاء هؤلاء من قبل الحكام الذين سيطمعون بهم، لذا كان الأهالي يفضلون التظاهر بمظهر البؤس الشديد تحاشياً من ظلم السلطات العثمانية(٨٨).

ــ وفي موضوع نكبة جون عكار عام ١٥٨٥ والتي أدّت إلى نهاية الأمير قرقماز المعني، الواردة في الهامش الأخير من صفحة ٣٠٤، فقد تجاهل المؤلف المرجع الذي استقى منه المعلومات(٨٩).

تلك هي مجموعة ملاحظات بدت لنا من خلال مراجعة كتاب الزميل د. أبو صالح، ونتمنى أن يتقبلها بصدر رحب، علماً بأن هدفنا الوحيد من هذه المداخلة إنما كان كما أشرنا في بداية حديثنا الوصول بهذه الدراسة إلى حدود الكمال. علماً بأننا لا ننكر بتاتاً الجهد المبذول في إعداد هذه الدراسة، التي هي في الواقع جاءت لتسد فراغاً في المكتبة التاريخية، وتصحح الكثير من الأخطاء التاريخية قبل أن تتحول هذه الأخطاء إلى كرة تكبر مع الأيام فتسد منافذ الوصول إلى الحقيقة التاريخية. وما كانت مداخلتنا إلا محاولة منا في دفع الحقيقة التاريخية، التي هي نسبية كغيرها من العلوم، إلى مزيد من التكامل، ذلك أن توقف المؤرخين عن محاولة تطوير وتجديد الحقائق التاريخية، سوف يؤدي إلى تحول كل منهم إلى صورة باهتة عمن سبقه.

الهوامش

(١) المدبر عبارة كانت تستخدم في المرتفعات الجبلية اللبنانية، للدلالة على من كان يشغل من النصارى وظيفة مستشار ومدير أعمال لدى الأمير الحاكم أو رجال الإقطاع.

(٢) الشاشية: مشتقة من شاشات. وكان الأمير الحاكم في جبل الدروز يجبر الأهالي على شرائها للف العمائم، ويأخذ ثمن القطعة من ثلاثين إلى أربعين قرشاً.

(٣) العامية أو العمية: مشتقة من كلمة عامة، واتخذت هذا اللفظ للدلالة على ثورة الفلاحين في سنة ١٨٢٠ و ١٨٢١، بهدف الامتناع عن دفع الضرائب الغير اعتيادية التي فرضها الأمير بشير على المقاطعات ذات الأغلبية النصرانية.

(٤) مسعود ضاهر: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (١٦٩٧ ــ ١٨٦١). معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١. انظر ص ٦٣.

(٥) يوسف الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، بيروت ١٩٠٥. انظر ص ٤٤.

(٦) إدوارد لكروي: أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر. جورج مسرة، ساو باولو (البرازيل)، ١٩٢٤. انظر ص ٦٠.

(٧) A.E.B[1] 1036 Seyde le 7/5/1774.

ملاحظة: تشير الرموز (A.E.B[1]) إلى Affaires étrangères serie B[1]. أما الرقم الذي يليها فإنه يشير إلى رقم السجل ومن ثم المركز القنصلي الصادرة عنه الوثيقة ومن ثم تاريخها في اليوم والشهر والسنة، وهذه الوثائق من مجموعة *Archives Nationale de Paris*.

(٨) HARIK, Ilyia: Politics and changes in a traditional society Lebanon 1711-1845. Princeton, 1968. p. 13

(٩) ISMAIL, Adel: Documents Diplomatiques..., ed., des œuvres politiques et historiques, 30 tomes, ed., des œuvres politiques et historiques, Beyrout, 1975-1985. voirt. 9, p. 84.

(١٠) TESTA, (Baron de): Recueil des traités de la porte Ottoman avec les puissances étrangères. 10 tomes, Paris, (1892-1899), voir t. 3 pp. (83-84).

(١١) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٧، ص(١٢ ــ ١٣).

(١٢) Op.cit., t. 3 pp. (83-84).

(١٣) SALIBI, Kamal: The Secret of the House of Ma'n, international Journal of East studies. 4(1973), 272-287.

(١٤) تاريخ شيبان، مخ، نشره الأب بولس مسعد ونسيب وهيبة الخازن في مجلة **الأصول التاريخية**، م ٣ ص (٥٠٨ ــ ٥٠٩)، عام ١٩٥٨.

(١٥) A.E.B[1] 1033 Seyde le 7/9/1763, 1/10/1763, 15/5/1766, 23/4/1767; A.E.B[1] 1120 Tripoly le 10/5/1764, 28/9/1769.

(١٦) RAFEK, (A.K.): The province of Damascus, Beirut, 1966.

(١٧) علي بك الكبير، القاهرة، ١٩٥٠.

(١٨) COHEN, Amnon: Palestine in the 18th. Century. Jerusalem, 1973.

(١٩) LUSIGNAN, (S.K.): A history of the revolt of Aly Bey, London, 1783.

(٢٠) أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر. جورج مسرة، ساو باولو (البرازيل)، عام ١٩٢٤. انظر ص ٦٠.

(٢١) سليمان المحاسني: حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام، مخ، نشره د. صلاح المنجد، بيروت، ١٩٦٢. انظر ص (٢٠ ــ ٢١).

(٢٢) A.E.B[1] 1035 Seyde le 31/5/1771.

(٢٣) اليرلية: يظن بأنهم من بقايا الحاميات العثمانية ممن أقامهم السلاطين العثمانيين بعد فتح بلاد الشام كحاميات عسكرية في ولاياتها، ثم أهملت الدولة العثمانية تجديد هذه الحاميات، فلجأ رؤساؤها وقد طال بهم المقام في تلك البلاد، إلى تجنيد أخلاط من أبناء الشام من أهل الصناعات والحرف وغيرهم، ثم أصبحوا أشبه ما يكونون بالعصابات يلتف كل منهم حول زعيم وعظم فسادهم، حتى أصبح يطلق عليهم انكشارية يرلية أو إنكشارية الشام أو جند الشام.

(٢٤) حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار الزمان. مخ.، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٤٩. انظر ج ١ ص ٨٧.

(٢٥) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، جزءان، بيروت ١٩٧٠. انظر ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢٦) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، **المجلة المخلصية**، جزءان، صيدا، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩. انظر ج ١ ص ٩٧.

(٢٧) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; A.E.B[1] 91 Alep le 17/10/1771; RAFEK, op.cit., p. 286.

(٢٨) RAFEK: op.cit., pp. (290-91).
(٢٩) A.E.B[1] 1036 Seyde le 31/1/1774 (Damas le 28/11/1774).
(٣٠) A.E.B[1] 1036 Seyde le 30/11/1733 (Bulletin).
(٣١) حيدر الشهابي: نزهة الزمان في حوادث عربستان. مخ، في مكتبة يافت بالجامعة الاميركية في بيروت مسجل تحت رقم (M.S 956.9/S551a).
انظر ورقة رقم ١٢٧؛ مخايل الصباغ: تاريخ الشيخ ضاهر العمري الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد. نشره قسطنطين الباشا، حريصا (لبنان)، م.، القديس بوليس، (لا ت). انظر ص ١٧٠ رسالة رقم ٢ مؤرخة في ١٧٧٥/٥/٦.
(٣٢) مخايل الصباغ: مصدر سابق، ص ١٧.
(٣٣) AMNON, op.cit., p. 54.
(٣٤) A.E.B[1] 1037 Seyde le 2/9/1775 joint la lettre de M. Martin.
(٣٥) A.E.B[1] 1037 Seyde le 24/4/1777; AMNON, op.cit., p. 54.
(٣٦) A.E.B[1] 1037 Seyde le 18/2/1775; AMNON, op.cit., p. 55.
(٣٧) مخايل الصباغ: مصدر سابق، ص ١٧٧ رسالة رقم ٥ مؤرخة في ١٧٧٥/٩/٥.
(٣٨) المصدر نفسه، ص (١٧٩ ــ ١٨٠). انظر الرسالة رقم ٧ الصادرة من قرية غريفة تاريخها ١٧٧٦/٨/١٩.
(٣٩) A.E.B[1] 1037 Seyde le 2/6/1784.
(٤٠) إدوارد لكروي: مرجع سابق، ص ١٧٤؛ A.E.B[1] 979 Acre le 18/5/1784.
(٤١) حنانيا المنير: الدر المرصوف في تاريخ الشوف. نشره الأب أغناطيوس سركيس تباعاً في مجلة المشرق. انظر م ٥، ص ٢٠٩، عام ١٩٥٦.
(٤٢) A.E.B[1] 979 Acre le 18/5/1784.
(٤٣) حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥ ص ٢١٠.
(٤٤) A.E.B[1] 979 Acre le 4/6/1784.
(٤٥) A.E.B[1] 1040 Seyde le 2/6//1784.
(٤٦) A.E.B[1] 1040 Seyde le 21/7/1784.
(٤٧) A.E.B[1] 979 Acre le 14/9/1784.
(٤٨) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ص ١٣٨؛ A.E.B[1] 1040 Seyde le 20/9/1784.
(٤٩) Ibid. حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥ ص (٢١٠ ــ ٢١١).
(٥٠) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ص ١٣٨.
(٥١) A.E.B[1] 1040 Seyde le 12/11/1784.
(٥٢) A.E.B[1] 1040 Seyde le 21/11/1784.
(٥٣) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب. بيروت ١٩٥٥، انظر ص ٣٤.
(٥٤) حيدر الشهابي: لبنان، مصدر سابق، ص (٢٠٨ ــ ٢١٠).
(٥٥) حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥١ ص ٤٥١.
(٥٦) المكان نفسه.
(٥٧) المصدر نفسه، ص (٤٥٧ ــ ٤٥٨).
(٥٨) المصدر نفسه: ص (٤٥٨ ــ ٤٥٩).
(٥٩) ISMAIL, op.cit., t. 4 p. 98.
(٦٠) C.C.C. t. 23 Alep le 18/4/1804.
ملاحظة: تشير الثلاثة احرف الأول (C.C.C.) إلى Correspendances Commercial et Consulaire. ثم يشير الرقم الذي يليها إلى رقم المجلد ومن ثم اسم المركز القنصلي الصادر عنه التقرير ومن ثم تاريخه في اليوم والشهر والسنة. وهذه وثائق فرنسية من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه).
(٦١) C.C.C. t. 23 Alep le 18/4/1804 le 16 prairial an 12 (5/6/1804).
(٦٢) C.C.C. t. 14 Larnaca la 14/7/1810.
(٦٣) يوسف المعلوف: (زجلية في عامية انطلياس الأولى في آذار سنة ١٨٢١). مجلة المنارة، م ٨ ص (١١٧ ــ ١٢٣).
(٦٤) C.C.C. t. 14 S.T. Jean d'Acre le Janvier et fevrier 1821.
(٦٥) ISMAIL, op.cit., t. 4 p. 318.
(٦٦) حيدر الشهابي، الغرر، ج ٣ ص ٦٦١؛ ISMAIL, op.cit., t. 3 pp. (150-153).
(٦٧) Ibid., pp. (154-155).
(٦٨) Ibid., p. 159.

(٦٩) Ibid., pp. (154-155).

(٧٠) Ibid., p. 159.

(٧١) راجع النص الكامل في **أوراق لبنانية**، م ٢ ص (٥١١ ــ ٥١٣).

(٧٢) ISMAIL, t. 3 op.cit., p. 162.

(٧٣) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ص ٦٧٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ص (٦٧٦ ــ ٦٧٧)؛ ISMAIL, op.cit., pp. (166-169).

(٧٥) Ibid., p. 169.

(٧٦) (وثيقة عامية انطلياس)؛ أوراق لبنانية، م ٢ ص ٥١١ ــ ٥١٣)، الطبعة الأولى.

(٧٧) ISMAIL, op.cit., t. 3 pp. 160 et 162.

(٧٨) نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام، مخ، في مكتبة يافث بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956/N 32KA). انظر ورقة رقم ٤٥٤.

CHURCHULL, Charles Henry: Mount Lebanon a ten years residence, 1842-1852, 3 vols, London, 1810, t. 3 pp. (328-29).

(٧٩) ISMAIL, op.cit., t. 5 pp. (22-23); BARKER, John: Syria and Egypt Under the last five Sultans of Turkey being experiences during fifty year of Mr., Consul General BARKER, 2 vols, London, 1876, V. 2 p. 22.

(٨٠) مخايل دمشقي: تاريخ حوادث جرت بالشام وساحل بر الشام والجبل من سنة ١١٩٧ ــ ١٢٥٧هـ. مخ، من مجموعة مكتبة يافث بالجامعة الاميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956.9/D58tA). انظر ورقة رقم ١٣٣؛ انطونيوس شبلي: الآثار المطوية، جزءان، بيروت ١٩٦٤. انظر ج ٢ ص ٢١؛ أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير. ٤ اجزاء، بيروت ١٩٤٠ ــ ١٩٤٣. انظر ج ١ ص ٣٢.

(٨١) B.E1 Beyrout 6 (du Tripoly) le 10/4/1822.

ملاحظة: يشير الحرفان (B.E1) إلى رمز المجموعة الوثائقية يليه المركز القنصلي الصادرة عنه ومن ثم رقم المحفظة ثم المدينة التي كتبت فيها الوثيقة ثم تاريخها في اليوم والشهر والسنة. وهي من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه) باريس.

(٨٢) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ج ٣ ص ٧١٢.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٧١٠.

B.E1 Beyrout 6 (du Tripoly) le 25/5/1822.

(٨٤) مخايل الدمشقي: مصدر سابق، ورقة رقم ١٣٣؛ انطونيوس شبلي: مصدر سابق، ج ٢ ص ٢١؛ أسد رستم: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٢.

(٨٥) C.C.C. t. 27 Alep (du Lattaquié) le 24/1/1824.

(٨٦) CHURCHULL, op.cit., t. 3 p. 381.

(٨٧) أوراق لبنانية، م ٢ ص (٣٢ ــ ٣٣)، السنة الثانية، ١٩٥٦.

(٨٨) (M. et D.) Turquie t. 136 Doc. 1.

ملاحظة: الأحرف الأولى (M.D.) مختصر Memoires et Documents يليها رقم المجلد ثم رقم الوثيقة، وهي من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه) باريس.

(٨٩) حسين سلمان سليمان: «حادثة جون عكار سنة ١٥٨٥، الدفتر العثماني يصحح خطأ اميرياً». النهار، عدد ١٥٢٩٧ تاريخ ١٦/٥/١٩٨٣.

Abu-Husayn, Abdul-Rahim, Provincial leaderships in Syria (1575-1650), American University of Beirut, 1985, pp. (76-80).



● **«من السهل على أي شخص أن يشتعل غضباً. ولكن أن تغضب من الشخص المناسب وبالدرجة المناسبة وفي الوقت المناسب وللغرض المناسب وبالطريقة المناسبة. فهذه ليست في مقدرة كل شخص وليست من السهولة بمكان».**

(ارسطــو)

لومومبا

والقضية الأفريقية

محمد عيسى



● «إن جراحنا ما تزال دامية، وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها».

باتريس إميلي لومومبا

□ لومومبا، عندما كان سيد الموقف في الكونغو

إن الأحداث التي تشابكت وقائعها لتؤلف حياة باتريس لومومبا هي ذاتها الأحداث التي صاغت فكره، فمن خلال معاناة لومومبا الذاتية للواقع الموضوعي، ومعايشته له، تفتحت أمامه معالم أيديولوجيته السياسية. ذلك أن الفكر السياسي عند لومومبا قد مر بأطوار متباينة، بل ومتناقضة، حتى تحددت معالمه واكتملت مقوماته.

وإذا أمعنا النظر في «حياة» لومومبا أمكننا أن نتبين ثلاثة أطوار هامة في «فكره» السياسي:

- الطور الأول: **هو طور انفتاح للوعي الوطني عند لومومبا واكتشافه لأبعاد الحقيقة الاستعمارية.**
- الطور الثاني: **هو طور الصدام المروع بين وعي لومومبا الذي يسعى لتحرير الكونغو وتوحيده. وبين الاستعمار وأعوانه من الخونة الكنغوليين.**
- الطور الثالث: **هو تلك اللحظة المهيبة التي اغتيل فيها لومومبا. ففي تلك اللحظة ماتت إفريقية بأسرها لتبعث من جديد، على حد تعبير فرانز فانون.**

الوعي والحقيقة



يعد الطور الأول لفكر باتريس لومومبا من أعسر أطوار حياته الفكرية مخاضاً، وأحفلها بعدم وضوح الرؤية نظراً لافتقاره إلى الوعي بحقيقة الاستعمار. ويعد كتاب لومومبا «الكونغو أرض المستقبل: **هل هي مهددة؟»، الذي كتبه عام ١٩٥٦، يعد أبلغ وثيقة تكشف لنا عن فكر لومومبا في هذا الطور.**

فقد كان لومومبا، كما جاء في كتابه «يحلم» بإقامة «مجتمع متكافىء للجميع بلجيكيين وكنغوليين» على أن يتحقق في إطاره الاندماج العنصري بين البيض والسود وخاصة بين النخبة السوداء التي نالت قسطاً من التعليم والثقافة، وأصبح يطلق عليها اسم «المتطورين».

وكان لومومبا يطالب في ظل هذا المجتمع المنشود بتساوي البيض والسود في ميدان العمل وانفتاح جميع الوظائف للكنغوليين تبعاً لما يتمتعون به من كفاءات.

وقد عبر لومومبا عن هذا «الحلم» بقوله في عام ١٩٥٦:

«إننا نعتقد انه سيكون ممكناً منح النخبة الكنغولية وبلجيكي الكونغو في مستقبل قريب نسبياً حقوقاً سياسية، وفق بعض المقاييس التي ستضعها الحكومة».

غير أننا سنرى في الصفحات القادمة كيف اكتشف لومومبا خداع هذا الحلم وزيفه واستحالة تحقيقه.. وكيف أصبح منذ أكتوبر عام ١٩٥٨ يناضل بلا هوادة من أجل تحقيق الاستقلال والوحدة الوطنية والوحدة الإفريقية.

* * *

وكان عدم وضوح الرؤية الفكرية عند لومومبا، ينعكس انعكاساً حاداً على موقفه إزاء تقديره للاستعمار البلجيكي. وهو الموقف الذي يتضح بجلاء في كتابه الذي سلف ذكره. فقد كان لومومبا، على حد تعبير جان بول سارتر، كثيراً ما ينوه بالجوانب الإيجابية للاستعمار البلجيكي في الكونغو. هذه الجوانب التي تتمثل في زيادة قيمة الأرض والموارد المعدنية، وإرسال الإرساليات التعليمية، وتقديم المساعدات الطبية والصحية..

بيد أن هذا لم يحجب عن لومومبا رؤية الأوضاع المهينة التي يعيشها مواطنوه. فعندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، أي في عام ١٩٤٨، كتب في إحدى صحف الكونغو متسائلاً:

«لماذا يعامل البيض كلابهم على نحو أفضل مما يعاملون خدمهم من الزنوج؟».

ومن ثم فقد كان لومومبا يفصح، في ذات الوقت، عن النظرة الأخرى للتناقض الذي يعيش في ذاته، وهو إدراكه لبشاعة الحكم الاستعماري. وقد بلغ هذا الإدراك قمته في رد لومومبا الشهير على الملك بودوان ملك بلجيكا في ٣٠ يونيه

١٩٦٠، يوم استقلال الكونغو. لقد هاجم لومومبا الاستعمار البلجيكي بعنف وضراوة. وهاجم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المهينة التي كان الشعب الكنغولي يعيشها في ظل الإدارة الاستعمارية. ثم وعد الشعب بالقضاء على هذه الأوضاع التي تتمثل في سخرة العمل، والتفرقة العنصرية، والنزاع القبلي. ثم يسجل لومومبا على جبين التاريخ هذه الكلمات المضيئة:

«لا يحق لأي كنغولي ان ينسى اننا حققنا استقلالنا بالدموع والنار والدم. إننا فخورون جد الفخر بنضالنا.. لأنه كان نضالاً عادلاً ونبيلاً، وكان لا مناص منه لوضع نهاية لقيد الذل الذي فرض علينا طوال ثمانين عاماً من الحكم الاستعماري. إن جراحنا ما تزال دامية وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها».

سر مرحلة التناقض

والسؤال الآن: ما هو تفسير هذا الموقف الفكري الذي كان يتسم بالتناقض عند لومومبا؟

إن الإجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان. إذ أنها تمثل طوراً هاماً من أطوار حياة لومومبا وفكره. وهنا يتعين علينا بادىء ذي بدء أن نقرر حقيقة موضوعية هامة وهي أن لومومبا في هذا الطور إنما كان ضحية لخداع التعليم والثقافة الاستعمارية، تلك الثقافة التي ترمي أول ما ترمي إلى القضاء على الذاتية الوطنية تحت شعار «سياسة الأبوة البلجيكية». وكان يكمن وراء هذه السياسة الاستعمارية قوتان هما ـــ كما قال رولف أتاليانذر في كتابه «الزعماء الجدد في إفريقية» ـــ الرأسمالية والكنيسة الكاثوليكية. وكان الشعار الذي ترفعه هذه السياسة هو: «ما يفعله الأب دائماً حق». وطالما أن الأطفال صغار فهم يطيعون الأب أو يتظاهرون بذلك. بيد أنهم عندما يشبون عن الطوق يثورون وعندئذ تزول سلطة الأب.

ويصدق قول أتاليانذر هذا على لومومبا، فقد كانت مرحلة ما يمكن أن نطلق عليه الطفولة الفكرية في حياة لومومبا مرحلة تهيمن عليها «الأبوة» البلجيكية. غير أن لومومبا ما كاد يشب عن الطوق وتتفتح أمامه الحقائق القاسية التي يعيش الكنغوليون في ظلها حتى ثار على «الأبوة» البلجيكية. وعندئذ بدأت مرحلة الفكر الثوري عند لومومبا.

ولكي نجلو سر التناقض في فكر لومومبا لا بد لنا من الوقوف على حياته. وتعد دراسة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر عن «الفكر السياسي عند لومومبا» من أخصب الدراسات وأعمقها في هذا الصدد. إذ يحلل لنا سارتر حياة لومومبا كاشفاً عن سر هذا التناقض. وسوف نلتمس في دراسة سارتر هذه إجابة على السؤال الذي سلف طرحه. ويكون البدء بالوقوف على طفولة لومومبا:

ولد باتريس إميلي لومومبا في ٢ يوليو ١٩٢٥ في قرية أوناليو، بمقاطعة كاساء، بالكونغو. وكان والده فلاحاً كاثوليكياً. وقد اعتاد أن يصحب لومومبا منذ بلغ السادسة من عمره إلى الحقول فقد كان يريد أن يجعل منه فلاحاً. غير أن «الآباء الكاثوليك» قرروا أن يذهب لومومبا الصغير إلى المدرسة. فقد كانوا يريدون أن يجعلوا منه مدرساً للتعليم المسيحي. بيد أن الإرسالية البروتستانتية تلقفت لومومبا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وعلمته مهنة تتيح له:

«أن يترك الوضع الفلاحي إلى وضع ذوي المرتبات».

وهكذا قضى لومومبا طفولته، كما يقول سارتر، في الريف الكنغولي، والبؤس المدقع للفلاحين والزنوج معروف، ولولا المنظمات الدينية التي تعهدته لكان هذا البؤس نصيبه وأفقه الوحيد.

وهنا يتساءل سارتر «أتراه قد فهم على الفور أن الإرساليات الدينية هي عميلة الاستعمار؟» ويجيب قائلاً: «لا، بلا ريب».

بل إن لومومبا لم يكن يدرك في تلك الفترة أن الحياة التعيسة الحافلة بالفقر والبؤس في الريف الكنغولي هي بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتاج الاستغلال الاستعماري.

ويميط سارتر اللثام عن سر عدم إدراك لومومبا لهذا الوضع حين يقول: «كان «الآباء» يمنحونه طموحاً ضارياً إلى أن يعرف بؤسه بأسبابه، ومن ثم رغبته في أن يخضع له»، وقد عبر لومومبا عن هذا التناقض، عندما تكشفت له الحقيقة الاستعمارية في قصيدة له، بقوله:

«لكي يجعلوك تنسى أنك إنسان
علموك أن تتغنى بمدح الرب».



□ لومومبا.. الشاعر

وعندما أتم لومومبا تعليمه في الإرسالية البروتستانتية، وكان يبلغ من العمر، آنذاك، ثمانية عشر عاماً رحل إلى «كندو»، حيث عمل موظفاً بإحدى الشركات. وقد أبدى لومومبا في عمله نشاطاً عظيماً، وتفوقاً لامعاً أصاب البيض بالدهشة. وفي هذه الفترة كان يراود لومومبا حلمه بإقامة مجتمع بلجيكي ــ كنغولي يتحقق فيه الاندماج العنصري بين البيض والسود. غير أن لومومبا طرح هذا الحلم الذي اكتشف زيفه جانباً عندما تبين له استحالة تحقيقه.

الأيديولوجية الثورية

فكيف تسنى للومومبا أن يكتشف زيف فكرة الاندماج العنصري، ذلك الاكتشاف الخطير الذي كان نقطة تحول ثورية في حياته وفكره؟

حدث هذا عندما انتقل لومومبا من كندو إلى ستانلي فيل ليعمل موظفاً بمكتب البريد. فقد كانت هذه الرحلة بمثابة «الرحيل الفكري» من مرحلة عدم وضوح الرؤية لحقيقة أوضاع بلاده في ظل الاستعمار إلى مرحلة جديدة تماماً، هي المرحلة التي ظهر فيها لومومبا للعالم أجمع كمناضل إفريقي يطالب بالاستقلال لبلاده والحرية والوحدة لإفريقية.

لقد أدرك لومومبا من تجربة حياته في المدينة (ستانلي فيل ثم ليوبولدفيل) حقيقة النظام الاستعماري، وحقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها أبناء البلاد. لقد أدرك أن المواطنين الكنغوليين يحكم حياتهم في المدينة قاعدتان استعماريتان هما:

- التفرقة العنصرية.
- التفاوت الاقتصادي العنيف بين السود والبيض.

فالأبيض يتقاضى ضعف ما يتقاضاه الأسود. وفضلاً عن هذا فإن الفرص الاقتصادية مفتوحة أمام البيض في حين أنها محدودة أمام السود.

ولقد كانت التفرقة العنصرية والتفاوت الاقتصادي بين السود والبيض تجربة جديدة بالنسبة للومومبا. وهو لم يكن ليدركها لو عاش في الريف وذلك «بسبب انعدام الاتصال بين السود والبيض» وتظهر إجراءات التمييز في المدن، وهي تشكل، كما يقول سارتر، حياة أبناء البلاد اليومية.

ولقد تمخضت تجربة لومومبا في المدينة عن انفتاح الوعي عنده، وكان مفجر هذا الوعي ومحركه اكتشافه لحقيقة عميقة للغاية هي أن «المساواة» التي يروم تحقيقها بين البيض والسود إنما هي فكرة مستحيلة لا يقبلها الاستعمار والإدارة الاستعمارية. لقد اكتشف، كما يقول سارتر، صلابة النظام الاستعماري الذي خلقه ليزداد استغلالاً له، ذلك النظام الذي يتماسك بالقسر والإجبار ويزول حين يوافق على القيام بالتنازلات.

وكان هذا الاكتشاف الهام تصعيداً بموقف لومومبا وأيديولوجيته من طور ما يمكن أن نطلق عليه «الحل الوسط» إلى طور «الحل الثوري» لمشاكل الشعب الكنغولي. وكان هذا الحل الثوري يتمثل في إيمان لومومبا بالانفصال عن بلجيكا.. والاستقلال. وكان أن أسس لومومبا حزب «الحركة الوطنية الكنغولية» في أكتوبر من عام ١٩٥٨.

وأعلن لومومبا أيديولوجيته الثورية هذه في مؤتمر اكرا للشعوب الإفريقية الذي عقد في غانا في ديسمبر عام ١٩٥٨. فقد حضر لومومبا هذا المؤتمر ممثلاً لحركة الكفاح الكنغولي، وأصبح عضواً في اللجنة الدائمة للمؤتمر. ويرى الكاتب «رولف أتاليانذر»:

ان مؤتمر أكرا كان نقطة تحول هامة في أفكار لومومبا، فقد تحول إلى السياسة كلية. واستطاع أن يحظى بتأييد الشعوب الإفريقية. ومن ثم أصبح زعيم الحركة الوطنية في

الكونغو، بلا منازع، وكان أن توسعت حركته حتى أصبحت مكاتبها السياسية منتشرة في جميع أنحاء الكونغو.

وعند عودة لومومبا من أكرا كانت أحداثاً هامة تنتظره في ليوبولدفيل. فقد كان من المقرر أن يتحدث لومومبا في مؤتمر شعبي، في ٣ يناير ١٩٥٩، عن قرارات وتوصيات مؤتمر أكرا. وعلى الرغم من أن السلطات البلجيكية منعت عقد هذا المؤتمر، إلا أن جماهير الشعب الكنغولي سارت إلى مكان الاجتماع، فما كان من الجنود البلجيكيين إلا أن استقبلوا الجماهير بالرصاص. وكان هذا إيذاناً باندلاع ثورة شعبية استمرت ثلاثة أيام توقفت فيها الحياة في المدينة تماماً. وقد تمخضت هذه الثورة الشعبية، كما قال أحد المعلقين السياسيين عن تحول السخط التلقائي إلى طلب إجماعي بالاستقلال العاجل.

وتحت ضغط الشعب الكنغولي وافقت بلجيكا في أواخر عام ١٩٥٩ على عقد مؤتمر مائدة مستديرة في بروكسل في يناير ١٩٦٠ للتفاوض مع الزعماء الكنغوليين على شروط الاستقلال. وعقد مؤتمر بروكسل في الفترة ما بين ٢٠ يناير و ٢٠ فبراير عام ١٩٦٠. وصدر عن المؤتمر ٦٠ قراراً.. من بينها هذا القرار الهام:

«تصبح الكونغو دولة مستقلة تماماً منذ ٣٠ يونيه ١٩٦٠، وتتألف دولة الكونغو من ستة أقاليم بالحدود الجغرافية الراهنة».

* * *

رياح المؤامرة

بيد أن الكونغو لم تكد تحصل على الاستقلال حتى هبت عليها رياح الصراعات الفكرية ومؤامرات الاستعمار الجديد. فبعد خمسة أيام فقط من الاستقلال وقع تمرد في الجيش بقصد إقصاء قائد الجيش البلجيكي إميل جانسن. وكان جانسن استعمارياً يحول دون «أفرقة» الجيش الكنغولي.

واحتلت قوات الجيش المتمردة ليوبولدفيل، وعم التمرد البلاد بأسرها. بيد أن الحكومة تمكنت من التوصل إلى اتفاق مع القوات المتمردة: فتم إعفاء جانسن، ووعدت الحكومة بالعمل على «أفرقة» الجيش الكنغولي.

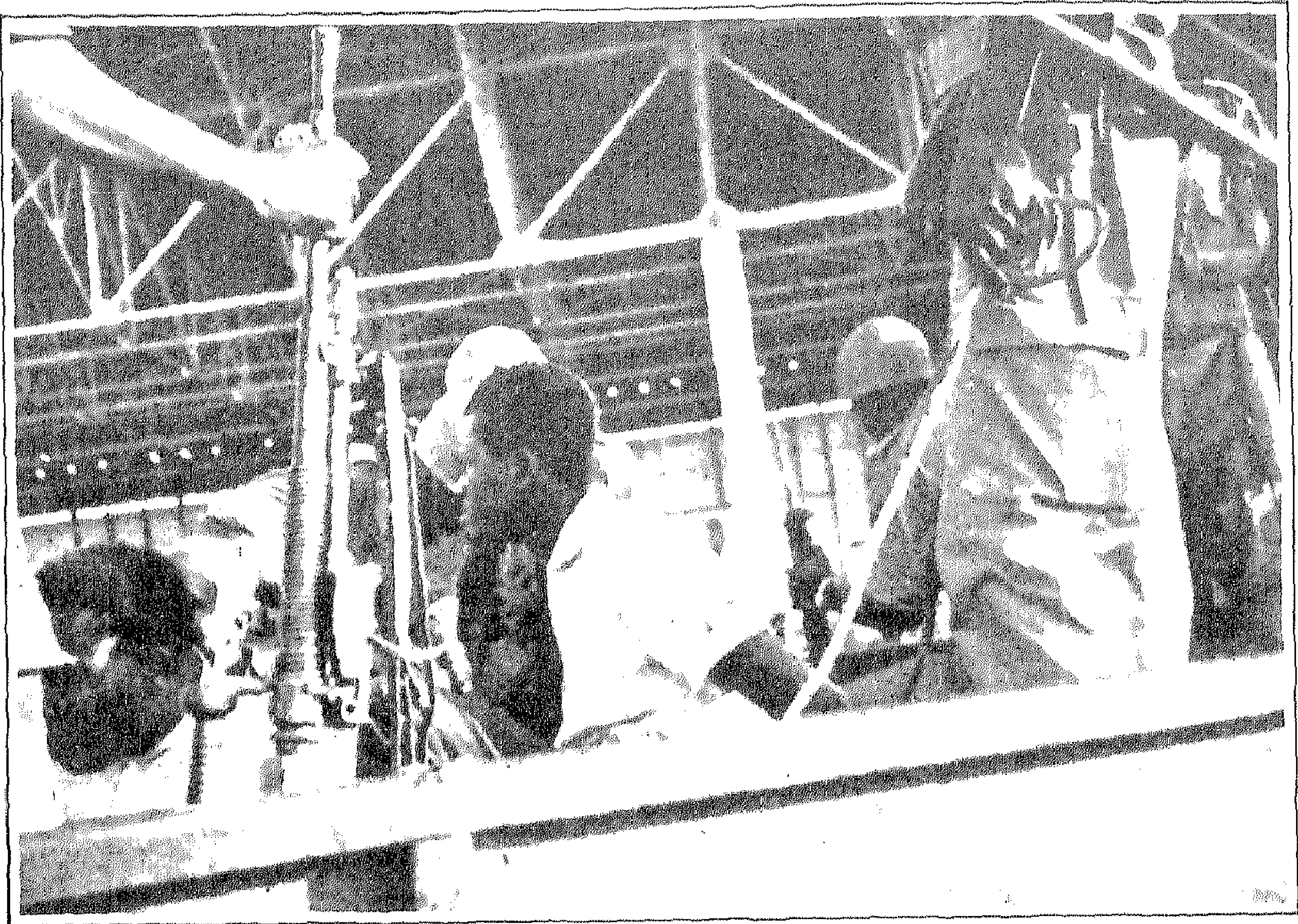


□ بودوان، ملك بلجيكا وزوجته.

وإذا كان قد أمكن التوصل إلى اتفاق بشأن تمرد الجيش، إلا أن «قنبلة زمنية انفصالية» سرعان ما انفجرت في إقليم كاتنجا، بعد أحد عشر يوماً من الاستقلال، فاهتزت لها أركان الكونغو. وكان الرجل الذي فجر هذه «القنبلة الانفصالية» هو مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات وعميل «اتحاد المناجم» فقد أعلن تشومبي في ١١ يوليو ١٩٦٠ استقلال إقليم كاتنجا وانفصاله عن الحكومة المركزية. واتهم الحكومة باعتمادها على أغلبية برلمانية من المتطرفين الذين وصلوا إلى الحكم بالخداع. وذهب إلى أن هدف هذه الحكومة هو فيما يبدو «تفكيك الجهاز الإداري والعسكري وإيجاد حكم إرهابي يطرد البلجيكيين الذين يعاوننا». وكان أحرى بتشومبي أن يقول: «الذين يستغلوننا»!

وناشد تشومبي روي ولنسكي الاستعماري البريطاني رئيس وزراء روديسيا أن يرسل قواته إلى الكونغو ليعيد النظام إليه. وظن ولنسكي أن الساعة التي ظل ينتظرها قد حانت. ولكن ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك منعه من أن يرسل أية قوات إلا بعد أن تسمح له بذلك الحكومة البريطانية في لندن، على نحو ما ذكر رولف اتاليلاندر.

ولكن الحكومة البلجيكية أرسلت قواتها على الفور إلى كاتنجا. وهكذا كانت التجزئة المتمثلة في الكيان القبلي الانفصالي القائم في كاتنجا هي



□ لومومبا أثناء اعتقاله.

«القاعدة» التي أنشأها الاستعمار البلجيكي لتهبط عليها طائراته المحملة بجنود «البراشوت» لحماية مصالحه وإحكام سيطرته واستغلاله لموارد كاتنجا: فهي تنتج ٦٠ ٪ من اليورانيوم الذي يستخدمه الغرب، و ٨٠ ٪ من الماس الصناعي في العالم، و ٧٣ ٪ من الكوبالت في العالم، و ٨ ٪ من النحاس في العالم. كما تضم مواردها المعدنية: الذهب والزنك والمنجنيز.

والسؤال الآن: من الذي قرر مصير كاتنجا؟

يجيب سارتر، بوضوح مذهل، على هذا السؤال قائلاً:

لقد تقرر مصير كاتنجا بين البلجيكيين والإنجليز والفرنسيين والأميركيين وحكام روديسيا وجنوب إفريقية. ولئن بدا كل شيء مدبراً اليوم. ولئن عادت كاتنجا إلى الكونغو فذلك لأن الولايات المتحدة الأميركية قد اتفقت مع البلجيكيين ـــ ضد روديسيا واتحاد إفريقية الجنوبية ومطامع الإنجليز والفرنسيين ـــ لتستغل استغلالاً مشتركاً الثروات الكنغولية عن طريق الشركات المختلطة.

ولقد اقتضى تنفيذ هذا المخطط الاستعماري إزاحة الكونغو من المفاوضات والمناقشات، وهذا يعني، كما يقول سارتر، القضاء على لومومبا. ذلك أن لومومبا كان يمثل الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

الصراعات الفكرية

غير أن ما حدث في الكونغو، بعد الاستقلال، لم ينفجر فجأة، فقد كانت هناك مقدمات تشير إلى إمكانية وقوعه. فقد بدا واضحاً منذ مؤتمر بروكسل ١٩٦٠ أن ثمة خلافات فكرية حادة بين زعماء الكونغو. فقد كان كازافوبو رئيس حزب الأباكو يطالب بدستور فيدرالي. أما مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات فقد حاول الحصول على بند في اتفاق الاستقلال ينص على قيام «حكم ذاتي» في كاتنجا. إلا أن لومومبا رفض، بإصرار عنيد، هذه المحاولات الانفصالية التي تصدر عن نزعات قبلية، وتمسك بقيام دولة موحدة ذات حكومة مركزية في الكونغو.

وهنا نلمح الافتراق الأساسي بين أفكار باتريس لومومبا وأفكار كازافوبو وتشومبي:



□ جان بول سارتر.



□ تشومبي.

ففي حين أن الإيمان بالكيانات القبلية الانفصالية هو المنطلق الفكري عند كازافوبو وتشومبي، فإن الإيمان بالوحدة الوطنية هو المنطلق الفكري عند لومومبا.

وتعد الحركة السياسية الحزبية في الكونغو تعبيراً واقعياً عن هذه الصراعات الفكرية. وفي الإمكان إدراك ذلك إذا ما تسنى للمرء أن يقف على أصول ومبادىء الأحزاب الرئيسية الثلاثة في الكونغو، وهي:

● حزب الأباكو: ويراسه كازافوبو.

وقد تأسس عام ١٩٥٠. وهو يمثل «تحالف قبائل الباكونجو»، كما يقول رونالد سيجال في كتابه «صور إفريقية». ويهدف هذا «الحزب القبلي» إلى إنشاء دولة مستقلة في الكونغو الأدنى. ومن ثم فإن كازافوبو كثيراً ما يتحدث، كما يقول رولف أتاليانذر، عن «مملكة باكونجو القديمة» التي ازدهرت فيما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر. ومن هنا فإن حزب الأباكو ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وإنما هو سلفي كذلك.

● حزب الكوناكات: ويراسه موريس تشومبي.

وقد تأسس في يوليو عام ١٩٥٩. ومقره إقليم كاتنجا. ويهدف هذا الحزب إلى إقامة حكم ذاتي في كاتنجا. ويعتمد اعتماداً كبيراً، كما يقول رونالد سيجال، على قبيلة لوندا. ويستمد تأييده من بلجيكا ومن اتحاد المناجم، وهي الشركة التي تسيطر على أغنى مناجم النحاس في كاتنجا. ومن ثم فإن حزب الكوناكات ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وإنما هو عميل أيضاً.

● حزب الحركة الوطنية الكنغولية: ويراسه لومومبا.

وقد تأسس هذا الحزب في ١٠ أكتوبر عام ١٩٥٨. ومن أهم مبادىء هذا الحزب تحقيق الوحدة الوطنية، وإقامة دولة موحدة ذات حكومة مركزية قوية في الكونغو.

وهكذا يتضح لنا أنه لم يكن هناك سبيل إلى التوفيق أو التوافق بين هذه الاتجاهات الفكرية المتصارعة. فالوحدة الوطنية نقيض القبيلة والنزعات الانفصالية. وكان لومومبا يرى أن الوحدة الوطنية هي السبيل الوحيد لشجب الصراعات القبلية التي تفتت الوطن الكنغولي.

* * *

بيد أن سارتر يأخذ على لومومبا أنه لم يقرن دعوته إلى المركزية والوحدة الوطنية بالاشتراكية. ففي رأي سارتر أن المطلوب باسم الوحدة أن يضحي كل فريق اجتماعي بمصالحه من أجل المصلحة المشتركة. ومن ثم:

«لا تستطيع المركزية أن توجد الوحدة الوطنية والمصلحة المشتركة إلا إذا كانت الثورة التي تخرج منها اشتراكية».

ولكن سارتر يستدرك هذا الحكم حين يقول: «كان بإمكان لومومبا أن يفهم ما سموه بـ «رسالة إفريقية الاشتراكية»، وهي الرسالة التي حددها فرانز فانون بقوله:



□ موبوتو.



□ كزافوبو، جوزيف.

«إن الاستقلال كلمة فارغة بلا إصلاح زراعي وتأميم المشاريع الاستعمارية».

ولكن من يتسنى له الاطلاع على بعض خطب لومومبا بعد الاستقلال يجد بين سطورها عبارات موحية تشير إلى إدراكه ضرورة تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المهينة التي يرزح فيها الشعب والتي خبرها لومومبا بنفسه. ففي يوم الاستقلال يختتم لومومبا خطبته بقوله:

«إنني أطلب من جميع المواطنين رجالاً ونساء وأطفالاً، ان يشرعوا في العمل على خلق اقتصاد وطني، وأن يعملوا على ضمان استقلالنا الاقتصادي».

وفي مواضع أخرى من خطب لومومبا.. نجده يؤكد ضرورة تحقيق «العدالة الاجتماعية» للمواطنين.

وأياً كان الأمر، فإن من العسير للغاية تقويم الوعي الاجتماعي عند لومومبا نظراً لأنه لم يبق في الحكم إلا نحو ثمانية شهور واجه فيها أحداثاً سياسية عاصفة ومؤامرات ودسائس لا حصر لها.. أفضت إلى اغتياله.

الوحدة الإفريقية

وإذا كان لومومبا قد خاض «حرباً مقدسة» من أجل تحقيق الوحدة الوطنية في الوطن الكنغولي، فإنه كان يخوض هذه الحرب، في ذات الوقت، من أجل تحقيق الوحدة الإفريقية.

ذلك أن النظرة الشمولية الواعية عند لومومبا قد مكنته من الربط العضوي بين الوحدة الوطنية للكونغو المتحرر وبين الوحدة الإفريقية. ومن ثم فقد كان تحرير الكونغو عنده هو في ذات الوقت، تحريراً إفريقية. وأن العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الوطنية في الكونغو هي ذاتها العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الإفريقية.

ولذا فإن الأمر يقتضي، كما قال في مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨، النضال ضد العوامل الداخلية والخارجية التي تشكل عقبة في وجه تحرير بلادنا وتوحيد إفريقيا.

بل ما هو أعمق من هذا أن لومومبا كان يدرك تمام الإدراك أن مشكلات الكونغو، كما يقول سارتر، هي مشكلات إفريقية كلها، بل ما هو أكثر من هذا أن بلده لن يجد القوة على أن يعيش بعد الاستقلال إلا في إطار إفريقية حرة. فقد كان الكونغو يبدو للومومبا موجزاً مكثفاً لجميع الفوارق التي تخلد نزعات الانفصال الإفريقية، من حدود إقليمية، وصراعات قومية ودينية، وتمييزات اقتصادية.

ولقد بدأ لومومبا منذ اللحظة الأولى التي حصل فيها الكونغو على الاستقلال يعمق أبعاد قضية الوحدة الإفريقية. فقد أعلن للجماهير الكنغولية التي تحتفل بالاستقلال: «أن تحرير الكونغو يعد خطوة حاسمة نحو تحرير القارة الإفريقية بأسرها». وعندما اجتمع المؤتمر الثاني للشعوب الإفريقية بليوبولدفيل، حيث أعرب لومومبا في الجلسة الافتتاحية، في ٢٥ أغسطس

١٩٦٠، عن إيمانه الحار العميق بالوحدة الإفريقية. وقد طرح لومومبا أبعاد قضية الوحدة الإفريقية على هذا النحو:

«إن هدفنا المشترك هو تحرير إفريقية، ولن يمكننا تحقيق هذا الهدف إلا عن طريق التضامن والوحدة، بيد ان تضامننا لن يكون له معنى إلا إذا كان تضامناً بلا حدود، ويكون ذلك بأن نؤمن جميعاً بأن مصير إفريقية لا يتجزأ».

ولقد كان لومومبا يدرك العقبات التي تعترض طريق الوحدة الإفريقية، وهي ما أطلق عليها عبارة «الأساليب الكلاسيكية» التي يستخدمها الاستعماريون لتجزئة القارة وتمزيق وحدتها وهي: الاحتلال العسكري، والخلافات القبلية، وتحطيم المقاومة السياسية. وقد أشار لومومبا إلى الأسلوب الجديد الذي يستخدم به الاستعمار شعاره التقليدي «فرق تسد»:

«لقد كان الاستعمار في الماضي يقسم الدول على اساس القبيلة أو العشيرة او القرية، أما اليوم، وإفريقية تحرر نفسها، فإنه يسعى لتقسيمها على اساس خلق مجموعات من الدول الإفريقية المتعادية».

ومن ثم فقد كان لومومبا يدعو لتوحيد جبهة مقاومة الأمم الإفريقية الحرة ضد الدول الاستعمارية.

* * *

إلى هذا، فقد كان لومومبا يتطلع، في ظل الوحدة الإفريقية إلى إنشاء نظام جديد يتواءم مع متطلبات التطور الإفريقي. وكان هذا يتطلب، في رأيه:

«ان نغير الأساليب التي فرضت علينا وان نكتشف انفسنا، ونحررها من الاتجاهات العقلية، وكافة العقد التي فرضها الاستعمار علينا طوال عدة قرون».

ومن ثم فقد كان لومومبا يؤمن بأن هدف الإفريقيين الأحرار هو: بعث القيم الثقافية والفلسفية والاجتماعية والأخلاقية الإفريقية.

بيد أن هذه الأحلام الرائعة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق الوحدة الإفريقية.. ومن هنا فقد قال لومومبا في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني للشعوب الإفريقية الذي عقد في ليوبولدفيل:

«إنها الوحدة، ايها الإخوة الأعزاء في الكفاح.. ايها الإخوة الأعزاء في الفقر، التي تشد أزرنا وتمكننا من التصدي لدسائس الاستعماريين ومؤامراتهم، وعندما نتحد كأبناء أسرة واحدة سوف يكون في مقدورنا أن ندافع عن شرف إفريقية وحريتها».

ثم ينطلق لومومبا ليحدد رسالة إفريقية إزاء الحضارة الإنسانية حين يقول: إن إفريقية المستقلة المتحدة سوف تقدم مساهمة إيجابية وعظيمة للسلام العالمي، وأنها سوف تلعب دوراً هاماً في خلق عالم أفضل، عالم تسوده الأخوة.

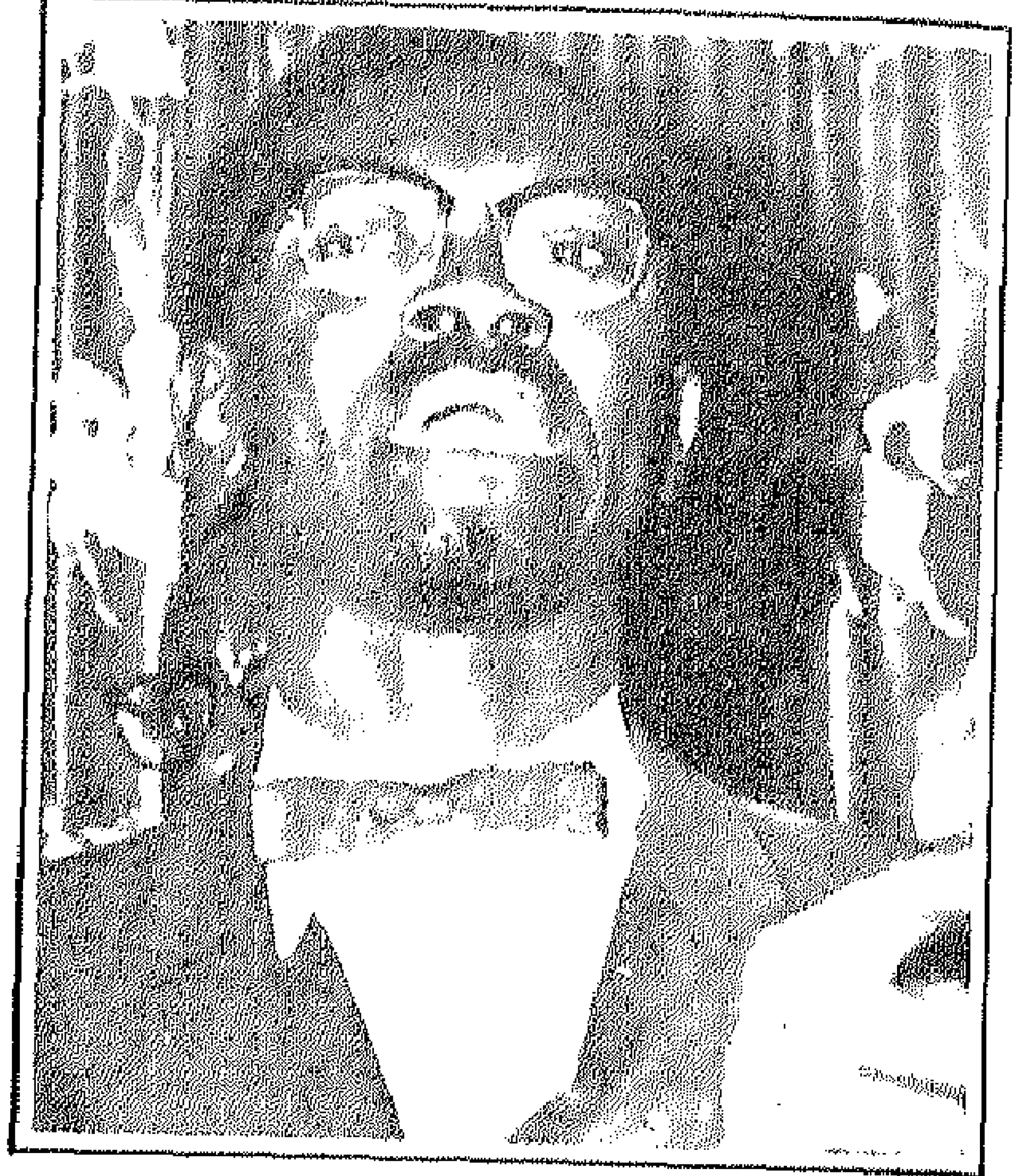
ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن يثير إيمان لومومبا بقضية الوحدة الإفريقية ثائرة الاستعمار وعداوة بعض رجاله الأشداء من حكام روديسيا وجنوب إفريقية الذين اتفقت مصالحهم مع مصالح الخونة الانفصاليين القبليين في الداخل على القضاء على لومومبا.. وبمعنى أوضح: القضاء على «أفكار» لومومبا.

الثائر.. والثورة

«إن أفكار لومومبا التي تتمثل في الوحدة الوطنية والوحدة الإفريقية، والدولة الموحدة ذات الحكومة المركزية بمثابة ثورة على الواقع القبلي الانفصالي في الكونغو، ومن ثم فقد كان لومومبا ثائراً.. وهنا يتدخل سارتر ليقول: «ولكنه كان بلا ثورة». إذ أن ما حدث في الكونغو كان ثورة لم تقم».

وتفسير ذلك عند سارتر أنه في الوقت الذي طالب فيه الشعب الكنغولي وقادته بالاستقلال العاجل بعد ثورة ٣ و ٤ يناير ١٩٥٩.. لم تعارض بلجيكا هذا المطلب، وحصل الشعب على الاستقلال يوم ٣٠ يونيه ١٩٦٠. وهكذا حصلت الكونغو، كما يقول رولف أتالياندر، على استقلالها بأسرع مما حصلت عليه أي مستعمرة أخرى. وهذا على عكس ما حدث في الجزائر مثلاً. فمنذ أعلنت جبهة التحرير الجزائرية بدء النضال المسلح، في أول نوفمبر عام ١٩٥٤، خاض الشعب الجزائري حرباً عنيفة ضد الجيش الفرنسي، وكان أن اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن الجزائر بعد أن ارتوت أرض الجزائر بدم مليون مناضل شهيد.

ومعنى هذا أن ما حدث في الجزائر كان ثورة شعبية، ومن شأن الثورة الشعبية ضد



□ لومومبا شهيد لا تنساه بلاده.

الاستعمار أن توحد، كما يقول سارتر، الجيش والشعب معاً. ويقتضي هذا القضاء على القبلية وإلا غرقت الثورة في الدم. وتتم تصفية هذه الآثار بالإقناع والتعليم السياسي أو بالإرهاب إذا لزم الأمر.

بيد أن ظروف الكونغو لم تتح قيام ثورة شعبية «يمتد فيها النضال إلى أطراف البلاد فيوحدها». ومن هنا فقد ظلت القبلية في الكونغو محتفظة بكياناتها يغذيها الاستعمار تحقيقاً لمصالحه: ذلك أن القبلية تعني الانفصالية. ومن المعروف أن مصالح الاستعمار لا تزدهر إلا في ظل الانفصال والتطاحن بين أبناء البلد الواحد، طبقاً لسياسته: فرق تسد. وهذه السياسة هي السلاح الذي يطعن به الاستعمار قلب الاستقلال الوطني، أي يطعن الوحدة الوطنية فيبقى الاستقلال، ولكنه يكون جثة هامدة تنهش فيها المصالح الاستعمارية.

الخطــر..!

وهذا هو الخطر الحقيقي الذي كشفته معركة الكونغو، والذي يتعين على الحركات القومية في إفريقية خاصة، وفي آسيا وأميركا اللاتينية عامة أن تدركه: إن التجزئة ــ والقبلية إحدى صورها ــ هي البذرة التي زرعها الاستعمار في البلاد ليجني أبناؤه حصاد الفرقة والخلاف.. ومن هنا يسهل على الاستعمار أن يحمي مصالحه.

ومن ثم كان العمل الأساسي لأي حركة قومية هو اقتلاع جذور التجزئة، والعمل على توجيه الأمة. إذ أن الوحدة الوطنية هي المعادل الموضوعي للاستقلال الحقيقي. وبدون وحدة وطنية يكون الاستقلال في خطر.

ولقد كان انفصال كاتنجا معركة انتصر فيها الاستعمار الجديد الذي استطاع بعد ذلك، بالمؤامرة، أن يحرك صنائعه من أمثال كازافوبو.. وموبوتو الذي كان «يعمل في خدمة بلجيكا» من أن يختطف السلطة ويعتقل، في ظل وجود الأمم المتحدة، لومومبا. ثم تبلغ المؤامرة ذروتها حين يسلم كازافوبو لومومبا إلى تشومبي. ومن كاتنجا مقر الانفصال أذيع نبأ اغتيال لومومبا في ١٣ فبراير ١٩٦١.

والسؤال الآن: من الذي اغتال لومومبا؟

إن الذين اغتالوا لومومبا هم الذين «اغتالوا» وحدة الكونغو بتدبيرهم مؤامرة انفصال كاتنجا.

ويرى سارتر ان الذين اغتالوا لومومبا هم البلجيكيون والفرنسيون والإنجليز والشركات الكبرى ومستر همرشولد. وقد اغتالوه بصنائعهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي ومونجو.

ولكن لماذا اغتالوه؟

لأنه كان لا بد أن يختفي، فهو، كما يقول سارتر، كان يمثل وهو حي الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

وفي تلك اللحظة المهيبة التي مات فيها لومومبا ماتت إفريقية بأسرها لتبعث من جديد، كما قال فرانز فانون. ويعمق سارتر هذا المعنى حين يقول: إن لومومبا وقد مات يكفي أن يكون شخصاً ليصبح دولة إفريقية بأسرها.. بإرادتها الوحدوية، وتنوع أوضاعها، ومنازعاتها وقوتها وضعفها:

إنه لم يكن، وما كان يستطيع ان يكون بطل الوحدة الإفريقية فأصبح شهيدها.

ولقد كان موت لومومبا، كما قال فرانز فانون، تحذيراً لإفريقية كلها. ذلك أن تاريخه، كما يرى سارتر، قد ألقى النور أمام الجميع على الرابطة العميقة للاستقلال والوحدة والنضال ضد سياسات الانفصال على صعيد القارة، والنضال ضد مؤامرات الاستعمار الجديد.

وإذا كانت إفريقية قد أدركت من معركة الكونغو أن الوحدة كما يقول سارتر، تعني الحرب ضد الانفصالية والاستعمار، فإن معركة الجزائر قد فتحت وعي إفريقية على أن الوحدة تعني: الثورة الاجتماعية على الواقع الفاسد. •

بلاد ما بين النهرين

□ جني يحرس شجرة مقدسة، وقد كلف بالسهر على الامن.



وثروتها الحضارية

د. سامي زكي

ما سمي «بالثورة الحجرية»، لم يحدث دفعة واحدة، بل سلك خطاً بيانياً متحركاً متغيراً، بين الحين والحين، تميز بالتفاعل بين الإنسان وبيئته، حتى بلغ غايته، وذلك خلال أربعة آلاف سنة (التاسع — الخامس). وتتميز هذه الفترة بالتدرج ما بين مرحلة الصيد وجني الثمار الطبيعية، إلى تطبيع الحيوانات، فالزراعة، فالإقامة الثابتة. في الألف السابع قبل الميلاد، ظهر السيراميك، على أسس تقنية واضحة. ففي مطلع الألف السادس، عرفت منطقة حسونة على دجلة، تقدماً ملحوظاً، خاصة في مجال الإقامة وبناء البيوت في المناطق الزراعية. وظهر فيها السيراميك، وحوالي عام ٥٠٠٠ عرفت سامراء الأواني الفخارية التي تميزت بحذق تام.

وكان لتطور الري في وديان الأنهار الكبيرة، اثره في التطور الاجتماعي، فقد أتاح ابتكار المحراث واستخدام الحيوانات لجره، للمجتمعات الفلاحية، تطوراً متسارعاً في جنوب العراق. وعرفت الزراعة العبيدية ازدهاراً تكنولوجياً، خاصة في أشغال النحاس.

وحدث تحول عميق في الحقبة المنسوبة إلى (Uruk) (٣٥٠٠ — ٣٠٠٠) بظهور حضارة مدنية. فإثر السيراميك الملون العبيدي، ظهر سيراميك ذو لون واحد. وعرفت الأختام الأسطوانية، والمعابد الضخمة، ذات الأساسات الحجرية، وظهرت الألواح الفخارية المكتوبة، بلغة حروفها تبلغ الآلاف.

تجدر الإشارة إلى أن مواقع كثيرة في العراق، تضم آثاراً عديدة، يجري التنقيب فيها، أو البحث عنها لتحديد مواقعها، يتوقع العلماء أن تكشف عن مراحل حضارية، وشواهد، قد تدعم المعطيات الآثارية، أو تضيف جديداً إلى المعروف.

وهذا ما أكدته الحفريات التي ظهرت نتائجها قبل ثلاث سنين، فكشفت عن الواح تعود إلى الألف التاسع قبل المسيح، وإن لم تفك حروفها حتى اليوم، غير أن الآثاريين، يؤكدون انها ستحدث ثورة في المعارف التاريخية، وخاصة في مجال اختراع الحرف، في مرحلة ما قبل المسمارية.

كنوز متحف بغداد

اغتنت مجموعة متحف بغداد الأثرية، بإيقاع سريع، منذ بداية هذا القرن، إلى حد كان من الضروري معه مرات عدة، إيجاد أماكن جديدة لاحتوائها. عام ١٩٦٣، جمعت الآثار المكتشفة، القادمة من مصادرها مباشرة، في أبنية حديثة، بنيت خصيصاً لها، إذ استخدمت المساحات ومصادر النور، لابراز جمالها. فثمة ستة أقسام تتيح معرفة تاريخ ما بين النهرين، ومشاهدة معالمه: مرحلة ما قبل التاريخ، المرحلة السومرية، البابلية، الآشورية، والفارسية، والإسلامية، تتتابع امام الزائر. نقدم هنا المرحلتين الأوليين.

لقد لعب الشرق الأدنى دوراً حاسماً في اصول الحضارات. إذ لم يعد ثمة ريب في أن «ثورة العصر الحجري» أي اللمسات الأولى في الزراعة وتربية الحيوانات، نشأت في منطقة التلال المطلة على السهول، في شمال العراق، في وقت واحد مع الهضبة الأناضولية. مرت آلاف السنين قبل أن ينتقل الإنسان من جمع الرزق البدائي، إلى مرحلة الزراعة، ومن الصيد إلى تدجين الحيوانات المتوحشة، التي يبدو أن الخروف، كان أولها، وذلك قبل تسعة آلاف سنة من المسيح، في مناطق شانيدار، والشمال

العراقي، التي بدأ فيها التحضر، بعد مراحل اساسية من تطور الإنسان، متقدمة، في ذلك، على عدة مناطق من الشرق.

الالهة ــ الأم، ما قبل التاريخية

في مغارة شانيدار، القرية المتاخمة لزاوي ــ شيمي (Zawi-Chémi) وفي مراكز أخرى من العصر الحجري في شمال العراق، وجدت أدوات هامة، بينها، على نحو خاص، شفرات قاطعة من السبج (حجر زجاجي اسود)، ذات بريق أسود. وقد ثبتت بالقار في شق مقبض من الخشب او الطين المشوي. وهكذا نحصل على مناجل فعالة، ذلك أن السبج حجر بركاني زجاجي، شديد القدرة على القطع.

تدلنا آلات الإنسان الحجري (أي من العصر الحجري) على فعالياته في مجال الصيد والزراعة. ولكن ما هو أثمن، بالقياس إلى عصرنا، شواهد عالمه المقدس، وتطلعاته، ومعتقداته؟ ثمة تماثيل نساء من الطين المشوي أو المرمر، تتيح لنا تمييز مشاعر الإنسان الجوهرية، لأنها تتصل بطبيعته، وبظاهرة التعاقب (البقاء). لقد كانت هذه التماثيل، في العصور الحجرية، بشكلها النسوي المتطور، وبجزئها الأسفل الضخم، كانت في البدء رمزاً لخصب المرأة كما تصورها الرجل لتجسد رغباته، وتؤمن بقاء النوع. ولقد نشأت مذاهب، ونمت حول رموز الخصب هذه، التي استخدمت أحياناً تعاويذ، تعين في الصراع ضد العقم، أو في تيسير الولادة.

ومن سر الإنجاب، الذي لا يتضح فيه دور الذكر، ومن أعجوبة الولادة التي تتجلى فيها الألوهة، ينبثق تدريجياً مفهوم الألوهة النسوية، مالكة الحياة، «الالهة ــ الأم» التي كانت دائماً أقدم مثل أعلى للإنسانية.

منذ فجر العصور الحجرية، تعلم الإنسان مراقبة المحيط النباتي، وتحقيق الخطوات صوب ظهور الزراعة، فقد استوعب نمو البزرة في باطن الأرض، وقارنها بنمو الطفل في بطن الأم.

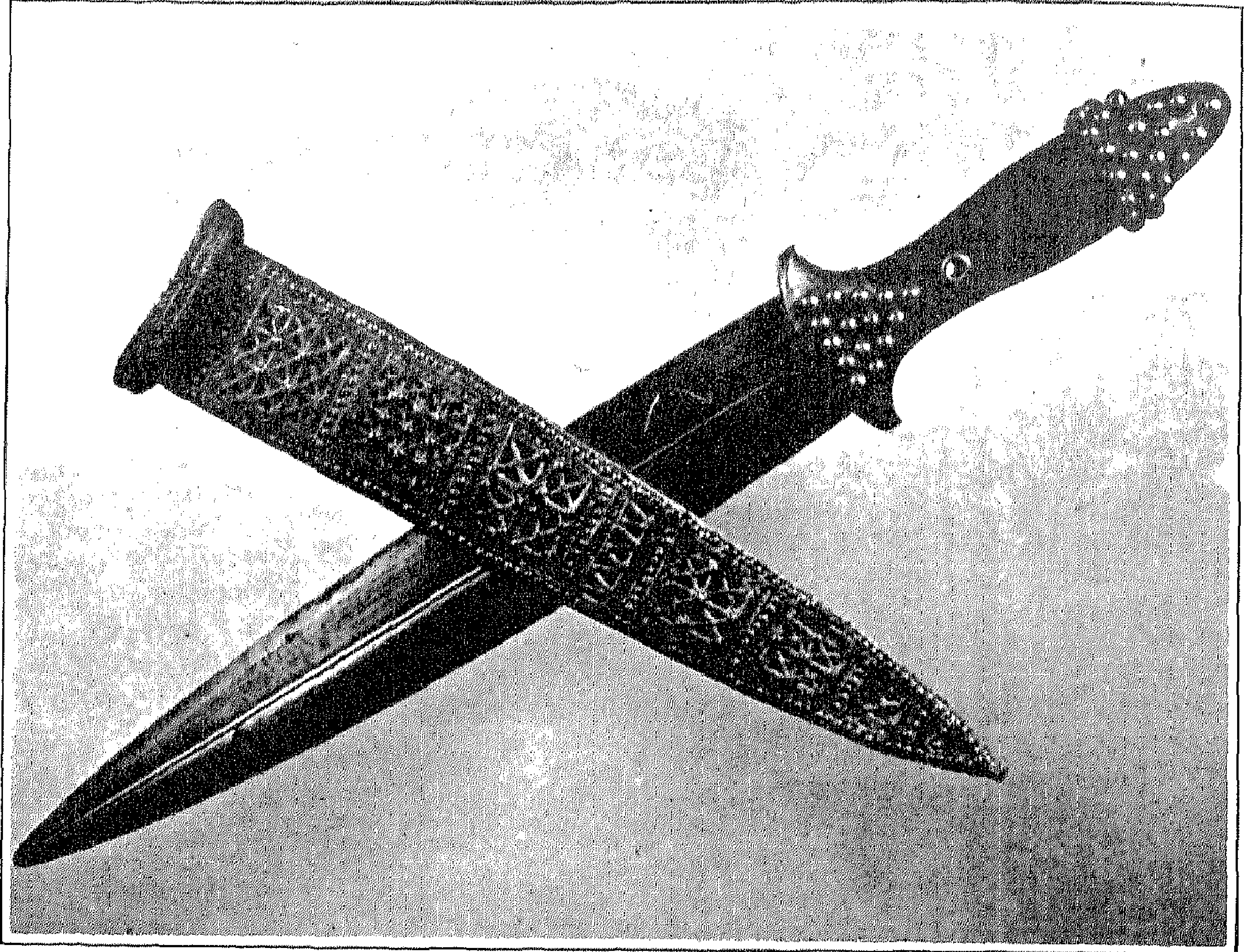
في بلاد ما بين النهرين، وعلى الأراضي التي انقذت من الجفاف، بسقايتها، اغتنت شخصية الإلهة بعناصر جديدة: المبدأ النسوي، خصب الأمومة حتى لدى الحيوان، خصب الأرض. وقد انحدر من مفهوم الالهة، الالهة الجهنمية، إلهة خصب الحقول، وإلهة خصب تجدد النبات، التي كان الناس يحتفون بها بمناسبة العام الجديد. وليست إينانا، وعشتار، وعناة، وأستارتي، وسيبيل، وارتميس، إلا بعض أسماء «الالهة ــ الأم» التي تداولها سكان العالم الشرقي، خلال ثلاثة آلاف سنة، والتي غدت في العصر الحجري: «الأرض ــ الأم»، «الالهة ــ الأرض».

يمثل هذه «الإلهات ــ الأمهات» في العصر الحجري، في متحف بغداد، تمثال صغير من الطين المشوي. رأسه رأس بشري، ولكن بولغ بالعينين والحواجب، وارتدت الأذنان إلى الخلف، وانحسر أسفل الوجه نحو الأنف. وينفصل الرأس عن الجسم بعنق مزين بعقد. أما اليدان فمشوهتان إلى حد كبير، فهما ضخمتان عند مبدئهما في الجسم، وتختلطان بالكتفين، وتنتهيان بتكتلين منطويين نحو الصدر، تحت ثديين صغيرين جداً. وقد وجد هذا التمثال في تل الصوان، الذي عثر في قبوره على مجموعة تماثيل صغير نسائية، صنعت من المرمر، شديدة الملاسة. أما العيون فصنعت من القواقع، وثقبت، ووضع على الثقوب حصوات شديدة السواد، لتبدو النظرة ثاقبة.

السيراميك

ظهر السيراميك في القرن السابع قبل الميلاد، وما لبث أن أبدع روائعه الفنية، ذلك أن الخيال والحذق صبّا جهودهما في مجال الإبداع والتقنية. والشاهد على هذا الإبداع ما وجد من نماذج في سامراء، وخاصة الأواني.

ومن الروائع الإناء الذي عثر عليه في حسونة، فهو نموذج يتميز بأسلوب خاص، برز في اشكال مختلفة، في أوان عديدة. فانطلاقاً من مساحة مركزية هندسية، تتشعب أشكال، تتجه عكس اتجاه عقارب الساعة. لعل ابرزها قوائم الطيور ذات الحركة الإنسيابية، والتي تتخذ شكل صليب معكوف تقريباً. نحن مع الإناء، تجاه تشكيل، تجب قراءته عبر الفراغ، وعبر العناصر التزيينية، التي توحي بدوران لا نهائي.



□ خنجر من الذهب واللازورد، مع قرابه. يرجع إلى ٢٥٠٠ق.م. وقد وجد في مدافن أور الملكية.

سيد الحيوانات

في نهايات عصور ما قبل التاريخ، ظهرت أقدم الأختام في العالم، في منطقة (Tepe-gaura) شمال الموصل. يظهر على الختم شكل إنسان، تارة قرب حيوانات، سعيدة بقربه، أو قافزاً قفزة الحيوان الذي يصاحبه.

لا ريب أن لهذا النوع من الرسوم، سوابق، تعود إلى يوم كان الإنسان يعيش بين الحيوانات، ويتغذى من الصيد أو جني الثمار البرية. ولعله بعد التطور خلال الحقب، غدا نوعاً من «الساحر» الذي يسيطر على الحيوانات بسحره. والواقع أن ثمة ختماً وجد في تل الأسمر، يظهر فيه شكل الإنسان، محاطاً بالثعابين والغزلان، التي تتبع إشاراته، وتخضع لمشيئته.

وفي الفترة التالية ظهر كذلك نموذج البطل «جلجامش»، مع العلم أن هذا البطل ظهرت عنه منحوتات متأخرة، تطور فيها التزيين مع الاحتفاظ بالموضوع الأساسي، الذي يظهر فيه جلجامش الذي يرضخ الحيوانات، والوحوش، ولا يخشى قوة. ولعل أسطورة هرقل تنطلق من الموضوع ذاته، فهو رمز للإنسان المتفوق الذي لا تقف في وجهه قوة، ولكن امرأة تخضعه في النهاية. ويبدو كذلك أن هذا الرمز، استمر حتى العصور البيزنطية والمسيحية الأولى.

الملك ـــ الراهب

مصادر هذا النموذج اسطوانات وجدت في (Uruk). ويتميز بلحية طويلة جدا، وعدم وجود شاربين، وبمنديل يغطي الرأس، وربما كان لضبط الشعر، وبجزة شعر كثيفة على الرقبة. اما الكساء فهو عبارة عن ثوب واحد ينحدر إلى ما تحت الركبة فحسب. ويقوم النموذج بصيد الأسود. غير أنه تطور في ما بعد، وغدا يسيطر على الحيوانات دون قتلها، ويطعم القطعان. ثم أصبح ذلك الذي تقدم إليه القرابين قرب المعابد.



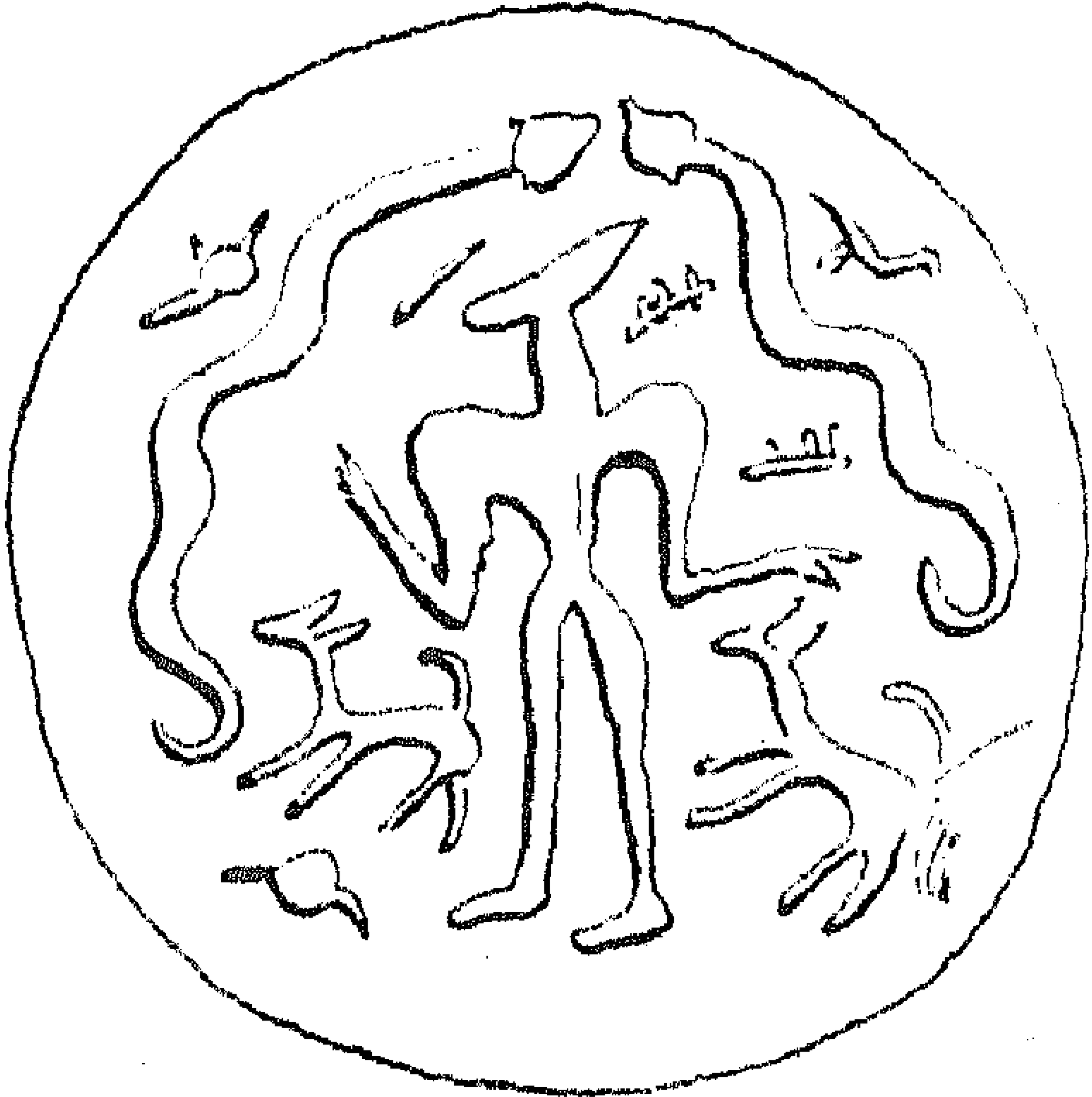
□ غلغامش يسيطر على اسدين. الالف الثالث قبل المسيح.

وغدا في مرحلة تالية، المشرف على المعبد والعبادة فيه.

على كل حال، تعتبر مدينة (Uruk) من أشهر المدن حضارة، فقد كانت عاصمة عدة ممالك، كما وجدت في الحفريات التي جرت في مكانها، ألوان من التماثيل، والنقوش، والزخارف، تدل على مراحل حضارية هامة.

وقد عثر في منطقة إيانا في (Uruk) على آثار هندسية رائعة، ولقد جاءت معابدها، التي استوحت معابد أريدو، غاية في الإبداع.

لعل من أبرز آثار (Uruk)، إناء كبيراً ضيقاً في أسفله، ثم يتسع تدريجياً حتى القمة، عليه طبقات من التزيين، يفصل بينها طبقتان لا تزيين فيهما. تحتل الطبقة النباتية القسم الأسفل وهي توحي بالجمود. بينما الطبقتان التاليتان ترسمان، مشهد حيوانات، ثم مشهد رجال ينقلون أواني فاكهة أو طعام. وحركة الحيوانات، وحركة الرجال متعاكستان، مما يمنح المشهدين طابع الحركة الدائمة، على عكس جمود النبات. أما

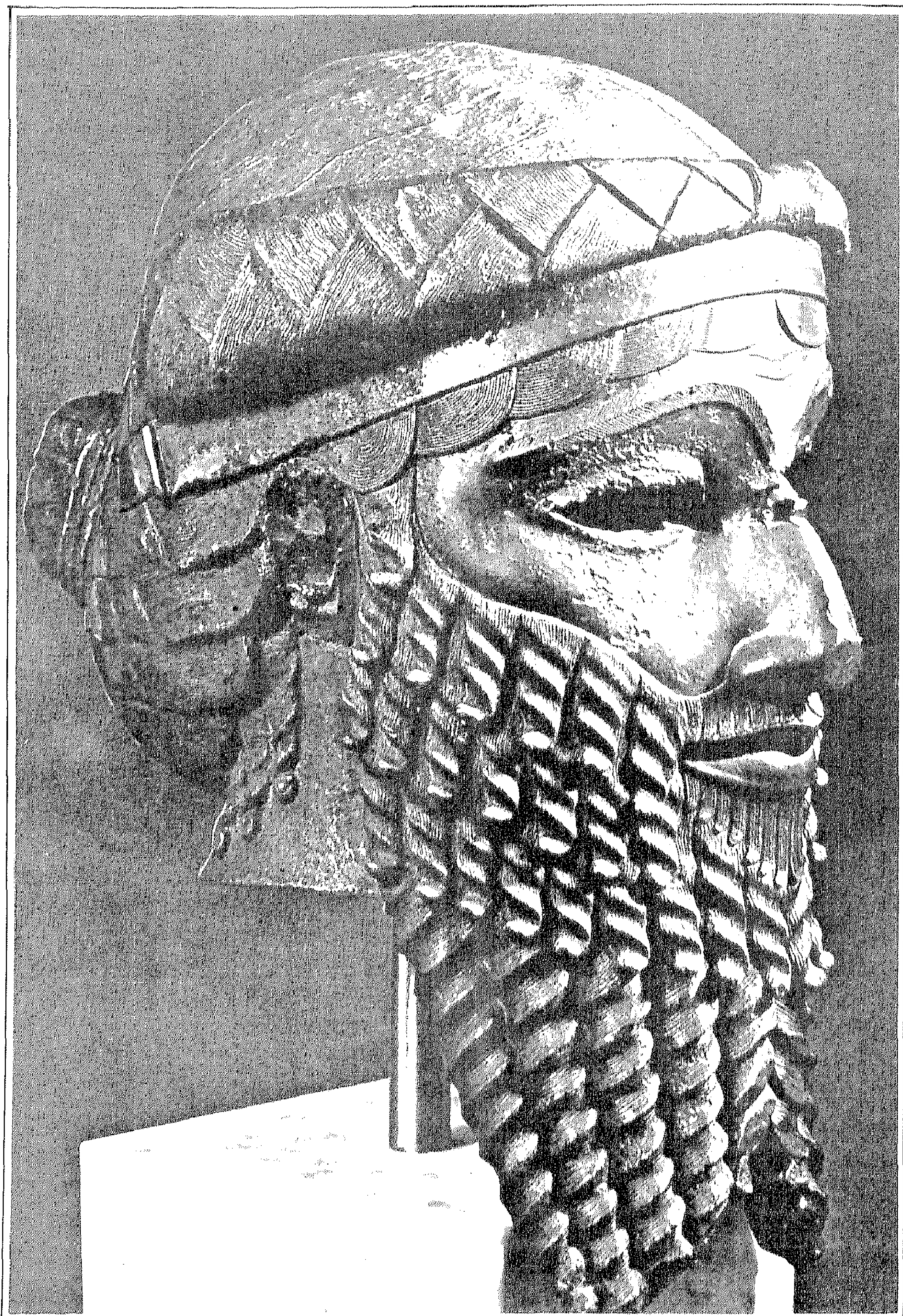


□ من تل اسمر، يضم شكلاً بشرياً، تحيط به حيوانات، خاصة حيّتان.

القسم الأعلى فمخصص لاحتفال ديني، في لقاء الالهة والكاهن الأكبر.

من الواضح أن الكأس (الإناء) كان مكسوراً، وقد رمم بحيث لا يضيع موضوع النقش عليه.

تبرز أهمية هذا الكأس في أنه يجسد علاقة



□ رأس ملكي من البرونز وجد في نينوى. نسب إلى الملك سرجون، بينما هو لحفيده نارام سين.

أديان السومريين بالجانب الحياتي، وموقفهم ومسالكهم من الملوك ورجال الدين. هذا بالإضافة إلى قيمته الفنية الكبيرة، لأنه يمثل مرحلة هامة من مراحل التطور الفني.

وعاء أور

علاقة الخصب بحياة البشر، يعبر عنها الوعاء الخشبي الذي وجد في أور، وقد حفرت على ظاهره مجموعة ثيران تتقدم ببطء وارتياح، وقد اتجهت رؤوسها نحو المشاهد. وجاءت سنابل القمح لتملأ الفراغ خلف رؤوس الثيران.

يمثل هذا الرسم، باتحاد السنابل والثيران لملء الفراغ، رمزاً للذكورة من جهة، وللخصب من جهة ثانية.

سيدة الوركاء

لعل أروع تحفة فنية في هذه المرحلة ــ فجر الألف الثالث قبل الميلاد ــ، هو رأس تلك المرأة، بوجهه الذي يتسم بالصفاء، والجمال، بما فيه من سمة طبيعية، من جهة، وسمة فنية نموذجية. الرأس المرمري هذا، المدعو «سيدة الوركاء»، شاهد على مستوى ما بلغته حضارة السومريين من إبداع، وعلى روعة الفنان الذي صنع الرأس، وخاصة في مجال التناسق الجمالي الكامل.

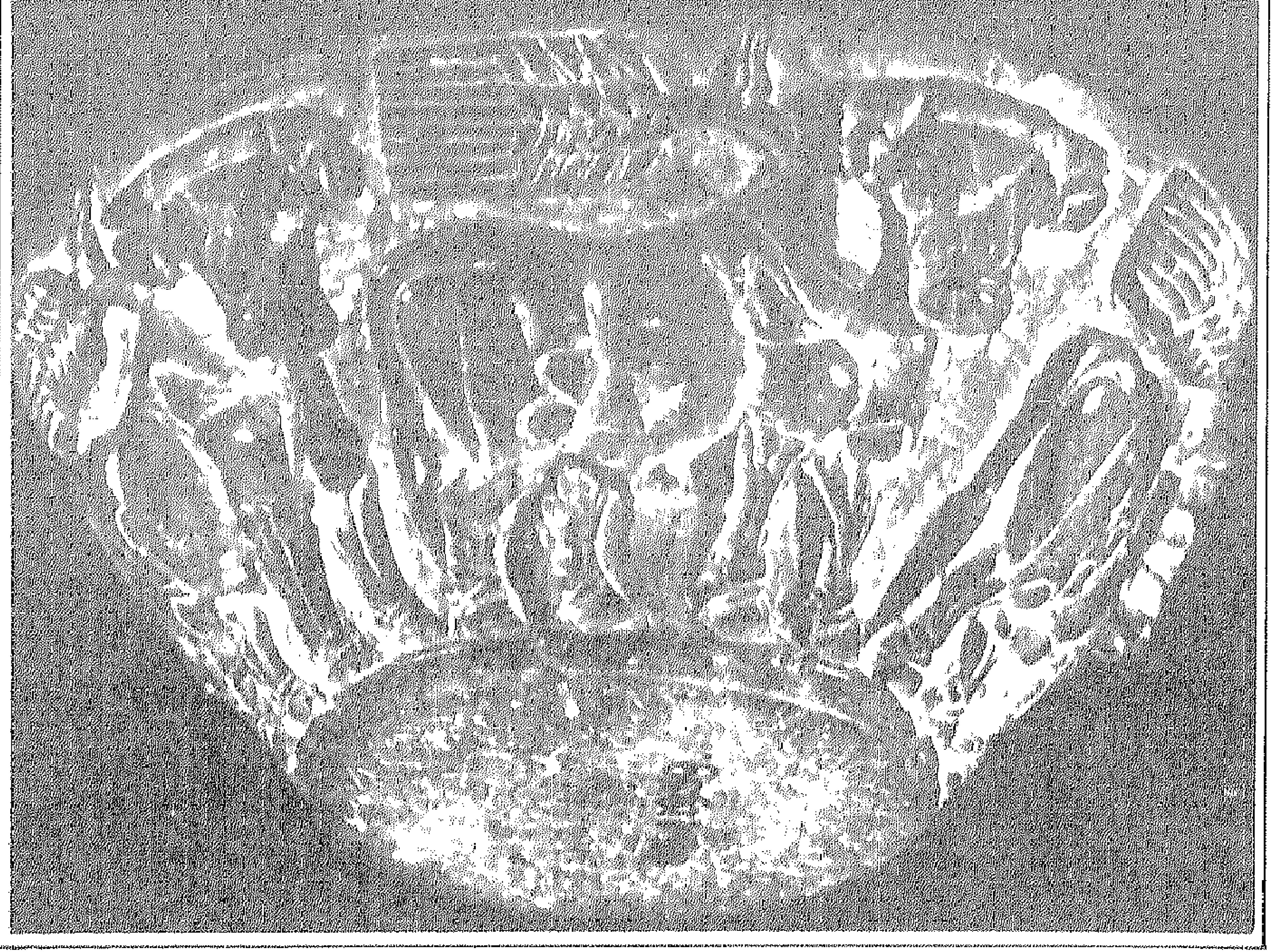
ولعلنا مع «سيدة الوركاء» نواجه لأول مرة الملامح الطبيعية، بينما التماثيل والنقوش السابقة، تغير الملامح، فالأنف مثلاً يمتد حتى أعلى الجبهة، والخدان قد يغيبان، والأيدي أقرب إلى التشوه.

مدافن أور الملكية

كان لاكتشاف مدافن أور الملكية صدى كبير في الأوساط العلمية والمعنية بالآثار والفن على السواء. فقد سارعت حملات، بعد الاكتشاف عام ١٩٢٢، إلى التنقيب والبحث. وقد دلت كل المكتشفات على عبقرية الصاغة الذين صنعوا تلك التحف التي عُثِر عليها.

من بين ألف وثمانمائة قبر، ستة عشر فحسب، ضمت صنوفاً من البدائع والثروات التي لا تقدر بأثمان، وكانت لها دلالات دقيقة وعلمية، على العادات والتقاليد، التي كانت مجهولة حتى ذلك

□ كأس (Uruk) من أشهر الآثار. وهو يمثل مراحل متعددة من الحياة، تشير إلى ذلك رموزه المتعددة.



□ وعاء اور الخشبي، ويعتبر نموذجاً لمرحلة فنية متطورة.

الوقت، خاصة في ما يتصل بدفن الموتى من نسب ملكي.

كان الميت ينزل في الحفرة مع كل الأدوات التي صحبت نشاطاته وملاهيه. أما الملوك والملكات والأمراء، فوجدوا في قبو مفصول عن القبر، في تابوت مزخرف، زخرفة أسطورية. وقد اغلق المدخل. أما القرابين فقد وضعت في قسم آخر من القبر «حفرة الموت».

أما الكنوز التي وجدت في تلك القبور فمذهلة فعلاً، وعلى مستوى الاكتشاف العلمي. فثمة آلات موسيقية رائعة، أبدعها القيثارة (Le lyre) المزيّن أعلاها برأس ثور من الذهب، منحوت نحتاً بديعاً جداً. وقد صنعت عيناه الكبيرتان من اللازورد. وارتفع القرنان عمودياً تقريباً، مع انحناءة نصف دائرية تقريباً. أما اللحية فانحدرت تحت الذقن على شكل مروحة. أما قفص القيثارة فمن خشب مزين بالصدف على نحو لوحة من الموزاييك، مع حجارة حمراء، ولازوردية، وتطعيم بالذهب.

ومن الكنوز الفخمة طاسة حرب الأمير مسكالام ـ دوغ. ويقال إنها كانت للزينة في الحفلات لا للحرب. وهي مصنوعة على حجم الرأس، من الذهب، المنحوت نحتاً بارعاً، على شكل نقوش لطيفة. ولها إطار عند الجبهة، يشبه العصابة، تنتهي في المؤخرة بلفة، يبدو أنها كانت تضم شعر الأمير الملفوف خلف رأسه. أما الأذن فمثقوبة لتترك المجال للسمع. والطاسة مصنوعة من ورقة ذهب واحدة.

ومن الروائع كذلك، زينة لرأس إحدى الملكات، كلها من الذهب، وقد صنعت على شكل قبعة، تخرج من طرفها الأعلى ثلاث زهرات. أما قسمها الأسفل، حول الرأس والجبهة وقسم من الخدين، فمكون من أوراق الأشجار (الغار على الأغلب). وعند أعلى الجبهة طوق من الذهب المطعم، ذو حلقات ذهبية. وقد وجدت أقسام من هذه الزينة، وضاعت أقسام، ولكن الأثريين استطاعوا ترميمها، وإخراجها على الشكل الذي كانت عليه.

ويبدو أن هذه التحف كانت متعة من متع الملوك، لذلك كانت العناية بها فائقة. ولعل من أبدعها القناع الملكي البرونزي. وهو عبارة عن قناع يغطي الوجه والرأس، ويتدلى تحت الذقن على شكل لحية مجعدة مقسومة إلى قسمين في طرفها الأسفل هذه الكنوز، وغيرها كثير، جعلت العلماء يؤكدون أن سومر عرفت أعرق الحضارات القديمة، فالمستوى الفني الذي بلغته، لا يضارعه مستوى، في ما عرف، في العالم كله، في تلك العصور. •

بَابُ الوَاد

باب الواد ممر يربط السهل الساحلي بجبال القدس وتؤدي إليه وتتشعب منه طرق القدس والرملة وبيت جبرين وعرطوف وغزة ورام الله. ويشتمل الموقع على وادي علي ومداخله، والهضاب المطلة عليه، والقرى القريبة منه، كعمواس واللطرون وتل الجزر وأبو شوشة وبيت نوبا ويالو.

ولباب الواد أهمية عسكرية عظيمة، فهو مفتاح مدينة القدس، دارت فوق أرضه معارك كبرى على مر القرون. عنده صدّ صلاح الدين الأيوبي غارات ريكاردوس قلب الأسد أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. وفي موقعه وقف المقدسيون في وجه جيش إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤م، ودارت فوق أرضه معارك دامية بين الجيش التركي والجيش الإنكليزي سنة ١٩١٧.

وقد فطن العرب والصهيونيون إلى أهمية موقع باب الواد منذ اللحظات الأولى بعد صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧. وتهيأ الصهيونيون لغزوه من السهل الساحلي لضمان مرور قوافلهم إلى القدس. وعمل العرب بالمقابل على قطع الطريق عليهم، فتنادوا لشراء السلاح، وتجمع المقاتلون من قرى عمواس ويالو ودير أيوب وبيت نوبا وبيت محسير وساريس وغيرها. وكان عددهم في البداية ٣٠٠ مناضل بينهم الشيخ هارون بن جازي أحد شيوخ قبيلة الحويطات في شرقي الأردن وقوة من رجاله المتطوعين، وقد انضووا تحت لواء قوات جيش الجهاد المقدس بقيادة عبدالقادر الحسيني.

كان أول عمل قامت به القوات العربية تخريب الطريق هناك، وإتلاف الأنابيب التي تمد الأحياء اليهودية في القدس بمياه الشرب من رأس العين. وأخذ العرب بعد ذلك يتصدّون للقوافل الصهيونية المحروسة التي تمر بباب الواد مرة في الأسبوع، ويوقعون بها الخسائر الفادحة، أو يمنعونها من متابعة طريقها.

ففي ١٩٤٨/٣/١ هاجم المناضلون العرب قافلة صهيونية، وقتلوا أربعة من رجالها، وجرحوا ثمانية، وأعطبوا إحدى السيارات. وفي اليوم الثالث من آذار دمروا سيارتين صهيونيتين كبيرتين عند حوض الماء القريب من مقام الشيخ علي، وقتلوا خمسة عشر صهيونياً. وفي اليوم التالي هاجموا قافلة صهيونية، وقتلوا أربعة من رجالها، وكادوا يقضون عليها لولا تدخل الجنود البريطانيين.

فجّر العرب الألغام تحت السيارات الصهيونية يومي ١٢ و ١٣ آذار، وقتلوا خمسة من ركابها. وفي ١٧ آذار اشتبكوا مع الصهيونيين عند بئر الحلو على الطريق المؤدية إلى باب الواد وأعطبوا مصفحة صهيونية. ثم هاجموا في ١٩ آذار قافلة صهيونية من تسع سيارات قادمة من عرطوف، وقتلوا ١٥ رجلاً، وأعطبوا مصفحة للحراسة في المقدمة، وغنموا كمية من الأسلحة. وفي ٢٢ آذار أعدّ العرب كميناً لقافلة قادمة من تل أبيب، واشعلوا النار في سيارتي مؤن وقتلوا سائقيهما، كما أعطبوا سيارة ثالثة وجرحوا السائق ومساعده.

ومع اشتداد الهجمات العربية في باب الواد شعر يهود القدس بوطأة الحصار وقلة المؤن، فاستنجدوا بسلطات الانتداب التي وضعت في عرطوف قوة بريطانية من نحو ٢٠٠ جندي لحماية القوافل الصهيونية. وقد استطاع

معارك باب الواد

الصهيونيون منذ ٢٣ آذار أن يسيّروا قوافلهم في ظل هذه الحماية البريطانية، وأنجدوا صهيونيي القدس بحوالي ١,٥٠٠ مقاتل.

ظلت عمليات بث العرب الألغام مستمرة ليلاً. وقد قتل بنتيجتها في ٢٤ آذار ١٢ صهيونياً، وجرح ٣٠ آخرون، ودمرت ثلاث سيارات، وأعطبت ثلاث.

حاولت القوات الصهيونية ليلة ٣١ آذار احتلال التلال المشرفة على باب الواد والتمركز فيها لحماية قافلة قادمة عن طريق وادي الصرار. لكن المناضلين من سكان القرى المجاورة تنادوا للقتال، وانقضّوا على القافلة وحماتها قرب مستعمرة خلدة، واشتبكوا مع الصهيونيين في قتال عنيف دام طوال ذلك النهار وانجلى عن عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين. ورغم خسارة العرب الأكثر في الأرواح استطاعوا دحر الصهيونيين وإعادتهم إلى خلدة، وغنموا بعض سيارات القافلة.

اشتبك الفريقان يوم ١٩٤٨/٤/١ في القطاع الممتد بين ساريس وباب الواد، ثم اشتبكا ثانية في اليوم التالي. وقد خسر الصهيونيون في هذين اليومين حوالي ٦٠ رجلاً بين قتيل وجريح. وكانت محاولاتهم السيطرة على باب الواد مستميتة في الأيام الثلاثة ليمنعوا وصول النجدات العربية إلى القسطل من الغرب. وقد نجحوا في ذلك، وسقطت القسطل بأيديهم صباح يوم ٣ نيسان. وكان ذلك كله جزءاً من عملية سموها «عملية نحشون» تهدف إلى السيطرة على باب الواد واحتلال القرى العربية على جانبي الطريق من باب الواد إلى القدس. وقد احتلوا دير ياسين يوم ٩ نيسان، وقرية ساريس يوم ١٦ نيسان. وبذل العرب الكثير في مقاومة القوات الصهيونية المتفوقة تنظيماً وتسليحاً وعدداً.

وفي ١٦ نيسان قدمت من تل أبيب قافلة مؤن مؤلفة من حوالي ٢٥٠ سيارة تحرسها أعداد كبيرة من الجنود والمصفحات. وقد كمن لها المناضلون العرب من أبناء القرى المجاورة تساعدهم قوة من رجال الجهاد المقدس بقيادة احمد زونا، وقوة من البدو بقيادة الشيخ هارون بن جازي. ولما وصلت القافلة إلى قرية دير ايوب على بعد كيلومتر واحد من باب الواد أطبق عليها المناضلون بعد أن سدّوا في وجهها الطريق بالحجارة وبثّوا الألغام. دامت المعركة من شروق الشمس حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. وسقط فيها عدد من القتلى في الجانبين. وانتهت المعركة لصالح العرب، واستطاعوا تدمير وإعطاب زهاء

٦٠ سيارة، واستولوا على ١٥ سيارة أخرى وكمية من الأسلحة.

لكن الصهيونيين تابعوا دفع القوافل على طريق باب الواد. وقد مرت قافلة لهم يوم ١٧ نيسان دون أن يستطيع العرب التعرض لها بشكل حاسم. وتمكنت قافلة أخرى من المرور إلى القدس يوم ٢٠ نيسان بعد أن كبّدها المناضلون خسائر فادحة. بعد ذلك نشط المناضلون لسد الطريق سدّاً محكماً بالحجرة الضخمة، وحفروا في عرض الطريق ثلاثة خنادق يبعد الواحد عن الآخر ١٥٠ متراً وعرض الخندق متران، وعمقه متر. وقد انتهوا من ذلك كله مساء يوم ٢٥ نيسان ورابطت هناك قوة من رجال الجهاد المقدس والمتطوعين البدو. وبذلك أغلقت طريق باب الواد إغلاقاً تاماً في وجه القوافل الصهيونية.

في الوقت نفسه كانت طريق الخليل — القدس، وطريق رام‌الله — القدس، وطريق أريحا — القدس مغلقة في وجه الصهيونيين. لذلك أصبحت مدينة القدس محصورة من جهاتها الأربع، فاستولى اليأس على صهيونيي القدس، وأخذت القيادة الصهيونية تعدّ لضربة قوية تفتح بها طريق باب الواد. وبالمقابل أخذت قيادة الجهاد المقدس تستعد لمجابهة الأعداء وصدّ ضربتهم، فدفعت قوات جديدة إلى الميدان، وانضمت إليها في الخامس من أيار فصائل من جيش الإنقاذ بقيادة المقدم محمد مهدي صالح العاني (عراقي) مسلحة بمدفعين من عيار ٦ بوصات. وانضمت إلى هذه القوات جموع كثيرة من أبناء قرى المنطقة، وتولى القيادة المقدم العاني.

بدأت المعركة المترقّبة يوم ١٠ أيار عندما قذف الصهيونيون إلى أرض المعركة قوات كبيرة جاءت من القدس والمستعمرات اليهودية في المنطقة، وتمركزت في الأحراج الممتدة بين ساريس وباب الواد، وحاولت رفع السدود وفتح الطريق. وقد تصدّى لها المقاتلون العرب، وقصفتها مدفعية جيش الإنقاذ بشدة. وحتى يخفف الصهيونيون الضغط على قواتهم قاموا بهجوم مخادع على المرتفعات الواقعة بين بيت سوريك وبدّو والنبي صموئيل في قضاء القدس، لكنهم ردوا على أعقابهم.

أخذ الموقف يميل إلى صالح العرب الذين خاضوا المعارك بمعنويات عالية. وقد أذاعت قيادة جيش الإنقاذ في ١٣ أيار بياناً جاء فيه أن معركة باب الواد ما برحت مستمرة، وأن الحرب تدور في صالح العرب، وأن مراكز الدفاع الصهيونية قد انهارت، وأن الصهيونيين خسروا حتى ذلك الوقت ٣٠٠ قتيل بينهم قائد المعركة، وأن العرب غنموا ١٥٠ بندقية، وست مصفحات وعدداً من الأجهزة اللاسلكية، وأنهم دمّروا وأعطبوا عدداً آخر من المصفحات والسيارات.

انتهت المعركة في ١٣ أيار بفشل ذريع مني به الصهيونيون وتراجعت قواتهم عن باب الواد. وظلّ رجال الجهاد المقدس وجيش الإنقاذ يتمسكون بموقع باب الواد حتى ١٩٤٨/٥/١٥ حين تسلم الموقع الجيش الأردني. •

المرجع: عارف العارف: النكبة، بيروت ١٩٥٦.



عباس بن فرناس (ت ٨٨٧)

● مخترع اندلسي من موالي بني أمية. كان فيلسوفاً شاعراً. له علم بالفلك. اتهم في عقيدته، أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها. أراد أن يطير بجسده، فكسا نفسه بالريش ومد له جناحين، ولكنه سقط. ويعتبر أول من طار في الجو. ولشعراء عصره شعر في وصف سمائه وطيرانه.

تمثل رسائل جواهر لال نهرو التي وجهها من سجنه إلى ابنته أنديرا، والبالغة ١٩٦ رسالة، محطات تاريخية مهمة، نسترجع من خلالها نموذجاً من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب، وكيف يتمثل تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر أحد أبرز قادة ذلك العالم وأحد مؤسسي منظمة دول عدم الانحياز.

والرسالة التي نحن بصددها، تعكس سعة أفق ذلك الزعيم وحسن فهمه للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية.

الفتح العربي من إسبانيا إلى منغوليا

جواهر لال نهرو



□ نهرو.

كان النبي محمد (صلعم)، مثل مؤسسي بعض الأديان الأخرى، ثائراً ضد كثير من العادات الاجتماعية الموجودة. وقد استهوت بساطة الدين الإسلامي الذي دعا إليه ومباشرته وديمقراطيته ومساواته عامة الناس في الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون المستبدون أيضاً.

فالناس في عصر النبي محمد (صلعم) كان قد أنهكهم النظام القديم وضاقوا ذرعاً به حتى باتوا مستعدين لتقبل أي تغيير. وقد أهدى الإسلام إليهم هذا التغيير الذي تلقوه مرحبين به، ذلك لأنه ارتقى بهم من نواح عدة، ووضع نهاية لكثير من المفاسد والشرور القديمة.

وفي خلال ربع قرن من وفاة نبيهم، فتح العرب كل بلاد فارس والشام وأرمينية، وبعض آسيا الوسطى، وجزءاً من شمال افريقية غرباً.

وقد استولى العرب على مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست أكثر من غيرها من استغلال الامبراطورية الرومانية ومن صراع المنافسة بين المذاهب المسيحية.

وهناك قصة تروى عن حرق العرب لمكتبة الإسكندرية الشهيرة، ولكن الاعتقاد الآن أن هذه القصة كاذبة لا أساس لها من الصحة. ولما كان حب الكتب والولع بها مما يؤثر عن العرب فلا يمكن أن يعقل أنهم تصرفوا في مكتبة الإسكندرية بهذا الأسلوب البربري. ومن المحتمل، على أية حال، إن امبراطور القسطنطينية «ثيودوسيوس» هو الذي ارتكب

جريمة حرق مكتبة الإسكندرية أو حرق جزء منها، نقول ذلك لأن جزءاً من المكتبة كان قد اتلف من قبل أثناء حصار الإسكندرية في عهد يوليوس قيصر. «فثيودوسيوس» لم يستصوب كتب الإغريق القدماء الجاهليين التي تتحدث عن الأساطير والفلسفات الإغريقية القديمة. ولهذا يقال إنه استعمل هذه الكتب وقوداً لتسخين حماماته.

وقد استمر العرب في تقدمهم شرقاً وغرباً. ففي الشرق سقطت هرات وكابول وبلخ في أيديهم.

وقد وصلوا في هذا الاتجاه إلى بلاد السند ولكنهم لم يتقدموا في الهند وراء ذلك، وظلت صلاتهم لبضع مئات من السنين بالحكام الهنود على خير ما تكون الصلات مودة وصداقة.

وفي الغرب ظلوا يتقدمون ويتقدمون، ويقال إن قائدهم عقبة أتى إلى شمال إفريقية، وتقدم في هذا الاتجاه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي على الشاطىء الغربي لما يعرف الآن بمراكش. ويقال أيضاً أنه شعر بخيبة أمل حينما وجد المحيط الأطلسي يقف حجر عثرة في طريق تقدمه، وأنه ركب البحر وأوغل فيه على قدر ما استطاع ثم شكا بثه وحزنه إلى الله لعدم وجود أرض أخرى في هذا الاتجاه فيفتحها باسم الله وفي سبيله!.

ومن مراكش وافريقية عبر العرب إلى اسبانيا وأوروبا، المضيق الذي كان يسميه الإغريق القدماء «أعمدة هرقل».

واسم القائد الذي عبر إلى أوروبا هو «طارق»، ولهذا أطلق على الجبل الذي نزل عنده باسبانيا «جبل طارق» ذكرى لهذا القائد العربي.

وقد تم فتح اسبانيا بسرعة عجيبة، ومنها تدفق العرب إلى جنوب فرنسا.

وهكذا لم يمض على وفاة النبي محمد (صلعم) مائة سنة، حتى كانت الامبراطورية العربية قد امتدت من جنوب فرنسا واسبانيا فشمال افريقية إلى مصر، وعبر بلاد العرب إلى الفرس وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا. ولم يدخل من الهند في هذه الامبراطورية غير السند.

وقد غزا العرب أوروبا من جهتين: غزوها في القسطنطينية مباشرة، وفي فرنسا عن طريق



□ انديرا غاندي.

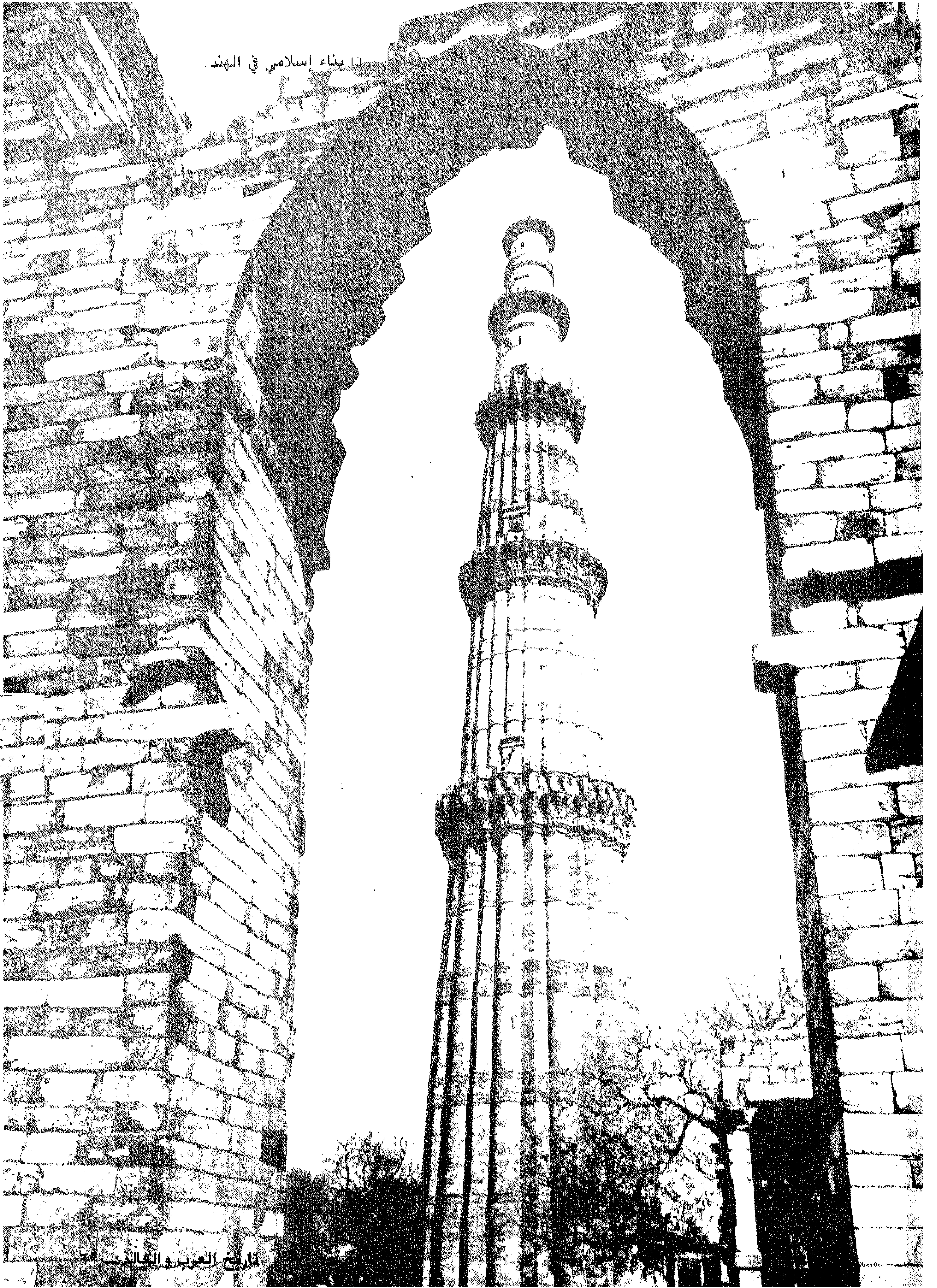
افريقية. وفي جنوب فرنسا كان العرب قليلي العدد، وكانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي. ولهذا لم يستطيعوا الحصول على مساعدة تذكر من الجزيرة العربية لانشغالها وقتئذ بفتح آسيا الوسطى. ومع ذلك فقد استطاعت هذه القلة من العرب في فرنسا أن تخيف أهل أوروبا الغربية، ولهذا كونوا حلفاً كبيراً لمحاربتهم.

وكان شارل مارتل هو قائد هذا الحلف. وقد استطاع في سنة ٧٣٢ ميلادية أن ينتصر على العرب في موقعة «تور» في فرنسا.

ويشير أحد المؤرخين إلى نتائج هذه المعركة فيقول: «لقد خسر العرب في سهول تور امبراطورية العالم، وقد كادت تكون في قبضة أيديهم».

ومما لا ريب فيه أن العرب لو أتيح لهم أن ينتصروا في تور لكان التاريخ الأوروبي قد تغير تغيراً كبيراً، ولما كانت هناك قوة أخرى في أوروبا تقف أمام تقدمهم، ولكان في استطاعتهم أن يواصلوا زحفهم حتى القسطنطينية، وأن يضعوا نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية وللدول الأخرى التي تأتي في طريقهم. وليس ذلك فحسب، بل كان الإسلام قد حل محل المسيحية، وأصبح دين أوروبا، وكانت قد حدثت أنواع أخرى من التغيرات.

ليس هذا إلا شطحة من شطحات الخيال، ولهذا أعود فأقول: لقد أوقف زحف العرب في



□ بناء إسلامي في الهند.

□ كتابة كوفية على الناووس الحجري للسلطان محمود الغرنوي، مؤسس السيادة الإسلامية في الهند.

فرنسا، ولكنهم بعد ذلك بقوا في اسبانيا وحكموها بضع مئات من السنين.

وقد انتصر العرب من اسبانيا إلى منغوليا، وأصبح هؤلاء البدو الذين أتوا من الصحراء حكام امبراطورية عظيمة. لقد كانوا يسمون سكان الصحارى، ولكن سرعان ما ألف سكان الصحارى هؤلاء حياة الترف والمدن، وسرعان ما انتشرت القصور في مدنهم.

وعلى الرغم من انتصاراتهم في أقطار بعيدة، فإنهم لم يستطيعوا التخلص فيما بينهم من عادة التشاحن والقتال القديمة عندهم. وبطبيعة الحال كان لديهم شيء يستحق التناحر عليه والقتال من أجله وهو رئاسة الجزيرة العربية التي كانت تعني التحكم في امبراطورية شاسعة الأطراف. ومن ثم كان هناك صراع وحروب للاستيلاء على منصب الخلافة.

وهذا الصراع وهذه الحروب التي قامت بين الأسر والقبائل أدت إلى انقسام المسلمين إلى طائفتين كبيرتين: طائفة السنيين، وطائفة الشيعيين واللتين لا تزالان موجودتين حتى اليوم.

وسرعان ما نشأ الخلاف بعد انتهاء عهد الخليفتين أبي بكر وعمر. فعلي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت (النبي) محمد (صلعم) آلت إليه الخلافة لعهد قصير. ولكن الصراع ظل مستمراً، فقتل علي، ومن بعده بقليل قتل ابنه الحسين وأسرته في كربلاء.

ومأساة كربلاء هذه هي التي يبكيها المسلمون، ولا سيما الشيعيين منهم في شهر المحرم من كل عام. ثم نرى الخليفة بعد ذلك يصبح ملكاً مطلقاً بدون انتخاب أو طريقة ديمقراطية. والذي كان يحدث هو أنه كان يتبوأ الملك كما يتبوؤه أي ملك في عصره. ونظرياً استمر ينظر إليه أيضاً على أنه الرئيس الديني وأمير المؤمنين. ولكن بعض هؤلاء الحكام كانوا في الحقيقة سبة للإسلام الذي كان مفروضاً فيهم أن يكونوا حماته الأعلين.

ولقد صارت خلافة المسلمين لمدة قرن تقريباً للأمويين. وهؤلاء اتخذوا من دمشق عاصمة لهم، وبذلك أصبحت هذه المدينة القديمة جميلة جداً تزينها القصور والمساجد ونافورات المياه والجواسق الخشبية داخل الحدائق، كما اشتهرت بنظام تزويد منازلها بالماء.

وخلال هذه الفترة استحدث العرب ورقوا طرازاً خاصاً من العمارة عرف فيما بعد بفن العمارة العربية. وهذا الفن الذي استحدثه العرب في هندسة البناء ليس نوعاً من الحلية أو الزينة، وإنما هو فن بسيط جميل لا يملك المشاهد له إلا أن يعجب به. والفكرة من وراء فن البناء العربي هي النخلة الجميلة التي تنمو في الشام وجزيرة العرب. فالأقواس والأعمدة والمآذن والقباب، تذكر الإنسان بتقوس وتقبب جماعات النخيل، وقد أتى فن البناء العربي إلى الهند، ولكنه تأثر فيها بالأفكار الهندية، ونشأ عن ذلك طراز جديد مختلط. ولا يزال يوجد حتى اليوم في اسبانيا آثار لأجمل وأبدع نماذج فن البناء العربي.

ونتيجة للامبراطورية وثرائها شاع في المجتمع العربي فنون من الترف والرفاهية والمتعة. فسباق الخيل كان إحدى الرياضات المحببة لدى العرب. وكذلك الصيد ولعبة الكرة على الخيل Polo والشطرنج. وقد نما لديهم ولع بالموسيقى على طراز حديث، وبخاصة الغناء. ولهذا كانت عاصمة الخلافة تموج بالمغنين وتوابعهم والمتطفلين عليهم.

وقد حدث في محيط المجتمع العربي تغير آخر كبير، ولكنه لم يكن تغير إلى الأحسن. وكان هذا التغير خاصاً بالمرأة.

فالمرأة العربية لم تكن تعرف الحجاب في أية صورة من صوره، فلم تعش في عزلة أو مخبأة عن أعين الغير. لقد كانت تسير بين الناس وتذهب إلى المساجد وتتردد على مجالس العلم. ومن نساء العرب من كن يجلسن أحياناً مجالس العلماء ويلقين دروساً في العلم.

ولكن نجاح العرب جعلهم يقلدون بعض عادات الامبراطوريتين القديمتين المجاورتين لهم، وأعني بذلك الامبراطورية الرومانية الشرقية، والامبراطورية الفارسية. فالعرب قد هزموا الامبراطورية الأولى، وقضوا على الامبراطورية الثانية، ولكنهم أنفسهم استسلموا وخضعوا لبعض ما كان يشيع في هاتين الامبراطوريتين من العادات القبيحة. ويقال إن عزلة المرأة العربية واختفاءها من مجتمعها يرجع بوجه خاص إلى تأثير القسطنطينية والفرس في المحيط العربي.

ونتيجة لذلك بدأ نظام «الحريم» يظهر شيئاً فشيئاً، كما بدأ اجتماع الرجل بالمرأة، والتقاء احدهما بالآخر في المجتمعات العامة يقل شيئاً فشيئاً.

ومما يؤسف له أن عزلة المرأة العربية هذه اصبحت مظهراً من مظاهر المجتمع الإسلامي.

وقد تعلمت المرأة الهندية هذه العزلة أيضاً من المسلمين عندما أتوا إلى الهند.

وإني لأعجب غاية العجب أن أرى أنه لا يزال هناك من يقاسون ويعانون من هذه البربرية في صمت، دون أن يتألموا أو يضجوا بالغضب والشكوى.

وكلما فكرت في النساء المحجبات، وقد قضى عليهن بالعزلة عن العالم الخارجي، خيل إليّ أني افكر في سجن أو حديقة حيوان! وكيف يقدر لشعب أن ينطلق متقدماً إلى الأمام إذا كان نصفه يعيش في عزلة أشبه بالسجن؟

ولكن مما يدعو إلى الأمل والتفاؤل أن الهند قد بدأت بسرعة تمزق الحجاب وتقضي عليه، كما ظهرت بوادر في المجتمع الإسلامي تدل على التخلص من هذا العبء الفظيع على نطاق واسع. ففي تركيا وضع مصطفى كمال نهاية للحجاب. كذلك بدأ الحجاب في مصر يختفي بشكل سريع ويحل محله السفور.

ولا يفوتني قبل أن أختم رسالتي إليك أن أشير إلى نقطة بالغة الأهمية والدلالة. فالمأثور عن العرب أنهم كانوا في بدء نهضتهم متحمسين غاية التحمس للدين، ولكنهم مع تحمسهم هذا كانوا متسامحين مع مخالفيهم في العقيدة. وهناك أمثلة عديدة على تسامحهم الديني. وقد أكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا التسامح وأوصى به مرة في بيت المقدس، وفي أيام حكم العرب في اسبانيا كان جزء كبير من سكانها مسيحيين، وكانوا يتمتعون كل التمتع بحرية العبادة والعقيدة. وفي الهند لم يمتد حكم العرب إلا على السند، ولكن نشأت اتصالات كثيرة بينهم وبين سكان الهند، وكانت هذه الاتصالات قائمة على أساس المودة والصداقة. وفي الحق أن أكثر ما يلاحظ على هذه الفترة من التاريخ هو المقابلة بين تسامح العرب المسلمين، وتعصب المسيحيين في أوروبا.

تصحيح

● وقع سهواً في العدد السابق (٩٩ ــ ١٠٠)، من حيث ذكر اسم د. رياض العالي للمقال: «بصمات مريرة في أيام مريرة ١٩١٤ ــ ١٩١٨» بدلاً من اسم الآنسة امل نورالدين التي قامت هي بإعداد المقال. ولهذا وجب التصحيح.

حضارة العمرة

تعتبر المرحلة الأولى من حضارات ما قبل الأسرات في مصر

د. إبراهيم رزقانة



حضارة مصرية تمثل المرحلة الأولى من عصر ما قبل الأسرات حوالي سنة ٥٠٠٠ق.م، تنسب إلى بلدة العمرة بالصعيد جنوب أبيدوس (العرابة المدفونة) بقليل. وقد اشترك في الكشف عن آثار هذه المرحلة علماء كثيرون أهمهم بترى ودي مورجان وكويبل. وهذه الحضارة تطور للحضارات المصرية السابقة لها في الزمن وقد امكن معرفة الصفات الجنسية لأهلها، فقد كانوا نحاف الجسم أصحاب رأس ضيقة وتقاطيع دقيقة وقامة متوسطة، ويقترب شكلهم من شكل جماعات البيجا الحاليين في شرق السودان. وقد كانت الفؤوس الصوانية أهم أداة حجرية عند أهل العمرة مما يدل على سيادة حرفة الزراعة. كما تكثر في هذه الحضارة صناعة الآلات ذات الأسنان كالمنشار والمنجل، كما توجد بها النصال والسهام.

وقد لوحظ الشبه الواضح بين آلات الفيوم الحجرية وبين آلات العمرة وفسر ذلك بأن سكان وادي النيل في هذه المرحلة طمعوا بهجرة حامية من الليبيين، فمن الآلات الصوانية بحضارة العمرة ــ التي تسمى كذلك حضارة نقاده الأولى التي تشبه آلات الفيوم الفؤوس والسهام ذات الجناحين، والأسلحة التي على شكل ورق الشجر والآلات المسننة، وكلها مشطوفة من الوجهين على الطريقة الفيومية. وتدل دقة الآلات وتشابهها على انها نتاج عمال أخصائيين قاموا بصنعها بقصد التجارة. ولقد أدى هذا التخصص المهني إلى نتائج خطيرة في حياة المصريين، فالصناعة تحتاج إلى أسواق وتتطلب الانتشار خارج الحدود المحلية، كما أن الصناعة مصدر ثراء لطبقة خاصة ترفعهم فوق مستوى طبقة الزراع والرعاة، كما أن تعريف المصنوعات يتطلب نوعاً من التنظيم السياسي بتعدي الحدود المحلية لمنطقة المصانع، ولهذا يمكن القول أن بداية التنظيم السياسي المصري كانت في حضارة العمرة، وأن هذه البداية مرجعها إلى ظهور حرف التعدين والصناعة والتجارة.

وقد تعددت في العمرة أشكال الآنية الفخارية وألوانها، ولكن أكثرها انتشاراً كانت الآنية الحمراء ذات القمة السوداء، ويشبه هذا النوع أجود أنواع الآنية في الحضارة السابقة لها (البدارى) وقد أكسد الصناع قاعدة هذه الأواني بطلائها بمادة حديدية ثم حرقها في الهواء الطلق بينما كربنوا قمتها بحرقها مدفونة في التراب. ومن أواني العمرة كذلك الأواني السوداء ذات الخطوط المحفورة والأواني الحمراء ذات الخطوط المرسومة، وتعتبر هذه الآنية الأخيرة ابرز أنواع الآنية في العمرة بسبب الرسوم الموجودة عليها فبعض هذه الرسوم عبارة عن صور بشرية وصور حيوانات، وتظهر هذه الأواني بين الرقمين ٣١ و ٣٥ من تاريخ بنزي

التتابعي. وتعطينا صور الحيوانات التي على هذه الآنية فكرة عن الحياة الحيوانية بوادي النيل في هذه الفترة، فمن صورها الفيلة وأفراس الماء والزراف والأغنام والعقارب والغزلان، وهي رسوم مستمدة من البيئة المصرية وقد عرف من الرسوم انه كان يستعان على صيد الغزلان والوعول بكلاب كانت تربى لهذا الغرض وقد أعطتنا هذه الرسوم كذلك فكرة عن الحياة الدينية والسياسية في هذا العصر، فمن الجائز أن أحد هذه الرسوم يمثل الإله ست إله الشر عند قدماء المصريين، ومن المؤكد أن بعض هذه الرسوم يمثل الإلهة حاتحور (البقرة) آلهة الإخصاب عند قدماء المصريين كما وجد رسم تاج الوجه البحري على قطعة من آنية تنتمي إلى هذه الحضارة مما يشير إلى معرفة أهل الجنوب بالنظام السياسي القائم في الشمال، ولعل هذا كان بداية للوحدة المصرية الأولى التي تمت على يد أهل الشمال (الدلتا) قبل أن تقوم الوحدة النهائية على يد أهل الجنوب (الصعيد). ويكثر في هذه الحضارة تمييز الأواني الفخارية بعلامة خاصة، ربما يشير إلى الصانع أو المالك، ومن غير شك كانت هذه من أولى المحاولات لاختراع الأبجدية المصرية، فقد كان من ضمن العلامات التي تميز بها الأواني صور الحيوانات، ويمكن أن يستنتج من صور الحيوانات المكروهة كالتماسيح والعقارب على أن اهل العمرة كانوا أصحاب معتقدات طوطمية، ولقد أصبح بعض هذه الحيوانات فيما بعد — أي لما ارتقى التنظيم السياسي — علامات للوحدات الإدارية وشارات للمعبودات، ولكن في مرحلة العمرة كان الناس ما زالوا يعيشون في مرحلة بطون طوطمية في قرى مستقلة. ولم يوجد دليل على وجود أمراء في هذه المرحلة لأن المقابر التي كشفت من هذا العصر كانت متساوية الثروة، ولم يلاحظ على إحداها التميز في الغنى بحيث يمكن القول أنها مقبرة أمير أو حاكم. على أن نظام الملكية الفردية كان موجوداً فقد لوحظ أن الأواني الموجودة في القبر الواحد تحمل علامة واحدة.

ويتضح تقدم معلومات المصريين الدينية في هذه الفترة من طقوسهم الجنائزية، فإن دفن الميت في رمال الصحراء الجافة بعيداً عن طمى النيل، يدعو إلى الظن بأنهم اعتقدوا في حياة أخرى يبعث فيها الميت. كما كان أهل العمرة يضعون مع الميت تماثيل صغيرة لنساء وخدم يحملون أواني الماء على رؤوسهم وذلك لخدمة الميت في سفره الطويل في العالم الآخر، وكان يوضع مع الميت كذلك ممتلكاته الثمينة. ويظهر أنهم كانوا يدفنون الكلب حياً مع صاحبه لكي يحرسه في حياته الأخرى. وكانت مقابرهم عبارة عن حفر بيضاوية قليلة العمق يوضع فيها الجسم في شكل مقرفص.

ولقد كان المعدن ما زال نادراً في هذه الحضارة فقد اقتصر استخدامه على صنع الدبابيس.

ومما يدل على علاقات أهل العمرة الخارجية في هذه المرحلة أنهم استوردوا النحاس والملاكيت من سينا والذهب من النوبة والابسيديان واللازورد من غرب آسيا والأشجار المخروطية من سوريا والسنباذج من جزر بحر إيجه. وقد صنع المصريون من أجل ذلك قوارب ذات ثمانية أزواج من المجازيف، ولا بد أنها كانت مزودة كذلك بشراع.

ولا يعرف شكل المساكن على وجه التحقيق، وأما مادتها فكانت ما زالت يغلب عليها فروع الأشجار التي تثبت في قواعد من الطين، ولم يكن البناء بالطوب قد عرف في هذه المرحلة.

ولقد كانت منطقة العمرة، مركز جذب للناس الراغبين في الاستقرار التام على شاطىء النيل فوفد إليها أقوام من الجنوب «النوبة» ومن الغرب «ليبيا» هذا فضلاً عن سكانها الأصليين وبذلك طعم أهلها بدماء جديدة وتيارات حضارية جديدة.

●



مُعَاهَدَة بَارْدُو

بَيْنَ فَرَنسَا وَتونُس ، ١٢ أيَار (مَايو) سَنة ١٨٨٢

إعداد شذا عضدة

«إن ثمة أمراً يبدو غريباً وخارقاً للعقل وغير قابل للتصديق، وهو أننا لا نكاد نرى أن هناك ما يسمونه بـ (الخمير)(١) فإن وزارة (جول فيري)(٢) قد وضعت منحة قدرها ثلاثون ألفاً من الفرنكات لمن يستطيع أن يضبط له أحد أبناء هذه القبيلة. أية بلاهة هذه... أترى الوزير يود أن يدخل في روعنا أننا سنصرف ملايين ونرسل أولادنا إلى تونس في سبيل هدف واحد هو الحيلولة دون ثلاثة من قبيلة خمير الذين يقومون بين حين وآخر على سرقة بقرة لا يزيد ثمنها على ٩٠ فرنكاً من أحد المعمرين»(٣).

هذا القول الذي جاء على لسان الصحفي الفرنسي «روشتونور» في ٢٥ نيسان / أبريل سنة ١٨٨١م في جريدة «لنترانسجيان»، يعكس لنا بوضوح ما آل إليه الرأي العام الفرنسي من سخط على حكومته من جرّاء تهورها في اختلاق أية ذريعة لتبرير استيلائها على تونس، فاختلقت عذر ما أسمته اعتداء قبائل خمير على الحدود الجزائرية(٤)، واعتبرت هذا العمل اعتداءً واستفزازاً، فأرسلت أسطولاً إلى بنزرت وسيَّرت جيشاً اخترق الحدود التونسية حتى وصل إلى ضاحية باردو، التي تبعد أربعة كيلومترات عن العاصمة، وأحاط بقصر الصادق باي في ١٢ أيار / مايو ١٨٨١م، وأجبر



□ محمد الصادق باي.

الجنرال «بريبار»، قائد الحملة الصادق باي على التوقيع على كتاب تحت الضغط والتهديد، سمي بمعاهدة القصر السعيد أو معاهدة باردو.

وتجدر الإشارة، إلى أن هذه الحركة التوسعية التي قامت بها فرنسا ضد تونس، كان الغرض منها وضع العرش التونسي تحت وصايتها ومن ثمَّ قطع الطريق على إيطاليا التي كانت تسعى لنفس الغرض، خاصة وأن كل من إنكلترا وألمانيا كانتا قد أعلنتا في مؤتمر برلين المنعقد سنة ١٨٧٨ بأنهما لا تريان مانعاً من استيلاء فرنسا على تونس.

وفيما يلي نص المعاهدة:

نص معاهدة باردو (١٨٨١)

«إن دولة الجمهورية الإفرنسية ودولة سمو باي تونس لما كان من غرضهما أن يمنعا إلى الأبد حدوث قلاقل كالتي حصلت أخيراً على حدود الدولتين بسواحل المملكة التونسية وأن يحكما علاقات ودادهما القديم وروابط حسن الجوار، قد اتفقا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين، وبناء على ذلك فإن فخامة رئيس الجمهورية الإفرنسية قد عين جناب الجنرال بريبار نائباً مفوضاً من طرفه، فاتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على البنود الآتية:

البند الأول: أن معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الآن بين الجمهورية الإفرنسية وسمو باي تونس قد وقع تأكيدها وتمديدها.

البند الثاني: لأجل تسهيل القيام بالإجراءات التي يتحتم على دولة الجمهورية الإفرنسية اتخاذها للوصول إلى الغرض الذي يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان فقد رضي سمو باي تونس بأن تحتل القوات الإفرنسية العسكرية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل، ويزول هذا الاحتلال عندما تتفق السلطتان: الإفرنسية والتونسية وتقرران معاً بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على استتباب الأمن.

البند الثالث: تتعهد دولة الجمهورية الإفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته أو عائلته أو يعبث بأمن مملكته.

البند الرابع: تضمن الدولة الإفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة التونسية ومختلف الدول الأوروبية.

البند الخامس: يمثل الدولة الإفرنسية لدى سمو الباي وزير مقيم عام تكون وظيفته السهر على تنفيذ هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة بين الدولة الإفرنسية وبين السلطات التونسية في جميع القضايا التي تهم الجانبين.

البند السادس: يكلف الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لفرانسة في البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها وفي مقابل ذلك يلتزم سمو الباي بأن لا يعقد أي عقد ذي صبغة دولية من دون إعلام الدولة الإفرنسية والحصول على موافقتها مقدماً.

البند السابع: تحتفظ دولة الجمهورية الإفرنسية ودولة سمو الباي لنفسها بحق الاتفاق على وضع نظام مالي بالمملكة التونسية من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائني المملكة.

البند الثامن: تفرض غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل وتحدد قيمة هذه الغرامة وطرق جبايتها باتفاق يعقد فيما بعد وتكون حكومة الباي هي المسؤولة عن تنفيذ هذا الاتفاق.

البند التاسع: لأجل صيانة ممتلكات الجمهورية الإفرنسية بالقطر الجزائري من تهريب الأسلحة والذخائر، فإن دولة سمو الباي تتعهد بأن تمنع قطعاً إدخال السلاح والذخائر الحربية لجزيرة جربة ومرسى قابس والمراسي الأخرى بالمملكة التونسية.

البند العاشر: سيقع عرض هذه المعاهدة على دولة الجمهورية الإفرنسية للمصادقة عليها وتسلم الوثيقة المصدق عليها بعد ذلك لسمو باي تونس في أقرب وقت ممكن.

وكتب في باردو في ١٢ يونيو ١٨٨١

محمد الصادق باي الجنرال بريبار»(٥)

(١) قبيلة تونسية كانت ترابط على الحدود التونسية الجزائرية.
(٢) رئيس الوزارة الفرنسية الذي أخذ على عاتقه اغتصاب تونس.
(٣) درمونة، يونس: **تونس بين الحماية والاحتلال**، ص ٢٤٠، (مطبعة الرسالة، القاهرة، دون تاريخ).
(٤) كانت فرنسا تحكم الجزائر منذ عام ١٨٣٠م.
(٥) حقي، إحسان: **تونس العربية**، ص ١٢٥ ـــ ١٢٦ (دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ).

الكنوز الإسلامية في مكتبة تشيستربيتي

بقلم ديفيد جيمس

ترجمة محمد علي حشيشو

مما لا شك فيه أن الزائر العربي الذي يدخل مكتبة تشستربيتي في دبلن سيصاب بدهشة شديدة لما سيجده هناك. فقد يجد نسخة من القرآن بخط أعظم خطاط عربي هو ابن البواب كتبها في بغداد عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م. وقد يوجد إلى جانبها رسم منمنم رائع من ريشة «بهزاد»، أدق رسام فارسي على الإطلاق، وسيجد على بعد خطوات من ذلك فقط مؤلفاً عربياً فريداً عن البيزرة من مكتبة الخليفة الفاطمي «العزيز».

ومما لا شك فيه أن هذا الزائر العربي سيتساءل، وقد عقدت الدهشة لسانه: كيف وصلت نوادر الأدب العربي وروائع الفن الفارسي هذه إلى هذه البقعة البعيدة عن الشرق الأوسط؟ ومن هو هذا الشخص، الفريد تشيستر بيتي، الذي أحضر هذه الكنوز الشرقية إلى أقصى مكان في الغرب؟.

ولأحاول فيما يلي الجواب على هذه الأسئلة

أعوام التعدين والتمويل

نظراً لقضاء الفرد تشيستر بيتي قسطاً كبيراً من حياته في إنجلترا، فإن الكثيرين يعتقدون أنه كان إنجليزي المولد.

أما الحقيقة فهي أن بيتي ولد في مدينة نيويورك الأميركية عام ١٨٧٥ وترعرع وحصل على تعليمه فيها.

وفي عام ١٨٩٥ انتسب إلى كلية هندسة التعدين في كولومبيا حيث تخرج عام ١٨٩٨ حائزاً على درجة علمية من المرتبة الأولى. وفي شتاء العام نفسه غادر نيويورك متجهاً إلى الغرب، أو بتعبير أدق، إلى دنفر في ولاية كولورادو، التي كانت آنذاك مركز صناعة تعدين النحاس الأميركية.

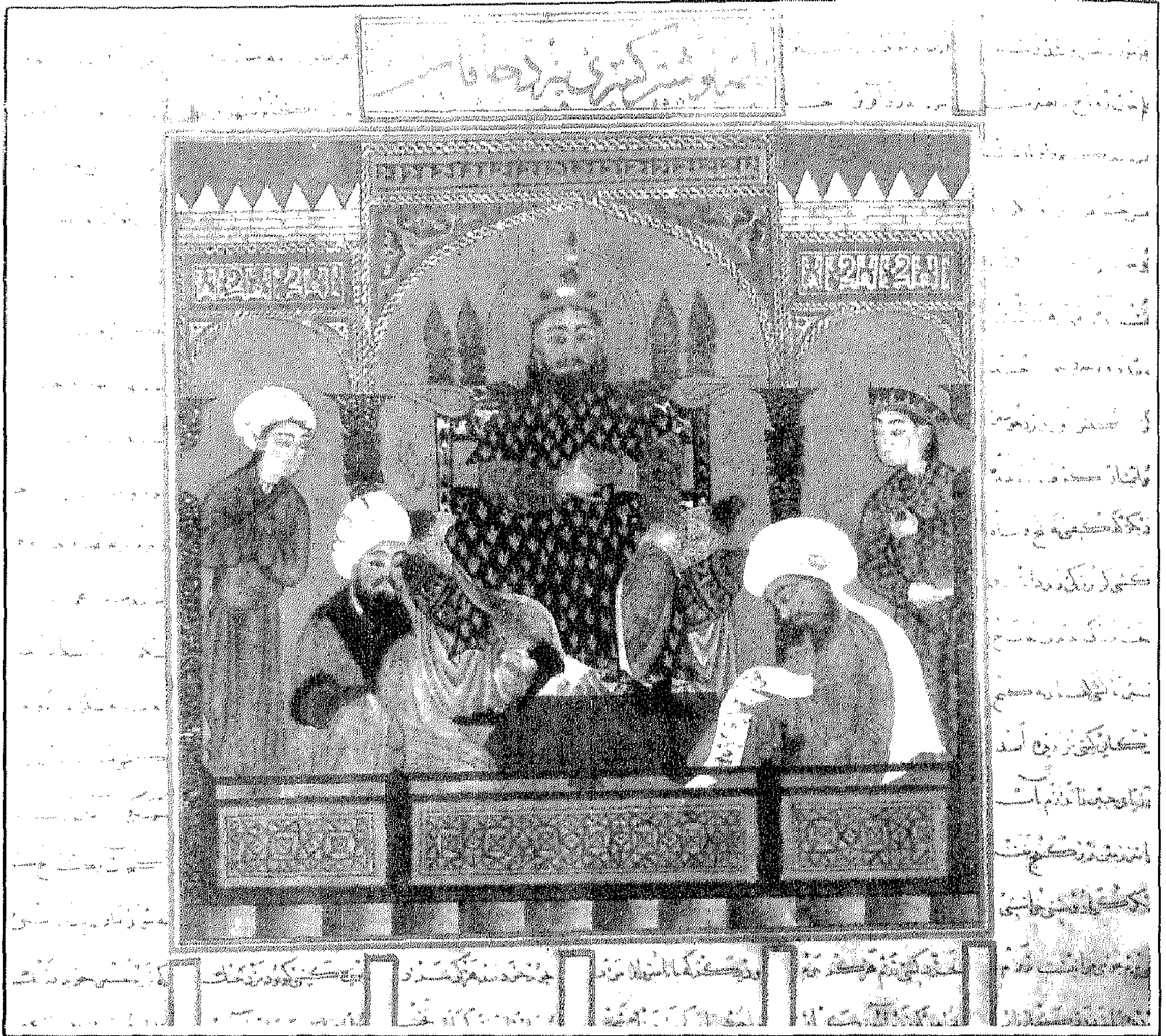
وكانت هذه فترة حياة «الغرب الأمريكي المقفر» الذي نعرفه جيداً من الأفلام الأميركية الحديثة. ولم يمض وقت طويل حتى اكتسب بيتي خبرة وتمرساً خاصين في هذا النمط العنيف من الحياة، التي لا أمن فيها لحياة الإنسان إذا لم يكن يحمل مسدساً في حزامه، وكان بيتي نفسه يحمل مسدساً يخفيه في حذائه الطويل من وقت لآخر.

وكان مجبراً على ذلك لأن حياته تعرضت أكثر من مرة إلى الخطر. ففي عام ١٩٠٢ مثلاً حاول بعض المضربين قتله بإلقائه في نفق المنجم!.

ومن الواضح أن إلمام بيتي الكبير بهندسة التعدين والمناجم ومقدرته الفائقة في ابتكار طرق جديدة لاستخراج الخامات جعلاه واحداً من ألمع مهندسي القرن العشرين. وفي عام ١٨٩٨ وصل إلى دنفر وهو يحمل شهادته في جيب ومبلغ سبعين دولاراً فقط في الجيب الآخر، ومع ذلك فقد بلغت ثروته في ثلاثة عشر عاماً وقبل أن يبلغ السادسة والثلاثين أكثر من مليون جنيه!.

وفي العام الذي بلغ فيه السادسة والثلاثين قرر بيتي اعتزال العمل والسفر للعيش في إنجلترا، حيث أراد أن يقضي «أعوامه الأخيرة». والشيء الغريب أن أطباء بيتي كانوا قد أخبروه في ذلك العام — في ١٩١١ — أنه لن يعيش أكثر من عام أو عامين على الأكثر!.

فما هو السبب الذي دفع الأطباء إلى إعطاء ذلك التقرير الغريب الذي كان يبعث تسلية خاصة في نفس بيتي في الأعوام التالية (وخاصةً بعد أن بلغ التسعين من عمره)؟ كان بيتي قد



□ صحيفة عن مخطوطة «شاه نامة» للشاعر فردوس (وهي معروفة بـ «ده موت شاه نامه» Demotte Schahname)، دونت في إيران حوالي عام ١٣٤٠.

أمضى عدة ساعات تحت الأرض في عمله المنجمي تحت أقسى الظروف، وهو يتنفس غبار المنجم الدقيق باستمرار مما أدى إلى إصابته بمرض ترب الرئة ودفع مرضه الأطباء إلى توقع وفاته بعد حين قصير جداً.

ونتيجةً لقرار الأطباء هذا فقد رأى بيتي أن يقضي ما تبقى له من أعوام قليلة في جو أفضل وأكثر ملاءمة لصحته. وهكذا فقد أمل أن يعيش في أوروبا في فصل الصيف وأن يقضي الشتاء كل عام في مصر. وبناء على ذلك فقد وصل عام ١٩١١ مع طفليه إلى لندن.

وكان عام ١٩١١ «عاماً مشئوماً أسود» بالنسبة لبيتي: وذلك ليس بسبب ما قاله الأطباء فحسب، بل لأن زوجته مادلين التي كان يحبها كثيراً كانت قد توفيت في الولايات المتحدة في نفس العام.

وقضى عامه الأول في وحدة في لندن. إلا أن وحدته كانت مؤقتة، إذ ما لبث أن بدأ نشاطه من جديد بعد ذلك بحين قصير، ومنذ ذلك الحين انتشرت اهتماماته من بلد إلى آخر، لا بل من قارة إلى أخرى. وبالاشتراك مع صديقه هربرت هوفر، الذي أصبح رئيس الولايات المتحدة في ما بعد، بدأ بيتي في تنفيذ مشروع ضخم لتطوير المخزونات المعدنية الواسعة لجبال الأورال. وكانت سياسة روسيا في ذلك الحين شبيهة بعض الشيء بسياسة الامبراطورية العثمانية في القرن

التاسع عشر ـ إذ كانت الامتيازات تعطى للشركات الأجنبية للعمل داخل البلاد بشروط ملائمة جداً.

إلا أن اهتمامات بيتي لم تكن مقصورة على أوروبا وأميركا. ففي عام ١٩٢٤ وسع نشاطه بحيث بلغ إفريقيا حيث اشترك في تطوير الموارد المعدنية الهائلة في القارة وخاصة نحاس روديسيا وذهب إفريقيا الغربية.

وبالإضافة إلى مقدرته الهندسية الفائقة فقد أظهر بيتي موهبة كبيرة في الشؤون المالية. ففي عام ١٩١٤ أنشأ شركة مالية باسم «Selection Trust»، غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى في اغسطس من ذلك العام حالت دون ازدهار عملياتها. ولكن ما كادت الحرب تنتهي حتى أبدى بيتي اهتماماً كبيراً في توسيع الشركة، وسرعان ما أثبت أن مقدرته في ذلك الحقل لم تكن تقل عن براعته في الحقول الأخرى.

وإذا كان هناك سر وراء نجاح بيتي، فلعله يكمن في مقدرته على الجمع بين المعرفة العلمية في الهندسة والفهم العميق للنظريات المالية المعقدة. وبكلمات أخرى فقد استخدم شركته لتمويل مشاريعه الهندسية التعدينية في أجزاء مختلفة في العالم.

مصر عام ١٩١٣

في شتاء عام ١٩١٣ وصل بيتي وزوجته الجديدة إلى مصر للمرة الأولى. وقد أسرا تماماً بجمال وادي النيل وآثاره الأسطورية. ووجدا المناخ ملائماً جداً فقررا شراء بيت هناك بحيث يتمكنان من قضاء كل شتاء فيه. وفي بادىء الأمر اشترى بيتي فيلا معروفة باسم «البيت الأبيض» ولكنه بنى بيتاً بالقرب من الأهرام في ما بعد وأحاطه بالجنائن وبساتين البرتقال وأطلق عليه اسم «البيت الأزرق».

وكان من عادات بيتي أن يتمشى حول الأسواق وفي أحياء القاهرة القديمة، وكان يصادف أثناء هذه الجولات عدداً كبيراً من المخطوطات القديمة المتعددة الأنواع. وكان يجد في دكان صغير هنا على سبيل المثال نسخة من القرآن كتبت لأحد سلاطين المماليك، أو ربما رسالة في الجفر مزيناً بالرسوم الغريبة التي سبق أن أعدت لمكتبة اسطنبول الملكية. وقد يجد هنالك في زاوية مكتبة قديمة يغطيها الغبار نسخة قيمة من ديوان حافظ أو سجلاً مرقعاً من الرسوم من بلاط الامبراطور الهندي جهانكير.

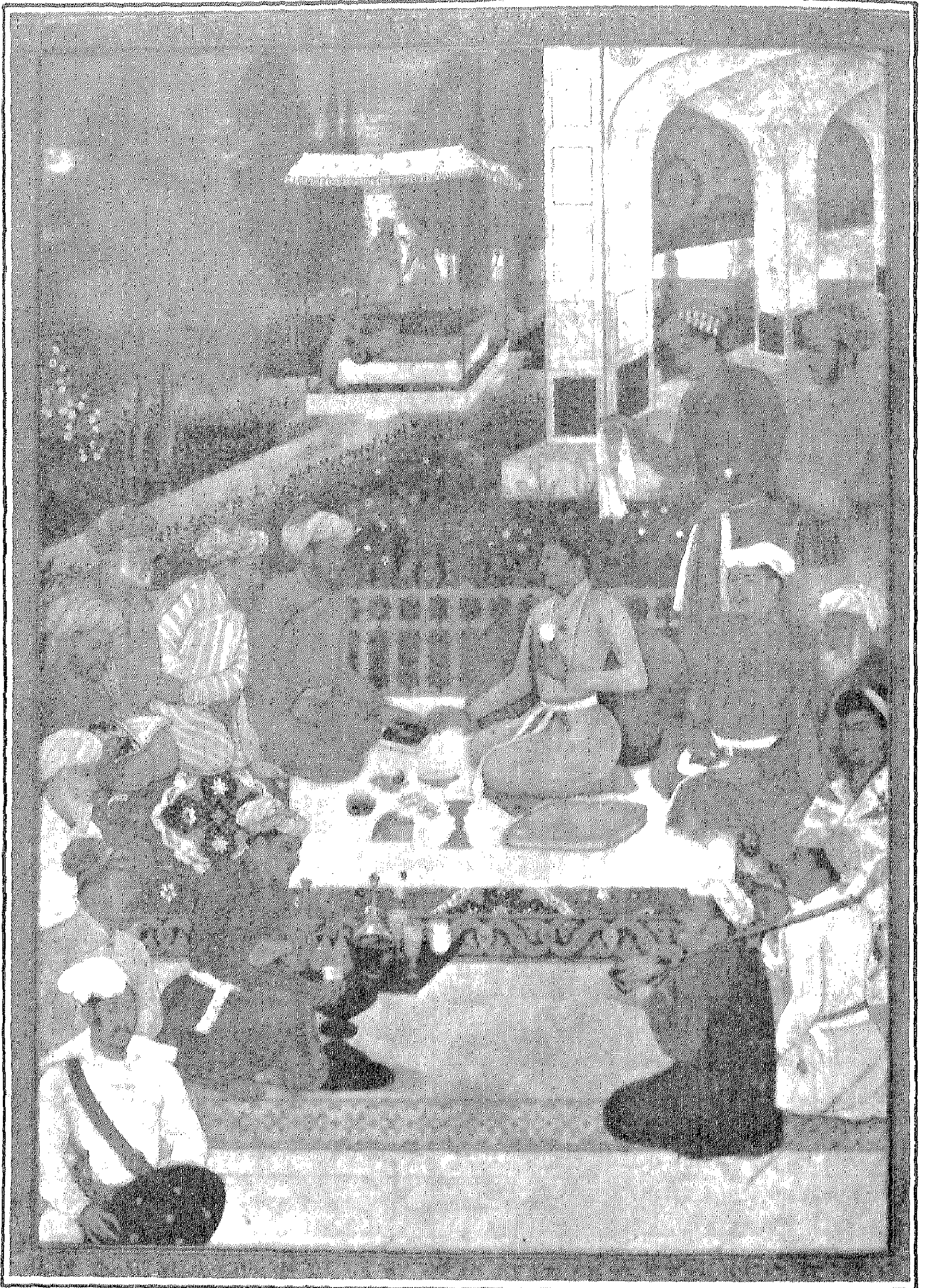
لقد وجد بيتي كل هذا وأكثر، إلا أن الشيء العجيب هو أن عدداً ضئيلاً جداً من الناس كان يبدي أي اهتمام بهذه النفائس الموجودة أمام أنوفهم. فقد كان أغلب الأوروبيين الذين يهتمون بجمع المخطوطات يفضلون في تلك الأيام المخطوطات الغربية الوسيطية على الأعمال الإسلامية. أما السبب في ذلك فبسيط بطبيعة الحال. إذ كانت الدراسات الإسلامية آنذاك لا تزال حقلاً علمياً جديداً، كما أنه بغض النظر عن المستشرقين الذين كانوا يعملون في المتاحف الكبيرة، فإن عدداً صغيراً من الجامعين كان يهتم اهتماماً خاصاً بالمخطوطات الإسلامية. وهكذا فقد كان من السهل على بيتي أن يشتري روائع المخطوطات والأعمال الفنية بأبخس الأثمان.

وبهذه الطريقة بدىء بتكوين إحدى أدق المجموعات الخاصة من المخطوطات الشرقية. ورغم أن بيتي لم يكن قادراً على قراءة سطر واحد من أي من المخطوطات التي كان يشتريها، إلا أنه استطاع أن يكوّن مكتبة يندر أن تضاهيها مكتبات أخرى في أي مكان في العالم.

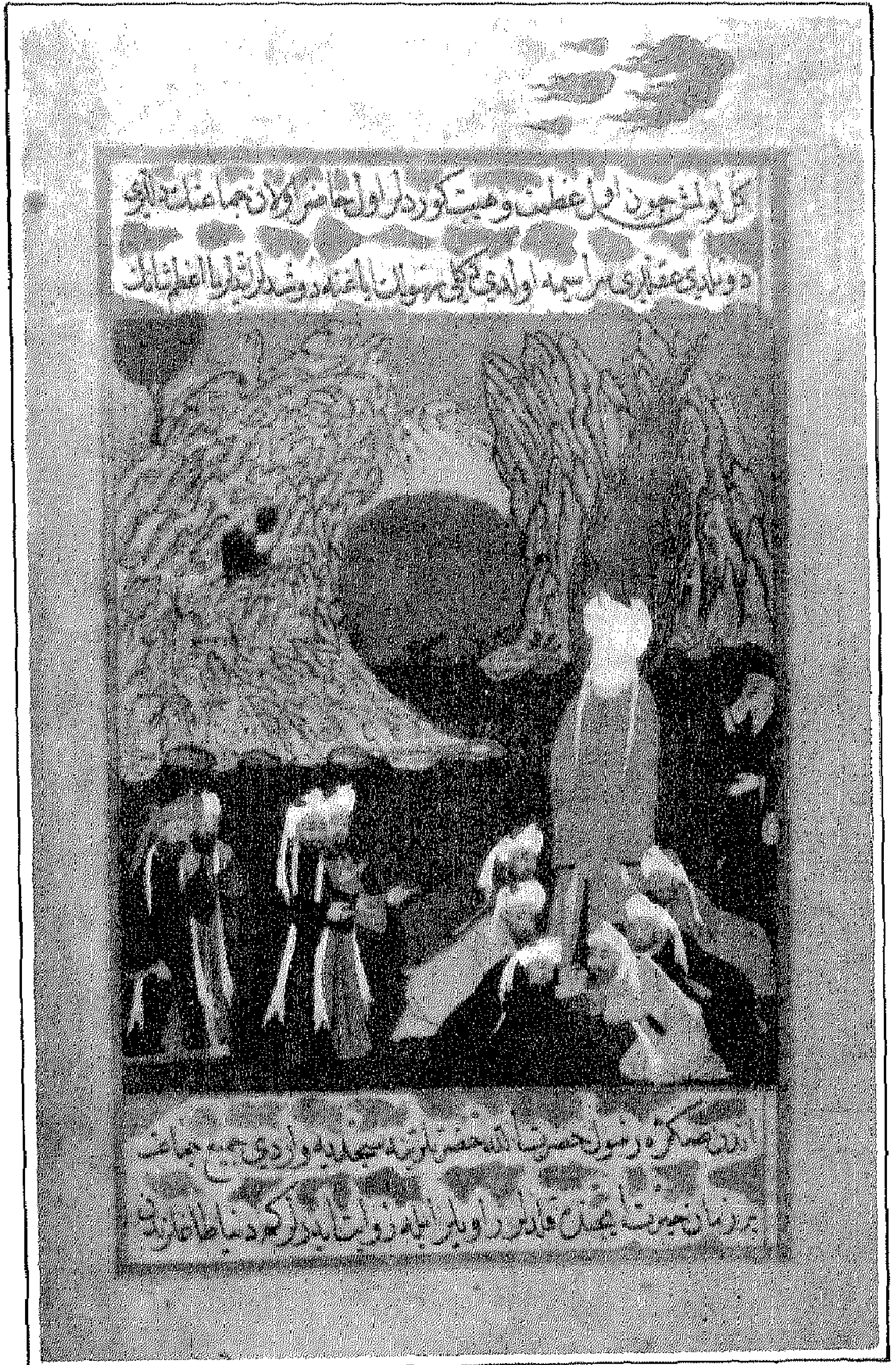
وكلاؤه في الشرق

ولم يقتصر بيتي على شراء المخطوطات من القاهرة، لأنه بعد عودته إلى أوروبا بدأ يبحث في أسواق الكتب في لندن وباريس للحصول على المؤلفات العربية والفارسية التي كانت تظهر من حين لآخر.

وقد نال مساعدة كبيرة بالمشورة التي كان يسديها إليه «إدوارد إدواردز» الذي كان يعمل آنذاك في قسم المخطوطات الشرقية في المتحف البريطاني. وكان لبيتي وإدواردز طريقة في الشراء مكنتهما من الحصول على أعمال نادرة كثيرة. فحين كان وكلاء بيتي ينصحونه بشراء كتاب ما، كان يدفع ربع الثمن أو ثلثه كوديعة، ثم يعطى الكتاب إلى إدواردز لفحصه، فإذا نصح إدواردز بيتي بشرائه كان يدفع بقية الثمن.



□ أحد سلاطين المغول في الهند ــ ومن المحتمل انه دارا شكوه ولد شاه جهان ــ يجلس في حديقة في صحبة جماعة من الشعراء وأساتذة الموسيقى. رسمه الرسام بجتر في الهند، في القرن السابع عشر.هذه اللوحة محفوظة في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.



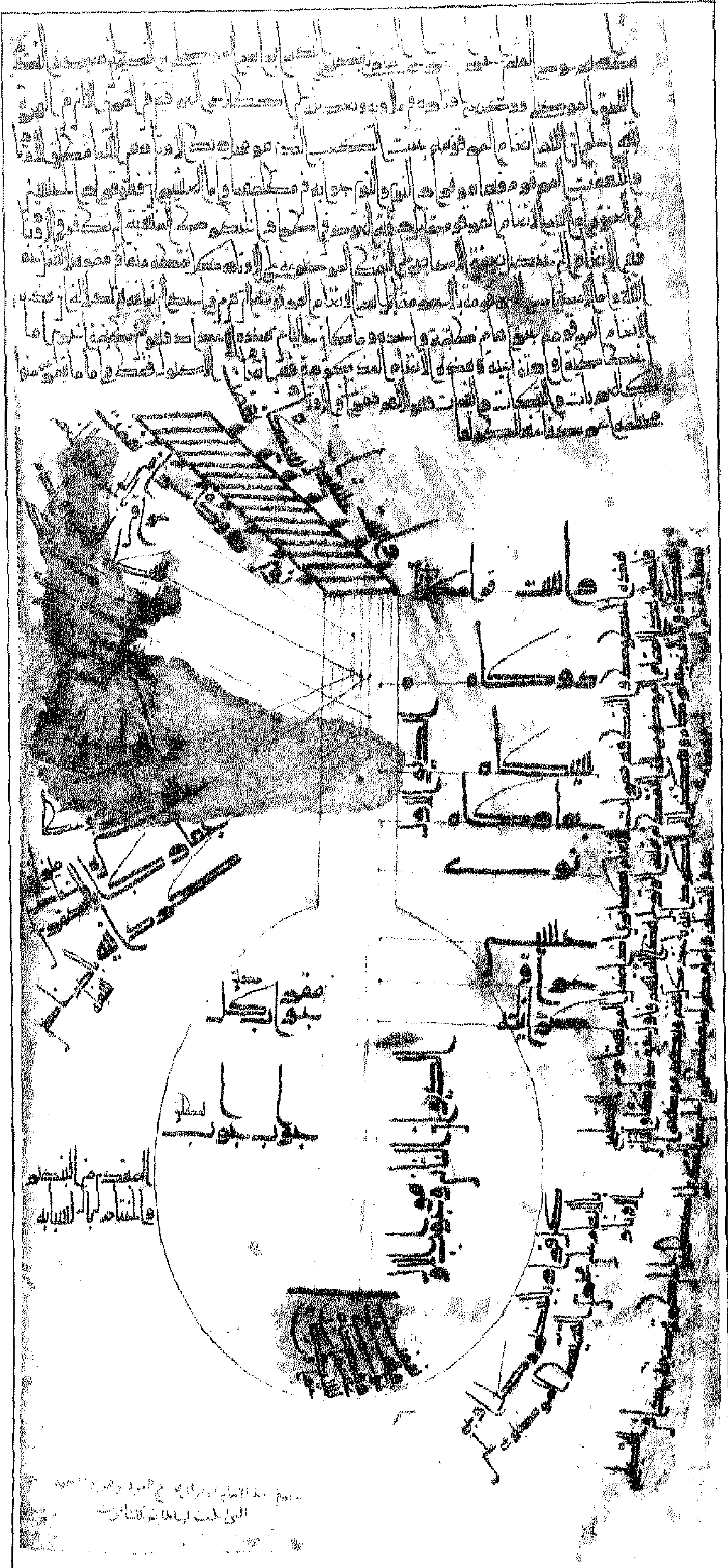
□ صحيفة عن مخطوطة «كتاب سيري نبي» المكتوبة في تركيا عام ١٥٩٤: ورقة ٦٤ب: يأمر رسول الله جبلين أن يتحركا عن مكانهما لكي يقتلا تنينا. وهي محفوظة في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.

وكان لبيتي عدة وكلاء يعملون لحسابه في الشرق، وكثير منهم ما زالوا مجهولين حتى اليوم. ولعل أشهر اثنين منهم كانا ساركيسيان، وهو تاجر كتب أرمني، و ا.س. يهودا، مستشرق يهودي من شمالي إفريقيا.

وكان لسركيسيان المتوفي محل في شارع سليمان باشا في القاهرة، وقد أصبح مخزنه أحد مراكز الشرق الأوسط لشراء وبيع المخطوطات الشرقية. وكان للأرمني هذا خبرة كبيرة في هذا الحقل وكان يشتري أحياناً مكتبات بكاملها ثم يعرض ما فيها من نفائس نادرة على بيتي.

أما ا.س يهودا، الذي توفي في أميركا عام ١٩٤٢، فقد اشترى لحساب بيتي ما يزيد على الألف مخطوطة، أي، بعبارة أخرى، ما يزيد على ثلث المجموعة الحالية ومن الكتب والأعمال العربية.

وقبل أن ينتقل بيتي إلى أيرلندة عام ١٩٤٩ أودعت المكتبة في منزله اللندني «بارودا هاوس». وفي خلال الفترة الواقعة بين عام ١٩١١ و ١٩٤٩ كان بيتي يسمح لمستشرقي العالم على اختلاف جنسياتهم بفحص ودراسة مخطوطاته بكل دقة وتفصيل. وأكثر من هذا، فقد شغل كبار علماء العصر على حسابه الخاص في تدوين وفهرسة ونشر وطباعة مجموعته.



□ قطعة من الرق تحتوي على صورة عود المثمن الذي يخبرنا الخط بانه: «آخر اختراع الإمام الفارابي» محفوظة في مكتبة تشيستربيتي.

وفي عام ١٩٤٩ انتقل إلى إيرلندة حيث اشترى بيتاً ثم أمر ببناء مكتبة تشستر بيتي الحالية على مقربة منه. أما سبب مغادرته لإنجلترا، كما هو معروف حتى الآن، فهو نزاعه مع الحكومة البريطانية حول قضايا مالية مما أدى به إلى مغادرة البلاد مشمئزاً.

لقد كان سخاء بيتي وحبه للخير طيلة حياته مضرباً للمثل؛ ولن ننسى الملايين التي قدمها للأبحاث الطبية مثلاً؛ إلا أن كرمه بلغ الذروة قبل وفاته عام ١٩٦٨ بأعوام قليلة، عندما وهب مكتبته بكاملها التي تضم مجموعة من اثني عشر ألف مخطوط وعمل فني نفيس ملكاً للشعب الإيرلندي بصفة رسمية.

الكنوز الإسلامية في المكتبة

● **المخطوطات العربية ــ ٣٦٥٠ مجلداً**

وتتألف المخطوطات العربية التي نسقها وفهرسها المستشرقان المرحومان ا.ج. آربري من كامبردج، والألماني باول كاله، من ثلاثة أنواع: نسخ قديمة جداً، ومؤلفات فريدة، ومخطوطات نسخت بيد المؤلف نفسه. ولنقدم مثلاً عليها، رغم انه يستحيل تماماً أن نعطي وصفاً كاملاً للمجموعة بكاملها.

هناك مثلاً نسخة تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر من «صور الأقاليم» (مخطوطة رقم ٣٠٠٧) من تأليف الأصطخري (٣٤٠هـ/٩٥١م) وقد زينت بخرائط ممتازة، ومؤلف غير معنون للكاتب الأندلسي المعافري المالقي (المتوفي ٦٠٥هـ/١٢٠٩م) يحتوي على مقالات لنساء شهيرات كعائشة بنت طلحة وأم الدرداء من دمشق الشام المشهورة بعلمها في الفقه وعلم الكلام، والشاعرة ليلى الأخيلية مع بعض أشعارها (مخطوطة رقم ٣٠١٦). وهناك أيضاً مخطوطة نفيسة لفهرست ابن النديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م) تحت رقم (٣٣١٥) ونسخة عامة من «أدب الكاتب» لابن قتيبة (المتوفي ٢٧٦هـ/٨٨٩م) (رقم ٣٣٧٠) مخطوطة بيد ابن الجوزي (المتوفي ٥٩٧هـ/١٢٠٠م). وهناك عمل فريد عن مشاهير رجال مدينة إربل «تاريخ إربل» (رقم ٤٠٩٨) للمستوفي الأربلي (المتوفي ٦٢٧هـ/١٢٢٩م).

وتحتوي المكتبة أيضاً على نسخة من المقامات الحريرية (مخطوطة رقم ٤٢٣٣) تحتوي على حاشية كتبت بيد أبي محمد القاسم الحريري المؤلف (المتوفي في ٥١٦هـ/١١٢٢م) ومؤلف نادر لكاتب مجهول عن البيزرة بعنوان «كتاب البيزرة» الذي كتب على ما يبدو للخليفة الفاطمي العزيز (المتوفي في ٣٨٣هـ/٩٩٣م) (تحت رقم ٣٨٣١). وهناك كتاب عن النحو نسخة الجغرافي العظيم ياقوت (المتوفي في ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وقد كتبه في مرو، كما نرى من الخاتمة (رقم ٣٩٩٩): «وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان في عشية الأحد لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان (سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م) ياقوت بن عبدالله الحموي المولي الرومي الأصل...» وهناك أيضاً مخطوطة عن السيمياء والعلوم الصوفية (رقم ٤٨٩٠) وتشير خاتمتها إلى أنها نسخت في قلعة الحشاشين مصياف في سوريا (٦١٥هـ/١٢١٨م) بيد قائد الحشاشين نفسه أبي فراس بن القاضي نُصْر.

وخلافاً للمخطوطات المكتوبة في العالم العربي نفسه، هناك مخطوطات عربية أخرى من عدة بقاع أوروبية وأفريقية. فهناك مثلاً كتاب نادر في العقائد بعنوان «عقيدة ابن إصبع الغرناطي» (رقم ٣٠١٢) وكان صاحبه الأندلسي قد وهبه إلى مسجد سويقة الدوح في غرناطة قبل القرن الثاني عشر الميلادي. وتضم المكتبة أيضاً عملاً رائع التجليد مزيناً بالرسوم من إفريقيا الغربية بعنوان «كنوز الأسرار في الصلاة على المختار» للشيخ عبدالله الخياط بن محمد الهاروشي المغربي الفاشي. ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب قد نسخ لأحد الأمراء المسلمين في إفريقيا الغربية في بداية القرن التاسع عشر.

● **المخطوطات الفارسية ــ ٣٠٠ مجلد**

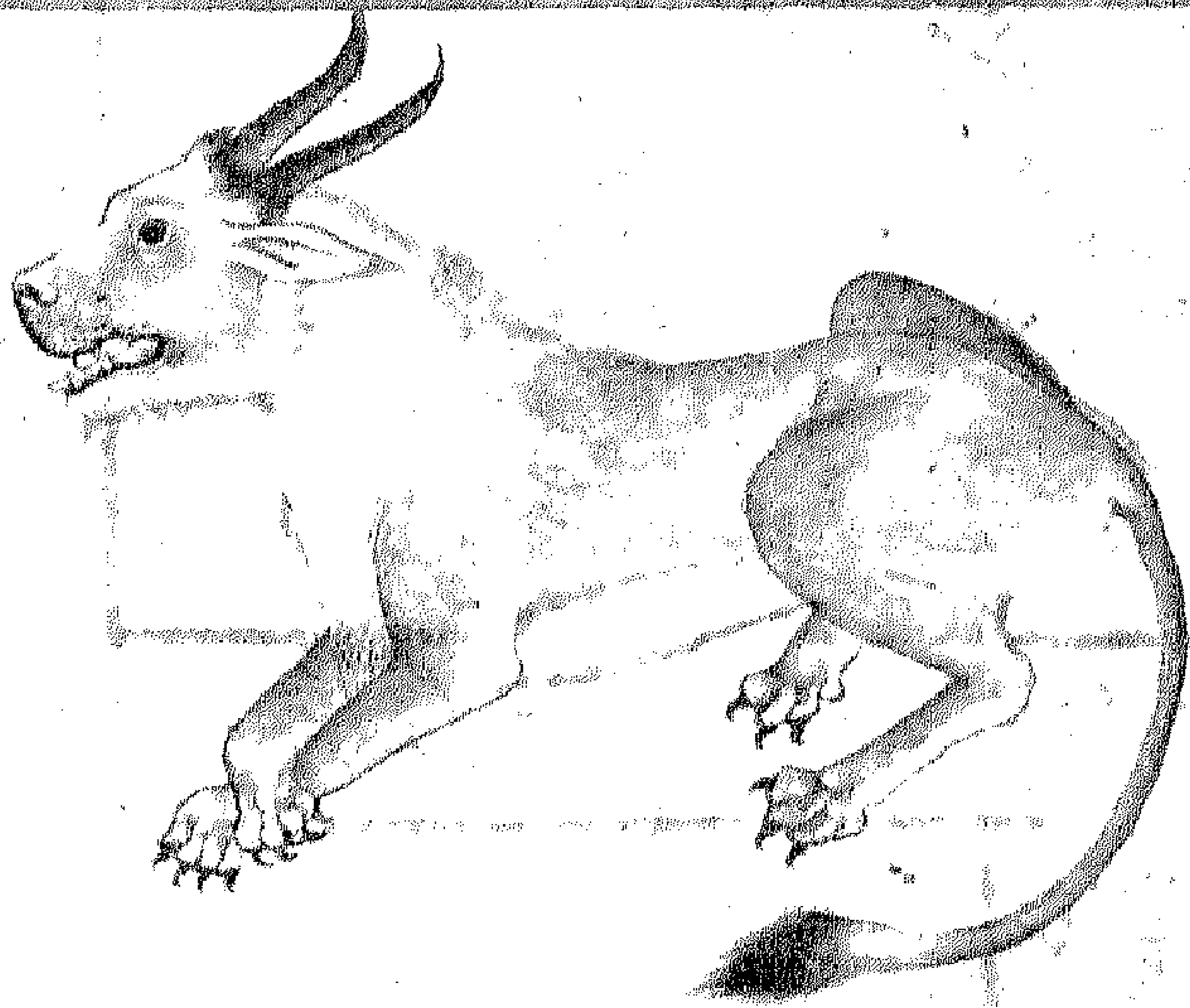
إن الميزة الفنية لمجموعة تشستر بيتي لا تقل أهمية بدون شك عن الميزة الأدبية. وفي الواقع فإن تاريخ الفن الإسلامي بكامله يمكن دراسته من المخطوطات الموجودة في المكتبة ــ من القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر.

ورغم الاعتقاد السائد حول تحريم الإسلام للرسم والتصوير الشكلي إلا أن فن تزيين المخطوطات بالرسوم ازدهر في العالم الإسلامي

برکت سپید پادشاه شود   ارسطو حکیم گوید یک نوع از ... دیده
روی بسیار سرخ رنگ دم او مثل کژدم و بر وی گفته شتری
شکل دراز دنبال شاخهای سیاه داشت بدرازی یک



شیر شاخ دار



فیل از صنع بدایع صنایع صانع است جلت قدرته ا
بسیاری حیوانات بزرگ است چون انرا بالا سخت دراز
چنانکه بلندی ده گز میرسد ... بقدر سیر سد مرا فزاید فیل را

□ صحيفة عن مخطوطة «مجمع الغرائب» التي ألفها السلطان محمد البلخي عام ١٥٥٥ الورقة ٧٢ . وتحتوي الصورة على حيوانين غريبين. محفوظة في مكتبة تشيستربيتي.

طيلة العصر الوسيط، وخاصة في بغداد العباسية، والقاهرة المملوكية، وإيران الصفوية والقسطنطينية العثمانية.

ومن بين البلدان الكثيرة التي كانت تهتم بفن الرسم يمكن اعتبار إيران أهمها قاطبة. ومن المعروف أن المخطوطات كانت تزين بالرسوم التوضيحية في عهد السلاجقة، وحتى قبل ذلك، كما نرى مثلاً من مخطوطة «ورقة وكلشاه» في متحف طوبقابو في استانبول، رغم أنه ليس من المحقق فيما إذا كان أصل هذه المخطوطة من إيران أو الأناضول. ومع ذلك فإن معرفتنا بالرسم الفارسي لا تبدأ إلا بعد الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر.

ورغم أن إيلخانيين المغول الذين حكموا إيران كانوا أجانب، إلا أنهم بذلوا ما في طاقتهم لتشجيع ازدهار الرسم في تلك البلاد. وكانوا يكلفون الفنانين بتزيين كتاب الفردوسي العظيم الشاهنامه بالرسوم، وهو مؤلف ظل بعد ذلك مصدر الإلهام الرئيسي للرسامين الفارسيين.

وأشهر نسخة من كتاب الشاهنامة تدعى بـ «ديموت شاه نامه» كانت قد نسخت حوالي عام ١٣٤٠ وربما في تبريز التي تعتبر رسومها من روائع الفن العالمي. ويوجد حوالي ستين صفحة من هذه المخطوطة النادرة. منها تسع صفحات في مكتبة تشستر بيتي (رقم ١١١). وقد يكون من الجدير أن نذكر في هذا المجال أن صفحة واحدة من هذه المخطوطة بيعت عام ١٩٦٩ في لندن بثلاثين ألف جنيه.

وفي نهاية القرن الخامس عشر بدأ عهد جديد في الرسم الإسلامي تحت رعاية حسين ميرزا حاكم هرات في شرق إيران. وكان أحسن رسام في ذلك العهد كمال الدين بهزاد الذي كتب عنه المؤرخ الفارسي الوسيطي خواندمير: «وضع بهزاد أمامنا من روائع صوره وفنه العجيب النادر ما يحاكي ما أبدعته ريشة المصور الكبير «ماني» (بنى المانوية) وطمست أعماله الفنية ذكرى غيره من مصوري العالم. وفاقت صوره صور غيره من سائر الفنانين، بفضل ما وهبته يده من مقدرة سحرية وانبعثت الحياة في الجمادات بما كمن بين شعرات فراشاته من عبقرية وتنوع».

ويوجد في مكتبة تشستر بيتي نسخة من بستان سعدى (مخطوطة رقم ١٥٦) مزينة برسوم يفترض أنها من عمل بهزاد في شبابه. والمخطوطة على أسلوب بهزاد وتنم عن دقة متناهية في التنفيذ وحيوية في الحركة وتوازن في الألوان كما أنها تظهر الملامح الشخصية الفردية للوجوه.

وقد ازدهرت خارج البلاط الملكي عدة مدارس محلية للرسم ولعل أطرفها وأهمها المدرسة التركمانية التي وجدت في القرن الخامس عشر. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي عدة مخطوطات من هذه المدرسة، أبدعها وأدقها جزء من كتاب يدعى «خاورنامه» (مخطوطة ٢٩٣) وقد نسخ عام ١٤٨٠. ويحتوي هذا على قصص أبطال الإسلام الأولين وخاصة أولئك الذين يتصلون بالإمام علي. والصور في حجم كبير غير اعتيادي وقد رسمت بألوان زاهية جداً. وهي ليست مثقلة بالتفاصيل الدقيقة كما تميل بعض المنمنمات الفارسية إلى ذلك.

وبالإضافة إلى المخطوطات الفارسية التي جمعت لمزاياها الفنية، فقد تم الحصول على عدد كبير من المخطوطات الأخرى من أجل نصوصها. فهناك مثلاً نسخة قديمة جداً من رباعيات عمر الخيام (رقم ٣٠٣) مؤرخة عام ١٢٥٩م. وهي تعتبر من أقدم النسخ المعروفة للرباعيات وقد قام ا.ج. آربري بنشرها عام ١٩٤٩. وهناك قاموس طبي فريد بعنوان «المجموعة المبارزة» تم نسخه عام ١٣٨٩م (رقم ٣١٧) وكذلك توجد ترجمة فارسية مشهورة جداً لكتاب يحتوي على أقوال منسوبة إلى الإمام علي تم نسخه عام ١٣٢٩م.

● **المخطوطات التركية ــ ١٧٠ مجلداً**

إننا نعلم من المصادر التاريخية أن السلاطين الأتراك كانوا يشجعون التصوير وأن بعضهم كان يستحضر الأوروبيين والإيرانيين ليعملوا عندهم في استنبول. فقد استدعى محمد الثاني (١٤٥١ ــ ١٤٨١م) الرسام الإيطالي جنتيلي بيلليني إلى القسطنطينية حيث رسم صورة السلطان التي تشاهد اليوم في المتحف الوطني في لندن. وهناك رسام إيراني وهو شاه قولي كان يعمل في بلاط سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ



□ الصحيفة الافتتاحية لكتاب عقيدة ابن أصبغ، مكتوب في الأندلس في القرن الثالث عشر، وهو محفوظ الآن في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.

١٥٦٦) ثم أصبح وزيراً أعلى لدى السلطان.

ورغم عمل الفنانين الإيرانيين والأوروبيين المهاجرين فقد نشأت مدرسة وطنية للتصوير بعد حين سريع في تركيا وكان يطلق عليها اسم «المدرسة العثمانية». وكان مركزها القصر الملكي. لأن الأغلبية الساحقة من المخطوطات التي زينت بالرسوم في تركيا كانت تنتج للمكتبة الامبراطورية. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي عدة مخطوطات من المحتمل أنها أنجزت للسلاطين ولعل أشهرها «سليمان نامه» (مخطوطة ٤١٣) و «كتاب سيري نبي» (٤١٩) و «زبدة التواريخ» (٤١٤).

اما كتاب «سليمان نامه» فتأريخ فتوحات السلطان سليمان القانوني وقد كتبه لقمان عشوري عندما كان شاهنامه جي السلطان، أي «مؤرخه الرسمي». ويحتوي الكتاب على ٢٥ صورة رائعة تظهر جميع تفاصيل عمليات سليمان العسكرية. وفي الحقيقة فقد تخصص المصورون الأتراك في هذا النوع من المخطوطات، ويبدو كتاب سليمان نامه في كثير من الوجوه كسجل فوتوغرافي للعصر. وقد كتب مؤلف يدعى الضرير عام ١٣٨٨م كتاب «سيري نبي»، أي حياة الرسول. وهو كتاب هام لأن المؤلف استعمل لغة تركية غريبة قديمة. ولا يوجد من الكتاب إلا ستة مجلدات من القرن السادس عشر، والكتاب الموجود في مكتبة تشستر بيتي هو المجلد الرابع.

ويحتوي هذا المجلد على ١٣٦ رسماً ممتازاً يظهر الرسول مرسوماً في أغلبها. ورغم تحريم تصوير محمد تحريماً جلياً قاطعاً، إلا أن مصوري هذا المجلد تجنبوا المشكلة بتغطية وجه الرسول بنقاب. ولرسوم كتاب سيرى نبي طابع «روحي» غريب قلما يعثر عليه في المخطوطات الإسلامية.

أما الكتاب الثالث «زبدة التواريخ» فقد ألفه لقمان عشوري أيضاً وهو يشتمل على تأريخ العالم من آدم حتى العهد الإسلامي. وقد قام بتزيين هذه المخطوطة المؤرخة في ١٥٨١م بالرسوم المصور الشهير صنعي الذي يحتمل أنه رسم كذلك خريطة العالم الرائعة التي تظهر في المخطوطة أيضاً. ومن الأمور الطريفة حول هذه الخريطة هو أنها تضم جزيرة في المحيط الأطلسي تدعى «يكي دنيا»، أي «أميركا».

● المخطوطات المغولية الهندية ــ ٧٤ مجلداً وسجلاً مصوراً

كان من نتائج غزو بابر لهندوستان تغلغل الحضارة الإسلامية في الهند. وكان بابر، حفيد تيمور، وأخلافه رعاة كبار للفن والأدب وقد شجع كثير منهم فن الرسم بوجه خاص. ولعل اهمهم في هذا الحقل الامبراطوران أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥م) وجهانكير (١٦٠٥ ــ ١٦٢٨م). وكان أحد أهداف أكبر احياء مدرسة للرسم، ولتحقيق هذه الغاية فقد أنشأ معهداً كان يضم أكثر من مائة فنان هندي يعملون تحت إشراف فنانين من إيران. وكان المعهد يحتوي كذلك على عدة مخطوطات فارسية مزينة برسوم كبار الرسامين أمثال بهزاد.

وفي نهاية القرن السادس عشر نشأت مدرسة وطنية حقيقية للرسم في الهند المغولية كنتيجة للتأثير الذي مارسه فنانو كشمير وكجرات والبنجاب.

ومن المخطوطات التي زينها بالرسوم فنانو بلاط الملك اكبر كتاب «أكبر نامه» أي سيرة أكبر، وتوجد نسخة منه في مكتبة تشستر بيتي (مخطوطة رقم ٣). وهناك احتمال كبير أن النسخة الرائعة الموجودة في المكتبة تم إنجازها للامبراطور نفسه.

وخلال حكم جهانكير، ابن أكبر، ازدهر فن تصوير الشخصيات، وهناك عدة رسوم شخصية لجهانكير، إما لوحده أو محاطاً برجال بلاطه. وكان الكثير من رجال الحاشية يقلد الامبراطور بحيث كانوا يكلفون الرسامين بوضع صور شخصية لهم أيضاً. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي البوم يحتوي على عدة رسوم رائعة وصور من بلاط جهانكير (رقم ٧) أتمها كبار رسامي العصر أمثال: بدارث وبجتر وفرخ بيكك وكوردهان وأبو الحسن. ويوجد في الألبوم صورة رمزية بديعة رسمها أبو الحسن الذي منحه جهانكير لقب «نادر الزمان». وتظهر هذه الصورة (رقم ١٥) الامبراطور واقفاً على كرة موضوعة على ظهر ثور. ويرتكز الثور على سمكة كبيرة.

ويوجد فوق رأس الامبراطور ملاكان أحدهما يحمل سيفاً، والآخر يحمل ثلاثة سهام. وفي هذه الصورة يمكننا أن نرى براعة الفنانين الهنود الممتازة في حقل رسم الصور الشخصية، وهو حقل كانوا أسياده بدون منازع.

● **القرآن ــ ٧٠ نسخة**

وتحتوي المكتبة على نخبة بديعة من المصاحف جمعت من كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي ابتداء من الأندلس حتى الصين، ومن أغلب العصور التاريخية.

ومما لا شك فيه أن أشهر المصاحف الموجودة في المكتبة، النسخة التي نسخها الخطاط العظيم ابن البواب في بغداد عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م، كما يتضح من الخاتمة: «كتب هذا الجامع علي بن هلال بمدينة السلام سنة إحدى وتسعين وثلثمائة حامداً لله تعالى على نعمه ومصلياً على نبيه محمد وآله ومستغفراً من ذنبه». وقد قال منظم فهرس مجموعة المصاحف، المستشرق ا.ج. آربري، ما يلي: إن مجموعة المصاحف في مكتبة تشستر بيتي، الفائقة في الحجم والجودة والتنويع، تضم نماذج مدهشة من كل قرن وكل أسلوب بحيث توضح بكمال يثير الدهشة تاريخ النسخ الفني للقرآن الكريم.

مستقبل المكتبة

ستظل المكتبة دوماً بطبيعة الحال كنزاً عظيماً للحضارة الإسلامية وسترحب المكتبة دوماً بالباحثين من جميع أنحاء العالم ــ وخاصة من الشرق الأوسط ــ ليقوموا بدراسة ثروة الآداب العربية المحفوظة بين جدرانها.

ولكن ماذا سيكون مستقبل المكتبة في إيرلندة؟ بالرغم من وجود قسم ناجح للدراسات الشرقية في ترينيتي كولدج في دبلن في القرن التاسع عشر، إلا أن هذا القسم تحول في الآونة الأخيرة إلى مجرد دائرة لدراسة اللاهوت والكتاب المقدس بحيث لا تحتل اللغة العربية إلا جزءاً صغيراً جداً من منهج التدريس.

وعلى أي حال، فبعد أن أصبحت المكتبة ملكاً للأمة الإيرلندية منذ عام ١٩٦٨، بدأت دائرة اللغات السامية في جامعة إيرلندة الوطنية في تطوير وتحسين مستوى تدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية. فقد تبين أنه إذا أريد لشعب إيرلندة أن ينتفع من مجموعة مكتبة تشستر بيتي فإنه لا بد من بذل مجهود جدي لتمكين الطلاب الإيرلنديين من تذوق محتويات هذه المكتبة والاستمتاع بدراسة كنوزها. وهكذا فقد أصبحت دراسة اللغة العربية ممكنة الآن للخريجين من حملة الباكلوريوس، وستوسع هذه الإمكانية بحيث تصبح متيسرة لغير الخريجين من الطلاب. ومن المرجو أيضاً أن تضيف دائرة تاريخ الفن موضوعاً عن التصوير الإسلامي في منهاجها الدراسي، وبذلك ستبدأ المكتبة في القيام بدور هام في التربية والتعليم في إيرلنده، كما أنها ستمكن الشعب الإيرلندي فوق ذلك من تفهم شعوب العالم الإسلامي وحضارته.



رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣)

● شيخ المترجمين المصريين في مطلع النهضة الحديثة. ولد في طنطا، ونشأ فقيراً، وقدم إلى القاهرة صغيراً، وتخرج في الجامع الأزهر. انتهز فرصة تعيينه إماماً لأول بعثة تعليمية ارسلت إلى فرنسا، فتعلم الفرنسية، وبعد عودته عمل مترجماً في المدارس الفنية التي أنشأها محمد علي، ثم مديراً لمدرسة الترجمة (الألسن فيما بعد)، قام بدور هام في نشأة الصحيفة الرسمية «الوقائع الرسمية». تخرج عليه كثير من المترجمين والأساتذة، وترجم بنفسه كتباً عدة في الجغرافيا والقانون والهندسة وغيرها، وكتب وصفاً لرحلته إلى فرنسا: «تخليص الابريز في تلخيص باريز»، وشرحا للنظم السياسية والاجتماعية الحديثة، و «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية».



إيلات

موقع

قِسْم التوثيق والأبحاث

أقام الصهيونيون هذه المدينة في موقع أم رشرش العربي على الرأس الشمالي الغربي لخليج العقبة. وأنشىء ميناؤها الذي ساهم في تطوّر ونمو المدينة عام ١٩٥١. وإيلات اسم المدينة الإيدومية القديمة التي كانت تقع على الخليج قرب مدينة العقبة الحالية. وقد ذكرتها التوراة في حديثها عن تيه بني إسرائيل فقالت إنهم مرّوا بها عند خروجهم من مصر (القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد). وفي ذلك الوقت كان الإيدوميون أصحاب السيادة على هذه المنطقة التي تمتد من البحر الميت حتى خليج العقبة. وقد اشتهرت بلاد الإيدوميين هذه بثروتها المعدنية وبموقعها التجاري مما جعلها ملتقى طرق التجارة بين الجزيرة العربية ومصر والشام والبحر المتوسط. ودلّت النقوش على أن المصريين القدماء قاموا باستغلال مناجم النحاس والحديد والمنغنيز التي كانت تمتد من شمال وادي عربة إلى خليج العقبة في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد.

كانت ثروة إيدوم وازدهارها السبب الرئيس للحرب التي شنّها عليها الملك داود في القرن العاشر قبل الميلاد، وهي الحرب التي أدّت إلى انتصاره وتحكّمه في رأس الخليج. وفي أواسط القرن العاشر قبل الميلاد أنشأ ابنه الملك سليمان مدينة عصيون جابر واستخدمها ميناء له على البحر الأحمر للإتجار مع جنوب جزيرة العرب وشرق إفريقيا. ودلّت الحفريات التي قام بها نلسون غلوك وفريتز فرانك في تلّ الخليفة الذي يقع على مسافة ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من مدينة العقبة الحالية على أن هذا التل هو موقع عصيون جابر وإيلات القديمة، وأن الموقع كانت تشغله مستوطنة حصينة تحيط بها أسوار قوية بين القرن العاشر والقرن الرابع قبل الميلاد. ويعتقد بعض العلماء أن عصيون جابر وإيلات لم تشغلا الموقع نفسه وإنما كانتا مدينتين متجاورتين. ودلّت الحفريات كذلك على أنه كانت لعصيون جابر تجارة نشيطة مع المعنيين في جنوب جزيرة العرب. ويبدو أن حروب الإسرائيليين مع الإيدوميين استمرت عشرات السنين. ويروي العهد القديم (سفر الملوك: ٢/ ٤، ٢/ ٧) أن الملك أمصيا احتل سلع حاضرة الإيدوميين وقتل عشرة آلاف منهم وألقى بعشرة آلاف آخرين من قمة أحد الجبال، ثم أخذ آلهتهم إلى القدس. وفقدت إيدوم أيضاً ميناءها على البحر قرب العقبة الحالية، واضطر الإيدوميون إلى قبول إقامة مستعمرة تجارية يهودية. لكن الحرب ظلّت بعد ذلك سجالاً بين الطرفين حتى اضطر اليهود إلى الانسحاب نهائياً من عصيون جابر ومنطقة خليج العقبة كلها في عهد الملك آحاز (٧٣٥ ــ ٧١٥ق. م).

وظلّ الإيدوميون في إيلات بعد ذلك قرابة ثلاثة قرون إلى أن احتلها الأنباط ربما في القرن الرابع قبل الميلاد.

وفي هذا القرن حلّ الأنباط محل الإيدوميين في


□ خليج «إيلات» ــ النطق الصهيوني لكلمة آيلة العربية الكنعانية السحيقة.

المنطقة وأصبحت أيلة ميناء الأنباط على البحر الأحمر. وكان الأنباط هم أول من استعمل اسم «أيلة» المشتق من اسم إيلات الاسم الإيدومي القديم. وقد نقل الأنباط أيلة من موقعها القديم قرابة ٣ أميال باتجاه الجنوب الشرقي إلى حيث تقع مدينة العقبة الحالية الآن.

ازدهرت أيلة ازدهاراً كبيراً مع ازدهار دولة الأنباط الاقتصادي لأنها كانت هي والبتراء عاصمتهم تقعان على خطين هامين من خطوط التجارة العالمية آنذاك بين الشام وجنوب الجزيرة العربية وآسيا من جهة، وبين الشام ومصر من جهة أخرى. وكانت هناك طريق تجارية هامة تصل بين أيلة وغزة.

وفي أثناء حكم البطالمة أصبح اسمها بيرينكة (Berenike)، وظلّت تتمتع بمركز تجاري هام مع شرق إفريقيا وجنوب جزيرة العرب. وفي سنة ١٠٦ق. م. تمكّن الامبراطور الروماني تراجان من قهر الأنباط، واحتل البتراء وأيلة، وبنى طريقاً تبدأ من أيلة وتنتهي بدمشق. وأصبحت بلاد الأنباط ولاية رومانية أطلق عليها اسم بروفنسيا أرابيا (الولاية العربية)، وأصبحت أيلة مقراً للفرقة الرومانية العاشرة وغدت حصناً عسكرياً جنوبي فلسطين.

وفي عهد البيزنطيين احتفظت آيلة بمكانتها التجارية فكان ينقل عبرها الحرير والتوابل إما إلى بلاد اليونان عن طريق غزة وإما إلى مدن الشمال في سورية. وفي سنة ٣٢٥م أصبحت أيلة مركزاً لأسقفية كان بعض أساقفتها من العرب.

وفي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام حكمها ملوك الغساسنة باسم الدولة البيزنطية.

ظهر اسم أيلة لأول مرة في التاريخ الإسلامي سنة ٩هـ / ٦٣٠م؛ فعندما وصل الرسول عليه السلام إلى تبوك في تلك السنة قدم يوحنا بن رؤبة مطران أيلة على النبي فصالحه على جزية قدرها ٣٠٠ دينار في السنة، وعلى قِرى من يمر بأيلة من المسلمين. وكتب الرسول لهم كتاباً أن يُحفظوا وأن يُمنعوا «وأن لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر». وأهدى يوحنا إلى النبي بغلة بيضاء، وأهدى النبي إليه بردة من بروده.

وعندما زار الخليفة عمر بن الخطاب الشام بعد طاعون عمواس خرج للقائه بأيلة جمهور كبير من الناس. وقضى ليلة في ضيافة مطران البلدة.

ومنذ بداية العهد الإسلامي أصبحت أيلة ملتقى الحجيج المصري والشامي وانتعشت التجارة فيها. وكان بها في العهد الإسلامي وبعده قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان بن عفان، وكانوا سقاة الحج. وفي عام ١٩١هـ في خلافة هارون الرشيد امتنع أهل أيلة بقيادة أبي النِّداء عن دفع الضرائب، وتمردوا على الحكومة العباسية، فبعث إليهم الرشيد بجنوده فظفروا بهم وأرسل أبو النِّداء إلى بغداد حيث قتل.

أصبحت أيلة في القرن الثالث الهجري تحت حكم الطولونيين. وذكر أن خمارويه (توفي ٢٨٢هـ / ٨٩٦م) عبّد طريقها ورمّم الجبل العالي «ذا العقبة» الواقع إزاءها ليسهل وصول القادمين إلى المدينة.

وعلى الرغم من وقوع أيلة عند ملتقى أقطار ثلاثة هي الشام ومصر والحجاز فقد كانت في الغالب «تعد في بلاد الشام». وشهدت المدينة قمة ازدهارها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ووصفها المقدسي ٣٧٥ ــ ٣٧٦هـ / ٩٨٥ ــ ٩٨٦م في «أحسن التقاسيم» فقال: «مدينة عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك، فُرضة فلسطين وخزانة الحجاز. وفي أيلة تنازع حصل بين الشاميين والحجازيين والمصريين وإضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية، وهي فُرضة فلسطين».

أصيبت أيلة في القرن الخامس الهجري بنكبتين، ففي سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤ ــ ١٠٢٥م نهبها عبدالله بن أدريس الجعفري مع جماعة من بني الجرّاح. وفي سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ ــ ١٠٧٣م حدثت في البلاد زلزلة هائلة اهلكت أيلة ومن فيها.

وقد جلبت فترة حكم الصليبيين إلى أيلة كثيراً من المصائب التي أدّت إلى تدمير قسم كبير من المدينة. ففي سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م احتل بغدوين الأول ملك القدس مدينة أيلة وضمّها إلى بارونية الكرك التابعة لمملكة القدس. وحاول الصليبيون استغلال موقعها العسكري ليمنعوا الاتصال بين الشام ومصر والحجاز. فأنشأوا حصناً على جزيرة فرعون المجاورة للشاطىء وبنوا أسطولاً في العقبة أبحر في عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م.

وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م تمكّن صلاح الدين الأيوبي من استرداد أيلة بعد معركة برية وبحرية، فطرد الفرنجة وترك حامية في المدينة. لكن رينو دي شاتيون أمير الكرك الصليبي تمكّن من احتلال أيلة فترة قصيرة عام ٥٧٨ ــ ٥٧٩هـ / ١١٨٢ ــ ١١٨٣م في سياق حملته ضد الأماكن المقدسة في الحجاز. وكان قد بنى السفن في عسقلان ونقلها إلى أيلة وشرع يهاجم سفن المسلمين في البحر الأحمر. بيد أن حسام الدين لؤلؤ قائد صلاح الدين دمّر أسطول رينو سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، وعادت أيلة إلى أصحابها.

عاد الصليبيون إلى أيلة مرّة أخرى، ثم استرجعها منهم نهائياً السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م، لكن المدينة كانت في حالة من الخراب. وبزوال الخطر الصليبي عادت أيلة ملتقى للحجاج القادمين من مصر والشام. وفي أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بنى السلطان قانصو الغوري ٩٠٦ ــ ٩٢٢هـ / ١٥٠١ ــ ١٥٢٢م قلعة على شاطىء أيلة رممها السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٩٦هـ / ١٢٩٦م. وكان هنالك قبل هذه القلعة قلعة أخرى قديمة تحمي أيلة في جزيرة فرعون القريبة وقلعة أخرى بناها الصليبيون على

الأرجح سنة ٥٧٨ أو سنة ٥٧٩ / ١١٨٢ ــ ١١٨٣م. ولم يعد لهذه الأخيرة من أثر اليوم.

اصبحت أيلة ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي تدعى باسمها الجديد «العقبة». وهذا الاسم اختصار لعقبة أيلة. وكان هذا الاسم، أي عقبة أيلة، قد أطلق على المدينة من القرن الرابع عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر الميلادي. وابتداء من القرن السادس عشر الميلادي أسقطت كلمة أيلة واقتصر الاسم على العقبة. وتشير عقبة أيلة إلى الممر الوعر الذي مهدّه ملوك مصر ابتداء من خمارويه الطولوني حتى الناصر محمد بن قلاوون (٧١٩هـ / ١٣٢٠م) في جبل أمّ نصيلة المجاور للمدينة ليسهل الوصول إليها.

ظلّ خليج العقبة تحت السيادة العربية الكاملة إلى أن قام الاحتلال الصهيوني بتأسيس ميناء إيلات عام ١٩٥١. وظلّت القوات المسلحة المصرية المتمركزة في شرم الشيخ تحاصره حتى عام ١٩٥٦ عندما شنّت دول العدوان الثلاثي هجوماً على مصر، ونتج عن ذلك العدوان تمركز قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ، والسماح للسفن الإسرائيلية وسفن الدول الأخرى بالمرور في خليج العقبة. لذلك أخذ ميناء إيلات سكاناً وعمراناً.

بدأ ميناء إيلات يقوم بدور حيوي في تجارة الكيان الصهيوني الخارجية منذ عام ١٩٥٦، وبخاصة مع دول شرقي إفريقيا وجنوب شرق آسيا واوستراليا. وتمّ ربط إيلات بمدينة بير السبع وميناءي أسدود وعسقلان على البحر المتوسط بطريق رئيسة معبدة تخترق إقليم النقب. وتنتقل البضائع على هذه الطريق بالشاحنات الضخمة، وتمّ أيضاً ربط إيلات بمنشآت البوتاس في أسدوم وبمركز المفاعل النووي في ديمونة بطريق رئيسة معبدة أخرى تخترق وادي عربة. وترتبط إيلات أيضاً بمناجم الفوسفات في النقب بطريق متفرعة من طريق إيلات ــ بير السبع. وهنالك خطّان من أنابيب النفط يصلان بين إيلات وكل من حيفا وعسقلان. ويبلغ طول الخط الأول قرابة ٤٠٠ كم، وقطره نحو ٤٠ سم، وتجاوزت طاقته ٦ ملايين طنّ سنوياً. أما الخط الثاني فيبلغ طوله ٢٥٦ كم، وقطره نحو ١٠٥ سم، ووصلت طاقته إلى ٢٠ مليون طنّ سنوياً، وقد تصل طاقته في المستقبل إلى ٥٠ مليون طنّ سنوياً.

ولشركة زيم الصهيونية للملاحة خطوط منتظمة عبر البحر الأحمر إلى أثيوبيا وكينيا وتانزانيا ومالاغاشي وموزامبيق وجنوب إفريقيا. وتدير الشركة خطوطاً منتظمة إلى الموانىء اليابانية وهونغ كونغ وماليزية وسنغافورة وأوستراليا. وأهم الصادرات الإسرائيلية إلى أفريقيا والشرق الأقصى، عبر إيلات، البوتاس والفوسفات والإسمنت والنحاس والإطارات والمنسوجات ومسحوق الصابون والمبيدات والحمضيات. وأهم الواردات النفط والمنتجات الصناعية والحديد والمطاط الصناعي وزيت جوز الهند والأرز والذرة والعلف. وقد ساهم ميناء إيلات في أكثر من ٧ ٪ من مجموع النقل البحري للكيان الصهيوني في عام ١٩٨١. ويقدّر مجموع كمية الصادرات والواردات عبر ميناء إيلات (باستثناء النفط) بنحو ثلاثة أرباع مليون طن من البضائع.

بلغ عدد سكان إيلات في عام ١٩٥٢ نحو ٢٧٥ نسمة، وازداد عددهم إلى ٢,٦٠٠ نسمة عام ١٩٥٦، وإلى ١١,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٦٦، وإلى ١٤,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٢. ويقدّر عددهم بنحو ٢٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨١. يعود غالبية سكانها في أصولهم إلى صهيونيين مهاجرين من شمال إفريقيا والمجر ورومانيا وبولونيا وهولندة. وفيها مطار هو الثاني في فلسطين المحتلة بعد مطار اللد، ويبعد نحو كيلومترين عن الساحل على الجانب الغربي من الطريق العامة. ولإيلات مرفأ مدني وآخر عسكري. وفيها عدد من المصانع كمصنع قطع الأحجار وصقلها، ومصنع صقل الماس، ومصنع الجص، ومصانع لتعليب الأسماك، ومصنع للنحاس، ومعمل لحياكة الملبوسات، ومعمل لتعقيم الحليب. وفيها أيضاً مصفاة للنفط، ومحطة لتقطير المياه تنتج أكثر من مليون غالون ماء يومياً لسد حاجة المدينة من المياه، ومحطة للقوة الكهربائية. •

المراجع: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.

أرنست همنغواي

الكاتب الإنساني الذي هزأ بالحياة، وغزا العالم بسلاح العقل والقلب





الطريقة التي مات بها أرنست همنغواي، من حوالي عشرة أعوام، ميتة روائية «دراماتيكية» مؤسفة: لقد مات هذا الرجل الإنساني الذي غزا العالم بسلاحي العقل والقلب، بينما كان يجرب سلاحاً عادياً بسيطاً ــ بندقية صيد ــ انطلق فجأةفقضى عليه وأخمد في دقيقة واحدة عقله وقلبه.

إنها أغرب نهاية لكاتب.. ولكنها ليست غريبة على مغامر عظيم كهمنغواي صمد بوجه أخطر المغامرات وجابهبجرأة أقسى المعارك وخاض غمار عدة حروب، وعاش حياته يهزأ بالحياة ويعيش في صراع دائم من أجل لذة العيش، فقد كان في رحيل دائم وفيغمار غربة مستمرة لا يقر له قرار في وطنه، ما أن يزوره حتى يغادره وهو غير أسف، في سفرة جديدة أو بحثاً عن عالم جديد، حتى لكأنه ملّ العالم الجديد (بلاده) منذ نعومة أظفاره فأقام في العالم القديم يتنقل بين عواصم أوروبا أو يتجول في قفار أفريقيا، أو يطوف في الجزر النائية وهمه الأول دراسة الإنسان في صراعه مع الحياة من أجل الحياة.

ويمكن القول أن المدرسة التي تخرج منها ارنست همنغواي ونال إجازته إلى دنيا الأدب والفن فيها، هي القارة الأوروبية. وكانت الموضوعات التي درسها في تلك المدرسة إلى جانب الأدب والفن، اللغات والناس والسياسة ومؤتمرات السلام والحرب. ففي عام ١٩١٨ مرّ همنغواي بمحنة اصابته بما يشبه إنفجار الألغام، إذ كان في ليلة من ليالي تموز في شمالي إيطاليا قبل عيد ميلاده التاسععشر بأسبوعين حين انفجر لغم نمساوي فأصابه بجرح بليغ حتى كادت دراسته في كتاب الكون تنتهي قبل أن تبدأ.

وفي العشرين من عمره عاد الفتى إلى بلده «أوك بارك» من أعمال شيكاغو وهو يعرج متوكئاً على عصاه، وقد ارتدى زياً غريباً. غير أن مكوثه في وطنه لم يطل إذ كان عليه أن يعود إلى باريس، بعد الحرب الأولى ليتم مرحلة دراسية بدأها يافعاً، وفيها علم نفسه كيف يكتب حين كان يعمل مراسلاً لبعض الصحف رغبة في التعيش. وقد جاب القارة الأوروبية، وانضم لأسباب اقتصادية إلى عصبة من الفنانين الأنكليز والأميركيين المقيمين على الشاطيء الأيسر من نهر السين (حي الفنانين والشعراء والكتاب).

حياته الصحفية

أما حياته كمراسل صحفي فقد أحبها وعمل فيها جاهداً ونجح في ذلك. ولقد قال عن الصحافة بعد سنتين: «إن اكبر حافز للعمل في الصحافة أن يجد المرء مرتبا جيداً. وحين تحطم الأمور القيمة التي لديك، لكي تكتب عنها، فأنك تريد أن تحصل على مبلغ ضخم».

وقد عقد في هذا العهد أحاديث مع كلمنصو العجوز الداهية وكان قد اعتزل الناس والشهرة ولكنه أصبح من المقربين إلى همنغواي وأحد أبطاله كما حضر عدة مؤمرات، أما موسوليني فكان أرنست همنغواي يمقته منذ أن كان صحفياً صغيراً في صحيفة «البوبولوديطاليا» وقال عنه منذ البداية. بصراحة مؤلمة «إنه شخصية رديئة» ولم يغب عن بال همنغواي لحظة أن غايته الأولى أن يصبح أديباً، ومع ذلك أنفق معظم عام ١٩٢٢ في تلقي دروس خاصة في العلم السياسي وفي أواخر أذار من ذلك العام شهد في جنوه العراك بين العصابات الثورية في الحارات والأزمة وقد استنزفت هذه الفوضى حيوية الشعب الإيطالي وجعلت مؤتمر لوزان في أواخر عام ١٩٢٢ وهناك تعرف إلى تجارب هائلة في دنيا السياسة حملته على نظم قصيدة حرة ينتقد فيها المؤتمر وكان عنوانه «كلهم يريدون السلم، فما هو السلم؟».

أول أشعاره وقصصه

وهكذا بدأ همنغواي في مطلع حياته الأدبية يكتب القصص وينظم القصائد السياسية النقدية الطليقة من الوزن وقد كان عمله الصحفي يعلمه دروساً في الإيجاز اللفظي، ومن أشهر قصائده في هذه المرحلة ست قصائد على اسلوب كبلنع نشرت في مجلة «شعر»، ومنها أيضاً قصتان قصيرتان على طريقة أندرسون أحداهما: «هنالك في ميتشفن» التي تصور حادث إغراء جنسي. أما الثانية فعنوانها «شيخي».

ثم بدأ في نشر القصص والصور في كتيب صغير أسماه، (في عصرنا) وقد صدر في عام ١٩٥٢ وهو يتضمن مجموعة من الصور التي لم تزد فيه اية صورة عن صفحتين. وبلغت فيه إحدى الصور ثمانية أسطر. كتابه «ثلاث قصص وعشر قصائد». فكان اكبر حجماً من الأول غير أن قصتين من الثلاث كانتا تمثلان محاولتين في القصص القصيرة. وبدأت الولايات المتحدة تولي نتاجه شيئاً من الأهتمام كأنما كانت تريد أن تشجع فيه التوجه إليها. فطبعت قصيدته «عنوان الفصل» بين خير القصائد التي ظهرت عام ١٩٢٣ وأدرجت اقصوصته «شيخي» بين خير الأقاصيص التي كتبت في العام نفسه.

ثم أهمله الناشرون واحتاج همنغواي إلى جهد كثير من أصدقائه لتوجيه انظار الناشرين إليه، وقد طال عليه العهد الذي لم تعبأ به أميركا، ولكنه في الأثناء عكف على نشر بعض قصصه وقصائده في مجلات انكليزية والمانية ضعيفة.

وظهرت له سنة ١٩٢٦ قصة «سيول الربيع». وهي قصة ظاهرها السخرية وباطنها الجد الخالص، وقد استمد عنوانها من ترغيف. وهو أول كتاب عرف الناس بأن همنغواي يشق العصا على من يتهم بمحاكاتهم وأنه كاتب مستقل

وقد برز استقلال همنغواي الأدبي في كتابه التالي «إفساد الأميركيين» الذي لقي القبول عند المراجعين الأميركيين وقد انتقد فيه فساد الشبان الأميركيين الذين يقبلون على اللهو في مقاهي باريس.

استقلاله الأدبي

وهكذا حتى ربيع ١٩٢٦ لم يكن قد تم تكوين همنغواي وقد صدع ما كتبه همنغواي باب السوق الأميركية ولكنه عجز عن فتحها. وقد ثار همنغواي في ما بعد على أساليب عصره فاندفع في ثورة عاطفية حطم فيها التقاليد، وقد حققت الثورة كتبه الثلاثة التالية:

«الشمس تشرق أيضاً» و «الرجال دون نساء» و «وداعاً أيتها الحرب» ثم بدأت تظهر ثورة على الثورة. وإذا كانت «سيول الربيع» إيذاناً بالاستقلال الأدبي لهمنغواي فإن «والشمس تشرق ايضاً»، كانت إعلاناً بأن همنغواي لا ينتمي إلى الجيل الضائع الذي عايشه وشهد استبحاره على الأوهام في باريس. وقد نفض من أعماقه كراهيته لظلم بيئته وللذين يجعلون منها بيئة ظالمة.

وبهاتين القصتين عرف همنغواي الناس قصيصاً جاداً، ولكن للقصتين قيمة أخرى غير القيمة التاريخية وهي قيمة جمالية أخلاقية فإنهما لدى التحليل الدقيق تكشفان جانباً كبيراً من فن همنغواي يمكن أن ندعوه جديداً لو لم يكن ذلك الجانب جديداً منذ البداية. وأعني بذلك تياراً من المعاني الرمزية الكامنة فيما يكتبه، تياراً لم يتحدث عنه أحد ولم يفطن إليه أكثر الذين كتبوا عن همنغواي.

نكسة فنية

وطغا انتاج همنغواي القصصي من عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٨ على ما عداه من الإنتاج فنشر سنة ١٩٢٩ «خمس واربعين قصة» وأول تسع واربعين قصة وهي اقاصيص تتباين في نوعها ومحتواها. وقد افتتح هذه الفترة بكتابه «موت بعد الظهيرة»، وهو مؤلف استطرادي غير قصصي عن مصارعة الثيران، ولقد أصبح من معاد القول في نقد همنغواي أن يقال أنه مني بنكسة فنية خلال هذه السنوات الخمس واختتمت هذه الفترة بكتابه «الطابور الخامس» وهي رواية مسرحية وبين هذين الكتابين (أي وداعاً أيتها الحرب والطابور الخامس) كتب «تلال افريقيا الخضر». وهي المحاولة الثانية في غير القصص وكتب ايضاً «من يملك ولا يملك»، وهو ما يعده همنغواي نفسه في شيء من التحفظ، غلطة في حق السياق القصصي، إذ حاول فيه أن يخلق قصة طويلة مما كان يجب أن يظل قصة متوسطة الطول يدور موضوعها حول مرتزق اسمه هاري مورغان. ولم يسبق لهمنغواي أن ارتكب مثل هذه الخطيئة إذ شق القصة من وسطها، وترك مواضع الالتحام فيها مهلهلة. فأفقرها مما أغنى به قصتيه «والشمس تشرق ايضاً»، و «وداعاً أيتها الحرب». بل قصر من مدى «تلال افريقيا الخضر». حين حرمها الأساس الدقيق المسموح بالعاطفة وكتبها ــ بخلاف قصصه الأربع الأخرى، على فترات متقطعة متباعدة امتدت ثلاث أو أربع سنوات.

وفي عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ كتب همنغواي قصته الرائعة «لمن تقرع الأجراس». التي تناولت الحرب الإسبانية وقد سجل فيها انطلاقاً جديداً مدوياً بعد ركود قصير وإذا لم تكن هي قصة موسومة بالكمال إلا انها في صياغاتها ومبناها وأصالتها موسومة بالعظمة واعتبرت اثراً خالداً رفعت مؤلفها إلى الذروة.

وفي منتصف القرن الحالي كتب همنغواي «عبر النهر وفي الغابات». وقد بداها قصة قصيرة فاستطالت تدريجياً وإذا بها تصبح قصة متوسطة الطول، وهي تذكر القارىء بدانتي ولكنها اعتبرت ضعيفة لأنها جاءت في أعقاب قصته الخالدة «لمن تقرع الأجراس».

اما في قصته «الشيخ والبحر» التي صدرت عام ١٩٥٣ فقد نجح همنغواي فيها بإبراز المقارنة بين الشيخوخة والشباب نجاحاً لم يحرز مثله في «عبر النهر». وقد أضاف عناصر من القوة إلى صورة الصبر والجلد والكفاح حتى أنه جعل من بطلها سنتياغو قديساً من القديسين. وقد جلت هذه القصة مقدرة همنغواي على الربط بين الطبيعة والفن وبين حقائق الأشياء وصورها وهي مقدرة رائعة لم يبرز فيها أي كاتب أخر، وقد فاز

على أثر صدور هذا الكتاب بجائزة «بوبوليتزر» الأدبية الأميركية، كما فاز أيضاً بجائزة نوبل للاداب عام ١٩٥٤.

غير أن همنغواي قد تعرض في حياته لكثير من الانتقاد، وقد أعتبره البعض من بين الكتاب غير المسؤولين، وهم يعنون بذلك أنه غير مسؤول إجتماعياً لأنه لم يكن ملتزماً منهجاً إجتماعياً معيناً، بينما قال أخرون أن مسؤولية الفنان الإجتماعية هي تقديم الحقيقة من التجربة الإنسانية ومن هذه الناحية فليس من هو أكثر اضطلاعاً بالمسؤولية من همنغواي لفنه وللأساس القوي من المعتقد الأخلاقي والجمالي الذي يقوم عليه فنه.

لقد كانت حياة همنغواي سلسلة لا تنقطع من المغامرات التي بلغت بصاحبها حد الهوس والجنون، وكان رياضياً بارعاً أجاد الملاكمة والبيزبول، واحب رياضة صيد الأسماك، واقتناص الوحوش ومصارعة الثيران كما شارك مشاركة فعالة في الحربين العالميتن الأخيرتين حيث عمل في الأولى مع فرقة الصليب الأحمر الأميركي في أوروبا وفي الثانية مراسلاً حربياً لمجلة (كوليرز) كما عمل في صفوف الأنصار في بريطانيا بفرنسا ودخل مع فرقة الجنرال لوكلير إلى باريس بعد تحرير فرنسا وشارك في ما بينهما في الحرب الإسبانية حيث قاتل في صفوف الجمهورين ضد فرانكو على أبواب مدريد.

وقد عاش مدة في كوبا حيث مارس هواية صيد الاسماك واشترك في تحضير الثورة ضد باتيستا كما يقال، غير أنه ظل يتنقل في المدة الأخيرة بين اميركا وايطاليا وإسبانيا التي أحبها وعاش فيها اجمل سني حياته.

وقد تجلى حب المغامرة في حياة همنغواي حتى في حياته العاطفية حيث تقلب في أحضان عدة نساء وتزوج أربع مرات. وقد صورهو نفسه حياته الخاصة في كتابه «ثلوج كليمنجارو». الذي أخرج ايضاً على الشاشة.

وبموته، مات أكبر أديب عرفه العالم في هذا العصر بعد أن ملأ العالم صخباً وضجيجاً ولعله اراد أن يكون موته أيضاً صاخباً فكان القدر اختار هذه الطريقة التي مات بها ميتة صاخبة على ازيز رصاصة طائشة. •



• «الحياة مكان للصلاة. وفي هذه الصلاة يتحمل الانسان أكثر مما يطيق، وغالباً ما يكتسب خبرة ومتعة، ويمكن أن تكون هذه المتعة حقيقية إذا نظر الناس إلى حياتهم كصلاة، ووضعوا أمام أعينهم هدفاً محدداً خارج أنفسهم أو سعادتهم الذاتية».

(تولستوي)

• «إن الذي لا يعرف شيئاً ويعرف أنه لا يعرف شيئاً، هو طفل ــ فعلمه. أما من يعرف ولا يعرف أنه يعرف فهو نائم ــ فأيقظه. أما الذي لا يعرف شيئاً ولا يعرف أنه لا يعرف شيئاً فهو غبي ــ فابتعد عنه. أما الذي يعرف ويعرف أنه يعرف فهو زعيم ــ فاتبعه».

(مثل صيني)

• «ثم ولي امر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه، ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني فأمضي.. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيراً. وأنا به أسعد...».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

• «إن العمل والعلم قريبان، فكن عالماً بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالاً».

(الخليفة عمر بن عبدالعزيز)

كتب جديدة

□ **الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي:**

صدر للدكتور حسين عطوان كتاب جديد عنوانه: «الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي» صدر حديثاً عن دار الجيل في بيروت.

يضم الكتاب فصلان: الأول عن بلاد الشام وأجنادها. والثاني، عن عرب الشام قبل الإسلام حتى العصر الأموي بالإضافة إلى سكان آخرون بالشام.

□ **مصر في عهد محمد علي:**

صدر مؤخراً كتاب «مصر في عهد محمد علي» تأليف: «الدكتورة عفاف لطفي السيد» باللغة الإنكليزية. وتحاول لطفي كتابة تاريخ مصر من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨ حين كان محمد علي يحكم مصر، وتقول المؤلفة إنه بالرغم من أن عدداً كبيراً من الكتب عن هذه الفترة قد صدر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلا أنه لم يظهر عمل كبير منذ العام ١٩٦١، وهذا ما حدا بها إلى أن تفتح باب البحث مجدداً ليس في تاريخ مصر وحسب وإنما في تاريخ المنطقة أيضاً.

□ **المقاومة الداخلية لحركة المهدية في السودان:**

صدر عن دار الجيل في بيروت كتاب: «المقاومة الداخلية لحركة المهدية ١٨٨١ ــ ١٨٩٨» لمؤلفه محمد محجوب مالك.

يعنى الكتاب بالتشكيلات الداخلية التي عارضت تبلور حركة المهدية السودانية في دولة السودان ويتضمن الكتاب الفصول التالية: فكرة المهدية، تاريخ المهدية (فترة المهدي ــ فترة الخليفة عبدالله). معارضة الرأي: (معارضة بعض العلماء الدينيين والشخصيات ــ معارضة رجال الطرق الصوفية ــ المعارضة في الداخل ــ معارضة الأشراف وأولاد البلد) الموقف القبلي. وفي الكتاب ملاحق عن المرحلة.

□ **وحدة المغرب العربـي:**

صدر مؤخراً عن مركز دراسات الوحدة العربية، ومركز الدراسات العربية المتوسطية كتاب جديد بعنوان: «وحدة المغرب العربـي». وقد تضمن الكتاب أربعة أقسام في ثلاثة عشر فصلاً، تناول القسم الأول فكرة المغرب العربـي، القسم الثاني تركز على البعد القومي لوحدة المغرب العربـي، القسم الثالث ركز على «واقع ومستقبل وحدة المغرب العربـي»، أما القسم الرابع فقد كرّس للبحث في «تصورات اقتصادية واجتماعية وثقافية للوحدة».

□ **قمم فكرية:**

سير مختصرة لأعلام في الفكر العربـي والإسلامي كتبها الدكتور نقولا زيادة وجمعها في كتاب عنوانه: «قمم من الفكر العربـي والإسلامي» صدر حديثاً عن الأهلية للنشر والتوزيع في بيروت.

الأعلام هم: ابن إسحاق، ابن هشام، الإمام الشافعي، صاحب الصحيحين، الكندي، الفارابي، الرازي، ابن سينا، الطبري، مسكويه، المسعودي، المقدسي، ابن هيثم، الموردي، البيروني، الأوريسي ياقوت الحموي، الإمام الغزالي، ابن أبي أصيبعة، ابن الطفيل، ابن رشد، العمري، ابن تيمية، القلقشندي، ابن خلكان، المقريزي.

□ **القضايا الجديدة في الصراع العربي الإسرائيلي:**

صدر عن دار «الكتبي للمطبوعات» في بيروت، كتاب: «القضايا الجديدة في الصراع العربي الإسرائيلي» لعبدالحسين شعبان.

مهمة الكتاب وهدفه تسليط الأضواء على «جوانب مهمة في قضايا الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وهي الجوانب الأكثر التهاباً في الوقت الحاضر. ورغم أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي لا يمكن تجزئته أو بحث أية قضية من قضاياه بمعزل عن مجمل الصراع، لكن لكل قضية في قضاياه خصوصيتها».

يقع الكتاب في ٢٧٨ صفحة من الحجم الكبير ضمن ستة فصول:

«الصهيونية وحق تقرير المصير» «القضايا الدولية الجديدة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي». «المعاهدات العربية الإسرائيلية»، حقوق الإنسان الفلسطيني»، قصف المفاعل النووي العراقي وموقعه في الصراع العربي الإسرائيلي» و «مسؤولية إسرائيل الدولية».



صلاح الدين الأيوبي، يوسف: (١١٣٧ ؟ ـ ١١٩٣)

● مقاتل وبطل مسلم، ومؤسس الأسرة الأيوبية بمصر، والخصم الأكبر للصليبيين، ولد في تكريت من أصل كردي. عاش ١٠ سنوات في دمشق في بلاط نورالدين سلطان السلاجقة حيث عني بدراسة المذهب السني. رافق عمه الأمير شيركوه في حملات أرسلها نورالدين ضد الفاطميين بمصر (١١٦٤ و ١١٦٧ و ١١٦٨) وجعل شيركوه نفسه وزيراً، وعند موته ١١٦٩ خلفه صلاح الدين.

وعندما وطد صلاح الدين سلطته حذف اسم السلطان العاضد في صلاة الجمعة، وبذلك انهى حكم الفاطميين، وأعد نورالدين حملة ضد واليه القوي الذي اتهم بأنه ينوي الخروج عليه، ولكن نورالدين توفي، فأعلن صلاح الدين استقلاله، ونصب نفسه سلطاناً على مصر، وبذلك اسس الأسرة الأيوبية ١١٧١ وبدأ اعماله الحربية بفتح اليمن وفلسطين، واستولى على دمشق والموصل وحلب ١١٧٤ في حربه ضد الحشاشين، ثم أصلى الصليبيين حرباً حامية، وهزمهم في معركة حطين الفاصلة ١١٨٧، فسقطت بيت المقدس في يده، ثم واجه ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا في الحرب الصليبية الثالثة ١١٨٩، ودار القتال سجالاً دون أن يظفر الصليبيون باسترجاع بيت المقدس، وانتهى القتال بين الفريقين بصلح الرملة ١١٩٢ الذي بمقتضاه لم يبق في أيدي الصليبيين سوى شريط ساحلي يمتد بين صور ويافا. ذاع صيت صلاح الدين بين المسيحيين كمحارب شهم كريم الخلق أبي النفس، ولم يكن مقاتلاً مغواراً فحسب، بل كان رجلاً مثقفاً يحب العلم ويشجع العلماء، عمّر المساجد وأصلح الري وبنى القلعة وبعض أسوار القاهرة. مات بدمشق ودفن بها.

● [illegible]

صدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كتاب «الآثار الإسلامية في الوطن العربي». ويتضمن الدراسات والوثائق والنصوص التي قدمت خلال المؤتمر التاسع للآثار الذي نظمته في فبراير ١٩٨٠ بصنعاء.

وقد تعرضت البحوث التي تضمنها للتطور التاريخي للمدينة العربية، والصراع الذي تعيشه في العصر الحاضر بين الأصالة والمعاصرة، والتحديات الكبيرة المفروضة عليها، كما تعرضت لأشكال وطرق صيانة المدينة العربية الإسلامية، ونماذج من المعمار العربي، وأثر الفنون العربية قبل الإسلام في الفن الإسلامي، وأثر الفن العربي الإسلامي في الفن العربي، ومصادر الآثار الإسلامية.

وابرز الجزء الخاص بالوثائق والنصوص جهود المنظمة في مجال المحافظة على المدن والمواقع التاريخية ومدى تطور الحملة العربية الإسلامية لصيانة مدينة القيروان. كما تضمن تعريفاً بمشروع قانون الآثار الموحد، وعرضاً لتقارير الدول العربية عن اوضاع الآثار.

● استحداث جائزة لبحوث الحضارة الإسلامية

أنشأ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) في الأردن جائزة اطلق عليها «جائزة عبدالله بن الحسين لبحوث الحضارة الإسلامية»، وقرر المجمع أن يكون موضوع الجائزة الأولى: إمارة شرقي الأردن: نشأتها وتطورها في ربع قرن (١٩٢١ ــ ١٩٤٦). وسوف يمنح الفائز مبلغ ٣ آلاف دينار أردني ورصيعة ذهبية عليها شعار المجمع واسم الجائزة، وشهادة باسمه وعنوان البحث.

ويذكر أن الجائزة سوف تمنح كل سنتين، وآخرموعد لقبول بحوث الجائزة الأولى هو آخر نوفمبر ٨٧.

● الأمانة العامة للمؤرخين العرب تحذر من تشويه الكيان الصهيوني لتراثنا وتاريخنا

دعت الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب في بغداد أقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب إلى الانتباه إلى ما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموماً، والتاريخ خصوصاً، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة وأفكار مريضة، وطالبت بإحالته إلى الاتحاد لدراسته، والوقوف على ما فيه من افكار تزيف الحقائق، وتشوه الوقائع.

واكدت في بيان أصدرته لفضح أساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الأمة العربية، أن الأعمال الصوفية وتلك التي تعتمد على بحث الفضائل تستهوي الباحثين اليهود للبحث في ثناياها عن امور لا تتفق وروح الإسلام، واشارت إلى أن الجامعة العبرية في القدس أصدرت في بداية عام ٨٦ عدداً من الكتب المحققة، منها:

ــ انساب الاشراف، للبلاذري. وقد نشر النص بالعربية والهوامش بالانجليزية، وما تم نشره يمثل الجزء الرابع من الكتاب. وقد حققه ماكس شوسلنجر. وهناك مجلدات أخرى نشرتها سابقاً الجامعة نفسها.

ــ ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا. حققه المجور، ونشر النص بالعربية.

ــ الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان. للسيوطي، وحققه أرازي.

ــ فضائل بيت المقدس، لأبي بكر بن أحمد الواسطي.

ــ جوامع آداب الصوفية، للسلمي.

ــ آداب المريدين، للسهروردي.

واستطردت الأمانة في بيانها إن هناك نوعية اخرى من الأعمال حظيت باهتمام اليهود، تتمثل في الدراسات التي تقوم حول الادب والتاريخ العربي والإسلامي.

وأشارت إلى أن من الأعمال الهامة التي نشرتها الجامعة العبرية سلسلة بعنوان «دراسات القدس عن العربية والإسلام»، وهي سلسلةسنوية، صدرمنها حتى الآن خمسة مجلدات، وتشمل اعمالاً قدمت إلى معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية في الجامعة، وتغطي موضوعات عديدة، منها الإسلامي والحضارة والفكر في العصور الوسطى، وكذلك اللغة والآداب العربية، كما اشارت إلى دراسة مطولة عن الغزالي في ٥٨٤ صفحة قام بوضعها لزريوس يافع في خمسة عشر عاماً، وكتاب بعنوان «دراسات حول اليهودية والإسلام» ضم مجموعة من البحوث

حول آداب وتقاليد المجتمع اليمني والمجتمع اليهودي في المغرب، والتاريخ الإسلامي ووثائق الجنيزا اشرف على تحريرها ابن آمي، وجاءت في مجلدين، وكتاب ثالث بعنوان «دراسات حول بدايات الإسماعيلية» لكاتب اسمه سترن. وقالت إن اهتمامات الدارسين اليهود بقضايا الإسلام وصلت إلى ماليزيا، فوضع احدهم كتاباً بعنوان: «الإسلام والمؤسسات الإسلامية في الملايو البريطانية ١٨٧٥ ــ ١٩٤١م».

ولفتت الأمانة الانتباه إلى الاهتمام الشديد لليهود بتاريخ فلسطين، حيث يعمدون عادة إلى إبرازه في صورة سيئة تعبيراً عن الوضع المتردي للمنطقة قبل حلولهم فيها، وفي هذا الإطار جاءت مجموعة دراسات نشرتها الجامعة العبرية بعنوان «دراسات حول فلسطين خلا العصر العثماني»، وسلسلة بعنوان «أوراق القدس»، اهتمت بترسيخ فكرة الحق اليهودي في القدس، ونشر ضمنها: «الحق اليهودي في القدس» ليهودا بلوم، «الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط ــ مدخل» لياكوف هرزوج، «المفهوم الإسرائيلي للحدود الآمنة» لستيفن روسن.

● جمعية جديدة باسم: «الجمعية المغربية للتراث»

اسس مجموعة من اساتذة الجامعات المغربية جمعية علمية اطلقوا عليها اسم «الجمعية المغربية للتراث»، وذلك بهدف إحياء تراث الأمة في مختلف ميادين العلم والمعرفة. وقد اعتمدت الجمعية عدة وسائل لتحقيق اهدافها، منها: التصوير، التحقيق، الطبع والنشر والتوزيع، التأليف والدراسة، الترجمة، إصدار النشرات والمجلات المتخصصة، تنظيم الندوات والمحاضرات، عقد المؤتمرات واللقاءات الثقافية والمشاركة فيها داخل المغرب وخارجه.

وتعقد الجمعية آمالاً كبيرة على المعاهد والمؤسسات والجمعيات المعنية بالتراث.. وعلى الأفراد من الباحثين والعلماء، في مساعدتها ومد يد العون لها لوضع اهدافها موضع التنفيذ، كما تضع بالمقابل كل إمكاناتها المتواضعة في خدمتهم.

● مخطوطة نادرة للقرآن

ذكرت صحيفة «هندونيوز» أنه عثر على مخطوطة نادرة للقرآن ترجع إلى القرن السابع عشر لدى بائع فاكهة في مدينة بنغالور جنوبي الهند.

كتبت هذه النسخة التي لا تقدر بثمن العام ١٦٨٨ بيد الخطاط حفيظ حبيب الله الذي كان يعمل في خدمة الامبراطور المغولي أورانجزيب، وعثرت السلطات الهندية على المخطوطة النادرة بعد أن انتقلت وعادت سراً من دبي، حيث كان صاحبه يعتزم بيعه ولما لم يجد له مشتر عاد به إلى بنغالور.

تمت مصادرة المصحف برغم أن صاحبه اكد انه ورثه عن اسرته التي تنتمي إلى نبلاء يتحدرون من بلاط الملك الهندي تيبو سلطان الذي كان قد اقتناه بعد مرور عامين من صدوره.

● اقتفاء آثار ابن بطوطة

غادر شابان قطريان يرتديان الجلباب الطويل التقليدي مسقط على ظهر جمل في رحلة طويلة غريبة... إنهما صالح محمد وأياد بن عامر اللذان ينتميان إلى قبيلة شمارى، وهي قبيلة ذات بأس شديد، على أمل أن يصلا إلى المغرب بعد ستة أشهر يجتازان خلالها ثلاث عشرة دولة عربية.

ثم بعد مرور ثلاثة أشهر من انتهاء هذه الرحلة سيسافر المغامران من تركيا في رحلة أطول يعبران خلالها آسيا بأكملها إلى أن يصلا إلى سيول التي يأملان في الوصول إليها العام ١٩٨٨ عند افتتاح الدورة الأولمبية.

والرجل الذي يقف وراء هذه المغامرة هو ولي عهد قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وقد قدم للمغامرين أحد جماله «دبيان» وهو من جمال السباق.

وصرح صالح محمد وهو غير متزوج وفي الثلاثين من عمره لمراسل صحيفة «خليج تايمز» بمسقط بقوله: «يجب أن يعرف الجميع أن العرب قادرون على العودة إلى استخدام سفن الصحراء إذا حدث يوماً وافتقروا إلى النفط لتشغيل طائراتهم».

ويأمل صالح في العثور على امرأة قبل أن يصل إلى طنجة، حيث ينوي الاحتفال بذكرى الرحالة الشهير وعالم الجغرافية

المغربي ابن بطوطة (وهو من مواليد هذه المدينة المغربية) الذي عبر افريقيا وآسيا في القرن الرابع عشر.

● التحول عن العطارين:

يقول عطارون يعملون في أزقة ضيقة متعرجة في الأسواق العربية التقليدية إنهم يواجهون أوقاتاً صعبة لأن زبائنهم أخذوا يتحولون إلى الأدوية الحديثة. فبدلاً من الأدوية المؤلفة من جذور مغلية وحشائش وبهارات وأجزاء من حيوانات بات الزبائن يريدون مواد مضادة للجراثيم وأدوية أخرى من الصيدليات، سواء وصفها لهم الطبيب أو لم يصفها.

ويعود هذا التغير في الموقف إلى أن لدى دول الخليج أفضل خدمات طبية في الشرق الأوسط.

وقال جاسم بن إبراهيم وهو يتحسر على الماضي: «كان دكان الحواج (العطار) في الماضي أشبه بصيدلية يكثر فيها الزبائن أما الآن فإننا لا نرى غير القليل منهم».

وفي أبو ظبي قال محمد عبدالله الذي يبلغ السبعين، وهو واحد من قلة من العطارين في الامارة، إن تجارته آخذة في الكساد ولذلك فإنه بات يمارس تجارة عامة بالإضافة إلى كونه عطاراً.

وقال في تصريح لـ «رويتر»: «إنني لا أستطيع العيش من بيع الأعشاب فقط، فالناس الذي يستعملون الأعشاب الآن قليلون».

● اتحاد المؤرخين العرب يبدأ التحرك لإعادة كتابة التاريخ العربي:

أعلن الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب عبدالقادر النجار، عزم الاتحاد على التحرك لمواجهة «معتقدات خاطئة وأكاذيب تميزت بها الطريقة التي كتب فيها التاريخ العربي في الغرب».

وقال في حديث لوكالة «رويتر»: إن الاتحاد ــ الذي يضم ١٢ ألف عضو، «بدأ محاولة لإعادة كتابة بعض نواحي التاريخ العربي، بهدف لفت النظر إلى ما يعتبره تحيزاً ضد العرب في الكتب الغربية».

أضاف النجار في حديث أدلى به في أبو ظبي: «إن مهمتنا الرئيسية هي إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية وتطهيره من الشوائب السالبة وإظهار النواحي الإيجابية فيه».

وتقوم لجنة شكلت سنة ١٩٨٥ الآن بالبحث في كيفية مواجهة هذه المهمة الشاقة. ومن بين الخيارات المطروحة أبحاث جماعية يقوم بها عدد من أعضاء اللجنة أو تعيين مؤرخين يقوم كل منهم على حدة بدراسة أكثر المواضيع إلحاحاً.

وقد وافقت الجمعية على رعاية سلسلة من الندوات للبحث في التاريخ العربي كما يظهر في الكتب الغربية، وستعقد الندوة الأولى في الولايات المتحدة العام المقبل ١٩٨٨، ثم تعقد ندوات أخرى في فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية.

وقال عضو الاتحاد محمد مرسي عبدالله إن ثمة أمثلة عديدة على اعتقادات خاطئة، بينها أن الإسلام انتشر بالسيف بين القرن السابع والتاسع للميلاد على أيدي بدو رحل. وأضاف أن إظهار الحروب الإسلامية كعمليات سلب مسلحة قام بها رجال قبائل غير صحيح من الناحية التاريخية وأدّى إلى اقتران الرسالة الإسلامية بمواقف سالبة.

وتابع يقول إن «الواقع هو أن الإسلام أبدى تسامحاً كبيراً إزاء الديانات الأخرى مما ساعده على الانتشار بسرعة».

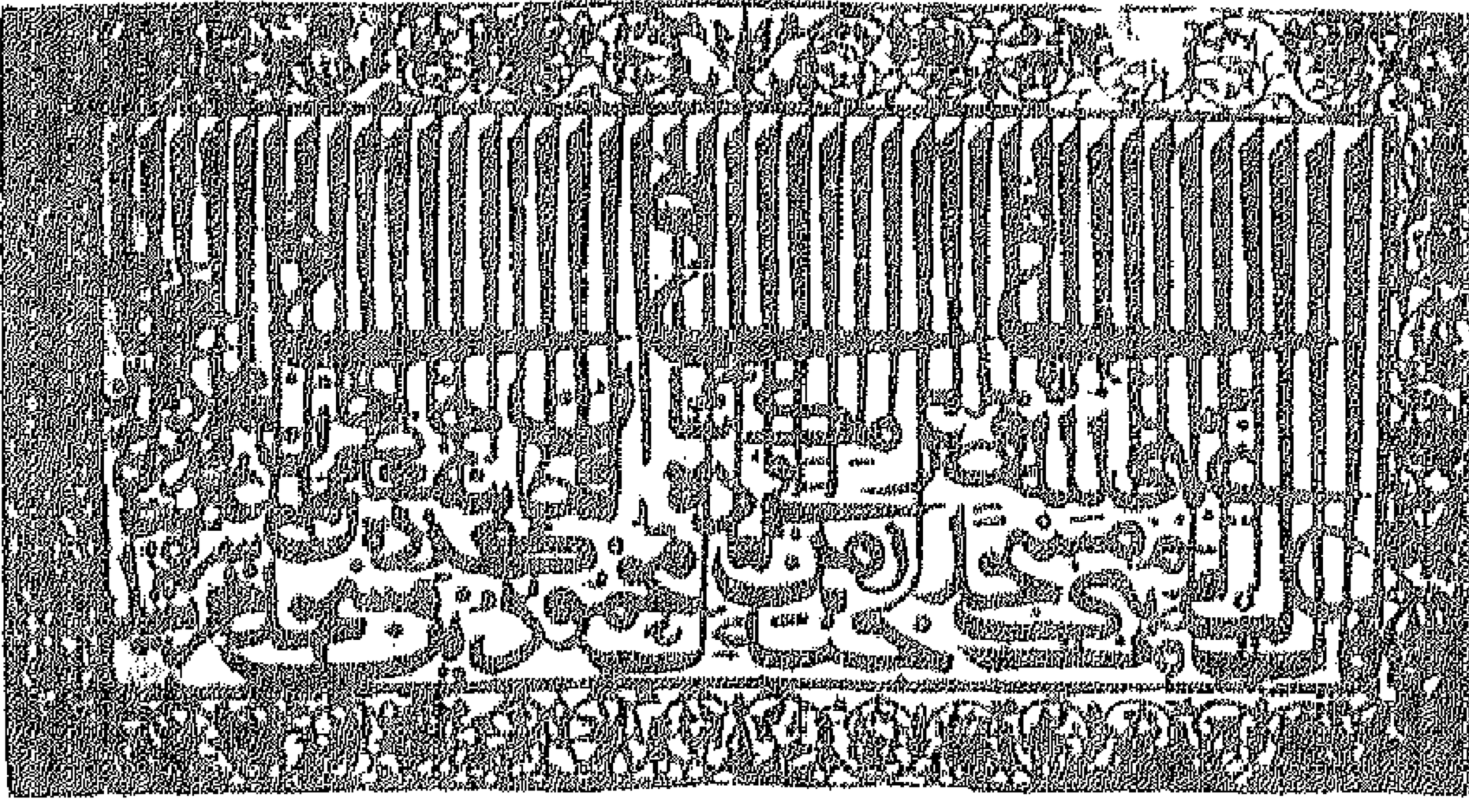
وقال: «إن بعض كتب الغرب ذهبت إلى اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية مع العلم بأن الرومان هم الذين أحرقوها في القرن الأول... وتصور بعض الكتب التي وضعت خلال استعمار الخليج، العرب كقراصنة أشرار، غير أنه يؤخذ من دراسة قام بها الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة وعضو اتحاد المؤرخين العرب أن كثيرين ممن يسمون بالقراصنة كانوا يتولون الدفاع عن مصالحهم التجارية ضد اعتداءات البريطانيين».

وقال: «إن من الطبيعي أن نعمد خلال النصف الثاني من القرن العشرين إلى إعادة النظر في

هذه الكتابات وتقويمها وتصحيح ما ورد فيها من خطأ. وهذه هي مهمتنا كاتحاد».

أضاف: إن الاتحاد اتخذ موقفاً قوياً في نشاطات تنظمها جامعة تل أبيب للاحتفال في ١٠ تموز بالذكرى الثمانمئة لمعركة حطين التي كانت نصراً حاسماً على الفرنجة.

وأشار عبدالله إلى أن الاتحاد قرر مقاطعة كل مؤرخ عربي يشارك في تلك النشاطات، وقال إن الاتحاد سينظم نشاطات خاصة بالمناسبة، تقام إمّا في عمان او في دمشق.



■ لوحة رائعة من الخط العربي منقولة عن مسجد النبيل خورشيد خان بمدينة بها غالبور بولاية بيهار، ترجع الى ٣ اغسطس/آب ١٤٤٦ م

الخط العربي على آثار هندية

● اكثر من ٣٠ لوحة من الخط العربي منقولة عن «أهم العناصر الزخرفية في فن العمارة الإسلامية الهندية» عرضت في قاعة شارب بمتحف الآثار والانثروبولوجيا بجامعة بنسلفانيا. وعلق الدكتور ديساي، المدير السابق لإدارة التنقيب عن الآثار بالهند، في دليل المعرض الذي أطلق عليه «الخط العربي المنقوش على الآثار الإسلامية» قائلاً: إلى جانب مغزاها الواضح بالنسبة للتاريخ المعماري الإسلامي في الهند، تقدم هذه النقوش معلومات مفيدة في تقييم المساهمات الأدبية التي قدمتها الهند للغة والأدب الفارسي في الحقبتين السلطانية والمغولية (١١٥٠ ــ ١٧٥٠م).

وتعرض اللوحات المعروفة بالفارسية إلى جانب العربية أربعة أساليب رئيسية للخط العربي، لم يثبت حتى الآن سوى هويات ٥٠ خطاطاً هندياً مهروا النقوش بتوقيعاتهم. وعلق الخطاط الأميركي محمد زكريا على المعرض بقوله إن بعض النقوش في حدود «فن الخط الشعبي»، في حين أن أخرى مثال على «الفن الرفيع»، وأن المعرض اظهر أن فن الخط يمكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة وأن بوسع الفنان أن «يستمد قدراً كبيراً من الرضى من مهنته».

وقد عرضت هذه النماذج في الولايات المتحدة لأول مرة نتيجة لجهود واين بيغلي، استاذ الفنون الهندية والإسلامية بجامعة ايوا، كجزء من مهرجان الهند.

ومما يذكر أن فيلادلفيا كانت آخر مدينة أقيم المعرض فيها، بعد عرضه في جامعة رايس في هيوستن، وجامعة هارفارد في بوسطن، وجامعة ولاية أوهايو في كولومبوس، وجامعة ايوا في مدينة ايوا.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأحد صنائعه (*)

كان هشام(1) بن عبدالرحمن الداخل قاعداً لراحته في عُلّيّة(2) على النهر في حياة والده، فنظر إلى رجل كنانيّ من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان(3)، قد أقبل يُوضِعُ(4) السير في الهاجرة؛ فأنكر ذلك، وقدّر شراً وقع به من قبل أخيه سليمان ـ وكان والياً على جَيَّان ـ فأمر بإدخاله عليه، فقال: مَهْيَمْ(5) يا كناني! فلأمر ما قدمت! وما أحسبك إلا مزعَجاً لشيء دَهَمَك.

فقال: نعم يا سيدي، قتل رجلٌ من قومي رجلاً خطأ، فقصدني أخوك بالاعتداء؛ إذ عرف مكاني منك.

فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قِلادةً كانت في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كنانيّ، وشراؤه عليّ ثلاث آلاف دينار، فلا تُخْدَعَنّ عنه، وبِعْه وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّن الرجل من اهتضامك(6).

فقال: يا سيّدي؛ لم آتِكَ مُسْتَجْدِياً، ولا لضيق المال عما حُمِّلْتُه، ولكني قُصِدتُ بظلمٍ صُرَاح أحببت أن يظهر عليّ عزّ نصرك؛ وأثرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتَماجَدُ(7) بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجْهُ ذلك؟ فقال: أن تكتبَ إلى أخيك في الامساك عني والقيام بذمَّتك لي. فقال: أمْسِك العِقْد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق، ائذنوا له.

فلما دخل سلّم عليه، ومثَل قائماً بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح الله سيدي الأمير! وكيف جلوسي بهمٍّ وذُلٍّ مُزْعِج! وحَقٌّ لمن قام مقامي ألّا يجلس إلا مطمئناً، ولن يُقْعِدَني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عَقِبي. فقال له: حَاشَ لك من انقلابك خائباً، فاقعد مُجاباً مشَفَّعاً؛ فجلس، فقال له أبوه: فما الحَدَثُ المُقْلِق؟ فأعلمه؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه، وعن عشيرته من بيت المال؛ فسُرَّ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكنانيّ.

ولما دخل الكنانيّ لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غايةَ النصر، وقد أغنى الله عن العِقْد المبذول، فتعيده إلى صاحبته؛ فأبى ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

(*) نفح الطيب: 1 ـ 157.

(1) ولد هشام سنة 139هـ وتوفي سنة 180هـ، وكان من أشرف الناس نفساً، وأكرمهم طبعاً، وأكملهم مروءة، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبدالعزيز.

(2) العلية: بالضم والكسر: الغرفة.

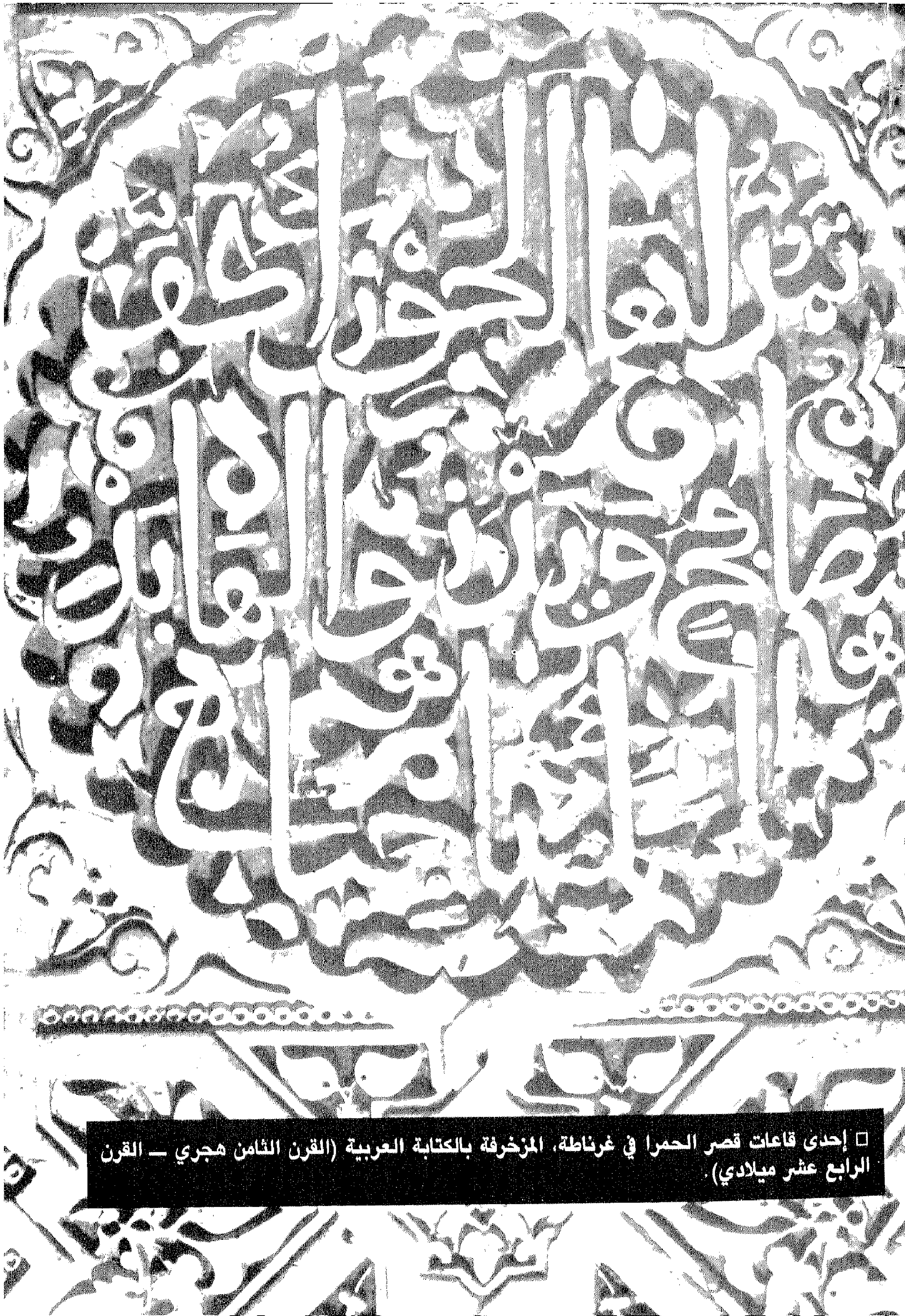
(3) جيان: بلد بالأندلس.

(4) أوضع: أسرع.

(5) مهيم: كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك؟.

(6) هضم فلاناً واهتضمه: ظلمه وغصبه.

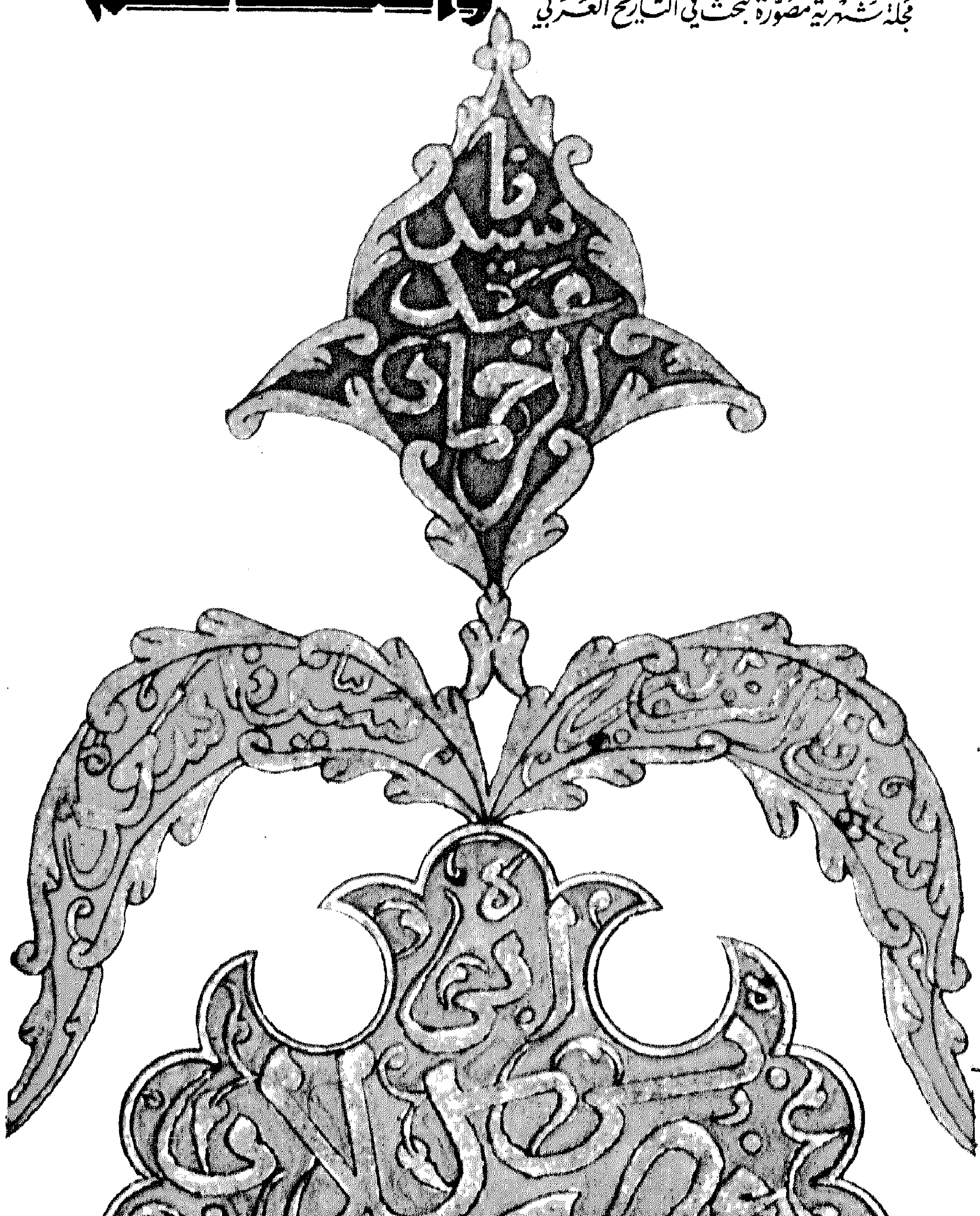
(7) تماجد: تفاخر، وأظهر المجد.



□ إحدى قاعات قصر الحمرا في غرناطة، المزخرفة بالكتابة العربية (القرن الثامن هجري ــ القرن الرابع عشر ميلادي).

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



□ نموذج م أعمال هيزيش ماير «مناظر طبيعية من الشرق». اللوحة بعنوان «أزياء من سوريا».



الغلاف الأول

□ مخطوطة دينية باحرف من ذهب. من كتاب:
The Splendour of Islamic Calligraphy. A. Khatibi, N. Sijelmassi.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٠٣/١٠٤ • أيار — حزيران ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة	
لبنان : ٢٠ ل.ل.	سوريا : ٢٠ ل.س.
العراق : ١ دينار	تونس : ١,٥ دينار
السعودية : ١٠ ريال	الكويت : ١ دينار
الأردن : ٨٠٠ فلس	الامارات : ١٠ درهم
البحرين : ١ دينار	قطر : ١٠ ريال
مسقط : ١٠٠٠ بيزة	بريطانيا : ١,٥ جنيه
صنعاء : ١٠ ريال	ليبيا : ١ دينار
	مصر : ١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ — بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات — تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 9. No. 103/104 • May-June 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



رَشيد كرامي... والمُستَقبَل

فاروق البربير

عن المستقبل وحده أود أن أعبر عن مشاعري وأحلامي. ذلك أن المواطن الواعي، المتحسس بهموم وطنه لبنان وأمته العربية، حين يخوض غمار المشكلات المصيرية التي تتوقف عليها اقدار أمته، ينبغي عليه أن يكون متطلعاً دائماً إلى الأمام، وأن يحاول أن يلقي الضوء على ما بقي من الطريق، لا على ما فات منه. لعل السبب الأهم هو أن المستقبل في موقفنا الراهن، هو الذي يشغل بال الناس بـلا انقطاع وهـو الذي ينصب عليه اهتمـامهم، وانشغالهم وقلقهم الدائم. ولو استطاع المواطن أن يسهم في تحويل هذا الانشغال والقلق والهم إلى إدراك واع محدد المعالم، لكان بذلك قد ادى واجبه المقدس نحو أمته وقدم تبريراً لوجوده كمواطن مفكر. لقد أراد أعداء لبنان والعرب في الفترة الأخيرة أن يستغلوا مواقف الرئيس الراحل رشيد كرامي، فحاولوا أن يتحكموا في مسار المستقبل بأن يوحوا إلينا بفكرة «الفراغ». والإيحاء بفكرة الفراغ يعني أننا لن نستطيع أن ندبر أمورنا، أو نوجه أنفسنا. واغتيال الرئيس كرامي، بالطريقة التي تمت، أداةً وتنفيذاً ومكاناً، هو تأكيد وتثبيت عملي لفكرة الفراغ. إن الفراغ بطبيعته مخيف: إنه هوة تهدد بابتلاع من يقترب منها، وظلام يكتنفه من كل جانب، وهو عجز عن الاهتداء إلى الطريق.

من فكرة «الفراغ» التي يريد أعداؤنا أن يشيعوها بيننا ينبغي أن نكوّن نقطة انطلاقنا، فهل نحن حقاً في فراغ؟.. وهل المشكلة الحقيقية التي يعانيها شعبنا بعد اغتيال الرئيس كرامي، هي أن كل شيء يحيط به ظلام، وأن لا أمل من المستقبل؟

إن الفكر الواعي، والتحليل الأمين للموقف، كفيل بنا للوصول إلى نتيجة هي عكس النتيجة السابقة. فإذا نظرنا إلى الحاضر والمستقبل، كما كان يتمنى لنا الرئيس الراحل أن نفعل، لتبين لنا أن هناك وقائع ملموسة على الأرض ساهم الرئيس الراحل رشيد كرامي بتثبيتها وتبنيها والعمل على تحقيقها:

● قبل ١ حزيران ١٩٨٧ كان الكلام عن إلغاء الطائفية السياسية مثلاً نوعاً من أنواع الهرطقة السياسية، أما اليوم فلقد أصبح مبدأ إلغاء الطائفية السياسية من البنود الرئيسية لأي إصلاح سياسي، لأنه لا يمكن إقامة دولة مركزية قوية ترتكز على إصلاحات ضرورية لتمنع الفرز الطائفي القائم بدون تحقيق هذه الخطوة.

● قبل ١ حزيران ١٩٨٧ لم تكن الدعوة إلى دعم المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي بالسلاح والمال والرجال بالحجم المطلوب أما اليوم وبعد المواجهات العسكرية المتكررة، أصبح المواطن يشعر بالمزيد من المسؤولية، وبالتالي بضرورة المشاركة مشاركة فعلية، لا كلامية، ف معركة التحرير.

● قبل ١ حزيران ١٩٨٧، كان الكلام عن عودة لبنان للتلاحم والتفاعل مع محيطه العربـي بصورة عامة ومع سوريا بصورة خاصة نوعاً من أنواع المزايدة، أما اليوم وبعد التطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية، فإن هذا الأمر فرض نفسه فرضاً ولا يمكن لأي نظام جديد أن يقوم ويدوم بدون هذه المعادلة.

● قبل ١ حزيران ١٩٨٧ كان الحديث عن المشاركة يعتبر انتقاصاً من امتيازات الفريق الآخر أما اليوم فإن المشاركة تعني العدالة بجميع مفاهيمها السياسية والاقتصادية والعسكرية، لقد أضحت الأكثرية ولو بأطراف اللسان عند البعض، تنادي بالمشاركة والمساواة وبالعدالة، وهذا يعد في ذاته تقدماً هائلاً، لأن هذا الإجماع يعكس تعلقاً شديداً وشاملاً، من الشعب بالمعاني التي تعبر عنها هذه الشعارات، بحيث يكون التراجع عنها ضرباً من المستحيلات.

إن الرئيس الراحل الرئيس رشيد كرامي، سعى ضمن إمكاناته الموجودة لتبني وتثبيت هذه المبادىء والشعارات ولكن تلاحق الأحداث، وأبرزها، اغتياله، لم يترك له وللمجتمع فرصة كبيرة لتطبيق المبادىء التي اهتدينا إليها بعد خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية، كانت المؤامرات والمعارك الداخلية والخارجية المتواصلة هي العامل الأول الذي أدى بنا إلى تكريس القدر الأكبر من جهودنا من أجل طرح المبادىء نفسها، ومحاولة وضـع أسس التغيير الذي تستلزمـه، أما إخراج المبادىء إلى حيز التنفيذ الكامل فلم يكن الوقت يتسع له، ولم تكن الظروف تسمح به.

ليس لدي أي شك بأن الرئيس الراحل كان يود أن يشارك في تحويل هذه المبادىء من شعارات إلى تغييرات عملية تدخل كل بيت، وتؤثر في كل مواطن.

ولو تأملنا الأهداف البعيدة التي ترمي إليها إسرائيل ومؤيدوها في الداخل وفي الخارج، من وجودها في المنطقة لتبين لنا أن الهدف الحضاري والاقتصادي هو الهدف الأبعد مدى، بل هو الذي تخدمه كل أهدافها الأخرى.

فالتوسع بقوة السلاح لا يهدف آخر الأمر إلا إلى تمهيد الطريق أمام إسرائيل، كيما تصبح ـــ كما يحلم قادتها الحاليون، وكما يحلم مؤسسوها الأوائل ـــ «منارة» للحضارة في المنطقة العربية كلها، وكيما تغمر منتجاتها أسواق هذه المنطقة العربية دون أن يتمكن أي بلد آخر من منافستها وعلى رأسهم لبنان. هذا هو الهدف النهائي والحقيقي، البعيد المدى، الذي تخدمه كل الأهداف القريبة، كالتفوق العسكري، والانتصار السياسي، والحصول قسراً على اعتراف العرب بها.

هذا ما بشر به وحذر منه الرئيس الراحل رشيد كرامي دائماً في ندواتـه وأحاديثـه وتصريحاته. وكان بعضنا يعتبرها «اسطوانة»!

على أن القول أيسر كثيراً من العمل، وهناك بالفعل صعوبات حقيقية تفرضها علينا طبيعة المعركة الطويلة التي نخوضها وتجعل الربط بين المبادىء وتحقيق الشعارات أمراً في غـاية الصعوبة، ومع ذلك فإن أقدس واجبات الفكر في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخنا هو أولاً، أن يقنع الأذهان بالتداخل الوثيق بين هدف تحقيق المبادىء وهدف مواصلة العمل لبناء المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي نفتقدها والتي كان الرئيس الراحل يؤمن بفاعليتها ويدعو إليها، والعمل بعد ذلك، على البحث عن أفضل صيغة ممكنة لحل هذه المعادلة البالغة الصعوبة: ألا وهي حشد الجهود والطاقات من أجل معركة المصير من جهة، وعدم إعطاء العدو، مهما كان شكله أو نوعه، فرصته الذهبية التي يحلم فيها بسرقة أحلامنا ومستقبلنا.

□ نشرت في «السفير» ١٩٨٧/٦/٢.



د. ميشال
جحا

خليل مطران

شاعر الحرية والعروبة

(١٨٧٢ - ١٩٤٩)

٤ ـ تاريخ العرب والعالم

الرجل



ولد خليل مطران في بعلبك، مدينة الشمس، في شهر تموز سنة ١٨٧٢ في أسرة عربية عريقة يعود نسبها إلى الغساسنة.

ولما رُسم أحد أفرادها مطراناً أصبحت شهرتها تعرف بآل (المطران). درس في الكلية الشرقية في زحلة ثم في المدرسة البطريركية في بيروت حيث تتلمذ على الشيخين خليل وإبراهيم اليازجي. فكانت له ثقافة عربية ممتازة، وكذلك اتقن اللغة الفرنسية مما مكّنه من الاطلاع على آدابها.

كان مطران محباً للحرية مجاهراً بها، ثائراً على الحكم العثماني الظالم. ومما يرويه نجيب جمال الدين[1]:

«انه في إحدى الليالي الصائفة لعام ١٨٩٠، عاد خليل مطران إلى غرفته في بيروت في أواخر الليل فوجد فراشه مثقوباً بالرصاص. لقد خال جواسيس عبدالحميد أن الفتى في فراشه يغط في نومه فأطلقوا عليه الرصاص من النافذة».

وبعد هذه الحادثة فكرت أسرته بإبعاده عن لبنان فذهب إلى باريس حيث مكث قرابة السنتين اتصل بحزب «تركيا الفتاة» الذي كان يناهض طغيان السلطان عبدالحميد الذي طلب من فرنسا إبعاده عنها بسبب نشاطه السياسي هذا. ففكر بالسفر إلى أميركا الجنوبية.

ولكن شاءت الأقدار أن يتجه سنة ١٨٩٢ إلى الاسكندرية بدلاً من أن يتجه إلى الشيلي كما كان يرغب. وكان أن مات سليم تقلا أحد مؤسسي جريدة «الأهرام» في مصر، فنظم مطران قصيدة في رثائه (الديوان ٤ ص ٣٠٩) لاقت استحسان وتقدير أخيه بشارة تقلا فعينه سنة ١٨٩٣ مراسلاً «للأهرام» في القاهرة.

ثم ترك العمل في «الأهرام» وأسس سنة ١٩٠٠ المجلة المصرية نصف شهرية. ثم «الجوائب» يومية. ولكنه ترك الصحافة سنة ١٩٠٤ وانصرف إلى الأعمال التجارية حيث ضارب بما يملك من أموال فخسر ما يملك سنة ١٩١٢ فعينه الخديوي عباس حلمي الثاني سكرتيراً مساعداً للجمعية الزراعية الخديوية.

اهتم مطران بالمسرح إلى اهتمامه بالشعر والأدب فترجم عدة مسرحيات عن الإنكليزية والفرنسية[٢].

وهكذا أمضى حياته في مصر إلى أن وافته المنية في القاهرة سنة ١٩٤٩، لقد حظي في بلده الثاني مصر بالتكريم فأقيمت له حفلة تكريمية سنة ١٩١٣ وحفلة أخرى قبل وفاته بسنتين أي سنة ١٩٤٧ تصفها جريدة «النهار» البيروتية كما يلي:

«اقيمت في دار الأوبرا في القاهرة في نهاية آذار (مارس) ١٩٤٧ حفلة تكريمية للشاعر خليل مطران وكان في طليعة الحضور رئيس الوزارة المصرية ورئيس مجلس الشيوخ وعدد من الوزراء والنواب وممثلي الدول العربية وممثل عن جلالة الملك فاروق الذي دعا الشاعر، مبالغة في تكريمه، إلى الجلوس في مقصورة جلالة الملك وقد مثّل لبنان فيها شاعر الأرز شبلي الملّاط».

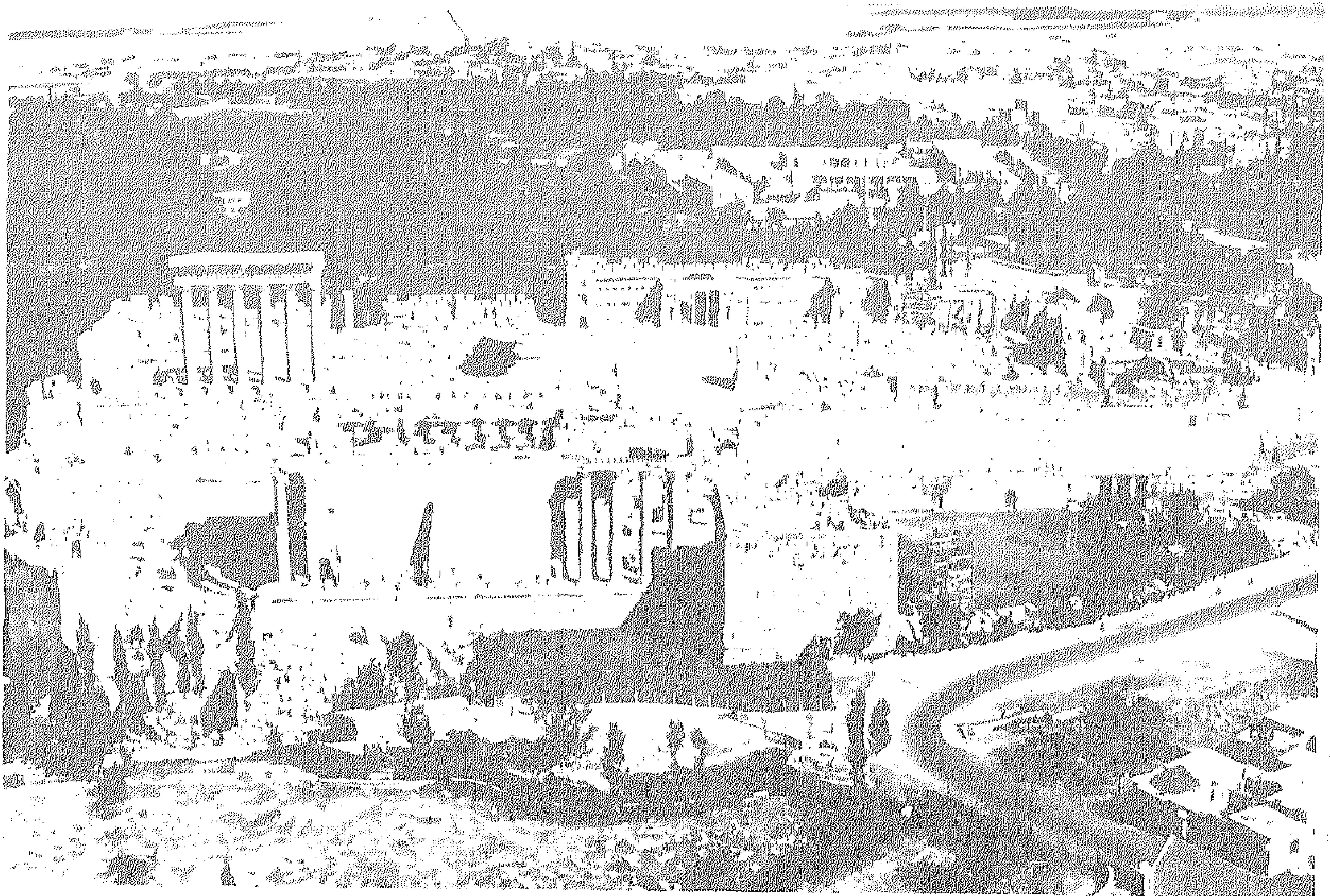
وكذلك حظي مطران بتكريم وطنه الأول لبنان فأقيمت له حفلات التكريم عندما كان يأتي إلى زيارته. وقد اهتمت الحكومة اللبنانية بنقل رفاته من القاهرة إلى مسقط رأسه بعلبك ولكن لسوء الحظ حالت أوضاع لبنان من تحقيق ذلك بطريقة تليق بالشاعر الكبير الذي رفع اسم لبنان. وبقيت رفاته في صندوق عند أحد أقربائه إلى حين تسمح الأوضاع بإقامة احتفال رسمي تشارك فيه الحكومة اللبنانية والأدباء اللبنانيون والعرب.

مطران الشاعر

يعد مطران رائداً من رواد التجديد في الشعر العربي الحديث منذ مطلع هذا القرن. فقد جدد مطران في بعض نواحي الشعر وخاصة في شعره القصصيّ وشعره الوجداني الصافي ولكنه لم يجدد في الشعر العربي الحديث تجديداً جذرياً كاملاً. لقد فهم الخليل التجديد فدعا إليه في العديد من المقالات والمناسبات الشعرية ولكنه لم يتمكن من تطبيق نظرياته هذه تطبيقاً واسعاً.

فهو يقول في مقدمة ديوانه[٣]:

«هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده. يقال في المعنى الصحيح، باللفظ الفصيح. ولا ينظر



□ مدينة بعلبك حيث ولد الشاعر خليل مطران.

قائله إلى جمال البيت الفرد، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور. التصوير وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر».

إلى أن يقول:

«إن شعر هذه الطريقة هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً».

ومما يقوله الدكتور طه حسين عن التجديد عند خليل مطران في كتابه «حافظ وشوقي» ما يلي[٤]:

«إن مطران ثائر على الشعر القديم ناهض مع المجددين وهو قد ملك طريق القدماء فلم تعجبه. وهو يعلن ثورته هذه واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر. وهو معتدل لا يرفض القديم كلّه وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها كما يتأثر القدماء في إطلاق فطرتهم على سجيتها. وهو فنيّ له في جمال الشعر مذهب إن لم يكن واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار، فهو على كل حال مذهب قيّم لأنه يمثّل شيئاً من المثل الأعلى الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الأبيات وتتنافر وتتدابر ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء».

ويرى الدكتور محمد مندور، الناقد المصري المعروف، أن تجديد مطران الشعري لا يقف عند التجديد في شكل القصيدة العام بتحقيق الوحدة العضوية لها، بل يمتد هذا التجديد إلى ديباجة الشعر ذاتها وموسيقاه، فهو في الوصف مثلاً يمكن القول بأنه رائد ما نستطيع أن نسميه في شعرنا العربي الحديث بالوصف الوجداني، أي الوصف الذي يختلط فيه الشاعر بالطبيعة وينقل إليها أحاسيسه وألوان نفسه كما يتلقى عنها كل

ما يواتي حالته النفسية الراهنة، على نحو ما نحس في وجدانياته الوصفية مثل قصيدة (المساء)[٥] تلك التي نظمها وهو عليل في مكس الاسكندرية والتي يقول فيها هذا الشعر الجميل الذي يصور لنا حالته النفسية:

متفرِّدٌ بصبابتي، متفردٌ
بكآبتي، متفردٌ بعنائي
شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري
فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخرٍ اصم وليت لي
قلباً كهذي الصخرة الصمّاءِ
ينتابها موجٌ كموج مكارهي
ويفتها كالسقم في أعضائي
والبحر خفّاق الجوانب ضائقٌ
كمداً كصدري ساعة الإمساءِ
والشمس في شفقٍ يسيل نضاره
فوق العقيق على ذرى سوداءِ
مرّت خلال غمامتين تحدراً
وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكان آخر دمعةٍ للكون قد
مُزجت بآخر ادمعي لرثائي
وكانني آنست يومي زائلاً
فرايت في المرآة كيف مسائي

وقصيدة (الأسد الباكي)[٦] التي كان أصل عنوانها «ساعة يأس» والتي نظمها حينما كان معتكفاً في مصر الجديدة وهو يستهلها بهذا المطلع الرائع:

دعوتك استشفي إليك فوافني
على غير علم منك انك لي آسي

والتي يختمها بهذه الأبيات الجميلة:

انا الألم الساجي لبعد مزافري
انا الأمل الداجي ولم يخبُ نبراسي
انا الأسد الباكي، انا جبل الأسى
انا الرمسُ يمشي دامياً فوق ارماسِ
فيا منتهى حبيّ إلى منتهى المنى
ونعمة فكري فوق شقوة احساسي
دعوتك استشفي إليك فوافني،
على غير علمٍ منك، انك لي آسي.

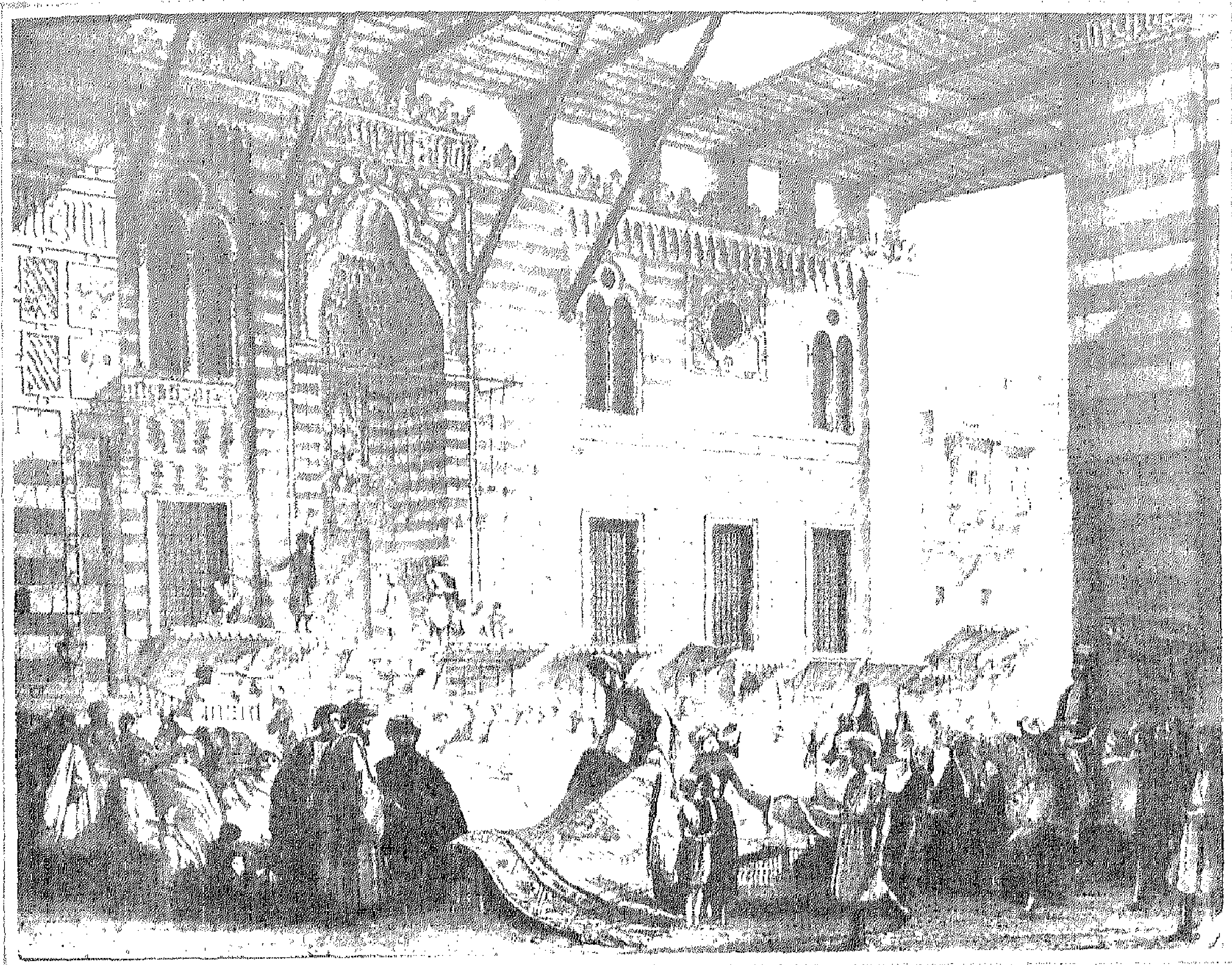
مطران نفسه يعترف في حديث أجرته معه مجلة «الهلال» سنة (١٩٢٨) وكان السؤال الذي طرح عليه يدور حول التجديد والمجددين وهل هو مجدد أم قديم فيجيب[٧]:

«لم يقولوا عني أني قديم، والواقع أني أجرأ من حافظ وشوقي على التجديد ولكني مع ذلك لم أجدد شيئاً عظيماً. والواقع أيضاً أن أسلوبنا قديم يدخله شيء قليل من المصطلحات والأفكار الجديدة. ولكن ليس قصدي من التجديد أن نقنع بقليل من الألفاظ والعبارات إنما أقصد بالتجديد أن يخلق الشاعر موضوعاً من أوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصّله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم. فامرؤ القيس نظم القصيدة والمتنبى فخر ومدح ونحن ما زلنا مثلهما. ولكن التجديد الذي يحتاج إلى الخلق والإبداع وتكوين الموضوع من أوله لآخره لم يقدم عليه ولم يفكر فيه أحد للآن. ومن اجترأوا على التجديد ما زالوا يعدون قدماء وهناك محاولات ولكنها ما تزال في طريق التكامل».

فإننا نجد في هذا القول اعترافاً صريحاً بأنه: «لم يجدد شيئاً عظيماً». والذي يظهر لنا من هذا القول أن مطران أدرك مفهوم التجديد الا وهو: «أن يخلق الشاعر موضوعاً من أوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولّدات قرائحهم».

وهو يقول في قصيدة «تقريظ» للرواية الشعرية التي نظمها عادل الغضبان[٨]:

نحنُ لم نخترع جديد المعاني
وغلونا في لفظها تحسينا
فتح الفن كل باب حديث
وعلى عهده العتيق بقينا
فخذوا انتم من العلم ما أعطى،
وقولوا الطريف قولاً مبينا
لغة الضاد لا تضن عليكم،
إن جددتم، بكل ما تبتغونا
فإذا ما انشأتم فاخلقوا
خلقاً وكونوا حقيقة منشئينا
ذاك ذاك التجديد، لا فعل
من يمكث في معقل القديم سجينا



□ رسم قديم للسوق في حي الغورية.

هذا، ومهما يكن من أمر، فإن خليل مطران يبقى رائداً من رواد التجديد في الشعر العربي المعاصر، وهو كما قال عنه الدكتور طه حسين في رسالة وجهها له يخاطبه فيها قائلاً(٩):

«إنك زعيم الشعر العربي المعاصر، وأستاذ الشعراء المعاصرين، لا يستثني منهم أحداً، ولا يفرق منهم بين المقلدين والمجددين، وإنما يسميهم جميعاً بأسمائهم غير متحفظ، ولا متردد، ولا ملجلج، ولا مجمجم. وإنما هو اللفظ الصريح يرسله واضحاً جلياً لا التواء فيه ولا غموض».

وكذلك قال شاعر النيل حافظ إبراهيم في صديقه خليل مطران:

يبني ويهدم في الشعر القديم وفي
الشعر الجديد فنعم الهادم الباني

شاعر العروبة

لم يكن حب خليل مطران وقفاً على وطنه لبنان ولا على وطنه الثاني مصر، أرض الكنانة، بل تعداهما إلى سائر البلاد العربية يستحثها على مناهضة الأجنبي المستعمر لكي تخلص لها قوميتها وتعود لها حريتها وأصالتها ومجدها الغابر.

والذي يماشي الشاعر في مسيرته الشعرية يجد أن فكرة العروبة قد بدأت عنده في فترة مبكرة. ففي سنة ١٩٠٨ نظم مطران مقطوعة شعرية بعنوان «تباشير» بمناسبة بدء الدعوة في مصر لتحرير الأمة العربية يقول فيها مخاطباً الأمة العربية(١٠):

داع إلى العهد الجديد دعاكِ
فاستأنفي في الخافقين علاكِ

يا امة العرب التي هي امنا
اي الفخار نميته ونماك؟
يمضي الزمان وتنقضي أحداثه
وهواك منا في القلوب هواكِ

ومن المعروف أن مطران كان معادياً لدعوة الخلافة التركية وأنه ناصر جمعية «تركيا الفتاة» كما سبق وأشرنا عندما كان في باريس. كما ناصر الحركات العربية التي كانت تدعو للتحرر من النير التركي وكذلك من الاستعمار الأوروبي المتمثل بصورة رئيسة بإنجلترا وفرنسا وإيطاليا.

وفي قصيدته التي يبايع فيها أمير الشعراء احمد شوقي بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ يقول مخاطباً إياه[١١]:

يا باعث المجد القديم بشعره
ومجدد العربية العرباءِ
اليوم عيدك وهو عيد شامل
للضاد في متباين الأرجاءِ
في «مصر» ينشد من بنيها منشدٌ
وصداه في «البحرين والزوراء»
عيد به اتحدت قلوب شعوبها
ولقد تكون كثيرة الأهواء
كم ريمَ تجديد لغابر مجدها
فجنى عليه تشعب الآراء؟

وكذلك نرى مطران يهب في شعره لنصرة طرابلس الغرب — اي ليبيا — يوم اعتدى عليها الطليان سنة ١٩١٢ فينظم في ذلك خمس قصائد هي:

— لإعانة طرابلس حين اعتدى عليها الطليان (ج ٢ ص ٦٧).
— عتاب واستصراخ لمعونة طرابلس (ج ٢ ص ٧١).
— الهلال الأحمر — أول لجنة الفت لإعانة الجيش العربي المحارب في طرابلس برعاية المغفور لها أم المحسنين (ج ٢ ص ٧٩).
— الشهيد الطرابلسي عمر المختار الذي قتله الطليان في طرابلس (ج ٤ ص ٨١).

ونجده كذلك يهتز للحريق الذي حل بدمشق سنة ١٩٠٨ فينظم قصيدة بعنوان (إعانة دمشق) (ج ٢ ص ٤) وأخرى بعنوان (دمعة على الشام في أيام الطاغية جمال) (ج ٢ ص ٢٠١). يخاطب فيها السوريين فيقول:

شعب يحب بلاده فإذا
هانت فما لبقائه ثمنُ
تبكي العيون «الشام» راسفة
في القيد محدقة بها المحنُ

وكذلك ينظم (نكبة دمشق بعد ضربها بمدافع الجنرال سراي الفرنسي) (ج ٣ ص ١١٣). وله كذلك قصائد عديدة في لبنان ومصر وفلسطين وفي تهنئة الملك فاروق، والترحيب بالملك عبدالعزيز آل سعود، وتحية سلطان مراكش، والملك فيصل ملك العراق، والشيخ بشارة الخوري رئيس جمهورية لبنان.

هذا، ولم تكن دعوة مطران إلى العروبة دعوة سياسية فحسب ولكنها شملت تعزيز اللغة العربية التي أرادها أن تتجدد وتساير روح العصر وفي ذلك يقول[١٢]:

لن ترجع العربية الفصحى إلى
ما كان منها في الزمان الأقدم
للجاهلي لسانه، ومن الذي
ينفي من الفصحى لسان مخضرمِ؟
إن التجدد للسان حياته
ومن الذي يحييه غير المقدمِ؟

ومن ذلك قوله في قصيدة عنوانها: (عتب اللغة العربية على أهلها)[١٣].

تقول لأهلها الفصحى: اعدلُ
بربكم إغترابي بين اهلي؟
انا العربية المشهود فضلي
اغدو اليوم، والمغمور فضلي؟
إذا ما القوم باللغة استخفوا
فضاعت، ما مصير القوم؟ قل لي
وما دعوى اتحاد في بلاد
وما دعوى ذمار مستقلّ؟

واضح هنا أن الخليل يدعو إلى تعزيز اللغة العربية وتجديدها وهو يرى في الفصحى الرابط الذي يوحد بين أجزاء العالم العربي.



□ الدكتور طه حسين.

لا يكتفي مطران بدعوة الأمة العربية إلى النهوض والتقدم والتشبّه بالغرب ومواكبة العصر، بل إنه يدعو الشرق كله إلى ذلك فيستعيد مجده ويأخذ بركب الحضارة فلنستمع إليه يقول في قصيدة عنوانها (رأس السنة الهجرية)[١٤]:

اي مسلمي «مصر» إن المجد دينكم
وبئس ما قيل: شعب غير مجدودِ
طال التقاعس والأعوام عاجلة
والعام ليس إذا ولّى بمردودِ
هُبوا إلى عمل يُجدي البلاد فما
يفيدها قائل: يا امتي سودي
تعلموا كل علم وانبغوا وخذوا
بكل خلق نبيه اخذ تشديد
الشرق نصف في الدنيا بلا عمل
سوى المتاع بما يضني وما يودي
الغرب يرقى وما بالشرق من همم
سوى التفات إلى الماضي وتعديد
تشكو الحضارة من جسم اشلّ به
شطر يُعدُّ وشطر غير معدود
ابناء «مصر» عليكم واجب جلل
لبعث مجد قديم العهد مفقود
فليرجع الشرق مرفوع المقام بكم
ولتزه «مصر» بكم مرفوعة الجيد

لم يكن مطران ينظر نظرة إقليمية وهو لم يكن يفرّق بين مصر وطنه الثاني ولبنان وطنه الأول فهما عنده وطن واحد. وهو يعبّر عن ذلك في قصيدته التي عنوانها (الدكتور نقولا فياض) التي نظمها في وداع الطبيب والشاعر والأديب والخطيب حين أزمع ترك الاسكندرية والعودة للاستيطان في وطنه لبنان حيث يقول:

ساء هجرانك الرفاق ولكن
ليس بين القطرين من هجران
وطن واحد وتجمعه الضا
دُ لمغزى في الفظة الأوطان

ولهذا استحق خليل مطران اللقب الذي لقبه به أهل مصر وهو «شاعر القطرين» أي شاعر مصر وبلاد الشام، ثم أضفى عليه الدكتور علي العناني لقب «شاعر الأقطار العربية» وهو أهل بهذه التسمية.

شاعر الحرية والتحرر

كل الذين أرّخوا لخليل مطران ذكروا حادثة بارزة في حياته يوم كان في مطلع شبابه، لم يبلغ الثامنة عشرة بعد، يدرس في المدرسة البطريركية في بيروت حين عاد إلى فراشه ليلاً فوجده مثقوباً بالرصاص. فقد حاول عملاء الأتراك القضاء على الشاعر الذي كان يدعو إلى الحرية إذ كان يذهب إلى أعالي الأشرفية في بيروت مع بعض رفاقه ينشدون «المرسيين» نشيد الثورة الفرنسية ورمز التحرر والاستقلال. فقد وجد الأتراك أنه بعمله هذا يشكل خطراً عليهم وأرادوا التخلص منه بقتله (وقد أشرنا إلى هذه الحادثة في كلامنا على سيرته) وقد أدى ذلك إلى هجرة الشاعر من لبنان كما أسلفنا.

وهكذا نجد أن الشاعر نشأ على حب للحرية وكره للظلم والاستبداد. ومن يستعرض ديوانه يجد فيه قصائد عديدة يهاجم فيها رموزاً للظلم والاستبداد أمثال «كسرى» و «نيرون» وهو يقول في حديث أجري معه[١٥]:

«أريد أن تشعر الشعوب بمسؤولياتها. أن تشعر بحقها في الحياة الحرة السعيدة، وأن لا تنزل عن هذا الحق مرّة واحدة لأن رجلاً حمل سكيناً وأراد منها أن تفعل ذلك. ومن أجل هذا الغرض نظمت قصائدي الكثيرة التي تؤلف

المجموعة الضخمة التي أزمع على نشرها بعنوان «الطغـاة». ـــ هذا مـا قام بـه الأستاذ رئيف خوري الذي جمع قصائد مطران التي تتناول الحرية وقدّم لها بكتاب سماه «الطغاة»[19] ـــ.

إلى أن يقـول: «فليس من قصيدة كتبتهـا إلا وفيها تنديد بالظلم الاجتمـاعي وتطلع إلى المساواة والحرية والعدل».

وفي الفترة التي عاش فيها مطران مـا بين نهاية القرن الماضي ومنتصف القرن العشرين كانت الدول العربيـة تنتقل من استعمـار إلى استعمـار، تارة بـاسم الحمايـة وطوراً بـاسم التمدن، فلا بد للشاعر الحر من أن يتأثر بهذه الحوادث ويدعو إلى التحرر من الاستعمار.

ومن يتصفح ديوانـه يجد فيـه الكثير من القصائد الثورية أمثال: (الأهرام) (١ ـــ ١٠٤)، (في ظل تمثال رعمسيس) (٢ ـــ ١٧٥)، (السور الكبير في الصين) (١ ـــ ٦٠)، (مقتل بزرجمهر) (١ ـــ ١٢٠)، (نيـرون) (٣ ـــ ٥٠)، و (فتاة الجبل الأسود) (١ ـــ ١٧٩). كل هذه عناوين تدل على المواضيع التي تطرق إليها الشـاعر والتي ناصر فيها الحرية ودعا إلى الوقوف في وجه الظلم والاستبـداد والتسلط وحـث الشعـوب العربية وسواها إلى نزع نير الاستعباد.

كما أن مطران كان على صلة حسنة برجالات مصر الأحرار وخاصة الزعيم مصطفى كـامل وسعـد زغلول ومحمد فـريـد، رئيس الحـزب الوطني، وكذلك سائر الأحرار العرب الذين رثاهم في شعره.

ولخليل مطران بالإضافة إلى ذلك مقطوعتان مشهورتان نظمهما سنة ١٩٠٩ هما (مقاطعة) و (تهديد بالنفي) يجهر فيهما بنقمته على الظلم والاستبداد والحجز عـلى الحريـات وكم أفواه رجال الفكر والصحافة. ففي مقطوعته (مقاطعة) التي نظمها عندما بدىء باضـطهاد الأحـرار وتسليط قانون المطبوعات على الأفكار يقول[17]:

شـردوا أخيـارهـا بحـراً وبـرّاً
واقتلوا احـرارهـا حـراً فحـرّا
إنمـا الصـالح يبـقى صـالحـاً
آخـر الدهـر ويبقى الشر شـرّا



□ السلطان عبدالحميد الثاني.

كسّروا الأقـلام هـل تكسيـرهـا
يمنع الأيدي أن تنقش صخـرا؟
قـطعوا الأيـدي هـل تقـطيعهـا
يمنـع الأعـين أن تنـظر شـزّرا؟
اطفئـوا الأعـين هـل إطفـاؤهـا
يمنـع الأنفاس أن تصعـد زفرا؟
اخمـدوا الأنفاس، هـذا جهـدكم
وبـه منجـاتنـا منكم... فشكـرا!

فهل أجمل من هذا الشعر يفرّج به الشاعر عن كربته ويعبّر به عن نقمته، إنها لصـرخة مدوّية يصرخها الشاعر في وجه الظالم المستبد؟!.

وفي مقطوعته (تهديد بالنفي)[18] التي نظمها بعد أن هدده رياض باشا رئيس وزراء مصر في ذلك الحـين بالنفي بسبب مقـطوعته السـابقة (مقاطعة) يقول:

انــا لا اخــاف ولا أرجّـي
فـرسي مـؤهـبـة وسـرجـي
فـإذا نــبــا بـي مــتــن بـرٍّ
فـالمـطيّـة بـطن لُجِّ
لا قــول غــير الحــق لي
قــولٌ وهــذا النــهــج نــهـجي
الوعـد والإبعـاد مـا كـانـا
لديّ طريـق فُـلجِ

ففي هاتين المقطوعتين نجد مطران يهـاجم الظالمـين المستبدين معـرضـاً نفسـه للنفي



□ سليم تقلا.

والاضطهاد دون خوف أو وجل.

ولعل الشاعر الدكتور أحمد زكي ابو شادي لم يبتعد عن الحقيقة عندما قال عن أستاذه خليل مطران[١٩]: «تبقى الصفة الأهم لمطران والنعت الأكرم، فإن شاعر الحرية الفنان الملهم أولى الشعراء الأحرار في العالم العربي جميعه، بأسمى التقدير».

وفي قصيدته المشهورة (مقتل بزرجمهر)[٢٠] يصور لنا مطران الحاكم المستبد الذي لولا استكانة شعبه لما كان كذلك فيقول:

ما كان كسرى، إذ طغى في قومه
إلا لما خلقوا به فعّالا
هم حكّموه فاستبد تحكما
وهم ارادوا ان يصول فصالا
لكن خفض الأكثرين جناحهم
رفع الملوك وسوّد الأبطالا

وفيها يرى بأن الحكم شورى بين الناس وليس الحكم حكم الفرد المتسلط فيقول:

اين التفرّد في مشورة صادق
والحكم اعدل ما يكون جدالا

وينهي قصيدته هذه بهذا البيت الرائع على لسان ابنة بزرجمهر:

ما كانت الحسناء ترفع سترها
لو ان في هذي الجموع رجالا

فيقرّع الرجال الذين سكتوا على الملك المستبد وخضعوا له فتحكم برقابهم واستسلموا له بينما، وقفت في وجهه فتاة هي بنت الوزير بزرجمهر الذي أعدم وهو الذي عرف بعدله وبتقديم النصح إلى الملك. فإذا كان هذا مصير الوزير العادل فكيف يكون مصير الوزير الظالم الفاسد؟!.

وفي قصيدته الطويلة (نيرون)[٢١] التي تبلغ ٣٢٧ بيتاً والتي أراد بها أن يبرهن بأن القصيدة العربية قادرة على نظم الملاحم وبأن الشاعر العربي يستطيع أن يفعل ما فعله «هومير» و «دانتي» و «ميلتون» الذين نظموا الملاحم.

وقد ألقى الخليل قصيدته هذه في الجامعة الأميركية في بيروت التي دعته لإلقاء اشعاره فلبى دعوتها وجاء إلى لبنان بعد غياب دام ٢٥ سنة.

وفي المقدمة التي قدم بها للقصيدة قال: «لا يجدر بأكبر دار علم في الشرق إلا أن يصدر منها أجرأ ما حاولته قريحة شاعر في الشرق... ثم يقول: والآن، يا سادتي، سأقرأ لكم أكبر قصيدة متحدة الروي ومتحدة الموضوع عرفتها العربية».

وهذه القصيدة تتناول سيرة الامبراطور الروماني نيرون (٣٧ ــ ٦٨م) ووصف ما أتاه من منكرات ومظالم والذي أحرق روما ليتلذذ بالمنظر. وفيها يقول:

إنما يبطش ذو الأمر إذا
لم يخف بطش الالى ولّوه امرا
كل قوم خالقو «نيرونهم»
«قيصر» قيل له أم قيل «كسرى»!

وبعد هذا العرض لنماذج من شعر مطران تعبق بالحرية، لا أجدني مضطراً لسياق أي دليل وذكر أية حجة أو إضافة أي برهان. يكفي خليل مطران هذه المواقف الجريئة في مواجهة الظلم والظالمين ليعد عن حق رائداً من رواد الحرية في الشعر العربي منذ مطلع هذا القرن.

اثره في الشعر العربي الحديث

من الصعب تتبع أثر الشاعر في من عاصره ومن جاء بعده من الشعراء، ذلك لأن الشعراء منذ القديم يأخذ واحدهم عمن سبقه وعاصره ويتأثر به متعمداً أحياناً وعن غير قصد أحياناً اخرى. ولعل من يحاول ذلك يكون كمن يتتبع اثر النهر الذي يصب في مياه البحر حيث تمتزج المياه بعضها ببعض وتضيع في عباب اليم.

من البديهي القول إن الشاعر الكبير يترك اثره وطابعه في سواه من الشعراء الذين يأخذون عنه ويتأثرون به. فكم من الشعراء عيال على المتنبي منذ زمانه وحتى يومنا هذا. وكم من الشعراء الذين يعترفون بأنهم قد تاثروا بسواهم من الشعراء دونما وجل أو مراوغة أو نكران.

هذا، وإن تأثير الشاعر قد لا يكون أحياناً واضحاً في فرد من الأفراد بل في تيار من التيارات أو اتجاه من الاتجاهات أو مدرسة من المدارس الشعرية.

اما فيما يتعلق بالشاعر خليل مطران فإنه يمكن تقسيم الشعراء من حيث التأثر به إلى ثلاثة اقسام:

١ ـ فئة تعترف بأستاذية مطران صراحة وتجاهر بتأثرها به دون مراوغة أو التواء على رأسها الشاعر الدكتور احمد زكي أبو شادي.

٢ ـ فئة تنكر أن تكون قد تأثرت به وترفض ادعاء النقاد ذلك وعلى رأسها الشاعر المصري عبدالرحمن شكري.

٣ ـ فئة ثالثة تصمت حول هذه القضية وتترك لنا أن نتبين ذلك وتشمل العديد من الشعراء الرومنسيين وبعض شعراء المهجر.

اما الشاعر المصري الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) فنجده يقول في خطبة القاها في الحفلة التي اقامتها الجالية العربية في نيويورك لتكريم خليل مطران سنة ١٩٤٧ ما يلي[٢٢]:

«وبحق الأستاذية له عليّ منذ طفولتي الأدبية، لم يفتني التحليل المنوع لآثاره والإشادة بنزعاته الرائدة وأعماله الماهرة التي احدثت ثورة في الإنشاء العربي الحديث نظماً ونثراً ووثبت



□ بشارة تقلا.

بالشعر العربي على الأخص وثبة جريئة ما كانت لتتحقق لولا المواهب الفنية الأصلية التي فطر عليها الشاعر العبقري...».

ثم يقول في مناسبة أخرى[٢٣]:

«... أثر في جميع رواد الشعر الحديث على اختلاف مشاربهم، سواء اعترفوا بذلك ام لم يعترفوا، وسواء أشعر وعيهم بذلك ام لم يشعر، ولكن الناقد الأدبي المستقل المطلع على (المجلة المصرية) وعلى كتابه (مرآة الأيام) وعلى شعره المنظوم والمنثور المتعدد النماذج، لا يمكنه إلا الإقرار بفضل هذا المعلم المرشد الملهم الذي خلق آفاقاً جديدة من التأمل والأحاسيس حتى استحق أن يدعى شاعر العربية الابتداعي الأول...».

يقول الشاعر المصري صالح جودت عن تأثير مطران ما يلي[٢٤]:

«لقد أثرت مدرسته الجديدة في الكثيرين من شعراء مصر في عصره، وفي طليعتهم إبراهيم ناجي وعلى محمود طه وأبو شادي وغيرهم، كما اثرت في شعراء المهجر جميعاً». اما ناجي فهو ينكر ذلك.

يعترف الشاعر المهجري شفيق المعلوف بتأثير مطران في الشعر العربي الحديث فيقول

بمناسبة ظهور ديوان الخليل[٢٥]:

«فكان بعثاً في الأدب، وراح ينسج على منواله ويقتفي آثار نظمه عشرات الشعراء الذين ازدهى بنتاجهم الشعر العربي في هذا العصر».

ولننتقل إلى رأي النقاد في تجديد خليل مطران ولنستشهد برأي الدكتور طه حسين الذي كان معجباً بشعر الخليل ــ وهو كما قال لي في أواسط الخمسينات حينما كان يزور الجامعة الاميركية في بيروت أن خليل مطران شبيه بأبي تمّام من حيث ديباجته الشعرية وأن أثره سوف يكون، كأثر ابي تمام، كبيراً في الأجيال التي سوف تأتي .

فقد بعث طه حسين برسالة إلى خليل مطران بمناسبة الحفلة التكريمية التي أقيمت له في القاهرة ــ وكان اسم طه حسين قد استبعد من بين أسماء الخطباء والشعراء الذين سيشتركون في الحفلة بأمر من الملك فاروق لأنه لم يكن يستهضمه ــ يقول له فيها[٢٦]:

«أنت قد علّمت المقلدين كيف يرتقون بتقليدهم عن إفناء النفس في من يقلدون، وأنت علّمت المجددين كيف ينزهون أنفسهم عن الغلو الذي يجعل تجديدهم عبثاً وابتكارهم هباءً. وأنت قد علّمت أولئك وهؤلاء أن الفن حرٌ لا يعرف الرق، كريم لا يحب الذلّة، نشيط لا يحب الجمود، أبيّ لا ينقاد للمحافظة إلى غير حد، ولا ينقاد للتجديد في غير احتياط.

انت حميت «حافظا» من أن يسرف في المحافظة حتى يصبح شعره كحديث النائمين. وأنت حميت «شوقي» من أن يسرف في التجديد حتى يصبح شعره كهذيان المحمومين. وأنت رسمت للمعاصرين من الشعراء هذه الطريق الوسطى التي تمسك على الأدب العربي شخصيته الخالدة وتتيح له أن يسلك سبيله إلى الرقيّ والكمال. وقد حاولوا أن يتبعوك في هذه الطريق خطا بعضهم بنجاحٍ، واستسلم بعضهم فأراحَ، وأقمت أنت على قمة الشعر الحديث شيخاً جليلاً وقوراً».

ففي هذا القول البديع دليل سافر على مكانة مطران الشعرية الرفيعة وعلى أثره في الشعراء، كل الشعراء، لا يستثني طه حسين منهم أحداً.

وفي هذا الرأي يبدو بوضوح ميل الدكتور طه حسين نحو مطران وتقديمه على شعراء عصره وتفضيله عليهم جميعاً دون استثناء.

وبعد، وقد استعرضنا بعض الآراء حول تأثير خليل مطران في من عاصره وجاء بعده من الشعراء، نرى أن المسألة ليست سهلة الإثبات واضحة الملامح.

وخلاصة القول أني حاولت أن أبيّن أثر مطران في الشعراء الذين عاصروه والذين جاءوا بعده، ويبدو من الآراء التي أوردتها أن هناك من يعترف صراحة بتأثره بمطران وبالتتلمذ عليه، بينما هناك من ينكر ذلك على الرغم من زعم النقاد. وهناك شعراء آثروا الصمت حول هذا الموضوع على الرغم من أنهم اعترفوا بأنهم كانوا من المعجبين به ولعل من بين هؤلاء بدر شاكر السيّاب أحد رواد التجديد في الشعر العربي الحديث.

ومهما يكن من أمر، فإن مطران كان أول من بدأ الثورة على الاتباعية في الشعر العربي ممهداً السبيل أمام الشعراء الذين جاءوا بعده، فمنهم من تأثر بروحه، ومنهم من تأثر بعبارته ومنهم من تأثر بالاثنين معاً.

يقول فؤاد سليمان عن مطران في أعقاب وفاته سنة ١٩٤٩[٢٧] «قد تمضي قرون عديدة دون أن يمنّ الله على الأمة العربية بشاعر كخليل مطران. شاعر ينشأ من صميم الشعب، فيناضل من روحه ومن دمه من أجل الشعب، من أجل الإنسان النبيل في الشعب وتنصب كل مجاري نفسه في المجرى الإنساني العام. فلا يعيش إلا من أجل هذه القيم الإنسانية العالية، ولا ينظم إلا في حقيقة هذه المجاري الإنسانية».

بينما يقول عنه أنطون قازان[٢٨]:

«الأستاذ خليل مطران سيد شعراء العرب في مختلف أقطارهم، وباني أول صرح جديد في الشعر العربي، وأعرف الأدباء جميعاً بمداخل اللغة ومخارجها».

ولعل أفضل ما نختم به هذا البحث عن خليل مطران الشاعر قول أحمد شوقي أمير الشعراء:

«خليل مطران صاحب المِنن على الأدب العربي».

الهوامش

(١) خليل مطران، شاعر العصر (ص ٤٦).
(٢) الدكتور ميشال جحا، خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، بيروت ١٩٨١، (ص ٨١).
(٣) ديوان خليل مطران (المقدمة) ج ١ ص ٩ دار الكتاب العربي، بيروت ط ٣ ١٩٦٧.
(٤) الدكتور طه حسين، حافظ وشوقي الطبعة الثانية ١٩٥٣، مكتبة الخانجي القاهرة.
(٥) الديوان ج ١ ص ١٤٤.
(٦) الديوان ج ٢ ص ١٧.
(٧) مجلة «الهلال» م. ٣٦ (١٩٢٨) ص ١٠٣٤.
(٨) الديوان ج ٤ ص ٢٥.
(٩) الدكتور طه حسين، مجلة «الرسالة» المخلصة م ١٤ (١٩٤٧) العدد ٥ ص ٢٤٢. ويورد هذه الرسالة أيضاً محمد بن الشريف في كتابه «خليل مطران شاعر الحرية (ص ٦١ ــ ٦٣)». [تدعي مجلة «الورود» أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ السنة ٣٢ الجزء ٩ انها تنشر هذه الرسالة للمرة الأولى].
(١٠) الديوان ج ٢ ص ١.
(١١) الديوان ج ٣ ص ٢٣١.
(١٢) الديوان ج ٣ ص ٣١.
(١٣) الديوان ج ٤ ص ٦٥.
(١٤) الديوان ج ٢ ص ٤٣.
(١٥) مجلة الطريق م ٤ عدد ١٤ ص ٢.
(١٦) رئيف خوري، الطغاة، منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٩.
(١٧) الديوان ج ٢ ص ٩.
(١٨) الديوان ج ٢ ص ٩ ــ ١٠.
(١٩) مجلة «الأديب» م ١٢ عدد ١٠ (١٩٥٣).
(٢٠) الديوان ج ١ ص ١٢٠.
(٢١) الديوان ج ٣ ص ٥٠.
(٢٢) مجلة الأديب السنة ٦ (١٩٤٧) عدد ٦ (ص ٥٩).
(٢٣) مجلة الأديب السنة ١٢ (١٩٥٣) العدد ١٠ (ص ٣ ــ ٤).
(٢٤) مقدمة كتاب خليل مطران شاعر الاقطار العربية للدكتور فوزي عطوي (ص ١٢ ــ ١٣).
(٢٥) مجلة العصبة (الأندلسية) م ١٠ عدد ٣ (ص ٢٢٦).
(٢٦) راجع هامش رقم ٦.
(٢٧) مجلة صوت المرأة المجلد ٥ العدد ١٠ تشرين الأول ١٩٤٩.
(٢٨) أدب وأدباء، ج ٢ (ص ٢٧).

المراجع

(١) **ابو شادي، الدكتور احمد زكي**: الأديب ١٢، عدد ١٠ (١٩٥٣)، الأديب ٦: عدد ٦ (١٩٤٧).
(٢) **ادهم، الدكتور إسماعيل**: خليل مطران شاعر العربية الإبداعي، نشر المقتطف (١٩٣٩).
(٣) **جحا، الدكتور ميشال**: خليل مطران باكورة، التجديد في الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، بيروت، (١٩٨١).
(٤) **جمال الدين، نجيب**: خليل مطران شاعر العصر، بيروت (١٩٤٩).
(٥) **جودت، صالح**: مقدمة كتاب «خليل مطران شاعر الأقطار العربية» للدكتور فوزي عطوي، دار الهلال، القاهرة (١٩٧٤).
(٦) **حسين، الدكتور طه حسين**: حافظ شوقي، الطبعة الثانية (١٩٥٣)، مكتبة الخانجي ــ القاهرة.
(٧) **خوري، رئيف**: الطغاة، منشورات دار المكشوف (١٩٤٩).
(٨) **الرمادي، الدكتور جمال الدين**: خليل مطران شاعر الأقطار العربية، دار المعارف بمصر (١٩٥٩).
(٩) **السحرتي، مصطفى عبداللطيف**: خليل مطران الرجل الشاعر، مطبعة المقتطف والمقطم (١٩٤٩).
(١٠) **فؤاد، سليمان**: مجلة صوت المرأة، المجلد ٥، العدد ١٠، تشرين الأول (١٩٤٩).
(١١) **شرارة، عبداللطيف**: خليل مطران، دراسة تحليلية، دار صادر، بيروت (١٩٦٤).
(١٢) **ضيف، الدكتور شوقي**: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف بمصر، ط ٢ (١٩٦١).
(١٣) **الطناحي، طاهر احمد**: حياة مطران، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر (١٩٦٥).
(١٤) **مندور، الدكتور محمد**: محاضرات عن خليل مطران، معهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٤).
(١٥) **الكتاب الذهبي**: لمهرجان تكريم خليل مطران، مطبعة الهلال، القاهرة (١٩٤٨).

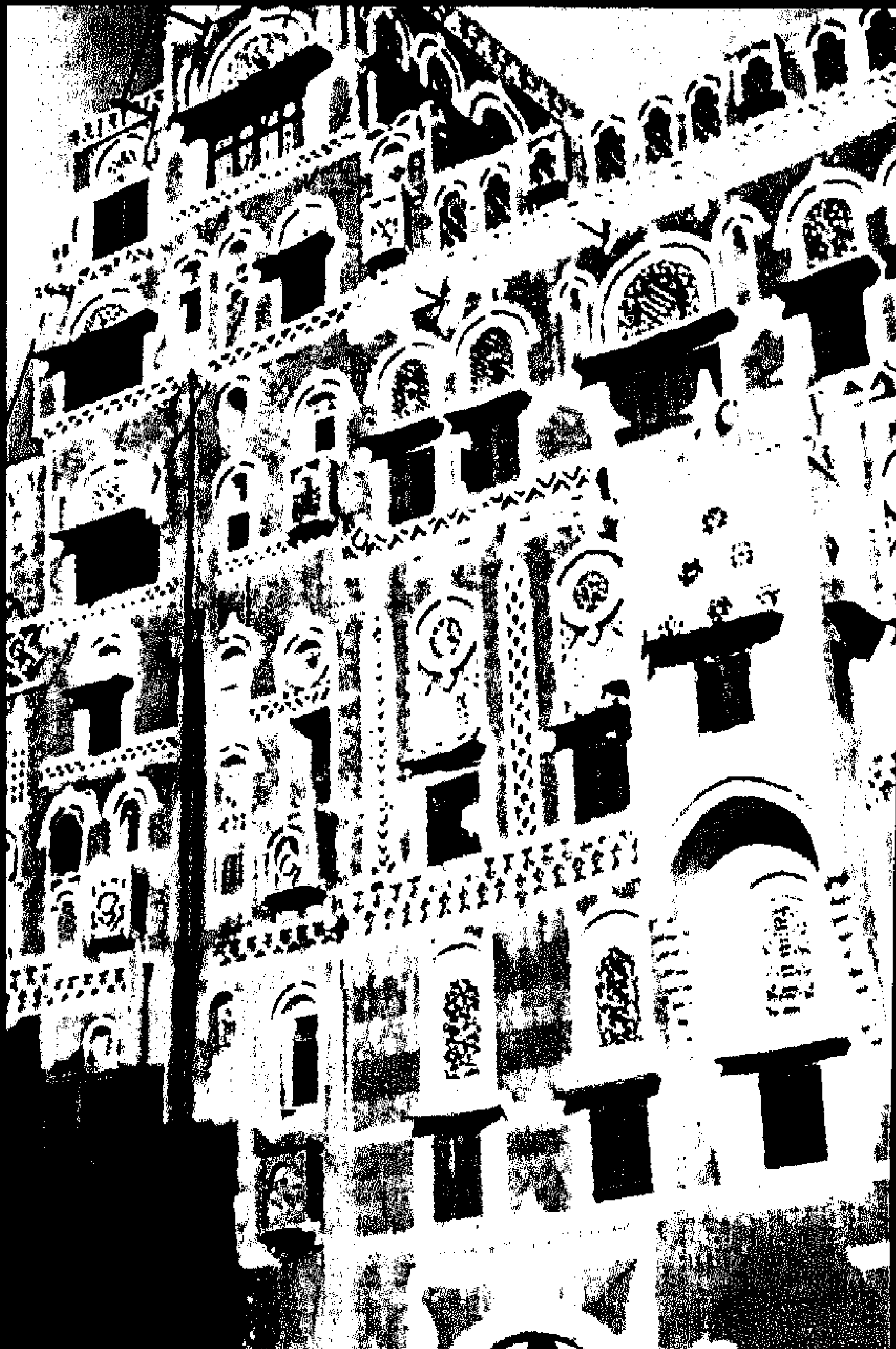


الشعر كمصدر للتاريخ:

صفحات من تاريخ ساحل الشام
من خلال
ديوان أبي الحسن التهامي

(٤١٦ هـ / ١٠٢٥م)

د. عمر عبد السلام تدمري



□ الزخرفة الإسلامية في مباني صنعاء

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي، قام «أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التِهامي» من أهل تِهامة الواقعة بين الحجاز واليمن، برحلة زار فيها الشام والعراق وفارس، ونزل فلسطين مدّة حيث ولي الخطابة في المسجد الجامع بمدينة الرملة، ثم دخل في آخر رحلته مصر مُسْتخفياً وهو يحمل كتباً كثيرة من «حسّان بن مفرّج بن دغفل» أمير بني طيء الخارج على الدولة الفاطمية إلى بني قُرَّة، فظفر به الفاطميّون وأودعوه السجن «خزانة البنود» بتهمة التآمر والعمل على طلب المُلْك لنفسه، ثم قُتل سرّاً داخل سجنه في التاسع من جُمادى الأولى سنة ٤١٦هـ. / ١٠٢٥م.

و «التِهامي» ــ بكسر التاء المثنّاة ــ نسبة إلى تِهامة، وهي تُطلق على مكّة المكرَّمة، ولذلك قيل للنبـيّ صلّى الله عليه وسلّم «تِهاميّ» لأنه منها. وتُطلق أيضاً على جبـال تِهامـة وبلادهـا، وهي خطّة متّسعـة بين الحجـاز وأطراف اليمن. قال «ابن خلّكان»: «ولا ندري هل نُسِب هذا الشاعر إليها أم إلى مكة»[1].

ويكاد «التهاميّ» أن يكـون الشاعـر الحجازيّ الوحيد الذي قام برحلة من بلاده وطوّف في العراق والشام وفارس وغيرها، وتكسّب بشعره، فمدح الأمراء والأعيان المعاصرين له في المدن التي دخلها، على طريقة «أبـي الطيّب المتنبّـي» الذي اشتهـر في هـذا الفنّ، وعـلى طريقة «عبـدالمحسن الصـوري»، وهو شاعر من أهل صور كان معاصراً للتهاميّ وتوفي بعده بثلاث سنين، أي في سنة ٤١٩هـ. وعلى طريقة غيرهما من غـالب شعراء العصر الوسيط.

ونحن في هـذه الدراسة للشـاعر التهـاميّ لا تستوقفنا حياته ولا أغراض شعره، ولا إظهار محاسنه أو مواطن ضعفه، فهذا لا يدخـل في اختصاصنا، فقد كفانا الباحثون مؤونـة هذا النـوع من الدراسـة[2]. ولكن الذي يعنينـا هو المعلومات التاريخية التي تتوفّر، ولو في نقاط موجزة، أو إشارات عابرة، في دواوين الشعراء، وغالباً مـا تكون تلك المعلومـات نادرة المثـال، وخاصّة ما يتعلّق منها بتاريخ ساحل الشام في العصر الإسلامي. وهذه حقيقة يجب على كل باحث لتاريخ هذه المنطقة أن يأخذها باعتباره، فـلا يُسْقِطْ من مصـادره الأسـاسيّـة دواوين الشعراء، خصوصاً إذا كان أولئك الشعراء من الرَّحّالة، حيث يوضع شعرهم في خدمة التاريخ.

فالشاعر «التِهاميّ» تنقّل في رحلته بين مكّة، ودمشق، وبغـداد، والرّيّ، والمـوصـل، وآمـد، ومَيّافارقين، والكوفة، والأنبار، وحلب، وطرابلس الشام، وصور، والرملة، والقاهرة، في وقت كان فيه الشرق العربـي يخضع لنفوذ دولتين هما: الدولة الفاطمية في مصر، والدولة السلجوقية في العراق، وهما تتجاذبان السيطرة والنفوذ عـلى بلاد الشام، فيما الدولة البيزنطية تتحيّن الفُرَص للوثوب على سواحل الشام وأطرافها الشمالية المتاخمة لممتلكاتها في آسية الصغرى، حيث دولة بني حمدان.

كـان هذا هـو الواقع السيـاسي «العام» في المشرق العربـي. أمّا الواقع السياسي «الخاصّ» في ساحل الشام، وبشكل أخصّ ما يُطلَق عليه الآن اسم «لبنان»، فقد كان بكلّ مدنه وقُراه الساحلية خاضعاً للخلافة الفاطمية، بينما كانت دمشق والمنـاطق الداخليـة خـاضعـة للنفـوذ السلجـوقي. وكان البيـزنطيّـون يعملون عـلى استغـلال ذلك الصراع بـين الدولتين ليمـدّوا نفوذهم إلى بلاد الشام الشمالية، وبعض المدن الساحليّة، ويؤلّبوا أمراءها ووُلاتها على الخلافة الفاطمية، وهذا ما فعلته مع كلٍّ من مدن: حلب، وطرابلس، وصور.

وفي «ديوان أبـي الحسن التهامي» إشارات ولمحات يمكن أن تخدم بعض المعلومات التاريخية

وغيرها، أو تؤكّدها. وبما أن دراستنا تقتصر على نطاق «ساحل الشام» الذي يشتمل «جغرافياً» على «لبنان»، فإنّنا يمكن أن نضع تأريخاً تقريبياً لدخول التِهاميّ مدينة طرابلس، وهو يقع في الفترة بين سنتي ٣٨٥ ــ ٤٠٢هـ. / ٩٩٥ ــ ١٠١١م. وهي الفترة التي برز فيها على مسرح الأحداث دور قاضٍ من أهل مدينة طرابلس يُدعى «أبو الحسين علي بن عبدالواحد بن حيدرة»، وكان هذا القاضي من أهمّ شخصيّات المدينة الذين التقاهم التهاميّ ومدحهم بشعره.

ففي الديوان:

ــ قصيدتان في مدح القاضي أبي الحسين علي بن حيدرة (صفحة ١٠).

ــ وقصيدة واحدة في مدح أبي يحيى محمد بن حيدرة (صفحة ١٥).

ــ وقصيدة واحدة في مدح أبي محمد حسين بن حيدرة (صفحة ١١١).

ــ وثلاث قصائد في مدح أبي القاسم هبةالله بن حيدرة (صفحة ١٦٠ و ١٧٥ و ١٨٣).

ومن الواضح أنّ القصائد اقتصرت فقط على بعض أفراد أسرة بني حيدرة الطرابلسيّين، وليس في الديوان أيّ قصيدة أخرى بحقّ غيرهم من أهل طرابلس.

وهناك قصيدة واحدة بحقّ أحد الشخصيّات في مدينة صور، هو «محمد بن سلامة»، حتى أنّ هذه المعلومة كاد يعتريها الشكّ، لولا ما جاء في أبيات القصيدة. فقد جاء في الديوان (صفحة ١١١٥) هذا العنوان:

«وقال يمدح أبا محمد بن الحسن بن الجواد في الكوفة، ويقال في محمد بن سلامة بصور».

وجاء في بعض أبيات القصيدة (صفحة ١١٧):

حَسَنُ الشمائل أوحدٌ في حُسْنه
كمحمّد بن سلامةٍ في جُودِهِ

البحر بعضُ حدوده والفضل بعـ
ـض شهوده والنّصرُ بعض جنودِهِ

تبدو إمارات الكريم بوجهه
من بِشْره وحيائه وسجودِهِ

فالقصيدة تؤكّد أنّ الممدوح هو «محمد بن سلامة»، ولكنّ الديوان لا يعرّف به، وهو غير واردٍ في «ديوان عبدالمحسن الصوري»[٣] المعاصر للتهاميّ.

فمن هو إذاً؟

ــ للجواب على ذلك، نقول:

هناك شخص واحد يُحتَمل أن يكون المقصود في الديوان هو «**محمد بن سلامة بن جعفر**. **أبو عبدالله القاضي القضاعِيّ المصري**» الفقيه الشافعي، قاضي الديار المصرية في الدولة الفاطمية، وكان قد نزل صور وطرابلس، فسمع بطرابلس من أبي القاسم حمزة بن عبدالله الشامي الأطرابلسي[٤]. وأبي الحسن لبيب بن عبدالله الأطرابلسي[٥]. وجلس هو للحديث، فحدّث بكتاب «الشهاب» من تصنيفه، فسمعه بها شيخ من أهل جبيل هو «مكّي بن الحسن المعاق السلمي الجُبَيْلي»[٦].

وكان القاضي القضاعي قد ذهب رسولاً إلى القسطنطينية من قِبَل الخليفة الفاطمي، وجاء في «تاريخ دمشق» لابن عساكر ما نصّه:

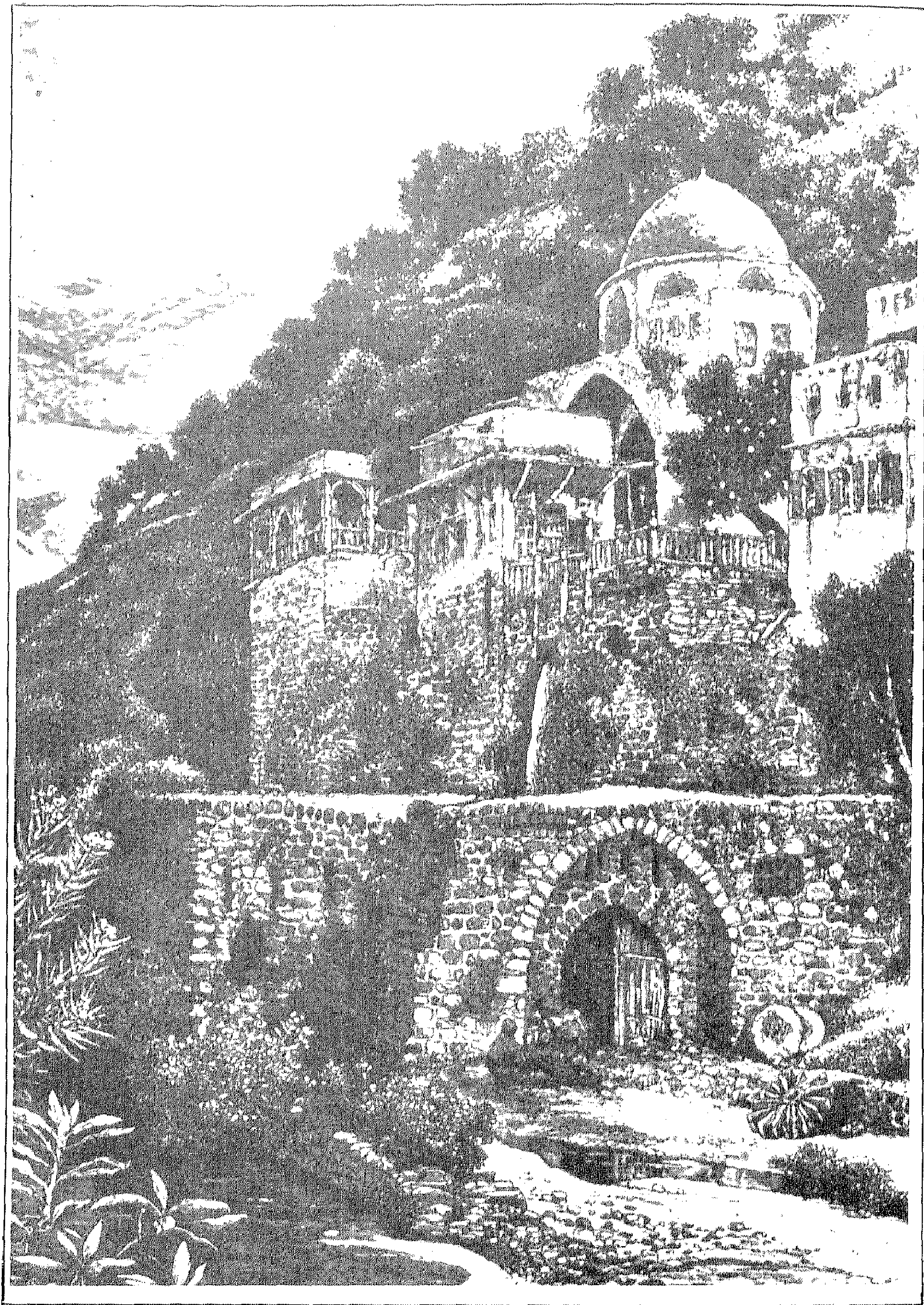
«وقال أبو الفتح نصرالله بن محمد الفقيه: سمعت أبا الفتح نصر بن إبراهيم الزاهد يقول: قدِم علينا القاضي أبو عبدالله القُضَاعِيُّ صُورَ رسولاً للمصريين إلى الروم، فذهب ولم أسمع منه، ثم إنّي رويت عنه بالإجازة، يعني أنه لم يرضه في أوّل الأمر لدخوله في الولاية من قِبَل المصريين...»[٧].

فلعلّ «التهاميّ» التقى بالقُضَاعِيّ في صور وهو في رحلته رسولاً إلى القسطنطينية، وهذا ما نرجّحه.

ونعود مع «التِهاميّ» إلى طرابلس حيث يمدح قاضيها أبا الحسين بن عبدالواحد، ويُعطينا ــ من خلال شعره ــ بعض المعلومات التي يمكن أن نضيفها إلى ما نعرفه عن سيرته من المصادر التاريخية الأخرى.

فمن هو قاضي طرابلس؟

ــ هو: «أبو الحسين علي بن عبدالواحد بن محمد بن أحمد بن الحرّ (حيدرة) بن سليمان بن هزّان بن سليمان بن حيّان بن وبرة المُرّي الأطرابلسي الكُتامي» (انظر شجرة نسبه)



□ طرابلس القديمة.

وهو مغربيّ من قبيلة كُتامة، أشهر القبائل المغربية التي قامت على أكتافها الدعوة الفاطميّة. وكان محدّثاً، أخذ عن محدّث طرابلس ومُسْنِدها الكبير «خيثمة بن سليمان بن حيدرة»[٨] وهو من بني حيدرة، وغيره. وله كتاب روى فيه عن أبيه عبدالواحد. وأسرة حيدرة من الأسر المشهورة بطرابلس في ذلك العصر، ومنها أبناء حيدرة الذين كانوا فيها حين نزلها «أبو الطيّب المتنبيّ» حول سنة ٣٣٦هـ[٩].

وقد لعب القاضي أبو الحسين دوراً مهمّاً في تاريخ طرابلس، وأسهم في هزيمة الإمبراطور البيزنطي «باسيل الثاني» مرّتين، وكان هو «المستولي على النظر في طرابلس وفي سائر الحصون»[١٠]، من نواحي جونية وجبال العاقورة والمُنَيْطرة في الجنوب، حتى نواحي مدينة حلب وإعزاز في الشمال. كما كان له دوره في القضاء على حركة «العلاّقة» في مدينة صور، وتثبيت النفوذ الفاطمي في سواحل الشام. كما أنّ منصبه الديني كقاضٍ، وهو بمثابة داعية فاطمي، كان يجعله متمتّعاً بصلاحيّات واسعة، بحيث تفوق صلاحيات والي المدينة، وقائد جيشها.

وتبدأ المصادر التاريخية بذِكْره في معرض الحملة الأولى للإمبراطور «باسيل» إلى بلاد الشام، في سنة ٣٨٥هـ. / ٩٩٥م. فقد أخرج الخليفة الفاطمي «العزيز» قائده «منجوتكين» إلى حلب لينتزعها من «سعيد الدولة الحمداني»، فأرسل الحمداني يستنجد بالإمبراطور قائلاً في رسالته إليه: «متى أُخذت حلب أُخذت أنطاكية، ومتى أُخذت أنطاكية أُخذت قسطنطينية»[١١].

وعلى الرغم من أنّه كان مشغولاً بالقتال في الجبهة البلغارية فقد قرّر «باسيل» المُضِيَّ بنفسه إلى حلب، فعاد إلى عاصمته القسطنطينية وخرج منها على رأس جيش ضخم قوامه ٤٠ ألفاً، عبر به إقليم الثغور، حيث انضمّت إليه مجموعات كبيرة من عساكرها، ووصل إلى أنطاكية، فصحِبَه «ميخائيل البرجي» بعساكره، ومعه قائده «مليسينوس».

ولما وصل «باسيل» إلى حلب، خرج إليه «سعيد الدولة الحمداني» وجدّد معه معاهدة التحالف بين القسطنطينية وحلب، التي تضمّنت شروطاً في صالح التجّار المسيحيين المقيمين في حلب[١٢]. وأقام «باسيل» يومين عند حلب، ثم رحل في اليوم الثالث، فنزل على شَيْزَر واستولى على حصنها بعد مقاومة صاحبه «منصور بن كراديس»، التي لم تدم سوى يومٍ واحد. وقرّر له مالاً وثياباً مقابل تسليم الحصن، ووضع فيه نوّابه وثِقاته[١٣]. وتحوّل بعد ذلك إلى حمص ففتحها، وكذلك رَفَنِيَّة. ونهب وسبى منهما سبْياً كثيراً، وأحرق وغَنِمَ. وفي طريقه إلى طرابلس أغار على عسكره جماعة من العرب، فأسر عدداً منهم، وواصل سيره حتى نزل على طرابلس وحاصرها. فراسله واليها «ابن نزّال» في جمْعٍ من أهلها لإبرام الاتفاق مع الإمبراطور.

وهنا يبرز دور قاضي طرابلس «ابن حيدرة» على مسرح الأحداث، فيتزعّم حركة الصمود في وجه البيزنطيين، ويقود حملة مناهضة ضد والي المدينة ومَن معه، وينضمّ إليه العسكر والأهالي مُنادين بالجهاد وقتال العدوّ، وطرْدِ واليهم المتخاذل من بين ظَهْرَانِيهم. واتّخذوا قراراً بتعيين آخر مكانه، ولما أراد الوالي العودة إلى البلد، أغلق أهلُها البابَ في وجهه ومنعوه من دخولها، ثم أخرجوا أفراد أسرته إليه، واستعدّوا للقتال. فأقام «باسيل» محاصراً لطرابلس «نيّفاً وأربعين يوماً»[١٤]. وبذل قُصَارَى جهده لفتحها، ولكنّه واجه مقاومةً عنيدةً من المدافعين عنها، ولم يستطع أن ينقب ثغرةً في أسوارها أو يَنَلْ من تحصيناتها. ووصف المؤرّخ «ابن القلانسي» مناعة ثغر طرابلس بقوله: «.. وهو برّي بحري، متين القوّة والحصانة، شديد الامتناع على مُنازِله..».

ولما لم يجد الإمبراطور فرصة في اقتحام طرابلس، رفع حصاره وارتدّ عنها حسيراً مصطحباً «ابن نزّال» معه، فنزل على أَنْطَرسُوس وهي خراب، فعمّر حصنها، وشحنه بأربعة آلاف من الأرمن والمُقاتِلة، ورحل إلى أنطاكية، وهناك عيّن البطريق الدوقس «داميانوس» وأوكل إليه أمر المحافظة على ممتلكات الإمبراطورية في الشرق، وحماية مدينة حلب من النفوذ الفاطمي، ومهاجمة طرابلس التي كانت تمثّل القاعدة

الإسلامية المتقدّمة على ساحل الشام في البرّ والبحر، فقام «داميانوس» بغزوة إليها بعد تعيينه مباشرة «وكبسها ليلاً، وأخذ ربضها، وأسر كثيراً». ثم غزاها ثانية بعد ثلاثة أشهر فوصل إلى عرقة وسبى منها جماعة، وعاد في السنة التالية فغزاها للمرة الثالثة وسبى من بلادها كثيراً. وإزاء هذا، عزم الخليفة «العزيز» أن يخرج بنفسه لقتال البيزنطيين، وأمر بتجهيز حملة برّيّة بقيادة «جيش بن الصمصامة» فدخلت طرابلس، كما أمر بإنشاء أسطول بحري ليسير معه بحراً إلى طرابلس. وفيما كان «العزيز» يحشد العساكر في القاهرة، ورد عليه رسول «سعيد الدولة بن حمدان» يطلب الصفح، فأجيب إلى ذلك، واعترف ابن حمدان بخلافة العزيز.

وبعد طرد «ابن نزّال» من طرابلس، عُيّن «جيش بن الصمصامة» والياً عليها في سنة ٣٨٥هـ. وبضعة أشهر من سنة ٣٨٦هـ. ثم «علي بن جعفر بن فلاح»، ثم الأمير «تميم التنوخي»، ثم «ميسور الصقلبي»(١٥)، فيما كان «ابن حيدرة» يتولّى قضاءها وحكمها. وظلّ دوره بارزاً أكثر من خمسة عشر عاماً.

وحدث في سنة ٣٨٧هـ. / ٩٩٧م. أن ثار أهل دمشق ضد القائد «سليمان بن جعفر» والحكم الفاطمي، وتغلّب الأحداث عليها برئاسة رجل منهم يُعرف بـ «الدهيقين». وقامت في السنة ذاتها ثورة في مدينة صور، وعصى أحداثُها ورُعاعُها على «الحاكم بأمر الله»، وأمّروا عليهم رجلاً ملاّحاً من رجال البحريّة يُعرف بـ «العلاّقة» وقتلوا أصحاب الخليفة وموظّفيه. وقام «العلاّقة» بضرب السّكّة باسمه، ونقش عليها: «عزّ بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير علاّقة»(١٦).

واتّفق أن «المفرّج بن دغفل بن الجرّاح» الذي كان متواطئاً مع «هفتكين» السلجوقي المتولّي على دمشق نزل في ذلك الوقت على مدينة الرملة، ونهب ما كان في السّواد، وأطلق يد العَيْث في البلاد. فاستغلّ الإمبراطور «باسيل» هذه الاضطرابات التي تشهدها الشام، وانحسار النفوذ الفاطمي، لتحقيق أطماعه التوسّعية، وراح يبذل جهده لتأليب أصحاب مدن الشام على الخليفة الفاطمي ليبثّ الفُرْقة بين القوى الإسلامية، وأمر قائده على انطاكية «داميانوس» ليقوم بالغارة على أراضي المسلمين. إلاّ أنّ أطماع «باسيل» لم تتحقّق، إذ غادر «الدهيقين» دمشق إلى مصر طائعاً، وعادت دمشق للفاطميين، وسُحقت حركة العلاّقة في صور، واستسلم ابن الجرّاح للقوات الفاطمية، ولقي «داميانوس» ــ أخيراً ــ مصرعه، وانهزمت قوّاته.

وقد أسهم القاضي «ابن حيدرة» بشكل مباشر في:

١ ــ القضاء على حركة العلاّقة بصور في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٨٨هـ. / ٩٩٨م.

٢ ــ مقاتلة «داميانوس» عند «أفامية»، وإلحاق الهزيمة بالبيزنطيين بعد مصرع قائدهم، في السنة نفسها.

٣ ــ هزيمة الإمبراطور «باسيل» للمرّة الثانية عند أسوار طرابلس في أول سنة ٣٩٠هـ. / ٩٩٩م.

فعلى جبهة صور، خرج «ابن حيدرة» بأسطول طرابلس البحري وتصدّى لمراكب البيزنطيين التي أتت لمساعدة «العلاّقة» في ثورته ضد الفاطميين، كما خرج أسطول فاطمي من صيدا، وتمكّنت المراكب الإسلامية من الانتصار على الأسطول البيزنطي، واستولى المسلمون على مركب من مراكبهم، وقتلوا جميع رجاله، وعدّتهم ١٥٠ رجلاً، وقيل ٢٠٠ رجل(١٧).

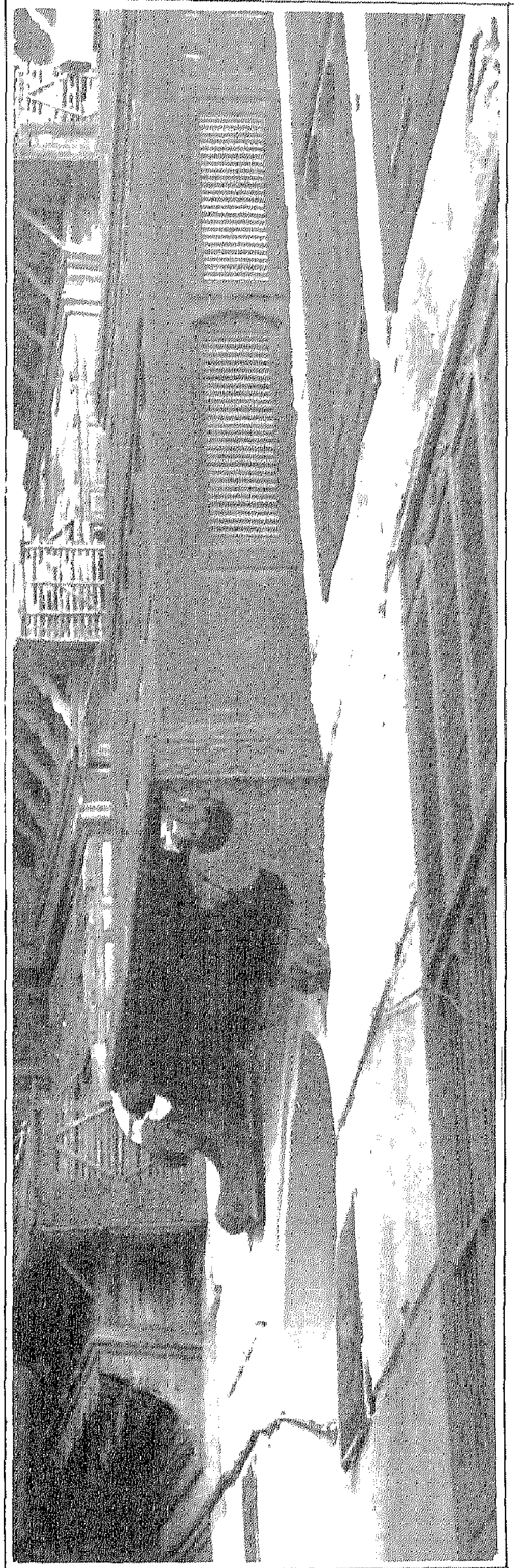
وعلى جبهة «أفامية» عند نهر العاصي، خرج «ابن حيدرة» بجُنْد طرابلس والمتطوّعة من عامّتها، ومعه واليها «ميسور الصقلبيّ»، وانضمّوا إلى «جيش بن الصمصامة» الذي كان يقود جيش الشام، فقاتلوا «داميانوس» وهزموا قوّاته بعد أن كاد يهزمهم، وصرعه أحد المقاتلين الأكراد.

وإزاء خيبة آمال «باسيل» في إضعاف النفوذ الفاطمي، ولما كان مشغولاً في ذلك الوقت بمقاتلة البُلْغار، فقد حرص على تأمين حدود امبراطوريّته الشرقية، ولذا أرسل يطلب عقد هدنة مع الحاكم بأمر الله، ولكن الخليفة لم يُجبْه إلى رغبته بعد أن أحرزت عساكره الانتصارات المتتالية، فعقد «باسيل» العزم على الخروج بحملة جديدة إلى الشام لاسترداد هيبته بعد مقتل قائده وهزيمة قوّاته.

خرج الإمبراطور إلى الشام، بعد أن عيّن قائداً لقوّاته في بُلْغاريا، ونزل بجسر الجديد في شوّال سنة ٣٨٩هـ. / ٩٩٩م. وسار إلى أفامية فمرّ بسهولها حيث قُتل «داميانوس»، وأمر بتشييد كنيسة هناك تخليداً لذكراه. ثم توجّه إلى شَيْزَر فحاصرها حتى اضطر صاحبها «ابن كراديس» لتسليمها له ـ للمرّة الثانية ـ بعد أن قطع عن حصنها الماء، وخرج منها بعساكره، وصَحِبَه عدد كبير من سكّانها، وتوجّهوا إلى حماة وحلب وبعلبك، فشحنها «باسيل» بالأرمن وانتقل منها إلى حصن أبي قبيس، فأخذه بالأمان، ثم راح بعد ذلك يخرّب ويحرق ويدمّر، فخرب حصن مصياف، ونزل على رَفَنِية فأحرقها وسبى أهلها، واستمرّ يحرق ويسبي ويخرب، إلى أن بلغ حمص فنزلها، وأحرق جنوده جماعة من أهلها اعتصموا بكنيسة «مار قسطنطين». ثم انحدر إلى الساحل، فهاجم عرقة وأحرقها، وهدم حصنها، ثم نزل على طرابلس في شهر ذي الحجّة، آخر سنة ٣٨٩هـ. / كانون الأول آخر سنة ٩٩٩م. وزحف عسكره على حصنها في اليوم الثالث لنزوله، فكانوا كناطح صخرة.

ويبدو أنّ الإمبراطور طلب أثناء زحفه من أسطوله البحري أن يأتيه بالمدد، ويساعده على حصار طرابلس، حيث وصل إليه في البحر وهو نازل على طرابلس «شلنديان» يحملان لدوابّه المُؤَن والعَلَف، فتقوّى بها عسكره، إذ كانت دوابّ عسكره قد مات أكثرها في الطريق من حمص لشدّة البرد، وقام ببثّ بعض سراياه على طول الساحل، فاتّجه بعضها إلى جَبَلَة في الشمال، وبعضها إلى جُبَيل وبيروت في الجنوب، فوقع في أيديها كثير من السبي والأسرى المسلمين، وجيء بهم إلى الإمبراطور فشحنهم في الشلنديان، وسيّرهما إلى بلاده لبيعهم رقيقاً في أسواق إزمير، وسالونيكا والقسطنطينية.

ولبث «باسيل» محاصراً لطرابلس ١١ يوماً، وصمد أهلها بقيادة القاضي «ابن حيدرة» وقائد عسكرها «ميسور الصقلبي». وفي هذه الأثناء وصلته السفن الحربية، فقام في اليوم الثاني عشر (الثلاثاء مستهلّ المحرّم سنة ٣٩٠هـ.) بالهجوم



□ البيوت القديمة في جدة.

على المدينة من البرّ والبحر، ونشبت معركة رهيبة على الجبهتين، أسفرت عن هزيمة ساحقة للإمبراطور، ومقتل وجرح عدد كبير من جنوده. وأمام هذه الهزيمة ــ الثانية له أمام طرابلس ــ اضطر أن يُلملم فلوله، ويرحل يوم السبت في الخامس من المحرّم ٣٩٠هـ. / ٢٢ كانون الأول ٩٩٩م. مُنكفئاً إلى بلاده[١٨].

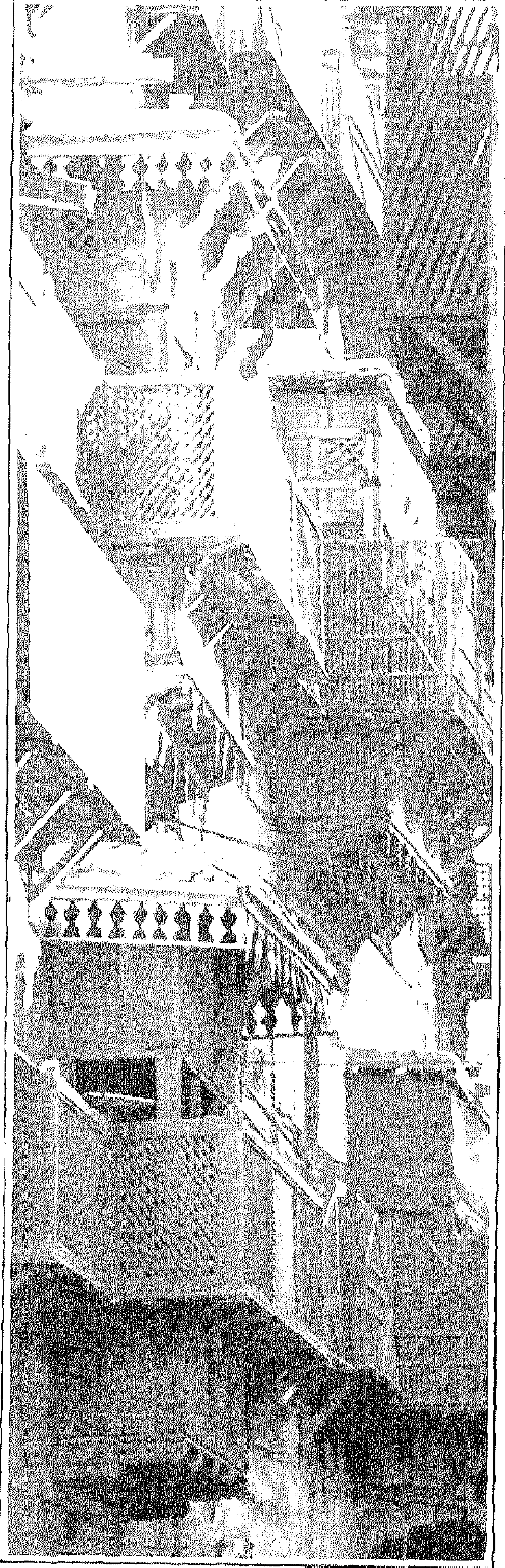
* * *

وحول دور «ابن حيدرة» في النكاية بالبيزنطيين، وتَوَلّيه قيادة طرابلس، يقول «التهامي» في قصيدة مدحه بها:

وإلى ابن عبدالواحد القاضي ارتَمَتْ
بلداً كساحةِ صَدْرِه فَيَساحا..
ما زال هذا الثغرُ ليلاً دامساً
حتى طَلَعْتَ لليله إصْبَاحا
فَجَلَتْ له الأيّامُ بعد عُبُوسها
وجهاً كوجهك مشرقاً وضّاحاً
وحكمت في مُهَجِ العدوّ بحكمة
قرنت برأيك غدوةً ورواحا
فسَفَكْتَ ما كان الصلاحُ بسفكِه
وحقنْتَ بعضَ دمائه استصلاحا
فوُفودُ شُكْر المسلمينَ وغيرُهم
تاتي إليك أعاجماً وفصاحا

وفي هذه القصيدة إشارة إلى أنّ «ابن حيدرة» قام بحملة أخمد فيها حركة لبني كلاب، وهي إحدى أهم القبائل العربية المناوئة للدولة الفاطمية في فلسطين وجنوب «لبنان»، وهذه معلومة لم نجدها في المصادر التاريخية البحتة، حيث يقول «التِهامي»:

غادرتَ أُسْدَ بني كِلاَبٍ أَكلُباً
إذ زُرتَهُم وزئيرُهُنّ نُباحا
فنَسُوا النساء ودمَّرُوا ما دبّروا
ورأوا بقا أرواحهم أرباحا
يتلو هزيمَهُمُ السنانُ كأنّهُ
حَرّانَ يطلُبُ في قِراه قُراحا
والسُمْرُ قد لَفَّتْهُمُ أطرافُها
لفّاً كما اكتنف البَنَانُ الرّاحا
فمُعَفَّرٌ حَسَدَ الحياةَ وهاربٌ
حسدَ الرُفاتُ القبرَ والصُفاحا


□ الزخرفة الإسلامية ــ جدة.

حتى إذا اقتنت القنا أرواحَهم
قتلاً وفرَّقت الصّفاح صفاحا
رفعوا أصابعهم إليك ونَكَّسُوا
أرماحهم فَثَنَيْنَ منك جماحا
وتركتَ أعيُنَهم بـ «صُور» في الوغى
صوراً وقد جاحَ الورى ما جاحا

إلى أن يقول:

أنّىَ تَرُومُ الرومُ حربَك بعدما
صَلَيْتَ بحربك محرَباً ملحاحا
لم يَرْمِ قَطُّ بك الإمامُ مُرادَه
إلّا جَلَوْتَ عن الفلاح فلاحا
ولقد غدوتَ أبا الحسين لجيشه
للقلب قلباً والجناحِ جناحا..

* * *

ويبرز دور «ابن حيدرة» مجدَّداً في تثبيت النفوذ الفاطمي في بلاد الشام الشمالية، حين يلجأ «أبو الهيجاء الحمداني» إلى الإمبراطور «باسيل» فيما يستنجد «مُرْتَضى الدولة منصور بن لؤلؤ الجراحي بالخليفة الحاكم بأمر الله، ويتعهّد بأن يقيم على حلب والياً فاطمياً من قِبَله. فرأى الحاكم في ذلك فرصة مناسبة لتدعيم نفوذه في حلب. وكان يرى أن عودة «أبي الهيجاء» إليها بمثابة عودة النفوذ البيزنطي إلى أهمّ مدن الشام الشمالية، ولذا سارع فأنفذ إلى قاضي طرابلس «ابن حيدرة» وواليها القائد «أبي سعادة» بالتوجّه نحو حلب، فخرجا في عسكر كثيف إليها، فاتّفقت موافاة عسكر طرابلس إلى حلب مع نزول أبي الهيجاء بالقرب منها، وفتح «مرتضى الدولة» باب حلب للقاضي «ابن حيدرة» وأطْلَعَه إلى القلعة، وسأله أن يكتب إلى الحاكم بواقع الحال بوساطة الحمام الزاجل، ولكن القاضي بادر فوراً إلى الخروج للقاء أبي الهيجاء ومن معه من العرب، ووافاهم وقد عوّلوا على الجلوس إلى الطعام، ففاجأهم بالهجوم، وما لبثت القبائل العربية أنْ تخلّت عن أبي الهيجاء، بعد أن كان «مرتضى الدولة» قد بذل لهم الوعود، فانهزم أبو الهيجاء راجعاً إلى بلاد الروم، ونُهب جميع ما كان معه.

وكان في قلعة «إعزاز» غلام من غلمان مرتضى الدولة، مُتَّهَمٌ بأنّه كان يميل إلى أبي الهيجاء، فطلب منه مرتضى الدولة التنازل عن القلعة، فلم يُجِبْه الغلام إلى ذلك، وتملّكه الخوف منه، ولما شدّد مرتضى الدولة طلبه، أجابه الغلام بأنّه لا يسلّم القلعة إلّا إلى قاضي طرابلس. ولما كان «ابن حيدرة» ما يزال عند حلب فقد ذهب إلى القلعة وتسلّمها من الغلام، ثم قام بتسليمها إلى مرتضى الدولة. وكتب إلى الخليفة الحاكم يُطْلِعه على ذلك. وعاد إلى مرتضى الدولة يطلب منه إنجاز وعده الذي قطعه للخليفة بإقامة والٍ فاطمي على حلب، ولكن مرتضى الدولة دافَعَهُ ولم يَبَرّ بوعده[19]. واضطر «ابن حيدرة» أن يعود إلى طرابلس دون أن يحقّق ما كان يرغب به الخليفة.

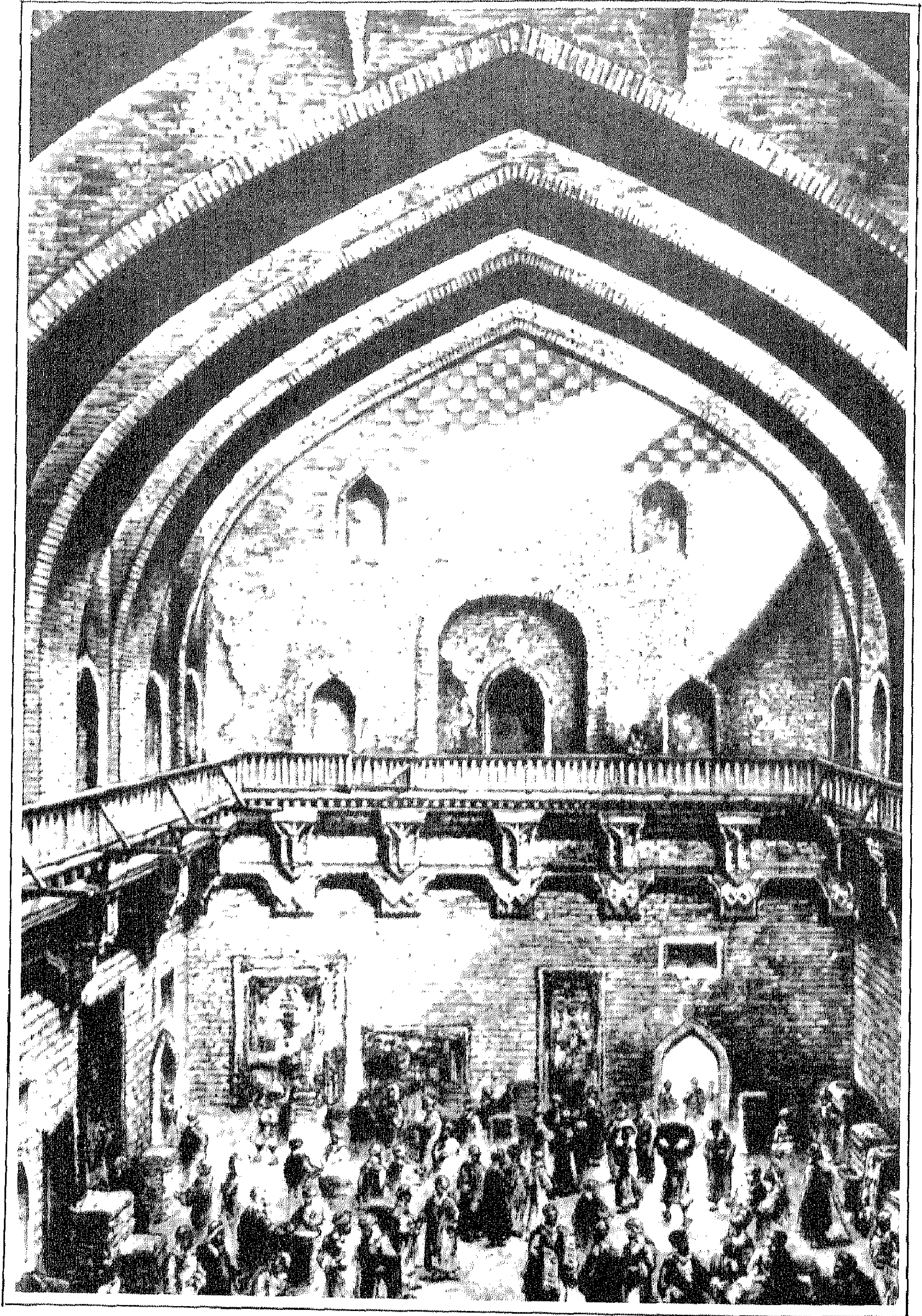
وفي هذه الأثناء ــ أي سنة ٤٠٠هـ. / ١٠٠٩م. ــ كان «التِهاميّ» بطرابلس، فقال يذكر خروج «ابن حيدرة» إلى حلب وعودته منها في القصيدة التي مرّت بعض أبياتها:

شاء المُهَيْمِنُ أنْ تَسيرَ مُشَرِّفاً
حَلَباً فقيَّضَ ما جرى وأتاحا
وأردتَ إصلاحَ الأمورِ فأفسَدَتْ
فنهضْتَ حتى استحكمتْ إصلاحا
كانوا يرُونك مُفْرَداً في جَحفَلٍ
ووراء سورٍ إن نزلتَ بَراحا

ولا شكّ أن هذه القصيدة وأخرى غيرها، كانتا قبل مقتل «ابن حيدرة» بوقت قصير، حيث نَقِم الخليفة الحاكم على القاضي لكونه سلّم قلعة إعزاز لمرتضى الدولة، فبعث إلى طرابلس قائداً وخادمين له فقطعوا رأسه وحملوه إلى مصر في أوّل سنة ٤٠٢هـ[20].

وهكذا خسرت طرابلس قاضياً من أعظم قضاتها الذين أثبتوا صدق ولائهم للخلافة الفاطمية، وكان مثالاً للقُضاة العلماء العاملين، والمجاهدين المنافحين عن كرامة طرابلس الإسلامية ضد الغُزاة الطامعين، والخَوَنَة المستسلمين.

وفي قصيدة ثانية للتِهامي بحق القاضي «ابن حيدرة» نقف على معلومةٍ مَفادُها أن نفوذه كان يصل إلى مدينة صور، وأنّه كان يحسن



□ مركز تجمع لقوافل التجار.

لاهلها رغم انّهم كانوا يتمرّدون على الخلافة من حين لآخر، ولعلّه كان ينتدب من طرابلس من يتولّى تصريف أمورها حين تكون خالية من الوُلاة، حيث يقول «التهامي»:

أغدَى ندى كفَّيه «صورَ» واهلَها
والبدرُ يقلبُ طبع كلّ ظلام
ولو انّ «صوراً» جنّةٌ ما استكثرتْ
وابيك من غلمانه لغلام
يعفو فيفعل حِلمُهُ بعدُوّه
ما تفعل الأسياف بالأجسام
.. من آل حيدرة الذين شعارُهم
فيْضُ الندى الهامي وضربُ الهام
قهروا بحارَ الأرضِ اجمع بالندى
وجبالَها برجاحة الأحلام
يتسنّمون من المعالي مُرْتقىً
عنه تزلّ مواطىء الأقدام
يتتابعون إلى العلاء تتابُعاً
كتتابُع الاقدام في الإقدام
يقعون من هذا الزمان وأهله
كمواقع الأعياد في الأيّام
ألفَيْتُ منهم في طرابلس نَدَى
ترك الكرام لديّ غير كرام..

ويضيف «التهاميّ» أيضاً إلى معلوماتنا معرفة أحد أبناء القاضي «ابن حيدرة» هو : «أبو يحيى محمد بن علي بن حيدرة» حيث لم نجده وارداً في المصادر الأخرى، ويُكنيه «أبا القاسم»، ويتّضح انّه أوْسَطُ أبناءِ القاضي، وأنّ التهاميّ مدحه بعد وفاة أبيه، أي بعد سنة ٤٠٢هـ. / ١٠١١م. فيقول من قصيدة (صفحة ١٩):

فتىً يفعلُ المكرُماتِ الجسام
ويسترهنّ كستر الرِّيَبْ
توسّطَ مجدَ بني المغربيّ
كما وُسِّطَ القلبُ بين الحُجُبْ
هُمُ أورثوا الفضل ابناءهم
وغابوا وفضلُهمُ لم يغبْ
.. ابا قاسمٍ حُزْتَ صفْوَ الكلام
وغادرت ما بعده للعربْ
فليس كلامُك إلّا النجومَ
علوت فناثَرْتها من كَثَبْ

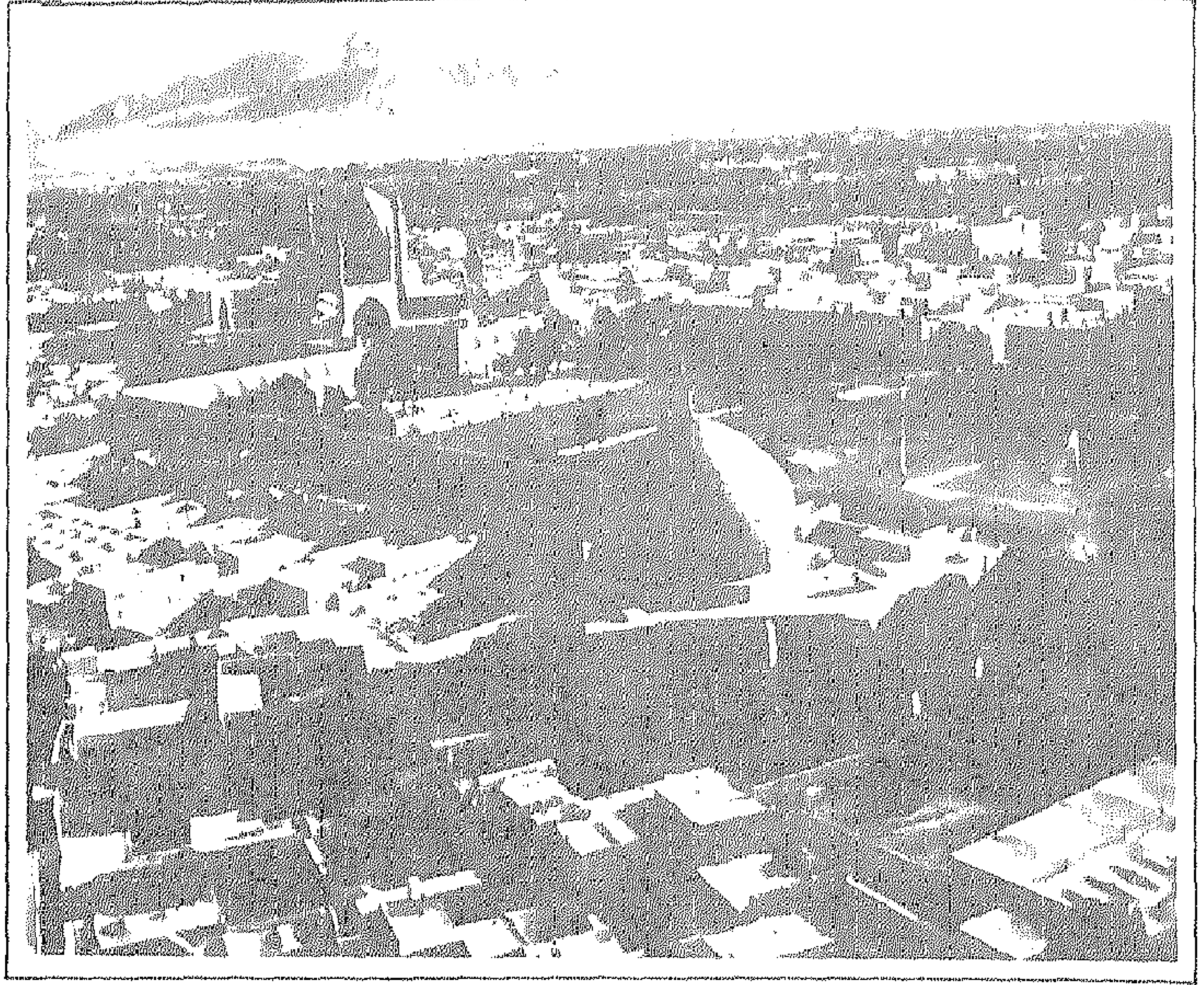
كما يؤكّد «التهاميّ» معرفتنا بأبنٍ آخرَ لقاضي طرابلس، هو «أبو محمد الحسين بن علي بن حيدرة»، ونحن لا نعرف عنه شيئاً من المصادر الأخرى، حتى أن «ابن عساكر» الذي يترجم لجميع الشاميين في عصره وما قبله لم يورد عنه شيئاً، بل ذكره في معرض ترجمة أبيه فحسب، دون ترجمة، ونتبيّن من قصيدة «التهاميّ» بحقّه انّه كان رئيساً لطرابلس، فلعلّه خلف أباه في منصبه، حيث يقول:

يا صاحِ إنّ الدهر قدّم بالغِنَى
وغداً فما ادناك من ميعادِه
هذي طرابلسُ وما دون الغِنَى
إلّا نداؤك بالحسين فنادِه
شفع ابن حيدرةٍ على ثانيه في
هذا الزمان وكان من افرادِه
بأبي محمّد الذي تاوي العُلَى
ما بين قائمِ سيْفه ونجادِه
.. مُتجلّلاً ثوبُ الرئاسة مُعْلماً
ببهائه ووفائه وسَدادِه
حاز العَلاء بجدّه وبجَدّه
فاختال بين طريفه وبَلادِه
لم يجعل الآباء مُتَّكَلاً ولا
آباؤه اتّكلوا على أجدادِه

ومنها:

كم جحفلٍ غادرتَ فيه وديعةً
قَصَباً من الخطّي[٢١] في أجساده
اما الإمام[٢٢] فشاكرٌ لك أنْعُماً
عَمَّتْ جميعَ عباده وبلاده
كم طُرِّزَتْ ارضُ العدوّ دماً إذا
طرَّزْتَ طِرْسَك نحوهم بمداده
خفَّفْتَ بالأقلام عن أرماحه
وبمُحْكَمِ الآراء عن اجنادِه
لما عَلَوْتَ الناس جُدْتَ عليهمُ
والطَّوْدُ يقذف ماءه لِوِهادِه
حيّاك من ذي سُؤدد ورعاك مَن
احياك واسترعاك امرَ عبادِه

وأخيراً، يؤكّد «التهاميّ» معرفتنا بأبي القاسم هبةالله بن علي بن حيدرة،



□ اصفهان.. ومسجدها «لطف الله».

وهو أيضاً من أبناء قاضي طرابلس، ولم يرد ذكره في المصادر التاريخية، بل ورد فقط في ديوان عبدالمحسن الصوري[٢٣]، وفي ديوان التهامي. وقد أنشد فيه «الصوري» قصيدة واحدة، ولم نعرف منه المنصبَ الذي كان يشغله «هبةالله» أما «التهامي» فيُنشد فيه ثلاث قصائد، نفهم من بعض أبياتها أنّه كان يتولّى الحكم والقضاء في عهد الحاكم بأمر الله مثل أبيه وأخيه، فيقول من قصيدة (صفحة ١٧٥):

ما بالُ طَرْفِك لا تنجو رَمِيَّتُهُ
كأنَّما هو رامٍ من بني ثعلِ
صَدَّت بنجدٍ وزارتْ في طرابلس
وبيننا عنق للسفن والإبل
تنقادُ نحو هَوَاهُنَّ القلوبُ كما إذ
قادتْ إلى هبةِاللَّهِ العُلَى بنِ علي
يُـزَيِّنُ الدولةَ الغـرَّاءَ مـوضعُـهُ
إذا تَـزَيَّـنَـتِ الأملاك بالدول
يقضي بحكم الهُدَى في المشكلات كما
يقضي بحُكْم الظُّبَى في ساعة الوهل
قد حالف الفضلَ في احكامه أبداً
والعدلُ خير اقتناء الفارس البطل
قد أَحْكَمَ الحاكمُ المنصورُ دولتَهُ
بآل حَيْدَرَةٍ في السهل والجبل
تاهت بهم دولةُ الإسلام واعتدلتْ
بعزمهم كاعتدال الشمس في الحمل
شادوا وسادوا بما يبنون من كرم
اساسَ مجدهم المستحكم الأزلي
تشابَهُوا في اختلاف من زمانهم
عند اللُّهَى والنُّهَى والقول والعمل

ويُفهم من بقيّة أبيات القصيدة أن «التهاميّ» أنشدها قبل مقتل القاضي «ابن حيدرة»، حيث يقول في ابنه «هبةالله»:

تَبِعْتَ في الجُود والعَلْيا أباك ولم
تكذِبْ كما تبعَ الوَسْمِيَّ صَوْبُ ولي
حَلَّيْتُما الدِّينَ والدنيا بعزِّكما
فلا اذلَّهما الرحمنُ بالعُطُل
ولا راينا بعينَيْ دهرِنا رَمَداً
فانتما في مآقيه من الكحَل
و «عشتما» ابداً في ظلِّ مملكة
قد استعاذتْ من التغيير والدول

ويختصر «التهاميّ» الأنعام التي أنعم بها عليه «هبةالله» بهذا البيت من قصيدة (صفحة ١٦٠):

منه مالي ورَحْلَتي وعِدادي
وجوادي وحُلَّتي وسِلاحي

شجرة نسب بني حيدرة
ابو النَّضْر وَبْرَة المُزِّي القُرَشي
صاحب ابـي بكر الصّدّيق ومولى عمر بن الخطّاب

حيّـــان

سليمان

هزّان — خيثمة

(هزّان) سليمان

حيدرة ـــ الحُرّ

أحمد — سليمان

(أحمد): الحسن — محمّد

(الحسن): حيدرة — الحسين

(محمّد): الحسين (القاضي) توفي ٣٣٠هـ. — أبو الفضل عبدالواحد

(الحسين القاضي): أبو بكر عبدالله

(أبو الفضل عبدالواحد): أحمد — ابو الحسين علي قاضي طرابلس (قتل آخر ٤٠١هـ.)

(أحمد): الحسين

(أبو الحسين علي): أبو المعالي . أبو محمد الحسين . أبو يحيـى محمد . أبو القاسم هبة الله . المظفّر أبو الفرج

(أبو محمد الحسين): محمد

(سليمان): أبو علي محمد (توفي ٣٥٠هـ.) — خيثمة (٢٥٠ ـــ ٣٤٣هـ.)

(خيثمة): أبو بكر عبدالله — سليمان

المصادر والحواشي

(١) وفيات الأعيان ٣/٣٧٨ ـــ ٣٨١ رقم ٤٧١، تتمّة يتيمة الدهر للثعالبي ١/٣٧، العبر للذهبي ٣/١٢٣، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٤/٢٦٣، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣/٢٠٤، تكملة تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٤٧، سِيَر أعلام النبلاء للذهبي (مخطوط) ١١/٨٤، ٨٥، تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط الظاهرية ١٢/٢٦٩ب ـــ ١٢٧٠، البداية والنهاية لابن كثير ١٢/١٩، ٢٠، مرآة الجنان لليافعي ٣/٢٩، ٣٠، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠/٤٤٣، كشف الظنون لحاجي خليفة ٧٧١، القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله ١/٥٠٤، معجم المؤلّفين لكحّالة ٧/٢١٩، الأعلام للزركلي ٥/١٤٥، ١٤٦، فهرس مخطوطات الظاهرية (الشعر) للدكتور عزّة حسن ١٢٥، منتخبات ادبية وتاريخية (مخطوط) للوائلي (نسخة السيد سالم الزيني بطرابلس) ٢٦٥، ٢٦٦، وانظر مقدّمة الديوان لمحقّقه زهير الشاويش ـــ الطبعة الثانية ـــ المكتب الإسلامي.

(٢) انظر: أبو الحسن علي بن محمد التهامي، حياته وشعره ـــ للدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع ـــ صدر عن مكتبة المعارف بالرياض، ١٤٠٠هـ. / ١٩٨٠م.، و «الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري» للدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي. ساعدت الجامعة الأردنية على نشره، وطبع في عمّان ١٣٩٧هـ. / ١٩٧٧م.

(٣) هو: «عبدالمحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري» صدر ديوانه في جزءين، بتحقيق: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، عن وزارة الثقافة والإعلام بالعراق في سلسلة كتب التراث، رقم (٩٧) ١٩٨٠ و (١٠٦) ١٩٨١ وفيه معلومات كثيرة تفيد في كتابة تاريخ «لبنان» وساحل الشام في العصر الفاطمي.

(٤) له ترجمة في «موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي» التي تصدر لنا قريباً عن المركز الإسلامي في بيروت ـــ القسم الأول ـــ الجزء ٣ ـــ رقم الترجمة ٥٣٥ ـــ صفحة ١٨٥.

(٥) انظر عنه: «موسوعة علماء المسلمين..» ـــ القسم الأول ـــ الجزء الرابع ـــ رقم الترجمة ١٢٣٤ ـــ ص ٤٠.

(٦) انظر عنه: «موسوعة علماء المسلمين..» ـــ القسم الثاني ـــ الجزء العاشر ـــ رقم الترجمة ١٢٧٦ ـــ ص ٢٦١.

(٧) انظر عنه: تاريخ دمشق لابن عساكر (المخطوط في دار الكتب المصرية ـــ تيمور) ٣٧/٦٦٠ و ٣٨/٣، تهذيب تاريخ دمشق ٤/٤٤٤، معجم السفر للسِّلَفي (مصوّرة دار الكتب المصرية) ٢/٣٧٦، العبر للذهبي ٣/٢٣٢، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠/٢٣، مرآة الجنان لليافعي ٣/٧٥، المُقَفَّى للمقريزي (مخطوط دار الكتب المصرية) ١/٢٧٧، الوافي بالوفيات للصفدي ٣/١١٦، وفيات الأعيان لابن خلّكان ٣/٣٤٩، إتّعاظ الحنفا للمقريزي ٢/٢٦٧، الدرّة المُضيّة لابن أيبك ٣١٣، طبقات الشافعية الكبرى للسُّبْكي ٣/٦٢، اللباب لابن الأثير ٢/٢٦٩، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٣١٢، ٣١٣ و ١/٣١، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٢/١٩٠، طبقات المفسِّرين للداودي ٢/١٥٢، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢٧ب، التاج المكلّل للقونوي ١١١، حسن المحاضرة للسيوطي ١/٤٠٣، شذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٩٣، دول الإسلام للذهبي ١/٢٦٧، سير أعلام النبلاء للذهبي (مخطوط).١١/١٦٨، ١٦٩، كشف الظنون لحاجي خليفة ١٦٥ و ١٧٢ و ٢٩٣ و ٧١٥ و ٧٤٥ و ١٠٦٧ و ١١٨٨ و ١٦٢٢ و ١٦٨٤، إيضاح المكنون للبغدادي ١/٤٦٢، ٢/٤٨٢، هدية العارفين للبغدادي ٢/٧١، الأعلام للزركلي ٧/١٦، ١٧، بدائع الزهور لابن إياس ١/٢١٩، معجم المؤلفين لكحّالة ١٠/٤٣، وانظر لنا: «موسوعة علماء المسلمين..» ـــ القسم الأول ـــ الجزء الرابع ـــ رقم الترجمة ١٤٢٢ ـــ صفحة ١٨٦.

(٨) انظر لنا كتاباً بعنوان «من حديث خَيْثَمَةَ بن سليمان القُرَشي الأطرابلسي (٢٥٠ ـــ ٣٤٣هـ.)» صدر عن دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٠هـ. / ١٩٨٠م. وفيه ترجمة واسعة للمحدّث وتحقيق لأربع مخطوطات من الظاهرية بدمشق ومكتبة جستر بيتي بدبلن.

(٩) انظر حول ذلك: ديوان المتنبّي ـــ تحقيق د. عبدالوهاب عزّام ٢١٦، ٢١٧، وكتابنا: «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور» ـــ ج ١/١٧٩ ـــ طبعة دار البلاد بطرابلس ١٩٧٨.

(١٠) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ١/٢١٠.

(١١) ذيل تجارب الأمم للروذْرَاوَري ٣/٣١٩، ٣٢٠، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٤/١٢٠.

(١٢) الدولة البيزنطية للدكتور السيد الباز العريني ٥٨٤.

(١٣) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٣، النجوم الزاهرة ٤/١٢١.

(١٤) ذيل تاريخ دمشق ٤٣.

(١٥) راجع تعاقب ولاياتهم في كتابنا «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري» ـــ ج ١/٢٠٧ ـــ ٢١٠.

(١٦) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (مخطوط دار الكتب المصرية) ـــ مجلّد ٢٨.

(١٧) ابن القلانسي ٥٠، ابن الأنطاكي ١/١٨١.

(١٨) الأنطاكي ١/١٨٣، ١٨٤، الدولة البيزنطية ٥٩١، الروم وصلاتهم بالعرب ـــ د. أسد رستم ٢/٥٧، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ـــ د. محمد حمدي المناوي ـــ ص ٢٢١ ـــ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٠، رصيد التاريخ ـــ رينيه غروسّه ـــ ترجمة محمد خليل باشا ـــ ٢/١٠١ طبعة القاهرة.

(١٩) الأنطاكي ١/٢١١، زبدة الحلب لابن العديم الحلبي ١/٢٠٠.

(٢٠) الأنطاكي، زبدة الحلب، تاريخ الإسلام للذهبي (مخطوط دار الكتب المصرية) مجلّد ٢١/١٠، العبر ٣/٧٥، مرآة الجنان ٣/٣ وانظر عنه كتابنا «الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى» ـــ ص ٢٨٤، ٢٨٥، صدر عن دار فلسطين للتأليف والترجمة، بيروت ١٩٧٣، و «موسوعة علماء المسلمين..» ـــ القسم الأول ـــ الجزء الثالث ـــ رقم الترجمة ١٠٩٨ ـــ ص ٣٤٦.

(٢١) الخَطّي: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع ببلاد البحرين تُنسب إليه الرماح الخطية لأنها تباع فيه.

(٢٢) الإمام: يقصد به الخليفة الفاطمي، حيث يُعبِّر عنه بالإمام عند الشيعة.

(٢٣) الديوان ١/٣٧٩.



الآداب الطبية عند العرب

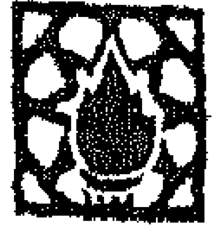
د. فريد سامي حداد



□ ابن سينا.

الآداب الطبية مجموعة من القواعد المسلكية وضعها الأطباء ونقحوها وزادوا عليها على مرّ العصور، حتى أصبحت نبراساً ينير سبيلهم في أعمالهم المهنية، وتذكرهم دائماً بمسؤولياتهم وواجباتهم نحو المريض ووجوب المحافظة على شرف مهنة الطب، وتحثهم دائماً على السمو الأخلاقي نحو أهداف جليلة سامية نبيلة جاعلين الخير العام هدفهم والضمير المتقد هداهم.

وضعت هذه القواعد الأخلاقية في أشكال مختلفة واتخذت على مر العصور والأزمان حللاً متنوعة مثل «شرعة حمورابـي» و «قسم أبقراط»... الخ.. أما حديثاً فقد وضعت النقابات وفي بعض البلدان الحكومات، نصوصاً قانونية تحافظ عليها وترعاها وتنفذ مضمونها مجالس تأديبية تابعة لنقابات الأطباء أو لهيئات أو منظمات مهنية مماثلة، فتصدر القرارات التأديبية بحق المخالفين من الأطباء.



ينبغي لمن أراد أن يدرس الآداب الطبية عند العرب وتاريخها أن يعتمد ثلاثة مصادر مهمة ترجع جميعها إلى أطباء العرب أنفسهم. وأول هذه المصادر، ما تركه أولئك الأطباء من مقالات وكتب في هذا الموضوع، وثانيها ما تضمنته سيرهم من أخبار وأعمال تدل على مدى آدابهم، وثالثها ما قام به الأطباء يؤازرهم الخلفاء والأمراء والوزراء والحكام وغيرهم، من تأسيس المصحات وإجراء الجرايات الواسعة لها، ووضع قوانين إجازات ممارسة مهنة الطب والفحوصات المؤدية لها، والمباشرة بالأعمال الطبية الصحية الجليلة كافة التي تعكس مدى اهتمام المدنية العربية بالأخلاق عموماً، وبالآداب الطبية بنوع خاص.

تآليف الأطبّاء العَرب في الآداب الطبيّة

كتب عدد من أطباء العرب في موضوع الآداب الطبية وألفوا فيه رسائل وكتباً عديدة نذكر منهم: «الكندي»، و «يوحنا بن ماسويه»، و «حنين بن إسحاق»، و «الرهاوي»، و «أسحق بن سليمان»، و «علي بن سهل الطبري»، و «الرازي»، و «المجوسي»، و «الزهراوي»، و «ابن سينا»، و «علي بن رضوان»، و «موسى بن ميمون القرطبي» و «عبداللطيف البغدادي» وغيرهم.

فالرهاوي مثلاً، وهو من أطباء الرهى في القرن التاسع الميلادي، ترك لنا كتاباً في أدب الطبيب يقع في ٢٢٣ صفحة، ويتضمن عشرين فصلاً. كان الكتاب مفقوداً حتى عثر مؤخراً على نسخة منه في المكتبة السليمية في «أدرنة» في تركيا، فنشرت منه ترجمة إنكليزية دون النص العربي.

يتطرق «الرهاوي» في كتابه هذا إلى شتى نواحي أدب الطبيب، فهو يبحث في الرأفة التي يجب أن يتحلى بها الطبيب والتفهم العميق لمآسي مرضاه، وفي أخلاق الطبيب الحميدة والاعتدال، وكبح الشهوات والارتداد عن ملذات الدنيا.

ويفرد فصلاً كاملاً يبحث في حرمة الطبيب والطب، وفصلاً ثانياً لشؤون بدن الطبيب من طهارة ونظافة وملبس وسلوك أمام عامة الناس. ثم يتناول ضرورة متابعة قراءة الكتب والاجتماع إلى أهل العلم والاستفادة من اقوال الأطباء القدماء وتعاليم الدين. ويفرد فصلا للبحث في ضرورة تدوين مشاهدات الطبيب السريرية كأعراض المرض وعلامات الأمراض وتشخيصها وعلاجها. ويكتب عن ضرورة التخصص والاختصاص ووجوب الامتناع عن معالجة الأمراض التي لا تدخل في حقل اختصاص الطبيب.

ويذكر «الرهاوي» في أمكنة كثيرة من كتابه أمثالاً عن حوادث رآها أو وقعت له تدل على أنه كان طبيباً ممارساً ممتازاً. وتراه يستشهد بأقوال الكثيرين من قدماء الأطباء كأبقراط، وأرسطو، وسقراط، وجالينوس، والكندي، وحنين بن اسحق، وغيرهم. كما أنه كان يأتي على جميع جزئيات الآداب الطبية وتفاصيلها متوخياً في كل ذلك إظهار أهمية الأخلاق باعتبارها أساساً يبني عليه الطبيب مهنته.

أما علي بن سهل الطبري: (٧٧٥ ــ ٨٥٠م) معلم الرازي، فيقول في كتابه «فردوس الحكمة» وهو من أوّل كتب الطب عند العرب:

«قد اجتمعت للأطباء خمس خصال لم يجتمعن لغيرهم، أولها الاهتمام الدائم بما يرجون به إدخال الراحة على الناس كلهم، والثانية معرفتهم أمراضاً وأسقاماً غائبة عن ابصارهم، والثالثة إقرار الملوك والسوقة بالحاجة إليهم، والرابعة اتفاق الأمم كلها على تفضيل صناعتهم، والخامسة الاسم المشتق من اسم الله لهم[1]. فعلى قدر الصناعة ورفع مرتبتها وعام منفعتها ينبغي أن تكون همم أهلها، فإنه لن يستحق أحد اسم الكمال فيها إلا بأربع خصال هن: الرفق، والقناعة، والرحمة، والعفاف. وأن يكون مع هذا أرق على المريض من أهله، وأخف مؤونة عليه من نفسه. وأن يجعل همته في الفعل دون القول لأن زيادة الفعل على القول مكرمة، وزيادة القول على الفعل منقصة، ويكون حرصه على جميل الذكر والأجر لا على الاكتساب والجمع، ويختار في كل شيء أفضله وأعدله، ولا يكون قدماً ولا مكثاراً ولا خفيفاً ولا مستثقلاً ولا منتهكاً ولا سهك البدن ولا مفرط الطيب ولا محقور اللباس ولا مشهوراً ولا معجباً بنفسه مستطيلاً على غيره محباً لسقطات أهل صناعته،

(١) ربما يقصد «الطبري» بذلك اسمه تعالى «الحكيم».

بل يستر زلاتهم ويحوطهم. فإنه إذا فعل ذلك طاب ذكره وظهر فضله».

وقال الطبري أيضاً: «قد ينبغي للطبيب أن يكون فهماً فطناً متأتياً لتهوين العلة وتقوية المريض، فربما توهم الرجل العلة واعتل ويسمع من الطبيب ما يحب فيقوى، ويسمع ما يكره فيزداد ضعفاً».

ثم يقول عن لسان أطباء الهند: «قالوا أن الذي يصلح من التلامذة للطب من كان حسيناً ذاهناً، ويجب عليه أن يكون وقوراً رحيماً جواداً رقيق الأطراف صبوراً على التعب، تاركاً للهوى والعجب والحسد والشره والكذب والغضب والنميمة والكسل نظيفاً عفيفاً رفيقاً، وأن يلهم نفسه الاقتدار على الأدب، وأن يأتي على آخره ولا يمل ولا يضعف».

وأما الرازي (٨٥٠ ــ ٩٣٢م) فكان طبيب العرب الأول كريماً متفضلاً، باراً بالناس، حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم، وكان يجل الطب إجلالاً كبيراً كما يظهر من أكثر أقواله المأثورة: «على الطبيب ان يطمع في شفاء مريضه أكثر من رغبته في نيل أجوره، وعليه أن يفضل معالجة الفقراء على معالجة الأغنياء».

وأما علي بن عباس المجوسي (٩٩٤م) فقد افاض في كتابه الشهير «كامل الصناعة الطبية» بضرورة المحافظة على شرف المهنة، موصياً الطبيب بضرورة احترام أساتذته وأبناء أساتذته مقدماً لهم جميع الواجبات، مقدراً جهودهم في تهذيبه وتعليمه هذه المهنة الشريفة. كما أوصى الطبيب بضرورة المعالجة بإخلاص، وفي ذلك يقول: «ينبغي لمن أراد أن يكون طبيباً فاضلاً عالماً أن يقتدي بوصايا أبقراط الحكيم التي اوصى بها في عهده إلى المتطببين وأن يجتهد في مداواة المرضى وحسن تدبيرهم. ولا يكون غرضه في مداواتهم طلب المال لكن الأجر والثواب. وأن لا يعطي لأحد دواء قتالاً ولا يصفه له ولا يدل عليه ولا ينطق به. ولا يدفع إلى النساء دواء لإسقاط الأجنة ولا يذكره لأحد».

وقال: «ينبغي للطبيب أن يكون طاهراً ذكياً ديّناً مراقباً لله عز وجل رقيق اللسان محمود الطريقة متباعداً عن كل نجس ودنس وفجور».

وقال: «... ينبغي أن لا يفشي للمرضى سراً ولا يطلع عليه قريباً أو بعيداً فإن كثيراً من المرضى يعرض لهم أمراض يكتمونها عن آبائهم وأهاليهم ويفشونها للطبيب.. ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الحذاق من الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكراً لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ومما يدل عليه من الخير والشر، فإنه إذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغاً حسناً ووثق به الناس ومالوا إليه ونال المحبة والكرامة منهم والذكر الجميل، ولم يعدم ذلك المنفعة والفائدة من قبلهم».

وأما علي بن رضوان (٩٩٨ ــ ١٠٦١م)، وهو من أطباء مصر، فقد ألف كتاباً أسماه «شرف الطبيب»، يقول فيه: «.. اجتهد في حال تصرفي في التواضع والمداواة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج، واجعل قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة.

وأنفق من تحصيلي على منزلي، فما فضل بعد ذلك كله صرفته في وجوه الجميل والمنافع مثل إعطاء الأهل والأخوان والجيران، وألزم الصمت أكف اللسان عن معايب الناس واجتهد أن لا أتكلم إلا بما ينبغي.

ومن عاملته، عاملته يداً بيد لا أسلف ولا أتسلف.. إن طلب مني أحد سلفاً وهبت منه ولم أرد منه عوضاً».

ثم يقول:

«الطبيب على رأي أبقراط هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال، وهي أن يكون:

* تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الروية عاقلاً ذكوراً خير الطبع.
* حسن الملبس طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.
* كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم.
* رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

□ عملية قيصرية من مخطوطة للبيروني.

* حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

* سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي يشاهدها في منازل الأعلاء، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

* مأموناً ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

ويُعطينا «ابن رضوان» نصاً من «قسم أبقراط»، وضعه هو وأدخل عليه بكثير من الحذق بعض الزيادات المهمة التي لا يتضمنها نص أبقراط الأصلي، منها قوله: «أن على الطبيب أن يكون حسن الملبس وطيب الرائحة نظيف البدن والثوب، وأن تكون رغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء، وأن يكون حريصاً على التعليم».

ويسمو ابن رضوان إلى أسمى مرتفعات الأخلاق، حين يقول: «واجعل قصدي كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة».

وأما عبداللطيف البغدادي، (١١٦٢ ــ ١٢٣١م) «وهو من الأطباء الذين طافوا أقطاراً عديدة وتركوا لنا كتابات مفيدة وممتعة، فيقول:

«ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذ أويت إلى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها، وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات وتسأل الله الإعانة على ذلك».

ويقول أيضاً: «لا تظن أنك إذا حصلت علماً فقد اكتفيت، بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر، واشتغال المبتدىء بالتحفظ والتعلم ومباحثة الأقران، واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف».

وقال: «ينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم».

وهكذا، نرى عبداللطيف «عصرياً» في نظرته إلى الطبيب وتصوره للطبيب الأمثل فإنه يشدد على وجوب البناء على أسس متينة مستوحاة من الاختبارات السابقة ولكنه كذلك يعلق أهمية بالغة على الاستمرار في الدرس والاستزادة في المعرفة والمطالعة.

أخبارُ الأطبّاء العرب

تصور لنا بعض أخبار الأطباء العرب التي وصلت إلينا عن طريق الكتب العربية التي تبحث في تاريخ الطب عند العرب وفي سير الأطباء العرب، تصور لنا هذه الأخبار شخصية الطبيب العربي أجمل تصوير وتقربه إلينا، جاعلة منه رجلاً فذا سامي الأخلاق رفيع الشأن حسن السلوك. ونقتصر في هذا البحث على عرض بعض الأمثلة عن هذه الأخبار.

فالرازي، مثلاً، يقول عنه الطبيب المؤرخ «ابن أبي أصيبعة»: «.. إنه كان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة».

كما كان أمين الدولة ابن التلميذ (١٠٧١ ــ ١١٦٥م) ساعور المرستان العضدي في بغداد أيام المستضيء، لا يقبل عطية إلا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك النائية داره مرض مزمن، فقيل له: «ليس لك إلا ابن التلميذ، ولا يقصد أحداً، فقال: «أنا أتوجه إليه». فلما وصل، أفرد له ولغلمانه دوراً، وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدة، فبرىء الملك وتوجه إلى بلاده، وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تخوت عتابي وأربعة مماليك وأربعة أفراس، فامتنع من قبولها، وقال: «إن علي يميناً أن لا أقبل من أحد شيئاً»، فقال التاجر: «هذا مقداره كثير. قال: «لما حلفت ما استثنيت». وأقام شهراً يراوده، ولا يزداد إلا اباء. فقال له عند الوداع: «ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأتمتع بالمال، فتتقلد منته وتفوتك منفعته، ولا يعلم أحد بأنك رددته». فقال: «ألست أعلم نفسي أني لم أقبله، فنفسي تشرف بذلك، علم الناس أو جهلوا».

وكان رشيد الدين أبو حليقة (١١٩٤ ــ) وحيد زمانه، انتقل من قلعة جعبر إلى الرهى، ومنها إلى دمشق ثم إلى القاهرة وخدم الكامل والصالح وترتشاه وبيبرس. ويحكى عنه أنه: «كان رؤوفاً بالمرضى محباً لفعل الخير»، ويضيف ابن أبي أصيبعة قائلاً:

«ورأيت من كانت مروءته ما يفوق الوصف، ولم يزل دائم الاشتغال ملازماً للفقراء.. ومن حكاياته أنه لما طال عليه عمل الترياق الفاروق تتعذر حضور أدويته الصحيحة من الآفاق عمل لرياقاً مختصراً توجد أدويته في كل مكان ونوى أنه لا يقصد به طلب مال ولا جاه في الدنيا ولا يقصد به إلا التقرب من الله لنفع خلقه أجمعين والشفقة على سائر العالمين، وبذله للمرضى».

وكان أبو الخير ابن الخمار (٩٤٣ ــ) طبيباً ماهراً وفيلسوفاً مجيداً وناقلاً خبيراً: «كان إذا دعاه من أظهر العبادة والزهد مشى إليه راجلاً، وقال له: جعلت هذا المشي كفارة لمروري إلى أهل الفسق والجبارة. فإذا دعاه السلطان ركب إليه في زي الملوك والعظماء، حتى أنه ربما حجبه في هذه الحال ثلاثمائة غلام تركي بالخيول والجياد والهيئة البهية، ووفى صناعته حقها بالتواضع للضعفاء والتعاظم على العظماء».

هذا، وقد كان الأطباء العرب يعتزون بصناعة الطب ويحافظون عليها ويغارون عليها ولا يتركون فرصة دون الحفاظ على مستواها اللائق وعلى شرفها، كما كان الطبيب العربي يحترم معلميه وأساتذته، ويقدرهم حق قدرهم ويحتفي بهم كلما سنحت له الفرصة، ويظهر ذلك جلياً من حكاية جبرئيل بن بختيشوع مع هارون الرشيد حين نزل الرشيد على قرة منزل «جالينوس»، فقال له جبرئيل: «يا أمير المؤمنين منزل أستاذي الأكبر مني على فرسخين، فإن رأى أمير المؤمنين أن يطلق لي الذهاب لزيارة مراسم الدار». فقال الرشيد: «ويحك يا جبرئيل اتخوف أن يخرج جيش الروم فيختطفك»، وأمر



بسم الله الرحمن الرحيم وعليه توكلي

المقالة الاولى من كتاب كامل الصناعة الطبية المعروف بالملكي

الباب الاول	الباب الثاني
في صفة الكتاب	في ذكر وصايا بقراط وغيره من قدماء المتطببين
الباب الثالث	الباب الرابع
في الرؤوس الثمانية التي ينبغي ان يعلم قبل قراءة كل كتاب	في قسمة الطب
الباب الخامس	الباب السادس
في معرفة الاسطقسات وماهيتها	في صفة اصناف المزاج
الباب السابع	الباب الثامن

□ فهرس محتويات كتاب «كامل الصناعة» لعلي ابن عباس.

بأن يضم إلى جبرئيل الف فارس، ثم وافاه بالخبز والمساليخ والملح حتى تمت لجبرئيل زيارة معالم دار جالينوس، معلمه.

المؤثراتُ الأسَاسيّة

هنالك عوامل كثيرة ساعدت الأطباء العرب على الارتقاء بالآداب الطبية والسمو بها والتفوق فيها، من أهمها معرفتهم بما تركه الأولون من آثار في هذا المضمار.

فقد نقل المترجمون الأولون علوم الهند إلى العربية وتلقن الأطباء العرب ذلك وتفهموه، ومثل ذلك ما أورده علي بن سهل الطبري في «فردوس الحكمة» من أقوال الهنود في الآداب الطبية مما ذكرناه سابقاً.

وكذلك مآثر اليونان، وأخصها قسم أبقراط، فقد ذكره الرهاوي، وعلي بن عباس المجوسي، وعلي بن رضوان، وغيرهم كثيرون.

وكان دافع الأطباء العرب وحافزهم الكبير في سلوك السبيل القويم مستمداً من عدة معطيات، اهمها:

سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسيرة عمر، رضي الله عنه. فقد وقف عمر أرضاً أصابها بخيبر وجعلها صدقة على الفقراء والمساكين لا تباع ولا توهب ولا تورث فكانت هذه أول صدقة موقوفة، وأول مبادرة لإنشاء حكم الوقف الذي ساعد كثيراً فيما بعد على التغلب على الفقر والفاقة وعلى تشجيع العلم والأبحاث العلمية. فلما كتب عمر صدقته هذه في خلافته دعا نفراً من المهاجرين والأنصار وأشهدهم عليها، فانتشر خبر الصدقة وسار على هذا المنوال الكثيرون من المهاجرين والأنصار، فصاروا يكتبون كتب وقفهم مصرحين فيها بأنها على سنة كتاب عمر.

ما كتبه الفلاسفة العرب أمثال الفارابي وابن سينا. يقول الفارابي (٨٧٢ ــ ٩٥٠م) في الفصل الثالث والعشرين من كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة»: «إن السعادة أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة. والسعادة هي الخير المطلوب بذاته، وليس وراءها شيء آخر يمكن أن ينال الإنسان أعظم منها. والأفعال الإرادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة التي تصدر عن الفضائل».

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الفارابي كان لا يتناول مما ينعم سيف الدولة عليه به سوى اربعة دراهم في اليوم، يصرفها فيما يحتاجه من ضروري عيشه وإنه كان لا يعتني بهيأة ولا منزل ولا مكسب. وكان مع ذلك عزيز النفس موفور الكرامة لا يخضع لارستقراطية المولد ولا يعبأ بأرستقراطية المال، بل يضع فوقها أرستقراطية العلم.

وقد كان الفارابي فقير الحال زاهداً في الدنيا معرضاً عن الجاه والمال حتى قيل إنه كان ناطوراً في بستان بدمشق وإنه كان يسهر في الليل بغية المطالعة والتصنيف ويستضيء بقناديل الحراس.

أما ابن سينا فقد تأثر بآراء الفارابي، وهو القائل: «قرأت كتاب (ما بعد الطبيعة) اربعين مرة، ولم افهمه وأيست من نفسي، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه حتى اشتريت كتاباً لأبي نصر الفارابي وأسرعت في قراءته فانفتح عليّ هذا العلم وفرحت بذلك وتصدقت من ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى».

فالسعادة عند ابن سينا هي في السمو عن الشهوات[١] والإعراض عن الدنيا وعدم التفكير في أوهامها، وفي اتباع الفضيلة والتجرد من المادة وشواغلها. وإن السعادة القصوى لا تكون إلا عن طريق العلم. واللذة عند ابن سينا هي في إدراك الأمور الروحانية والتقدم في العلوم والأبحاث العلمية ونسيان أمور الدنيا والأمور الغريزية.

لذا نرى أن مبدأ الخير للخير والابتعاد عن المادة والتواضع ولزوم الزهد والتعاون والاقتداء بالعلم ميزات تلقنها الأطباء العرب من كتب أساتذتهم أمثال الفارابي وابن سينا، فأصبحت صفاتهم الملازمة لهم يقتدون بها في حياتهم المهنية متأثرين في ذلك تأثراً صالحاً بآراء الفلاسفة العرب. ولنتذكر أن الكثير من الفلاسفة العرب كانوا أطباء أيضاً، وقد أثروا على المجتمع الذي عاشوا فيه عموماً، وأثروا على الأطباء خصوصاً.

(١) راجع «رسالة الطير».

مآثر العَرب في الآداب الطبيّة

لم يكتف الأطباء العرب باقتباس الآداب الطبية ممن سبقهم، ولكنهم زادوا عليها مبادىء جديدة ساعدهم العصر الذي عاشوا وعملوا فيه على إظهارها، وساهمت البيئة والمحيط والجو السليم الذي عاشوا فيه، وسهل عليهم الارتفاع والرقي بالآداب الطبية إلى مستوى لم تبلغه قبلهم.

ونورد هنا مثلاً واحداً على ما زاده العرب على الآداب الطبية، وهو مبدأ دفاع الطبيب عن زميله وعدم التعرض له ولأعماله. ولقد رأينا آنفاً كيف أوضح الطبري هذا المبدأ الذي لم يذكره أبقراط في قسمه.

هذا قليل من كثير من مآثر العرب وما أسدوه من خدمات جليلة في مجالات الآداب الطبية. وهو مظهر من مظاهر التمدن العربي ومفخرة من مفاخره. •

مراجع البحث:

- **ابن ابي اصيبعة**: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مطبعة الوهبية ١٨٨٣م.
- **الرهاوي**: كتاب أدب الطبيب (ترجمة لاڤي — Levey) الانكليزية، مطبعة Amer. Phil Sec فيلادلفيا ١٩٦٧م.
- **صليبا، جميل**: ابن سينا، مطبعة ابن زيدلن بدمشق ١٩٣٧م.
- **صليبا، جميل**: من افلاطون إلى ابن سينا (الطبعة الثانية)، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٢٨م، ص ٤٣ و ٤٤.
- **الطبري، علي بن سهل**: فردوس الحكمة، مطبعة أفناب برلين ١٩٢٨م.
- **العقاد، عباس محمود**: الفارابي، مطبعة دار المعارف الإسلامية، القاهرة ١٩٤٤م.
- **الفارابي، ابو النصر**: آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البير نادر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٩م.
- **المجوسي، علي بن عباس**: كامل الصناعة الطبية، مخطوط في مكتبة الدكتور سامي حداد، مستشفى الشرق، بيروت.
- **يكن، زهدي**: أحكام الوقف، المكتبة المصرية، صيدا.
- *Encyclopedie de l'Islam* «Wakf» T. IV. P. 1154 Leyde 1934.



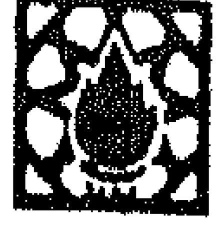
عباس محمود العقاد (١٨٨٩ — ١٩٦٤)

● شاعر وكاتب عربي. ولد في أسوان، وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي عمل في وظيفة كتابية لم يلبث أن تركها، واشتغل بالصحافة، وأقبل على تثقيف نفسه ثقافة واسعة. بدأ إنتاجه الشعري قبل الحرب العالمية الأولى، وظهرت الطبعة الأولى من ديوانه ١٩١٦، والطبعة الثالثة ١٩٢٨ في أربعة أجزاء وتوالت بعد ذلك مجموعاته الشعرية بعناوين مختلفة: «وحي الأربعين»، «هدية الكروان» و «عابر سبيل».

لم يكتف بالشعر القصصي، بل اتخذ من البيئة المصرية ومشاهد الحياة العادية مصادر للالهام. ولتأكيد هذا المذهب خاض العقاد الناقد معارك شديدة مع أنصار القديم، وقد غلب فن المقالة على انتاج العقاد النثري الأول، ثم كتب سلسلة سير لأعلام الاسلام بطريقة خاصة أشبه برسم الشخصيات: «عبقرية محمد»، «عبقرية عمر» وغيرها، ورواية واحدة «سارة»، واتجه إلى الفلسفة والدين: «الله»، «الفلسفة القرآنية» و«ابليس». وفي عنفوان نشاط الوفد المصري كان العقاد يكتب الافتتاحيات السياسية في جرائده، مثل «البلاغ» و «الجهاد» وكتب سيرة الزعيم سعد زغلول ١٩٣٦.

حِكاية المُعتَضِد والمَال المسروق





مما ذكر من خبر الخليفة المعتضد وحزمه في الأمور وحيله، أنه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم في الجند عشر بِدَر. فحُملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم. فنُقب منزله في تلك الليلة، وأُخِذت العشر بِدَر. فلما أصبح نظر إلى النّقب ولم ير المال، فأمر بإحضار صاحب الحرس، وقال له:

إن هذا المال للسلطان والجند، ومتى لم تأت به أو بالذي نقبه وأخذ المال، ألزمك أميرُ المؤمنين غُرمَه.

فجدّ في طلبه، وأحضر التوّابين والشرط (والتوّابون هم شيوخ اللصوص الذين كبروا وتابوا، فإذا جرت حادثة علموا مِن فِعْلِ مَن هي، فدلّوا عليه، وربما يتقاسمون واللصوص ما سرقوه). فتقدم إليهم في الطلب، وتهدَّدهم وأوعدهم. فتفرّق القوم في الدروب والأسواق والمواخير[٤] ودور القِمار، فما لبثوا أن أحضروا رجلاً نحيفاً ضعيف الجسم، رث الكسوة، فقالوا:

يا سيدي، هذا صاحب الفِعلة، وهو غريب من غير هذا البلد.

فأقبل عليه صاحب الحرس، فقال له:

ويلك! من كان معك؟ ما أظنك تقدر على عشر بِدَر. وحدك في ليلة.

فما زاده على الإنكار شيئاً. فأقبل يترفّق به، ويَعِدُه أن يرزقه ويعظم جائزته، ويتوعده بكل مكروه، وهو على إنكاره. فلما غاظه ذلك ويئس من إقراره، أخذ في عقوبته، وضربه بالسوط على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه، حتى لم يكن للضرب فيه موضع. وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق، ولم يقرّ بشيء.

وبلغ ذلك المعتضد، فأحضر صاحب الجيش، وقال له:

ويلك! تأخذ لصاً قد سرق من بيت المال عشر بدر، فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال؟! فأين حِيَل الرجال؟ أحضرني الرجل.

فأتى به، وسأله فأنكر، فقال له:

ويلك، إن متَّ لم ينفعك، وإن برئت من هذا الضرب ونجوت لم أدعك تصل إليه. فلك الأمان والضمان على ما تُصلح به حالتك.

فأبى إلا الإنكار. فقال المعتضد:

عليَّ بأهل الطِّب.

فأُحضروا. فقال:

خذوا هذا الرجل إليكم، فعالجوه بأرفق العلاج، وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء، واجتهدوا أن تُبرئوه في أسرع وقت.

فأخذوه إليهم، حتى صحّ وقوي جسمه، وظهر لونه، ورجعت إليه نفسه.

ثم أمر المعتضد بإحضاره، فلما حضر بين يديه، سأله عن حاله، فدعا وشكر، وقال:

أنا بخير ما أبقى اللّه أمير المؤمنين.

ثم سأله عن المال، فعاد إلى الإنكار. فقال له:

لستَ تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله، أو وصل إليك بعضه. فإن كنت أخذته كله فإنك تنفقه في أكل وشرب ولهو، ولا أظنك تفنيه قبل موتك، وإن مت فعليك وزره. وإن كنتَ أخذتَ بعضه سمحنا لك به، فأقرّ لنا به وأقر على أصحابك، فإني أقتلك إن لم تقرّ، ولا ينفعك بقاء المال بعدك، ولا يبالي أصحابك بقتلك. ومتى أقررت دفعت إليك عشرة آلاف درهم، ورسمتك من التوّابين، وأجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك، وتنجو من القتل، وتتخلص من الإثم.

فأبى إلا الإنكار. فاستحلفه فحلف. وأظهر له مصحفاً واستحلفه فحلف عليه. فقال المعتضد: إني سأظهر على المال[٥]، فإن أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتُك. فأبى إلا الإنكار. فقال له: فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي.

فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه، وأنه مظلوم متهم، وأن التوّابين قد تبرّءوا به.

فقال له المعتضد:

فإن كنتَ قد كذبتَ قتلتك وأنا بريء من دمك؟.

قال: نعم.

فأمر الخليفة بإحضار ثلاثين أسْود، وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته، فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكيء ولا يستند ولا سيتلقي ولا يضطجع، وكلما خَفق[٦] خَفْقَةً لُكِم في فكّه وضُرب على رأسه. حتى إذا ضعف وقارب التلف، أمر المعتضد بإحضاره. فأعاد عليه ما كان خاطبه به، فحلف أنه ما أخذ المال، ولا يعرف من أخذه. فقال المعتضد لمن حضر:

قلبي يشهد أنه بريء، وأن ما يقوله حق.

ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام، وأحضر بارد الشراب، وأمره بالجلوس. فأقبل يأكل ويشرب، ويُحَثّ على الأكل ويُلقم ويعاد الشراب عليه ويكرّر، حتى لم يبق للأكل والشرب موضع. ثم أمر ببخور وطيب، فبُخِّر وطُيِّب، وأُتِيَ له بحشية ريش فَوُطِّيء له ومُهِّد. فلما استلقى واستراح وغفا، أمر المعتضد بإزعاجه وسرعة إيقاظه. فحُمل من موضعه حتى أُقعد بين يديه وفي عينيه الوَسَن. فقال له:

حدثني كيف صنعت؟ وكيف نقبت؟ ومن أين خرجت؟ وإلى أين ذهبت بالمال؟ ومن كان معك؟.

قـــال:

ما كنت إلا وحدي، وخرجتُ من النقب الذي دخلت منه، وكان مقابل الدار حمّام له كوم شوك يوقد به، فأخذت المال، ورفعت ذلك الشوك فوضعته تحته، وغَطَّيْتُهُ. وهو هنالك.

فأمر بردّه إلى فراشه، فردّوه وأضجعوه عليه. ثم أمر بإحضار المال، فأُحضر عن آخره. وأحضر صاحب الحرس والوزير والجلساء، وقد غطي المال بالبساط ناحية من المجلس. ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوَسَن، فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول، فجحد وأنكر. فأمر بكشف البساط، وقال له:

أليس هذا المال؟ ألم تفعل كذا وكذا؟ يصف له ما حدّثه به. فأسقط في يد اللص. •

من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي.

الهوامش

(١) **المعتضد**: خليفة عباسي (٨٩٢ إلى ٩٠٢م) اشتهر بالحزم وسعة الحيلة.
(٢) **البدرة**: كيس به عشرة آلاف درهم.
(٣) **نقب الحائط**: خرقه.
(٤) **المواخير**: دور الدعارة.
(٥) **ظهر عليه**: وجده.
(٦) **خفق**: نعس.
(٧) **الخيشوم**: بطن الأنف.



آرب

قراءات عن حياته وأعماله

د. يوسف ناصر



□ شكل رقم (١) «جسم». خشب ١٩٢٠.

آرب.. النحات والشاعر الدادائي الألماني المولد، الغنائي ذو الإحساس المرهف، الروحاني والواقعي، الصوفي والتأملي.. والداعي إلى اللحمة والتفاعل فيما بين الإنسان والطبيعة، والمكتشف لنظام حيوي نشيط يضفي سمات التحول والنمو على مقومات فن النحت الحديث... هذا النظام القائم على عناصر أساسية خاصة بالفنان والتي تنم عن وجود إيقاع وحركة وعاطفة غنية.

يقام حالياً في متحف الفن الحديث لمدينة باريس معرض شامل لأعمال الفنان جان (هانس) آرب Jean (Hans) Arp (١٨٨٧ ــ ١٩٦٦). إن اهتمام المسؤولين عن متحف الفن الحديث بأعمال آرب يظهر لنا أهمية هذا الفنان في مسيرة الفن والنحت في أوائل القرن العشرين. أحاول من خلال بعض الدراسات المقارنة لفن آرب أن ألقي بعض الأضواءعلى فنه وأسلوبه في التنوع والارتقاء بفن النحت إلى أسمى معانيه، عسى أن أفيه حقه مبيناً المراحل المتنوعة التي مرّ بها والتي كان لها أكبر الأثر على فن عدد كبير من فناني القرن العشرين. آرب، الدادائي، تحدث بنفسه عن رفاقه الدادائيين، قائلاً: «كنا نبحث عن فن يرتكز على الأساسيات، فن يمكنه أن يعالج جنون العمر. أردنا نظاماً جديداً لاعادة التوازن بين الجنة والجحيم. شيء أخبرنا أن عصابات القوة المجنونة سوف تستعمل يوماً من الأيام الفن ذاته كوسيلةلتسكت عقول البشر»(١).

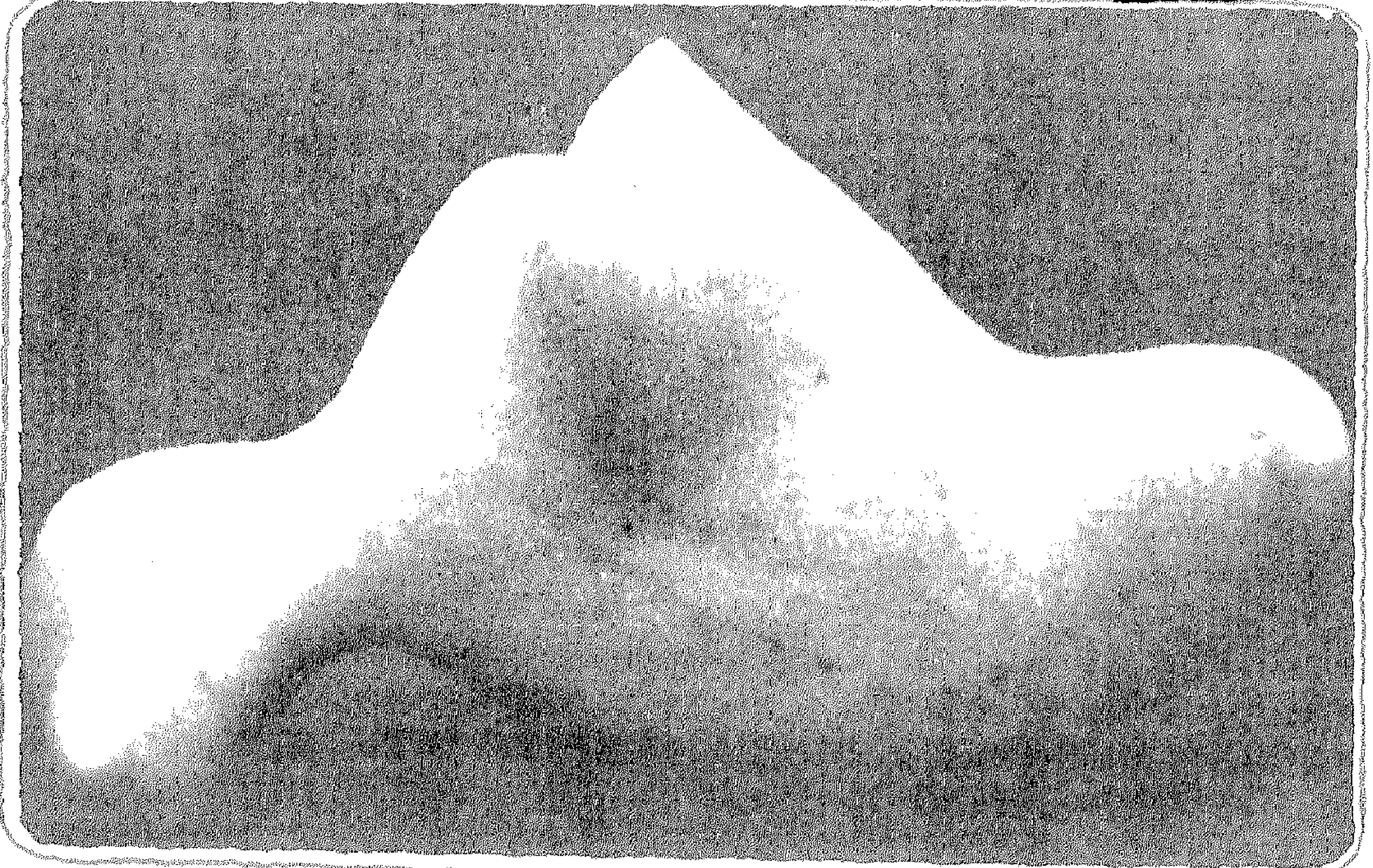
نبذة تاريخية عن حياته



ولد آرب وترعرع في ستراسبورغ في الألزاس الألمانية ١٦ أيلول ١٨٨٧. استحوذ، مثل ستراسبورغ ذاتها، على جنسية مزدوجة (ستراسبورغ، الفرنسية والألمانية لقرون متعاقبة، كانت ألمانية حتى ١٩١٩، وفرنسية بعد ذلك) آرب كان يطلق على نفسه اسم هانس آرب في ألمانيا وجان آرب في فرنسا، امتازت أعماله بنشأته المزدوجة هذه، إذ اتسمت أحياناً بالغنائية الألمانية وبالتحليلية المنطقية الفرنسية أحياناً أخرى. تعلم في ستراسبورغ في الفترة بين ١٩٠٤ و١٩٠٧، وفي الأكاديمية «جوليان» (Julian) في باريس عام ١٩٠٨. وتعرف في مرحلة مبكرة من عمره على روبرت (Robert) وصونيا دلوني (Sonia Delouney) في باريس، وعلى كاندنسكي (Kandinsky) ورفاقه في ميونيخ عام ١٩١١. قابل بيكاسو (Picasso) وموديلياني (Amedeo Modigliani) وانتقل إلى زوريخ (Zurich) عام ١٩١٦. عام ١٩٢٠ انتقل إلى برلين وعام ١٩٦٢ عاد مجدداً إلى باريس، وتزوج من الفنانة صوفي (Sophie Taeuber). وعاش بين الفترة ١٩٤٢ و١٩٤٦ في سويسرا. وقام بزيارة الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤٩[٢].

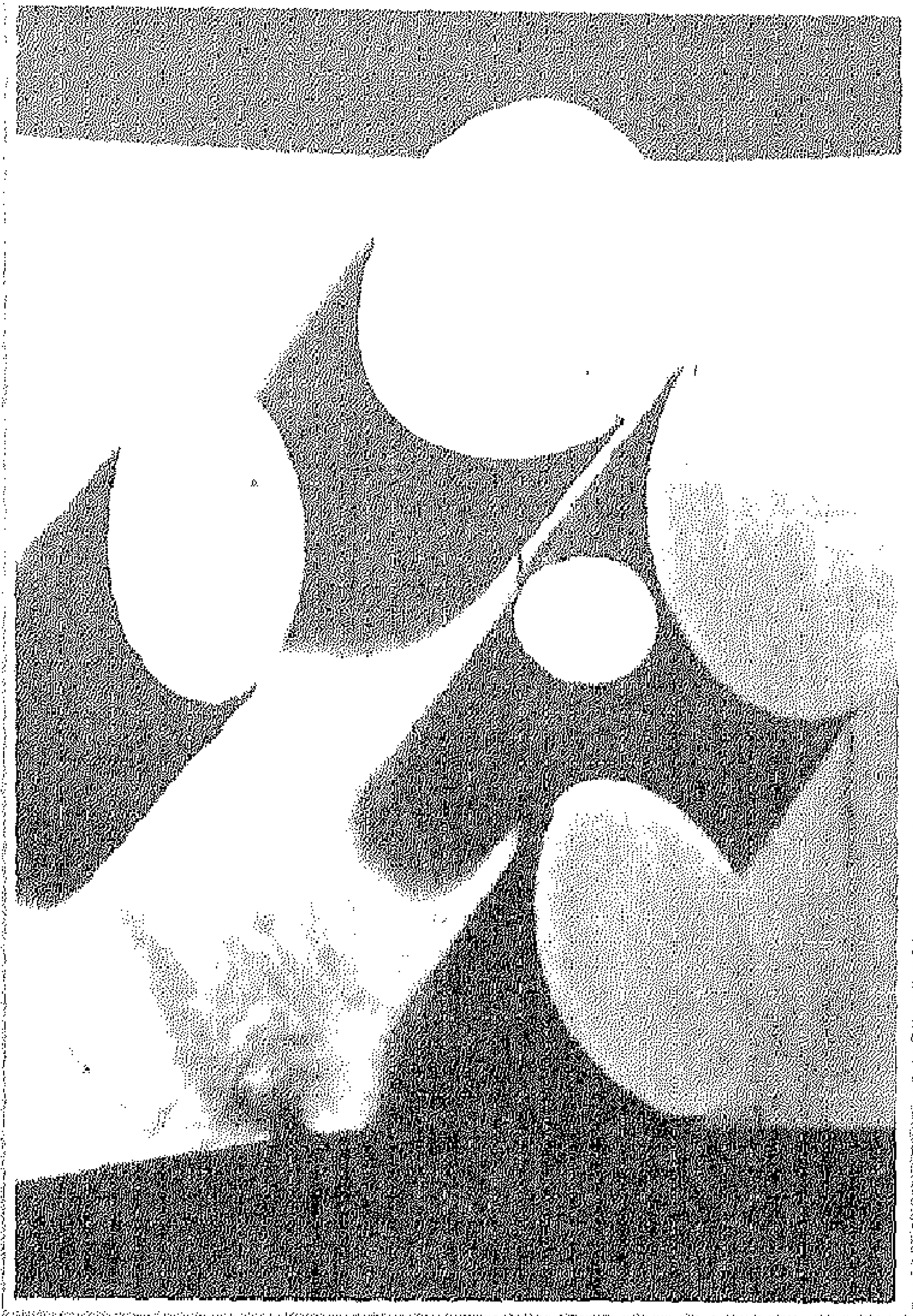
دادائية زوريخ (١٩١٦ ـ ١٩١٩)

أثناء الحرب العالمية الأولى، ظهرت في زوريخ حركة الدادا (Dada) عام ١٩١٥، حيث اجتمعت مجموعة من الشباب، وكان آرب أحدهم، ينتمون إلى كافة ميادين الفن والموسيقى والأدب، والهاربون من الحرب ومآسيها، والتي أخذت تنتشر في أرجاء أوروبا. وكان آرب الشاعر والفنان (الرسام والنحات) أحد هؤلاء الشباب الذين هاجموا بكتاباتهم وأعمالهم الفنية التقاليد والأفكار السائدة آنذاك في الفن والأدب الغربيين.



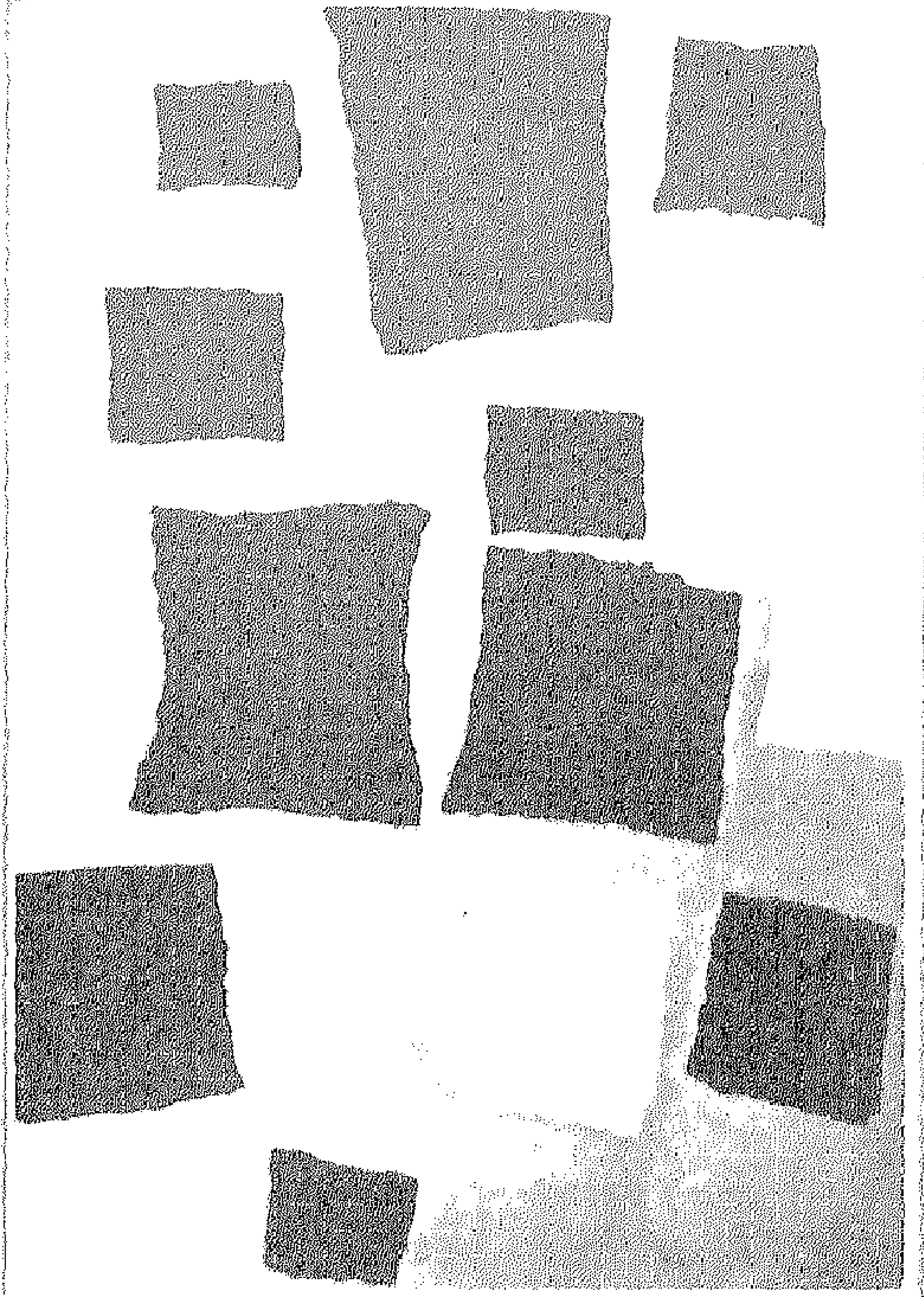
□ شكل رقم (٢) (Aquatic) ١٩٥٣، رخام بعلو ٣ إنش.

□ د. يوسف ناصر، مجاز في الرسم والتصوير من معهد الفنون الجميلة ـ الجامعة اللبنانية، ودكتوراة في الفنون التشكيلية من جامعة باريس ـ سانت دانيس موضوع اطروحته: الورق واستعمالاته في الفنون التشكيلية ودراسات مقارنة لأساليب المحافظة والترميم.



«□ شكل رقم (٣) «اشكال مرتبة حسب قوانين الصدفة» ١٩٣٠ خشب.

عبّر هؤلاء الفنانون الشباب عن ردة فعلهم للهيستيريا المنتشرة والجنون السائد في عالم الحرب بأشكال صورت على أنها سلبية وفوضوية مدمرة. فكانت حركة الدادائية تشكل ثورة على التقاليد والأعراف والأفكار السائدة في المجتمع الأوروبي آنذاك، وتعرضت هذه التقاليد والقوانين والقواعد المنطقية ومقولات النظام والجمال إلى إعادة التمحيص والدراسة من قبل هؤلاء الشباب. فكلمة «دادا» (Dada) تعني بالفرنسية هواية أو حادث أو إيهام وهمي، وبذلك كانت الدادائية هي رمز الاستحقاق المتمثل في هذا الهدم على الحركات التأسيسية من تقليدية واختبارية المميزة لفن أوائل القرن العشرين. استعمل الدادائيون الكثير من قوانين المستقبليين (Futurists) في سبيل انتشار أفكارهم، فكانوا مناهضين بعنف لأي منهج منظم كقاعدة للفنون. وتمثلت أفكارهم وأساليبهم في ثلاثة عناصر أساسية هي: الغوغائية، التوافق والصدفة. الغوغائية أتت من المستقبليين والتوافق من التكعيبيين والصدفة متواجدة بنسب معينة في كافة أعمال الخلق الفنية.



□ شكل رقم (٤) مُربعات مرتبة حسب قوانين الصدفة ١٩١٦ ــ ١٩١٧ كولاج من الورق الملون.

آرب حتى عام (١٩٢٠)

ولد آرب في ألمانيا ولكنه درس فن الرسم والشعر في فرنسا، وفي عام ١٩٠٤ اكتشف فن الرسم الحديث في باريس لدى دراسته في (Aco-démie Julian). خلال الفترة بين ١٩٠٨ و١٩١٠ عاش متنقلاً بين عدة قرى في سويسرا في التفكير والتحليل، فأثرت المناظر السويسرية على أعماله الفنية وخاصة التجريدية منها التي اعتمدت على الطبيعة والأشكال العضوية الحيوية[٢].

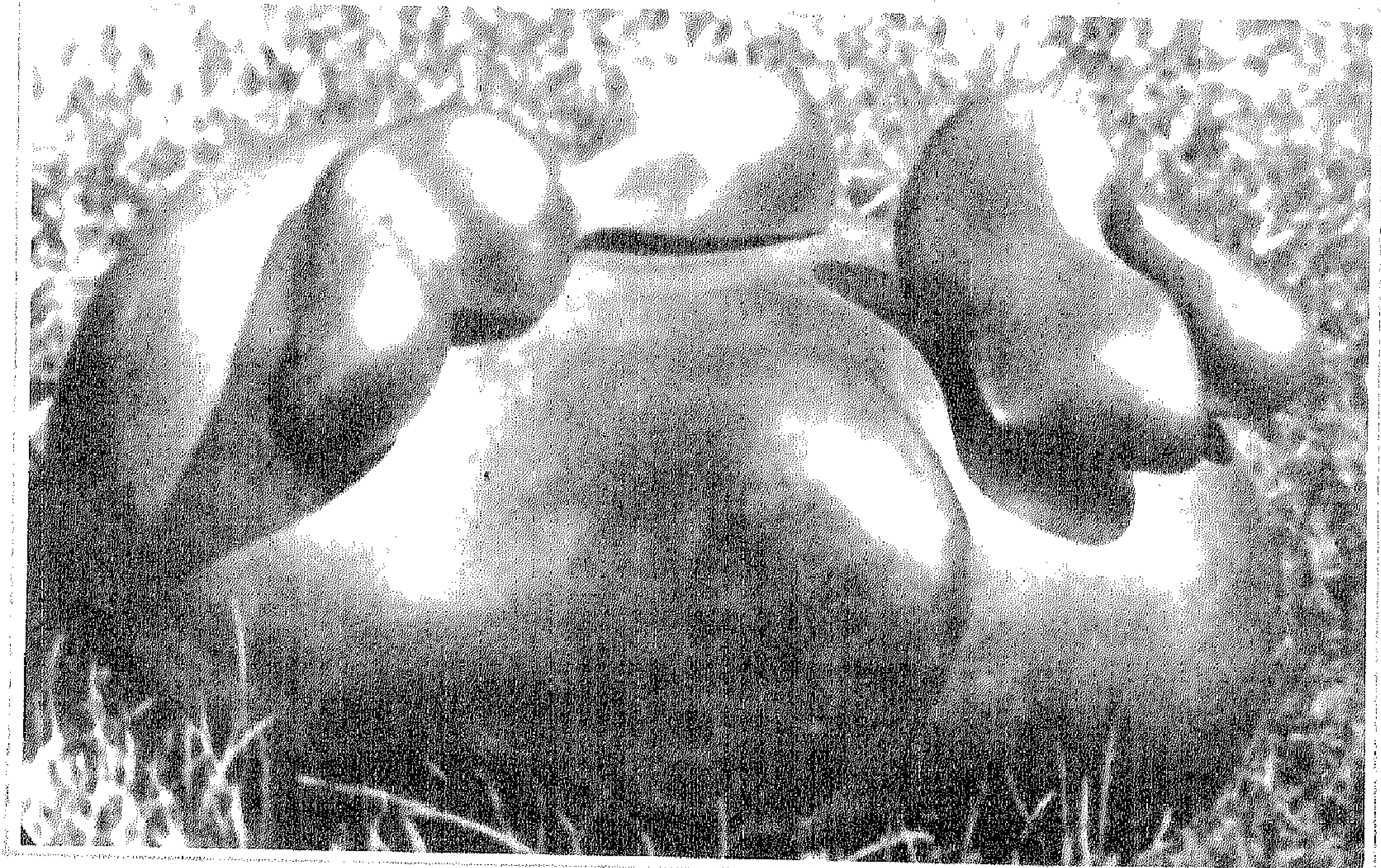
تعرف آرب في سويسرا على بول كلي (Paul Klee)، وبعد عودته إلى ألمانيا تطور في أسلوبه الشخصي لدى احتكاكه بكاندنسكي ومجموعة فناني (Blase Reiter) في ميونيخ بين عامي ١٩١١ و١٩١٢.

بعد الحرب العالمية الأولى ذهب آرب إلى (Cologne) حيث انتقلت أفكاره الدادائية إلى الفنان ماكس أرنست (Max Ernst)، بعد ذلك استقر في باريس وأثر على أعمال الفنانين السورياليين، وأنتج أعمالاً متتالية أسماها

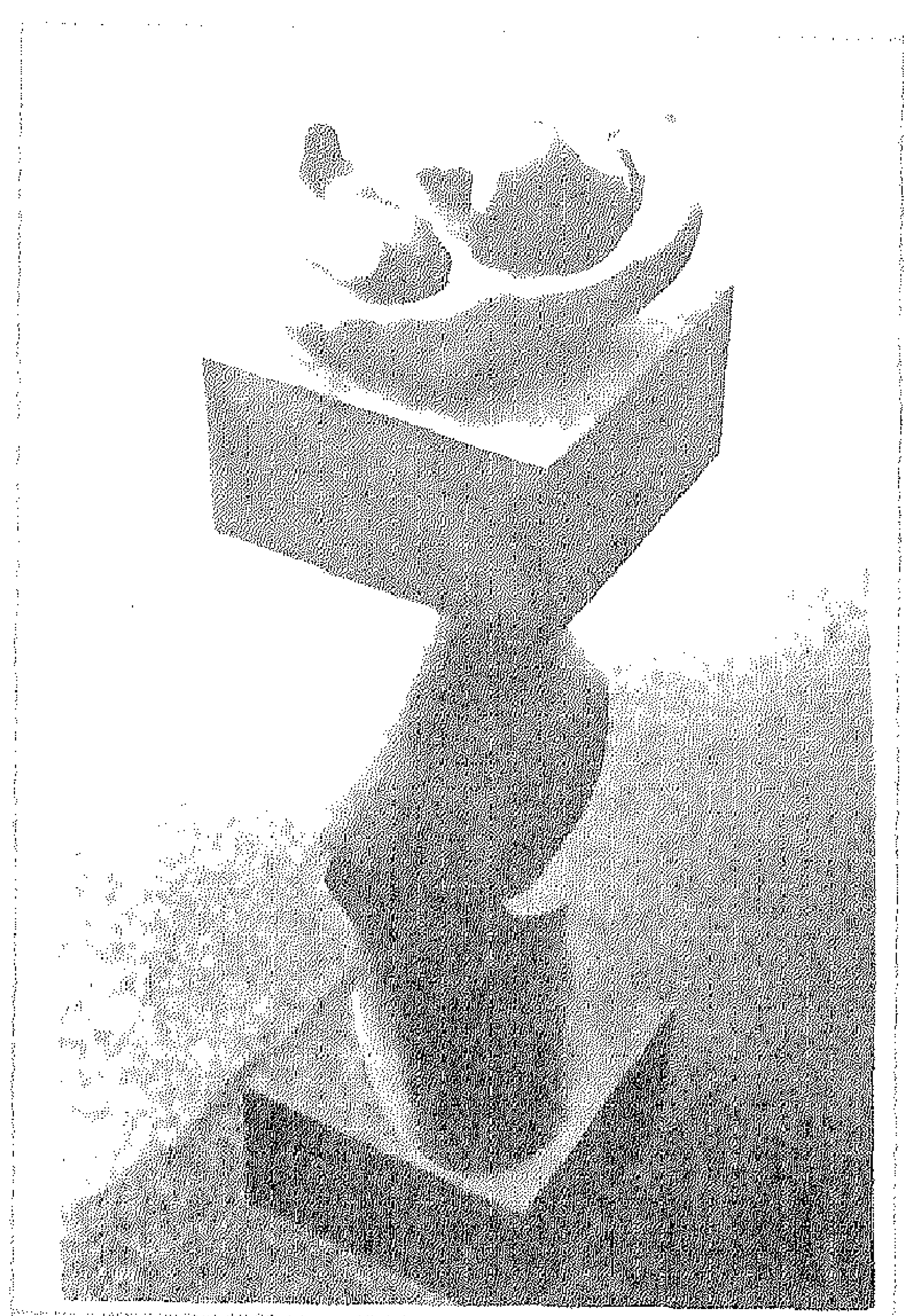
(Concretions) من إنتاج خياله الباطني وأثر بذلك على سائر الفنانين أمثال هنري مور (Henry Moore) وبربارة هبورث (Barbara Hepworth) السوريالبين خاصة في منحوتاته التي لها صفة النموذج (Archetype) والمتمثلة في الأشكال المدورة المبسطة ذات الحفر الرمزية او التعبيرية من منحوتاته لأشكال رمزية وتجريدية، تشارك أعماله أعمال النحات برانكوزي (Brancusi) من ناحية الغايات والجمالية وتعتمد أعماله الشاعرية على الحدس والصدفة أكثر من برانكوزي، كذلك عناوين أعماله الخصوصية كانت تحصل خلافاً لأعمال برانكوزي بعد الانتهاء من الشكل المنحوت وهذا الأسلوب يقربه أكثر من صفة التجريدية الفنية[٤]. كان آرب يعتمد أسلوب رودان (Rodin) حيث كان يصنع منحوتته من الجفصين أولاً ثم تنحت من الحجر من قبل تلامذته أو تصب من البرونز وهذا الأسلوب يميزه عن أسلوب برانكوزي.

لقد اخذ آرب وقتاً طويلاً لإيجاد اتجاهه الخاص به، باعتبار انه أتلف أغلب أعماله الفنية خاصة رسوماته ما قبل عام ١٩١٥، مما يجعل تعقب كفاحه الفني صعباً بل مستحيلاً. في هذه المرحلة اختبر فنه أسلوب التجريدية الهندسية المبنية على التكعيبية. وبعد عام ١٩١٥ في زوريخ أخذ ينتج بكثرة أعمالاً فنية من رسومات وكولاج لأشكال تجريدية تعود إلى أشكال الأوراق والحياة الحيوانية والحشرات، والتي اعتمد فيها على الأفكار والأساليب المعتمدة لدى الحركة الدادائية، وبالأخص على عناصر الصدفة والحرية والعفوية. وفي هذه الفترة تطورت أفكاره ومعتقداته المكتسبة عن الأجسام وواقعيتها الميتافيزيائية وعن الحياة بالذات، خاصة لدى معالجته للأشكال النباتية والحيوانية. فكان الدافع الأساسي للتعبير عن واقعيته هذه بإعطاء التجسيد الممكن للتجريد العضوي أو كما كان يفضل التعبير عنه بالتجسيد العضوي الذي قاده من فن التصوير والرسم إلى الكولاج ومن ثم إلى النحت الناتىء وفن النحت المجسم الدائري فيما بعد.

انتج آرب خلال عامي ١٩١٦ و١٩١٧ أعمال كولاج من قطع مستطيلة لأوراق ملونة ممزقة



□ شكل رقم (٥) راس مع ثلاثة اجسام مقلقة ١٩٣٠ برونز.



□ شكل رقم (٦) «في الغابات» ١٩٣٢ برونز.



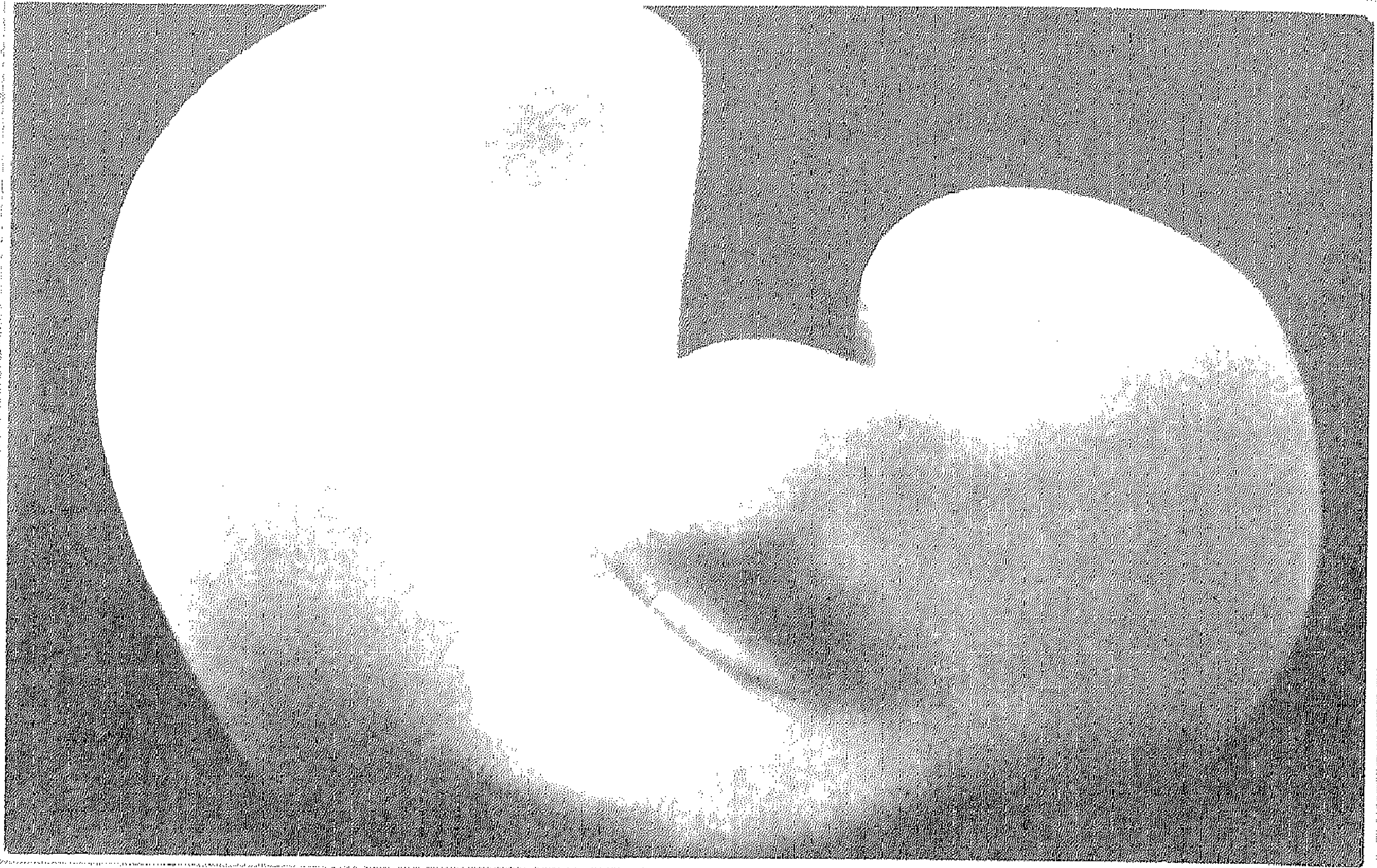
□ شكل رقم (٨) «جسم» (Torso) ١٩٥٣ من الرخام.

ومبعثرة بأشكال مستطيلة على أرضية من الورق. إذ أقدم أول الأمر على تمزيق رسم لم يعجبه فوقعت القطع الممزقة على الأرض، مما أوحى إليه انه شاهد حلاً للمشاكل التي كان يكافح من اجلها في الشكل الذي نشأ من جراء التركيب الذي اتخذته صدفة القطع الممزقة. فبالرغم من مصداقية هذه الرواية فإنه مما لا شك فيه أن آرب قد عالج وخلق أعمال الكولاج بهذا الأسلوب كما أنه قد عالج في هذه المرحلة مادة الخشب بذات الأسلوب وأنتج منحوتات نافرة (Reliefs) مكونة من طبقات رقيقة لأشكال خشبية تمثل النبات والنباتات المدهشة والأنسجة النباتية التي قام بتلوينها وإضاءتها بالألوان والتي اعتمدها لدلالات فعلية عن الحياة والنمو والتحول. مثال ذلك ان شكلاً معيناً يمكن أن يقترح جسماً خاصاً فيعطي للمنحوتة اسمها. فكانت الأشكال التي استنبطها آرب خاصة مميزة تعتمد على الحدس وتأخذ شكلاً مستطيلاً وأحياناً دائرياً، بالرغم من تجنبه استعمال الأساليب المنطقية في الرسم والتقطيع، فأخذت يده خبرة عالية في إعطاء الأشكال خطوطاً خاصة وجسماً خاصاً به.

فشكل مميز يعطي شكل جسم أنثوي (شكل رقم ١).

اعتمد آرب أيضاً التنوع في طرق معالجته فن النحت باستعماله حجر الرخام والبرونز والخشب والكولاج في قطع الورق الممزقة واعتماده العفوية والصدفة في ترتيبها بأشكال تجريدية هندسية؛ واعتمد كذلك أسلوب التنوع في المواد التي استعملها وفي المواضيع التي عالجها مثل مواضع «ساعات الإنذار» و «الأفكار»، و «الشوارب» و «الشوكة» و «البيض» و «الذكرة» الخ التي اتسمت بأسلوب العفوية والتلقائية في تركيباتها(٥).

تتحلى أغلب أعمال آرب، بأسلوب الكمال في التخيّل العضوي التجريدي، والأسلوب العضوي يطغى على أعماله الفنية ولا سيما تلك التي تمثل رأس الإنسان أو جسمه. وطغت على أعماله الأخيرة منحوتاته الواقفة من الرخام والبرونز. عام ١٩٥٦ سئل آرب عن عمله الفني المسمى (Aquatic) الذي أنهاه عام ١٩٥٣ والذي يمثل قطعة ذات شكل من حياة البحار أو جسم أنثوي



□ شكل رقم (٧) (Human Conecetion) ١٩٤٩ من الحجر.

شاعري حسي، فأجاب: «بشكل أو بآخر، منحوتاتي هي دائماً أجسام»[٦] (شكل رقم ٢).

يعتبر النحات دي شيريكو (De Chiriico) مؤسس الجناح السوريالي المعتمد على الأساليب الواقعية والصور المميزة، بينما يعتبر آرب مؤسس الجناح الآخر الذي يعتمد على الأشكال العضوية التجريدية وعلى الألوان غير الوصفية ليخلق بها عالم خيالي ما ورائي غير منظور. كما يعتبر بحق النحات برانكوزي المؤثر المميز عليه أما آرب فيعتبر الممهد للفنانين ميرو (Miro) وكالدر (Calder) ويجيل كبير من الرسامين والنحاتين.

آرب بعد عام (١٩٢٠)

قام آرب عام ١٩٢٢ بزيارة باريس برفقة ماكس أرنست حيث ساهم بنشاط كبير فيها واشترك بمعارض عديدة. وكانت مادة الخشب خلال فترة العشرينات من أحب المواد عنده، فعمل منها منحوتات ملونة. واشتغل خلال الفترة بين ١٩١٥ و١٩٢٠ بالأشكال التجريدية الهندسية القريبة من أعمال موندريان (Mondrian) وفان دوسبورغ (Van Doesburg) واشترك أيضاً مع زوجته صوفي (Sophie Tauber) بالكولاج والرسومات. فترك بعد عام ١٩٢٠ أسلوب الأشكال الهندسية مصرحاً أن الفن هو ثمرة تنمو في الإنسان مثل الثمرة على النبات»[٧]. من أعماله الشهيرة في مجال النحت والكولاج في العشرينات وما بعده، كانت تلك الأعمال التي أسماها «المرتبة حسب قوانين الصدفة» والتي أكملت أعماله الاختبارية خلال الفترة بين ١٩١٦ و١٩١٧ في «المربعات المرتبة حسب قوانين الصدفة» (الشكلين رقم ٣ و٤). أغلب الأشكال التي استعملها هنا هي عضوية أكثر منها هندسية. وأخذ ينتج بذات الانسياق منحوتات لولبية بتثبيته خيوطاً معدنية تسقط صدفة على قطع من الورق.

تعتبر فترة بداية عام ١٩٢٠ نقطة تحول كبرى في النحت بالنسبة لآرب عندما بدأ يعمل كلياً في الأشكال الدائرية، حيث كان يضع التمثال أو الشكل من الطين والجفصين أولاً ثم ينقلها إلى البرونز أو الرخام. فكانت أعماله ومنحوتاته ذات



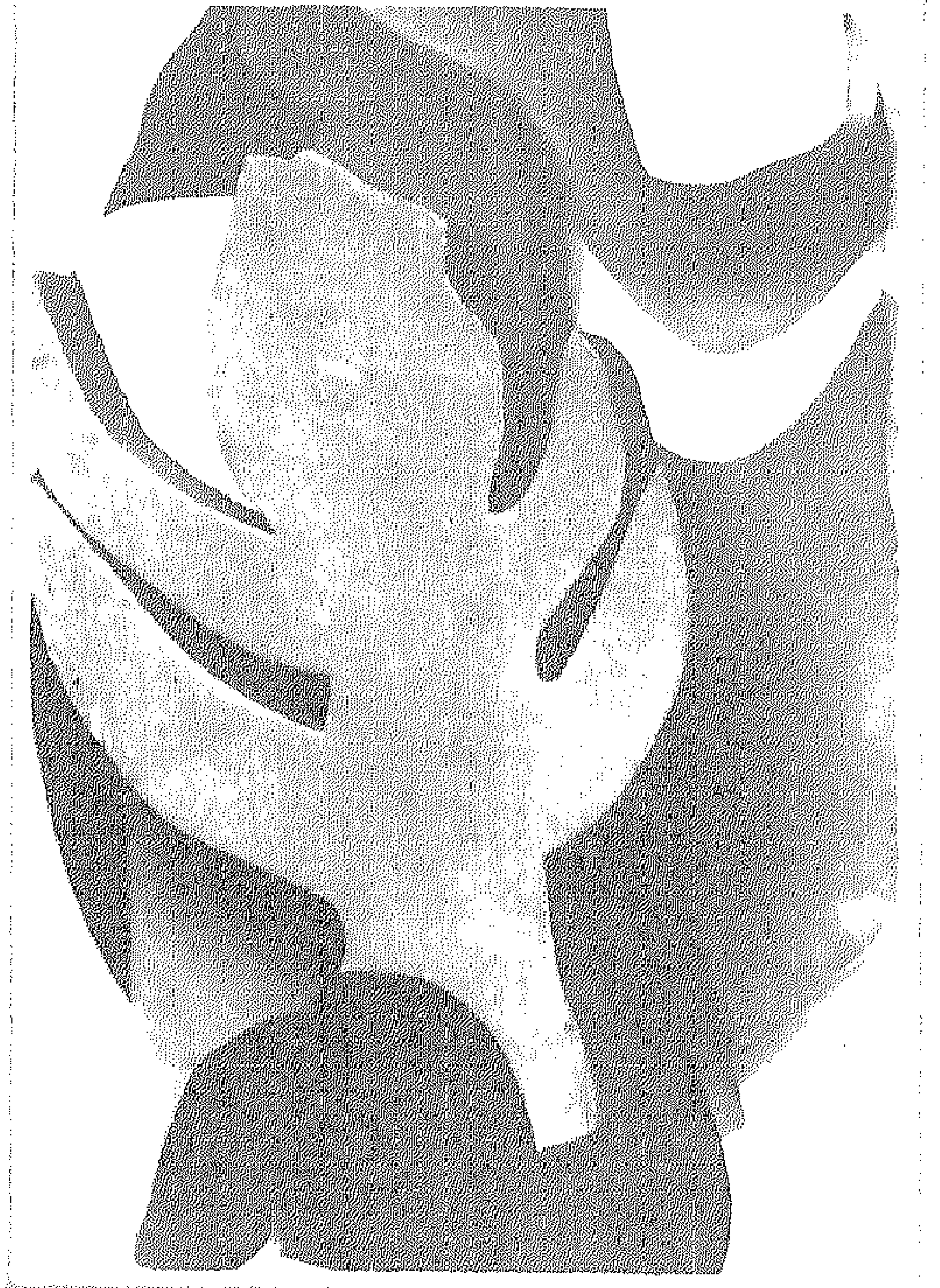
□ شكل رقم (٩) «جسم لعظيم» ١٩٥٧ (H uman Lu- nar spectral) (Torso of a Giant) من البرونز.



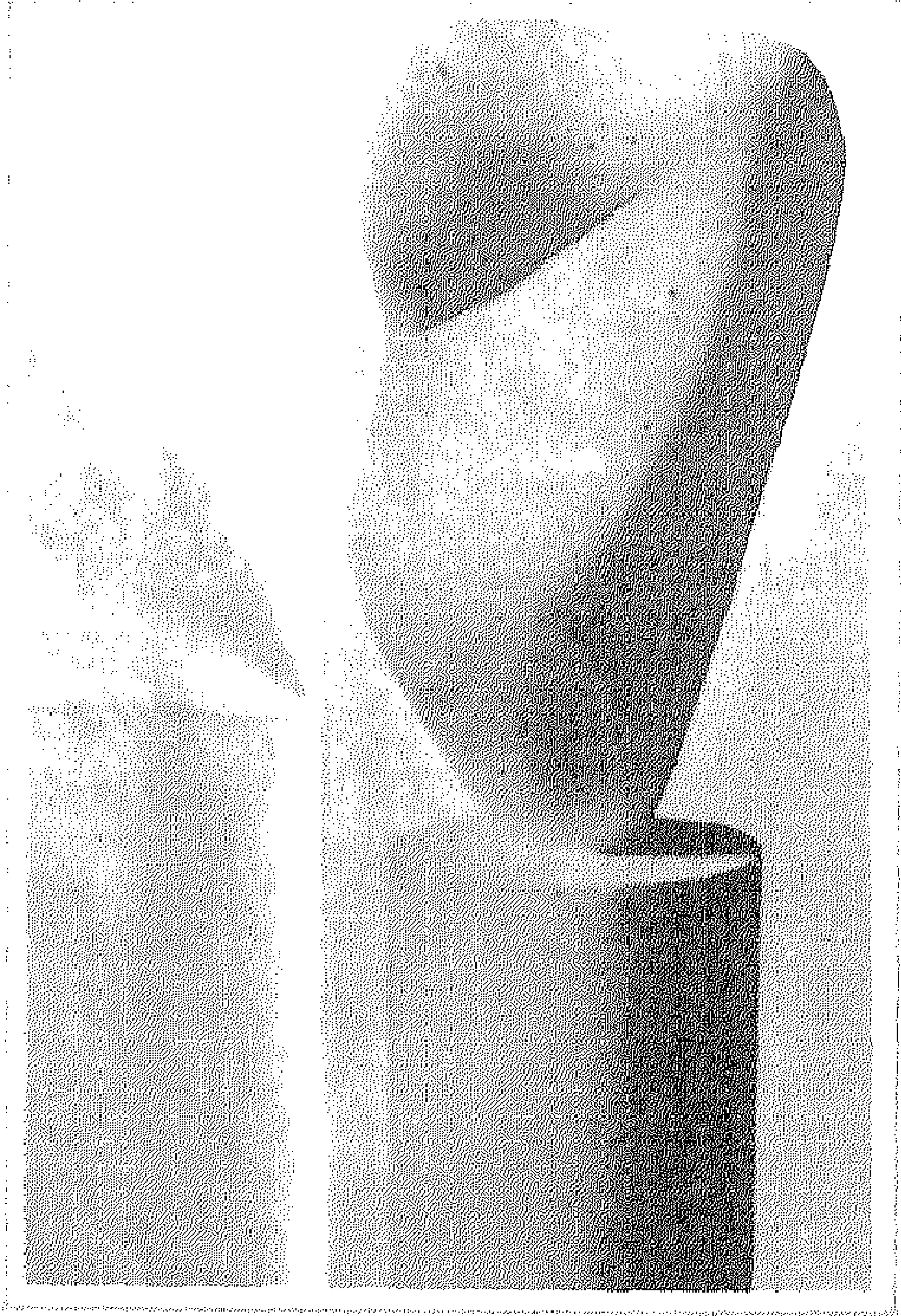
□ شكل رقم (١٠) تاليف ١٩٣٧، كولاج.

الأشكال الواقفة بحرية تقدم خيالاً خصباً ونادراً، وكان لها تأثير كبير على أعمال النحاتين اللاحقين لعهده أمثال كالدر وهنري مور وبربارة هيورث. شارك آرب إخلاص برانكوزي للحجم المجسم لا للمساحة الفضائية كأهم عنصر في النحت. وبذلك يقف آرب على الاتجاه الآخر للنحاتين البنائين أمثال غابو (Gabo) وبفسنر (Pevsner). لدى تطوير أفكاره في المنحوتات الملونة التي اعتمدها، لجأ إلى إيجاد أشكال منفصلة عن الشكل الأساسي وتحوم حولها مثل الاقمار الاصطناعية. شكل رقم (٥) من اعماله لعام ١٩٣٠ يصور ثلاثة أجسام غريبة ترتاح على جسم كبير، أحد الأجسام الثلاثة يدل على شارب وآخر على (Mandolin) وثالث على ذبابة. لقد أصبحت عادة لدى آرب في تسمية أعماله الفنية وتسمية الأجسام التي يدخلها في منحوتاته وأعماله الكولاج لفترة عشر سنين لاحقة، وكان يقصد منها إثارة عملية الارتباط أو ليؤثر على المشاهد. وأثر أسلوبه هذا المعتمد على عدة عناصر مترابطة أو متباعدة على أعمال الكثير من الفنانين.

يمثل شكل رقم (٦) عملاً من أوائل أعماله البرونزية والمعقدة المؤثرة، فالقاعدة تعد جزءاً من التصميم العام، مؤلفة من قاعدة مربعة مكعبة وفوقها مكعب مربع آخر ويفصل بينهما شكلان هرميان اسطوانيان وترتاح في الأعلى ثلاثة أشكال عضوية. هذا الشكل الصغير بارتفاع أقل من ٧٠ سم يجسم أشكالاً وأفكاراً حازت على اهتمام آرب لبقية سنوات حياته. لقد أتت فكرة القاعدة كجزء لا يتجزأ من المنحوتة من النحات برانكوزي الذي كان يبني القاعدة من الخشب بأشكال بدائية ليزيد من أهمية لمعان المنحوتة المصنوعة من البرونز أو الرخام. بينما كانت المنحوتة نفسها وقاعدتها عند آرب من البرونز باعتبارها جزءاً موحداً وشكلاً منسقاً. يظهر هذا الشكل الأسطواني للقاعدة عند آرب حتى عام ١٩٤٧ وبقيت فكرة الأشكال الحرة المرتاحة على شكل مجسم أكبر تظهر في أعماله حتى الأخيرة منها. الشيء الظاهر والجلي في هذا العمل الفني (شكل رقم ٦) هو الثلاثة أشكال



□ شكل رقم (١١) «غابة آرب» ١٩١٦ ــ ١٩١٧ خشب.



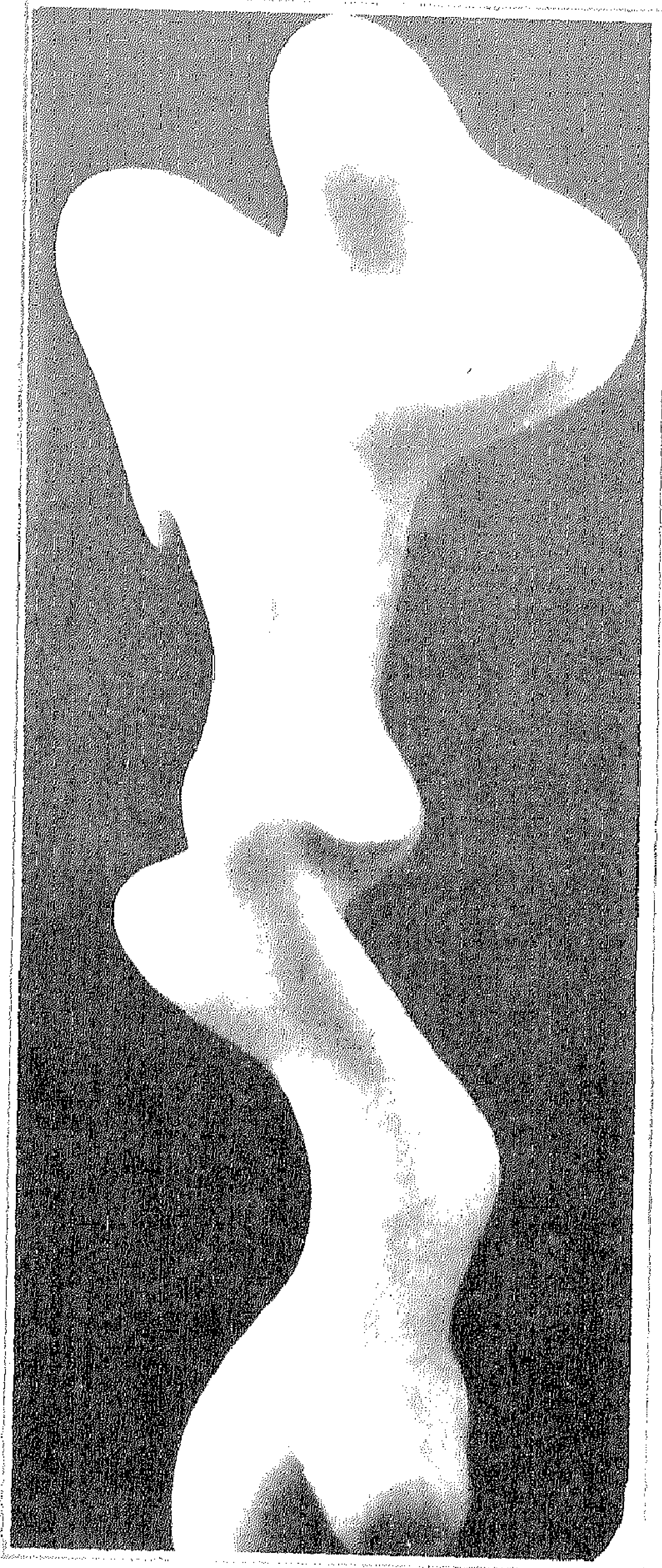
□ شكل رقم (١٢) حلم ١٩٣٧. حجر.

العضوية الظاهرة في الأعلى. فالفنان يقدم لنا هنا اشكالاً نحتية دائرية بالرغم من كونها تجريدية، تمثل أيضاً بقايا لأجسام مميزة من الجسم البشري. ولقد تأثر كثير من فناني القرن العشرين بهذا الأسلوب الظاهر عند آرب. فأغلب المنحوتات التي تمثل اشكالاً هي مستمدة من أعمال آرب المسماة «رأس مع ثلاثة أجسام مقلقة» ولكنها الآن قد تغيرت وأصبحت تجريدية بشرية ــ فأعطى آرب هذه الأشكال صفة الواقعية البشرية (شكل رقم ٧).

فهذه التسمية تعني عنده التحول والنمو والتجريد، فهي عملية تكثيف وتقوية وتنمية. فالفن المحض تجريدي عنده يعني تجسيم الجسم أو الحجم. وهذا التعريف يشكل عنده تعارض لمقولة البنائين (Constructivists) الزاعمين بأولوية المساحة والفضاء في العمل الفني النحتي، أخذ فن النحت عند آرب أشكالاً مختلفة بين أعوام ١٩٣٠ و١٩٦٦ عام وفاته. فالأشكال التجريدية البحتة تمثل أشكالاً تعود إلى «الغيوم»، «إنذارات»، «أوراق»، «أصداف»، «براعم نباتية»، «بذور وأثمار»، «أزهار تنمو باستمرار ذو أشكال ومساحات تدل على أفكار النمو والتحول والأحلام والصفاء».

عندما نتكلم عن فن النحت عن آرب نقصد بلا ريب، أسلوبه العضوي والتجريدي، حبّه إلى التجريديات التحوّلية وحبه إلى الأشكال العضوية وقدرته التخيلية العظيمة كأني به يصل إلى النحت عن طريق أسلوبه الحلمي الخيالي. لا شك أن مسحة خيالية وجدت في فن النحت للقرن العشرين كون معظم النحاتين ما عدا البنائين التجريديين، قد استمروا في استعمال الرأس البشري وجسمه كمواضيع أساسية في معالجتهم لأعمالهم الفنية، فبقي العنصر البشري ظاهراً بدرجة أو بأخرى بالرغم من أن هذه الرؤوس والأجسام البشرية قد أخذت تتحول وتتبدل باعتماد طرق البساطة والبعثرة والأسلبة أو التكعيب[٨].

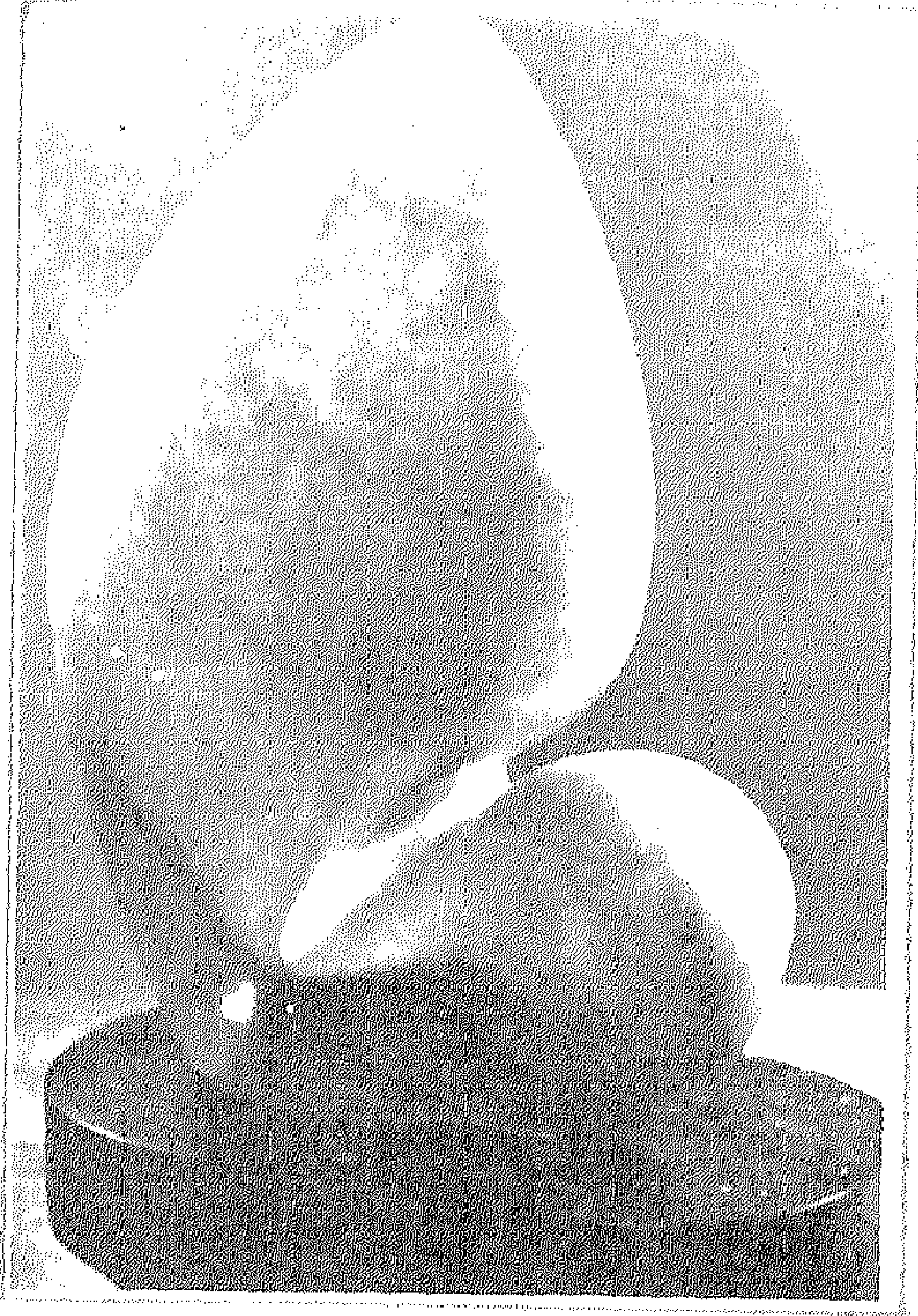
يظهر إسهام آرب في الحلم الخيالي في فن النحت في منحوتاته النافرة المنفذة في المرحلة بين عامي ١٩١٦ و١٩١٩، ثم أخذ في المراحل



□ شكل رقم (١٣) «نمو» رخام بعلو ٤٢ إنش.

اللاحقة يطور أسلوب الخيالات العضوية المجسمة على شكل أعمال فنية لها طابعها الدائم المميز والظاهر في الميدانين السوريالي والتجريدي على حد سواء.

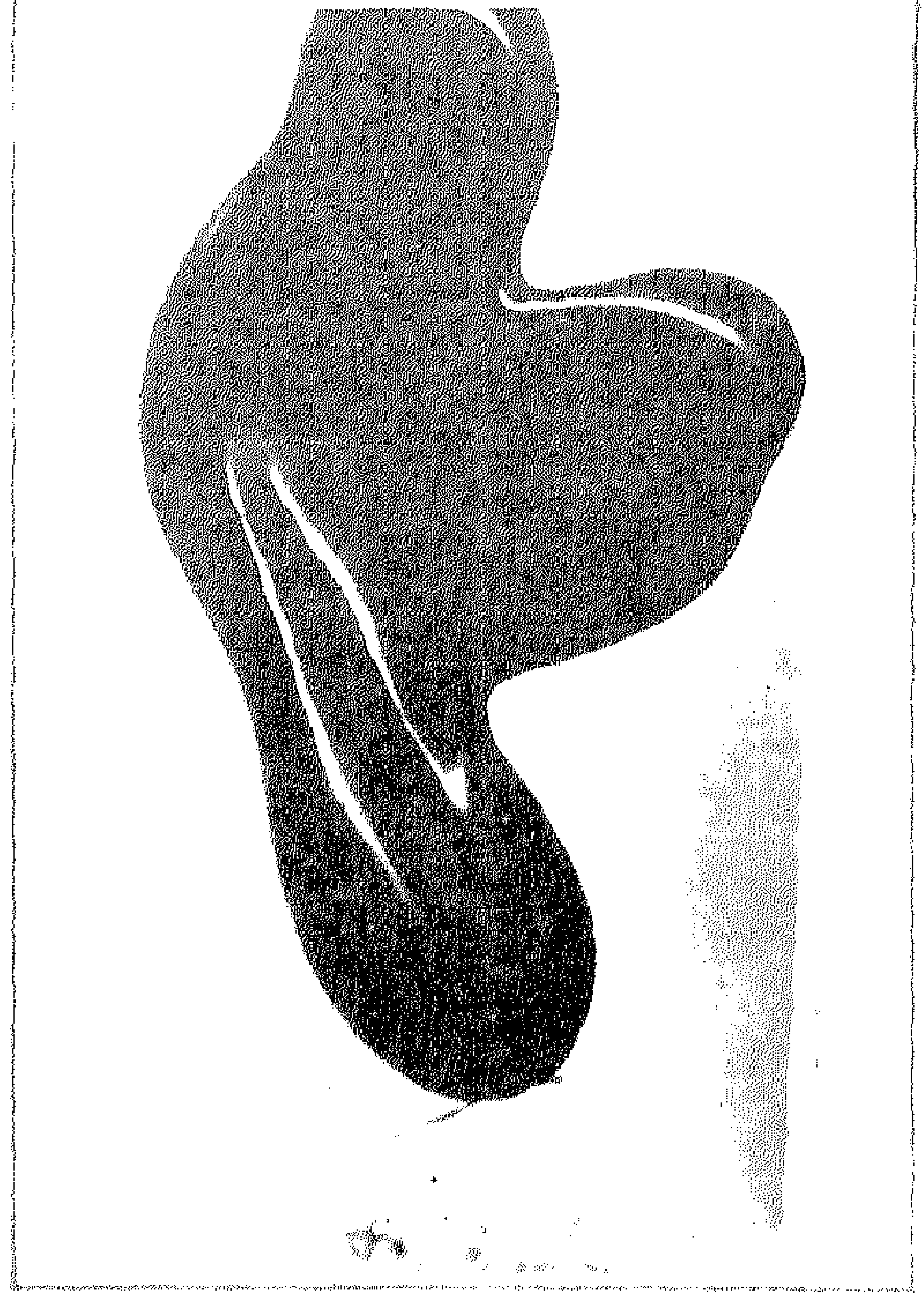
يمثل العملان الفنيان شكل رقم (٢) و (٨)، النحت المجسم الظاهر نسبياً عند آرب، فالشكل الأول يدل على أسلوب التحول الجلي عند الفنان الذي يصرح أنه بالإمكان عرضه أفقياً



□ شكل رقم (١٥) «ثمرة حلم» ١٩٦٥ من الرخام الابيض على قاعدة سوداء.

أو عمودياً: فعمودياً يدلّ على شكل انثى عارية، وأفقياً يدل على وحش صغير(٩). نادراً ما تكون اعماله أكبر من الحجم الطبيعي والشكل رقم (٩) هو أحد قطعه الكبيرة. فالمنحوتة من البرونز بارتفاع ١٠٩ سم، وهي إحدى أقوى منحوتاته تجمع بين الحياة العضوية البشرية وبين أودية القمر، تمثل وجوداً يتغير بأطوال مختلفة من شكل إنسان إلى شكل قمر إلى آخر لشبح. تجتمع في هذا الشكل المعقّد عدة موضوعات مختلفة ومنظمة بشكل نظام مساحات فضائية دائرية.

استمر آرب بالإضافة إلى اعتماده أسلوب النحت أو المنحوتات الواقفة في تنفيذ الكولاج والمنحوتات النافرة (Reliefs) التي أخذ يلونها أيضاً وتعامل كذلك مع الأخشاب الطبيعية والحجر والبرونز والأشكال الحرة والهندسية. فالتغيير في اعتماده أسلوب الكولاج كان يقصد منه البحث عن الكمال. وكان يقص الأوراق ويلونها ويرتبها بأسلوبه وطابعه الخاصين لينشأ

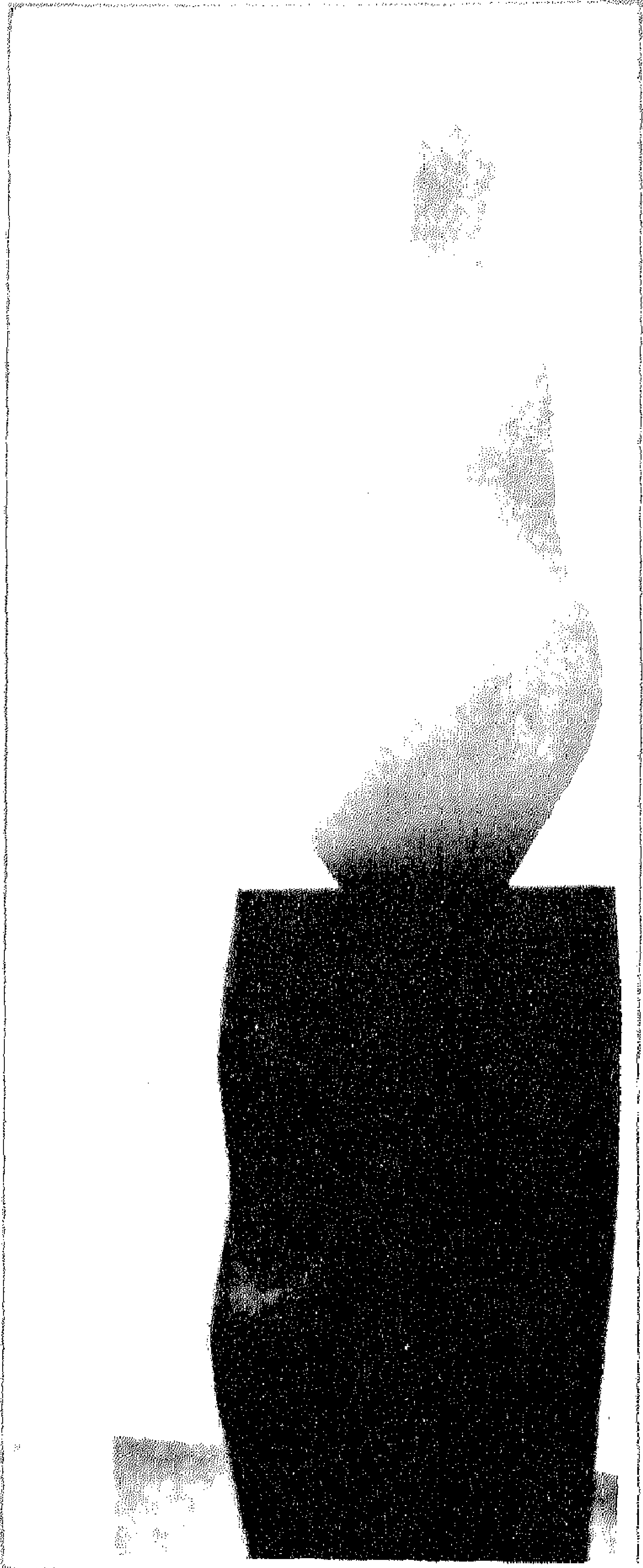


□ شكل رقم (١٦) «ورقة أوطير» من الرخام الاسود اللميع على قاعدة حجر ابيض خشن.

عنده كولاج خاص به، وكثير من هذه الأعمال المبنية من كولاج لأوراق ممزقة وجدت طريقها إلى الولايات المتحدة الأميركية ومهّدت إلى ما سمي باللحمة بين الفن السوريالي العضوي والفن التعبيري التجريدي الأميركي (شكل رقم ١٠).

كان آرب ينظر إلى أعماله من الكولاج والنحت النافر وأعماله ومنحوتاته الأخيرة الدائرية ويعتبرها بالإضافة إلى كونها تجريديات أعمالاً محضة تجريدية بحتة نتيجة لاختباراته ولتعامله مع الطبيعة. كتب عن أعماله في زوريخ بين عامي ١٩١٥ و١٩١٦ قائلاً: «أعمالنا هي إنشاءات من خطوط، سطوح، أشكال وألوان. هم يحاولون التوصل إلى الواقع. الفن يجب أن يقود إلى الروحانية، إلى الواقعية الصوفية والتأملية...»(١٠).

كانت منحوتاته النافرة البدائية تلون أغلب الأحيان كجزء من رغبته في خلق البديل لفن الرسم والنحت بالإضافة إلى اعتماده أسلوب الرمزية لأشكال الطبيعة، وأفضل مثال على ذلك



□ شكل رقم (١٤) «لعبة ديمتر» جسم من الرخام على قاعدة من الغرانيت.

«غابة آرب» (شكل رقم ١١). يمثل هذا العمل أسلوبه في اعتماد الطبقات المتلازمة لأشكال تحولية(١١).

أشكال آرب ومنحوتاته لها صفة النمو والحركة المائية شبيهة بالتقليد التجريدي المتبع من قبل برانكوزي وهنري مور. يظن الشكل وكأنه ينمو من القاعدة لا كأنه يقف عليها فقط.



□ شكل رقم (١٧) «تاج من البراعم» ١٩٣٦.

يضع هذا الأسلوب حداً لمشكلة اعتبار القاعدة كبيئة لا موضوع عرض للمنحوتة فقط (شكل رقم ١٢).

بعد أن أنتج آرب أعمالاً وأشكالاً من الخشب، ابتدأ في العمل في الرخام في نهاية الأربعينات وظهرت أغلب أعماله الرخام الحجرية في المرحلة التابعة للحرب العالمية الثانية. كانت أعماله الإبداعية من الرخام تعتمد على حبه للبساطة في انسيابه الخطوط والأشكال، فأخذت أعماله البرونزية ومنحوتاته الخشبية والنافرة تتحول إلى التجريدية. وكانت تنفذ أغلب منحوتاته الحجرية خلال الخمسينات من الرخام الأبيض، وتعطى لها أسماؤها استناداً إلى الأشكال العضوية والأفكار التجريدية والفرصة. فاستعماله لحجر الرخام الناصع البياض في عمله «النمو» (شكل رقم ١٣) يعطي المعنى السري السحري والخيالي للأشكال المنظورة[١٢].

إن فكرة اعتماد قاعدة للمنحوتة لها تاريخها الخاص. فالفنانان برانكوزي وآرب ابتدعا قواعد تمثل جزءاً لا يتجزأ من المنحوتة، حتى غدت القاعدة والمنحوتة في لحمة فيما بينهما: «القواعد التي تنهش من المنحوتة، والمنحوتة التي تنهض من الأرض»[١٣]. يمكن في أيامنا الحاضرة إزالة القاعدة كلياً بأن يوضع الحجر مباشرة على الأرض. ولكن القاعدة تخدم ذات غاية الإطار للصورة، إذ يقصد منها أن تزيد المنحوتة غنى، لذلك فحجمها ولونها وتصميمها والمادة المصنعة منها يجب القيام بدراستها جميعاً ملياً.

نظرة جلية إلى الأشكال رقم (١٤) و (١٥) و (١٦) المبينة بجانبه أعلاه تظهر لنا الصلة الواضحة بين المنحوتة وقاعدتها كما ابتدعها آرب.

إن ما يميز فن نحت آرب هو اعتماده على التنوع في المواضيع الحياتية الواقعية المستمدة من كل ما هو حي وطبيعي مهما كان في الحياة البشرية أو الحيوانية أو النباتية، وحبه لكل شيء حي ونشيط، فالمواضيع الحياتية الحية التي استعملها هي «ساعات الإنذار»، «والأفكار» و «الشوارب» و «الشوك» و «البيض» وهي في ترتيب شكلي مبني على نظام الصدفة واللامنطق، وكلها مواضيع حياتية حية تعني الوحدة وهي نتيجة بسيطة للحياة الساذجة التي عاشها الفنان مع زوجته ومحاولاتهما إيجاد الفن في كل ما هو طبيعي غير معقد. ومن هنا نشأت الفكرة الحيوية الجمالية عند آرب في أعماله الفنية، ففي أوائل الثلاثينات انتقل اهتمام آرب من النافرات الخشبية والملصقات الورقية أي الكولاج إلى النحت الثلاثي الأبعاد ذات الأشكال الواقفة بحرية تامة[١٤].

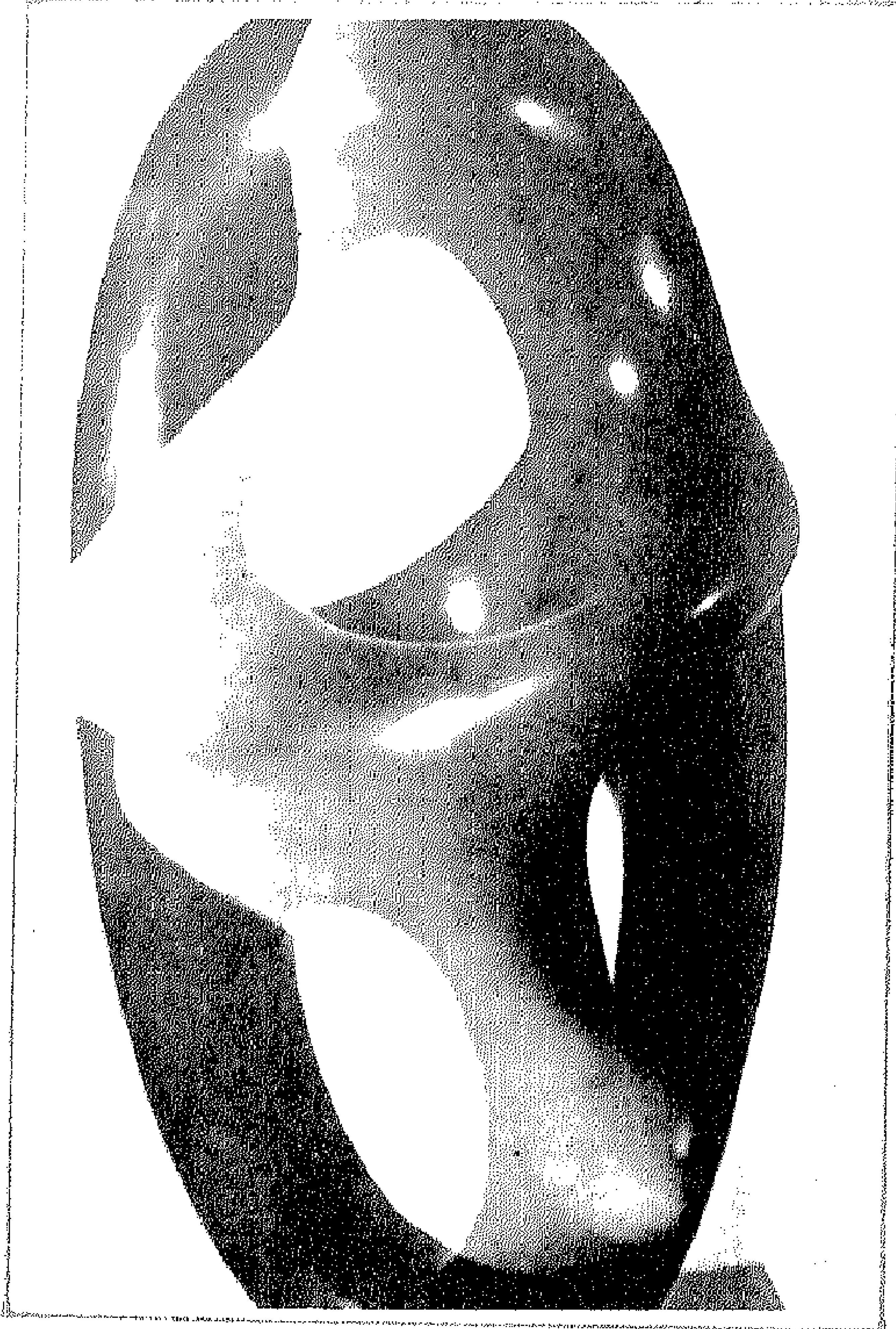
فالأشكال العضوية التي عالجها في نحته كانت دائماً تأخذ شكلاً دائرياً مما يجعلها تدل في خطوطها الدائرية الخارجية على عناصر النمو والحيوية والتحول البيولوجي الحيوي. إذ أن الشكل العضوي هو في تطور مستمر ويتجدد ويتقدم وينمو ويأخذ شكلاً دائرياً كروياً في أغلب الأحيان، وينم عن نظام حيوي، أفضل مثال على ذلك شكل رقم (٧) المعالج عام ١٩٤٩ من الحجر. فهذه المنحوتة بشكلها الدائري لحجم عضوي تظهر أسلوب آرب المبني على النظام

الإنسيابي المائي الذي يستمد أفكاره من قوانين الحركة والفيزياء. فنماذج النمو المعتمد في منحوتاته هي خليط من العمليات الحيوانية والنباتية والتي يقصد منها أن تقدم مجموعة من الرموز العضوية التي هي في حركة تحول بيولوجي مستمر. فالبراعم والنتوءات ومراكز النمو الظاهرة في محيط وسطح منحوتته كأنها تنمو من نقطة معينة من على حائط الخلية البيولوجية ومنها تنشأ وتنمو عدة خليات حيوية اخرى. فالميزة المشتركة بين برانكوزي وآرب في اسلوبهما المعتمد على الجمالية الحيوية هي أن نحتهما لا يعطي أي اقتراح خارجي بذات الأسلوب الروداني (à la Rodin) أي أسلوب رودان الخاص والمميز[١٥]، بل يظهر كل شيء وكأنه مرتب من العنصر الداخلي الأساسي الخاص لدى برانكوزي وآرب والذي يشير صراحة إلى عنصر النمو (شكل رقم ١٧).

يدل فن نحت آرب على أسلوبه الأساسي لمعالجة الموضوع والشكل واستعماله للسطح والإنارة والتأليف وهذه كلها عناصر أساسية خاصة بفنه تدل على وجود إيقاع وحركة وعاطفة عنده لأجل الخلاص إلى الفكرة التي يرغب التعبير عنها[١٦]. ومن هنا يظهر اهتمام فناني النحت للقرن العشرين في تطور معالجة الحجر أو الرخام وإعطائه أشكالاً متغايرة رمزية.

أخذت محاولات آرب تتجه في أواخر الثلاثينات ١٩٣٠ إلى معالجة الأشكال المتزايدة التعقيد واللامنطقية، فاستبدلت الأشكال ذات الخلية الواحدة بتلك المفتوحة الشبيهة بالأظفور النباتي وكان العنصر الهندسي في النمو العضوي اهم شأناً من عنصر النمو. ومثال ذلك شكل رقم ١٨) المسمى «بتوليمي (أ) المنفذ من البرونز.

هذه المنحوتة موجودة من الرخام ومن ثلاث قطع من البرونز، نفذها آرب بعد فترة طويلة من عدم النشاط واللاإنتاجية خلال الأربعينات بسبب وفاة زوجته عام ١٩٤٣، هذا العمل الفني يختلف عن أعماله السابقة التي كانت تتبع أسلوب



□ شكل رقم (١٨) «بتوليمي (أ)»، ١٩٥٣ من البرونز.

الأشكال العضوية ومواضيعها «الأوراق»، أو «الصدور»، «والأصداف» هذه المنحوتة هي من النحت الهندسي المحض ذي الشكل الطبيعي المحبذ من آرب[١٧]، إنها تشبه شرايين القلب، مما يعطيها طاقة خاصة تظهر في الأدارع المتصلة والتي تحيط بالمساحات الغير منتظمة والصغيرة. تظهر المساحة أو الهواء كأنهما يتحركان من وإلى هذا العمل الفني ذي الطاقة القوية التي تدل على نوع من الراحة والسكون. ويظهر هنا تأثير الشعر الأدبي عند آرب النحات وقدرته الخلاقة والإبداعية ذات الكمال الجمالي والسحري. قلّل آرب في السنوات العشر الأخيرة من حياته، بسبب التقدم في السن، من معالجة الحجر المباشر فاهتم مجدداً في تنفيذ النحت النافر كما في أوائل أعماله الفنية، لكنه أخذ في بعض أعماله هذه يستعمل مواد الحديد المقوى والمواد غير العضوية التي تمثل سطوحاً آلية غير منطقية، وفي هذا نرى تأثير الآلة والمكننة على أعماله الأخيرة بعد بلوغه السن، وكانت فلسفته آنذاك أن الآلة لا تقل أهمية عن الطبيعة في خلق

الأعمال الفنية. وهذا يظهر أهميته الكبرى أكثر من بيكاسو وبرانكوزي في التأثير على عمل نحاتين إنكليزين شابين هما هنري مور وبربارة هيورث الذين تأثرا كثيراً بأعماله وفنه ويبدون ذلك لما كان لفنهما من اهمية تذكر.

وخلاصة القول أن آرب يشارك رودان وهنري مور في الاهتمام في الفضائل والخصال الخاصة بفن النحت لا سيما منها الإحساس في الحجم والوزن، والمزاج من الحفر والنتوءات، والارتباط المفصلي في السطوح والخطوط، والوحدة في الإدراك الفني. ويظهر آرب من خلال هذه التحليلات وانتماءاته بمظهر الفنان النحات الحيوي والنشيط الذي كان له ولا يزال باع كبرى في التأثير على الاتجاهات التي أخذها فن النحت الحديث. •

* * *

الهوامش والمراجع

(١) Russell, John. *The meanings of modern Art.* Thames and Hudson, London 1981, p. 180.

(٢) Smithsonian Insititution. *The Hirsh horn Museum and Sculpture Garden.* Harry N. Abrams Inc. N.Y. p. 659.

(٣) Arnason, H.H. *History of modern Art: Painting Sculpture and Architecure.* Harry N. Abrams Inc. N.Y. 1977, p. 308.

(٤) Hibbard, Howard. *Masterpieces of Western sculpture from medieval to modern.* Thames and Hudson, London 1977, p. 160.

(٥) Arnason, H.H. *op.cit.*, pp. 308-309.

(٦) *Ibid.*, p. 309.

(٧) *Ibid.*, p. 350.

(٨) *Ibid.*, p. 395.

(٩) *Ibid.*, p. 354.

(١٠) Elsen, Albert E. *Origins of modern schulpture: pioneers and premises.* George Braziller. N.Y. 1974, p. 64.

(١١) *Ibid.*, p. 109.

(١٢) Meilach, Dona Z. *Contemporary Stone Sculpture.* George Allen and Huwin Ltd. London pp. 24-25.

(١٣) *Ibid.*, p. 68.

(١٤) Burnham, Jack. *Beyond modern sculpture.* George Braziller. N.Y. 1976. pp. 86-87.

(١٥) *Ibid.*, pp. 89-92.

(١٦) Meilach, Dona Z. *op.cit.*, p. 135.

(١٧) Hibbard, Howard. *op.cit.*, p. 233.

اتوال، معركة في المغرب ١٩٢١

● المعركة التي نشبت بين المقاومة المغربية وعلى رأسها الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي والقوات الاسبانية عام ١٩٢١. ففي شهر تموز (يوليو) وبينما كان الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي يحاصر اجربين، وصل القائد العام للقوات الاسبانية سلفستر لنجدة الحامية المحاصرة فلما وجد أنها سقطت قرر الانسحاب فتبعته القوات المراكشية.

وفي ١٨ تموز (يوليو) التحمت معه في معركة الاتوال التي تعد من الوقائع الحاسمة في تاريخ مراكش حيث أباد الأمير الخطابي الحملة الاسبانية بأسرها بما فيها القائد سلفستر نفسه. على أثر هذه المعركة هبّت قبائل الريف وطهرت المراكز الاسبانية المبعثرة في أنحاء المنطقة. ويعزو الاسبان وقوع هذه الهزيمة الى أمرين: طبيعة البلاد الصعبة، والفساد الذي كان منتشراً في صفوف جيشهم وإدارته، لكنهم يتجاهلون عاملاً ثالثاً هو أن زعيم المقاومة اتجه إلى تأسيس إدارة منظمة والاستفادة من أحدث وسائل الحرب في مقاتلة العدو.

● معجم شامل للغة الكردية:

بغداد — رويتر: يعكف علماء اللغويات واللغة الكردية في العراق على وضع ما يقولون إنه سيكون اشمل معجم للغة الكردية يصدر حتى الآن.

ويهدف هذا المعجم إلى توحيد هذه اللغة التي يتحدث بها نحو ٢٥ مليون كردي بلهجات مختلفة ويعيشون في مناطق جبلية في العراق وإيران وتركيا وسوريا والاتحاد السوفياتي.

وهذا المعجم من بنات أفكار الدكتور باديرخان السندي وهو كردي يحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة ويقول إنه سيكون أول عمل معجمي كبير يضم أعداداً كبيرة من اللهجات الكردية.

وقال الدكتور السندي: «إنني أرى أن التشتت الإقليمي للمفردات واحد من المشكلات الأساسية التي تواجه اللغة الكردية».

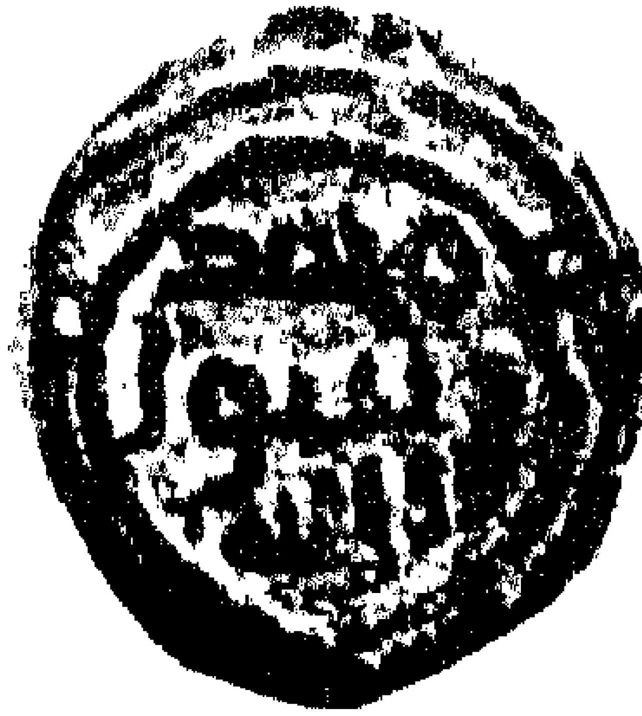
ومضى يقول: إنه «ليس في متناول الكتاب الأكراد معجم يحوي مفردات تتناول كيفية استخدام ألفاظ مختلفة في مناطق مختلفة».

ولأن الكردية لغة ذات أصل هندي آري، فإنها تأثرت تأثيراً كبيراً باللغات الأوردية والفارسية والعربية وكانت معاجم أخرى قد صنفت وظهرت غير أن الدكتور السندي يقول إن جميعها اقتصر على مجال مفردات محدود.

● معرض للعملات الذهبية الإسلامية في لندن:

«عصور من ذهب»، عنوان المعرض الذي اقيم مؤخراً في غاليري «زمانه» في لندن، متضمناً مجموعة نادرة من العملات الذهبية التي يرجع تاريخها إلى العصر الإسلامي الوسيط، إضافة إلى مجموعة نادرة من العملات الذهبية التي تعود إلى القرن الهجري الأول. يذكر أن المجموعة النادرة التي عرضت هي من مقتنيات اللبناني وليم قازان. وقد كشف النقاب عنها للمرة الأولى في محاولة للتعريف بملامح التطور السياسي والاقتصادي لفترة من التاريخ الإسلامي تمثل نحو ألف عام.



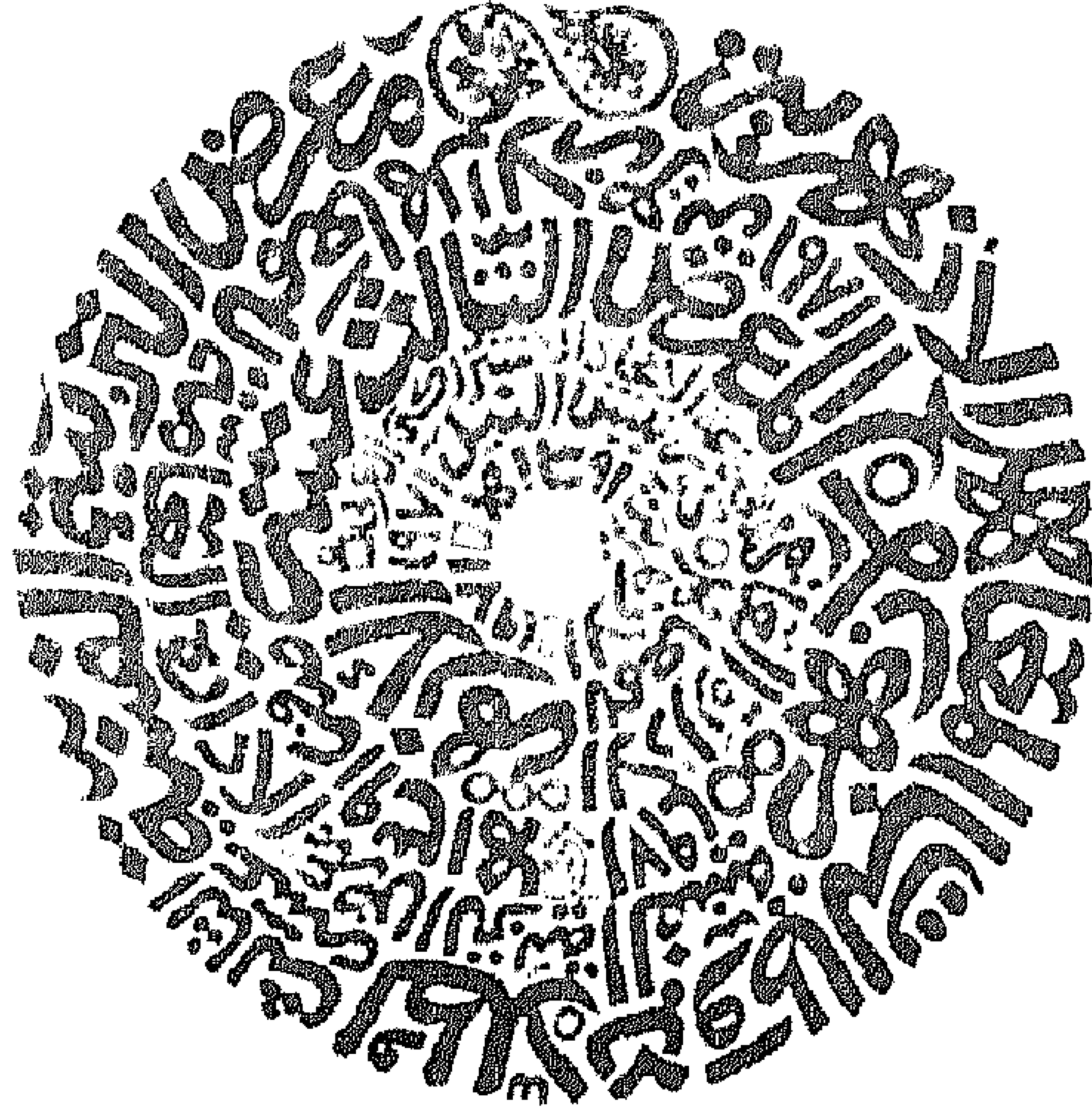


● الإضاءة بالشمس:

يسمح التصميم الرائع الذي ابتدعه المهندسون المصريون القدماء في بناء معبد أبو سمبل — الذي يعود تاريخ تشييده إلى ٣ آلاف عام مضت — على شاطىء نهر النيل لأشعة الشمس بإضاءة تماثيل منحوتة في الصخر أربعة أيام فقط كل عام.

وتضيء أشعة الشمس قدس الأقداس في معبد أبو سمبل على بعد ٢٧٥ كلم جنوب أسوان في الأيام الأربعة نفسها وهي ٢٢ و ٢٣ من شهر شباط و ٢٢ و ٢٣ من شهر تشرين الأول من كل عام. ومن بين أربعة تماثيل منحوتة من الحجر الرملي على الحائط الخلفي للمعبد تسقط أشعة الشمس على ثلاثة فقط هي تماثيل مؤسس المعبد رمسيس الثاني وإلهي الشمس امون — رع ورع — هاراختي.

ويقول الأثري عبدالعزيز صادق: «لا تضيء الشمس أبداً تمثال بتاح لأنه يمثل إله الموت». والمعبد الذي يعود تاريخ تشييده إلى العام ١٢٠٠ قبل الميلاد تقريباً والمبني على الضفة الغربية للنيل هو أكبر ثلاثة معابد في أبو سمبل، وتعود شهرته إلى التماثيل الأربعة الضخمة التي يبلغ ارتفاعها نحو ٢٠ متراً للملك رمسيس الثاني وهو جالس في صورة مهيبة ويوجد كل تمثالين من التماثيل الأربعة على أحد جانبي المدخل. ●



صبحي الشاروني

الحرف العربي
في فن التصوير الحديث وأصوله في التراث



كان الرسم والكتابة عند إنسان ما قبل التاريخ شيئاً واحداً، كما في كهوف «التاميرا» بإسبانيا، وفي الممرات الصخرية بهضبة «تاسيلي» بالصحراء الجزائرية. ويُطلق على هذه الآثار اسم «العلامات البدائية».

كانت الهيروغليفية المصرية أسلوباً من أقدم أساليب «الكتابة بالصور»، كما في «صلاية نعرمر» بمتحف الآثار بالقاهرة، وهي عبارة عن لوح من حجر الأردواز كان يستخدم في صحن الكحل، وسجل عليه بالنحت البارز وقائع انتصار الملك «مينا» أو «نعرمر» ملك الوجه القبلي على ملك الوجه البحري في معاركه من أجل توحيد الوجهين في مصر حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد. ويعتبر هذا اللوح بداية التاريخ المكتوب في مصر.

ولا تزال هناك بدائية تستخدم الكتابة المصورة. كذلك احتوت الأختام الأسطوانية عند شعوب نهري دجلة والفرات على كتابات مصورة ايضاً.

اما في الشرق الأقصى فتعتبر مفردات الكتابة الصينية علامات تمثل كل منها كلمة أو فكرة مجردة، متضمنة لقيمتين: إحداهما فلسفية باعتبارها رمزاً والأخرى فنية باعتبارها صورة.. ومن النادر أن نجد لوحة من أعمال الفن الصيني أو الياباني القديم تخلو من عناصر الكتابة إلى جانب الرسم. وكان لأسلوب الكتابة واعتبارات المهارة في رسم الكلمات أثر عميق على فنون الرسم والتصوير في بلاد الشرق الأقصى.

بسم الله الرحمن الرحيم

ولعل الأوربيين هم الذين أشاعوا أن استخدام الكتابة في الرسم يعني عدم قدرة الرسام على التعبير الكامل بالرسم مما يدفع الفنان إلى رسم دائرة ليكتب عليها «برتقالة» كما في بعض فنون الأطفال.. هذا الموقف المعادي لاستخدام الكتابة في الرسم شاع في الفن الأوربي إلى وقت قريب.

ومع هذا فقد كان استخدام حروف اللغة وكلماتها كعنصر تشكيلي في اللوحات الفنية ظاهرة قديمة في فنون الشرقين الأدنى والأقصى وعدد قليل من الفنانين الأوربيين المعاصرين، سواء بشكل جزئي: عندما تحتل الكلمات جزءاً محدوداً من مساحة اللوحة الفنية إلى جانب العناصر التشكيلية الأخرى سواء الزخرفية أو اللونية المجردة أو التشخيصية. أو بشكل كلي: عندما لا تتضمن اللوحة سوى الخطوط الممثلة لحروف الكتابة أو المحورة عنها.

ومن الممكن اعتبار توقيعات الرسامين على لوحاتهم عناصر خطية مكتوبة، وهي تتخذ في بعض الأحيان صفات تشكيلية متميزة تضيف عنصراً محدداً إلى العمل الفني، مثلما نرى في توقيع الفنان الألماني «ألبرشت دورر» (١٤٧١ ــ ١٥٢٨). وهناك رسامون أوربيون اتجهوا إلى حروف الكتابة ليستخدموها كعنصر تشكيلي في تكوين وبناء اللوحة، وعلى رأس هؤلاء الفنانين «بول كلي» و «كيرت شويتزر» و «جورج براك» و «بابلو بيكاسو» وآخرون.

ومن الممكن اعتبار الملصقات الإعلانية في عصرنا الحديث شكلاً من أشكال الفن التي تحتم استخدام العناصر التصويرية إلى جانب حروف اللغة وكلماتها.

موقع اللغة
عند الشعوب العربية

تمثل اللغة العربية عند شعوب المنطقة الممتدة من الخليج شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً رابطاً رئيسياً بين هذه الشعوب يفق في مكانته أي رابط آخر، فوحدة اللغة هي التي ترتكز عليها أية دعوة للترابط والتقارب والاتحاد بين شعوب هذه المنطقة، فالانتماء للعروبة هو انتماء لغوي، وليس انتماء لسلالة أو عقيدة دينية حيث تتعدد الأجناس وتوجد أقليات دينية وتتعدد الطوائف الإسلامية.. ومن هنا نستطيع أن ندرك الدور الذي تلعبه اللغة العربية في مجال التقريب بين شعوب هذه المنطقة، باعتبارها وعاء يحتوي الكثير من عناصر التقارب والتفاهم مثل العناصر التراثية كالميثولوجيا والخرافات والأساطير، بالإضافة إلى التقاليد المكونة لجذور المزاج العام بين شعوب المنطقة.

ويقول الفنان السكندري الراحل «سعيد العدوي» (١٩٣٨ ــ ١٩٧٣) وقد وضع رسالة علمية عن الخط العربي موضحاً موقفه من اللغة العربية وأثرها عليه كفنان: «الخط العربي هو أصدق دليل لمزاجنا وأبعاد حضارتنا العربية.. إنني أرى في كل حرف من حروفه تلخيصاً لمنهجنا الفكري..».

بعد ظهور الإسلام كانت اللغة هي الركيزة الأساسية للحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها.. فالقرآن ولغته العربية كانا أساساً للفتوح والغزوات التي أدت إلى قيام الامبراطورية الضخمة في العصرين الأموي والعباسي. وكان نشر اللغة العربية هدفاً من أهداف هذه الفتوحات.

الدكتور محمد محمد الفحام شيخ الأزهر
يسعده دعوة سيادتكم لحضور
افتتاح معرض التربية الفنية الثالث عشر
والتجربة الأولى لمركز الفنون التشكيلية
لطلاب وطالبات المعاهد الأزهرية
بقاعة العرض بالاتحاد الاشتراكي
العربي كورنيش النيل القاهرة في تمام السادسة مساء يوم
الخميس ٢٦ من صفر سنة ١٣٩١ الموافق
٢٢ من أبريل ١٩٧١ يستمر المعرض إلى ٣٠ أبريل ٧١ من ٩ ص إلى ٢ م ومن ٥ إلى ٩ م

□ دعوة لحضور معرض كتب بخط الفنان محمد أباظة.

ولمكانة القرآن كان من الطبيعي أن يُكرم عن طريق الإبداع في كتابة كلماته. وبسبب ارتباط الإسلام بلغة القرآن، حمل الدين الإسلامي اللغة العربية ونشرها في كل مكان دخله وأصبح فيه عقيدة الأغلبية.. ويؤكد ذلك عالم الفنون الإسلامية «أرنست كونيل» في مقدمته لكتاب «فن الخط العربي» عندما يقول:

«لقد منح الدين الإسلامي للعرب اللغة والخط، وانتشرت الأبجدية العربية في العالم الإسلامي، فأصبح رابطة لجميع شعوب المنطقة رغم الحدود الحاضرة».

وكما ارتبطت الكتابة بالرسم في الشرق الأقصى، وبالحفر على الأختام الأسطوانية فيما بين النهرين، فقد ارتبطت أيضاً بالعمارة في الفن الإسلامي القديم.. ودون شك، فقد كان انتشار الاعتقاد بتحريم رسم الأحياء عند المسلمين من العوامل التي ساعدت على الاهتمام بالخط العربي الذي اتخذ لنفسه وظيفة زخرفية وتجميلية تعوض التخلي عن رسم العناصر الحية، واحتل مكاناً بارزاً في مختلف ميادين الحياة وخاصة ميدان العمارة.. وكان للخطاطين مكان بارز في مختلف المراكز الإسلامية التي قامت — بدورها — بمحاولات متصلة لابتكار أشكال جديدة للكتابة العربية تتناسب مع فن الكتابة وفن العمارة ثم الفنون الصغيرة التي تتولى تجميل الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية.

وإذا لاحظنا أن العرب قبل الإسلام كانوا يقدسون الكثير من الأحجار والنصب.. فإن استخدام الآيات القرآنية في تزيين المباني بعد الإسلام أصبح عنصراً ضرورياً له قوة سحرية تطرد الأرواح الشريرة والآلهة القديمة، كما كانت تمثل شكلاً من أشكال إعلان الولاء للدين الرسمي.. لقد كانت آيات القرآن وسوره على المباني — ولا زالت حتى يومنا هذا — تمثل

تعويذة سحرية يطلق عليها في العصر الحاضر اسم «التبرك».

ويقول «باول باريتس» حول الدور الديني للغة وكلماتها عند العرب: «في الإسلام يلعب الوازع الديني دوراً اساسياً في عمل الخطاط المسلم، الذي يعبر في عمله عن التسليم لله والتوكل عليه..».

هذا من الناحية الدينية، أما من الناحية الفنية فقد بلغ اهتمام العرب باللغة المكتوبة إلى الحد الذي جعلهم يُحمّلون صور الحروف قيماً تعبيرية تتمثل في حركة الخطوط، ودورانها حول نفسها أو في تدفقها مندفعة في مختلف الاتجاهات، فالحروف تبدأ قوية مؤكدة وتنتهي خافتة كما لو كانت تذوب أو تختفي.. تماماً كما يختفي البدوي في أعماق الصحراء خلال ترحاله. كما أن تجويد الفنان الإسلامي للكلمات المكتوبة يتماثل تماماً مع تجويده في قراءة آيات وسور القرآن.

وقد وضع بعض الشعراء تشبيهاً جمالياً لبعض حروف اللغة مثلما يقول ابن المعتز عن حروف الألف:

كان السقاة بين الندامى
الفات على السطور قيام..

ونستطيع أن نجد في الأدب العربي تشبيهات أخرى تصور حرف السين على أنه الأسنان الجميلة، وحرف العين على أنه العين الإنسانية، والراء هي صورة الهلال، أما الدال فهو صورة العاشق المدلة في الحب.. الخ.

الحرف في الفن الحديث

يمثل استخدام حروف اللغة ـــ التي تعتبر وسيلة لغوية بحتة ـــ في لوحات الفنانين التشكيليين المعاصرين، مناورة أدبية لتحقيق مناخ جديد زاخر بالامكانيات الرمزية والزخرفية في آن واحد، وهذا يضيف إلى الفن بعداً جديداً لم يتوصل إليه الفنان إلا منذ وقت قريب.

إن الحروف والكلمات في اللوحات تحقق نوعاً من الحركة الذهنية المقصودة التي تضيف متداعيات حول المضمون الروحي والحضاري للغة وكلماتها.



□ توقيع الفنان احمد فؤاد سليم، ١٩٧٦.

هذا المناخ هو بالضبط ما قصد إلى تحقيقه الفنانون المعاصرون في الغرب عندما استخدموا حروف الكتابة في لوحاتهم، بل وعندما اتجه بعضهم إلى حروف اللغة العربية واعتبروها عنصراً تشكيلياً جديداً ومثيراً لجمهورهم.. وأوضح اللوحات المتضمنة لحروف من اللغة العربية وكلماتها نجدها في أعمال الفنانين المعروفين: «بول كليه» Paul Klee و «نالارد» Nallard و «هوفر» Hooffer و «ديجوتكس» Degottex و «تروكس» Trox و «مانوسيه» Manossier.

وكان «بول كليه» أشهر هؤلاء وأكثرهم ولعاً بخطوط اللغة العربية التي تمتاز بالمذاق التعبيري النقي كما يتحقق في رسوم الأطفال. وهكذا فقد اتخذت الحروف العربية في أعمال الفنانين الأوربيين صيغة متحررة تماماً عن الأصول والقواعد الملزمة للكاتب، وأضحت فناً تجريدياً خالياً من القيم الأدبية أو الفلسفية التي تركت مكانها للعناصر الموسيقية، من إيقاع للخطوط، ووحدة في التكوين التي قد تتخذ أحياناً شكلاً زخرفياً تجميلياً فحسب.

الحروفيون العرب المعاصرون

والمقصود بالحروفيين هم الرسامون الذين جعلوا من الحرف العربي منبعاً لإلهامهم وموضوعاً شكلياً للوحاتهم.

لقد كانت اللغة العربية هي الأبجدية الوحيدة في العالم، التي حققت اتجاهاً فنياً متكاملاً في وقت من الأوقات. ثم أصيب الفن العربي بنكسة وتدهور خلال فترات التحلل والانهيار،



□ العام العالمي للمرأة ١٩٧٤، للفنان الدكتور يوسف سيدة.

ضاعت خلالها الصفات الخلاقة الابتكارية من الخط العربي، وتحولت أعمال الخطاطين إلى نوع من الأداء الأكاديمي المصبوب في قوالب جامدة متحجرة خالية من أية قيمة تصويرية.

وظل الانفصال بين فنون الرسم وفنون الخط حتى تم اللقاء بين الفنانين العرب والفنانين الأوربيين خلال القرن العشرين، هذا اللقاء نقل إلى المجتمع العربي فكرة ضرورة استعادة الفنان لحريته في الخلق والابتكار، ثم أضاف فكرة وحدة كل الفنون مؤخراً.. كما كان تأثير الاتجاهات التجريدية حافزاً للفنانين العرب على استخراج واسترجاع القيم الشكلية والجمالية البحتة في الفنون الإسلامية القديمة. وهكذا ظهر من جديد اتجاه إلى البحث عن إيحاءات حروفية وكتابية لينسج منها الفنانون لوحاتهم.

ونستطيع أن نرصد ظهور الحروفيين في البلاد العربية ابتداء من منتصف الخمسينات: في المغرب وتونس ومصر والعراق، كانت محاولات متفرقة في البداية، لكنها لم تلبث أن أصبحت اتجاهاً عاماً شائعاً عند الكثيرين في السبعينات، إلى حد أنها اتخذت شكلاً منظماً في العراق عندما قام عدد من الحروفيين بإقامة معرض لأعمالهم في بغداد تحت اسم «الفن يستلهم الحرف» وأطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة البعد الواحد» وطبعوا كتاباً صغيراً يعرض وجهة نظرهم في هذا المجال، وقد أثار هذا الكتاب العديد من المناقشات على صفحات الصحف العراقية والمصرية.

ولكن الحروفيين في مصر لا تربطهم أية رابطة، كما لم يقم بينهم أي حوار — ربما كان سبب ذلك هو الظروف الخاصة بمصر خلال النصف الثاني من القرن العشرين — كل فنان من هؤلاء الحروفيين اتجه إلى استلهام الخطوط العربية بطريقته الخاصة لتحقيق أهداف تشكيلية تختلف عن أهداف زملائه وأسلوبهم في استعمالها. وكانت الدوافع الرئيسية لهذا الاتجاه ترتكز بالدرجة الأولى على إيجاد وسيط مناسب بين الفنان غير التشخيصي والجمهور المصري الذي يرفض اللاتشخيصية ويسخر من مبدعيها معرضاً عن أية مناقشة حول دوافعها وأهدافها.. وعندما عثر الفنانون على الحروف العربية اكتشفوا أنها وسيط مناسب يستطيع أن يستوقف المشاهد المصري عند لوحاتهم، فيحاول قراءة مفرداتها اللغوية، فيستقبل خلال هذه المحاولة — التي قد تنجح أو تفشل — بعضاً من القيم التشكيلية والجمالية التي يسعى إلى تحقيقها في لوحاته.

إلى جانب هذا فقد أدرك هؤلاء الفنانون أن حروف اللغة تمثل ينبوعاً لا ينضب للقيم الجمالية: فرؤوس الحروف وبداياتها تتخذ شكلاً قوياً واضحاً أما سيقانها فتمتد، ونهاياتها ترق وتشف حتى تختفي، وهي غنية بالخطوط الرأسية والأفقية والمنحنيات والمدات بالإضافة إلى التشكيل... وكلها عناصر شديدة الثراء والغنى والتنوع.

وكما استخدم الخطاطون القدامى هذه الميزات لإثراء الزخارف وتحويرها من طابع الحروف المجرد إلى أشكال تشخيصية، فإن الفنان المعاصر استطاع أيضاً أن ينهل من هذا النبع الغزير مستخرجاً الإمكانات التشكيلية الخالصة التي تحقق ـ إلى جانب الشكل المعاصر ـ بعداً حضارياً أصيلاً، وذلك عن طريق إخضاع الشكل الفني لقواعد هذا الموروث الحضاري العريق.

وكما اتخذ الفنان الإسلامي القديم من الكتابة عنصراً تشكيلياً يحقق من خلاله الزخارف التي يهواها، اتجه الفنان المصري المعاصر إلى اتخاذ الحروف العربية كعنصر تشكيلي، فحقق من خلالها إيقاعات جمالية خالصة وإن أفرغها من مضمونها الصوفي القديم.

وبعد أن جرب الفنانون المعاصرون في مصر كل الاتجاهات الحديثة التي ظهرت في الفن الغربي، وبعد أن قدموا خلال أربعين عاماً ملخصاً وافياً لمدارس الفن الحديث والمعاصر التي تتابعت في أوربا.. وبعد أن أصر الجمهور ـ في مصر وخارجها ـ على موقف الرفض لهذه المحاولات: عندما أعلن الجمهور المصري في أكثر من مناسبة أنه لا يستطيع استيعاب هذه الاتجاهات الغربية المنقولة، وأعلن النقاد في الغرب بعد أن شاهدوا أعمال هؤلاء الفنانين: «هذه بضاعتنا ونحن نبدع أفضل منها وأكثر أصالة»..بعد أن استمر هذا الحال أكثر من ربع قرن، عثر الفنانون المصريون على كنز الخطوط العربية وحروف اللغة.. وفي الحال أحس الجمهور المصري أمامها أنها ليست غريبة عنه، لأن هناك عادة تقليدية منتشرة لدى الطبقات المتوسطة ،هي تزيين غرف الاستقبال في المنزل المصري بالآيات القرآنية والحكم والأمثال المكتوبة بخطوط اللغة العربية الزخرفية الجميلة، هذا التقليد لم ينقطع أبداً، ولهذا احس بالألفة نحو الاتجاه الحروفي الجديد. أما جمهور الفن ونقاده في الدول العربية فيزداد يوماً بعد يوم. اهتمامه بكل ما هو عربي لأسباب سياسية واقتصادية، وقد وجد في أعمال الحروفيين العرب إجابة مقنعة لسؤاله عن الأصالة والتميز في فنون العرب المحدثين.

وزاد الاتجاه الحروفي اتساعاً في مصر والعراق، وفي غيرهما من البلاد العربية، كما وصل بعض الفنانين إلى مستويات عالية في ميادين الابتكار والمهارة والتمكن بل واشتهروا بين متابعي الحركة التشكيلية في جميع أنحاء العالم. ونقدم فيما يلي مجموعة من أشهر الحروفيين العرب في العراق وسوريا ولبنان ومصر، على أن هذا العرض ليس شاملاً أو جامعاً.

من العراق:
حسن شاكر آل سعيد

يمثل الفنان شاكر آل سعيد الرأس المفكر لجماعة البعد الواحد.. وهو يروج لأفكار صوفية حول الخط العربي تشكيلياً، ويعتبر اللوحات الخطية قادرة على تقديم وجه عراقي معاصر في فنون الرسم والتصوير دون أن تتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي. وقد تخلص الفنان «آل سعيد» من لوحاته التشخيصية التي كانت ذات اتجاه تعبيري عندما اعتنق الفكر المتصوف في الفن.

ويتركز المفهوم الفلسفي لتجمع «البعد الواحد» في أن حروف اللغة قادرة على القيام بدور بديل لكل العناصر التشخيصية والمعنوية في الفن.. ويعرض الفنان «شاكر آل سعيد» في تقديمه لمعرض الفنان الطبيب قتيبة الشيخ نوري عام ١٩٧١ ببغداد ملخصاً لما يتضمنه «الحرف» من دلالات فيقول: «... فإذا ما تعمقنا في الإلمام بكيانه (الحرف) وجدنا أن جوانبه تتعدد ما بين

ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم

ان تكـون: وجودا شكليـا للحروف المتنـاثـرة او (الكلمة) المدونة. او وجوداً روحياً له ككيان حضاري وكوني يفنى فيـه الإنسان بـالعالم. أو وجوداً زمنياً لصوت مسموع بدلالاته النطقية المقروءة».

الدكتور قتيبة الشيخ نوري

ينطلق الدكتور قتيبة الشيخ نوري من الحرف بمعناه اللغوي بدلالته كأحد مفردات اللغة إلى الحرف بمعنى نهاية الشيء أو حافته، وفي احدى مراحله الفنية اختار الشكل الدائري لينسج منه لوحاته في شكل أقواس تتداخل وتتعانق لتفصل بـين المساحـات اللونية، بـاعتبار أن الدائـرة هي حـافة الكـرة أو حرفهـا، ويعلن أن الخط الصحيح الكوني هو القوس ابتداءً من القوس المحدد لحافة الكرة الأرضيـة وانتهاءً بمسـار الضوء في الفضاء الكوني.. وهو يرى أن الخط المنحني أكثـر قدرة عـلى التعبير عن الحـركة والديناميكية في اللوحة عن غيره من الخطوط.

جميـــل حمـــودي

من أبرز العراقيين في مجال استلهام حروف اللغة العربية. وهو أول فنان عراقي استخدم العنصر التشكيلي في لوحاته، واشتهر من خلال نشاطه في فن التصوير الزيتي والنحت.. أصدر في بغداد عام ١٩٤٥ مجلة «الفكر الحديث» ثم مجموعة من النشرات الفنية باسم استوديـو، وبدأ فنه بالاتجاه السريالي، لكنه في باريس تحول إلى التجريد المستلهم من التراث الإسلامي حيث عكف على دراسة المخطوطات العربية في مكتبات باريس.. وهناك أسس داراً للنشر باسم «عشتار» وأصدر مجلة بهذا الاسم..

يستخدم جميل حمـودي الحروف اللغـوية والكلمات في لوحاته ويوظفها بوعي كامل بكل دلالاتها وإمكانياتها الباطنة والظاهرة، ويعتبرها قادرة على تحقيق الشكل وإبراز المعنى وحمل المضمون. وتبدو لوحاته وكأنها مكعبات متراكمة متتـالية.. وكثيـراً ما تتعـذر قـراءة الحـروف والكلمات فيبقى منها شكلها التجريدي وإيحاؤها العربـي. وقد ساهم الفنان في تأسيس جماعة «البعد الواحد» وشارك في معارضها.

ومن سوريا:
برهـــان كركـــوتلي

لا يمثل الاتجاه إلى حروف اللغة في فنون التصوير والرسم حركة منـظمة أو شـاملة في سوريا كما هو الحال في العراق، ولكن حروف اللغة العربية تظهر من حين لآخر في أعمال بعض الفنانين السوريين. ويحمل الدكتور عفيف بهنس الناقد ومؤرخ الفن لواء الدعوة إلى استلهـام الفنون الإسلامية.

ويعتبر الفنان برهان كركوتلي أكثر الفنانين السوريين استخداماً لحروف اللغة العربية في لوحـاته التي ينفـذهـا بـأسـاليب فن الحفـر (الجرافيك). درس هذا الفنان في القـاهرة ثم سافر إلى المغرب، ومنها إلى ألمانيا حيث استقر فترة في مدينة «مانهايم» ثم انتقل إلى فرانكفورت حيث يعيش الآن كفنان محترف.. وفي معـظم لوحاته يستخدم الكلمات العـربية التي تحكي قصة أو تشير إلى دلالات مستمدة من التراث.. وله لوحة رسم عناصرها أو أشخاصها بأسلوب يذكرنا بلوحات أبو زيد الهلالي وآدم وحواء في الفن الشعبـي العـربـي، وتتضمن لوحـاتـه

الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم

الأخرى حواديت شعبية وحكماً وأمثالاً وشعارات سياسية أيضاً، وقد حاول أن يصيغ قصة حبه وزواجه بهذا الأسلوب.

ومن لبنان
وجيــه نحــلة

يعتبـر الفنان وجيه نحلة أشهر الفنـانين اللبنانيين الذين استلهموا الحروف العربية في لوحاتهم، وقد تميز بأسلوبه الخاص في تناول العناصر الحروفية إذ يحولها إلى وحدات تجريدية خالصةويستخدم أحيانـاً أجزاء من الحـروف العربية وأحياناً أخرى كلمات ناقصة.. ويقدم في النهاية شكـلاً تجريـدياً يستـطيع أن يتـذوقه ويستمتع به كل من يشاهد لوحاته حتى لو كان لا يقرأ اللغة العربية.

وطريقة تشكيله للوحاته تعتمد على العجائن البارزة القوية الألوان التي تتخذ عادةً مظهراً زخرفياً مبهجاً مع الاحتفاظ بالقيم التصويرية في العمل الفني.

ومن مصر:
محمد إبراهيم (١٩٠٩ ــ ١٩٧٠)

يمثل الفنان محمد إبراهيم الجانب التقليدي في فن الخط العربـي، فهو يرسم لوحات خطية على الأسس المتوارثة.. وقد كان رئيساً لمدرسة تحسين الخطوط بالاسكندرية، ويلاحظ انه كان أكثـر الخطاطين التقليـديين المحـافظين قـربـاً واندماجاً بمجتمع الفنانين التشكيليين.

لقد طبق محمد إبـراهيم دراساته المتعمقة للجوانب العريقة في فن الخط العربـي، وأقام معرضاً كبيراً يوضح تطور فن الكتابة العربية خلال الف عام أقيم بالاسكندرية عام ١٩٦٦.

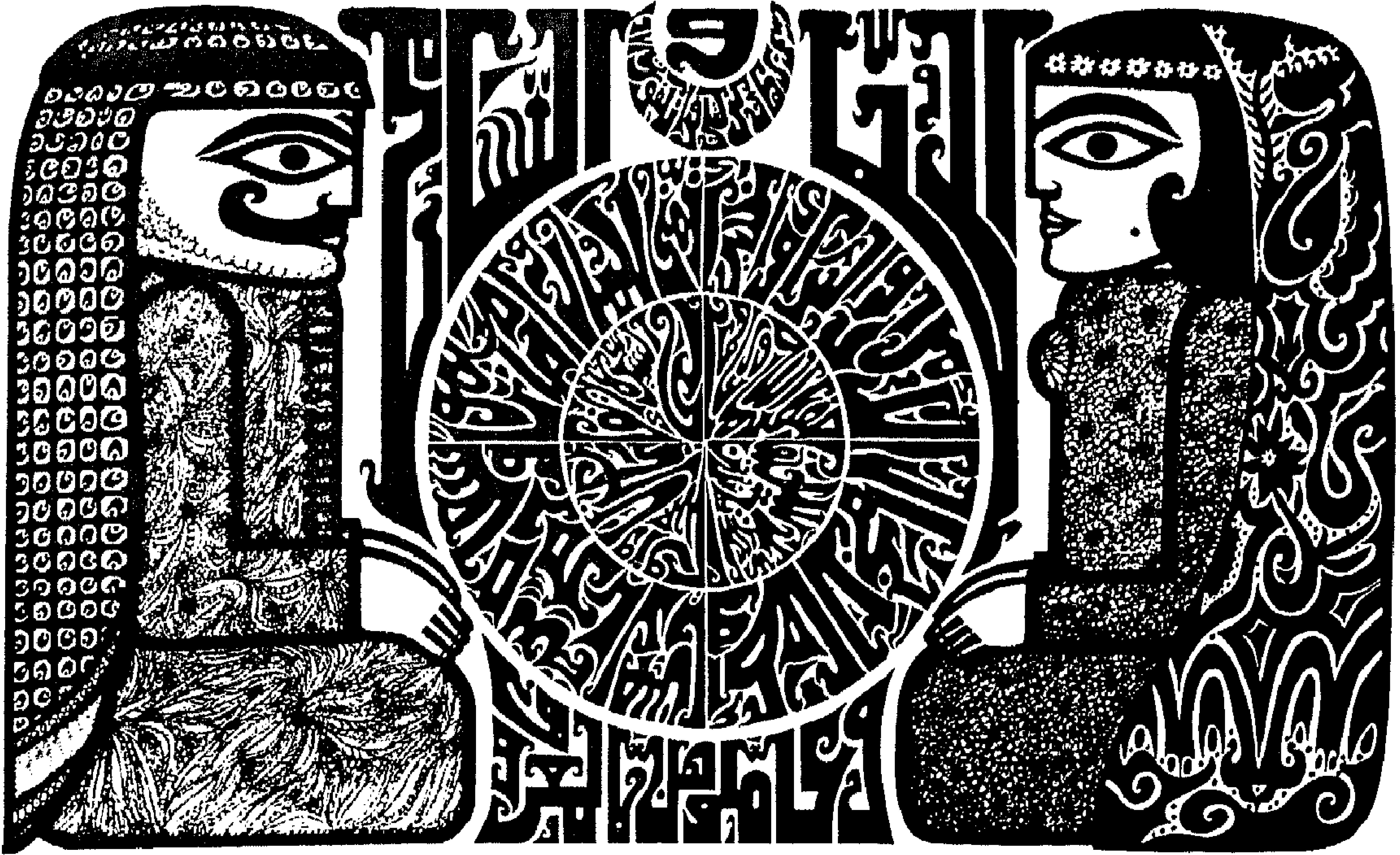
وترجع أهمية أعمال محمد إبراهيم إلى أثرها في عدد كبير من الفنانين التشكيليين الذين درسوا الخط العربـي على يديه.

حامد عبد الله
(ولد عــام ١٩١٧)

يعتبر الفنان حامد عبد الله من الرواد الأوائل للحركة الحروفية العربية. ويبدأ تاريخه الفني في الثلاثينات بالأسلوب التأثري حيث كان يسجل الريف المصـري في لوحـاتــه، ثم تحـول في الأربعينـات إلى الاهتمام بـإعـطاء الإحسـاس بالضوء الساطع المبهر في صعيد مصر، ثم اتجه للأسلوب الفطري في الرسم والتلوين ليعبر من خلال هذا الأسلوب عن سذاجة وفطرية النماذج التي يرسمها.

لكنـه في عام ١٩٥٥ هـاجـر من مصر إلى الدنمارك، وهناك ظهر اتجاهه التصويري الذي يستخدم حروف اللغة العربية وكلماتها، وكان يطلق على لوحات تلك المرحلة اسم «طلاسم»، وكانت حروف اللغة في لوحاته عاملاً على جذب انتباه المشاهد الأوربـي لمعارضه وذلك بسبب مـا قدمتـه من مذاق عـربـي متميز لم يـألفه الغربيون.. وانتقل حـامـد عبدالله ليستقـر في باريس عام ١٩٦٧، وهنـاك تبلورت في أعماله قضيـة تحقيق الجـانب التعبيـري بـأشكـال مشخصة تسير في أوضاعها وحركاتها نفس مسار وأوضاع حروف الكلمة العربية التي يرسمها.. إنـه يبحث في استنـطاق الكلمـات عن طريق أشكالها وجرسها، وهدفه هو كتابة حروف عربية يقرأها من لا يعرف العربية.

ويستشهـد الفنان حـامد عبـد الله بالآيـة القرآنية التي نصها: «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس الذي يـوسـوس في صـدور الناس من الجنـة



□ برهان كركوتلي، من أبحاث التراث الشعبي.

والناس».

إنه يضع هذه الآية على قمة البلاغة التعبيرية، إذ يتحقق فيها تطابق المعنى مع النغم والصوت ومخارج الحروف إلى الحد الذي يحقق قمة تكامل الشكل الجمالي.

الدكتور يوسف سيده
(ولد عام ١٩٢٢)

يسلك الفنان يوسف سيده طريقاً مشابهاً لطريق زميله الفنان حامد عبدالله في إعطاء دلالة تعبيرية للكلمات، وفي استخدام الجسم الإنساني في لوحاته الحروفية.. ولكنه يختلف عنه في تجنبه التلاعب بشكل الحروف وتحويرها إلى شكل مشخص، إن الحرف والمشخص يتداخلان عنده، في شفافية مرة وامتزاج مرة أخرى.. وهو يحرص على إعطاء نسيج اللوحة مذاقاً شعبياً مصرياً عند استلهامه خطوط وألوان فن صناعة الخيام الشعبية.

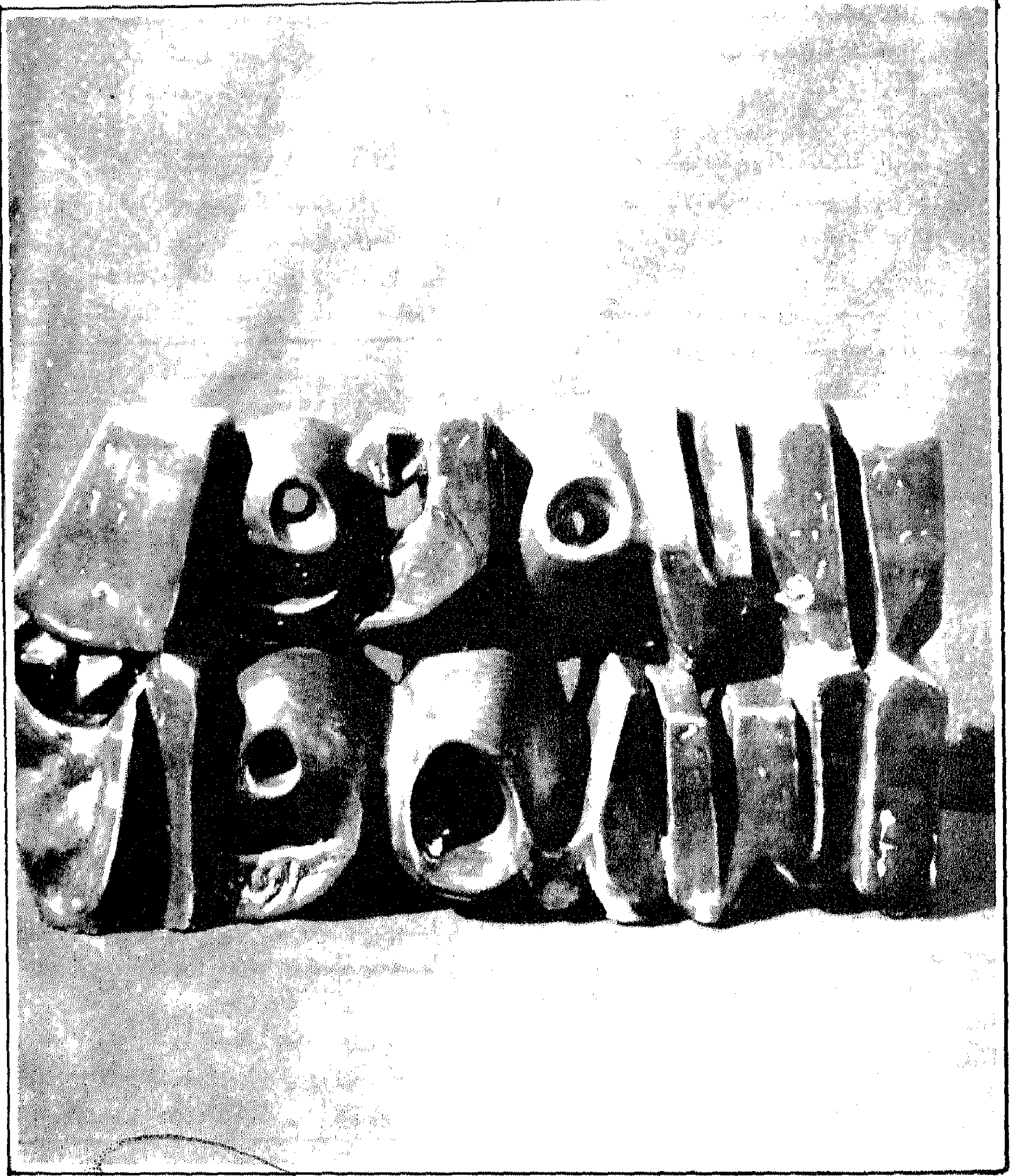
وله مجموعة من اللوحات رسمها بمناسبة العام الدولي للمرأة ١٩٧٥ حرص فيها على تحقيق الأثر النفسي للفظ متداخلاً مع أجسام النساء المعبرة عن المناسبة.

وهو يقول: «لقد شعرت بأنني يجب أن أعكس ديناميكية القرن العشرين إلى جانب التقاليد المصرية.. لذلك حاولت عن طريق الخط العربي تحقيق ذلك، لأن الكلمة العربية لها شكل تجريدي، ولها مضمون يتفاعل مع تقاليدي كعربي وكمصري».

أحمد فؤاد سليم
(ولد عام ١٩٣٦)

يمارس الفنان أحمد فؤاد سليم نوعين من الخطوط، أحدهما وظيفي عندما يكتب عناوين المعارض أو عناوين الدعوات ، وعندما يوقع باسمه، وثانيهما تجريدي عندما يرسم لوحاته الزيتية.

وفي حروفه الوظيفية نراه يتعمد إعطاء الإحساس بسرعة حركة الفرشاة على الورق دون التأنق أو العناية، كما يلجأ إلى التلاعب بالعلاقة بين الأبيض والأسود، مع استخدام الأهلة والأقواس التي تقتطع من الحروف ما يسمح بتحقيق إيقاعات دائرية، دون أن يفقد الحرف العربي دلالته المقروءة.. وفي هذا النوع من



□ «الله نور السموات» سيراميك ١٩٧٤، محمد الشعراوي.

الكتابة عند «سليم» نلمس اتجاهاً زخرفياً رغم الفكر التجريدي الكامن خلف العمل.

ولكنه في لوحاته الزيتية لا يلتزم بحروف مقروءة، فتتحول الكتابات العربية عنده إلى ما يشبه الديدان أو الحبال المعقودة أو الثريات المعلقة في الهواء، ويخيل للمشاهد أحياناً أن الفنان يرسم حيوانات اميبيه تتحرك وتسعى، مما يحقق الإحساس بالديناميكية في العمل.

ولعل أهم القضايا التي تشغل هذا الفنان هي قضية إبراز الصراع بين الألوان، وهو يستخدم الحرف العربي ومشتقاته في تأكيد الديناميكية والحركة الناتجة عن هذا الصراع.

ويساهم سليم بأسلوبه التجريدي في تكثيف احد معطيات الخط العربي، بتحويله هذا الخط من اداة للتعبير اللفظي إلى أداة للتعبير التشكيلي، مضيفاً إليها بعداً إنسانياً وفلسفياً في معظم الأحيان. وتتحول الأرابيسكية النقشية الزخرفية للخط العربي التقليدي إلى مفهوم عضوي ينبض ويتنفس ويتلوى ويتجادل ويتسارع، شأنه في ذلك شأن كل كائن حي، وذلك دون أن يفقد الشكل التصويري عروبة مظهره.

فتحي جودة
(ولد عام ١٩٣٥)

ينفرد الفنان فتحي جودة باتجاهه إلى توظيف قدرته الإبداعية ودراساته المتعمقة للخط العربي في توظيف هذه الأداة في الحياة اليومية.. فقد قام بعمل دراسات نظرية عن الخط العربي وعلاقته بفن التصوير الحديث، ثم بعد ذلك أجرى عدة محاولات لإعطاء الحروف العربية شكلاً جديداً يتناسب ومطالب المطبعة الحديثة.

لهذا نجده يوظف القواعد العامة الطباعية التي تحدد ارتفاعاً موحداً لجميع الحروف لا تتعداه وتفترض عدم المبالغة في مساحة قاعدة الحرف على أن يتخذ كل حرف شكلاً ثابتاً مهما كان مكانه في الكلمة المكتوبة، ثم الالتزام بشكل موحد للامتدادات بين الحروف مع إمكانية تحريكها مستقلة عن بعضها ومتصلة ببعضها في وقت واحد..

كما أن له إنتاجاً تطبيقياً يدور حول استخدام هذه الحروف في أدوات الحلى والزينة النسائية المصنوعة من المعادن والمينا.

سامي رافع
(ولد عام ١٩٣١)

تخصص الفنان سامي رافع في فنون الزخرفة والديكور، لهذا اتجه في لوحاته الحروفية اتجاهاً زخرفياً، وإن كانت بعض لوحاته الزيتية تتضمن القيم التشكيلية اللونية وتهتم بالقيمة التعبيرية أيضاً، ومنذ بداية عام ١٩٧٦ يرسم لوحات متشابهة المساحة — طولها متر وعرضها متر — يسجل عليها أسماء الله الحسنى.. ورغم أن هذه المجموعة لم تكتمل بعد إلا ما أنجز منها، يتضمن جانباً صوفياً ومحاولة للتعبير بحركة الحروف عن معنى الاسم.. كما في لوحة «خالق» حيث توحي الحروف بالوحدانية، وبخروج النور من الكلمة، باختراق الاسم للكتلة الخضراء في حركة توحي بالاندفاع والسمو إلى أعلى تماماً كالمآذن أو أبراج الكنائس أو المسلات الفرعونية القديمة.

لكن العمل الفني الحروفي الضخم الذي أقيم لهذا الفنان هو «هرم أكتوبر» أو النصب التذكاري لشهداء حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وهو مقام على أطراف القاهرة بمدينة نصر، على مساحة تبلغ عشرة آلاف متر مربع ويرتفع ٣٠,٢٤ متراً على هيئة هرم مكون من أربع أرجل خرسانية ضخمة مفرغة من الداخل وتلتقي على ارتفاع ١٣ متراً.

حامد ندا
(ولد عام ١٩٢٤)

يستخدم الفنان حامد ندا حروف اللغة العربية في بعض الأحيان ليحقق من خلالها إيقاعاً شكلياً يستكمل به إيقاع العناصر الأخرى التشخيصية التي يرسمها في لوحاته.. وإن كانت الأشكال الإنسانية عنده تقترب في خطوطها وحركاتها وطريقة توزيعها من خطوط وحركات الرسوم الصخرية عند الإنسان الأول الذي عاش في الصحراء الإفريقية الكبرى وبين ممرات هضبة تاسيلي.. رغم هذا فإن أسلوبه في كتابة الخطوط العربية مستمد من الكتابات الشعبية على واجهات البيوت المصرية والتي تستخدم في زخرفة هذه الواجهات لتسجيل مناسبة من المناسبات السعيدة مثل الحج والعودة من الجزيرة العربية أو الزواج أو ختان الأطفال.

هذه الحروف العربية التي تكون جملاً أو أجزاء منها تبدو في صورة تلقائية وعفوية دون أي التزام بقواعد الخط العربي الكلاسيكية.. إنها تقترب من كتابات الأطفال، ولكنها تدخل ضمن التكوين العام للوحة التي تتميز بهارمونية لونية وتوازن في الخطوط والتكوين يجعلها جزءاً لا يتجزأ من نسيج اللوحة.

□ لوحة بالخط الكوفي البديع.

خميس شحاتة
(ولد عـــام ١٩١٨)

يتركز اهتمام الفنان خميس شحاتة على إحياء التراث الإسلامي التقليدي وهو ما يطلق عليه «التجديد على الطريقة التقليدية»..ويعتنق فكرة تتركز حول ارتباط الحضارات التي تتابعت على أرض مصر بالبيئة المحيطة بها، ولهذا كان الفن في هذا المكان ينشد تحقيق التكامل والتوافق بين عناصر العمل الفني من ناحية ومميزات البيئة المحيطة به من ناحية أخرى.

لهذا اتجه خميس شحاتة إلى إنتاج أعمال إسلامية الطابع، قام بتنفيذها بخامات البيئة التي كانت تستخدم في العصور الإسلامية القديمة، وربما بنفس أشكالها. إنه ينفذ أعماله على الزجاج والخزف والقماش وما أشبه ذلك. وهدفه هو وضع رؤيته الجديدة في نفس الإطار الاستعمالي القديم.

أما اللوحة التي تتضمن الخط العربي في مفهومه، فهي أقرب إلى الأحجية أو اللغز الذي يثير نشاطاً ذهنياً ويشحذ الذكاء أكثر مما هو عمل زخرفي تزييني.. وأبرز مثال على ذلك هو لوحته المرسومة بالألوان المائية على الورق التي يسميها «لغز عربي»، يقول:

وطائر في قلبه يلوح للناس عجب.. منقاره في بطنه والعين منه في الذنب.

وحل الشطر الأول من هذا البيت هو أن كلمة «بجع» عندما تقلب تصبح «عجب»، أما الشطر الثاني فهو يصف الطائر عندما يدفع رأسه إلى الوراء ويسند منقاره على بطنه..

فالعمل الفني عند خميس شحاتة هو عمل تعليمي وتثقيفي قبل أن يكون إنتاجاً جمالياً خالصاً.

محمد أباظة
(ولد عـــام ١٩٤٤)

ولعل الفنان الشاب محمد أباظة هو أنجح الفنانين الحروفيين الذين خاضوا ميدان الكتابة بالحروف العربية، فاستطاع أن يطورها من الناحيتين الشكلية والاستخدامية.. ولا أكون مبالغاً إذا اعتبرت أن الإضافة التي يحققها محمد أباظة تمثل حلقة جديدة في سلسلة التطورات الخلاقة التي مر بها فن الخط العربي خلال مسيرته الإبداعية طوال العصور الإسلامية ولم تتوقف إلا منذ ثلاثة قرون.

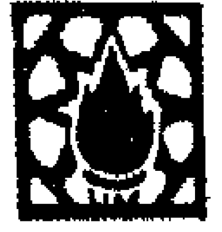
لقد بدأ أباظة منذ عام ١٩٦٨ بعد أن درس فنون الديكور المسرحي وعمل مشرفاً على مركز الفنون التشكيلية بجامعة الأزهر الدينية الإسلامية.. ولهذا كان يتحرك في كتاباته الخطية على أرضية من الفهم والدراسة لأصول الخط العربي.. وكتاباته ذات قيمة نفعية وعملية، فقد صاغ بطريقته العديد من بطاقات الدعوة إلى الاحتفالات الهامة، وبعض الاعلانات الفنية.. وتمثل التشكيلات الجمالية التي قدمها إبداعاً معاصراً يستند على التراث، ويعيد إلى الوجود تلك العلاقة الوثيقة القديمة بين الفن والحياة اليومية. •



ايدن لايزنهاور:

تأميم القناة معناه أن يترك الغرب رقبته في يد عبد الناصر!

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تكشف بوضوح مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القناة ونهبها لثروات الشعب المصري، وبين إصرار جمال عبدالناصر قائد الثورة على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها إيدن نفسه في مذكراته التي نشرت بعد الحرب.



عندما حل شهر يوليه، اتجهت أفكارنا إلى الإجازات، وكانت الخطط التي وضعناها أنا وزوجتي في العام الماضي بشأن الإجازة، لم تنجح. وأما الآن فقد كنت آمل أنا وزوجتي أن نتمكن من قضاء ثلاثة أسابيع في الراحة والاستجمام خلال شهر أغسطس، وكنا نتوق إلى التمتع بأشعة الشمس وبسواحل البحار التي يمكن الاستحمام فيها. وكان حاكم مالطة سير روبرت ليكوك قد تمكن من تدبير إحدى الفيلات الجميلة بالجزيرة لتكون تحت تصرفنا، وكانت هذه الفيلا مطلة على ساحل البحر، فبدأنا نعد الأيام.

بيد أن مشاكل الشرق الأوسط ظلت طوال الصيف تضايقنا وتتعبنا وكان سلوك مصر بوجه خاص، فيما يتعلق بمشروعها الخاص بإنشاء سد أسوان «السد العالي» قد زاد الأمر صعوبة بالنسبة لنا.

وكانت الحكومة المصرية قد تقدمت في سنة ١٩٥٥ بمشروع جريء لتحسين الري في وادي النيل ولتوليد الطاقة الكهربائية. ولتحقيق هذا الغرض فكرت في إنشاء سد عال طوله ٣ أميال، على بعد بضعة أميال جنوبي خزان أسوان الحالي. وكانت حكومة صاحبة الجلالة مستعدة للمساعدة، فقد كنا على علم باحتياجات مصر وكنا نعلم أن عدد سكانها في ازدياد مستمر، وأن مستوى الحياة بها على هذا النحو سوف يأخذ في الهبوط، غير أن مشروع السد العالي أثار كثيراً من المسائل، ومنها مسألة تقسيم مياه النيل بين السودان ومصر، ولم يكن ثمة اتفاق بينهما على هذه المسألة، كذلك أثار هذا المشروع المسائل المعقدة المتعلقة بتمويله. فقد قدرت تكاليف إنشائه خلال ١٦ سنة بنحو ١٣٠٠ مليون دولار منها مبالغ كبيرة بالعملات الأجنبية، لم يكن من المؤكد أن تستطيع مصر مواجهتها بمواردها الخاصة.

وكانت الشركات البريطانية والفرنسية الألمانية قد تضامنت فيما بينها لتنفيذ هذا المشروع، وكانت حكومات الدول الثلاث مستعدة لمساندة شركاتها بتقديم عون مالي لها. وحتى يمكن مواجهة الأخطار الجسيمة، رؤي إشراك الحكومة الأمريكية والبنك الدولي في تقديم المساعدات اللازمة، ووضعت خطة تقضي بأن نشترك جميعاً في هذا المشروع الغالي النفقات والتكاليف، ولكن من الممكن تنفيذه. وكان المبلغ الذي ستساهم به إنجلترا وأمريكا ٧٠ مليون دولار، كان نصيب بريطانيا منه ١٤ مليون دولار. ووافق البنك الدولي على تقديم قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار.

غير أن مصر، أعلنت في شهر يناير أن الضمانات التي يطالب بها الغرب مقابل مساهمته في المشروع، تعد طلباً منه «الإشراف على الاقتصاد المصري».

ولكن هذه الضمانات لم تكن قاسية، فقد كان المطلوب أن يعطى المصريون وعداً بأن يجعلوا لمشروع السد العالي الأولوية على غيره من المشروعات الأخرى وأن لا يقوموا بتنفيذ غيره



□ توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وانجلترا، ويبدو في الصورة الرئيس جمال عبدالناصر وانطوني ناتنغ

من المشروعات، وأن تقدم لهم العقود الخاصة بتنفيذ المشروع على أساس المنافسة، وأن يرفضوا المساعدات التي تعرض عليهم من المصادر الشيوعية.

ومع مرور الشهور كانت مصر لا تزال مصممة على شراء الأسلحة من وراء الستار الحديدي، فانزعجنا لهذا الوضع، وجرت اتصالات مع الرئيس عبدالناصر، تضمنت إقناعه أن يجد حلاً لهذا الوضع، كما تضمنت معاتبته على الإقدام على ذلك، ولكنه كان دائماً يتذرع بخطر إسرائيل.

أصدقاء أيدن في الشرق الأوسط

وكانت ثمة نقطة لا يمكن أن نتجاوزها في عملية تمويل السد، ذلك أنه كان علينا أن نراعي أيضاً مركز حلفائنا ولا سيما العراق، وكانت له احتياجاته الخاصة.

وكانت الحكومة العراقية قد شكت بالفعل في أوائل ذلك العام من أن المصريين استفادوا بمعاداتهم الغرب أكثر دون أن يتعاونوا معه. وكان العراقيون قد حصلوا على ٣ ملايين جنيه وعدد قليل من الدبابات. أما المصريون فقد بدا أنهم سيفوزون بالسد العالي. فإذا كان لا بد من تقديم إحسان، فإن من حق الدول العربية الصديقة أن تسعى للحصول على نصيبها من هذا الإحسان. ولم يكن من المتوقع من هذه الدول أن تنظر بحماس إلى تقديم الغرب مبالغ كبيرة من المال لمشروع مصري في الوقت الذي تزداد فيه الروابط بين مصر وروسيا السوفيتية، بينما تقوم الدعاية المصرية بشن هجوم عنيف على تلك الدول العربية الصديقة وعلينا.

وكانت قد تجمعت لدينا طوال الصيف من

مصادرنا السرية ومن غيرها أدلة تثبت أن عملاء مصر يقومون بنشاط في بلاد الشرق الأوسط، وكان ثمة نشاط مماثل في لبنان، حيث رفض الرئيس شمعون السماح بقيام مظاهرات متعصبة ضد الغرب، فأدى رفضه هذا إلى معاداة عبدالناصر له معاداة لا هوادة فيها.

وفي الأردن دبرت مؤامرات ضد الملك، وقد كشفت حكومة الأردن عن مدى هذه المؤامرات بعد عدة أشهر. وفي العراق جرت كذلك مؤامرات مصرية واضطرت السلطات العراقية إلى إبعاد الملحق العسكري المصري من بغداد.

وكان «صوت العرب» ينبعث من القاهرة ويتردد في كل أنحاء الشرق الأوسط، منادياً بمعاداة الغرب وعملاء الاستعمار، وهذا هو الوصف الذي كانت تصف به القاهرة أصدقاءنا في الشرق الأوسط.

عنى سلوين لويد وزير الخارجية ببحث هذه الحالة مع حكومة الولايات المتحدة فوجد أن وزارة الخارجية الأمريكية متفقة معنا في شكوكنا في الوضع الراهن بالنسبة لمشروع السد العالي وفي مخاوفنا من مصر.

وأجريت مشاورات مع عدد من زملائي من بينهم وزير المالية ووزير الخارجية. وقد قمت شخصياً بدور هام في هذه المشاورات. وفي منتصف يوليو، وبعد دراسة كل الحجج بعناية دقيقة، استقر رأي الحكومة على أنه لا يمكنها أن تمضي قدماً أو أن تستمر في المساهمة في المشروع.

خلاف على الوقت فقط

وكنت أود أن أترك الباب مفتوحاً لأطول مدة ممكنة دون أن أقفله بالقوة بطريقة فيها شيء من التحدي، وخاصة أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى العجلة، ولكن الأمور لم تجر ــ مع الأسف ــ وفق ما كنت أود.

ولا شك أن الحكومة المصرية شعرت بإحجام الغرب وتردده عن أن يعدها بتقديم مبالغ أكبر لمساعدتها في تنفيذ المشروع في الوقت الذي كانت فيه هذه الحكومة تتصرف بكيفية تعد ضارة لنا.

وحاولت الحكومة المصرية أن تخطف العملية طبقاً لشروطها هي. فقد وصل الدكتور القيسوني وزير مالية مصر إلى واشنطن وأجرى سلسلة من المباحثات مع البنك الدولي ومع وزارة الخارجية الأمريكية. وفي يوم ١٩ يوليو، رأى دالاس ــ لاعتبارات متعلقة بموقف مجلس الشيوخ من برنامج المعونة الأجنبية، وبالجو الذي كان سائداً وقتئذٍ في واشنطن ضد سياسة الحياد ــ رأى دالاس أنه مضطر إلى أن يبلغ السفير المصري بأن وعد أمريكا بالمساهمة في تمويل السد العالي قد الغي. وقد أبلغتنا الحكومة الأمريكية بهذا القرار دون أن تتشاور معنا بشأنه، ولهذا لم تتح لنا أية فرصة لانتقاده أو إبداء رأينا فيه قبل إبلاغه إلى السفير المصري. وكانت النتيجة أن الغى البنك الدولي أيضاً القرض الذي كان سيقدمه لمصر.

أسفنا لأن المسألة ــ سحب العرض ــ نفذت فجأة وعلى عجل، بحيث لم تهيء أية فرصة للدولتين ــ إنجلترا وأمريكا ــ لكي توفقا بين وقت التنفيذ وطريقة التنفيذ مع أن هذا لا يقل أهمية عن القرار نفسه.

وفي تلك الأثناء كان عبد الناصر في بريوني حيث كان مجتمعاً مع المرشال تيتو ونهرو، فلما علم بالقرار شعر بأن كرامة بلاده قد جرحت.

حديث مع ملك العراق ونوري السعيد

وكان ملك العراق يزور لندن في شهر يوليو زيارة رسمية مع خاله الذي كان إلى عهد قريب وصياً على العرش، ونوري السعيد رئيس الوزارة العراقية، وكان صديقاً لي منذ حوالي ٣٠ سنة. وكان عبدالناصر يشن في ذلك الوقت حملة عنيفة ضد العراق. ولكن ملك العراق ترك في النفوس أثناء الاحتفالات الرسمية والمباحثات التي جرت معه أثراً طيباً إذ أقنع الجميع، بظرفه الطبيعي، بأنه رجل مخلص. وكان على علم بمشروعات التنمية التي وضعتها حكومته وكانت تتوق إلى الإسراع بتنفيذها، فبدا في نظري كما لو كان احسن طراز للحاكم الشاب المهتم بشؤون شعبه. وخاصةً أنه كان متواضعاً في معيشته وصريحاً في



□ تحرير بور سعيد، رفع العلم المصري بعد انسحاب القوات الانجليزية.

كلامه وآرائه. وبينما كنت أصغي إليه وهو يلقي خطابه في مأدبة العشاء التي أقيمت لتكريمه في قصر بكنجهام، عادت بـي الذاكرة إلى أول لقاء بيني وبين جده فيصل الأول مؤسس العراق والأسرة المالكة هناك. وكان هذا الجد قد عمل مع لورنس وكان حليفاً لنا في الحرب العالمية الأولى. وقلت في نفسي: لو أنه عاش لافتخر بحفيده في تلك الليلة.

وبعد العشاء جرى بيني وبين نوري السعيد حديث في قصر بكنجهام فوجدت أنه ازداد صمماً وأصبح أصم عن ذي قبل، ولكنه كان لا يزال صـاحب عزيمـة كما كـان، ولم يكن يعيش في الأوهام.

وتحدثنا عن الماضي وعن أول لقاء بيننا في بغـداد في سنـة ١٩٢٥ وعن الشخـصيـات الانجليزية والعراقية التي كانت مشهورة بالعراق في ذلك الوقت، كما تحدثنا عن الجنرال جعفر وعن الملك وعن سير فرانسيس همفريس ومس جرترودبيل. ثم تحدثنا عن الحاضر فعلمت أنه يدرك تماماً الأخطار التي تهدده وكانت هـذه الأخطار مجسمة في شخص عبدالناصر ودعايته الشعبية.

وأشاد نوري السعيد بجهود سفيرنا في بغداد سير مايكل رايت، وكنت أشعر بإعجاب نحو هذا الرجل وانا أصغي إليه كما سبق أن أعجبت به لأنه شديد المراس ومكافح عنيد في السياسة وفي الحرب. وارتاح قلبـي له.

وكنت أعلم مدى النشاط الجريء الذي يبذله عملاء عبدالناصر، كما كنت أعلم أن العراقيين يعدون عقبة في طريق رغبة عبدالناصر في إنشاء امبراطورية. وكانت قد دبرت على الأقل مؤامرة أخيراً لاغتيال نوري السعيد، ولكني كنت أعلم أيضاً مدى ما يتمتع به الملك الشاب من حب الشعب له ولا سيما رجال القبائل. ولم يخطر ببالي أن هذا الحديث سيكون آخر حديث بيني وبينه.

فقد حدث بعد سنتين أن قتل الملك فيصل في بغداد مع خاله وأقاربـه من رجال القصر في ظروف وحشيـة لا مثيل لهـا حتى في العصر الحديث إلا إذا استثنينا حادثاً مماثلاً وقع في سنة ١٩٠٣، ففي ذلك العام القي الملك الكسندر والملكة دراجاً من نافذة قصرهما في بلغراد، فلما حاولا التشبث بحافة النافـذة قطعت أيـديهما ببلطة. وقد اجتاحت أوربا بعدئذ موجة من الفزع والرعب. ولقد كانت مذبحة بغداد مهينة بدرجة أشد، فقد جرت جثة الوصي على العرش وجثة نوري السعيد وهما عاريتان، في شوارع بغداد، وكان المنظر منظراً وحشيـاً للغايـة. وقد قتـل أحد الضبـاط الانجليـز وهـو في داخـل السفـارة البريطانية بينما مزق الرعاع أجسام ثلاثة من رعايا أمريكا، ولم تقـدم أمريكـا إلا احتجاجـاً ضعيفاً.

وبعد ايام اعترفت الدول الحرة في الغرب بالحكومة التي شجعت على تلك الأعمال الوحشية وإن كانت لم تقرها.

وفي لندن أمكن فقط عن طريق الأصـدقاء ومنهم وزراء ورجال دين، تنظيم قداس صغير لذكرى تلك الشخصيات الوطنية التي ظلت وفية لصداقتها لنا حتى الموت لم يكن كافياً للإعراب عن احترامنا وعرفاننا نحو تلك الشخصيات في رأيـي.

ليلة تأميم قناة السويس

في مساء السادس والعشرين من يوليو، كان ملك العراق وزعماؤه يتناولون طعام العشاء معي في «داننج ستريت». وأثناء تناول العشاء جاء أحد سكرتيري الخصوصيين يحمل نبأ استيلاء «ناصر» على قناة السويس واغتصاب ممتلكات الشركة التي كانت تدير القناة وفقاً لاتفاق دولي. فقد أعلن «ناصر» في خطاب القاه بالإسكندرية أن مصر نفسها ستجد الأموال اللازمة لبناء سد أسوان. وكانت الوسيلة في متناول يده. سوف يستولي على القناة ويأخذ من دخلها رأس المال الذي يريده.

وانبأت ضيوفي بذلك. وقد رأوا فيه بوضوح قلباً لكل الاتجاهات والأفكار والآمال التي كنا نتحدث فيها، وأدركوا على الفور أن الكثير يتوقف على العزيمة التي سيقابل بها هـذا التحدي، وانفض اجتماعنا مبكراً بعد أن انتهى الغرض



□ رسم كاريكاتوري يمثل «الاستعمار القديم» يحتضر في مصر. من كتاب:
Guilty Men, 1957, Macmillan Etc. (London, 1957). Micheal Foot And Mervyn Jones With Cartoons by Vicky

الاجتماعي من عقده.

وكان مستر سلوين لويد، ولورد سالزبوري، ولورد هوم يتناولون العشاء معنا، فتوجهنا إلى غرفة اجتماعات الوزارة لنناقش ما يجب أن نفعله، وانضم إلينا وزير المالية ورؤساء هيئة أركان الحرب. لم يكن لدي شك في الأثر الذي تركه تصرف ناصر، من جرح في كرامتي. لقد كان ذلك استيلاء على ممتلكات غربية رداً على تصرف حكومة الولايات المتحدة، وعلى نتيجته سوف يتوقف لأية سلطة ستكون لها السيادة والسيطرة.

وقررنا أن ندعو السفير الفرنسي، مسيو شوفل، والقائم بأعمال السفارة الأمريكية مستر فوستر، ليشتركا في مشاوراتنا. وعندما وصلا أخبرتهما بما عرفناه. لقد كانت الحياة الاقتصادية لأوربا الغربية ــ في رأينا ــ مهددة من جراء استيلاء مصر على القناة. وكانت تلك مسألة بالغة الأهمية فهي تتعلق باتفاق دولي تعرض إلى خطر. فيجب على الفور أن تنسق الحكومات الثلاث خطواتها المقبلة حيال ذلك وقدمنا إلى الممثلين الفرنسي والأمريكي محتويات تصريح اقترحت أن أدلي به في مجلس العموم في الصباح التالي. وقد تعهدا بأن يطلبا إلى حكومتيهما أن تتخذ كل منهما عملاً شبيهاً. وفي الساعات الأولى من الصباح التالي أمرت بإبلاغ سفارتينا في باريس وواشنطن برقياً بهذه الخطوة.

وفي صباح يوم ٢٧ يوليو، أجبت في مجلس العموم على سؤال خاص وجهه إلى زعيم المعارضة، قائلاً:

«ان القرار الانفرادي الذي اتخذته الحكومة المصرية بنزع ملكية شركة قناة السويس من دون اخطار، ناقضة بذلك اتفاقيات الامتياز الممنوح لتلك الشركة يؤثر في حقوق ومصالح عدد كبير من الدول. وتتشاور حكومة جلالة الملكة الآن مع الحكومات التي يهمها الأمر بصفة مباشرة، بخصوص الموقف الخطير الذي نشأ عن ذلك. وسوف تتناول هذه المشاورات أثر هذا العمل التعسفي على إدارة قناة السويس، والمسائل الواسعة الناجمة عنه».

وقد صرح مستر جيتسكيل بقوله:

«إننا في هذا الجانب من المجلس نأسف أشد الأسف لهذه الخطوة الجائرة التي لا مبرر لها إطلاقاً والتي اتخذتها الحكومة المصرية»، وأدرك المجلس أنني لا أستطيع في تلك اللحظة أن اضيف شيئاً على المشاورات المتبادلة التي بدات منذ أقل من اثنتي عشرة ساعة.

ثم ناقشت الموقف مع زملائي ومع رؤساء هيئة أركان الحرب. قرأنا نص خطاب ناصر، الذي كان بياناً وطنياً قوياً حافلاً بالأسباب التي يزعم أنها دعت إلى غضبه واستيائه.

«هذه، أيها المواطنون هي المعركة التي نخوضها الآن. إنها معركة ضد الاستعمار والطرق والأساليب التي يتبعها الاستعمار، معركة ضد إسرائيل طليعة الاستعمار... إن القومية العربية كما قلت لكم، قد اشتعلت من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. إن القومية العربية تشعر بوجودها، وكيانها وقوتها».

هذه هي الحجة التي استند إليها ناصر ليقوم بهذا العمل. فقد زعم أن مصر اضطرت بريطانيا إلى الجلاء عن قاعدة السويس، وأنها طلبت من بريطانيا الأسلحة لتستخدمها ضد إسرائيل فرفضت. أما روسيا، فقد زودت مصر بحاجتها بلا قيد ولا شرط. وعندما طلبت مصر معونة مالية لتشيد سد أسوان، أراد البنك الدولي أن يفرض شروطاً كان من شأنها ان تخضع الاقتصاد المصري لوصاية بغداد. ولهذا تؤمم القناة اليوم على سبيل الانتقام، ولأن شركة القناة اغتصبت حقوق الشعب المصري.

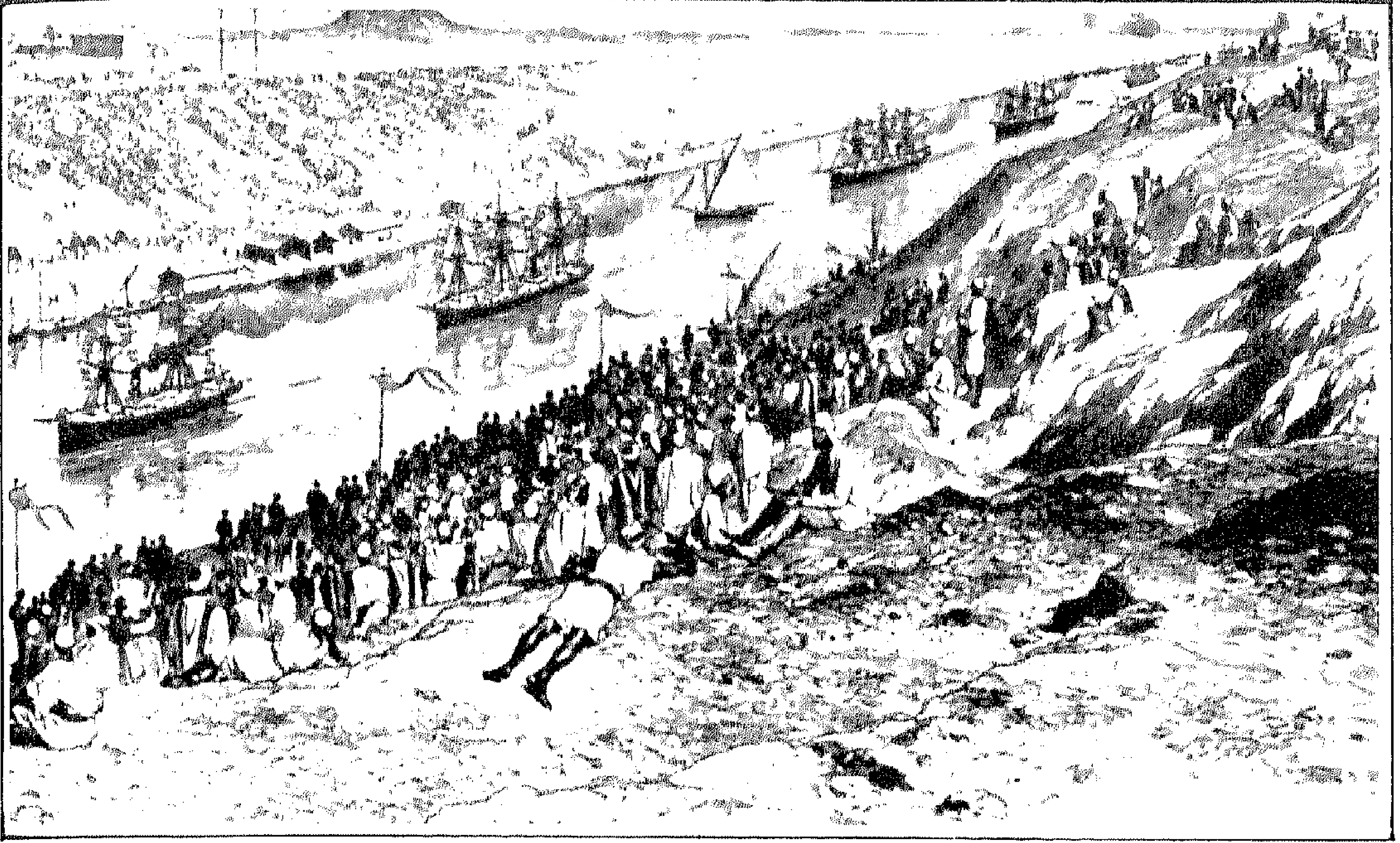
لا يمكن أن نسمح لناصر أن يمسك برقبتنا

وعندما تناقشنا في العمل الذي يجب أن نتخذه، كنا على بينة من نوايا الرئيس «ناصر» لاستنزاف دخل القناة وتحويله إلى تمويل السد العالي، والواقع أنه استولى على مال شركة دولية ليستخدمه في أغراضه الداخلية الخاصة، وما لبث أن قدم نموذجاً لأساليبه، فقد صدر الأمر إلى البنك العثماني بالقاهرة بتسليم رصيد حساب شركة قناة السويس المودع لديه. وهكذا تسربت خمسة ملايين جنيه مصري إلى أيدي ناصر، وكما قلت في إحدى برقياتي التي ارسلت ذلك اليوم، أن رجلاً له سجل ناصر يجب الا يسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا!.

لقد درست الحكومة الموقف من جميع نواحيه في صباح ذلك اليوم — الجمعة — وقررت أنها لا يسعها أن تسمح للرئيس «ناصر» بالاستيلاء على قناة السويس متحدياً بذلك الاتفاقيات الدولية. إن القناة عمل دولي، وكان ينظر إليها على هذا الاعتبار منذ مؤتمر ١٨٨٨.

وقد زادت أهميتها في السنوات الأخيرة نظراً لنمو حقول الزيت في الشرق الأوسط واعتماد غرب أوربا عليها لسد جانب كبير من حاجته، ففي عام ١٩٥٤ عبرت القناة ١٤,٦٦٦ سفينة، ثلثاها تنتمي إلى دول حلف شمال الأطلنطي، وثلثها تقريباً تنتمي إلى بريطانيا. وقد قررت الحكومة أن مصالحنا الأساسية في هذه النقطة يجب أن تؤمن، عن طريق عمل عسكري إذا اقتضى الأمر، وأن الاستعدادات الضرورية يجب أن تتخذ على هذا الأساس. إن الإخفاق في الاحتفاظ بالطابع الدولي للقناة سيؤدي إلى أن نخسر مصالحنا وممتلكاتنا في الشرق الأوسط واحدة بعد الأخرى، ولهذا فإنه إذا تعين على حكومة جلالة الملكة أن تعمل منفردة وحدها فإنها لن تتردد في استخدام القوة لتحمي مركزها. هذا هو رأينا كما سبق تسجيله وما زلت متمسكاً به.

وكان على الحكومة في تلك المرحلة، أن تدرس المسائل المتعلقة بالمبادىء والخطوات العملية السريعة في وقت واحد وقد اتخذنا عدداً من القرارات لنهتدي بها فيما سوف نفعله خلال



□ العمال المصريون الذين قاموا بحفر القناة، يشهدون أول قافلة سفن تعبر القناة عام ١٨٦٩.

الثلاثة الأشهر المقبلة. وقررنا من اللحظة الأولى توجيه دعوة إلى الرئيس أيزنهاور لكي يوفد مبعوثاً إلى لندن لمناقشة الموقف وتنسيق سياسة مشتركة مع وزارة الخارجية البريطانية ووزير خارجية فرنسا. وكان المفروض ــ بناء على ترتيب سابق ــ أن يصل مسيو بينو إلى إنجلترا يوم الأحد التالي ٢٩ يوليو.

وقد تنبأت بأن بعض الأصدقاء وخاصة في الكومنولث قد يحثوننا على عرض المشكلة فوراً على مجلس الأمن أو الأمم المتحدة. وبرغم أننا حبذنا استخدام كل وسائل التوفيق فإننا لم نكن على يقين من أنه من الحكمة أن نبدأ بعرض الأمر على مجلس الأمن. فإن السوابق لم تكن مشجعة. ففي خلال الأعوام الأربعة الماضية، تجاهلت مصر جهراً قرار مجلس الأمن بوجوب تمتع سفن إسرائيل بحرية المرور في القناة. وكان الروس وهم يتمتعون بحق الفيتو في المجلس، ولن يترددوا في استخدامه.

فلما دارت المناقشة بين الدول الثلاث وافق الأمريكيون والفرنسيون معنا على أن من الخطأ الالتجاء إلى مجلس الأمن في هذه المرحلة.

برقية إلى أيزنهاور

أما المشكلة الثانية التي واجهتها الحكومة فكانت مشكلة دقيقة، وهي هل يجب أن نستعد آخر الأمر لاستخدام القوة لإقصاء الرئيس ناصر عن القناة؟ لقد كانت نيتنا أولاً أن نضغط عليه سياسياً إلى أقصى حد. أما الوسيلة التي ستتبع لتنفيذ هذا الضغط فكانت ستبحث في المحادثات الثلاثية المقرر إجراؤها خلال الأيام القليلة التالية.. وكانت الأسلحة الاقتصادية أيضاً رهن تصرفنا، وقد أعد وزير المالية التدابير التي سوف تتخذ ابتداء من منتصف تلك الليلة، ولكن الضغط السياسي والاقتصادي وحده قد لا يجدي في ردع ناصر وإعادة الرقابة الدولية إلى القناة وكان علينا من البداية أن ندعم احتجاجاتنا بالعمل العسكري. وصدرت الأوامر إلى رؤساء أركان الحرب برسم خطة وجدول لعملية مهمتها احتلال القناة وتأمينها إذا فشلت الطرق الأخرى، وكنا نأمل في الاعتماد على اشتراك فرنسا معنا في أية حملة عسكرية يجرى إعدادها، كذلك كنا نتوقع أن تقف أمريكا على الأقل على الحياد. ولكننا إذا فشلنا في الحصول على المعونة

من أصدقائنا فيجب أن نكون في موقف يمكننا من القيام بالعمل وحدنا، وقد أنبأت الرئيس الأمريكي بذلك في البرقية التي أرسلتها إليه في ٢٧ يوليو. كذلك أخطر رؤساء وزارات دول الكومنولث عن طريق مندوبيهم الساميين في لندن. وقد قلت في برقيتي لأيزنهاور: «لقد استعرضت الموقف كله هذا الصباح مع زملائي أعضاء الوزارة ورؤساء هيئة أركان الحرب. وقد اتفقنا جميعاً على أنه لا يمكننا أن نسمح لناصر بالاستيلاء على قناة السويس بهذه الطريقة، متحدياً الاتفاقات الدولية. وإذا اتخذنا قراراً حاسماً في هذا الشأن الآن فسوف نظفر بتأييد كل الدول البحرية. وإذا لم نتخذ مثل هذا القرار فإننا واثقون أن نفوذنا ونفوذكم في الشرق الأوسط كله سينتهي إلى الدمار..

«إن التهديد المباشر موجه إلى موارد أوروبا الغربية من الزيت، وجانب كبير منه يمر عبر القناة.. فإذا أغلقت القناة، فسوف نطلب منكم أن تساعدونا بخفض الكمية التي تحصلون عليها من المصافي القائمة بنهاية خطوط أنابيب البترول المنتهية عند شرق البحر الأبيض، وربما طلبنا منكم أن ترسلوا إلينا كمية إضافية من جانبكم..

«ولكن المستقبل البعيد هو الأكثر تهديداً. فإن القناة «ملك شركة دولية» ومرفق حيوي للعالم الحر. ولا تستطيع الدول البحرية أن تسمح لمصر بنزع ملكيتها واستغلالها واستخدام دخلها في أغراضها الداخلية الخاصة، بغض النظر عن مصالح القناة ومصالح مستخدميها..

«ويجب ألا نسمح لأنفسنا بالخوض في جدل قانوني حول حقوق الحكومة المصرية في تأميم شركة تعتبر اصطلاحاً شركة مصرية، أو في جدل مالي حول مقدراتها على دفع التعويضات التي عرضها المصريون. إنني واثق من أننا يجب أن نثير المشكلة مع ناصر على نطاق دولي أوسع»..

«وليس من المحتمل كما نرى أن نحقق غرضنا عن طريق الضغط الاقتصادي وحده. وقد فهمت أن مصر لن تتقاضى منكم عوناً آخر. ولن يحل موعد سداد جانب كبير من الديون الاسترلينية المستحقة لها هنا قبل يناير. إننا يجب — في المقام الأول — أن نقوم بأقصى ضغط سياسي على مصر. ولهذا الغرض، يجب أن نحصل إلى جانب عملنا، على تأييد كل الدول التي يهمها الأمر. إن زملائي وأنا، مقتنعون بأننا يجب أن نكون على استعداد، آخر الأمر، لاستخدام القوة لإعادة ناصر إلى رشده ونحن من جانبنا، مستعدون لهذا. فقد أصدرت الأمر صباح اليوم إلى رؤساء هيئة أركان الحرب لوضع الخطة العسكرية اللازمة.

«على أن الخطوة الأولى هي أن نتبادل أنتم ونحن وفرنسا الرأي ونوحد سياستنا، وننسق معاً أفضل طريقة للضغط السياسي لأقصى حد على الحكومة المصرية».

وتصرفات الحكومة الأخيرة لم تبعث الثقة بنفوسنا بأنها سوف تتمكن — في المستقبل — من إدارة القناة واضعة الالتزامات الدولية نصب عينيها. وإذا ظفر المصريون وحدهم بالإشراف على القناة، فلا بد لنا أن نتوقع مزيداً من الضغط على إسرائيل وغيرها. إننا مقتنعون بأن الرد على ناصر يجب أن يدخل في اعتباره الاتجاه العصري إلى التدويل والابتعاد عن القومية. إن هدفنا يجب أن يكون إحباط عمله ووضع إدارة القناة تحت إشراف دولي حازم. وقد شكت شركة قناة السويس في قدرة المصريين الفنية على توسيع القناة وتعميقها لتسمح بعبور ناقلات الزيت الكبيرة، واحتمال ضغط حركة المرور الشديد في المستقبل. وقد أحيطت حكومات دول الكومنولث علماً بهذه الآراء.

الضغط الاقتصادي يبدأ

وأثناء الدراسات التي أجريناها في يوم الجمعة، اتخذنا عدة قرارات ووضعناها موضع التنفيذ. فقد خول بنك إنجلترا والبنوك التجارية سلطة تجميد حسابات مصر الجارية من الاسترليني في لندن. وفرضت الحماية على أموال وممتلكات شركة قناة السويس في لندن، ضد أية محاولة من مصر للاستيلاء عليها ونزع ملكيتها، كما حظر تصدير الأسلحة والمواد العسكرية إلى مصر. وصدر أمر بمنع سفر أربع مدمرات مصرية كانت موجودة في ذلك الحين في موانيء المملكة المتحدة ومالطة، بكل وسيلة فيما عدا استخدام القوة. وقد درسنا مركزنا الملاحي وحالة سفننا نظراً لاحتمال اضطرارنا إلى

مصادرة بعض السفن للقيام بعملية عسكرية. ونبه على وزارة الخارجية بأن تخطر الرعايا البريطانيين في مصر بما يحتمل حدوثه من تطورات.

وسلمت إلى الحكومة المصرية مذكرة احتجاج رسمية على الاستيلاء على قناة السويس. وفي تلك الليلة نفسها أعاد المصريون مذكرتنا مشفوعة بقصاصة غير موقعة مكتوب عليها «تعاد إلى السفارة البريطانية»..

وقدرنا أن في حوزة المملكة المتحدة احتياطياً من الزيت يكفي لستة أسابيع وأن في حوزة دول أوروبا الغربية الأخرى كميات أقل نسبياً. إن استمرار تدفق الوقود الذي هو مصدر حيوي من مصادر القوة للاقتصاد البريطاني، أصبح الآن خاضعاً لأهواء البكباشي ناصر. لقد كانت حقول الزيت في الشرق الأوسط تنتج في ذلك الحين ١٤٥ مليون طن سنوياً. وقد مر ما يقرب من ٧٠ مليون طن من الزيت عبر قناة السويس في عام ١٩٥٥ اتجه معظمه إلى أوروبا الغربية. كما وصل أربعون مليون طن من الزيت إلى موانىء لبنان عن طريق خطوط الأنابيب المارة بأراضي حلفاء مصر في ذلك الحين: سوريا والعربية السعودية.

إن أكثر من نصف واردات بريطانيا من الزيت تمر عبر القناة وفي أية لحظة قد يقرر المصريون التدخل في مرورها، كما أنهم قد يستحثون حلفاءهم على قطع خطوط الأنابيب. فعلينا أن نحسب احتمالات استيراد الزيت من الخليج الفارسي عن طريق الالتفاف الطويل حول رأس الرجاء الصالح.

وقد وجه إلينا فيما بعد النقد، لأننا وفرنسا، باعتبارنا الدولتين الرئيسيتين اللتين يهمهما الأمر، لم نتدخل فوراً بالقوة ونحتل القناة من جديد. ويقول موجهو هذا النقد، وخاصةً في أمريكا، أننا لو كنا فعلنا هذا لما كان هناك مجال كبير للشكوى. وثمة ردان على هذا:

□ **الرد الأول سياسي —** فبصفتنا من الموقعين على ميثاق الأمم المتحدة، كنا ملزمين أولاً باتباع الوسائل السلمية. وبرغم أننا كنا على بينة بالفيتو السوفيتي، وبضعف الأمم المتحدة كأداة تنفيذية، فقد أدركنا أنه سوف يتعين علينا في وقت ما أن نعرض الأمر على مجلس الأمن. بل ربما تمكننا من أن نحفز الأمم المتحدة ومجلس الأمن على اتخاذ عمل ما. ولكن قبولنا لهذا لم يكن يعني التخلي عن استخدام الفيتو آخر الأمر. فهذا دائماً كان موقف حكومة صاحبة الجلالة والحكومة الفرنسية في كل مراحل النزاع. وقد أوضحناه مراراً، للخصوص والعموم من البداية للنهاية.

□ **والرد الثاني عسكري —** فما لم يكن في الإمكان إتمام العملية بواسطة القوات التي تقلها الطائرات وحدها فلا مفر من القيام بحملة عسكرية من مالطة. فإذا لم يكن في استطاعتنا أن ننقل كل القوات اللازمة لهذه الحملة بطريق الجو فعلينا أن ننقلها عن طريق البحر. وأقرب مكان تبحر منه القوات هو مالطة التي تبعد ألف ميل. أما قبرص فليس بها ميناء يتسع لسفن إنزال الجنود وسفن نقل المعدات الحربية. تلك حقائق عسكرية لا سبيل لإنكارها. ولم يكن لدينا ما يكفي من القوات التي تقلها الطائرات للقيام بعملية حربية كهذه. وكان ما لدى الفرنسيين أكثر، ولكن ما لدينا نحن الاثنين لم يكن يكفي لتكوين فرقة تؤيدها المدفعية. وكان تنظيم المدد سيحتاج إلى عدة أسابيع على أحسن الفروض، فإن غزو صقلية من شمال أفريقيا استغرق الاستعداد له ستة أسابيع في معمعان الحرب العالمية الثانية.. وصحيح أن العمل ضد المصريين لا يقارن عسكرياً بالعمل ضد الألمان، كما كنت أقول دائماً. ومن ناحية أخرى فإن مواردنا في الشرق الأوسط في ذلك الوقت لم تكن لتقارن بموارد القوات البريطانية والأمريكية وهي في أوج قوتها أثناء الحرب.

وفي يوم سابق من ذلك الصيف أذكر أنني وأسرتي كنا نشاهد عرضاً يقوم به الحرس «الخيالة».. وإذ كنا نعود أدراجنا عبر «دوانِنج ستريت» سألت ابني عن رأيه فيما شهده، فأجاب: «كان يزيد في سعادتي لو كانوا من جنود المظلات». ولعله نقد في موضعه. فإننا بعد الجسر الجوي الذي أقمناه فوق برلين لمواجهة التهديد الموجه للغرب هناك بعد حصار الروس لها تركزت



□ رسم كاريكاتوري يمثل ايدن المتورط في حرب السويس

خططنا العسكرية في الدفاع عن أوروبا عن طريق البر، والبحر والجو ضد الهجوم السوفييتي، وفيما بين عامي ١٩٤٧، ١٩٥٦، لم تجر أية استعدادات لعملية تقوم بها قوات المظلات على نطاق مهم. إنني لم أكن راضياً. وفي أوائل شهر يوليو، اتخذت الحكومة قراراً بإنشاء احتياطي في إنجلترا يمكن نقله جواً. ولكن لم يكن قد مضى الوقت الذي يسمح بإتمام هذا. ولم يكن في الاستطاعة إيجاد الطائرات والرجال في يوم وليلة. لقد كان لا بد لإتمام هذا من سنوات.

اجتماع لندن الأول

في صباح يوم السبت ٢٨ يوليو، عقد اجتماع اللجنة الوزارية التي أنشئت في اليوم السابق لتظل على اتصال بالموقف نيابة عن الحكومة. لقد كان عليها أن ترسم الخطط يوماً لوضع سياستنا موضع التنفيذ. وقد كان ستة من زملائي الوزراء وأنا أعضاء دائمين في هذه اللجنة، وكثيراً ما كان ينضم إلينا وزراء آخرون. وكان رؤساء هيئة أركان الحرب على استعداد لأن نستدعيهم في أي وقت وفي الشهور التي تلت عقدنا عدة اجتماعات، وكان مجلس الوزراء يحاط علماً بعملنا. وفي ذلك الصباح أفضيت إلى زملائي بفحوى رسالة تلقيتها من الرئيس أيزنهاور وأبدى فيها رغبته الشديدة في أن يتشاور على الفور أكبر عدد ممكن من الدول البحرية التي تتأثر بالاستيلاء على القناة. وقد جاء في هذه الرسالة أنه سوف يرسل مستر مورفي، من وزارة الخارجية الأمريكية ليمثل الولايات المتحدة في المحادثات التي ستجري بين مسيو بينو وزير خارجية فرنسا ووزارة الخارجية البريطانية. وكان مستر دالاس في ذلك الحين يطوف بأمريكا الجنوبية، وكان في بيرو وقتئذٍ على وجه التحديد.

وفي بداية الأزمة كان يبدو أن الأمريكيين يرغبون في عزل مصر عن دول العالم، والقيام بضغط أدبي من الرأي العام المشترك على البكباشي ناصر. وكانت تلك نية مقبولة ولكنها لم تدخل في اعتبارها أن ناصر قد لا يتأثر بالضغط الأدبي عليه. أي أن هذا، من الناحية العملية كان يعني عقد المؤتمرات واتخاذ القرارات، ولكن بلا أي نتيجة عملية، فالنتيجة لن تعدو أن تكون كلمات. وكان الاشتباه في هذا الخلاف بين وجهتي نظرنا قد بدأ يتضح فعلاً في التقارير التي كنا نتلقاها عن رد الفعل في واشنطن. وأصبح هذا الخلاف أكثر وضوحاً أثناء المشاورات التي دارت في الأسبوع التالي، برغم ما كان يراودنا من أمل في سد ثغرة هذا الخلاف. وقد اعتبرنا موقف أمريكا وقتئذ، في غياب وزير خارجيتها، موقفاً حكيماً أكثر منه مختلفاً أو منحرفاً عن موقفنا.

ووافقت حكومة جلالة الملكة على توجيه الدعوة إلى عقد مؤتمر يضم الدول البحرية.. ولكن من يكون الاعضاء في هذا المؤتمر ومتى يكون موعده؟ تلك هي المشكلات التي جدت وتطلبت دراسة. لقد كنا نحبذ قصر عضوية المؤتمر على الست أو العشر دول التي تستخدم القناة بشكل أساسي، من حيث حجم تجارتها وحمولة سفنها التي تستخدم القناة. كذلك جعلنا مسألة إرسال مذكرة إنجليزية فرنسية مشتركة إلى مصر موضع مناقشة بيننا وبين مسيو بينو ومستر مورفي، وكان الأفضل أن تكون المذكرة ثلاثية، ولكن اشتراك أمريكا في مثل هذه الخطوة كان موضع شك.. أما الحل الآخر البديل فكان تأخير العمل الدبلوماسي إلى ما بعد اجتماع المؤتمر ثم القيام بخطوة نيابة عن أكبر عدد ممكن من الدول البحرية التي تقبل أن ترتبط بنا. وفي هذه الحالة، فإننا إذا لم نحصل على جواب مرض من مصر، فيجب أن نكون مستعدين لاحتمال تعزيز مطالبنا المشتركة بالعمل العسكري.

وبعد ظهر ذلك اليوم ــ السبت ــ ذهبت مع زوجتي بالسيارة إلى «برود تشوك»، حيث الكوخ الذي كانت زوجتي قد اشترته قبل زواجنا، إنه يكمن بين الحقول، وتطل نوافذه الغربية على مناظر «جنيزبورو» في وادي «أبيل»، أما نوافذه الشرقية فتطل على أرض منخفضة. وحديقة هذا الكوخ صغيرة ولكنها منسقة أجمل تنسيق وكانت على صغرها تتسع لنا لكي نفكر ونضع الخطط. إن المنطقة «جيب» متجمدة، وتربتها جيرية وحجرية ولكنها ليست رخوة جداً. ولم يكن هذا كله يهم، فالمنظر الداخلي والأصدقاء ينسوننا كل شيء آخر. وكنت إذا قضيت فيها ٤٨ ساعة اعتبرت هذا بمثابة عطلة أسبوع كاملة لي.

وطوال يوم الأحد في «ولتشاير» كنت على اتصال مستمر بوزير الخارجية الذي كان يستهل محادثاته مع مسيو بينو ومستر مورفي في لندن. وفي المساء عدت إلى لندن، إذ كان علي أن أدلي بتصريح في مجلس العموم في اليوم التالي. وعقب الأسئلة التي وجهت يوم الاثنين ٣٠ يوليو، أنبأت مجلس العموم بالتدابير المالية التي اتخذناها لتنفيذ تجميد الأرصدة الاسترلينية المصرية لضمان ممتلكات شركة القناة. وقد أعلنت أن المحادثات بدأت مع مسيو بينو ومستر مورفي وإننا على صلة وثيقة بحكومات دول الكومنولث. وفي خلال الايام القليلة التالية، وقبل أن يقوم المجلس بعطلته الصيفية، كنت آمل أن ألقي تصريحاً آخر. فقد كنت موافقاً لو أن المجلس رغب في مناقشة الأمر ولكننا كنا في حاجة لدراسة الأثر العالمي لكل ما نقوله. وكان موقفنا واضحاً، وقد حددته بهذه الكلمات:

لا تقبل حكومة جلالة الملكة أية تدابير تتخذ لمستقبل هذا الممر المائي العظيم يكون من شأنها وضعه تحت تدابير إشراف وسيطرة دولة واحدة تستطيع، كما أظهرت الحوادث الأخيرة، استغلاله لأغراضها السياسية الوطنية.

وقد قوبل هذا التصريح المعبر عن أهدافنا بالتصفيق والاستحسان أكثر من مرة ولم ينشق عليه أحد في المجلس، ولكن أهدافنا لم تكن قد تحققت بعد.

دالاس يطير إلى لندن

وفي هذه الأثناء كانت تجرى في لندن بين وزير الخارجية ومسيو بينو ومستر مورفي محادثات وكانوا يتقدمون ببطء. لقد اتفقوا جميعاً على أن إدارة القناة يجب أن تخضع لسلطة دولية، ولكنهم اختلفوا حول أفضل الوسائل التي تتخذ لتحقيق هذا الغرض. وكان سفيرنا في واشنطن قد أبلغنا فعلاً أنه وجد وزارة الخارجية الأمريكية باردة مترددة تجاه اتخاذ تدابير عاجلة. لقد أبدت ما يشتّم منه أنها ترغب في الوقوف بعيداً عن النزاع مع مصر. فقد كان موظفوها مهتمين بأثر أي عمل محتمل على الرأي العام الأمريكي، وخاصة إذا حدث تدخل في عبور ناقلات الزيت بالقناة. ولا شك أنه كان للانتخابات الأمريكية التي كانت على وشك أن تجري أثر في موقف الحكومة الأمريكية.

وعلى أثر وصول مستر مورفي إلى لندن، سرعان ما أوضح أنه سيتناول الأمر من زاوية قانونية. لقد أراد تطبيق معاهدة القسطنطينية الموقعة في سنة ١٨٨٨. وكانت هذه المعاهدة تكفل بصفة مستمرة الطابع الدولي للقناة بغض النظر عن أي امتياز خاص منحه الحكام المصريون

لشركة قناة السويس. وكانت هذه المعاهدة عنصراً مهماً في قضيتنا، ولكنها لم تكن كل شيء. وفضلاً عن ذلك فقد كانت روسيا من الدول التي وقعت هذه المعاهدة بخلاف أمريكا، فإنها لم توقعها وكان هذا خليقاً بأن يوقعنا في مشكلات مثيرة إذا كان علينا أن نعتمد في عملنا على هذه المعاهدة وحدها. ولم يحبذ الأمريكيون عرض المسألة على الأمم المتحدة في تلك المرحلة. وكان من رأيهم تكليف إحدى وكالات الأمم المتحدة الخاصة، بالإشراف على القناة. وقد وافقنا على أن أية سلطة تقام للإشراف على القناة يجب أن تعمل بالاشتراك مع الأمم المتحدة.

وفي أول أغسطس وصل مستر دالاس إلى لندن، وقدم وجهة نظر متفقة في أكثرها مع وجهات نظر مساعديه ومستشاريه، ولكن مع حجج جديدة. فقد أوضح أن له ولوزاراته أسساً أخرى لإصرارهم على العمل وفقاً لمعاهدة القسطنطينية. فإذا أصبحت التدابير العسكرية أمراً لا مناص منه. فإن الرئيس يحتاج إلى موافقة الكونجرس على أي التزام عسكري أمريكي، ولهذا، في رأي دالاس ومورفي، يجب أن تكون الأسس القانونية لإجراءاتنا المشتركة سليمة ولا غبار عليها. وقد شجعني أن أرى الحكومة الأمريكية تفكر ولو بعض الشيء في اتخاذ إجراء عسكري.

الحلفاء كل من ناحية

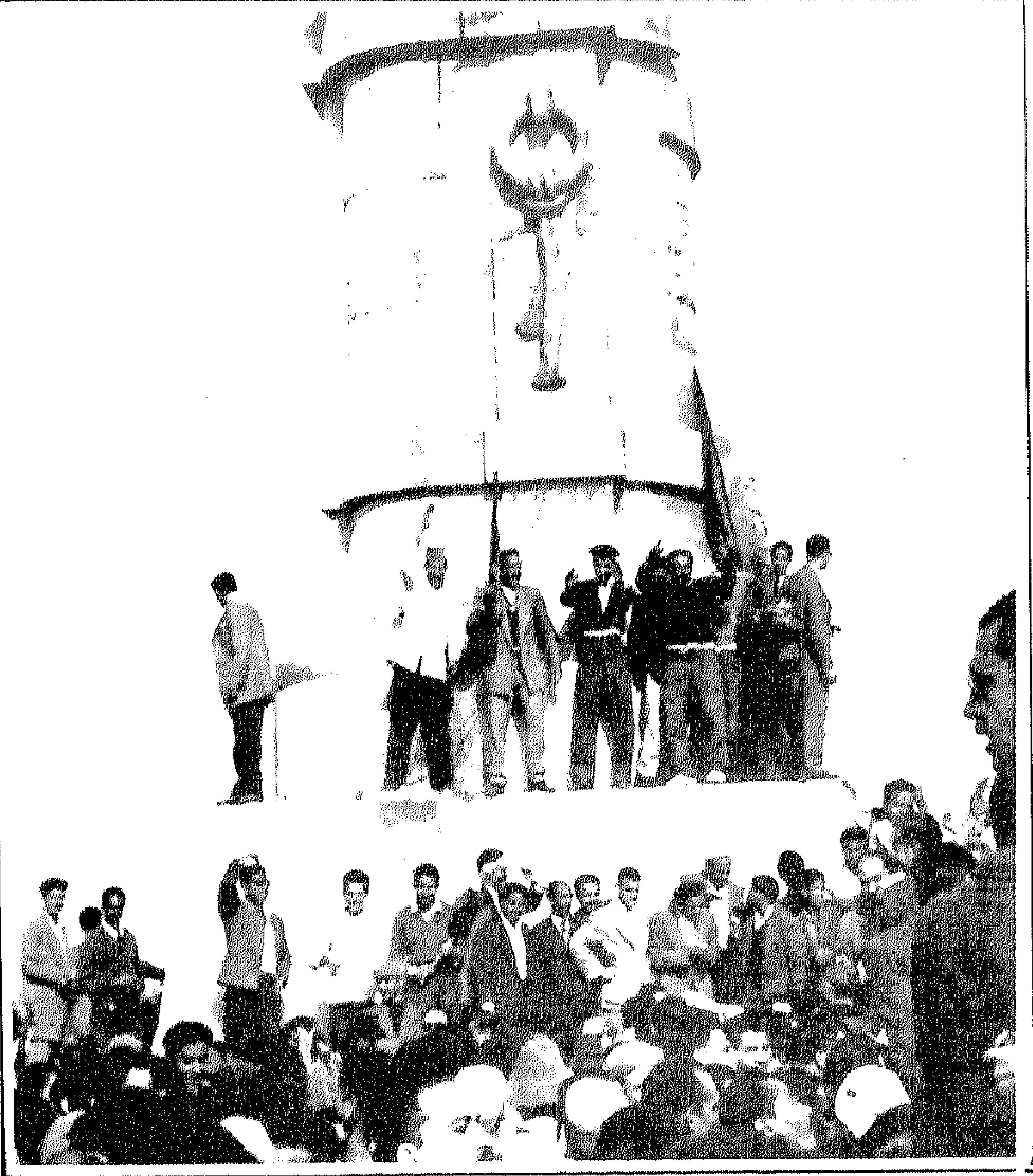
وكان ثمة شيء آخر يشغل أذهان الأمريكيين تكشف تدريجياً عندما تقدمت المحادثات، وكان في محله تماماً، فقد كان الأمريكيون قلقين على قناة بناما وكانوا متلهفين على القطع بأن مشكلة السويس مختلفة تماماً عن أية مشكلة يمكن أن تنشأ مع بناما، فقناة السويس مسألة دولية كما أثبتت معاهدة القسطنطينية. أما قناة بناما، فكانت على العكس، مسألة خاصة، تنظمها معاهدة أجرت المنطقة التي تجرى فيها قناة بناما لأمريكا بصفة مستمرة، ومن ثم فإن هذا الممر المائي يعد أمريكياً وليس دولياً، وكانت الحكومة الأمريكية عاقدة العزم على أن تبقيه كذلك. لقد رغب الأمريكيون في أن يفرقوا بوضوح وبصراحة بين موقفهم الممتاز في قناة بناما وبين التعقيدات الدولية المتعلقة بمسألة السويس.

أما الفرنسيون فلم يزعجهم هذا من ناحية أمريكا فقد كان مسيو بينو رجلاً مستقل التفكير يستطيع أن يجادل في سبيل قضيته بوضوح وبقوة إذ كانت له خبرة وزارية طويلة وكان خليقاً بأن يضيق صدره بالتفاصيل الدبلوماسية ولم يكن هذا شيئاً قبيحاً منه، فقد وجدناه على الدوام زميلاً قوياً ومخلصاً وغير راغب في أن يستغفل نفسه أو غيره وكان شجاعاً في اللحظات الحرجة.

وقد صرح بينو بأن حكومته مجمعة على الرغبة في اتخاذ عمل حاسم سريع. إن الفرنسيين هم الذين بنوا القناة وفضلاً عن ذلك فإن أثر إجراء الرئيس ناصر مسّ فرنسا عن كثب في ميدان حيوي آخر. فمنذ البداية أكد بينو الأثر الذي سيتركه هذا الإجراء في الجزائر وفي الموقف الفرنسي بأكمله بشمال أفريقيا. فإذا سمح لمصر بأن تنجح في الاستيلاء على القناة، فسوف تدب القوة في قلوب الوطنيين الجزائريين كما أنهم سيتطلعون إلى مصر لتأييدهم، وسوف تمنحهم هذا التأييد في شكل أسلحة أو تأييد معنوي. ولا تستطيع فرنسا أن تسمح بتطور هذا التهديد. وقد وافقنا على تنبؤات مسيو بينو وتكهناته وأيدنا وجهات نظره. وقد أثبت أنه متنبيء صادق. ولكن الأمريكيين كانوا أقل ترحيباً بتنبؤاته، لأن عدم ثقتهم المتصلة في الاستعمار انتزع منهم العطف على مشكلات فرنسا في شمال أفرقيا..

وكان مسيو بينو يشعر بإساءة أخرى فقد وصف الرئيس ناصر عمله بأنه إجراء انتقامي لرفض تمويل سد أسوان. وكان بينو يرى أن أمريكا هي المسؤولة عن هذا القرار، وأنه يجب الا تخلي نفسها من الاهتمام بعواقبه. وكان دالاس ومورفي يريان أن إجراء الرئيس «ناصر» لم يكن انتقامياً وأنه كان يفكر فيه من زمن طويل. إلا أنهما لم يستطيعا إقناع بينو بذلك.

لقد كان موقف الفرنسيين من الأزمة أقرب جداً إلى موقفنا من موقف الأمريكيين، برغم أن مصالح الفرنسيين في آسيا وأفريقيا تختلف من حيث النوع والدرجة عن مصالحنا، فقد كان



□ الجماهير المصرية تفجر نصب دي ليسبس الذي كان لهم رمز السيطرة الغربية.

الفرنسيون يخوضون حرباً في شمال أفريقيا أشعلتها القاهرة وأيدتها، إلى حد ما، بالذخائر والمؤن. وقد عارض الفرنسيون حلف بغداد، وإن كان مسيو موليه امتنع عن انتقاد الحلف منذ زارني بمنزلي الريفي في «شيكرز» في فترة سابقة من ذلك العام عندما قام بجهد طيب في سبيل تنسيق سياستنا.

وفي حين كانت المملكة المتحدة ذات ارتباطات واسعة النطاق بالأردن عن طريق معاهدة، وكانت علاقات فرنسا مع إسرائيل وطيدة جداً. فقد كان في فرنسا عطف قومي على إسرائيل وكان في الاستطاعة التوفيق بين خلافاتنا عن طريق الدبلوماسية والأحداث، ولكن في ذلك الوقت لم تكن بيننا خلافات..

وقد وافق وزراء الخارجية الثلاثة في مرحلة مبكرة من محادثاتهم على أن النزاع العربي الإسرائيلي يجب أن يعالج باعتباره موضوعاً مستقلاً عن مستقبل القناة. لقد عانت إسرائيل خمس سنوات من رفض مصر إطاعة الأمم المتحدة التي تقضي بمنح إسرائيل حق المرور بالقناة. ومن ثم منعت مصر إسرائيل منعاً ظالماً من استخدام القناة. لقد كان قرار مجلس الأمن الصادر في أول سبتمبر ١٩٥١ صريحاً وواضحاً ومحدداً. فقد وجد أن تصرفات مصر «لا تتفق مع الهدف الخاص بعقد تسوية سليمة بين الطرفين، وإقرار سلام دائم في فلسطين كما نص على ذلك في اتفاقية الهدنة». كذلك كانت إسرائيل ضحية مستمرة للإغارات المصرية المسلحة. وبرغم صحة هذا كله، فإن ربط مشكلات إسرائيل بالمشكلات الناشئة عن تأميم القناة، يجعل هذا التشابك في صالح الرئيس ناصر. فإذا كان لنا أن نقوم بعمل فيجب أن نجعل المشكلات أقل متانة بحيث يسهل كسرها.

وقد أحضر مستر دالاس معه رسالة من

الرئيس الأمريكي الذي أكد أهمية المفاوضات، ولم يستبعد الرئيس استخدام القوة. لقد اعترف بالقيمة الكبرى للقناة بالنسبة للعالم الحر، وبأن استخدام القوة قد يصبح ضرورة، مع الوقت لحماية الحقوق العالمية. ولكنه كان يرى ضرورة بذل كل جهد للوصول إلى تسوية سليمة قبل الالتجاء لاستخدام القوة.

وقد لخص مستر دالاس في اجتماعه الأول بوزراء الخارجية الأخيرين في أول أغسطس، وجهات نظره فيما يلي:

١ ــ إن بقاء القناة تحت سيطرة دولة واحدة بغير إشراف دولي سيء لا يحتمل.

٢ ــ يجب اتخاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ أساساً للمناقشة لتجنب التعقيدات فيما يتعلق بقناة بناما.

٣ ــ القوة هي آخر طريقة يلتجأ إليها، ولكن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام القوة إذا فشلت كل الوسائل الأخرى.

٤ ــ يجب تعبئة الرأي العام العالمي لصالح فكرة وضع القناة تحت إدارة دولية.

٥ ــ يجب أن نحاول جعل آرائنا الثلاثية مقبولة من أغلبية تتألف على الأقل من ثلثي المؤتمر المزمع دعوته.

وفي المناقشات التي دارت بعد ذلك في نفس الاجتماع قال مستر دالاس:

«يجب أن نجد وسيلة نحمل بها الرئيس ناصر على أن يلفظ ما يحاول ابتلاعه... يجب أن نقوم بجهد حقيقي لتعبئة الرأي العالمي لصالح فكرة وضع القناة تحت إدارة دولية... يجب أن يكون في الإمكان خلق رأي عالمي معارض للرئيس ناصر بحيث يمكن عزله، فإذا تطلب الأمر القيام بعمل عسكري، فيجب أن يرتب هذا العمل بحيث يكون له حظ أوفر من النجاح وتكون عاقبته أقل خطورة من أي عمل يتخذ بطريقة فيها اندفاع وتعجل وطيش..

وقد أجرى دالاس عدة محادثات مع وزير الخارجية، كما أجرى محادثة في «داوننج ستريت» حضرتها مع وزير الخارجية، فضلاً عن المحادثات الثلاثية. وقد شجعتنا تصريحاته.. فقد اقر متحمساً بأن الاستيلاء على ممر مائي دولي عظيم شيء لا يحتمل على الأخص ومصر هي الدولة التي استولت عليه. إن الرئيس ناصر ــ كما قال ــ كان يحمل على أن يطرش قناة السويس ولا يبتلعها. تلك كانت كلمات صريحة وقد ظلت تدوي في أذني أشهراً..

ولم أرغب في إخفاء شيء عن مستر دالاس، وأبلغته أن الملحق البحري الأمريكي لم يفتأ يطلب منا معلومات. بخصوص استعداداتنا الحربية، وقلت أننا مستعدون تماماً لإعطاء تلك المعلومات ولكني أعربت عن رغبتي في التأكد ألأ من أن حكومة الولايات المتحدة ترغب حقاً في الاطلاع عليها. وجاب مستر دالاس بأن حكومة الولايات المتحدة تفهم جيداً الهدف من استعداداتنا وأنه يعتقد أنه هذه الاستعدادات كان لها أثرها الطيب، وكان من الأفضل ألاتسعى حكومة الولايات المتحدة إلى معرفة معلومات تفصيلية عن استعداداتنا.

واحسست براحة كبيرة في ذلك المساء، رغم ضرورة الاعتراف باختلاف نظرتنا عن نظرة الأمريكيين واختلاف تقديرنا لعامل السرعة والعجلة عن تقديرهم. ولكن إذا كان لا بد من أن «يطرش» الرئيس ناصر في النهاية ما يحاول ابتلاعه، فإن النتيجة واضحة بحيث يمكن للجميع أن يروها. وفي هذه الحالة لن يتمتع السارق بما سرق.

وقد أبلغنا دالاس أن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام القوة إذا فشلت كل الوسائل الأخرى ولكن لا بد أولاً من بذل جهود صادقة في سبيل الوصول إلى تسوية عن طريق المفاوضات وكان أيزنهاور يعتقد أن دولتنا تستطيع تعبئة الرأي العالمي لصالح موقف حازم تتفق عليه آراؤنا وأن عقد مؤتمر دولي للمنتفعين بالقناة سيكون له ــ على الأقل ــ تأثير معنوي في كل بلدان العالم، وكان هذا هو أملي أنا أيضاً ولكني لم أكن أريد أن تفقد المشكلة أهميتها مع الزمن. كما لم أكن أريد أن نجعل المناقشات تجرنا من مؤتمر إلى مؤتمر.



معَاهَدَة المرسى بَين فرنسَا وتونس ٨ تموز/يوليو ١٨٨٣

إعداد: شذا عدرة

الاطلاع على بنود معاهدة باردو التي عقدت بين فرنسا وتونس في ١٢ أيار/مايو ١٨٨١م[١]، يكشف لنا بصورة واضحة سياسة المراوغة التي كان ينتهجها المستعمر الفرنسي في تونس. ففي الوقت الذي لم تشر فيه تلك المعاهدة على أيِّ تدخل فرنسي في شؤون تونس الداخلية، وإن احتلال فرنسا للبلاد هو احتلال مؤقت يزول بمجرد أن يتفق الفريقان بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على حفظ الأمن والنظام، نجد فرنسا تقوم بأعمال مناقضة لما تعهدت به، إذ أنها سرعان ما أخذت تستولي على المراكز الاستراتيجية في البلاد تشيد فوقها القلاع والحصون لدعم مراكزها، وهذا عمل من ينوي الإقامة وليس عمل من ينوي الرحيل.

لذلك نجد الشعب التونسي يثور على تلك الأوضاع ويعلنها ثورة مسلحة بقيادة علي بن خليفة، ولكن المستعمر الفرنسي استطاع بالقوة والقهر أن يقضي على تلك الثورة.

وعلى أثر هذه الثورة، نجد فرنسا تطور استعمارها بفرض معاهدة جائرة أخرى على تونس سنة ١٨٨٣ وهي معاهدة المرسى[٢]، وكانت بمثابة معاهدة حماية تجرّأت فرنسا على إعلانها بكل جلاء ووضوح. وفيما يلي نص تلك المعاهدة:

نص اتفاقية المرسى (١٨٨٣)

لما كانت عناية سمو الباي المعظم متجهة إلى تحسين الأحوال الداخلية بالمملكة التونسية وفقاً لأحكام المعاهدة المبرمة في الثاني عشر من مايو سنة ١٨٨١، وكانت حكومة الجمهورية الافرنسية راغبة تمام الرغبة في تحقيق أغراض سموه توثيقاً لعرى المودة بين القطرين العامرين، اتفق الطرفان على عقد اتفاق لتحقيق هذا الغرض واعتمد رئيس الجمهورية الافرنسية في ذلك مسيو بيير بولس كامبون.

البند الأول: لما كان غرض سمو الباي المعظم أن يسهل للحكومة الافرنسية إتمام حمايتها تكفل بإدخال الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة من إدخالها.

البند الثاني: تضمن الحكومة الافرنسية قرضاً يعقده سمو الباي لتحويل أو لدفع الدين المجمد البالغ ١٢٥ مليون فرنك والدين لا يمكن أن يتجاوز ١٧٥ مليون فرنك، ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك وقد تعهد سمو الباي المعظم بأن لا يعقد قرضاً في المستقبل لحساب المملكة التونسية دون إذن سابق من الحكومة الافرنسية.

البند الثالث: يخصص لسمو الباي المعظم من مداخيل المملكة:

أولاً: المبالغ اللازمة للقيام بواجبات القرض الذي ضمنته فرنسة.

ثانياً: مخصصات لسمو الباي وقدرها مليون من الريالات التونسية[٣] أي ١,٢٠٠,٠٠٠ فرنك وما فضل من ذلك يعني لمصاريف إدارة المملكة ودفع مصاريف الحماية.

البند الرابع: هذه الاتفاقية مؤكدة ومكملة للمعاهدة المعقودة في ٢٢ مايو سنة ١٨٨١ فيما يحتاج منها أمر التأكيد والتكميل، ولا تتغير بها الأنظمة التي سبق وضعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية.

البند الخامس: تعرض هذه الاتفاقية على الحكومة الافرنسية للمصادقة عليها وتسليم وثيقة التصديق إلى سمو الباي المعظم في أقرب وقت ممكن، وإيذاناً بصحة ما تقدم حررت هذه الاتفاقية وختمها الموقعان بختميهما[٤].

وكتب بالمرسى في ٨ يوليو سنة ١٨٨٣

علي باي　　بولس كامبون.

● دخلت البلاد التونسية بعد إعلان الحماية وراء حجب من النسيان وأصبحت في الواقع جزءاً من البلاد الافرنسية ولم يعد أمراؤها الذين كانوا يطبعون البلاد بطابعهم أو كانت حياة البلاد جزءاً من حياتهم، إلا هياكل تحركها اليد الافرنسية ولم يعد الباي إلا موظفاً عند المقيم العام الافرنسي يأتمر بأمره ويوقع له على كل مرسوم يرسله إليه.

ومن سوء حظ البلاد، التي لم ترزق بعد الحماية باياً كفئاً ذا شخصية قوية، يستطيع أن يرفع هذا الكابوس عن البلاد، بل كان بعضهم شراً على البلاد من الأجنبي، فاستخذوا وتخاذلوا واستسلموا إلى الراحة والدعة بعد أن اطمأنوا إلى عروشهم ومعاشهم وصاروا يتعاقبون على العرش تباعاً كلما ذهب الموت بواحد منهم خلفه غيره. وقد ورث العرش التونسي بعد الحماية بايات، لم يكن فيهم واحد ذا غناء، وكان آخرهم محمد الأمين وهو الباي التاسع عشر في هذه الأسرة، وبخلعه ختمت هذه الأسرة وحياة النظام الملكي في البلاد ولذا فقد اكتفينا بإثبات أسمائهم في سجل الأسرة وسنشير إلى بعضهم في بعض المناسبات.

المرجع: حقي، إحسان: تونس العربية، ص ١٢٧ ــ ١٢٩ (دار الثقافة ــ بيروت، دون تاريخ)

الهوامش

(١) نشرت في العدد السابق رقم: ١٠٢/١٠١ من مجلة «تاريخ العرب والعالم».

(٢) ضاحية من ضواحي تونس، كانت مقراً لعلي باي.

(٣) الريال التونسي هو الريال العثماني وهو أكثر من فرنك ذهبي. وتخصيص مثل هذا المبلغ الذي هو خمسون ألف ليرة ذهبية عثمانية راتباً لباي تونس دليل على أن البلاد كانت في رخاء وبحبوحة، لأن مثل هذا المبلغ لم يكن يتقاضاه السلطان العثماني ولم يكن رئيس الجمهورية الافرنسية يتقاضى ربعه. وأفظع ما في هذا البند هو أن تونس هي التي تدفع مصاريف الحماية، أي انها تأخذ اللقمة من أفواه أبناء البلاد لتعطيها للإفرنسي وهذا ما حدث.

(٤) احتفظنا بالنص الأصلي للمعاهدة على ما فيها من ركاكة وارتباك وفاء بحق التاريخ.

بيت الكريتلية

قسم التوثيق والأبحاث

في حي شعبي من أحياء القاهرة القديمة، يقع بيت الكريتلية «متحف جاير أندرسون» فوق تل مرتفع يسمى «جبل يشكر». وكانت تلك البقعة مقراً لمدينة القطائع التي شيدها أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (ق ٣ هـ ــ ٩م) لتكون العاصمة.

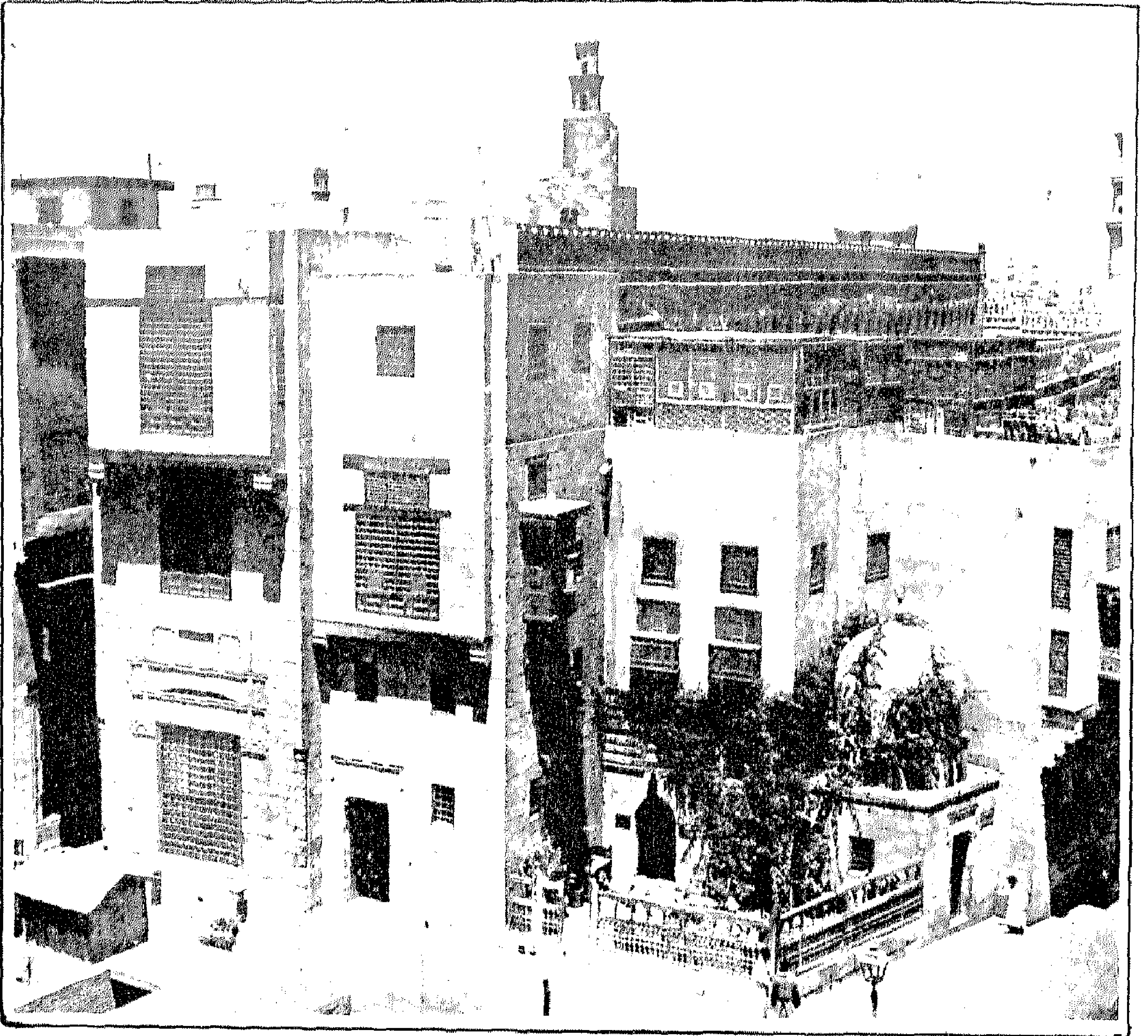
ويلتصق المتحف بالجامع الطولوني، إحدى أعاجيب العمارة الإسلامية، ولهذا فإن لموقعه اهمية أثرية كبيرة، مما عزز مكانته السياحية وأبرزها من بين معالم القاهرة.

وكان من المألوف أن تبنى الدور ملاصقة لجدران المساجد الكبرى وتترك بينها حارات ينفذ المصلون منها إلى أبوابها. وقد كانت هذه حال جامع ابن طولون إلى أن أزالت إدارة حفظ الآثار العربية في سنة ١٩٣٥ ما وجد من بقايا تلك الدور ولم تبق إلا على بيت الكريتلية لاحتفاظه بالكثير من معالم الدور الأثرية ولاعتباره نموذجاً فريداً ومثلاً من اجمل امثلة الدور والقصور التي كان يسكنها أمراء المماليك وثراتهم في القرنين ١٦و ١٧م. واصلحته الإدارة ودعمت مبانيه وأضافت إلى واجهاته مشربياتها وشبابيكها من الخشب الخرط الجميل، فأعادت إليه رونقه واصبح اثراً زاهياً في ميدان أحمد بن طولون.

وصرحت الحكومة المصرية لجاير أندرسون أن يقطن فيه، ففرشه وزينه بمجموعات من الأثاث والتحف المصرية، وأضاف إليه قاعات كاملة سورية الطراز وتركية وفارسية وصينية وبيزنطية، وبذاك حوّل البيت إلى متحف للبيئة الشعبية الإسلامية وللفنون والصناعات الشرقية.



□ محرقة عطر فضية على شكل ساق فنجان ذات غطاء مثقب مكسوة برسوم نافرة وزخرفية زهرية، تركيا العثمانية: القرن الثامن عشر.



□ بيت الكريتلية «متحف جاير اندرسون».

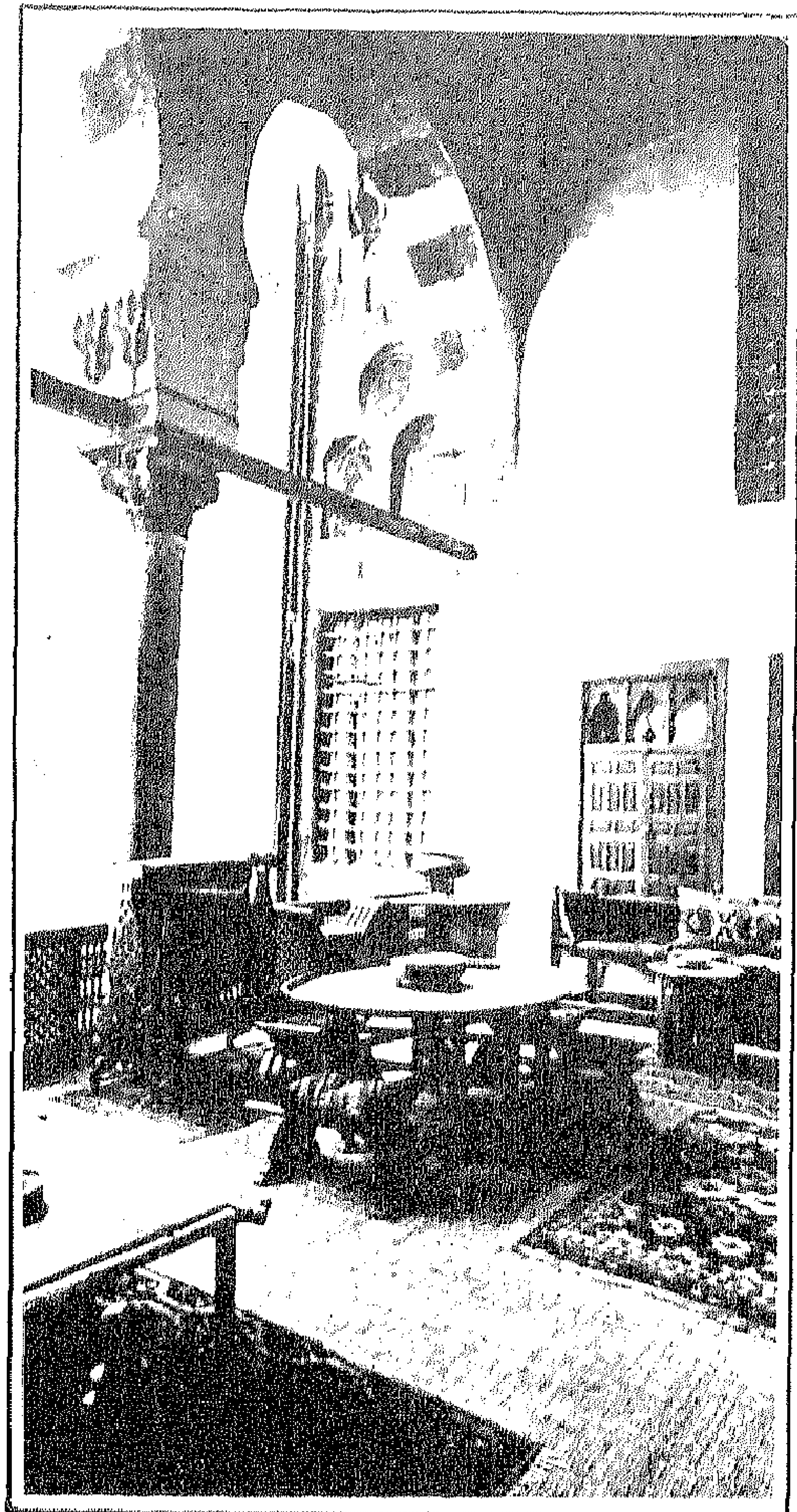
ويمتاز المتحف بميزتين انفرد بهما وهما: مبناه كأثر، ومعروضاته كمتحف وهو في الواقع بيتان متجاوران تفصل بينهما عطفة ضيقة هي عطفة الجامع الطولوني. والبيت الواقع شرقي العطفة انشأه محمد سالم جلمام الجزار سنة ١٠٤١هـ. وفي بداية القرن الماضي آل البيتان معاً إلى أسرة نازحة من جزيرة كريت، ومنذ ذلك الحين أصبحا ينسبان إليها فيقال «بيت الكريتلية».

وتنطبق على بيت الكريتلية جميع العناصر السائدة في منازل عصره فهو يبدو في مظهره العام كالحصن لخلوه من العناصر الزخرفية المعمارية فيما عدا المشربيات لأن ضيق الحواري لم يكن يسمح للمارة باستجلاء أي تفاصيل للواجهات، مما دعا إلى تركيز العناصر الزخرفية حول الفناء وداخل القاعات. ويعتبر الفناء والحديقة التي تتوسطه من العناصر التي تساعد على تلطيف الجو في القاعات الموزعة حول الفناء. ويضم البيت حواصل التخزين وأماكن لشرب المياه كالبئر والصهريج. ومن ذلك يمكن القول بأن كل دار كانت تضم جميع وسائل الراحة والمتعة لساكنيها أيام السلم. كما كانت بها وسائل الاكتفاء الذاتي زمن الحرب والحصار.

وفي الطرف الجنوبي الشرقي للبيت ضريح الشيخ هارون الحسيني، ويقال إنه من نسل النبي صلى الله عليه وسلم.

* * *

وسندلف إلى الداخل من باب الزيارة، وهناك ثلاثة أبواب غيره، أحدها باب الاستقبال الرئيسي



□ واجهة المقعد المطلة على الفناء.

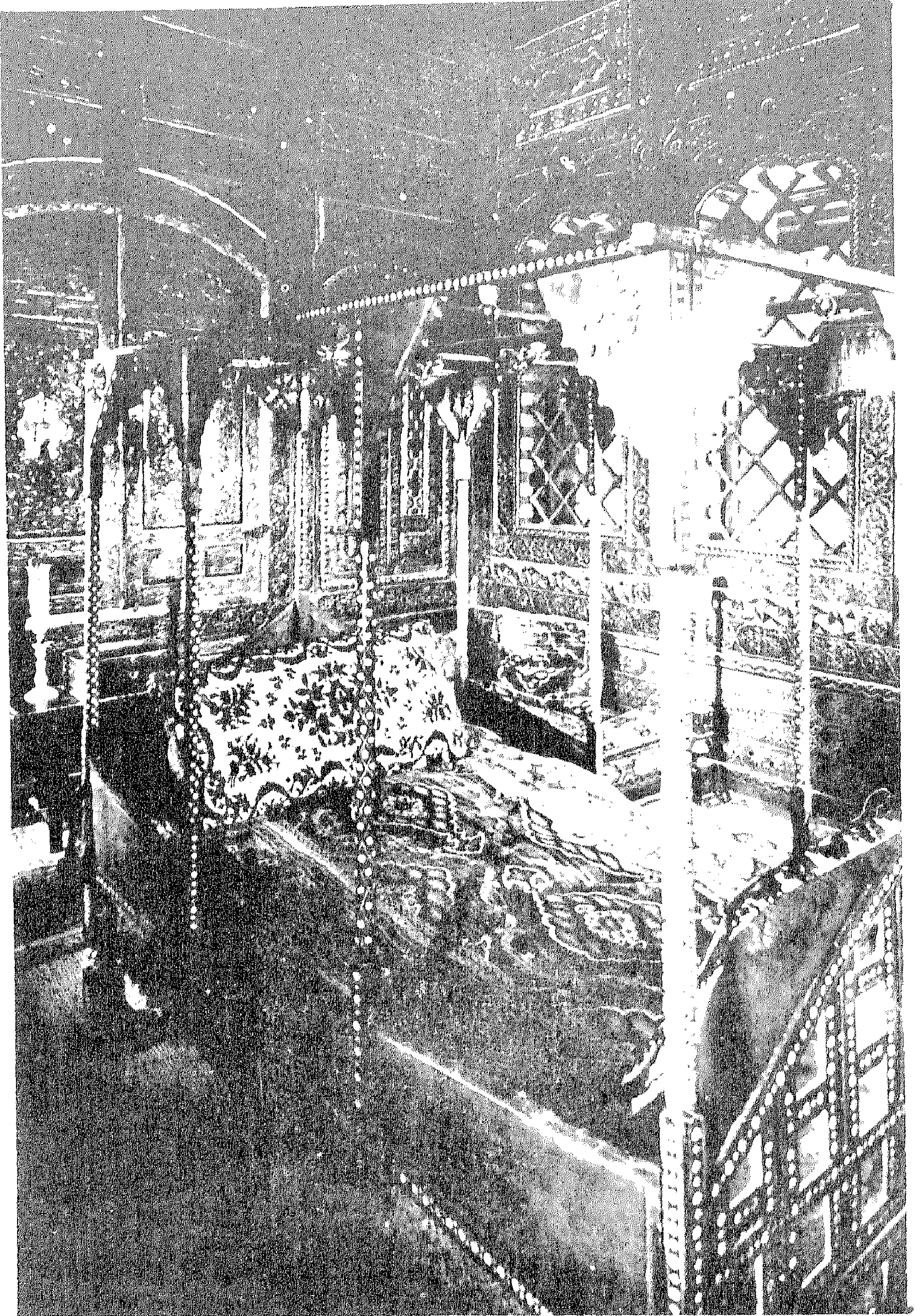


□ المقعد من الداخل.

للبيت فيعطفة الجامع الطولوني، وهو أكبر المداخل. والمدخل التالي له في الأهمية مدخل الحريم الذي يقع في الواجهة الشرقية. والمدخل الأخير باب السبيل. والأبواب جميعها تؤدي إلى الفناء بممرات متكسرة مصممة بها لهذا الوضع لتكون درعاً لداخل البيت ضد الهجوم المباشر وعائقاً له من أعين الفضوليين من المارة.

وفي وسط الفناء فسقية رخامية تتوسطها نافورة على هيئة برعم ينبثق منه المياه. ومن بين المعروضات مجموعة من (الكلج) وهي حاملات ازيار الماء. ومجموعة من الموازين القباني وصندوق أسطواني معلق بحبل يعرف بين جمهور الزوار باسم «أسانسير الطعام» ومما لا شك فيه أنه نموذج لما كان يستعمل في البيوت لرفع الطعام إلى الأدوار العليا.

أما السبيل الذي يؤدي إليه باب في الركن الجنوبي من الفناء، فهو قاعة عالية بارتفاع طابقين كاملين، وبها شباكان كبيران بمصبعات معدنية متسعة الفتحات. ويوجد صهريج تحت أرضية السبيل وهو عبارة عن خزان كبير كان يغسل كل عام ويجفف ويعقم بالتبخير بالروائح الزكية ثم يملأ بالماء. وكان يوجد أمام كل شباك حوض من الرخام يملأ من ماء الصهريج ليشرب منه العطشى من عابري الطريق بأحد الأكواب النحاسية المربوطة بسلاسل في مصبعات الشباك. وفي أرضية السبيل فتحة مضاءة تشاهد منها الصهريج. ويعرض على جدران القاعة مجموعة من النسيج وبعض أدوات كانت تستعمل في



□ الغرفة الدمشقية.



□ القاعة التركية.

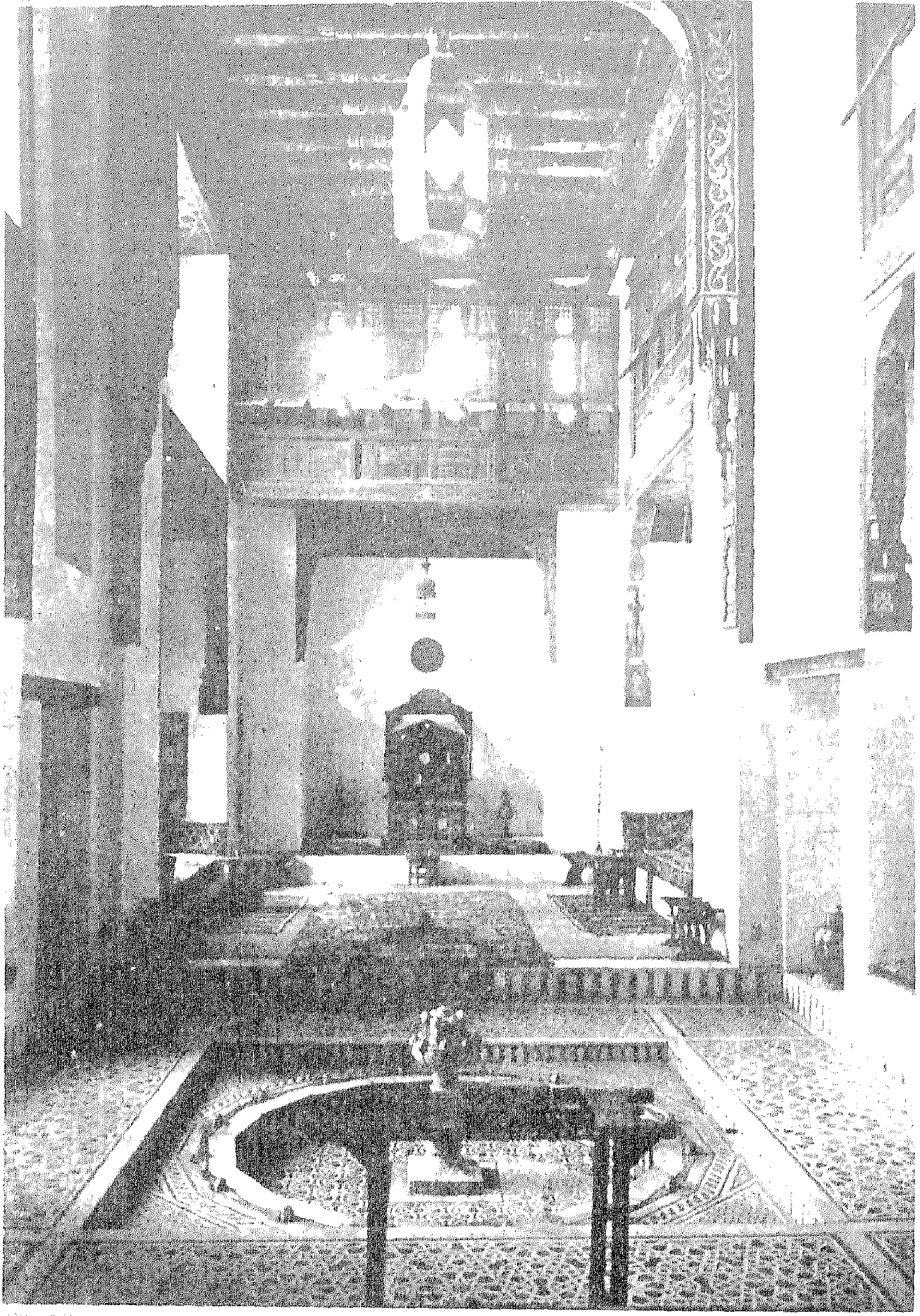
الموالد. ومكتوب بأسفل السقف اسم صاحب البيت وتاريخ البناء.

وبعد مشاهدة السبيل نعود إلى الفناء ونصعد إلى جناح الرجال «السلاملك» فتستقبلنا شرفة تسمى المقعد Loggia لاستقبال الزوار من الرجال في فصل الصيف إذ أنه يطل على الفناء بواسطة عقدين كبيرين ويستقبل الرياح الشمالية الباردة. والسقف من كتل خشبية مزخرفة بنقوش زيتية موشحة بالذهب مكتوب به اسم صاحب البيت وسنة البناء. وكانت تقام في المقعد سهرات الرجال وحفلات سهرهم التي كان يشاهدها النساء من خلال مشربياتهن المواجهة.

ثم ندخل «القاعة» وهي تقوم مقام الصالون في البيت الحديث، ونجدها عظيمة الارتفاع يتوسط أرضيتها جزء منخفض قليلاً يسمى «الدرقاعة»، وهي خاصية معمارية اتبعت في منازل العصر الإسلامي، فقد كانت العادة المتبعة أن يخلع الناس نعالهم في الدرقاعة قبل أن تطأ أقدامهم أرض القاعة. والقاعة مفروشة بجلسات مريحة يكسوها الكليم الدافئ الألوان. وتغطى فتحات نوافذها الكبيرة ستائر هندية الطراز، وفيها صفة ذات عقود وهي خزانة لأدوات المائدة مصنوعة من الفسيفساء الرخامية المتعددة الألوان، ومصفوف عليها نماذج من الفاكهة والأزهار وأواني الشراب والوضوء لتوضح طريقة استعمالها في العصور الغابرة. ومكتوب بالسقف اسم صاحب البيت وتاريخ الإنشاء.

ونشاهد بعد القاعة خزانة صغيرة تعرض بها مجموعة من الصور منها الفارسي والهندي والصيني وصور بريشة رسامين أوربيين محدثين اتبعوا الأسلوب الشرقي وأخرى لمصورين شرقيين اتبعوا الأسلوب الأوروبي.

أما قاعة الحريم فتتميز بمشربياتها الداخلة في الحائط وأجمل مقتنياتها الدواليب الفارسية المزخرفة باللاكية، وهى ذات رسوم دقيقة لمناظر



□ قاعة الاستقبالات الكبرى.

صيد وشراب وطرب وموسيقى في أوضاع مختلفة وزخارف أرابسك، وجميع هذه الرسوم والزخارف بالألوان المتعددة وأهمها اللون الذهبي. وهذه الدواليب منقولة من أحد قصور طهران وتوجد بداخلها مجموعات أثرية مختلفة.

وفي الطابق الثاني نجد الكتاب وهما حجرتان صغيرتان كانتا في الأصل مدرسة لتحفيظ الصبية القرآن الكريم وتعليمهم القراءة والكتابة.

واستغل سطح البيت في تكوين حديقة بهيجة مزروعة بألوان مختلفة من النباتات الصحراوية. وترى من السطح بعض المعالم الأثرية في القاهرة كالقلعة وجامع محمد علي وجامع ابن طولون ومئذنته الفريدة من نوعها ومآذن كثيرة من مآذن القاهرة. ويوجد في السطح ستائر من المشربيات بعضها عليه كتابات من القرآن والأخرى من الإنجيل مما يدل على أن الفن كان يخدم الدين الإسلامي والمسيحي على السواء. ونجد (مزولة) وهي ساعة تحسب الوقت بظل الشمس.

أما القاعة الفارسية ففيها صور إيرانية متأثرة بالأسلوب الأوربي مرسومة بالزيت ومعظمها لأشخاص وأمراء راجلين أو على ظهور الجياد. وفي جانب منها سرير فسيح ذو قوائم اربعة وهو صناعة محلية من خشب خرط تقليد للأسرة القديمة. وبالقاعة خزانات للكتب عليها رسوم أزهار وطيور بألوان مائية متعددة.

* * *

وبمغادرتنا هذه القاعة تنتهي زيارتنا لبيت الجزار، ثم نقف في الحجرة البيزنطية وهي ممر يصل بين البيتين ويؤدي إلى الطابق الثالث من البيت الغربي وبها مجموعة من التحف من العصر اليوناني والروماني والبيزنطي وأيقونات اغريقية وروسية وإيطالية ومسيحية مصرية.

وأول ما يقابلنا من قاعات البيت الثاني، قاعة الصور الأوربية، ونشاهد على جانبها خزانات تعرض بها مجموعة من الصور الحديثة المطبوعة او المرسومة بالألوان المائية وأغلبها لفنانين إنجليز.

اما الحجرة المصرية القديمة المعروفة باسم «المتحف» فيعرض في مواجهة الداخل إليها نموذج رائع من البرونز للقطة المصرية الفرعونية بالحجم الطبيعي لها قرط ذهبي في أذنيها وهي مقتبسة عن الأصل الذي عثر عليه في منف والمعروض في المتحف البريطاني. كما يوجد غطاء مومياء لكاهن الإلهة أوزيريس من الأسرة ١٨ (ق ١٤ ق.م). وإلى جانب هذه المعروضات الفرعونية وغيرها، تعرض مجموعات من الزجاج والخزف والمعادن والأسلحة الإسلامية.

ثم نتجه إلى الحجرة التركية وهي منقولة من قصر الأسرة اليكنية في سوق السلاح في القاهرة حينما هدم في سنة ١٩٣٧م. ومن معروضاتها طاقم استقبال مذهب به كرسي عرش يرجح أنه من عصر الخديوي إسماعيل، ومجموعة آنية من البللور البوهيمي ذي الزخارف المقطوعة الملونة والمذهبة.

والحجرة المجاورة غرفة طعام من طراز عصر الملكة آن الانجليزية وتضم مجموعة من الأواني الصينية الصغيرة المزخرفة بالمينا مكتوب عليها أسماء أصحابها بالعربية او الفارسية. كما توجد لوحات زيتية تزين الجدران لفنانين محدثين أوربيين.

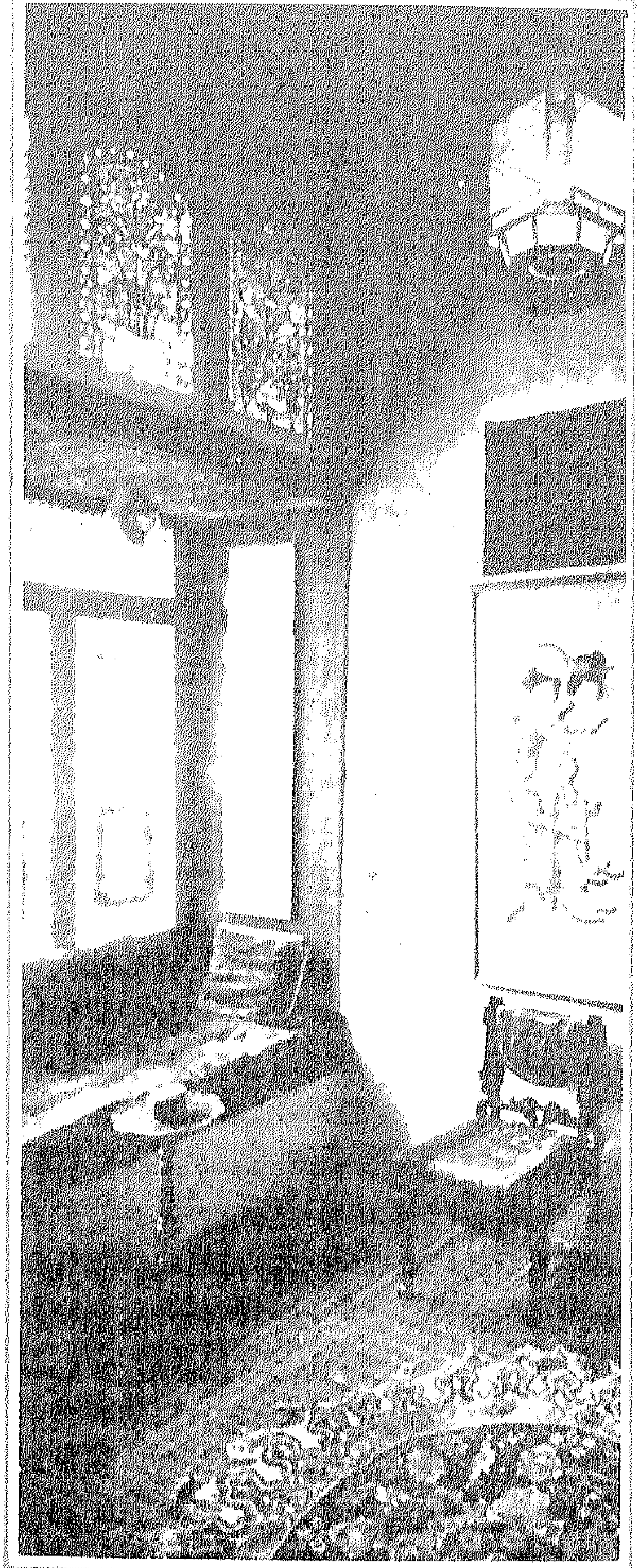
وفي حجرة المكتبة ما يقرب من الفي كتاب في الآثار والفنون والتاريخ والرحلات، ويوجد على الأرفف الجانبية بعض تماثيل برونزية منها ما يمثل الأسطورة اليونانية «ليديا والبجعة» والإله حورس (الصقر) في العصر البلطمي والإله «بيس» إله الخمر.

وتوجد حجرة صغيرة تسمى الحجرة الصينية وهي شاعرية التصميم بمشربيتها الخارجة والشبابيك العلوية ذات الزخارف الجصية بالزجاج الملون (قمريات)، وبها مائدة وصور حائطية صينية الطراز.

اما الغرفة الدمشقية فهي أجمل غرف المتحف وأكثرها رقة، وهي تحتل جناحاً خاصاً، وقد جلبت من دمشق وركبت في هذا المكان وهي مؤرخة ١١٠٣هـ (١٦٩١م) ومما يسترعي النظر أن جدران الغرفة وسقفها مكسوة بتجليد من الخشب الحافل بالرسوم المدهونة بالألوان المعقدة وهي لمناظر طبيعية من إقليم دمشق وفي الجانب الأيمن من الغرفة ثلاثة دواليب داخلة في الحائط بها فنيارات سورية مما كان يستعمل في ذلك

العصر، وظل سائداً حتى أوائل القرن العشرين، وهذه المجموعة من الفنيارات أكبر مجموعة من نوعها. وفي وسط الغرفة سرير رشيق من خشب الورد مطعم بالعاج والمرايا الصغيرة.

وبعد أن نغادر هذه القاعة إلى الطابق الثاني نجد جناح الحريم وبه غرفة الزائرات وفيها مشربية كبيرة وبعض صور زيتية. وأمامها



□ القاعة الصينية.

دولاب حائطي يفتح بطريقة سرية على شرفة تشبه لوج المسرح لجلوس سيدتين يمكنهما متابعة ما يدور في قاعة الاحتفالات الكبرى أسفل جناح الحريم. وفي أقصى يسار هذه الغرفة دهليز طويل يضم رواق الاستماع ويطل على قاعة الاحتفالات ويؤدي إلى غرفة داخلية.

وفي الطابق الأول نجد المقعد وهو يطل على الفناء ويواجه الشمال الغربي، وكان معداً لاستقبال الزوار من الرجال.

ولسوف تأخذ الزائر الدهشة والعجب حينما يدخل من باب المقعد ليجد نفسه في قاعة فسيحة عالية على جانب كبير من الأبهة والفخامة. وهي بلا شك أكمل وأبدع نموذج لقاعة من نوعها في القاهرة وأرضيتها مبلطة بالرخام المزخرف الملون وفي وسطها فسقية من فسيفساء الرخام، وللقاعة مشربيات جانبية أخرى علوية لرواق الاستماع المطل عليها من جناح الحريم. والسقف من الخشب المطلي بألوان براقة في رسوم هندسية وأرابسك ويوجد جزء من الأزار الخشبي القديم أسفل السقف به بقايا النص التأسيسي للمنزل وهو «... أمر بإنشاء الدار العبد الفقير إلى ربه المعلم عبدالله الجلاد عام سبع وأربعين وتسعماية هجرية»، وفي القاعة «كوشة» من خشب الورد المطعّم بالعاج والمرايا الزجاجية، وكان يجلس عليها العروسان في حفل الزفاف.

وفي فناء البيت «التختبوش» وهو لاستقبال الزوار العاديين وحديقة صغيرة وحاصلان وصهريج للماء. وفي إحدى الحجرات الجانبية سرير «تخت» بجواره سلم من أربع درجات ترتقيه العروس للصعود إلى الفراش.

وتنتهي جولتنا في بيت الكريتلية.. ولعلنا قد أحطنا القارىء بعرض سريع للمتحف ومعروضاته. لقد شاهد بيتاً غير مألوف في تصميمه وتخطيطه، وما وقعت عينه إلا على تفاصيل دقيقة في العمارة والزخرفة وروائع التحف والمقتنيات، كما لمس غرابة سبل المعيشة عند أجدادنا. ولعله يتساءل عن ألوان الترف والبذخ التي نعم بها أهل البيت. •



الإمام الشيخ محمد عبده

من تلاميذ الإمام الثائر جمال الدين الافغاني باعث النهضة وموقظ الوطنية... وهو محرر الفكر من قيود التقليد، واللغة من قيود السجع، والدين من البدع والأباطيل.

□ **مولده:** ولد محمد في قرية حصة شبشير على مقربة من طنطا سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩م وكان والده عبده بن خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبرا خيت من مديرية البحيرة.

□ **نشاته:** نشأ محمد عبده في بيئة متوسطة الحال، يحب ويحترم ويوقر والديه اللذين كانا شديدي العطف على المساكين، كريمين مع الناس غاية الكرم، وكان والده وجميع رجال الأسرة يعملون بالزراعة ويقال إن أمه تنسب إلى بيت عربي قرشي يتصل النسب في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

□ **تعليمه:** تعلم القراءة والكتابة في منزل والده، وحفظ القرآن الكريم في دار الحافظ للقرآن في سنتين. ثم سافر الى طنطا مع والده لتجويد القرآن ١٢٧٩هـ.. وجلس في دروس العلم في المسجد الأحمدي بطنطا، ولكن رداءة طريقة التعليم جعلته لا يفهم الإصطلاحات النحوية الفقهية، فهرب من الدروس واختفى عند أخواله ثلاثة أشهر، وصمم على الرجوع إلى بلدته ليلاحظ الزراعة كما يفعل أقاربه، وتزوج ١٢٨٢ هـ.

ولكن والده أصر على أن يتلقى العلم فأرسله إلى طنطا مع أحد أتباعه.. ولكنه هرب منه إلى قرية (أورين) وبات في الكنيسة وهناك أمضى خمسة عشر يوماً مع أحد أقاربه وهو (الشيخ درويش) الذي قرأ عليه كتاب في التصوف فأخرجه (على حد قوله) في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد إلى اطلاق التوحيد.

ثم سار إلى القاهرة، والتحق بالجامع الأزهر، وتفرغ للدرس والتحصيل، وبعد ثلاث سنين التقى بالسيد جمال الدين الأفغاني.

□ مع الثورة العرابية:

ونال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية ١٨٧٧ وعين مدرساً بدار العلوم ١٨٧٨م. ثم عين محرراً بالوقائع المصرية ١٨٨٠م.

كان الشيخ محمد عبده على خلاف مع زعماء الثورة العرابية حول برنامجهم العملي.. كان الشيخ ثائراً.. فلم يؤيد العرابيين إلا ليوحد الصفوف في وجه الأحتلال الأجنبي بعد أن التجأ الخديوي توفيق إلى بريطانيا.

بعد هزيمة الثورة العرابية القى القبض على زعماء الثورة لمحاكمتهم.. وقبض معهم على الشيخ محمد عبده وأودع السجن لمدة ثلاثة أشهر انتظاراً لمحاكمته... وقد لفقت له التهم ممن لا ضمائر ولا دين ولا أخلاق عندهم...

ثم حكمت عليه المحكمة العسكرية التي الفها الخديوي توفيق لهذا الغرض بالنفي خارج البلاد لمدة ثلاث سنوات... فأقام في بيروت حيث قام بالتدريس في مدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد وعلوم الدين...

- الف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصرية.
- والف كتاب الإسلام والنصرانية.
- ونشر الرد على هانوتو.
- الف حاشيته على شرح الدواني.
- ترجم رسالة الرد على الدهرين.
- شرح مقامات البديع ونهج البلاغة.

□ **وفاته**:مات الشيخ الإمام محمد عبده بمدينة الاسكندرية عام ١٩٠٥م بعد أن ايقظ الوعي الوطني لدى المصريين وعلمهم حقوقهم وكيف يطالبون بها.. وكيف يثورون ضد الظلم والطغيان.

مات البطل الشجاع الذي كان ينادي بأعلى صوته يدعو إلى الحرية والاستقلال ورد الحقوق للشعب في الوقت الذي كان الكل فيه عبيداً للسلطان وهو في أوج جبروته وقوته لم يخش احداً إلا الله، وترك وراءه قصة حياة بطولية مباركة. •



● «إسمع من أصحاب رسول الله ، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث (الذي لا يتعجل في أمره) الذي يعرف الفرصة، ولا يمنعني أن أؤمر سليطاً (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب. والسرعة إلى الحرب ــ إلا عن بيان ــ ضياع».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

عدم الانحياز

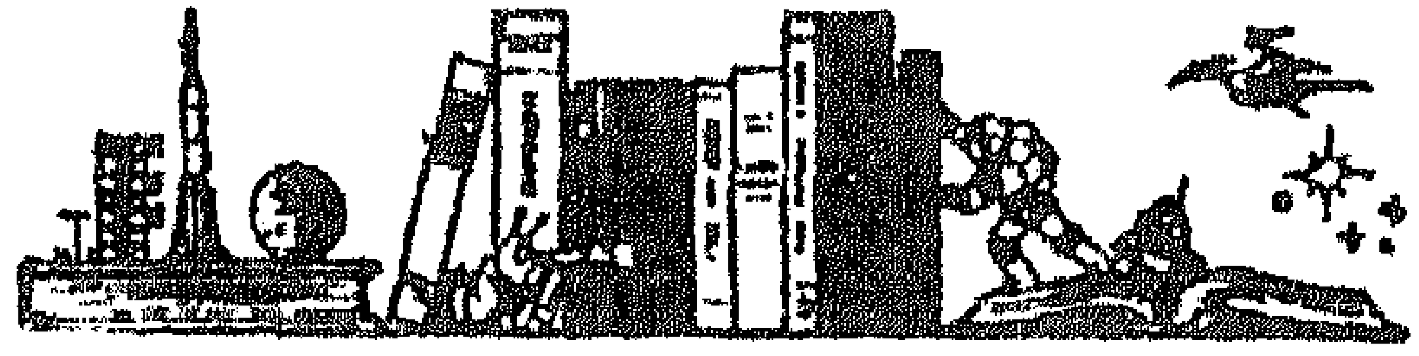
● «الحياد» و «الحياد الايجابي» و «عدم الانحياز» هي كلمات تدل على بعض الفوارق، على سياسة واحدة. والخط المشترك بينها هو التحرر من الأحلاف العسكرية. غير أن الحياد قد يكون مجرد حياد سلبي قانوني مثل حياد سويسرا اثناء الحروب العالمية. والمقصود بالحياد الايجابي هو حياد الدول غير المنضمة للكتلتين، أو لحلف وارسو والأطلنطي، وتعمل إيجابياً على السلام العالمي. أول مؤتمر لدول عدم الانحياز انعقد في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ في بلغراد، وتلتها مؤتمرات القاهرة، ودلهي، والجزائر واجتماعات ثنائية وثلاثية، وقد تبنت أغلب دول العالم الثالث المستقلة سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي.

فوزي القاوقجي

● سياسي ومناضل سوري ــ لبناني. ولد في طرابلس ــ لبنان، انخرط في الجيش العثماني. شارك في ثورة ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ في جبل العرب. حكمت عليه فرنسا بالاعدام فانتقل إلى بغداد حيث دخل إلى كليتها الحربية. عاد إلى سوريا سنة ١٩٣٦ على رأس مجموعات من المتطوعين لنصرة ثورة فلسطين وأبلى هناك بلاء حسناً.

شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١. سافر إلى برلين بعد فشل هذه الحركة ثم عاد إلى سوريا، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. عينته الجامعة العربية سنة ١٩٤٨ قائداً لجيش الانقاذ المؤلف من متطوعين من مختلف الأقطار العربية وذلك لمساعدة الثورة الفلسطينية.

كتب وردتنا



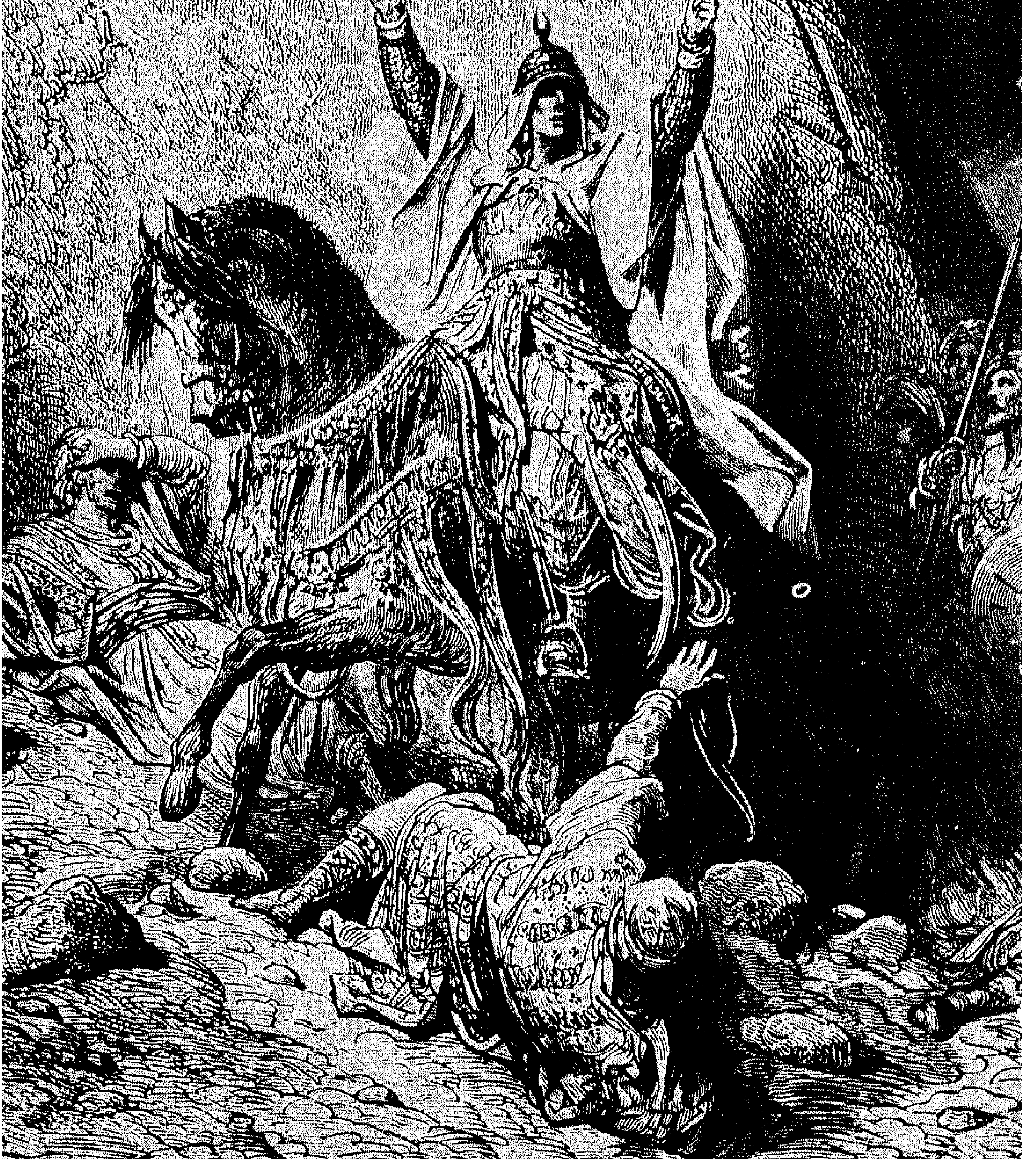
- اثر البترول والغاز الطبيعي
في التنمية الاقتصادية
في دولة الإمارات العربية المتحدة
الناشر: دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع ــ نيقوسيا ــ قبرص
الطبعة الأولى ــ الكويت ١٩٨٦.. خالد بن محمد القاسمي
- **إدارة البيئة في دولة قطر**
مؤسسة دار الكتاب الحديث ــ بيروت
الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ١٤٠٧هـ.. بقلم خالد بن محمد القاسمي
- **التكامل الاقتصادي بين دول**
مجلس التعاون الخليجي
منشورات مركز الإنماء القومي ــ بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦..... جاسم بن محمد القاسمي
- **المعجم الديمغرافي متعدِّد اللغات**
السفر العربي ــ الطبعة الثانية .... إعداد: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا
- **المسلمون والعصر**
الكتاب الرابع عشر، ١٥ يناير ١٩٨٧
إصدار مجلة العربي..
- **أحمد الشقيري**
زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً
نشر لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري
الكويت ١٩٨٧.. الدكتورة خيرية قاسمية
- **سلسلة نصوص الفكر السياسي العربي الإسلامي (١)**
الماوردي
تسهيل النظر وتعجيل الظفر
في اختلاف المَلِك وسياسة المُلك
المركز الإسلامي للبحوث ــ
دار العلوم العربية للطباعة والنشر........................ تحقيق ودراسة رضوان السيد
- **صحافي من فلسطين... يتذكر**.. كنعان أبو خضرا

□ الصحيفة الافتتاحية لكتاب عقيدة ابن أصبغ، مكتوب في الأندلس في القرن الثالث عشر، وهو محفوظ الآن في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة

السنة التاسعة ●



● الصليبيون يهاجمون إحدى القلاع الإسلامية.



الغلاف الأول

□ القائد صلاح الدين الأيوبي.

من مجلة:

L'histoire No. 47, Juillet/Août 1981

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٠٥/١٠٦ • تموز ـ آب ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدوة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٢٠٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٥٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدما نقدا أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان • بناية أبو هليل

شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

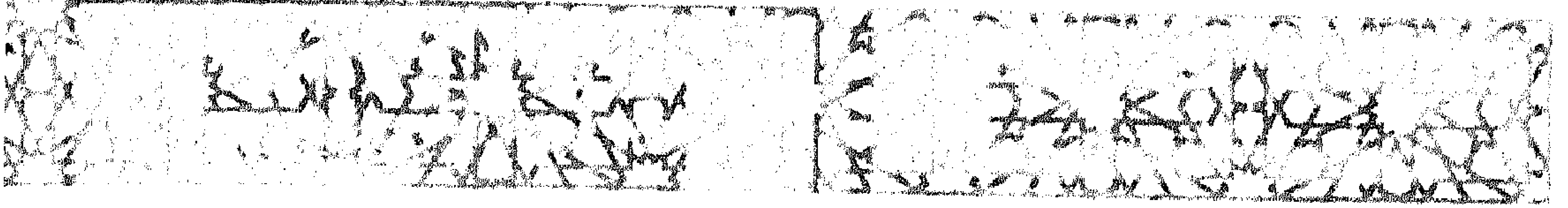
Vol. 9. No. 105/106, July-Aug 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION ; $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



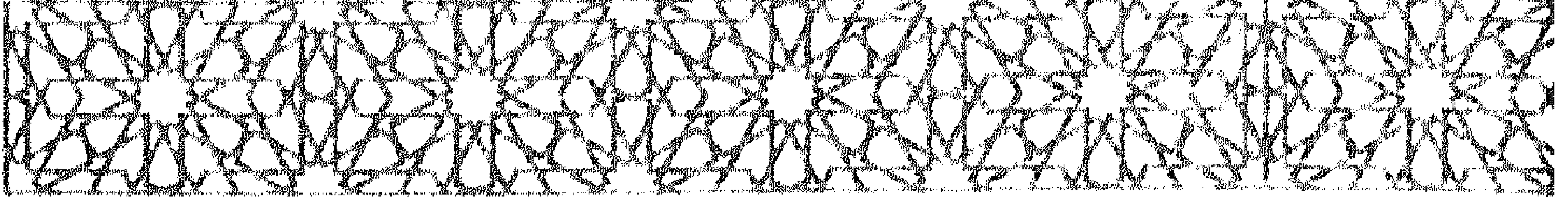


العرب يحتفلون في دمشق بالذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين

إن العمل من أجل الوحدة هو العمل الأكثر ثورية والأشد خطورة والأسمى هدفاً

فاروق البربير

□ الرئيس حافظ الأسد.



قال أحد أبرز أساتذة التاريخ الذين شاركوا في ندوة حطين التي عقدت في تموز/يولية بدمشق: «إن التاريخ أعجز وأعظم من أن يعيد نفسه».

وهذا صحيح تماماً بالقدر نفسه الذي يصح به القول بأن المستقبل مصبّ لخبرات الماضي، وقدرة الحاضر على رؤيته رؤية عميقة واعية، وأن أمة تقرأ تاريخها قراءة حضارية بصيرة جدير بها — في يوم ما — أن تشكّل مستقبلها على النحو الذي يتوافق مع مكانتها التاريخية، ويحقق آمال أجيالها الساعية إلى المشاركة في تكوين الحضارة الإنسانية الشاملة على نحو أفضل.

وبعيداً عن سذاجة شعار «إن التاريخ يعيد نفسه» ولكن في عمق الوعي العلمي تاريخياً وسياسياً بأبعاد الجوامع والفوارق، كان لا بد من التوقف أمام سمات جمعت بين مشروع إنشاء الدويلات الصليبية في بلاد الشام وبين المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وكيف كانت موقعة حطين منعطف التحول الأكبر في مسار المواجهة العربية الإسلامية للمشروع الصليبي، والحاجة الراهنة إلى تمثّل تلك التجربة — لا تقليدها — في توفير أسباب الانتصار وعوامله على المشروع الصهيوني الجاثم على صدر الأمة منذ أربعين عاماً.

لذلك دعت وزارة الثقافة السورية، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين، إلى ندوة علمية عقدت بدمشق في المدة من ١١ إلى ١٩٨٧/٧/١٣، شارك فيها عدد كبير من أساتذة التاريخ والاقتصاد السياسي والعلوم العسكرية من مختلف أنحاء الوطن العربي، فضلاً عن مشاركة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، واتحاد المؤرخين العرب.

ونظراً لأهمية هذه الندوة فقد حرصت مجلة «تاريخ العرب والعالم» على أن تضع بين يدي قرائها عدداً خاصاً عنها، يضم مجموعة من البحوث والدراسات التي قدمت فيها، تمثل جوانب تناول معركة حطين من النواحي التاريخية والسياسية والعسكرية. وقد تم اختيار هذه المجموعة وفق الاعتبارات الفنية والتقنية للمجلة من حيث الحجم والسعة، ولعل بعض البحوث التي لم تنشر في هذا العدد تكون محل عناية في الأعداد القادمة.

وبسبب من حرص وزارة الثقافة السورية على السمة العلمية للندوة لم يكن حفل افتتاحها — خلافاً لكثير من الندوات والمؤتمرات — اعتلاءً لمنبر الخطابة الرنانة، ولكنه كان كأي من حلقات الندوة لقاءً فكرياً عبّر فيه المشاركون بالافتتاح عن رؤى علمية واضحة للحدث التاريخي وأبعاده الحضارية والسياسية.

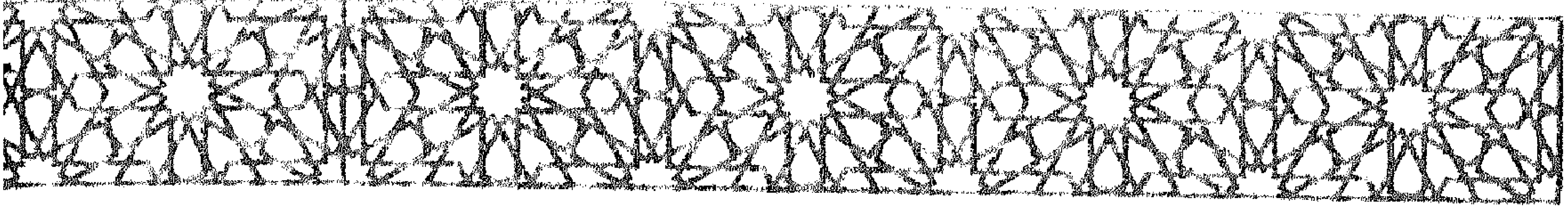
ولقد افتتحت الندوة صباح السبت الواقع في ١٩٨٧/٧/١١، في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد، برعاية السيد الرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية ومثّله الدكتور محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية.

وحضر حفل الافتتاح عدد من أعضاء القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وعدد من أعضاء القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية وعدد من السادة الوزراء.

كما حضر الافتتاح السيد الشاذلي القليبي الأمين العام لجامعة الدول العربية ورئيس جامعة دمشق، وعدد من أعضاء مجلس الشعب ومن سفراء الدول العربية والأجنبية المعتمدين بدمشق

وقد ألقى السيد الدكتور محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية كلمة افتتاح الندوة حيا فيها ذكرى موقعة حطين المجيدة التي حقق العرب فيها بقيادة البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي نصراً مؤزراً على الصليبيين أعداء الأمة العربية، ونقل تحيات سيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية إلى المشاركين في الندوة وتقديره للجهود التي بذلت لإنجاحها

بعدها ألقت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة كلمة أشارت فيها إلى أن الحروب الصليبية هي النسخة السابقة للحروب الصهيونية اللاحقة التي شنتها إسرائيل والهدف منها واحد هو الاستعمار والاستيطان والاحتلال، وأكدت أن دمشق كما كانت في زمن صلاح الدين منطلق وحدة وتحرير ستكون في





□ الدكتورة نجاح العطار

زمن حافظ الأسد منطلق وحدة وتحرير، ولن يتأبد احتلال الصهيونيين كما لم يتأبد احتلال الصليبيين، كما القى السيد الشاذلي القليبي الأمين العام لجامعة الدول العربية كلمة أشاد فيها بمبادرة سورية بقيادة السيد الرئيس حافظ الأسد»

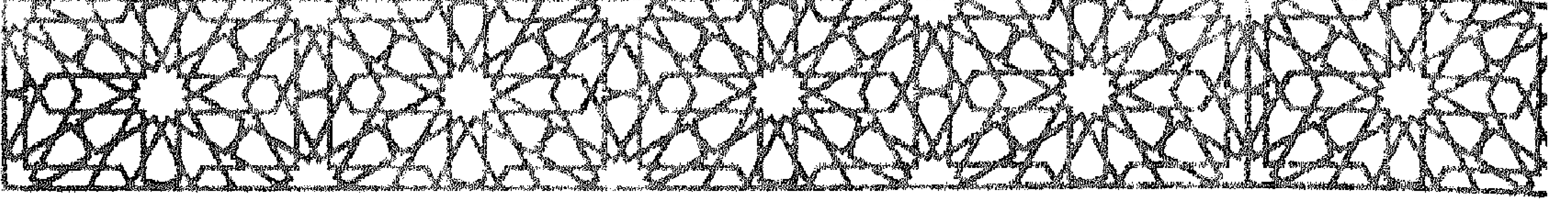
وألقى الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب كلمة نقل في مستهلها تحيات المؤرخين العرب للمشاركين في ندوة حطين مؤكداً أن صلاح الدين الأيوبي حقق وحدة عربية قوية.

كلمة د. نجاح العطار: وزيرة الثقافة

إن الخطاب في أقصى مداه كتاب والكتاب في غايته خبر والأخبار في السيوف لا في الكتب صدقها وهذا الصدق يختصر مجد الكلمة لأنه يختصر مجد المعركة هذه التي في غمارها النصر والفتح وفي ضوئها الشبوب والوهج وفي حسمها يبدأ تاريخ وينتهي تاريخ وفي ذكراها ننحني احتراماً للدم الطهور الذي أشعل بأرجوانيته النيران في التربة.

وقالت إن ذكرى حطين كانت شهادة لا تنقض على أن ما أخذ بالسيف فبالسيف يسترد وتلك حكاية الحكايا لقوم يعقلون وخلاصة الخلاصة في تاريخ كل الأمم وكل الشعوب وكل الذين ينهضون بعد قعود ويجتمعون بعد فرقة ويتوحدون بعد شتات ويرفعون لوثبتهم منارة هي الأعلى في المنارات لأنها منارة الوحدة التي ليس بعدها بعد.

وقالت الدكتورة العطار إن صلاح الدين هو في معجزة ما صنع بطل كل القرون والدهور والأزمان وحروب امتدت وأناخت وأزهقت وتطاولت كأنها الليل الأبدي فإذا به في موقعة واحدة يقطع سلسلتها بمدية شجاعته ويقشع ظلمتها بمصباح بطولته وينهي أمرها بضربة حاسمة ما عرفت مثلها ضربات الأبطال الذين حسموا المعارك في أزمانهم.



وأضافت أنه كان ذا عزم لا يلين وشجاعة ندرت بين الشجاعات وحكمة فيها العقل والرؤية والتدبير وكما كان يقول المؤرخون يرى في التحرير قضية وليس مغامرة عسكرية وفي الحرب التحريرية اختياراً لكل طاقات الأمة وإمكاناتها المادية والمعنوية وقد عمل قبل أن يتوجه إلى قتال الأعداء على توفير كل مقومات النجاح وفي أساسها الوحدة التي هي حجر الزاوية.

وأشارت إلى أن انتصار حطين قد فتح الطريق لكل الانتصارات التي تلته بفضل وحدة العرب والمسلمين وما كان قادراً على الاستمرار لولا النهوض الشعبي الذي رافقه وإن أحلام الفرنجة في الأمة وفي احتلالهم للمشرق العربي قد عصفت بها رياح وحدة الكلمة ووحدة الموقف ووحدة الاندفاعات العربية الإسلامية وأن الحروب الصليبية هي النسخة السابقة للحروب الصهيونية اللاحقة التي شنتها إسرائيل والهدف منهما واحد هو الاستعمار والاستيطان والاحتلال.

وقالت إن معركتنا مع العدو دائرة منذ أربعين عاماً وستظل دائرة إلى أن تبلغ النصر فالأرض التي انجبت صلاح الدين الأيوبي أنجبت أيضاً جمال عبدالناصر وحافظ الأسد الذي جاء ليكمل رسالة عبدالناصر في التحرير والتوحيد وإنهاض العرب وإعدادهم للمعركة وقد خبر تجربة عبدالناصر وأفاد منها وبرهنت تجربته هو عن نفسها وأعطت مصداقيتها في حرب تشرين وما قبلها وما بعدها وفي هذا الصمود الرائع أمام كامب ديفيد وأمام الهجمة الامبريالية الشرسة وإجرام إسرائيل المنكر وكل المؤامرات والضغوط.

وأضافت أن حافظ الأسد بطل مرحلته كما كان عبدالناصر بطل مرحلته وإن التاريخ سيحفظ لحافظ الأسد في أشد صفحاته إشراقاً ذكراً خالداً لأنه هو بما أوتي من صادق العزم والنية والأبحاث سيبقى في المجلين من سيرة أبطالنا وفي الشجعان من ملاحم قادتنا ومن هنا ثقتنا وثقة العرب العميقة بخطه النضالي الصلب والصامد.

وقالت إن احتفالنا بالتاريخ وبقائده وبوحدته ومعركته الشهيرة مناسبة للذكرى والعبرة لا للحسرة والرجعى ومناسبة للعمل والبذل لا للتباهي والتفاخر وكذلك مناسبة لشد العزائم لا لتراخيها وللإصرار على ما يجمع لا على ما يفرق وعلى ما يوحد لا على ما يشتت وسنبلغ بهذه الإرادة الصلبة ما نسعى إليه ونجاهد في سبيله وهو الوحدة والنصر وتحرير الأرض واسترداد الحقوق.

وأضافت إن دمشق كما كانت في زمن صلاح الدين منطلق وحدة وتحرير ستكون في زمن حافظ الأسد منطلق وحدة وتحرير وسنتخذ قرار معركتنا على مدى من وحدتنا وقوتنا وتوازن استراتيجيتنا ولن يفت في عضدنا تصرم الأعوام فنحن نعرف الحساب ونجيد قراءته ونعرف إن تطاول زمنه هو لنا وفي مصلحتنا وأن العقود لا شيء إذا كانت القرون لا شيء ولن يتأبد احتلال الصهيونيين كما لم يتأبد احتلال الصليبيين ما دامت المعركة بيننا مفتوحة وستظل مفتوحة جيلاً فجيلاً فجيلاً وسنلبي نداء التاريخ وسنمضي معه إلى الأمام دائماً لأنه في مبرم حكمه لم يقف ولم يتراجع إلى وراء أبداً.

وأشارت الدكتورة العطار إلى أن هذه ندوة لحطين لكنها في المآل ندوة لدمشق وكل عاصمة عربية وكل مدينة وبلدة وقرية عربية ونحن إذ نستعيد ذكرى حطين نعرف أن الخطر على حدودنا والنار موجهة إلى صدورنا وعدونا هناك في الأرض المحتلة وأنه في مطامع الصهيونية كما كان في مطامع الصليبية مشروع للتوسع والاحتلال من النيل إلى الفرات ومن المشرق إلى المغرب.

وأضافت إن الخطر على حدودنا كبير داهم وعلى العرب وكل العرب الذين يعز عليهم بيت المقدس والأراضي المقدسة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وكل المقدسات المستباحة أن يهبّوا وينهضوا ويحشدوا ويبذلوا ويصنعوا حطين عصرنا كما صنع صلاح الدين حطين عصره. ●



من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس



زقاق في القدس العتيقة بريشة غوستاف [illegible]

بقلم: د. شاكر مصطفى

ذات يوم من صيف ١٩٦٩ كنت في المكتبة الشرقية في بيروت أختار بعض الكتب الفرنسية حين وقع لي كتاب صغير من مائتي صفحة اسمه الإسلام والصليبيات لمؤلف، لم أسمع به بين العلماء اسمه عمانويل سيفان! ووضعت الكتاب بين ما اخترته من الكتب وسألني الكتبي وهو يضع قائمة الحساب هل أصر عليه؟ إنه غال؟ ووافقت، فموضوعه ضمن اهتماماتي! لكني لم أتصور أن يكون الثمن في ذلك العهد أربعين ليرة لبنانية. وأعترف أني صدمت ولم أستطع التراجع. فكان أول ما فعلت ذلك اليوم أن أرى ما في هذا الكتاب!

وفوجئت فيه بعدد من الكشوف لو دفعت ثمنها الألاف لكان ذلك رخيصاً رخيصاً.

أولها: إن الجماعات اليهودية التي تحتل فلسطين تدرك تشابه غزوها واحتلالها للبلاد مع الغزو والاحتلال الصليبيين. تدركه بوضوح وتعالجه جديا في المنظور العلمي كتجربة رائدة.

ثانيها: إنها تدرس الموقف، في الشرق العربي الإسلامي، في جذوره وتحلل عناصره لتتفادى نهاية كنهاية حطين وما بعد حطين.

ثالثها: ولعل الأهم أن ثمة فرق عمل كاملة في الجامعة العبرية تتخصص في هذا الموضوع على رأسها جوزيف براور صاحب كتاب تاريخ المملكة اللاتينية في القدس (وهو في مجلدين بالعبرية نشر سنة ١٩٦٣). وتستعين هذه الفرق بالعلماء المتصهينين في الجامعات الغربية لهذا الغرض فلهم مراكز بحث ومستشارون في جامعة باريس لدى العالم اليهودي كلود كاهن وفي الجامعات الأخرى الأميركية أمثال: أشتور شتراوس وبرونشفيك وكيستر وأيالون المختص بالعصر المملوكي وغويتاين الذي كتب عشرات الأبحاث حول قدسية القدس والصليبيات واليهود والإسلام...

هذه النقلة من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس يجد فيها اليهود الغارقون في التوراة، وفي الحق التاريخي طقساً من طقوس العبادة. إنها عندهم نقلة بين التاريخ وبين المستقبل وليست تهمهم الصليبيات بالطبع بوصفها صليبيات وإنما تهمهم بوصفها رموزاً تاريخية، وبوصفها إسقاطاً على المستقبل. زاوية اهتمامهم محصورة فيها في نقطة وحيدة: كيف تم طرد الصليبيين من هذه البقاع نفسها التي يحتلونها؟ لهذا لا يهمهم بحثها الذي قتله الغربيون بحثاً ولكن تهمهم الرمال المتحركة تحت الغزاة في فلسطين وحول فلسطين. الاستيطان ووسائله في الأرض هي الهاجس المؤرق. إن جذور الحاضر موجودة في الماضي وممدودة إلى المستقبل. دراساتهم كلها ها هنا محورها.

إنهم يدرسون معنى الجهاد وكيف استيقظ في المشرق العربي؟ ومدى حيويته في الشام بالذات؟ وتأثير فكرة الجهاد قبل الصليبيات وأثناءها وبعدها؟ يحللون مدى قدسية القدس وعناصرها في نفوس المسلمين وردود فعلهم ضد الاحتلال الغريب؟ يرون كيف تمت الهدنات وتم التعايش الفرنجي ــ الإسلامي أولاً وكيف انقلب ذلك حروباً وجهاداً من بعد رغم تطاول الزمن؟ كيف تحول مفهوم الجهاد القديم فحَلَّ في مفاهيم جديدة ألهبت الناس؟ يبحثون عن مرتكزات الدعاية التي حولته دينياً إلى عنصر كره للفرنج؟ وعن جذور الترابط في المنطقة من مصر إلى العراق وعن أسباب توحدها في حطين وما بعدها؟ بل يحللون «نصر» عين جالوت ضد المغول ويلحقون بالتحليل الفتاوى الشرعية ويحللون أسباب سقوط عكا الأخير سنة ١٢٩١ وخروج آخر الصليبيين على آخر المراكب في المشرق... يبحثون عن أسباب ذلك وجذوره حتى في لاوعي الشعب نفسه..

ولاحقت أعمال الجماعة الصهيونية في الأسئلة التي تطرحها فإذا بين هذه الأسئلة:

ــ لماذا لم تستيقظ فكرة الجهاد في العصر الحمداني إلا على الثغور والحدود رغم دعاية سيف الدولة ورغم خطب ابن نباتة وأشعار المتنبي؟ ولم استيقظت في العصر الصليبي في دمشق وحلب خاصة؟.

ــ لماذا أخذ الجهاد الشكل الدفاعي السلبي والمحدود قبل الصليبيات؟ ثم أخذ الشكل الهجومي الواسع بعدها؟

ــ كيف أقيمت الصلة بين فكرة الجهاد وبين قدسية القدس؟ مع أنها لم تكن موضوع جهاد من قبل؟ ولا موضوع قدسية!

ــ ماذا زادت الصليبيات من العناصر على قدسية القدس لدى المسلمين؟.

ــ لماذا كانت معركة منذكرت (ملاذكرد) سنة ١٠٧١ نصراً إسلامياً نسيه الناس بسرعة مع أنها كانت معركة حاسمة أسر فيها امبراطور بيزنطة لأول مرة ولآخر مرة في التاريخ بيد سلطان السلاجقة ملك شاه ولماذا لم تثر المعركة فكرة الجهاد لدى أهل الشام والعراق خاصة؟.

ــ لماذا لم يذكر علماء الإسلام في القرن الثاني عشر فكرة «طلب الشهادة» بين دوافع الجهاد؟ ولم يذكروا القدس؟ إن أعمال ١٢ عالماً في ذلك العصر لم تذكر ذلك. لم يذكرها إلا عالم داعية هو عزالدين السلمي في العهد الأيوبي. والإمام النوري أيام بيبرس!

ــ ما موقف الشرع الإسلامي من الأموال الإسلامية التي تقع في يد الكفار هل تبقى ملكا للمسلم مهما طال العهد أم هي غنائم للمتحاربين؟ المذهب الحنفي وحده يجعلها غنائم لكن استعادة القوى الإسلامية لتلك الأموال تعيدها إلى أصحابها. ومع ذلك فإن زنكي رغم أنه حنفي أعاد أملاك معرة النعمان سنة ١١٣٦ إلى أصحابها وابنه محمود وهو مثله في الحنفية أعاد أملاك أغزاز سنة ١١٥٠ لأصحابها. فما تفسير ذلك؟.

ــ ما معنى ألا نجد لدى الشعراء الذين رثوا الدولة الحمدانية عند سقوطها أي ذكر للجهاد؟ ويذكر الكرم وحده؟...

ولاحقت نصوص التراث الذي تتداولها المجموعة الصهيونية بالدراسة فإذا التراث الذي نتصور أنه نائم في دمائنا وفي أدراجنا هو لديهم كيان كامل على المشرحة... يستنطقونه ويحكمون علينا من خلاله. يدرسون:



□ ابناء صلاح الدين في منمنمة عربية.

— خطب الجهاد منذ عهد الفتوح مروراً بالحمدانيين حتى العهد المملوكي.

— كل الكتب التي ألفت في الجهاد أو كتبت عنه ويتوقفون بخاصة عند كتب الجهاد التي ظهرت قبيل العصر الصليبي وخلاله ومن بعده؟ وبخاصة عند كتاب الجهاد الذي ألفه علي بن طاهر السلمي النحوي (المتوفى حوالي سنة ٤٩٨ — ٤٩٩) والذي كان يدرسه في دمشق في الجامع الأموي في ١٢ جزءاً أثر الاحتلال الصليبي للقدس مباشرة (وقد أخذوا صورة الكتاب من المكتبة الظاهرية ونشروا بعضه سنة ١٩٦٦). هذا الرجل كان أول من قال أن الحركة الصليبية واحدة في الأندلس وصقلية والشام. قالها قبل ابن الأثير بمائة سنة!.

ويدرسون كذلك كتاب أحكام الجهاد وفضائله لعزالدين السلمي وكتاب الجهاد لكاتب مجهول من العهد نفسه وكتاب الجهاد الذي وضعه القاضي بهاء الدين بن شداد لصلاح الدين الأيوبي، ضمن كتابه دلائل الأحكام فكان كتاب المخدة عنده لا يفارقه، ويتساءلون لماذا لم يضع ابن شداد في هذا الكتاب كلمة واحدة عن القدس؟ ولا قال هو ولا أحد قبله أن الجهاد من أركان الإسلام الأساسية إلا الخوارج وإلا علماء العصر المملوكي؟.

— وبين ما يدرس الصهيونيون كل الكتب التي تتحدث عن فضائل الشام والقدس ومقارنتها بمكة والمدينة. ويلاحظون أن الاسم في زيارة مكة هو الحج وفي القدس لا أكثر من زيارة! ويحللون في هذا السبيل خمسة وثلاثين كتاباً تتحدث عن فضائل القدس والشام. ككتاب ابن الجوزي «فضائل القدس الشريف» وتقي الدين بن تيمية «قاعدة في زيارة القدس». والكنجي الصوفي «فضائل بيت المقدس وفضل الصلاة فيها» وشهاب الدين المقدسي «مثير الغرام في فضائل القدس والشام»، وأبي إسحق إبراهيم المكناسي «فضائل بيت المقدس»، وعزالدين السلمي «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام»، وابن المرجي «فضائل بيت

المقدس والخليل»، وابن الفركاح إبراهيم الفزاري «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» وهجيرالدين العليمي «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»...

— وبين ما يدرسه الصهيونيون دواوين الشعراء. يلاحقون حتى الصغار منهم. لا يهملون المتنبي والمعري لكنهم يدرسون الغزي وديوان ابن النبيه، وابن الساعاتي، وابن الخياط، وابن سناء الملك، والبوصيري وابن عنين والبهاء زهير، وعمارة اليمني، والملك الأمجد، وسبط ابن التعاويذي وغيرهم وغيرهم ممن عاشوا الفترة الصليبية لعلهم يكشفون آثارها في قوافيهم...

— ويدرسون مؤلفات العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل والثعالبي وابن جبير ورسائل ضياءالدين ابن الأثير وكتاب الإشارات للهروي ورسائل ابن عبدالظاهر وكتابات أسامة بن منقذ وخطب عبدالرحيم ابن نباته.

— ويدرسون كتب الفقه والفتاوى بخاصة التي أصدرها العلماء كالإمام النوري وكتاب المغني لموفق الدين بن قدامة.

— ويدرسون ويسألون حتى السير الشعبية ويرونها منجم المشاعر العميقة للجموع المقاتلة. يرون فيها المرآة الحقيقية. فهل فتح أحد منا قصة الأميرة ذات الهمة (سيرة المجاهدين وأبطال الموحدين)، أو سيرة عنترة، أو فتوح الشام للواقدي أو فتوح الشام الأخرى للأزدي البصري، أو قصة علي نورالدين المصري مع مريم الزنارية... إنه سيرى فيها ما يكشفه الصهيونيون من المشاعر؟ أنهم يصلون حتى إلى تحليل النكات والنوادر! لماذا كل هذا العناء والجهد؟ ليس العلم وحده هو ما يقصدون وإلا كانت لديهم آلاف المواضيع الأخرى الجديرة بالدراسة. أنهم يتحسسون في الصليبيات ونهايتها وَجَعهم، قلقَهم، مصيرَ الغد!.

إن عقدة الصليبيات تلاحقهم. تؤرق استقرار المشروع الصهيوني كله. توغل وراءه فيوغل وراءها بحثاً ودرساً. السؤال الأساسي المطروح: كيف يتخلصون من مصير مملكة القدس الصليبية وتوابعها؟ كيف يأمنون من حطين أخرى مقبلة؟... كل قرون الاستشعار في هذا الأخطبوط الوحشي موجهة نحو الحروب الصليبية بالذات. يريدون أن يعرفوا كيف نبتت خيول حطين وامتطتها العواصف؟ وكيف عبرت مملكة القدس إلى التاريخ المنسي من الباب الخلفي فلم يبق لها من أثر؟ كان الناس عند وصول الفرنج إلى الشام أكواماً من الرمال ذَرّتْها السيوف الصليبية مع الريح. فكيف تحول مواطنو الريح هؤلاء إلى كتلة صخرية صلدة تحطم عليها الفولاذ الفرنجي فجأة ومرة واحدة؟ دايان قال سنة ١٩٦٧ أن جيوشه انساحت خلال القوى العربية كالسكين في الزبدة، فهل تتحول الزبدة قنبلة تذهب بالسكين وصاحب السكين؟ هذا القلق المصيري سببه أن اليهود الغارقين في التاريخ والمعتمدين في استراتيجيتهم الدعائية على التاريخ يريدون أن يخرجوا من نفق التاريخ!...

إسرائيل تبحث عن المستقبل وهي مندفعة بكليتها نحو الماضي. دينها، لغتها، رجالها، قيمها، تشريعها، صلواتها، شمعدانها، رموزها، وطواقي رجالها كلها موصولة، مع الماضي بخيط عنكبوتي ممدود. لهذا تشكل الصليبيات جرحها الذي تريد أن تتجاوزه.. إنها تريد التسلل من أحد الثقوب في التاريخ (وما أكثر الثقوب) إلى هذا العصر...

ويعرف الصهيونيون، يدرسون، يحللون كل التوازيات بين الصليبيات الغربية وبين الصهيونية ويتوقفون عند النهاية المأسوية يريدون تفاديها، إنهم وهم المهرة في استخدام التاريخ ولَيِّ عنقه، يحاولون أن يهربوا من لحظته الأخيرة! فأين يبدأ هذا التوازي وأين ينتهي؟.

سآتي على التشابهات فقط وأترك التباينات القليلة وهي ناجمة عن اختلاف العصرين. أن كل الاستراتيجية والتكتيك الصهيونيين موجودان في الصليبيات.

أنا لا نكاد نجد في التاريخ حركة كالحروب الصليبية كان نصيبها من الخيال وتأثير الأسطورة بقدر نصيبها من الآلام والمآسي إلا الحروب الصهيونية. والغريب أن مكان الكارثتين واحد هو فلسطين ولسنا نحتاج إلى أي جهد في التقاط التوازي الذي يصدم العين بين المغامرة

الصليبية الفاشلة والمغامرة الصهيونية التي تقلدها. المغامرتان من نسيج واحد. يكفي أن نقرأ قصة إحداهما لتقفز الأخرى أمامك على الأسطر، على كل سطر وفي النقاط والفواصل. وإن شئت تحركت في الحديث قافزاً من هذه إلى تلك ومن تلك إلى هذه دون أن تحس بأنك تقفز ٨٠٠ أو ٩٠٠ سنة بعواصفها وأثقالها. دعونا نمشي في المغامرتين خطوة خطوة: إن التشابه يَبْدَهُنا منذ الخطوة الأولى.

القضية الصهيونية في منظورها الشامل إنما هي مشكلة أوروبية داخلية خالصة وجدت حلها في عمل خارجي وعلى أرض خارج أوروبا. والقضية الصليبية بدورها إنما هي مشكلات أوروبية داخلية بدورها حلت على الطريقة ذاتها. التكاثر السكاني قبل الصليبيات مع تدهور الزراعة وانتشار المجاعات وكوارث الطبيعة والأوبئة سنوات طويلة بعد أخرى وتعاظم المشاعر المدنية بالإضافة إلى الظلم الإقطاعي وتراكم الديون الربوية وكثرة الفرسان، ولا أرض للفرسان فيما الحروب الداخلية تفترس الأمن والبشر... كل ذلك كون مشكلة اقتصادية — اجتماعية حادة حلت على حساب المشرق. تماماً كما حلت أوروبا مشكلة التكاثر السكاني وحقد الأوروبيين على اليهود المرابين ومشكلات العمال الفقراء في شرق أوروبا والزحام القومي الهتلري وكلها غارقة في الجذور الاقتصادية بإلقاء هذه الفضلات البشرية — في نظرها — من النافذة على الجيران!.

٢ — ونمضي خطوة أخرى لنرى أن الحركة الصليبية شملت كل أوروبا. في الصليبيات تحركت جموع شتى من مختلف الأمم الأوروبية من السويد والنروج كما من انكلترا وفرنسا ومن المانيا والدانمرك وقلب المجر كلهم تحركوا نحو إغراء المشرق! لم تكن الحركة ثماني حملات كما يزعمون. كانت مدداً لا ينقطع وسيلاً من البشر يتحرك على السفن وفي البر على مدار السنوات المائتين التي امتدتها الحروب. قد تكون الحملات بدورها أكثر من مائتين أو ثلاثمائة حملة صغيرة وكبيرة لبضعة ملايين بعضهم حجاج وبعض محاربون وكثير منهم تجار أو مغامرون وأكثرهم فقراء. الكل نزحوا وراء حلم يمتزج فيه المسيح برفيف الذهب! هل يذكركم هذا بمجموعة الأمم التي تحشد منذ مائة سنة في فلسطين، بابل القرن العشرين، لغاتٍ وأجناساً، وعادات ومن كل زوج غير بهيج؟ وتُحشدُ وراء حلمٍ يمتزج فيه الإله يهوا بطائرات الفانتوم؟.

٣ — وكما انتصب للصليبيات قائد فكري في شخص البابا أوربان الثاني الذي أعلن الحركة في مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ وحدد لها الطريق والهدف النهائي: فلسطين أرض المسيح، أطلقها وترك لمن بعده المسير بها و تحمل عقابيلها، وكذلك كان للصهيونية رائدها الفكري في شخص تيودور هرتزل الذي كتب لها كتاب الدولة اليهودية سنة ١٨٦٧ ثم أعلن في المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ في بال أن مكان هذه الدولة هو فلسطين: أرض إسرائيل... كان هرتزل هو بابا الصهيونيات أطلقها وترك للآخرين مهمة التنفيذ .

٤ — ونصل إلى العامل الديني في الحركتين الصليبية والصهيونية لنرى أشكالاً لا تنتهي من التوازي والتشابه تحتاج إلى التوقف الطويل والتعداد الطويل:

أولاً: ما الذي رفعه الصليبيون هدفاً وما الذي رفعه الصهيونيون؟ شعار واحد رفعه الطرفان: الصليبيون تحركوا لتخليص القبر المقدس والصهيونيون تحركوا لتخليص الهيكل المقدسي ولو أنه لم يبق منه — إلا في الذاكرة التوراتية — شيء على الأرض! الايديولوجية التي رفعت في المشروعين واحدة:

وراء كل من الشعارين حشد لا ينتهي من المشاعر الدينية المتقدة ولكنها تتمركز في النهاية في كلمة محددة، وفي نقطة من الأرض محددة بدورها. وكما سمى الصليبيونِ فلسطين أرضَ المسيح يعنون بذلك أنها أرضهم، كذلك يقول الصهاينة أنها (أرتز إسرائيل) أرض الميعاد. بوعد توراتي لا يزول.

ثانياً: إذا كانت الحرب الصليبية أول حرب ايديولوجية، بعد الفتوح الإسلامية، وكانت هذه الايديولوجية دينية بالضرورة ولم يكن بالإمكان تحريك الجموع في العصور الوسطى الغارقة في

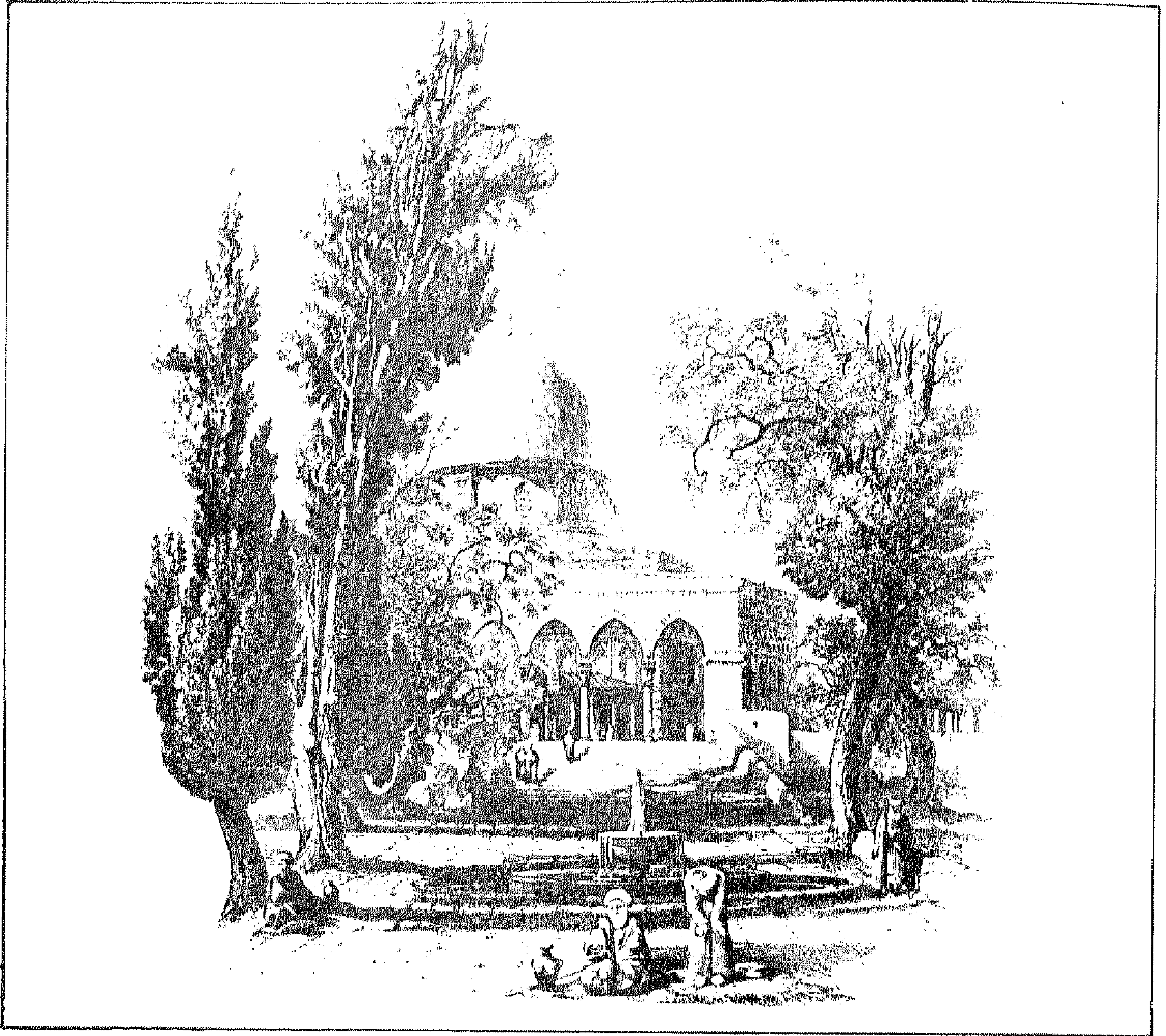
الدين دون ايديولوجية دينية فإن هذه الايديولوجية نفسها قد استخدمت من قبل الصهيونية في تحريك آخر جماعة متحجرة مغلقة من الجماعات الأوروبية وهم اليهود للغرض نفسه في الحرب الصهيونية القائمة. محور الإثارة عند الطرفين هي فلسطين والقداسة فيها للقبر أو للهيكل.

ثالثاً: لم تحمل الحروب الصليبية هذا الاسم الديني أبداً لا في عهدها ولا بعده. في القرن السابع عشر ولأسباب تبريرية دينية شاع هذا الاسم ليغطي برداء الصليب فترة مائتي سنة من المآسي والحروب ليس لها ما يبررها. المسلمون الذين عاصروها والكاثوليك الغربيون الذين شنوها كانوا على السواء يسمونها باسمها: الأوائل يسمونها حروب الفرنج والآخرون يسمونها المآثر والأعمال التي تمت فيما وراء البحار، أو التي تمت في الشرق أو أعمال الفرنجة. الحركة الصهيونية بدورها لم تسم نفسها الحركة اليهودية وسمت نفسها الحركة الصهيونية ولو أن العنصرية اليهودية المتزمتة تلفها بكلمات التوراة وإسرائيل والناموس والشمعدان السداسي العتيق.

صحيح أن الحرب الصليبية معقدة الدوافع كالحركة الصهيونية سواء بسواء، ولو جُمعت مختلف دوافعها بعضها إلى بعض لوجدت أن العامل الديني قد يأتي بين العوامل الأولى لا سيما في فترة الإعداد وأيام الحملات الأولية وقد يعصف بالنفوس تارة بعد أخرى. لكن العوامل الدنيوية كانت هي التي تعصف بهذه النفوس نفسها تارات. والخليط الصليبي كالخليط الصهيوني متباين الطبقات والمشارب، فيه المغامرون والحجاج واللصوص والتجار والنبلاء والمحاربون وشذاذ الآفاق والرهبان والهاربون من العدالة والباحثون عن الثروة وفي كل واحد من هؤلاء جانب ديني قد يلتهب في بعض الظروف لكن من الذي يكبح الجوانب الأخرى المادية اللاأخلاقية أو الوحشية في ظروف أخرى؟... وهكذا كانت ايديولوجية الصليبيات الدينية غطاء مناسباً وإن يكن احياناً غير منافق لأطماع النبلاء بالأرض، والرهبان الكاثوليك بالانتشار والسيطرة على كنيسة المشرق، والتجار بالربح والامتيازات، والفلاحين العاديين بالخلاص من الديون ومن المجاعات ومن الظلم الإقطاعي والفوز.. في النهاية بالسماء! أليس هذا هو الوضع الصهيوني نفسه؟.

رابعاً: الصليبيات بدأت حجاً إلى القبر المقدس تحول إلى حج مسلح ولقد استغلت الحج وشجعته الأساطيل البحرية الايطالية النامية على مياه البحر المتوسط (من جنوية وبيزيه والبندقية وكاتالان). تذهب ملأى بالحجاج وتعود من الشرق ملأى ببضائع الشرق من فلفل وبخور وأفاويه ونسيج وزجاج... صارت سيدة البحر الغربي بعد أن انهزمت القوى العربية الإسلامية في الأندلس وتضاءلت أساطيلها أو انقطعت أحياناً ما بين شمالي أفريقيا والمرافئ الاسبانية، وخرجت فرخشنيط وجبل القلال في جنوب فرنسا وجزر الباليار من السيطرة الإسلامية. فأين إذن الحج المقدس وأين القبر المقدس نفسه حين طوحت هذه الأساطيل نفسها بالصليبيات وبرضاء الصليبيين إلى القسطنطينية مرة وإلى مصر مرتين وإلى تونس أيضاً. فهل كانوا يحسبون أن القبر المقدس انتقل إلى هناك؟ وفي الحركة الصهيونية ألم يكن الحج والحج المسلح إلى حائط المبكى وبقايا الهيكل هما بدء الطريق إلى وعد بلفور ثم إلى أحداث ٤٨؟ ألم تكن العملية الاقتصادية الاجتماعية من تجارة وحلول للمشاكل العمالية والأطماع المادية هي وراء الهجرة الصهيونية ووراء أخذها الأرض واحتلالها النقب وتوسعها في المصانع والزراعات؟ بعد أن تخاذلت القوى العربية سنة ٤٨ وما بعدها؟ أم أنهم يبحثون عن الهيكل في تونس أو عينتبي أو حول المفاعل الذري ببغداد؟.

خامساً: ضمن هذا الإطار الديني نفسه: يسمى الصليبيون انفسهم في النصوص بفرسان المسيح «والشعب المقدس» و «شعب الرب». ألا يسمى الصهيونيون أنفسهم: بشعب الله المختار.. مقابل الغوييم الهائم الذين هم كل البشر الآخرين؟ أو إذا قال البابا أوربان الثاني وهو يعلن الصليبيات: حرروا هذه الأرض من



□ قبة الصخرة للفنان ودورد عام ١٨٧٥.

الجنس الشرير.. فهذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها تفيض باللبن والعسل قد منحها الرب ملكاً للمؤمنين، أفلا يقول الصهيونيون بدورهم أنها ملكهم وعدهم الله بها من الفرات إلى النيل؟.

سادساً: وضمن الإطار الديني أيضاً ألم تحاول البابوية وهي الكاثوليكية الغربية إبراز نفسها حامية لمسيحيي الشرق المضطهدين؟.. فماذا يفعل اليهود الاشكنازيم (الغربيون) الواردون من روسيا ووسط أوروبا وألمانيا وفرنسا. أليسوا يجعلون من أنفسهم حماة لليهود السفاراديم... يهود الشرق؟...

سابعاً: الطابع الديني استطاع أن يكون واضحاً في الأيام الأولى للصليبيات لأنه كان الدافع المعلن ولقد استطاع أن يغطي إلى فترة ما حقيقتها الاقتصادية ــ الاجتماعية. اختفى التجار وراء سواد المحاربين، وتوارى الإقطاعي بجشعه وراء الرهبان ورجال الكنيسة، لكن الأطماع بالأرض والقلاع والمدن والامتيازات التجارية كانت واضحة مسيطرة. وفيما نهب الجناح العسكري من نبلاء وفرسان الأرض عماد الثروة والسلطة في المجتمع الإقطاعي الغربي، تقاسم التجار الغربيون الأسواق والامتيازات والأحياء والفنادق في المدن وحين دارت العجلة بالأحداث والناس تكشف التناقض العجيب وتجلى الإفلاس الايديولوجي في الحملات التالية وبلغ الذروة في الحملة الرابعة التي توجهت إلى القسطنطينية المسيحية تفتحها. ظهر أن البابوية والتجار الايطاليين وإقطاعيي أوروبا يستخدمون الدين سلاحاً سياسياً عسكرياً ضد

المسلمين وضد بعضهم بعضا على السواء. ولو كان هذا «البعض» من أخلص المدافعين عن الكاثوليكية!.

ثامناً: إن كل الغطاء الديني للصليبيات يطير إذا استعرضنا الصليبيات الرسمية الثمان فوجدنا أن ثلاثاً منها فقط توجهت إلى القدس في حين توجهت الخمس الأخرى إلى أهداف أخرى فالثانية إلى دمشق والرابعة إلى القسطنطينية والخامسة والسابعة إلى مصر والثامنة إلى تونس.. لعلها كانت تفتش عن آثار المسيح هناك. وأما حملات القدس فقد احتلتها الحملة الأولى فقط. وفشلت الثالثة في الوصول إليها. ووصلتها الحملة السادسة سلماً ومجاناً في حين كان البابا يستنزل على هذه الحملة اللعناتِ من الرب، ويرمي صاحبها بالحرمان!.

ونعود إلى الصهيونية المعاصرة لنرى الصورة نفسها وإن تكن متطورة على مقياس القرن العشرين:

افتراس للأرض لا ينتهي. محاولات لربط العلائق التجارية بكل الموانىء. استخدام للايديولوجية الدينية في التوسع العسكري وإفلاس ايديولوجي يتجلى في حروب ٥٦ و٦٧ و٧٣ ويبلغ الإفلاس أوجه حين تكشف إسرائيل عن دورها الحقيقي في تونس وفوق المفاعل الذري بالعراق وفي حروبها في المنطقة فإذا هي أجير أميركي صغير، مجرد حاملة طائرات أميركية تحمل قوى مرتزقة تموَّن بالمعونات وعملها الأساسي استنزاف قوى المنطقة ومراقبة الاتحاد السوفييتي!!.

هل انتهت المقارنة الدينية؟ لم تنته بعد فثمة أيضاً الحديث عن الإرهابيين المدنيين أيضاً: عن مئير كاهانا وحزبه أغودات إسرائيل وعن الحاخام شلوموغورين والنائبة غئولة كوهين وأركان مجلس الحاخامين وأعضاء غوش أمونيم وحركة هاتحيا، وغيرهم وغيرهم ممن ينفخون في الرماد التوراتي ويعميهم دخانه ومثاره؟ إن دور هؤلاء جميعاً هو الحفاظ على الحقد الديني في حالة الغليان ليصب الحساء ساخناً في الصحن الصهيوني ــ الأميركي! مقابل هذه المؤسسات كان للصليبيين أيضاً مؤسسات دينية ــ عسكرية مماثلة حذوك النعل بالنعل. وهكذا نقرأ عن الداوية وعن الاستبيارية وعن مؤسسة التيوتون... والمؤسسات الصليبية المشابهة في اسبانيا: فرسان القنطرة وفرسان قلعة ترافا وفرسان القديس يوحنا (سانتياغو)... والدور هو الدور نفسه: تأييد اعتداءات الدولة على الأرض والناس، ومسحها بالمحاة الدينية، وإيجاد أيد أخرى بجانبها تحول التوراة إلى سيوف أو قنابل، وشيء من عمى غير قليل! ترى هل يتضح... بعد هذا كله أن. السبب الحقيقي وراء الصليبيات أو وراء الصهيونيات ليس هو الدين ولكن الأطماع الدنيوية للمتاجرين بالدين؟.

٥ ــ ونعود إلى الصليبيات والصهيونيات لنجد أن المشروعين إنما قاما على الدعاية المكثفة وعلى استغلالها الأقصى. ولقد طافت تدعو للصليبيات مجموعات شتى من القس والرهبان والتجار والمتشردين. كان جيش الدعاة الذي لا ينقطع يطوف أوروبا قرى وجبالاً وعبر الأنهار وفي عتمة الكنائس والغابات ومداخن البيوت... منهم بطرس الراهب وسان برنارد وجوسياس (رئيس أساقفة صور) وهرقل (بطريرك بيت المقدس). بل قام الدعاة من الأطفال. وقامت حملات من الأطفال بعشرات الألوف زحفت تريد تخليص القبر المقدس ببراءتها وحدها (ولو أنهم انتهوا بمساعي الصليبيين أنفسهم إلى أسواق النخاسة) كانت الدعوة للصليبيات بضاعة رائجة. أليس هذا ما يفعله الكهنة والربانيون في كل كنيس؟ وما تقوم به الصحف الصهيونية منذ مائة سنة؟ وكما استغل الصهيونيون جهل العالم بالتاريخ وبالواقع الجغرافي ليحوروهما كما شاؤوا، ليلغوا آلاف السنين العربية من التاريخ في فلسطين، وليلغوا وجود الشعب الفلسطيني من الجغرافيا وليجعلوا من البلد صحراء فارغة، كذلك استغلت الدعاية الصليبية سدوف الجهل الأسود في تلك العصور فجندت في ما سموه «بجهل الخيال. المنتصر» كل القوى في اتجاهين:

أولاً: اتجاه يضع كل تراث الجهل والخرافة لدى الناس في خدمة الايديولوجية المعلنة من الأساطير في السحر القديم، وجيوش الأشباح. والموتى، والشياطين الشريرة والأشجار صانعة

المعجزات، وقصص النجوم التي تتساقط من السماء، والشهب الملتهبة، ومعجزات الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة، والرعاة الذين يرون مدناً متألقة في السماء، والقسس الذين يشهدون سيفاً ضخماً تحمله الريح في الأفلاك، أو معركة بين فارسين يضرب أحدهما الآخر بصليب يرديه وقصص النار والحساب والفردوس المقبل ونعيم الخلاص والغفران بل وقصص الغنائم المنتظرة في الشرق الأسطوري كل ذلك لإثارة حماسة الناس في الغرب حتى الحد الأقصى.

ثانياً: اتجاه يوجه هذه الدعاية كلها ضد عدو «شيطاني» الملامح: فالرسول الأعظم في منظورهم «ساحر هدم الكنيسة في أفريقيا والشرق بالسحر والخديعة» وضمن نجاحه بإباحة الجنس «وجعلوا من المسلمين وثنيين وعباداً» لمجموعة من الآلهة والأصنام «فمحمد هو الصنم الرئيسي. وهو كبير آلهة الشرقيين «السراسنة». تمثاله المصنوع من المواد النفيسة بالأحجام الهائلة منصوب في أصبهان أو مكة.. يرافقه ٧٠٠ من مريديه!.. غربيو القرون الوسطى صدقوا هذا كله وصدقوا معه ما يترشح لهم عن المسلمين من أنشودة رولاند وأغاني الـ (Gueste) وروايات الحجاج الذين كانوا يعودون بالمبالغات والغرائب لإضفاء الأهمية على مغامراتهم ولإثارة الدهشة والإعجاب.

وقد ثبت أن أصحاب الايديولوجية الصليبية استخدموا في الاتجاهين الكذب وتزوير الوثائق والمبالغات بالإضافة إلى قصص الأحلام المقدسة والرؤى العجائبية وكان لهم من سذاجة الناس وجهلهم ما يطمئنهم إلى النتائج. أليس هذا يا ترى ما فعله الصهيونية في الاتجاهين:

فمن جهة استغلت كل موروث الغربيين من الحقد على اليهود في صيغة «اللاسامية» لتضخيم الشعور بالاضطهاد لدى اليهود. ولدفعهم إلى التكتل حولها والهجرة إليها، فما زالت إلى اليوم «تحاكم النازيين القدامى، وتتهم غيرهم، وتتقاضى من ألمانيا ثمن الجثث المحروقة في أوشوتيز، وترفع العصا في وجه كل داعية إلى التعقل في الغرب باسم اللاسامية! وهكذا ضخمت الأساطير وصاغت الروايات. وصنعت الأفلام وكتبت واستكتبت كل الأقلام الممكنة وكررت مسكنة اليهود وعذاباتهم كل يوم في كل إذاعة مسموعة أو مرئية. إنهم المضطهدون الوحيدون في العالم هكذا قال زارادشت!!.

ومن الجهة الأخرى فما دام الناس يجهلون كل شيء عن فلسطين وتاريخها وناسها فلماذا لا تصوغ دعايتها في كل ذلك على ما تشتهي؟ سكانها العرب: تجاهلهم أولاً بالإلغاء الكامل، ثم لحقتهم بالتهم حين ظهروا على سطح الأحداث فهم في أدبها «برابرة» «أنذال» «مخادعون» وأخيراً «إرهابيون» وعلى العالم كله أن يلاحقهم بالرصاص والإبادة.. ألم «تستخدم الكذب الدائم والمبالغات» والتشويه وتزوير الوثائق؟.

أي فرق في النتيجة بين ذلك التضليل القروسطي وبين التضليل الصهيوني الأميركي عن قادة الإرهاب ومصاصي الدماء والقتلة العرب الفاسدين المفسدين في الأرض... الذين لا يهمهم في الحياة إلا القمار والقتل... وجسد امرأة؟ أي فرق بين المهووس الصليبي القديم الذي جاء من أقصى الأرض يحارب «الشيطان» المسلم وبين مئير كاهانا الذي يقول: «كيف نضع أيدينا بأيدي الأبالسة»؟ أو أي فرق بين صورة المسلم الوحشي في عيني الصليبي «وصورة العربي الصهيوني التي ينشرها في العالم عن العرب»: صورة النخلة والجمل في صحراء ينبع فيها بئر النفط وأسنان العربي المكشر فوقها؟.

٦ ــ وتدفق الصليبيون على الشرق سنة ٤٩٠ وما بعدها / (١٠٩٦ وما بعدها). وحين احتلوا القدس سنة ١٠٩٩/٤٩٣ ذهب الصريخ إلى خليفة بغداد: يهز منبر المسجد الجامع ويكسره ولكن... يشكو هجوم «الروم» البيزنطيين! كانوا يجهلون أن العدو هم الفرنجة. مضت سنوات قبل أن يتبينوا أنهم فرنجة وليسوا من الروم الذين اعتادت دول الإسلام سماع قعقعة السيوف معهم على الحدود كراً وفراً أربعمائة سنة: ودون طائل. لا أكثر من غزوات تنسحب بعد حين. أبداً ما انتهت يوماً إلى الاحتلال النهائي ولو هددت به...

على الجانب الفرنجي كان الأمر بالعكس اعتبر الكثيرون في الغرب نصر الفرنجة نصراً للكتاب المقدس ونبوءاته تماماً كما يعتبر ذلك

الصهيونيين وتشجع الكثيرون على أن يسلكوا سبيل الشرق حجاجاً، محاربين تجاراً، باحثين عن الثروة.. فهم على كل شراع.. كلهم كان يعتبر الاحتلال الفرنجي نهائياً، والتوسع فيه أمراً مقضياً. الجيل الثاني من الصليبيين الذي نشأ في البلاد أخذ يكتب ما كتبه المؤرخ اللاتيني فولشير أوف شارتر: «فيم يتعجب المرء من أن الله يظهر المعجزات في السموات في حين أنه أتى بمعجزة على الأرض نفسها بتحويله الغربيين إلى شرقيين... ومن كان من روما أو فرنجيا من قبل قد أصبح جليلياً ومن أهل فلسطين أو من صور. نسينا أوطاننا الأصلية. وأولئك الذين كانوا من قبل أجانب قد أصبحوا أهالي البلد. ومن كانوا فقراء أصبحوا يمتلكون هنا ما لا يحصى. فلم يرجع المرء إلى الغرب بعد أن وجد الشرق صالحاً إلى هذا الحد؟ إن الله لا يريد لأولئك الذين حملوا الصليب. (ونستطيع أن نضع بدل هذه الكلمة اليهود) أن يقاسوا حتى النهاية... إن الله يرغب أن يغنينا لأننا من أعز أصفيائه».

أليس هذا هو ما يكتبه اليوم بألف شكل ولسان كُتّاب الصهيونية؟... ونمضي مع المقارنة قدماً:

٧ ـ يطنب المؤرخون ويعيدون ويبدون في سبب النصر الصليبي الأول الذي بدأ عند أنطاكية سنة ١٠٩٧ وانتهى باحتلال القدس سنة ١٠٩٩ ويذكرون أن تمزق القوى في المنطقة هو الذي سمح للفرنجة بالنصر. ما في ذلك أي شك. وحين يكون رضوان صاحب حلب أخاً لدقاق صاحب دمشق ويكون في الوقت نفسه أعدى أعدائه وحين يتصيد الفاطميون في مصر انشغال دقاق مع الصليبيين في الشمال لينقضوا على القدس فيأخذوها، ويكون صاحب أنطاكية رقيباً للسلطان على صاحب حلب، وينفرد أمير شيرز بشيرز، وابن ملاعب بحمص، والقاضي ابن عمار بطرابلس، وبعضهم لبعض عدو، فماذا تنتظرون إلا انهيار الجميع قوىً متفرقةً أمام الموجه الغازية؟ ومن عجب أن تكون القوى التي تصدت للفرنجة في غزوتهم الأولى سبع قوى وتكون الدول التي وقفت لموجة الاحتلال الإسرائيلي بدوره سبع دول. ولعلنا نتذكر هنا ذلك السائل الذي سأل:

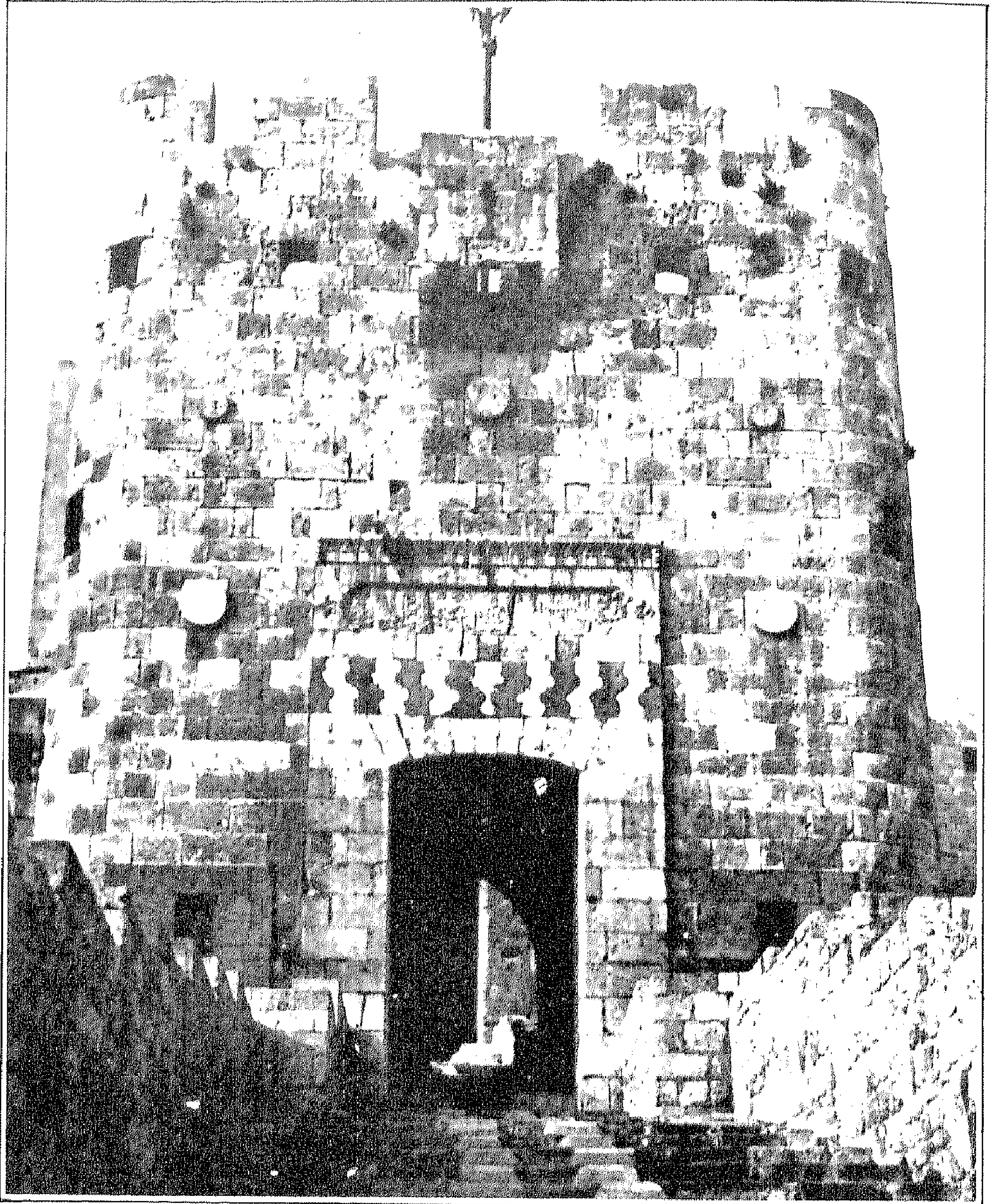
ـ كيف تهزمون وأنتم سبع دول؟.

فأجابه المجيب ـ لأننا سبع دول!... على أن المؤرخين ينسون أن يضيفوا أن حائط الدم قام منذ اليوم الأول بين هذه القوى ـ على تفرقها ـ وبين الفرنجة. امتد كاللعنة الأبدية من أنطاكية إلى المعرة حتى وصل ساحة المسجد الأقصى حيث خاض الصليبيون في آلاف الجثث وسواقي الدماء!.. وقد ظل هذا الحائط يتكاثف على الدوام ويرعض على الدوام مع المعارك الدائمة. أضحى سوراً خانقاً حول الإمارات الفرنجية. أبداً ما صفا قلب أحد لها ولا نسي الدماء أحد. أليس حائط الدم نفسه يقوم اليوم حول المنطقة المحتلة؟ يحولها إلى «غيتو» كبير رغم الخروق التي فتحتها فيه بعض السياسة الخرقاء. الغيتو الصليبي انهزم في النهاية، أما الغيتو الصهيوني...

فهل تنجده يا ترى هذه الخروق؟

قوى المنطقة أقامت قاعدة المقاومة الصلبة للفرنجة فيها على النبذ والعزل والتطويق. تماماً كما تطوق الكائنات الحية الأجسام الغريبة حتى تنفقىء كالدمامل. صحيح أن التجارات كانت تسير دون عائق عابرة آمنة، ولكن صحيح أيضاً أن ذلك لم يؤد إلى أي تقارب فكري أو ثقافي أو تطبيعي «مما يُطبِّعون من الطرفين. حتى الصهيونيون سجلوا أن الحوار بين الفرنجة وأهل البلاد كان «حوار الطرشان». والعلاقة الوحيدة كانت علاقة المصلحة المادية المباشرة. ظلت الخلية الفرنجية المتموضعة على الساحل الشامي غريبة، في لسانها، في عقيدتها، في نظام حكمها الإقطاعي، في رجالها ونسائها بل في عادات الطعام والشراب فيها، ربما كانت سياسة العزل متبادلة من الجانبين. لكن النفي الإسلامي للفرنجة كان هو الأول والأقوى والأصلب لأنه الأقوى حضارياً والأعمق ألماً.

٨ ـ واعتمد الفرنجة في توطنهم على المعونات مما وراء البحر، الأسلحة، الرجال، الأموال، الطاقات البشرية كانت دوماً تأتيهم على الأشرعة. حتى الكهنة والنبلاء، والتجار. المدد البشري لم ينقطع ومعظمه من الشباب المحاربين. أوروبا الغربية كلها كانت تصب في هذا المشروع ليعود عليها بالخيرات... ولينعم أصحاب النذور والهبات والتطوع بالفردوس



□ قلعة حلب.

الآخر! ريشارد قلب الأسد بحث عمن يشتري منه لندن لينفق أموالها في الحرب ضد صلاح الدين. الأمراء والملوك كانوا يأتون بثرواتهم وثروات أتباعهم لينفقوا منها على الحرب. ولم تكن موارد أجزاء من الشام أو من مصر تكفي كما هي اليوم لقيادة حرب حاسمة أو ناجحة على الأقل ضد الجماعة المحتلة إلى أن استطاعت امبراطورية صلاح الدين أن تقيم التوازن في الموارد وبالتالي في القوى بينها وبين الفرنجة. ولم تكن هذه الموارد ضخمة على أي حال بدليل أنها شحت بعد الفتوحات الأولى وقَصَّرت عن إمداده في المراحل اللاحقة وجَفَّ الذهب عنده فلم يعد يضرب الدنانير ولكن الدراهم، مما أبقى الصليبيين في صور ثم في عكا وفي الساحل مائة سنة أخرى.

ألستم ترون أننا ونحن نتحدث عن الحروب الصليبية إنما نتحدث أيضاً عن الحروب الصهيونية وعن مليارات الدولارات التي تصب

سنوياً في المشروع الصهيوني؟».

ويبقى في هذا المجال أمر أخير لا بد من ذكره هو التمويل اليهودي للصليبيات. يهود أوروبا ومن باب الربا ساهموا في تمويل الصليبيين. الأمراء والملوك وبخاصة حين فترت الحماسة الصليبية الأولى وفرضت ضريبة صلاح الدين في أوروبا لإيجاد الموارد التي شحت، وكانوا يلجؤون إلى الاقتراض من المرابين اليهود. وكما غطى أغنياء اليهود في حروب سنة ١٩٤٨ ثم سنة ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ ثم ١٩٧٣ ما تكبدته إسرائيلهم من نفقات، كان المرابون يغطون بعض تكاليف الصليبيات المتأخرة من الثالثة حتى الثامنة... وحين فشلت الصليبيات الفشل النهائي انصبت النقمة في أوروبا على اليهود!... لا انتقاماً للفشل فقط ولكن لأكل الديون أيضاً. وانضاف هذا السبب إلى السبب التاريخي القديم الذي يتهم اليهود بصلب المسيح ليشكلا معاً النواة الأولية للعزل اليهودي في أوروبا كلها...

٩ ـ وقد قام المجتمع الفرنجي الخليط على طول الساحل الشامي. أسقف فرنسي معاصر للصليبيات يقول عن المجتمع الغربي إن «بيت الرب ذو جوانب ثلاثة فبعض يصلي فيه، وبعض يحارب، وبعض يعمل. هذا المجتمع الغربي الإقطاعي نفسه هو الذي تشكل في الشام في ثالوث ضِلْعاه: الذين يحاربون والذين يصلون. وقاعدته الذين يعملون. بل كان المحاربون (النبلاء) والمصلون (الكهنة) جناحين عسكري وديني لطبقة واحدة تقود المشروع الصليبي...

أليس هذا يا ترى هو وضع الجماعات الصهيونية المحتلة: جماعة تحارب وأخرى تهز أجسادها جيئة وذهاباً وراء التوراة وجماعة ثالثة تعمل في الأرض والمصانع؟.. قد يكون الفرق في وجود طبقة رأسمالية إضافية في المجتمع الصهيوني الحديث ولكن أليست هذه الطبقة امتداداً للطبقة الغربية نفسها والجزء المكمل بها والإفراز الطبيعي للتطور الغربي الحديث نفسه؟.

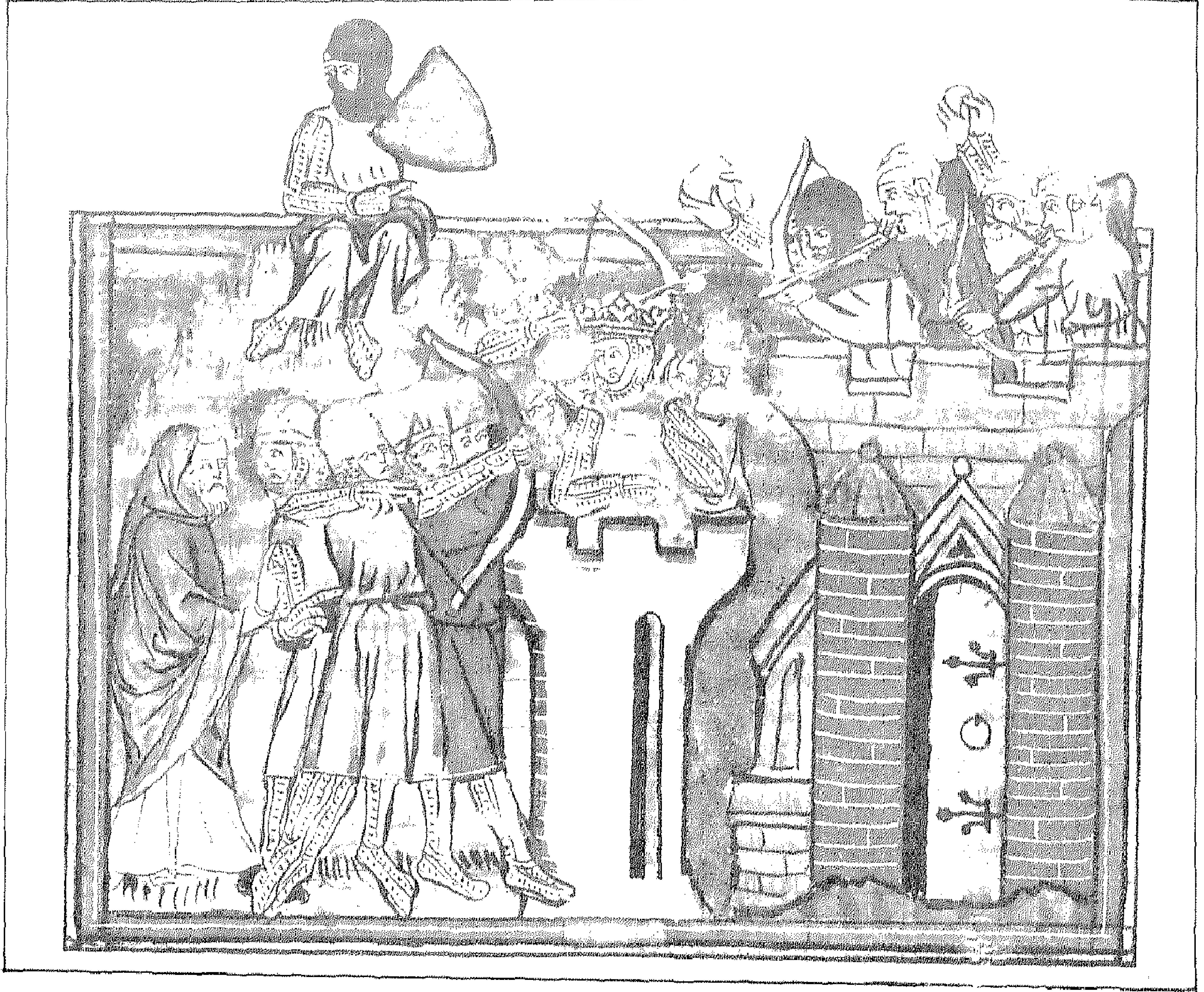
وكما بقيت في فلسطين تحت الاحتلال قوى عربية واسعة تتمسك بالأرض والزيتون ومزراب العين كذلك بقيت تحت الحكم الفرنجي طبقة عربية مسلمة تملأ الريف الفلسطيني يستثمر جهدها الرجل الفرنجي (كما يستثمرها اليوم الرجل الصهيوني) تحت رقابة الفرنجة. ولا تستطيع حتى الهرب من القرى. وكما للعرب اليوم مقاومتهم وتحركاتهم الجماعية والفردية ضد المحتلين كذلك كانت لأجدادهم الأولين في تلك الأرض مقاومتهم الرافضة. في نابلس والناصرة كانوا يحتالون لها على الحجاج العابرين فيقتلونهم ويقطعون الطرق، ويتركون العمل بحجة الصلاة فمن أعجزه الأمر هرب مهاجراً ونواة حي الصالحية في دمشق إحدى نتائج الهجرة من «جماعيل» إحدى قرى نابلس أواسط القرن الثاني عشر في أوج القوة الصليبية.

وإننا لنستطيع أن نرى التشابك الفرنجي الصهيوني على مستوى آخر: فطبقة العاملين، في القاع، في الأيام الفرنجية كانت تتشكل من المسلمين ومن أفراد الطوائف المسيحية غير الغربية، ومن فقراء الغرب في حين يحتكر النبلاء والكهنة السيف والكتاب المقدس. أليس هذا هو الوضع الصهيوني «الذي يعمل فيه، في القاع، العرب واليهود الشرقيون وفقراء المهاجرين؟ في حين ينعم أمراء الاشكنازيم بالحكم وقيادة الجيوش وتفسير التلمود»؟.

ونتابع المضي مع المقارنات أيضاً وأيضاً وما أشبه الليلة بالبارحة:

١٠ ـ اعتمد الفرنجة السابقون والصهيونيون اللاحقون على السواء أسلوباً واحداً في التشبث بالأرض وفي التوسع عند الإمكان. القلاع التي نثرها الفرنجة على جميع المعابر إلى المنطقة المحتلة قابلها الصهيونيون بقلاع عسكرية من مثلها ترونها في أنواع المستعمرات التي زرعوها على طول الحدود وفي داخل البلاد وكل منها مسلحة كاملة. وكما كان المحاربون القدماء يعيشون على أراضي الزراعة حولهم، يعيش المحتلون الجدد محاربين مزارعين في المستعمرات الجديدة.

١١ ـ منذ الأيام الأولى للتوضع الصليبي في القدس لم تكن الموانىء الشامية وحدها هي الهدف. بلى! كانوا يحتلونها واحداً بعد الآخر. الأساطيل التجارية الايطالية وضعت كل ثقلها



□ الصليبيون امام أسوار القدس.

لاحتلالها. لكن عينها وعين مملكة القدس الصليبية معها كانتا على مصر وعلى (العقبة) مصبي طرق التجارة العالمية إلى المتوسط. حاولوا احتلال مصر مرات حتى سبقهم إليها نورالدين وصلاح الدين. بنوا قلعتين في الطريق إلى أيلة بشرقي الأردن. بنوا قلعة في جزيرة فرعون بخليج العقبة بالقرب منها. أقاموا إمارة في الكرك تسلمها قبيل حطين فارس من أعتى فرسانهم: أرناط المعروف الذي حاول بمشاريعه البحرية السيطرة على البحر الأحمر حتى عدن، كما حاول الوصول إلى المدينة وكان من الأسباب المباشرة لموقعة حطين. والسبب؟ السبب ليس حب الصحراء ولا الماء ولكنه الدور الاستراتيجي والتجاري. كانت طرق التجارة العالمية بين الشرق البعيد، طرق الأفاويه والتوابل والبخور والنسج تمر من هذه المنافذ وما الذي جاء بهم إلى الشرق الأدنى إلا الطمع بهذه المنافذ وتجاراتها وحين انقطع الطريق البري بظهور المغول عليه في القرن الثالث عشر وفقدوا السيطرة على القدس والمناطق في شرقها وصارت مصر هي الطريق التجاري الأكبر توجهت الحملات إليها، وإلى دمياط الثغر الأول بالذات. الحملتان الخامسة والسابعة توجهتا إليها. وفشلت الحملتان. هل يذكرنا هذا بقتل الكونت برنادوت الوسيط الدولي بأيدي الصهاينة لكي يتوسعوا في النقب؟ وبإصرار بن غوريون على احتلال أيلة بأسرع وقت سنة ١٩٤٨ وبما أعقب ذلك من أحداث حول خليج العقبة فالبحر الأحمر حتى مشكلة طابا اليوم والجزر في مدخل خليج العقبة؟ وهل يكشف هذا نفسه لأعيننا عن معنى محاولات إسرائيل النفوذ من البحر الأحمر إلى ما وراءه لتكون مثلها مثل مصر المطلة على البحرين الأبيض

والأحمر؟ وهل يكشف ذلك دورها التجاري والاستراتيجي؟.

١٢ ــ حرص الفرنجة الصليبيون منذ أيامهم الأولى حتى أيامهم الأخرة على إبقاء التمزق السياسي قائماً في المنطقة. كان كنزهم الثمين. وحرصوا أكثر من هذا على عقد اتفاقيات هدنة مع كل طرف على حدة. مع إمارة دمشق. مع إمارة حلب.. مع أمراء الجزيرة ومع مصر التي ظلت تحتفظ بعسقلان في أقصى الجنوب الفلسطيني خمسين سنة تماماً كما احتفظت مصر في العصر الحاضر بقطاع غزة... البند الأساسي في هذه الهدنات: فتح طرق التجارة والسبل الآمنة... هل يذكرنا هذا بشعار «التطبيع» اليوم؟ وبما تحاوله السلطات الصهيونية من العلاقات مع مصر؟ ومع غير مصر؟ الفرنجة في القديم كانوا كذلك يفعلون. ينفردون بالإمارات في المنطقة. يضربونها واحدة بعد الأخرى ضربات خاطفة صاعقة أو يهادنونها واحدة واحدة!... كانوا يعرفون أن في لقائها بعضها مع بعض نهاية المشروع المهووس، يخشون هذا اللقاء خشيتهم للموت لأنه الموت! ألم يكن ذلك في حطين؟ ألسنا نرى استماتة إسرائيل منذ بن غوريون وشاريت إلى بيريز وشامير للمفاوضات الفردية والمباشرة؟ ورعبها من أي لقاء بين دولتين. لقد جرت بعض هذه اللقاءات في القديم. أمير الموصل مودود اتفق مع أمير دمشق طغتكين وواقعوا الفرنجة، فكانت لحظة من أخطر لحظات المملكة الصليبية. وأمير دمشق اتفق مع أمير حلب، على ما بينهما من تباين فتمكنت الإمارتان من الوقوف للعدوان. بل أن أمير دمشق وهو عباس الولاء لم يستنكف عن التعاون مرات مع مصر الفاطمية يومذاك وحارب معها أمام غزة كما دافع عن ثغرها (صور) بجنده وماله. لكنها كانت اتفاقات عابرة غير واعية... ألا تذكرنا هذه المحاولات بمحاولات الوحدة بين سورية ومصر، أو بين سورية والدول العربية الأخرى؟...

وكان أقصى ما تتمناه مملكة القدس أن تعقد الصلة مع إمارات الشام ودمشق بالذات. لقد أفشلت الحملة الصليبية الثانية كلها لتبقى لها دمشق التي كانت تهادنها. وعقدت معها حلفاً منفرداً استمر قرابة اثنتي عشرة سنة هو «كامب ديفيد» الزمن القديم الذي أنهاه نورالدين محمود باحتلال دمشق وطرد الأمير المتحالف منها. لقد ظلت مملكة القدس تلعب على حبال التفرقة... حتى سقطت بين الحبال!.

١٣ ــ اعتمدت المملكة الصليبية القديمة على الطوائف تثيرها وتجندها وتستغل مشاعرها الدينية، ضد المسلمين، رغم كرهها الكاثوليكي اللاتيني لهذه الطوائف الشرقية وتباينها معها، كانت ترى فيها أداة قريبة لأغراضها. واستجابت بعض الجماعات الطائفية للإغراء سواء في فلسطين أو لبنان أو في الجزيرة ومن الأرمن خاصة وأن تمنع بعضها، فصرنا نراها مجندة في الجيش الفرنجي: فرساناً ومشاة، بل نراها متطوعة في جيوش الفرق كالاستبارية والداوية... ألستم ترون أن مراهنة إسرائيل على حرب الطوائف والحرب بالطوائف صورة أخرى من تلك السياسة القديمة وكأن لا جديد تحت الشمس؟... الفرق الوحيد أن الفرنجة استخدموا هذه الجماعات معهم في جيوشهم، والصهيونية تستخدم الطوائف أيضاً ف بعضها ضد بعض. تحركها ألاعيب بيدها لتسقط الثمار في النهاية في سلتها الاحتلالية!.

١٤ ــ أضاع العرب المسلمون، أيام الفرنجة، فرصاً ذهبية لإنهاء الوجود الاحتلالي الفرنجي. ارتسمت حطين عشرات المرات في الأفق قبل حطين بزمن طويل. قصر النظر السياسي وحده هو المسؤول عن عدم اغتنامها. السنوات التسعون التي انقضت بين سنتي ٤٩٢ (سنة الاحتلال) وسنة ٥٨٣ (سنة التحرير) شهدت مئات المعارك كما شهدتها مثلها مائة سنة أخرى من بعد. وبعضها في عنف حطين ونصرها الحاسم. أولى هذه الفرص كانت أمام أنطاكية عشية وصول الفرنجة إلى الشام. دخلوا أنطاكية الفارغة من المؤن وهم حوالي مائة ألف. وبعد ثلاثة أيام فاجأهم الحصار الإسلامي بستة جيوش فدب فيهم الجوع حتى أكلوا النعال والجلود وعشب الأرض وبادر الكثير منهم بالهرب. حتى الداعية بطرس الراهب! ثم خرجوا بهجمة واحدة يائسة فلم يحاربهم أحد من

الجيوش المتربصة حولهم اكتفوا بالفرار... كانت هذه المعركة هي التي أدت إلى التوطد الصليبي وإلى احتلال القدس!.. هل يذكركم هذا بحرب سنة ١٩٤٨؟..

وبعد أشهر من الاحتلال والمذابح، تَحَمَّل الفرنجة عائدين إلى بلادهم. لقد أدوا مهمتهم. لم يبق في فلسطين كلها سوى ثلاثمائة فارس وألفي محارب... ولم تستفد من هذه الفرصة مصر وكانت تستطيع أن تسوق فيما يذكرون ثلاثين أو خمسين ألف فارس! ولم تستغلها دمشق وكان لديها عشرة آلاف فارس. كل ما صنعه طغتكين أتابك دمشق أنه ذهب في كواكب من فرسانه إلى طبرية فأخذ منها مصحف عثمان فدخل به دمشق في موكب حافل وأغلق الأبواب!.

ومرت فرص بعد فرص من هذه اللحظات الحرجة أضاعها المصريون. كان أخطرها حملة مايو سنة ١١٠٢ التي سُحق فيها الفرنجة عند الرملة فاختفى ملك المملكة الهارب في أجمة قصب أحرقها المسلمون فلحقته النيران. والقدس فارغة دون حامية... ولكن النجدات الغربية التي وصلت على المراكب قلبت الميزان... هل تذكرون قصة حرب سنة ١٩٧٣ والجسر الجوي الأميركي وثغرة الدفرسوار؟...

أخطر تلك الفرص كانت معركة الأقحوانة عند طبرية سنة ١١٤٣/٥٠٧. أربع عشرة سنة بعد الاحتلال. التقى جيش دمشق والموصل مع الجيوش الفرنجية قرب حطين... وتراءت حطين نفسها في المعركة بحيرة طبرية اختلط الماء بالدم فيها حتى امتنع الشرب منها أياماً. وحشر الجيش الفرنجي محاصراً مهزوماً في الجبال شهرين بجرحاه وأثقاله لا يجرؤ على الحركة لم يكن في كل مملكة فلسطين من حامية. ووصلت طلائع الجيش الإسلامي حتى مشارف القدس. ودانت لهم البلاد بالطاعة... ثم خشي أمير دمشق أن يختطف منه أمير الموصل إمارة دمشق فأقنعه بالعودة واستئناف القتال في الربيع القادم!.. ولم يأت هذا الربيع أبداً لأن الأمير الموصلي قتل...

أخطر ما في هذه الفرص القديمة الضائعة أن الثمن الذي كان سيدفع فيما بعد كان دوماً أغلى فأغلى. أليس هذا هو قدرنا اليوم مع الاحتلال الصهيوني: الفرص دوماً تضيع والثمن دوماً يرتفع؟.

١٥ — المقاومة الإسلامية للفرنجة لم تتبلور اسريعا لأسباب عديدة. كانت تتصاعد حالاً على حال مع ازدياد واندماج المنطقة ووعيها للكارثة. المعارك التي استمرت تسعين سنة أفرزت الكثير من البطولات كما سفحت على التراب الكثير من الدماء، في حين كان الحزن يعشش أكثر فأكثر في الصخور والعيون. من هذا الصمود صاغت المنطقة عشرات الرجال وكان لكل منهم «حطينة» على مقداره. كل منهم ضرب سيفاً في حطين المقبلة ولو لم يحضرها: كربوغا، جكرمس، جاولي، مودود، آقسنقر البرسقي من الموصل، سقمان بن أرتق، ايلغازي أخوه، برسق، نجم الدين البي من الجزيرة، طغتكين، إسماعيل بن بوري، أُتُر من دمشق، علي كوجك، مظفرالدين كوكبوري من إربل، الأفضل الجمالي، ابنه شرف المعالي، الوزير المأمون، رضوان الولخشي من مصر... هي أسماء كثيرة لا يذكرها أحد، ولكنهم كانوا الشرط الأساسي لظهور صلاح الدين. لقد كونوا ربيع السيوف الذي برز منه عمادالدين زنكي، ثم نورالدين ثم صلاح الدين. وإذا كان صلاح الدين وحده يخرج من الأسطر ويفرض نفسه على الذاكرة والتاريخ فإنه بكل تأكيد لم يخرج وحده من عتمة الانهزامية والسكون. ما كان ممكناً أن يخرج لولا «صلاح الدينيين» الآخرين الذين سبقوه. كان لا بد أن يوجد السابقون الذين انطفأوا في مستنقع السلبية والتمزق ليوجد صلاح الدين من بعدهم محرراً أخيراً. أليس في سجل الصمود اليوم. عشرات الأسماء التي تسجل في انتظار حطين المقبلة؟

١٦ — كانت عملية تحرير فلسطين من الفرنجة من عمل مصر والشام بالذات. وكان شمال العراق هو العمق الاستراتيجي للعملية. ويبدو أن المنطق الجيو — بوليتكي ما يزال قائماً وما تزال عملية التحرير من مهمات هذه المنطقة بالذات قبل غيرها. وإن كان منطق العصر لا يكتفى بها ويدخل في التحرير مالا ينتهي من

العناصر الأخرى. على أنك تستطيع أن تفهم لماذا ارتجفت أركان إسرائيل والدول التي تستخدمها للوحدة التي قامت سنة ١٩٥٨ بين مصر وسورية. لقد رأت فيها ــ كما ظلت ترى في كل مشروع وحدوي ــ بداية النهاية. إنها إنما تقوم على تمزق المنطقة وفتاتها. الضباع لا تعيش إلا على الجيف. وهي تفهم هذا الدرس جيداً. بقي أن نعي نحن بدورنا هذا الدرس!.

١٧ ــ وأخيراً كانت حطين.. لكنها لم تكن إلا بعد أن وجدت عاصمة ومركزاً ديناميكياً لها في دمشق، وقيادة واعية ملهمة، وقوة موحدة ساحقة، وعمقاً استراتيجياً وراءها، وموارد تدفع ثمن الدماء وإعداداً سياسياً طويلاً مضنياً. ولن تكون حطين الأخرى إلا أن وجدت مثيل كل ذلك وعلى مقياس العصر. العصر هو العنصر الحاسم.

ــ ونصل بعد هذا إلى المحاور الأساسية وإلى تطبيقاتها في سياسة الصليبيين في المنطقة وفي سياسة الصهيونيين. كان الصليبيون يدركون، وهم يتجهون إلى الشرق أمرين أساسيين:

ــ يدركون وحدة العدو العربي المسلم ما بين الأندلس إلى المشرق. الكثيرون ممن شاركوا في الحملة الأولى كانوا من قبل يقاتلون في جبهة اسبانيا ضد المسلمين واستمر الأمر على ذلك من بعد.

ــ ويدركون أن موانيء الشرق الغنية هي مصب التجارات القادمة من المحيط الهندي وما وراءه. الأساطيل الايطالية كانت قبل ذلك بكثير تقوم على هذه التجارات في البحر المتوسط واستمرت هذه الأساطيل سيدة هذا البحر من بعد.

وهكذا كانت استراتيجية الصليبيين تقوم على الأمرين معاً:

ــ ضرب العالم العربي الإسلامي في وسطه تماماً بجانب ضربه في الأندلس وشمال أفريقيا وصقلية. لينقطع اتصال الكتلة الغربية الإسلامية بعضها مع بعض.

ــ استثمار الموقع الاستراتيجي لفلسطين حتى الحد الأقصى تجارة ودوراً، والتحكم في عقدة الاتصال الأساسية في التجارة الدولية فيها.

ــ ولما كانت مصر تشارك فلسطين الموقع الاستراتيجي فقد كان هم الصليبيين موجهاً إلى مصر دوماً: لفصلها عما حولها أو أخذها. يوم وصلت الحملة الأولى الرملة سنة ١٠٩٩ وقبل أن تحتل القدس أخذوا يتشاورون في متابعة المسير إلى مصر! وظلوا بعد ذلك على مهاجمتها دون انقطاع وحاولوا أخذها أيام نورالدين وتوجهت إليها الحملتان الخامسة والسابعة بعد ذلك...

هذه الاستراتيجية مرت خلال العهد الصليبي بمرحلتين:

في المرحلة الأولى التي امتدت حوالي نصف قرن: كانت المملكة الصليبية والإمارات التابعة لها تعمل لحسابها. في عملية استعمارية مبكرة وكان لها سند قريب قلق في بيزنطة وسند عريض بعيد في دول الغرب.

في المرحلة التالية: وبعد أن أدركت الحركة الفرنجية عجزها عن ابتلاع المشرق بكتلتها المحدودة باعت نفسها لبيزنطة أولاً طلباً للمعونة المباشرة أيام نورالدين وأوائل أيام صلاح الدين. وقبل أن تقع حطين كانت قد باعت نفسها لمن يشتري في الغرب. كانوا يفتشون عن ملك أي ملك. رموا هزيمة حطين على رأس الملك (غي) النبيل الفرنسي الذي اتفق أن قاد الجمع الصليبي ضد صلاح الدين. ثم بعد أن تضاءل المشروع الصليبي إلى مجرد شقة ساحلية بين صور ويافا أخذوا يبحثون له عن منقذ يعينه فيليب أوغوست أو ريتشارد قلب الأسد. ثم جاءت أيام الحملة الخامسة فتحكّم في المشروع ملك هنغاريا أولاً وفشل. ثم قاده الكاردينال بلاجيوس مندوب البابا سنة ١٢١٨ ــ ١٢٢٩ فغرق به في وحول الدلتا بعد دمياط. ثم تولاه فريدريك الثاني صاحب صقلية فكانت مملكة القدس مجرد ملحق إضافي لملكه الامبراطوري. وجاء لويس التاسع بالحملة السابعة وقاد المشروع مرة أخرى إلى دمياط... وأغرقه مرة أخرى في مياه النيل عند المنصورة...

لو أغمضنا الأعين لحظات نتأمل في كل هذا الذي مضى من تاريخ الصليبيات استراتيجيةً ومراحل واستبدلنا بكلمة الفرنجة كلمة

الصهيونية فهل يختلف الأمر؟

لقد كانت إسرائيل في الجيو ــ استراتيجية البريطانية إسفين التحطيم للكتلة العربية وعقدة الطريق إلى الهند. ولهذا خلقت في مكانها. فلما ثبت التمزيق للبلاد العربية، وأقيمت الحدود والدول المنعزلة، واستقلت الهند، انتقلت إلى الجيو استراتيجية الأميركية لتصبح جزءاً من الحزام الأمني الاستراتيجي ضد الاتحاد السوفييتي ووسيلة للإبقاء على التخلف العربي وضاعت فلسطين بين أرجل الاستراتيجيتين، كما ضاعت من قبل أيام الصليبيات. وإلا فاسألوا إذن أنفسكم عن إسرائيل هذا الحائط اللاهوتي الذي انتصب على العدوة ــ المفصل لتمارس الأمة العربية الموت على طرفيه وليعزل مصر عن العالم العربي بين اللاهوت اليهودي من جهة وبين بحار الماء والصحراء من جهة أخرى ترى ما دوره في استراتيجيات الدول الكبرى؟ ولماذا تحقنه أميركا كل سنة بنصف مساعداتها للعالم وهو في شبرين من الأرض وفي ملايين قليلة معدودة من البشر؟ إن الولايات المتحدة تحاول أن تجعل الجغرافيا الصغيرة تلعب دور الدول الكبرى وتحقنها بالسلاح والمال حقناً في حين تعكف الجماعة المحتلة على اختراع التاريخ واللاهوت... والمرتزقة.

وأخيراً هل يعني هذا الذي سلف كله أن لا جديد تحت الشمس؟ وأن التاريخ يعيد نفسه بنفسه؟ وأن حطين ذاتها قادمة في حطين أخرى مماثلة؟. لست أعني هذا أبداً ولا أعتقده. ثم كل يوم جديد تحت الشمس وحذار أن ننظر إلى حطين من خلال الماضي. إنها لن تكون إلا من خلال المستقبل وأهوال المستقبل. حذار أن نطلب منها أكثر من أن تكون الملهمة بدروسها والمعاني لأنها لن تتكرر إلا بهذه الدروس والمعاني. إن التاريخ أعجز وأعظم من أن يعيد نفسه. ●

بين الأمس واليوم

● «بين الغزو الصليبي لبلاد المشرق العربي في العصور الوسطى، والغزو الصهيوني لفلسطين، في عصرنا الحاضر، وشائج قربى، ووحدة منافع وأهداف، رغم بعد الفارق الزمني بين الغزوين. كلاهما أراد احتلال البلاد واستعمارها واستيطانها وطرد سكانها منها، أو ردهم إلى العبودية، ولم يتورع عن ارتكاب الجرائم البشعة مما يندى له الجبين.

إن الدماء التي سفكت عند حصار القدس، في الحملة الصليبية الأولى، هي نفس الدماء التي سالت عند حصار المدينة المقدسة في حرب فلسطين الأولى، وإن القتل والتدمير والمداهمات، التي قام بها الصليبيون في فلسطين، هي من النوع الذي ارتكبه الصهاينة في القدس وقلقيلية ودير ياسين. والإقطاعات التي أنشأها الفرنجة في بلاد الشام بعد طرد أهلها منها، أو تحويل الفلاحين فيها إلى أقنان، هي نفس لمستعمرات التي استوطنها الصهاينة على الأرض المغتصبة من أصحابها الشرعيين. وإذ نحتفل اليوم بذكرى واقعة حطين، فلنلتمس منها الشجاعة والقوة وجديد العزم للمضي قدماً في تلاحم الصفوف ومجابهة الخطر الداهم بكل ثبات ومضاء وحسن تدبير. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

● **«في ذكرى معركة حطين» ــ إصدار وزارة الثقافة.**





موقعة حطين
دراسة عسكرية

بقلم
اللواء الركن المجاز سعيد الطيان
مدير مركز الدراسات العسكرية

يقول كلاوزيفتس إن «الحرب هي استمرار للسياسة ولكن بوسائط مختلفة». ولا شك في أن سلاح كل قائد سياسي هي القوة المؤثرة. وقد تكون هذه القوة عسكرية أو اقتصادية أو جغرافية أو... وبدون هذه القوة لن يكون قرار القائد السياسي ذا قيمة.

في القرن الحادي عشر، استطاعت القوى الفرنجية الغاشمة، باسم حماية المقدسات المسيحية، أن تجمع قوات مسلحة ذات تعداد كبير، وأن تحتل بالقوة الشريط الساحلي لبلاد الشام، مشكلة طريقاً شبه مستمرة، تمتد من القسطنطينية حتى القدس، محتلة بشكل أساسي المدن والحصون، ومشيدة القلاع في كافة النقاط الهامة من الناحية الاستراتيجية.

كان العرب في ذلك الوقت يتطاحنون، ويتنازعون الدويلات والامارات، وكان الخليفة العباسي بدون سلطة ولكن... وبعد مدة قيِّض للأمة العربية النهوض من جديد وشد العزم.

وجاء قائد ملهم، هو صلاح الدين الأيوبي، الذي استطاع بجهوده أن يجمع تحت سلطته مصر والشام وحلب والجزيرة والموصل. وبقوى هذه الأقطار والأمصار استطاع أن يكون نداً للفرنجة، وأن يناوشهم، وأن ينتهي في ٤ تموز ١١٨٧ بتحطيم قوتهم المسلحة وقتل وأسر ملوكهم وأمرائهم، فكان ذلك بداية التحرير.

أولاً:
القوى العربية والإسلامية في الشرق العربـي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر

تشكل بلاد الشام جسراً بين قاعدتين لامبراطوريات تاريخية، كانتا على مر التاريخ: في وادي النيل (مصر)، وفي وادي الفرات ودجلة (ما بين النهرين). وكان هذا الجسر يتأرجح يمنة ويسرة حسب طغيان قوة على القوة الأخرى. لذا تعرضت بلاد الشام للغزو من قبل هاتين القاعدتين عدة مرات عبر التاريخ.

في القرن الثاني عشر، كانت السيطرة على وادي الفرات لبعض سلاطين السلاجقة، الذين كانوا يتمتعون فيها بسلطة مؤقتة، في ظل الخلافة العباسية، منذ العام ١٠٥٩م. أما وادي النيل فكان تحت سيطرة الخلافة الفاطمية، التي تأسست في مصر منذ العام ٩٦٩ م. وكانت الخلافتان، خلال القرن الثاني عشر، تخوضان الحرب، بين الفينة والفينة، ضد الفرنجة، الذين تأثرت طرائق قتالهم الحربية بطرائق قتال الجيوش التي كانت تقاتلها.

- **التجييش في بلاد الشام في القرن الثاني عشر:**

كانت الجيوش في بلاد الشام تتشكل من عنصرين أساسيين وعنصر احتياطي:

□ **القوة الضاربة**: وتدعى «**العسكر**». وتتشكل لخوض الأعمال القتالية الاعتيادية، وخوض العمليات الحربية الصغيرة، وأساساً ذات الصبغة الدفاعية. وكانت تتألف في ذلك القرن أساساً من عناصر «المماليك» وممن أُعتق منهم.

□ **القوات الداعمة**: وهي قوات تستدعى من الولايات والإقطاعيات التابعة للسلطة. ومهمة هذه القوات القتال إلى جانب القوة الضاربة الأساسية تحت قيادة الوالي أو الحاكم الإقطاعي بالذات، وتحت الإمرة العامة للسلطان أو الملك أو الخليفة.

□ **قوات احتياطية**: وهي قوات تستدعى بعد تسيير الجيوش ووضعها تحت سلطة السلطان، وتكون جاهزة، عند اللزوم، لنجدة جيش السلطان.

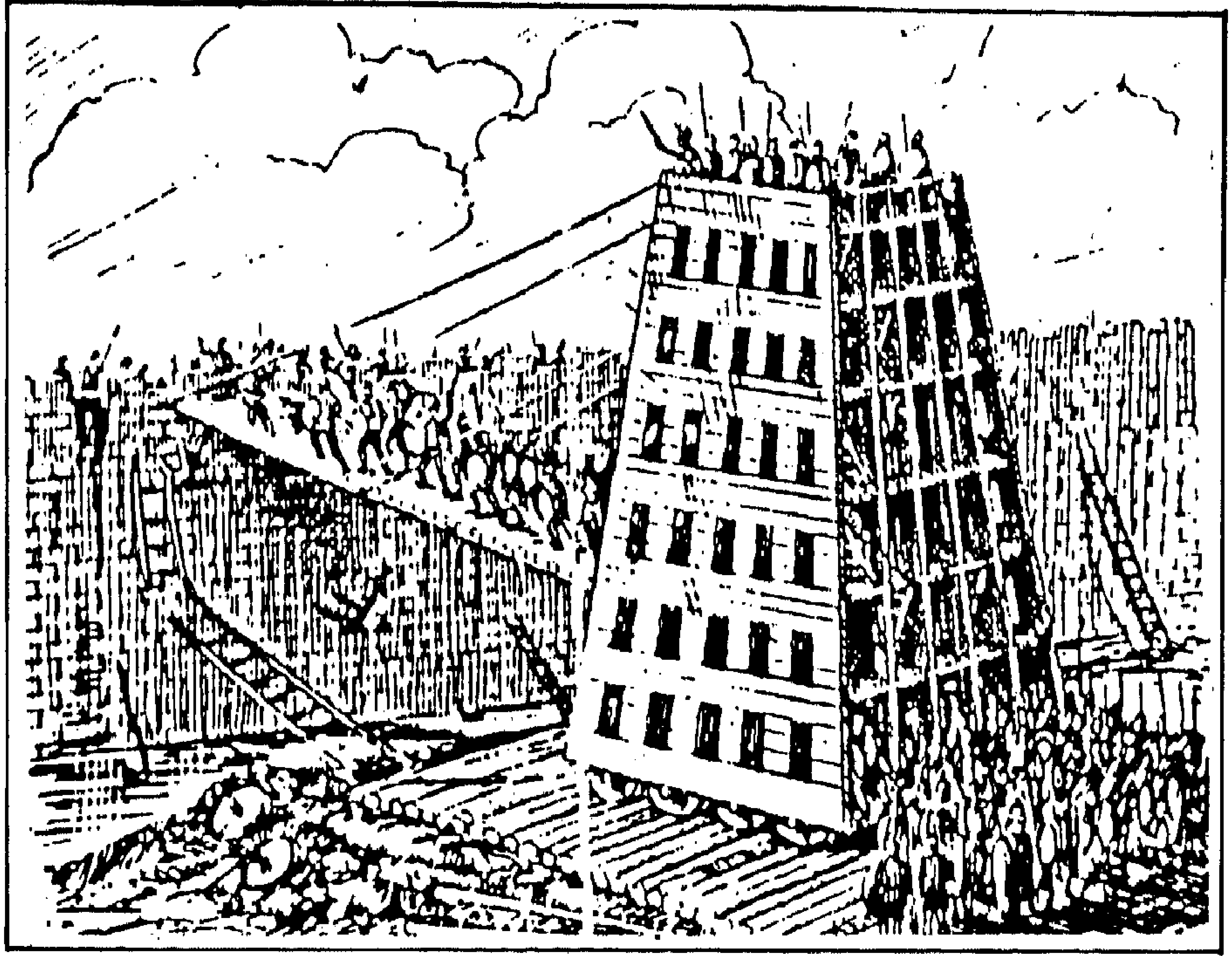
وكان النظام الإقطاعي هو النظام المسيطر في إعداد الجيوش العربية والإسلامية فكان محتماً على كل من حاز على إقطاع أن يقدِّم للخليفة أو للسلطان مقداراً من المال يدفع سنوياً، أو في مواسم محددة للخزينة، وقوة عسكرية، يقودها الوالي بنفسه واضعاً نفسه وقوته تحت تصرف السلطان.

كانت المدن المسورة والقلاع والحصون أساس الممتلكات الفرنجية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر. وكان حصار المدن والقلاع والحصون بطبيعته عملية صعبة ومعقدة، في عصر التحصينات القوية مع ضعف في وسائط اقتحام الحصون.

فعندما كان يحدث تطويق لقلعة أو مدينة، فإن هذه تكون، في الغالب، قادرة على أن تقف منيعة لمدة طويلة، بفضل سورها المنيع ومؤنها المخزنة. وبالتالي فإن التطويق كان يشكل عبئاً كبيراً على القوات القائمة به لا سيما عندما يكون بالإمكان وصول تعزيزات خارجية من إمارة صديقة أخرى، عندها يجد القائمون بالحصار أنفسهم محاصرين، ويفشل الحصار.

أما القتال في الميدان، الأرض العارية، حيث لا قلاع ولا حصون، فإنه أمر في غاية الخطورة، ذلك أن تدمير قوة مكشوفة في العراء أسهل جداً من تدميرها في قلعة أو حصن. لذلك فإن القائد البارع هو الذي يستطيع جر خصمه إلى القتال في الميدان وهكذا فإن صلاح الدين كان يحاول مقاتلة الجيش الصليبي في ميدان قتال خارجي، عندئذ، كان يقدر بأنه سوف يقدر عليه ويدمره. وهنا فإن عبقرية صلاح الدين في مجال الاستراتيجية العسكرية تكمن في تمكنه من جر الجَيش الصليبي من منطقة ممتازة له إلى ميدان مكشوف، بعيداً عن القلاع والحصون، في ظروف مناخية ومعيشية صعبة.

في السنوات الأولى للقتال ضد الفرنجة (في القرن الحادي عشر ونصف القرن الثاني عشر) كانت القوى العربية والإسلامية تقاتل منفردة ومتفككة بقيادة أمرائها، وعلى بداهتهم



□ دبّابة (برج اقتحام قلاع).

الشخصية، ودون وجود قائد عام مهيمن على مجرى الصراع. وهنا بالذات تكمن نقطة ضعف هامة. ذلك أن القيادة المتفككة تعطي قرارات متفككة ومعارك محلية غير مترابطة، الأمر الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى الهزيمة. وكانت عاقبة فقدان القائد الواحد إصابة العمل العسكري بالشلل. وهذا حقيقة ما حصل خلال الفترة الممتدة بين أعوام ١١١٠ أو ١١١٥. حيث كانت تنقص الأمراء السلاجقة في القتال، وحدة القيادة والتلاحم. لذا كانت القوى الإسلامية تتفكك بسرعة وتتشتت من الضربة الأولى. وهكذا كان باستطاعة الفرنجة أن يجنوا ثمار الميزات الهامة لحملة دفاعية مظفرة، دون أن يعرضوا انفسهم لمخاطر خوض الحرب.

إن استرداد أي جزء من الأراضي التي تستولي عليها الدويلات اللاتينية، كان يحتاج إلى قوى أكبر مما يملكه أمير واحد، بل من أجل شن حرب كبيرة ضد الفرنجة كانت القوى اللازمة أكبر مما هو متوفر في بلاد الشام وحدها. وكان نورالدين يبحث عن حليف، في كل مرة يرغب فيها في ولوج ميدان القتال. وقد ساعده عسكر أخيه، وعسكر أمراء آخرين من الجزيرة في تحقيق انتصاره عند حارم عام ١١٦٤، وفي هجومه على كونتية طرابلس عام ١١٦٧.

كانت النجاحات التي حققها صلاح الدين ضد دويلات الفرنجة تتماشى اضطراداً مع نمو مصادره العسكرية. ففي العام ١١٧٠ والعام ١١٧٧ غزا فلسطين من الجنوب بقوات عبأها من مصر فقط، ولم يستطع آنئذ تحقيق شيء هام. وبعد أن سيطر على شمالي سورية والجزيرة، خلال العامين ١١٨٢ و ١١٨٣ أصبحت قوته العسكرية متفوقة.

أما الجيش، الذي حقق به صلاح الدين أعظم انتصاراته في «حطين»، واستولى به على القسم الأكبر من أراضي دويلات الفرنجة، وحاول به رفع الحصار عن عكا، ومقاومة الحملة الصليبية الثالثة، فكان مؤلفاً من قوات من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل، وقوات من ديار بكر... إلخ. ولم يعد، أثناء حكمه، يستطيع حاكم أو أمير رفض التعاون أو مد يد العون كما كان يحدث سابقا. ولم تعد مصر معزولة عن بقية البلاد، وإنما كان جنود وادي النيل موجودين

جنباً إلى جنب مع جنود بلاد الشام. والأهم من ذلك كله، أن الحاكم العام (السلطان) كان هو بنفسه على رأس ذلك الجيش، بل وفي وسط ميدان القتال.

● **قوام القوات العربية والإسلامية التي استطاع صلاح الدين جمعها في حطين:**

تبالغ المراجع العربية في تعداد جيش صلاح الدين الذي دخل معركة حطين، فيقول عماد الدين بأن صلاح الدين عندما عاد بعسكره من الجنوب (الكرك والشوبك) عرض جميع جيشه الذي كان يتألف من ١٢٠٠٠ فارس في عشترا، وذلك قبل أن يزحف به إلى حطين.

وتبين مصادر أخرى أن تعداد جيش صلاح الدين كان في حدود: ١٠٠٠ من حرسه و ٤٠٠٠ من العسكر المصري و ١٠٠٠ من دمشق، و ١٠٠٠ من حلب وشمالي سورية، و ٥٠٠٠ من الجزيرة والموصل وديار بكر.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك قوى احتياطية (رماة خيالة ورجالة). وكان جيش صلاح الدين يضم أعداداً تتزايد وتتناقص من العساكر الاحتياطية.

كان جيش صلاح الدين يتألف من قوميات إسلامية متجاورة، فكان يضم:

□ **العرب**: الذين كانوا يقدمون الخيالة، ومن ابرزهم، كما هو معروف بنو منقذ أصحاب شيزر، وبعض من قبائل بدو الشام ومصر.

وقد زود بدو الشام صلاح الدين بإمدادات عسكرية استخدمها بنجاح في مهاجمة الأعداء.

وكان صلاح الدين يستخدم عناصر من القبائل العربية يوجهها إلى صيدا وبيروت ليحصد بها غلات العدو «وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة بأثقالها»[1].

□ **التركمان**: كان نورالدين يعتمد جداً على الاحتياطي من التركمان، فحذا صلاح الدين حذوه، وخاصة منهم التركمان الياروقية.

□ **الأكراد**: لم يكن الأكراد عنصراً أساسياً في جيوش نورالدين فقط، بل كانوا أيضاً في جيوش غيره من الأمراء الزنكية والارتقية.

الأعتدة والميرة:

قبل القيام بالحملات الحربية، كانت الدروع والأسلحة المودعة في الزرد خانة توزع على العساكر، كما يصرف لهم عطاء خاص ينفقونه في أمور الحملة.

وكان كل أمير وعسكري يحمل معه مؤناً وعليقاً يأخذهما من عطائه من القمح، أو يشتريهما على حسابه.

هذا بالإضافة إلى احتياطات الأعتدة والميرة التي يحملها الجيش، والموجودة بحماية قلب القوات (القوى الرئيسية).

● **تنظيم القوات العربية في المعركة:**

يقول ابن الأحدب في كتابه «نهاية السؤل والأمنية في علم الفروسية»، الذي كتب في القرن الثامن الهجري، في فصل الأسماء:

«كل ستة عشر تسمى (صفاً)، وكل صفين من هذه الصفوف المتقاطرة تسمى (عصبة)، وعدد من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً والمقدم عليهم يسمى «صاحب العصبة»، وكل أربعة صفوف متقاطرة تسمى (مقنباً)... إلخ.

وإذا أردنا اختصار هذا الموضوع يمكن أن نسجل:

ـ الصف الواحد: ١٦ جندياً.

ـ الصفان المتقاطران: ٣٢ جندياً، يشكلان (عصبة)، قائدها صاحب العصبة.

ـ الأربعة صفوف: ٦٤ جندياً، تشكل (مَقْنَباً)، قائده صاحب المقنب.

ـ المقنبان (٨ صفوف ـ ١٢٨ جندياً)، يشكلان (كردوساً)، قائده رئيس الكردوس.

ـ الكردوسان (١٦ صفاً ـ ٢٥٦ جندياً)، يشكلان (جحفلاً) أو (فئة)، وقائده رئيس الجحفل أو رئيس الفئة. وللفئة عناصر إضافية: صاحب الراية، وصاحب الساقة، وصاحب البوق، والخادم، مع عناصر الكشاف (أي الاستطلاع).

ويشكل الجحفل (الفئة) تشكيلاً رباعياً ١٦ رجلاً × ١٦ صفاً.

ـ الجحفلان (٣٢ صفاً ـ ٥١٢ رجلاً) يشكلان كبكبة، قائدها رئيس الكبكبة.

ـ الكبكبتان (٦٤ صفاً ـ ١٠٢٤ رجلاً)، يشكلان زمرة، قائدها رئيس الزمرة.

ــ الزمرتان (١٢٨ صفاً ــ ٢٠٤٨ رجلاً)، يشكلان طائفة، أو ما يسمى الجماعة التامة، يقودها رئيس الجماعة التامة.

ــ الطائفتان (٢٥٦ صفاً ــ ٤٠٩٦ رجلاً)، تشكلان جيشاً، ويسميه بعض الناس (العسكر)، يقوده قائد الجيش.

ــ الجيشان (٥١٢ صفاً ــ ٨١٩٢ رجلاً)، يشكلان (الخميس).

ــ الخميسان (١٠٢٤ صفاً ــ ١٦٣٨٤ رجلاً)، يشكلان (العسكر الأعظم)

ــ العسكر الأعظم = ٤ جيوش = ٣٢ كبكبة = ٦٤ جحفلاً = ١٢٨ كردوساً = ٢٥٦ مقنباً = ٥١٢ عصبة.

يوضع أفضل قادة الجيش في الميمنة، والذي يليه في الميسرة، والثالث في جنب الميمنة، والرابع في جنب الميسرة... وهكذا.

يحتل المقاتل الواحد، المرتب على التعبئة، من المكان ٤ أذرع في الصف. وهنالك ثلاثة احتمالات إما أن يكون الترتيب عادياً فتكون المسافة ٤ أذرع، أو مزدحماً فيكون ذراعين، أو مضغوطاً فيكون ذراعاً واحدة.

● **تكتيك القوات العربية والإسلامية**:

كان الفرنجة يخشون القوات الإسلامية أشد الخشية، وخاصة القوات السلجوقية، فقد كانوا معجبين بصفاتهم العسكرية. ويشير «فولتشر ــ Fulcher»، في وصفه للجيش الذي لاقى الفرنجة عند «دوريليوم»، حيث كانت «صرخات القتال المرعبة» و«القرع الوحشي للطبول» سمتين أساسيتين تركتا بصماتهما دوماً على الجنود الفرنجة.

كان أعظم خطر يواجه الفرنجة في قتالهم هو التعامل مع الرماة النبالة الراكبين.

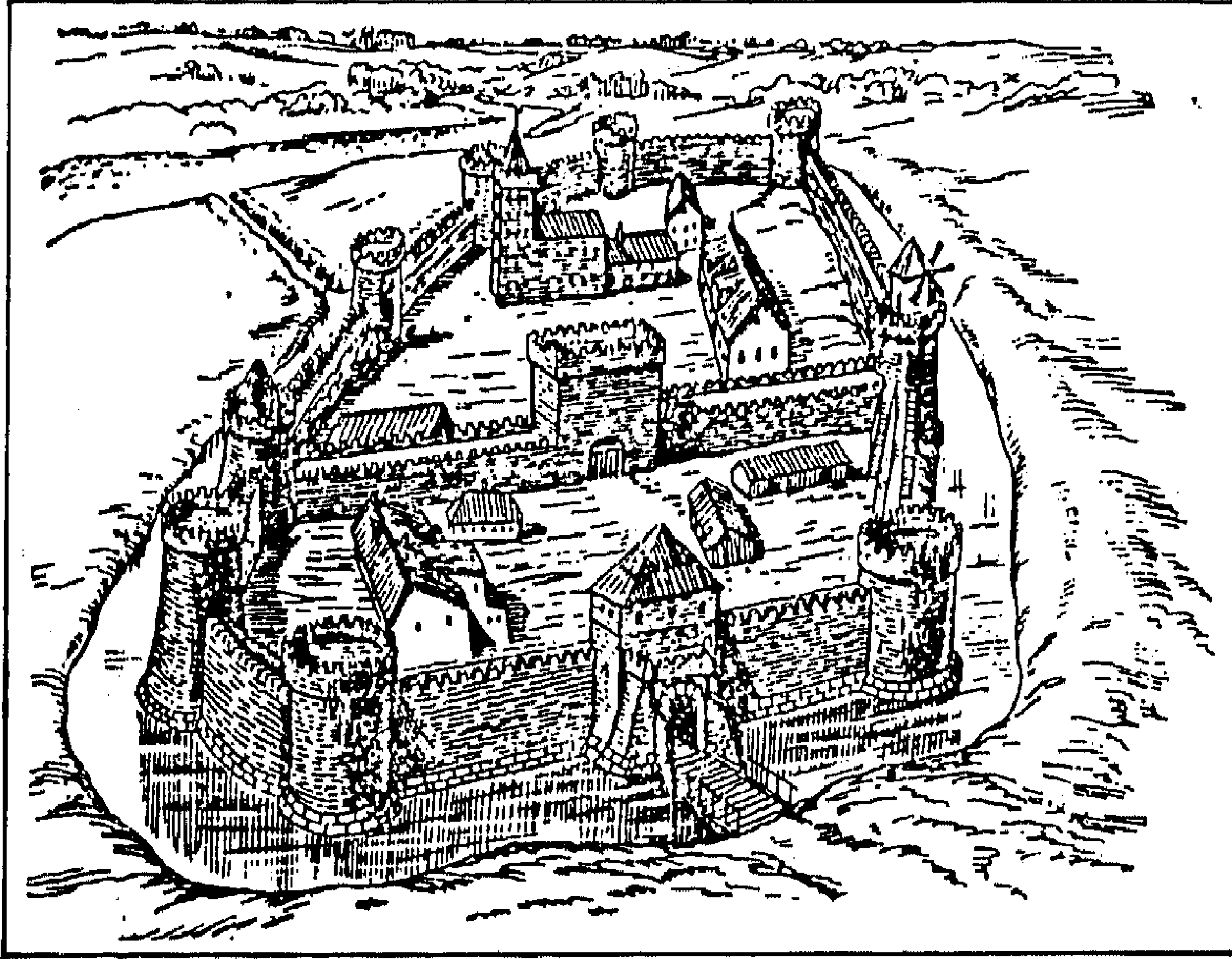
لقد كان الجزء الفعال من القوات العربية والإسلامية، كما كان شأن الفرنجة يقاتل على متن الخيل. ولكن من الواضح ــ استناداً للتسجيلات المعاصرة ــ أن المقاتلين العرب والمسلمين كانوا أسرع من الفرنجة، وأكثر مرونة منهم من حيث المناورة. ولقد عزي ذلك للفرس العربية السريعة ورشاقتها وخفة أسلحة الراكب. لقد كان القوس سلاحهم الرئيسي ولكنهم كانوا يحملون الترس والرمح والسيف والهراوة. وهنالك دليل جيد على أن الرمح والترس كانا أخف وزناً مما لدى الفرنجة. وقد لفت نظر الكتاب الغربيين استخدام العرب لرمح أطول مما كان يستخدمه الفرنجة. فقد ذكر أسامة بن منقذ، بأن الرمح الذي يستخدمه العرب كان أخف كثيراً، فقد كان الرمح الفرنجي مصنوعاً من خشب السنديان أو البلوط، في حين كان الرمح العربي مصنوعاً من قناة من القصب مع أسلة من الحديد[٢].

كذلك فإن الترس العربية لم تكن عريضة وطويلة، بيضوية الشكل، تغطي معظم طول الجسم، كما هو الحال لدى الفرنجة، وإنما كانت تصنع على شكل مجنات مستديرة صغيرة، أقل مناعة في الدفاع، ولكنها تملك ميزة الخفة. لذا فإن المسلمين، بفضل خيولهم السريعة الرشيقة، وبفضل أسلحتهم الفعالة الخفيفة كانوا أخف حركة من الفرنجة. وقد عرف العرب كيف يستغلون هذه الحركية العالية في أربعة وجوه رئيسية:

١ ــ كانت الحركية العالية تمكنهم من البقاء بعيداً عن العدو، واختيار اللحظة المناسبة للالتحام معه.

كان الفرنجة يستفيدون من ثقل خيولهم وأسلحتهم وحركتهم الثقيلة ليحملوا حملة قوية على العدو. وكان هذا فعالاً إذا كانت الحملة موجهة ضد قوات معادية متماسكة فقط. أما الخيالة النبالة المسلمون فلم يكونوا يشكلون هدفاً من هذا القبيل، فإذا ما شن عليهم مثل هذا الهجوم، فإنهم سرعان ما ينفرطون مبتعدين. وعندما كان الفرنجة يتوقفون عن تكرار هذه المحاولة، كان العرب ينطلقون بدورهم بهجوم سريع للغاية.

٢ ــ كان العرب يستخدمون أسلوب التقهقر الخادع. وقد استخدم الفرنجة في سورية ذلك في عدد من المناسبات، إلا أن العرب كانوا معتادين على هذه المناورات باستمرار، بأساليب وطرق مختلفة ومتعددة. وقد يمتد تقهقرهم أحياناً بضعة أيام، ولكنه كان يهدف دوماً إلى إرهاق الفرنجة وإبعادهم عن قواعدهم. وكثيراً ما كانوا يستخدمونه «طعماً» لاجتذاب الفرنجة إلى كمين مبيت.



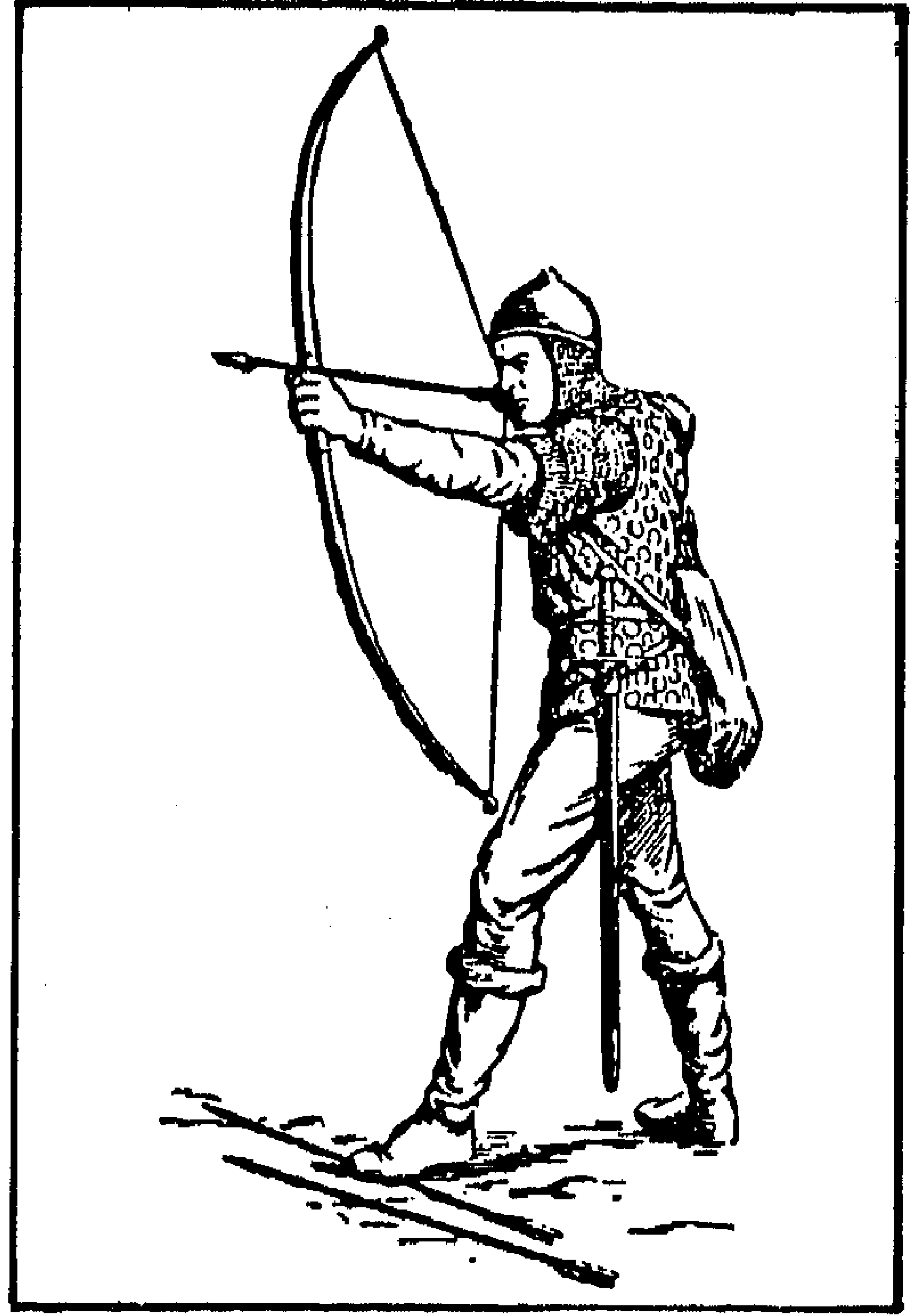
□ نموذج لقلعة (حصن) إقطاعية.

٣ ـــ كان العرب يستفيدون من حركيتهم العالية لمهاجمة جناحي العدو ومؤخرته. فما إن تسنح الفرصة لهم حتى يحوموا حول العدو كالنحل، ويهاجمونه من جميع الجهات، فإذا لم يستطيعوا الإحاطة بالعدو اكتفوا بالالتفاف عليهم من جانبين أو جانب واحد مثل «الهلال». وكان هذا التكتيك الإسلامي لا يعهده الفرنجة في أوروبا. لذلك كانوا مضطرين حياله للاحتياط له واتخاذ إجراءات تكتيكية خاصة في الشرق.

٤ ـــ أما الوجه الرابع في استخدام المسلمين لحركيتهم العالية، فهو مهاجمة العدو وإرغامه على القتال أثناء المسير. ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا كان المهاجم قادراً على التحرك بسرعة تزيد عن سرعة الخصم وإلى مديات أبعد من مداه. وكانت تلك طريقة مستجدة على الفرنجة من طرائق فن الحرب، وتثير غيظهم بشكل خاص لأن الفرنجة هاوون بطبعهم لترتيب فصائلهم بدقة قبل الشروع في القتال، ويميلون إلى دخول المعركة بتنظيم كامل. وكان الخطر الرئيسي يأتي من ميل المسلمين إلى الهجوم من الخلف «Fulcher»، فعندما كانوا يهاجمون رتلاً سائراً، كان جهدهم الرئيسي ينصب دائماً على المؤخرة وكانت المشكلات التي تواجه القائد في هذه الظروف، من أجل الإبقاء على سيطرته، أكبر كثيراً مما لو ركز العدو هجومه على المقدمة، حيث خطط القائد. وقد اضطر الفرنجة في بلاد الشام إلى اتخاذ إجراءات مضادة أكثر من مرة لمجابهة مثل هذا الهجوم.

كانت السمة التكتيكية الثانية، التي اشتهرت بها القوات الإسلامية أيضاً، اعتمادها على النبّالة. وكان هؤلاء ماهرين في استخدام القسي من متن الخيول والرمي منها أثناء الحركة بدون أي توقف أو ترجل. حتى أن المسلمين كانوا قادرين، أثناء الفر على الالتفات إلى الخلف وإطلاق سهامهم على مطارديهم، وهم على ظهور الجياد. ومن المرجح أن يكون إطلاق السهام عالياً جداً، بالاستناد إلى استخدام الكتاب اللاتيني المتكرر لكلمات مثل Pluvia (زخات المطر)، و Imber (مدرار)، و Grando (وابل)... إلخ.

وكان الاستخدام التكتيكي لهؤلاء النبالة (النشابة) يهدف إلى تحطيم تماسك العدو، إذ كان الفرنجة يعتمدون على الهجوم الراكب لتحقيق النصر في المعركة. وكان المسلمون يدركون تماماً أهمية تدمير خيول الفرنجة. لذلك كانوا يخصصون القوة اللازمة من النشابة لتنطلق



□ نبال فرنجي.

بهذه المهمة لتبقر بطون الخيل برمي النشاب والسهام من القسي العقارة. ومتى فقد الخيال الصليبي فرسه يعتبر خارج المعركة ويسهل قتله أو أسره.

وكان المسلمون يستغلون «المفاجأة» (المباغتة) جداً في المعركة وعندئذ يكون العمل التمهيدي غير ضروري، وكانوا يبقون، في الغالب، بعيدين عن التماس مع العدو، محتفظين بحريتهم في اختيار أسلوب الضربة. فإما أن يطوروا المعركة بسرعة أو يتخلوا عنها. ولا يعرضون أنفسهم للقتال القريب إلا عندما يهيئون الظروف المناسبة بالرمي والحركة.

ويقدم «فولتشر» بعض الميزات التي تتمتع بها القوات العربية، فيقول بأن خطر مسلمي الشمال على مملكة القدس كان أعظم بكثير من تهديد حكام مصر. ويقدم كاتب مجهول، كان هو نفسه مقاتلاً معجباً بالصفات العسكرية للمسلمين. فعندما بدأ يتحدث عن أول مواجهة له مع الجنود الفاطميين، عند عسقلان راح يصف بوضوح خصماً مختلفاً تماماً. وقد جاء في وصفه:

«ولم يكن لديهم أي نبالة راكبين أو أية قدرة على الحركة».

ولهذه الأسباب يذكر وليم الصوري بأنه: «لم يكن الفرنجة يخشون المصريين إطلاقاً، كما كانوا يخشون جيوش سورية والجزيرة المسلمة، حتى جاء عصر صلاح الدين».

يقول الجنرال الروسي رازين، في كتابه «تاريخ فن الحرب»، الجزء الثاني، إن العرب اشتهروا منذ القدم كمحاربين أشداء، توحدهم في المعركة الروابط القبلية المتينة. وفي القبيلة يعتبر كل فرد فيها محارب، واشتهر هؤلاء المحاربون بالشجاعة وشدة المراس.

لم يكن كل عربي قادراً على امتلاك جواد، الأمر الذي ألزم الكثيرين على القتال راجلين. وقد شكل هؤلاء عنصر المشاة (الرجّالة). وكان العرب يستخدمون بشكل خاص وواسع، الجمال في الحروب ضمن وحدات المشاة والخيالة وكانت الجمال بالفعل خير وسيلة للتنقل في الصحراء، ولنقل الحمولات الثقيلة من أسلحة الحصار. المجانيق، العرّادات، أبراج الحصار، وخيام مشافي الميدان، والجرحى، إضافة لنقل مواد الإمداد والتموين.

كان تسليح المحاربين الراكبين على الجمال، يتألف من الرمح الطويل (القناة)، بالإضافة لما يحمله الفارس من أسلحة أصغر حجماً. أما تسليح الخيال العربي فقد كان متنوعاً وغنياً وكان على المحارب أن يمتلك قوسين قويين ومتينين، مزودة تحتوي على ثلاثين سهماً، ذات نهايات حادة، وأجنحة معدنية ورمحاً طويلاً من الخيزران ينتهي برأس من الحديد الممتاز، وقرصاً معدنياً ذا حواف حادة، وسيفاً حاداً للطعن، وفأساً قاطعة، وأحياناً نبوتاً (هراوة)، أو فأساً (بلطة) ذا حدين، و ٣٠ حجراً في خرجين.

أما التسليح الواقي عند المحارب العربي، فيقول الجنرال رازين، أنه كان يتألف من درع وخوذة، ومن صفائح معدنية تغطي الأيدي والأرجل. وقد وجه العرب اهتماماً كبيراً لاستخدام الأعتدة الحربية الثقيلة، التي اقتبسوا بعضها وحسنوها عن البلاد المفتوحة

وكانت قواتهم تصطحب معها أدوات الحصار المعقدة: المنجنيقات والدبابات والعرادات والأقواس الثقيلة... إلخ. كما استخدموا وعلى نطاق واسع، القذائف المحرقة الشبيهة بما كان يطلق عليه «النار اليونانية» والعبوات المليئة بالنفط والزراقات. وقد اشتهر السلاح الفولاذي العربي، في فترة بين القرنين التاسع والحادي عشر، وخاصة منه المصنوع في دمشق، والذي كان مشهوراً في كافة أنحاء المعمورة.

وتعتبر الخيالة أفضل وأهم صنف في القوات العربية. وكانت تقسم إلى صنفين: ثقيلة وخفيفة وكانت الخيالة الثقيلة مسلحة برماح طويلة، وسيوف وبلطات ودرع واق. وكان تسليح الخيالة الخفيفة عبارة عن أقواس ونشاب ورماح خاصة طويلة ورفيعة. ويقول رازين، بأن الخيالة العربية كانت، بشكل عام، أكثر خفة وسرعة من خيالة الفرسان في أوروبا الغربية.

أما المشاة العربية (الرجالة)، فكانت تتألف من صنفين أيضاً، ثقيلة وخفيفة. وكان تسليح المشاة الثقيلة يتألف من الرماح والسيوف والدروع، وكانت المشاة تنظم في المعركة في صفوف عميقة، أما الخفيفة فكان تسليح أفرادها يتألف من قوسين كبيرين وثلاثين سهماً لكل مقاتل. وكانت المشاة الخفيفة تقاتل بالصفوف المبعثرة.

● **نظام تحرك القوات العربية إلى ميادين القتال:**

كانت القوات العربية عندما تريد أن تتحرك بمسافات بعيدة تنتظم في ترتيب مسير قتالي، جاهز لدرء المفاجآت التي قد تحصل أثناء الطريق، وجاهزة للدخول في المعركة لمجرد الاصطدام بطلائع العدو.

وقد شرح كتاب «السؤل والأمنية» هذا الترتيب، ونشره الجنرال رازين السوفييتي في كتابه «تاريخ فن الحرب»، وذكر بأن هذا الترتيب يتمتع بكل ما يجب أن يتمتع به الرتل المنظم تنظيماً صحيحاً.

ويتألف الرتل القتالي من:

□ **الطليعة**: وهي مؤلفة من الخيالة الخفيفة، التي تندفع إلى الأمام بضعة كيلومترات، دافعة



□ مقاتلون مشاة فرنج.

إلى الأمام والجوانب مفارز استطلاع سريعة، بهدف: دراسة الأرض والطريق والحواجز الموجودة عليه، إنذار القوى الرئيسية (القلب) عن الحواجز الأرضية والمائية والدلالة إلى الطريق الأفضل للتحرك، نصب نقاط مراقبة للرصد البعيد، بهدف إعطاء معلومات عن مشاهدتها للعدو وتحركاته وإعطاء المعلومات بإشارات خاصة متفق عليها، الاصطدام بالعدو وبدء التعامل معه بإضعافه، بأسلوب الكر والفر، وإنهاكه قدر الإمكان حتى وصول القلب واتخاذه الوضعية المناسبة للقتال، ومن ثم التحول إلى مفارز لقنص العدو من المؤخرة والأجناب والعمل على فصل مشاته عن فرسانه، وقطع وصول المؤن والنجدات الأخرى من الخلف عن طريق نصب الكمائن.

وقد استغلت هذه النقطة استغلالاً جيداً ورائعاً في موقعة حطين. وكان لها تأثير كبير على سرعة تدمير الجيش الصليبي.

□ **القوى الرئيسية (القلب)**: وكانت تشكل أساس الجيش وقوته الضاربة. وكانت هذه القوى المؤلفة من المشاة الثقيلة والخفيفة والخيالة الثقيلة، أساساً، تحتاج لوقت للاستعداد

للدخول في المعركة، لذا فإنه يجب إنذارها مسبقاً، وهذا ما كانت تفعله الطليعة، التي تمهد لدخول القوى الرئيسية بشكل منتظم في المعركة.

وكان العرب يلجأون إلى أسلوب إركاب النبّالة الخفيفة المرافقة للخيالة الثقيلة على نفس الخيل، حتى تكون جاهزة، وبدون أي تأخير أو انفصال، لتغطية دخول الخيالة الثقيلة في المعركة. ويقول الجنرال «رازين»: «إن هذا النوع من المناورة لم يكن معروفاً إلا لدى العرب، الذين كانوا يتنقلون بأعداد كبيرة وبوسائط نقل محدودة. وضمن تشكيل القوى الرئيسية (القلب) كانت تسير **قافلة الإمداد والتموين**. وكان العرب يأخذون معهم من المؤن ما يكفي لقتال عدة أيام بالإضافة للتعيينات اليومية الموزعة على المقاتلين والمحفوظة في مزاودهم الشخصية.

وكان العرب يطلقون على قافلة الإمداد والتموين، في القرن العاشر، تعبير «**الثَّقَل**»، ذلك لأن القوات العربية كانت تتميز بخفة الحركة ما عدا هذا «الثَّقَل» الذي كان يؤخر ويعوق حركة القوات.

□ **معدات الحصار**: وهي ثقيلة ومعقدة، وكانت تسير خلف رتل القوى الرئيسية وتتضمن معدات المنجنيقات والعرّادات والسلالم والجسور اللازمة لاقتحام الخنادق الموجودة حول القلاع والحصون. ونظراً لثقلها فقد كانت تحملها الجمال وتُحمى من قبل القوى الرئيسية السائرة أمامها.

□ **مشافي الميدان**: وما يلزمها من العناصر الطبية والعقاقير كانت تحمل أيضاً على الجمال السريعة، جاهزة للانتشار وجمع المرضى والجرحى وتمريضهم وإسعافهم ومعالجتهم.

وعند توقف القوات للاستراحة، تلجأ إلى اتخاذ التدابير الاحترازية «وأما الاحتراز في المنزلة (التعسكر في المكان)، فإذا أخذ كل واحد من العسكر منزله كان عليهم أن يحتفروا خندقاً مستديراً على العسكر، ويجعل له بابان، أو أكثر من ذلك، إن كان العسكر كثيراً. ويقف الرماة والفرسان على أبواب الخندق على أتم أهبة. وكان أصحاب العساكر في الأزمنة السالفة إذا نزلوا منزلاً نثروا خارج الخندق «حسك الحديد» المعروفة الآن بالزقازيق، وهو حديد له شوكات كيفما وضع على الأرض قامت له شوكة منه ليكون كالسور على العسكر.

ثانياً:
الجيوش اللاتينية (الصليبية)

● **التجييش لدى الفرنجة**:

كان حكام الدويلات اللاتينية ينظمون جيوشهم، خلال القرن الثاني عشر، من:

ـــ الخدمة المفروضة على أصحاب الإقطاع من الطبقة العسكرية.

ـــ المستوطنين الفرنجة، كالتزام شعبي في حالات الطوارىء. وهنا يتعهد كل رجل حر بتأدية الخدمة العسكرية عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

وكانت القوات التي تعبأ بالأسلوبين المذكورين غير مضمونة القدرة القتالية لأسباب مختلفة. وتبين، بمرور الزمن، أنه من الأنسب تعزيزها، أو استبدال بعضها بجنود مرتزقة (مأجورين).

وقد استغلت مصادر التجنيد الثلاثة هذه في بلاد الشام بشكل كامل، فكانت القوات تتألف من:

ـــ القوات الإقطاعية.

ـــ قوات النفير العام (التعبئة العامة).

ـــ الجنود المرتزقة.

وقد أضيف إلى هذه القوى عنصر رابع أخذ من جماعات الحجيج المتطوعة، ومجموعات الأخويات الرهبانية الفرسانية العسكرية، التي كانت أهميتها تتزايد يوماً بعد يوم (الداوية والاسبتارية).

كان تعداد الجيش الصليبي، في العام ١١٨٣، في حدود الـ ١٥,٠٠٠ رجل (وليم الصوري، أبو شامة)، ومن المرجح أنه كان عدد المشاة في «حطين»، في العام ١١٨٧ يزيد عن عشرة آلاف رجل (بلدوين)[٣].

● **قوام وحجم جيش الفرنجة قبل معركة حطين**:

يذكر مرجع Historia rejne hierosulymitani أن حجم الجيش الفرنجي كان: ألف فارس من فرسان المملكة، فضلاً عن ألف ومئتي فارس أنفق عليهم الملك هنري الثاني، وأربعة آلاف

تركبولية، وثلاثين ألفاً وألفين من الرجالة، تولى هنري الثاني الإنفاق على سبعة آلاف رجل منهم.

أما كتاب حملة ريتشارد Itinerarium فإنه يقدر العدد على أنه عشرون ألفاً. أما Estoire d'Ezacles فأورد في مخطوطة عدد الجيش كله على أنه تسعة آلاف رجل، وفي مخطوطة أخرى أربعون ألف رجل.

على أن نسبة الرجالة إلى الفرسان لا تبلغ نسبة عشرة إلى واحد، والراجح أنهم لم يقلوا عن عشرة آلاف، وقد يبلغ عدد الخيالة الخفيفة (التركوبولية) أربعة آلاف رجل.

وعلى الأرجح فإن جيش صلاح الدين كان يزيد قليلاً عن جيش الفرنجة. وبذا يعتبر الحد الأقصى لجيش الصليبيين، خمسة عشر ألف رجل، والجيش العربي الإسلامي ثمانية عشر ألف رجل أمراً مقبولاً.

● **خصائص القوة العسكرية:**

تميزت القوات العسكرية الفرنجية بالصلابة والقسوة في الحرب، وفي معاملة المسلمين العرب، فقد كانت هذه القسوة توقع الرهبة في روع المواطنين. كان الصليبيون يعتبرون المسلمين كفاراً أعداء الله، ولذا فمن العمل الصالح إبادتهم. فقد كانوا يقتلون الأهالي والأسرى ولا يعدمون وسيلة لإيقاع الخسائر بالسكان المحليين، وكانوا يشنون الغزوات المفاجئة لجمع مزيد من الأموال والمحاصيل. وكانوا يدركون بأن التهاون مع الامارات العربية التي تحيط بهم معناه الضياع وفقدان الروح والأرض، ولذا حاولوا أن يكونوا كتلة واحدة للدفاع عن كيانهم الغريب في المنطقة.

وكان سلاح المقاتل الصليبي غنياً وقوياً وثقيلاً. فقد كانت الرماح تصنع من أقسى أنواع الخشب، وكانت الدروع تغطي كافة أنحاء جسم المقاتل، حتى وحصانه في كثير من الحالات، وكان الدرع الفرنجي قاسياً وطويلاً، يستطيع حامله أن يحمي به القسم الأكبر من جسمه، في حين كان الترس العربي عبارة عن مجنّ صغير.

ولكن ومع مرور الوقت برزت نقاط ضعف في القوة العسكرية الفرنجية أدت إلى نقص فاعلية الفرنجة في الحرب، منها:

— لم يكن لدى أي حاكم من حكام الفرنجة، في القرن الثاني عشر، جيش قوي قادر على تلبية احتياجات دويلته بكاملها.

— أصبح التعاضد بين أمراء الفرنجة مع مرور الوقت ضعيفاً. وهنالك عدد من المناسبات فشل فيها ملوك بيت المقدس في السيطرة على الأمراء الإقطاعيين (يشير لامونت إلى رفض الداويّة التعاون مع أملريك في غزوة مصر).

— ضعف في السيطرة على القوات أثناء الحرب، وكثرة الرؤوس والآراء، واستقلال بعض الأمراء بآرائهم في استخدام قواتهم.

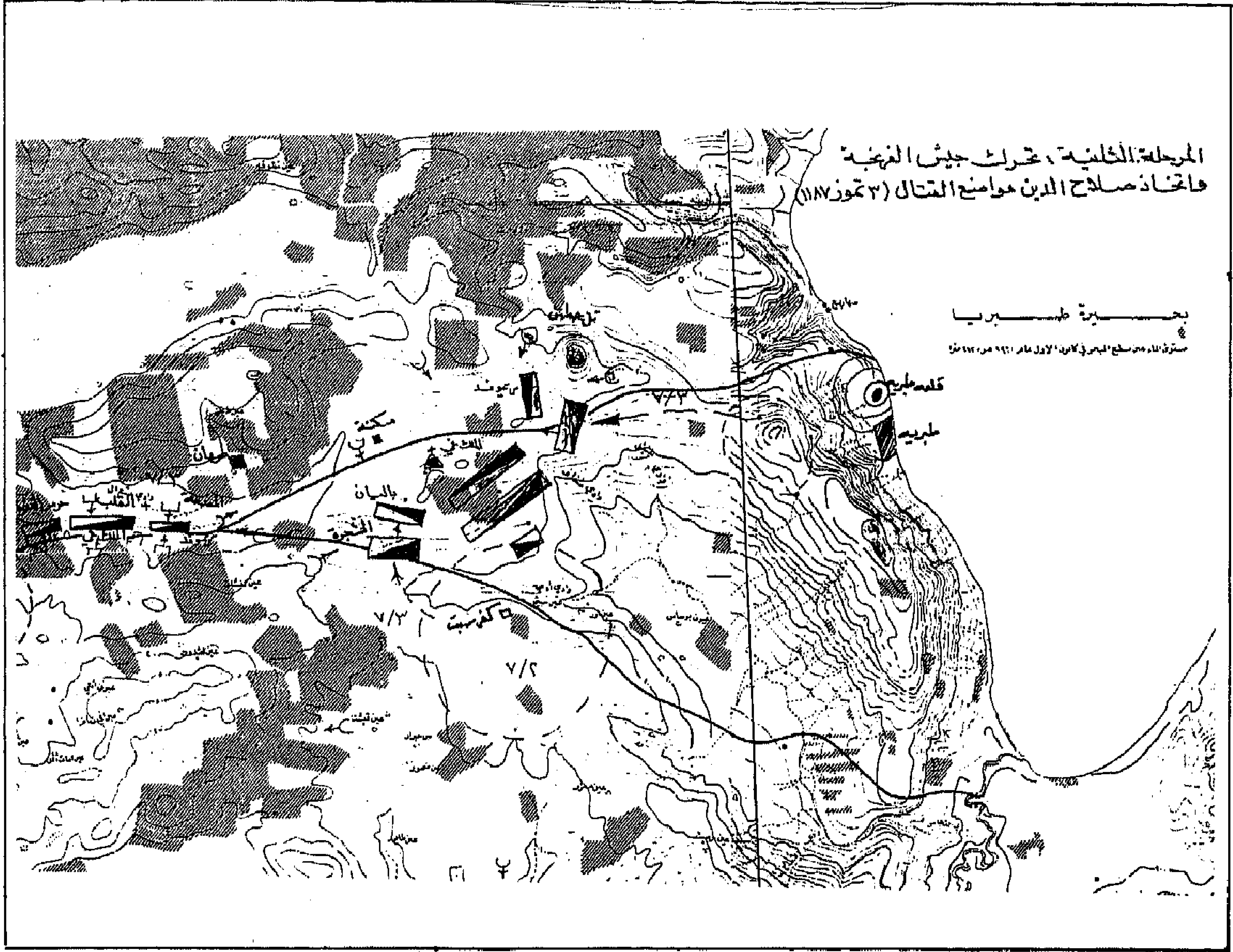
— عدم تعاون، وقلة ثقة واضحة بين الفرنجة والسكان، الأمر الذي كان يوجب الحذر دوماً من جانب الفرنجة.

— أن النجاحات الأولى التي حققها الفرنجة، أتت من محصلة التفرقة والضعف السياسي في بلاد العرب، وما إن أعيد توحيد بلاد الشام، واتحدت هذه مع مصر حتى أصبح الفرنجة في حاجة إلى قوة عسكرية متزايدة، حتى من أجل المحافظة على الكيان والأراضي التي استولى عليها أسلافهم.

وعندما أخذ العرب يستردون بالتدريج أراضيهم، ضعفت الموارد العسكرية الفرنجية، ومن ثم تقلصت جداً، ولم تعد تكفي للإنفاق على القوة العسكرية العادية، بل المتزايدة.

وهناك بعض حكام الفرنجة، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن تأمين تكاليف الحفاظ على مقاطعاتهم وقلاعهم وحصونهم فأجروا بعضها أو باعوها (تأجير دير جبل طابور لمدة ٢٥ سنة إلى الأخوين بطرس في العام ١١٦٣. بيع هيوابلين الثالث قلعتين إلى الداوية في العام ١١٥٨ ليفتدي نفسه. باع رالف أحد الفرسان من الداوية، ممتلكاته ليفتدي نفسه من الأسر. بيعت «قلعة المرقب» للاسبتارية في العام ١١٨٦، وهي من أكبر القلاع في بلاد الشام، بسبب «نفقاتها الباهظة، ووجود العدو في الجوار»... إلخ.

ومع اشتداد بأس خصمهم، واجه الفرنجة مأزقاً صعباً للمحافظة على وجودهم في سورية. فقد كان العرب يسعون إلى إضعاف الفرنجة، بتدمير اتصالاتهم الاجتماعية والتجارية،



وبتقليص موارد السلطة الفرنجية بتخريب المناطق الريفية ومصادر الدخل بشكل عام. وهذا أدى بدوره إلى إضعاف القدرة على التجنيد، وبالتالي إضعاف القدرة العسكرية الصليبية.

ومع ذلك فقد كان الجيش الصليبي جيشاً لا يستهان به، يدعم بشكل مستمر مالياً وبالعناصر من أوروبة الغربية، هذا الأمر الذي بث فيه روح الحياة قرنين من الزمن.

هذا هو الجيش الذي كان على صلاح الدين الأيوبي مقابلته وكسره في موقعة حاسمة.

● **خصائص تكتيك جيش الفرنجة:**

كان الفرنجة يدركون بوضوح مصلحتهم في تجنب المعركة مع العرب في غالب الأحيان:

١ ــ أولاً لتباين أساليب قتال كلا الطرفين. ذلك أن القوة الضاربة لجيش الفرنجة تتمثل في كتلة الخيالة الثقيلة المدرعة، التي تهاجم عادة بقوة وتماسك، وتضرب بشدة الكتلة الرئيسية لجيش الأعداء. ولكن الأسلوب العربي في الكر والفر، كان لا يترك للفرنجة الهدف الذي يستحق الضربة القاتلة للخيالة المدرعة، فتأتي الضربة في الخلاء.

ومن المعروف أن لهذه القوة الضاربة المتراصة ضربة واحدة، وبعدها إما أن يفنى الخصم وينهزم، وإما أن تتشتت هذه القوة، وعندئذ يُحتاج إلى وقت كبير لإعادة جمع الشتات لتنظيم ضربة جديدة.

لذا فإن الفرنجة كانوا لا يطلقون هذه الضربة إلا إذا وجدوا الهدف المناسب، الذي إذا دُمر أدى حتماً إلى هزيمة الجيش العربي. وكان العرب لا يتركون هذا المجال للفرنجة، وينالون تدريجياً من قوة العدو حتى تتفكك، وحين يبدأ التفكك في جيش العدو يكون ذلك بشيراً بالهزيمة للفرنجة والنصر للعرب. لذلك كان الفرنجة يتجنبون المعركة قدر الإمكان محافظة على قوتهم العسكرية.

٢ ــ ضعف السيطرة في الجيش الفرنجي،

المرحلة الثالثة - موقعة حطين (٤ تموز ١١٨٧)
(تحطيم جيش الفرنجة)

حيث كان الحكام والبارونات يشتركون أو لا يشتركون في بعض المعارك حسب مزاجهم، كما تختلف أعداد القوات التي يرسلونها إلى ميدان القتال حسب درجة قناعتهم بضرورة أو عدم ضرورة القتال.

٣ ـ لم يكن الخيالة المدرعة يهاجمون كتلة واحدة، وإنما كانوا ينقسمون إلى كراديس (سرايا) عدة. وقد ذكر بأن هذه الكراديس لم تكن تقل عن خمسة أو ستة. وأن تعدادها المتوسط كان يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ فارساً ويبدو من السجلات أن الكراديس كانت تنتظم بترتيب ثلاثي تقريباً يتألف من القلب والميمنة والميسرة. وكان تعداد الأنساق ضمن هذه التشكيلات قليلة العمق، ويكاد يطلق عليها تشكيلة النسق، الذي ليس فيه شيء من العمق.

ولم تكن قوة الفرنجة الراكبة تنطلق بكاملها إلى الهجوم في آن واحد، بل كانت فرق الجيش تهاجم بالتتابع.

٤ ـ أظهرت معارك صليبية بوضوح أهمية وجود قائد ميداني واحتياط تكتيكي لدى الفرنجة. وكان هذا قليل الحدوث، ففي أثناء الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة لم تكن هناك وحدة في القيادة. وكان النزاع السياسي يتسبب في انقسام القيادة العليا. كما أن الاحتياط كان أمراً قليل الوجود.

وكان على الفرنجة، مستفيدين من حوادث ومعارك سابقة، أن يغطوا كافة تراتيب قتالهم وتراتيب مسيرهم بالمشاة خوفاً من النبالة المسلمين. كما كان عليهم تجنب مطاردة المسلمين عندما كانوا يجدون بوادر النصر، خوفاً من التقهقر المخادع أو الانسحاب الكاذب نحو كمائن محضرة للعدو.

ثالثاً:
مقارنة وتناسب القوى العربية وقوى الفرنجة

يصعب إجراء حساب تناسب صحيح من حيث القوى المشتركة في موقعة حطين، وفق الأساليب الحديثة، لأن حجم قوى الطرفين المتنازعين لم يكن معروفاً بالدقة. ولكن يمكن القول بأن صلاح الدين كان يملك الجيش الأكبر والأكثر حيوية والأعلى معنويات من خصمه. وإذا كان صلاح الدين يملك الجيش الأكبر، فإن معظم الباحثين يقولون بأن القوى كانت متقاربة من حيث الحجم. ولكن أن يكون صلاح الدين قد ملك الجيش الأكثر حيوية والأعلى معنويات فهذا لا شك فيه، فإن حيوية جيش صلاح الدين واضحة من حركته السريعة من دمشق إلى رأس الماء، وتنفيذ إغارة في أيار ١١٨٧ على أعمال طبرية، ثم التحرك إلى بصرى ثم إلى الكرك والشوبك لينتظر وصول قافلة الحج ثم تخريب منطقة الكرك والشوبك، ومن ثم الاجتماع مع الجيش المصري في القريتين ومنها إلى عشترا يستعرض الجيش الكبير. ومنها إلى خسفين والأقحوانة ثم إلى طبرية وكفر سبت ومن ثم إلى حطين، أمر يثير الإعجاب بهذه القدرة الكبيرة والحيوية الرائعة. لقد كان هذا القائد الكبير يتحرك بكل حواسه نحو المجد الأكبر وهو إنهاء وجود الفرنجة في بلاد الشام.

رابعاً: وصف الأرض في ميدان القتال

اختار الفرنجة منطقة أحراش وينابيع الصفورية قاعدة أساسية لمقابلة جيش صلاح الدين. والصفورية منطقة تقع في منتصف الطريق بين عكا، على ساحل البحر، وبين طبرية (على ساحل البحيرة المسماة باسمها). فساحل البحر هو منطقة قدوم الإمدادات الصليبية وأبعد منطقة صليبية إلى الغرب، وطبرية هي أبعد منطقة إلى الشرق، حيث تدخل الأرض فيما يليها إلى الشرق تحت حكم العرب. وبالتالي تشكل طبرية حصناً لصد العدو القادم من الشرق.

فالصفورية، إذن، موقع استراتيجي متوسط وهام، يقع في منتصف منطقة الجليل ويؤمن إشرافاً وطرق مواصلات إلى كافة المناطق الشمالية المحتلة من قبل الفرنجة.

وبالإضافة إلى ذلك، فمروج الصفورية قاعدة ممتازة للتموين بالماء وبالأعلاف وبالأغذية ففيها عيون ماء كثيرة، ومراع خصبة، كما أن الدفاع فيها سهل لكون المتمركز فيها قادراً على الصمود لمدة طويلة تجاه عدو يطوقه ويقاتله. وهي لا تبعد أكثر من ٤ ــ ٥ كيلومترات عن الناصرة، و ٢٥ كيلومتراً عن مدينة طبرية.

فلا غرو أن يتخذها الصليبيون قاعدة للقتال ضد العرب والمسلمين، فقد جربوا ذلك ونجحوا في مرة سابقة أو أكثر.

أما مدينة طبرية، فقد كانت بلدة صغيرة، تقع على الشاطىء الغربي للبحيرة، مسورة وفيها قلعة. وماء البحيرة التي تقع على ساحلها صالح للشرب، منخفض عن سطح البحر بمقدار ٢١٠ إلى ٢١٢م. وترتفع الأرض من الشاطىء الغربي للبحيرة بشكل حاد إلى الغرب، حيث يتشكل فوق المدينة من الغرب جرف عال مواز للشاطىء ارتفاعه ١٨٠ متراً فوق سطح البحر، أي ما يعادل ٤٠٠ متراً عن مياه البحيرة.

وعلى مسافة ٧ ــ ٨ كيلومترات إلى الغرب من شاطىء بحيرة طبريا يوجد تل ذو نتوءين، ارتفاعه ٣٢٦ متراً عن سطح البحر، يطلق عليه منذ القديم مرتفع قرني حطين. وهو مكان يستخدم لإقامة الطقوس المقدسة للنبي شعيب، حيث يقع قبره بقربه. وترتفع الأرض تدريجياً حتى تصل إلى قمة جبل طرعان ٥٢٨م.

وقد وصف رحالة من المحدثين الأرض الواقعة قرب قرني حطين كما يلي: «... كما رأيت على هذا الجانب (الجنوب) أن التل عبارة عن عقبة منخفضة ارتفاعها ١٠ ــ ١٥ متراً، وطولها ليس أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب، وينبعث في نهايتها الشرقية كتلة (قرن) تصل إلى ارتفاع ٢٠ متراً فوق السهل، وعلى النهاية الغربية قرن آخر ليس بنفس الارتفاع».

ولا يمكن بدقة معرفة الطريق الذي اتبعه الفرنجة من الصفورية إلى حطين، وخاصة بعد شق الطرق الحديثة، ولكن لا بد وأن يكون المسار غير بعيد عن الطريق الحديث. وتبدو على الخرائط الحديثة أن المنطقة التي سار فيها

الفرنجة منطقة جافة المياه، أو على الأقل ليس فيها ينابيع كبيرة قادرة على إرواء جيش كبير مع رواحله.

خامساً: تحضيرات ما قبل الموقعة

استعرض صلاح الدين القوات العربية الإسلامية في ١٥ ربيع الثاني ٥٨٣ (١١٨٧/٦/٢٤) من تل تسيل، وهو مرتفع يعرف اليوم باسم «تل الجموع»، ويقع على مسافة ٤ كم شمال شرق قرية تسيل في حوران. ومنه سار إلى عشترا. ومن عشترا انطلق يوم الجمعة ٦/٢٦ إلى خسفين ومنها إلى الأقحوانة جنوبي طبرية، حيث مكث خمسة أيام يراقب أعمال العدو.

في هذا الوقت كانت قوات الصليبيين قد تجمعت في الصفورية، بعد عقد مؤتمر عسكري (مجلس حرب) في عكا تقرر فيه الاستعداد للوقوف في وجه نوايا صلاح الدين.

وكان صلاح الدين ينتظر تحرك القوى الصليبية من الصفورية باتجاه قواته، وعندئذ سيناوش القوى الصليبية أثناء مرورها في منطقة حطين العطشى، وهي منطقة حددت في كتاب غروسيه في حدود: طرعان، الشجرة، لوبية، مسكنة، خان مدين، حطين.

وعندما وجد صلاح الدين أن العدو لا يتحرك من الصفورية، قسم قواته إلى نصفين أرسل نصفها إلى منطقة كفر سبت، التي تقع إلى الجنوب من قرني حطين بمقدار ٦ ــ ٧ كيلومترات حيث بقي الماء لديه، وهذا الموقع يقع على الطريق الذي يحتمل أن تسلكه القوات الصليبية عند تحركها نحو طبرية. وبث مفارز استطلاعه الراكبة على الخيل على طول الطريق المحتمل من الصفورية حتى حطين ليبلغوه خبر تحرك قوى الفرنجة.

وأرسل صلاح الدين نصف قواته الثاني إلى الهضبة التي تعلو طبرية بحيث تمكنت من إغلاق الطريق إلى المدينة من الصفورية وأخذ ينتظر. وعندما لم تبد من الصفورية بادرة تحرك، أخذ مجموعة من قواته وهاجم مدينة طبرية فاحتلها في ساعة وضرب طوقا حول قلعتها، التي تقيم فيها الأميرة ايشيفا «Echeve» زوجة كونت طرابلس ريموند الثالث، وباشر في ثقب سور القلعة.

لم تكن القلعة نفسها هدفه العسكري، بل كان الجيش الصليبي الموجود في الصفورية وكانت بادرة تحرش صلاح الدين بطبرية عملاً يقصد به تحريك الجيش الفرنجي ليمر في المنطقة العطشى ويدمره فيها.

وبطريقة ما وصلت استغاثة أميرة طبرية إلى الملك غي في الصفورية، حيث عقد مجلس الحرب ثانية.

اضطرب الوضع في قيادة جيش الفرنجة الضخم للمرة الثانية، حول كيفية ملاقاة جيش صلاح الدين: هل يبقى الجيش في وضع دفاعي في الصفورية، كما فعل مرة أو مرات قبل ذلك فاضطر صلاح الدين للعودة، أو يتحرك الجيش لإنقاذ طبرية.

وكما هو معروف، كان ريموند الثالث حاكم طبرية إلى جانب الرأي الأول، وكان ارناط (رينو شاتيون) وجيرار ريدخور إلى جانب الرأي الثاني. وبعد نقاش طويل، لا يهمنا سوى من الناحية العسكرية، اتخذ القرار بالبقاء في الصفورية وحسم الأمور مع صلاح الدين بمعركة دفاعية تنهك فيها القوات العربية الإسلامية، بعد أن تلاقي الأمرين في المنطقة العطشى.

غير أن القرار تبدل ليلاً (ليلة ١ ــ ٢ تموز ١١٨٧)، بتأثير قائد الداوية. وتحركت القوات الصليبية نحو الشرق باتجاه طبرية.

وعندما بلغ صلاح الدين ذلك سر أشد السرور فهذا ما كان يبغيه، فترك طبرية وعليها جماعة تتابع الحصار وانتقل إلى القلب (القوى الرئيسية) ليقود المعركة.

بمجرد مغادرة الفرنجة للصفورية متجهين نحو طبرية صباح ٣ تموز ١١٨٧، بدأت توقعات ريموند تظهر صحتها. فمع حركة جيش الفرنجة البطيئة، أخذت مفارز الاستطلاع والمناوشة من الخيالة الخفيفة العربية تناوشه من الجوانب والخلف بالنشاب، والفرنجة لا يستطيعون خروجاً خارج أرتالهم ذات البنية الصلبة

القاسية، ويتحملون الخسائر المتزايدة في الخيل والأرواح واستمر الزحف طيلة فترة ما قبل الظهر بينما كان الحر يزداد وتتزايد معه شدة العطش.

كان رتل جيش الفرنجة، المنطلق من الصفورية، قد بني من ثلاثة أقسام: المقدمة، وعلى رأسها ريموند (لكون الهدف هو طبرية وفيها زوجته)، والقلب، وعلى رأسه الملك غي مع رجاله وصليب الصلبوت الذي حمله أساقفة عكا. والمؤخرة التي كان يقودها جيرار وبالين، صاحب إبلين، مع الداوية وجزء من الاسبتارية.

وهنا يستدعي الانتباه وجود أفضل فرسان الفرنجة (الداوية والاستبارية) في المؤخرة. وهذا يفسر بخبرة الفرنجة في حرب العرب، حيث أصبحوا يعرفون جيداً أن الخيالة الخفيفة العربية تبدأ القتال من خلف القوات المعادية.

حوالي الظهيرة وصلت قوات الفرنجة إلى منطقة «لوبية»، (وهي قرية تقع في المنتصف بين الصفورية وطبرية)، ونتيجة لإنهاك مؤخرة الرتل توقف جيش الفرنجة للاستراحة بدلاً من الاندفاع نحو منابع المياه. ويرى كثير من المؤرخين أن هذا هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه الصليبيون.

باتت قوات الفرنجة طيلة الليل تعاني من الإرهاق والعطش وحاولت بعض المفارز من العدو خرق بعض الخطوط أو التحرك يمنة أو يسرة في سبيل التفتيش عن الماء، ولكن كانت تجد قوات صلاح الدين في كل مكان.

وكيما يزيد المسلمون في عناء الفرنجة ومتاعبهم، أشعلوا النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل، فغشي معسكر الفرنجة الدخان الساخن.

وخلال الليل سهر جيش صلاح الدين يستعد لمعركة اليوم القادم، فاستكملوا الأسلحة، ووزع النشاب، والأغذية، وحرك صلاح الدين رجاله لإكمال الطوق حول العدو، وقضى الجنود يكبرون ويوحدون بتهاليل جماعية منعت العدو من النوم وألقت في قلوبهم الرعب والفزع.

واستيقظ الجيش الفرنجي صباح يوم السبت ٤ تموز ١١٨٧، وهو اليوم الحاسم ليجد أن قواته مطوقة بالقوات العربية تطويقاً كاملاً.

كان وضع جيش صلاح الدين مريحاً للغاية. فقواته مستريحة، لديها الغذاء والماء، الذي كان ينقل باستمرار للقوات من بحيرة طبرية.

وفي صباح السبت ٤ تموز كان الفريقان قد تأهبا للصراع النهائي.

الموقعة

عندما انبلج ضوء الصباح أمر صلاح الدين ببدء الهجوم. فحاولت جماعة من جيش الفرنجة خرق الطوق بأي ثمن للوصول إلى الماء، عبر المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبرية، غير أنه جرى ردهم إلى الخلف. وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق وطوقهم المسلمون من كل جانب، فلقي عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

أما الفرسان، الذين اتخذوا أماكنهم على التل، فإنهم استماتوا في القتال، في شجاعة نادرة، يحمون الملك والصليب، وقد ردوا كثيراً من حملات المسلمين. غير أن أعدادهم كانت تتناقص، وبدأت قواهم بالانهيار، بعد أن أضعفها الظمأ الشديد.

وقبل فوات الأوان، قاد ريموند فرسانه، بمحاولة لاقتحام خطوط المسلمين، فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين، ابن أخي صلاح الدين. فأفسح له تقي الدين الصفوف حتى إذا نفذ ريموند منها بفرسانه، سد تقي الدين هذه الثغرة، فلم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم، أو أنه حاول الفرار مع جماعته، فركبوا من ساحة القتال، وقد استبد بهم اليأس، واتخذوا طريقهم إلى طرابلس. ولم يلبث «باليان إبلين»، ورينالد سيد صيدا، أن شقا لهما، بعد فترة قصيرة، طريقاً إلى خارج أرض المعركة، فكانا آخر من استطاع الهرب.

لم يعد عند الصليبيين أية بارقة أمل، ومع ذلك ولظروف الحصار، وعدم القدرة على الانسحاب، ظلوا يقاتلون، وهم ينسحبون إلى قمة التل، المعروف بقرني حطين. وتقرر نقل خيمة الملك الحمراء ونصبها في أعلى القمة، والتف حوله الفرسان.

وهنا يشهد الملك الأفضل ابن صلاح الدين الذي كان يقف إلى جانب والده بأن الفرنجة حملوا حملتين جريئتين ضد القوة التي يقف السلطان صلاح الدين إلى جانبها، وأن والده أفهمه أن الفرنجة لن يهزموا حتى تسقط خيمة الملك الموجودة في أعلى التل.

وهنا هوت خيمة الملك، عندئذ ترجل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله تعالى.

الدروس التكتيكية المستفادة

برز جيش صلاح الدين في موقعة حطين بفضل اتباع أساليب قتال تفوقت على الأساليب المستخدمة من قبل جيش الفرنجة، وأهم الدروس المستفادة من ذلك:

ـ نظم صلاح الدين «الاستطلاع» لكشف تحركات جيش الفرنجة بشكل يدعو للدهشة. فقد كانت المعلومات تصل إليه في حينه منذ أن كان في الأقحوانة والجيش الصليبي في الصفورية. والاستطلاع عين وأذن القائد وبدونهما لا يمكن للقائد أن يقود المعركة بشكل ناجح.

ـ أن استخدام أسلوب الرمي بالنشاب على رتل العدو المتحرك بطريقة (الكر والفر)، أسلوب يعتبر في غاية التقدم العلمي العسكري. فلم يكن هناك حل لمواجهة تراص وانضباط جيش الفرنجة سوى هذا الأسلوب الرائع. وقد نجح فيه صلاح الدين أيما نجاح. فأرهق جنود العدو منذ بدأوا بالخروج من الصفورية، ولم يصل الجيش الفرنجي إلى منطقة لوبية حتى كان الجيش مرهقاً مثخناً بالجراح تنادي مؤخرته قبل مقدمته للتوقف واسترداد الأنفاس، وكان في ذلك هلاكهم.

ثم إن عمل رماة النشاب (المشاة الخفيفة والخيالة الخفيفة) من جيش صلاح الدين هو الذي أدى إلى فصل مشاة العدو عن خيالته. ومتى فصل هذان السلاحان عن بعضهما البعض وقعت الهزيمة الحتمية بالجيش الفرنجي.

ـ لم يكن الفرنجة في معركة حطين مسيطرين في أي لحظة من لحظات المسير والمعركة، بل كان جيش صلاح الدين هو المسيطر، وهو صاحب المبادرة، وهو الذي كان يستطيع أن يفعل ما يريد. لذلك كان الفرنجة شبه محطمين منذ خروجهم من الصفورية.

ـ أظهرت قوات الفرنجة ضعفها الواضح في المناورة. فلم تقم قوات الفرنجة بأية بادرة إيجابية في المعركة تطلبت من صلاح الدين تبديلاً في تخطيط أعماله القتالية. بل كان جيش الفرنجة عبارة عن كتلة متراصة تسير بغباء من الصفورية، وعيونها مغلقة (بدون استطلاع) تتحرك باتجاه طبرية. وكان كل همها درء هجمات العرب والمسلمين والوصول إلى الماء وإلى أميرة طبرية.

ـ في مقابل ضعف الفرنجة في المناورة، تبرز قوة مناورة الجيش العربي. فإن مناورة الكر والفر، ومناورات الالتفاف التي نفذتها الميمنة والميسرة، وتطويق القوات الصليبية كلها مناورات قاتلة للفرنجة.

ـ أن استخدام إشعال النيران بالأعشاب الجافة، إضافة للتعطيش وتجويع الخيل، عمل أدى إلى زيادة مصائب جنود الفرنجة وإلى تمزق صفوفهم.

ـ كانت خفة وسرعة حركة المقاتل العربي يقابلها ثقل وبطء في حركة المقاتل الفرنجي. ففي الوقت الذي كان جندي الفرنجة (من المشاة أو الخيالة) غير قادر على ترك الصفوف المتراصة، كان الخيال العربي قادراً على المناورة والجولان يقتنص الأعداء، ويستطيع ضرب النشاب أثناء الحركة السريعة، بما في ذلك ضرب النشاب إلى الخلف.

استنتاجات عسكرية استراتيجية من الصراع في حطين

يمكن أن نستخلص من كل ما ذكرناه عن القتال في حطين ما يلي:

ـ أن اختيار الصفورية مكاناً لتحشد القوات الفرنجية كان عملاً ناجحاً. فالصفورية منطقة مروج تؤمن المياه للشرب والمراعي الجيدة لرعي الرواحل. كما أن مكانها ملائم لوجودها في منطقة تقاطع طرق هامة. حيث يمكن الوصول منها بسهولة إلى أية نقطة في الجليل، ومنها يمكن أيضاً رصد وملاحقة حركات صلاح الدين.

ـ أن الجيش الصليبي، الذي اشترك في حطين، كان تجميعاً لقوى مملكة القدس ومن

الدويلات الفرنجية اللاتينية. وهي قوى قادرة على الدفاع في القلاع والحصون والمدن أكثر منها قوى صالحة للعمل في الميدان. لذا فإن سلوكها في القتال في حطين اتسم بالطابع السلبي، بالرغم من الشجاعة والجرأة التي ظهرت من قبل مجموعات صغيرة أو أفراد.

ـ أن تحرك العدو من منطقة مروج الصفورية الاستراتيجية كان خطأ استراتيجياً كبيراً أفقد العدو الماء والعلف، وجعل الجيش يتشتت.

ـ أن توقف الجيش الفرنجي في منطقة لوبية وحطين الجافتين في طقس حار، وبدون احتياط من الماء والأغذية، خطأ استراتيجي هام آخر.

ـ أن استخدام صلاح الدين لطُعْم طبرية، من أجل تحريك الفرنجة من الصفورية، كان حنكة عسكرية قيادية كبيرة، وعلى المستوى الاستراتيجي.

ـ أن قطع طرق الوصول إلى الماء في طبرية، ومهاجمة جيش الفرنجة من الخلف والجوانب، جعل العدو مطوقاً غير قادر على الحركة، الأمر الذي عجل بانهياره واستسلامه.

ـ أن فتح تقي الدين ثغرة لمرور قوة ريموند، وجعلها تفر من صفوف الجيش الصليبي، أوقع الرعب في قلوب بقية قادة الفرنج وجنودهم، الأمر الذي جعل معنوياتهم تنهار، ويصبحون جاهزين نفسياً للاستسلام.

ـ أن عدم امتلاك جيش الفرنجة لاحتياط يزجه في المعركة لتنفيذ مهمة إنقاذ معينة، خطأ استراتيجي ثالث. فالقائد الذي لا يملك احتياطاً يعتبر قائداً فاشلاً.

ـ للمعنويات أهمية كبرى في القتال، وخاصة عندما كان القتال ينفذ جسماً لجسم. لذا فإن إفزاع العدو وتخويفه عامل فعال في تخفيض مستوى الفعالية القتالية للفرد المقاتل. فعدا عاملي العطش والحر، فإن التهاليل الليلية، التي كان يطلقها جنود صلاح الدين جماعياً «الله أكبر.. لا إله إلا الله» كانت عملاً مفزعاً لجنود العدو بشهادة الكتاب من المؤرخين اللاتين.

ـ ظهر في موقعة حطين أن أسلوب القتال العربي المستخدم في تدمير جيش الفرنجة كان مناسباً للغاية. فقد استغل صلاح الدين كافة نقاط القوة في جيشه، وكافة الأخطاء التي وقع فيها جيش العدو.

ـ ظهرت بوضوح أهمية وحدة القائد في القتال. كان صلاح الدين قائداً وحيداً للجيش العربي، ولم يكن غي القائد الوحيد لجيش الفرنجة، لذلك عمل كل بارون بما يراه مناسباً لنفسه قبل أن يكون مناسباً للصالح العام.

ـ أن تدمير جيش الفرنجة في حطين أدى إلى زعزعة البنيان الفرنجي بأجمعه في بلاد الشام، فبتدمير قوة الفرنجة أصبح كل شيء مفتوحاً أمام الاستعادة العربية للأراضي.

ـ أعاد النصر في حطين للعرب مفاهيم كانوا قد نسوها أو ابتعدوا عنها في حينه:

ـ الوحدة تؤدي إلى القوة.

ـ القوة تؤدي إلى النصر.

ـ النصر يحرر الأرض ويعيد الكرامة.

●

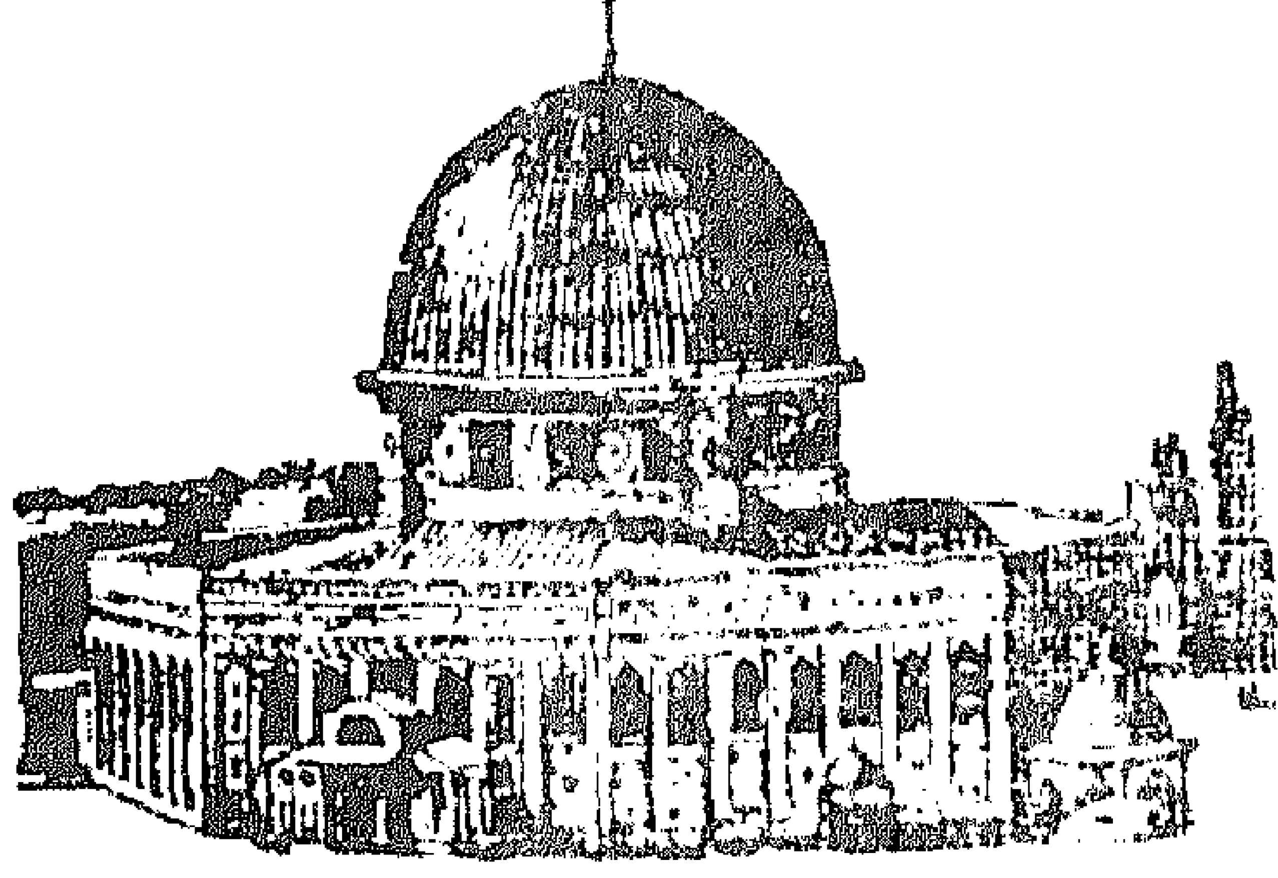
الهوامش

(١) أبو شامة ٢:٨ «كان والي دمشق، محكم في جميع قبائل العرب وعشائرهم... وهو يتولاهم ويجريهم على معتادهم في رسمهم ومعيشتهم وعدادهم».

(٢) من كتاب فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، تأليف سميل، وترجمة العميد جلاد، وإصدار مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢.

(٣) من كتاب فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (ر. سي. سميل)، إصدار مركز الدراسات العسكرية.

● ●



أ.د. الحبيب الجنحاني

حطين
رمز الوحدة والتحرير

هل المطلوب إحياءً لهذه المناسبة التاريخية الكبرى في حياة الأمة العربية الإسلامية أن ندقق أحداث التاريخ، ونفصّلها، ونغوص في كتب الحوليات والسير لنسرد جزئياتها وملابساتها في أسلوب علمي رصين، وبمنهجية أكاديمية صرفة؟.

إنني لا أعتقد ذلك، ولا أؤمن بجدوى هذا المنهج، بالرغم من أنه عمل مفيد ــ دون ريب ــ بل قل إنه ضروري، خصوصاً أن جوانب مختلفة من الموضوع ما تزال حرية بالبحث والتمحيص، ولكن ذلك له إطاره الخاص، ومقامه المتميز.

المطلوب ــ إذن ــ إحياء بعض القيم الثابتة إلى الأذهان ربطاً بين الماضي والحاضر، وهو عمل لا يمس ــ في نظرنا ــ من قيمة الحقيقة العلمية، ولا يتناقض أبداً مع البحث التاريخي الموضوعي، بل إن اتباع مثل هذا الأسلوب ــ وأقدِّم من خلال هذه المناسبة التاريخية نموذجاً منه ــ يستلزم معرفة الواقع التاريخي معرفة موضوعية دقيقة.

تقدم لنا ذكرى هذا الحدث التاريخي الكبير موضوعاً جيداً من الموضوعات التي نؤمن فيها بضرورة توظيف التراث العربي الإسلامي في معركة الحاضر والمستقبل. إن المجال هنا لا يسمح بالإسهاب في قضية توظيف التراث، إنني ممن يذهبون هذا المذهب، مؤمناً بضرورة توظيف التراث في المرحلة التاريخية التي تمر بها اليوم المجتمعات النامية، وفي طليعتها المجتمعات العربية الإسلامية. إن قضايا مثل تحرير الأرض والقضاء على مظاهر التبعية، ودعم الهوية القومية والحضارية يمكنها أن تفيد كثيراً من منهج توظيف التراث إذا استعمل بأسلوب دقيق وذكي، ولم ينقلب إلى خطب حماسية، وشعارات جوفاء مخدرة.

أولاً
وضع المجتمع العربي الإسلامي قبيل الغزو الفرنجي



إن قوة المجتمع العربي الإسلامي خلال عصور الازدهار لم تكن قوة سياسية عسكرية فحسب، بل كانت أولاً وقبل كل شيء قوة اقتصادية حضارية، فقد أصبح يمثل قلب الدورة الاقتصادية العالمية عصرئذ، مستقطباً النشاط الاقتصادي الدولي بحكم موقعه الاستراتيجي من جهة، وبفضل تلك الوحدة العمرانية، وبصفة أخص الوحدة الاقتصادية التي أضحى يمثلها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، فشبكة المسالك التجارية لهذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية تمتد من الجنوب الشرقي من سواحل أفريقيا الشرقية إلى الصين، وبلاد الترك والأورال، ومنطقة بحر قزوين، وتمتد من المغرب إلى المشرق من شواطىء المحيط الأطلسي إلى بغداد وكابول، ومنهما إلى منطقة المحيط الهندي.

وبالرغم من بداية الانقسام السياسي، وبروز مراكز ثلاثة للخلافة الإسلامية ابتداءً من القرن الرابع فإن الوحدة العمرانية الاقتصادية قد بوّأت المجتمع العربي الإسلامي ليؤدي دوراً حضارياً عالمياً، قادراً على مجابهة التحديات مشرقاً ومغرباً، فارضاً احترام حدود السيادة العربية الإسلامية براً وبحراً، فقد كانت القوة الاقتصادية تمثل الأس المتين للتفوق السياسي العسكري، والصمود طوال قرون أمام جبهتين أساسيتين: الجبهة البيزنطية في المشرق، وجبهة حركة الاسترداد في شمال الاندلس، ومع منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بدأ الخط البياني للتطور العمراني الاقتصادي يميل إلى الانحدار ليبلغ أوجه مع بداية عصور الركود والانحطاط(1).

وتزامن هذا الانحدار مع تفاقم ضعف السلطة المركزية سواء كان ذلك في بغداد، أو القاهرة، أو قرطبة، وبداية عصر التجزئة السياسية، وظهور الدويلات والإمارات المحلية، وما عصر ملوك الطوائف في الأندلس إلا نموذجاً لظاهرة تاريخية أوسع وأشمل.

وهكذا أصبحت السيادة العربية الإسلامية في حالة انحسار ودفاع بعد أن كانت في حالة تفوق ومبادرة، وبرز ذلك بوضوح أيضاً في مجال السياسة البحرية، فقد ضعفت القوة البحرية الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت سواحل الأرض العربية هدفاً للغارات والاحتلال.

وتبرز في هذا الوضع المتردي سياسياً وعسكرياً وحضارياً قوى جديدة على مسرح الأحداث سيكون لها شأن خطير في تاريخ العالم العربي الإسلامي، وستنجح في مرحلة تاريخية معينة في الدفاع عن الأرض العربية المهددة، ويكاد ينحصر هذا النجاح في الساحة العسكرية، أما عوامل دبيب الهرم في المجتمع العربي الإسلامي، فقد استمر تأثيرها دافعةً للخط البياني المذكور نحو الانحدار، ولكن بدرجات متفاوتة في السرعة من منطقة جغرافية إلى أخرى.

ونعني أساساً بالقوى الجديدة قوة السلاجقة في المشرق، وقوة المرابطين في المغرب، فقد سيطر السلاجقة خلال فترة زمنية وجيزة على منطقة شاسعة تمتد من الحدود الغربية لبلاد الأفغان حتى البحر الأبيض المتوسط فتغلبوا على البيزنطيين، وواجهوا الخطر الصليبي.

وسيطر المرابطون في مدة زمنية لا تتجاوز ثلاثة عقود على منطقة تمتد من حوض نهر النيجر جنوباً إلى ضفاف الوادي الكبير في الأندلس شمالاً.

جاء السلاجقة ليضعوا حداً للتدهور السياسي والعسكري، ويوحدوا الجزء الأكبر من المشرق العربي الإسلامي، وزحفت قبائل المرابطين نحو الشمال لتقضي على التجزئة في الأندلس، وفي منطقة حساسة في المغرب العربي، وتوحد بالتالي بين بلاد العدوتين، قوتان جديدتان تصمدان أمام محاولات الغزو انطلاقاً من جبهتين قديمتين: الجبهة البيزنطية شرقاً، والأندلسية غرباً.

وأود التلميح هنا إلى أن القوتين تمثلان قبائل ريفية جاءت لتنقذ المجتمع الحضري، وتحمي المدن من الاحتلال، وتندرج هذه الظاهرة ضمن

إشكالية ذات أبعاد متنوعة في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي الوسيطي، ألا وهي ظاهرة العلاقة بين المدينة والريف، وتكتسب هذه الظاهرة معنى متميزاً حين نحلل المذهبية الجديدة التي اعتنقتها تلك القوى الريفية، ومدى تأثيرها في تطور الحضارة العربية الإسلامية.

إنه من المعروف أن السلاجقة قد مهدوا للمرحلة الزنكية الأيوبية في المشرق، ومهّد المرابطون للمرحلة الموحدية في المغرب والأندلس[٢].

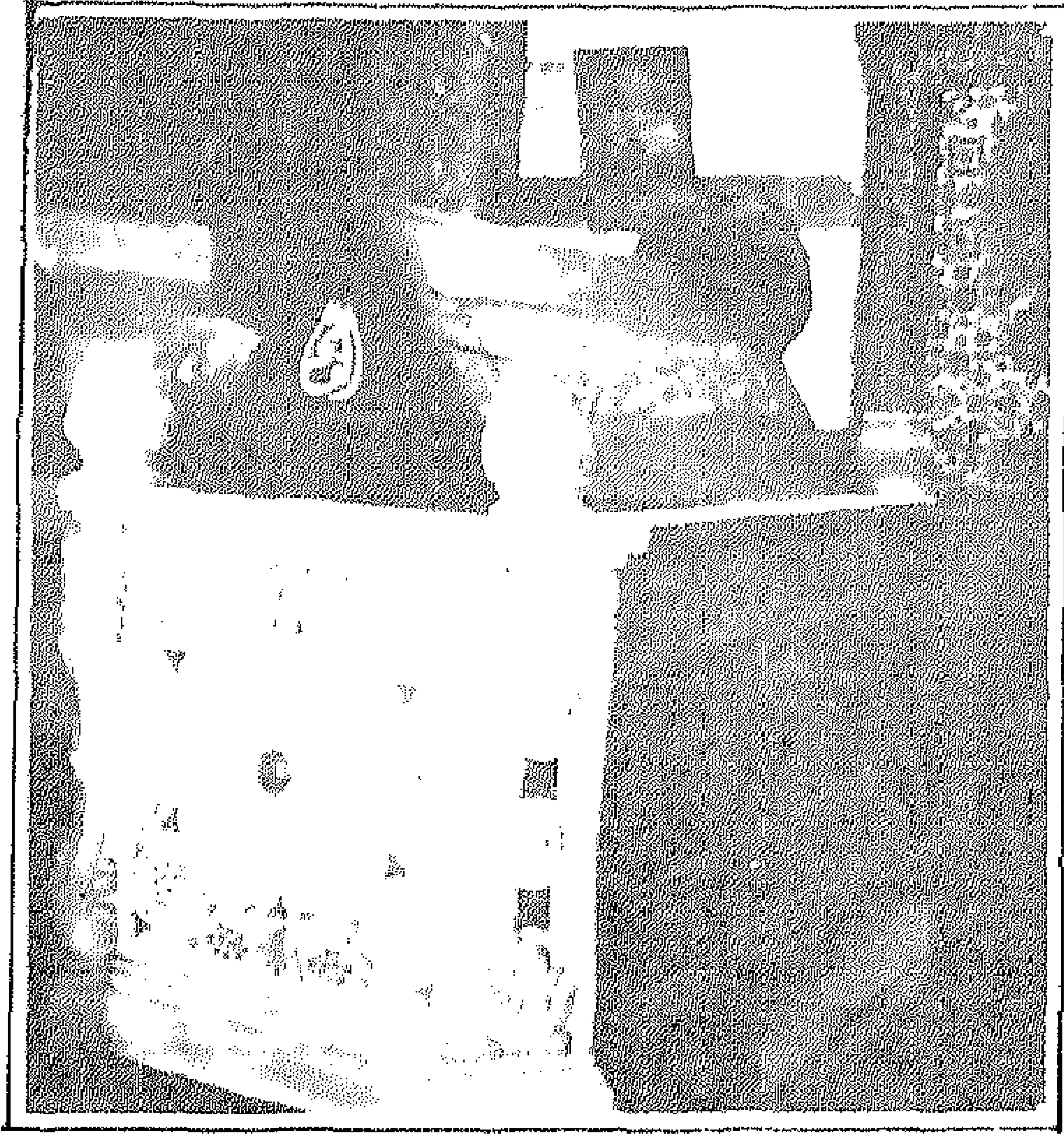
ثانياً: المذهبية المتشددة ومقاومة التجزئة والاحتلال

القوى الجديدة التي برزت على مسرح الأحداث السياسية العسكرية مع منتصف القرن الخامس، أي قوى القبائل الريفية التي كانت دعامة النظامين: السلجوقي والمرابطي، قد التحمت بمذهبية متشددة هي السنية النصية التي يمثلها الأشاعرة مشرقاً، والدعوة المرابطية المتبنّية لمبادئهم، وإن عرفت بأنها دعوة دينية مستقلة تزعمها مؤسس المذهب والدولة عبدالله بن ياسين الجزولي.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا التحول الجذري في المجال الفكري والمذهبي قد جاء نتيجة طبيعية لبروز معالم التدهور العمراني والاقتصادي من جهة، ومهّد لظاهرة نفوذ فئات فقهاء السنّة، وأهل الصلاح، والصوفية ابتداء من القرن الخامس الهجري من جهة أخرى.

وألاحظ هنا أن ذاك التحول يندرج ضمن ظاهرة عامة عرفها كثير من المجتمعات في فترات مختلفة من تاريخها. إن محاولة قوى جديدة الصمود أمام خطر أجنبي تتم عادة على حساب التسامح والتنوع.

إن السنية النصية الجديدة قد ساعدت على تنشئة جيل جديد في ظل الحكم السلجوقي والمرابطي يتصف بالصلابة الدينية والأخلاقية أسهمت إلى حد كبير في التغلب على الصليبيين.



□ قبر صلاح الدين.

ثالثاً: طبيعة الغزو الفرنجي

(أ) طغيان صبغة التعصب الديني، والأخذ بثأر ماض سحيق[٣].

(ب) غزو استيطاني توسعي، فليس من الإسقاط، أو الغلو في شيء المقارنة التاريخية بين الاحتلال الفرنجي الصليبي، والاحتلال الصهيوني للأرض العربية.

(ج) إنه غزو جاء طامساً لحضارات شرقية عريقة عرفتها بلاد الشام، وتعايش معها العرب أولاً، ثم العرب المسلمون تأثّراً وتأثيراً ليؤسس حضارة غازية مهيمنة هي حضارة «الشرق اللاتيني»، وهو الشرق الذي حاول الاستعمار الغربي الحديث أن يبعث تراثه، فقد عُدّ الغزو الفرنجي في العصر الوسيط تمهيداً للتأثير الفرنسي الحديث في المشرق العربي.

(د) إن التراث العربي الإسلامي جزء لا يتجزأ من التراث الثري والمتنوع لحضارات الشرق القديم في منطقة بلاد الرافدين، وبلاد الشام، فقد أفاد منه، وطوّره، وصهره في تراث مناطق حضارية أخرى عريقة مثل المناطق الأفريقية، أما مفهوم «الشرق اللاتيني»، فقد تجاهل تراث الشعوب السابقة، تراث السكان الأصليين، بل حاول طمسه وتشويهه، شأنه في

ذلك شأن فرض اليوم «التراث الصهيوني النقي»، وتندرج اليوم ضمن مخطط فرض تراث القوة الغازية محاولات تغيير الطابع التاريخي والحضاري والديني لمدينة القدس على الصعيدين المادي والروحي.

(هـ) لعله من نافلة القول التذكير هنا بتلك الهوة السحيقة التي فصلت بين الممالك الصليبية التي أسست في بلاد الشام، وبين المسيحيين الشرقيين على اختلاف مذاهبهم، فلم تخلط القيادة العربية الإسلامية يوماً ما بينهم، وبين الفرنجة الصليبيين[٤]، بل اعتبر كثير من مسيحي الشرق أنفسهم الممثلين الحقيقيين للتراث المسيحي، وهو تراث لا تعرف روح الحقد، والتعصب إليه سبيلاً، وانكشف أمر الفرنجة الغزاة بدفاعهم عن فكرة «الشرق اللاتيني»، بأن المعطيات الرومانية اللاتينية هي التي تعنيهم أولاً وبالذات في المسيحية، وليست المسيحية في أصالتها ونقاوتها.

وقد يتساءل البعض قائلاً: كيف يمكن الحديث عن التعايش وعدم الخلط، وقد اصطبغت مقاومة الفرنج بصبغة الجهاد؟

إنه جهاد تحريري لحماية الحدود، والذود عن الأرض.

رابعاً:
الجهاد التحريري

إن مفهوم الجهاد بمعنى نشر الدعوة الجديدة، وبالتالي مدّ رقعة الدولة الإسلامية قد توقف منذ القرون الإسلامية الأولى، وأصبح الجهاد بعد الغزو الفرنجي يحمل معنى تحرير الأرض من الاحتلال الأجنبي، وهو المفهوم الذي تواصل منذ ذلك العهد إلى عصر ثورات التحرر الوطني، ويكفي أن نذكّر هنا بمقاومة الشعب الليبي للغزو الفاشي الإيطالي، وبالانتفاضة الشعبية في بلاد الريف، وبالثورة الجزائرية.

ونشير في هذا الصدد إلى أن الإفرنج قد أصبحوا منذ عهد الامبراطور شارلمان يشنون حروباً توسعية تحت شعار نشر المسيحية بقوة السلاح.

خامساً:
الوحدة والتحرير

إن تحقيق الوحدة، ولو لمرحلة معينة، قد كان العامل الحاسم لتحقيق الانتصار وتحرير الأرض، فقد فهم كل من نور الدين، وصلاح الدين أهمية تحقيق الوحدة في مواجهة الغزو الفرنجي، وحققت استراتيجية الوحدة خطوتها الكبرى بزعامة صلاح الدين حين نجح في التوحيد بين مصر وبلاد الشام، فقد أدرك منذ البداية أنه لا أمل في التحرير قبل تحقيق الحدّ الأدنى من التضامن والاتحاد، وفي سبيل تحقيق الهدف الأسمى: تحرير الأرض تجاوزت القيادة الذكية الأمور الثانوية، وتنازلت عن أشياء كثيرة، فقد ترك صلاح الدين الأمراء المحليين وحكام الأطراف، بل زاد في نفوذ بعضهم، ووسع إقطاعاتهم في سبيل الاعتراف بقيادة عليا، والتضامن معها في قضية كبرى ووحيدة: قضية تحرير الأرض وطرد الغزاة.

إن التعبئة لم تكن سهلة، فقد كانت روح التخاذل والفرقة منتشرة وخاصة بين الحكام المحليين[٥]، ولكن حنكة القيادة، وخصوصاً إخلاصها قد بعثت يقظة شعبية ضاغطة على المتخاذلين من الحكام المحليين، وقد سعى صلاح الدين إلى أن يجعل من حركة الجهاد التحريري حركة واسعة النطاق يشارك فيها العالم العربي الإسلامي مشرقاً ومغرباً، فمن المعروف أنه راسل أبا يوسف يعقوب بن يوسف الموحدي يطلب النجدة البحرية.

وأود هنا لفت النظر إلى نقطتين:

١ ــ أنه وقع تجاوز التناقضات والخلافات الهامشية في سبيل التحرير، فقد تضامن سكان الريف مع سكان المدن والتحمت صفوف العرب، والترك، والتركمان، والأكراد فوق أرض النضال التحريري.

٢ ــ كان التضامن عاماً فقد أشارت النصوص إلى مظاهرات في بغداد، وانخراط المتطوعين من كل حدب وصوب في حركة الجهاد، وبذلت الأموال لشراء أسرى المسلمين، ولكن تغيير مجرى الأحداث والمواجهة الحقيقية



□ تحرير القدس على يد صلاح الدين.

الحاسمة التي كللت بالنصر نهضت بها قوى الجبهة الملتحمة بالغزاة، أي قوى بلاد الشام ومصر.

سادساً:
سمات قيادة التحرير

تحتاج قيادة المعارك لتحرير الأرض إلى سمات معينة، والتشبع بقيم ثابتة بصرف النظر عن الظرفية التاريخية، فقد تحلى صلاح الدين بأبرز سمات قيادة التحرير، وكان لذلك شأن كبير في انتشار اليقظة الشعبية، وخصوصاً في مصر والشام، وقد خَبر سكانهما هذه السمات عن كثب، فهي قيادة تستند إلى شعبية بطل التحرير بعد أن عُجم عوده، وجُرب في ساحات العمل التحريري(٦).

سابعاً:
أبرز نتائج النصر

إن الانتصار في معركة حطين قد حقق نتائج متعددة، فقد كان الخطوة الحاسمة نحو تحرير القدس، ثم تحطيم أسطورة «الشرق اللاتيني» والقضاء على نظم احتلال غريبة زُرعت داخل منطقة خطيرة في الوطن العربي هي منطقة بلاد الشام، ولكن النتيجة الكبرى تبقى صيانة الهوية العربية الإسلامية لمدينة القدس، ولبلاد الشام عامة.

ثامناً:
بين الأمس واليوم

إن حطين، والقدس، وأرضٌ عربية شاسعة أخرى تعاني اليوم من احتلال أشد شراسة، وأكثر تعصباً وحقداً من الاحتلال الفرنجي اللاتيني والوطن العربي يشكو من التخلف والضعف والتجزئة وفي ظرفية تاريخية تختلف تماماً عن ظرفية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، أي عن المرحلة التاريخية التي حُقق فيها النصر الحاسم في حطين، فبالرغم من عوامل الضعف التي لّمحنا إليها في مطلع هذه الخواطر فقد كان المجتمع العربي الإسلامي يمثل قوة دولية كبرى عصرئذ، قوة في تراجع وتقلّص أمام صعود قوة جديدة على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، ولكن دون أن يتردى في وضع تابع، وهو فرق جوهري بين الأمس واليوم.

إن المأساة الكبرى التي يرزح تحت عبئها اليوم الوطن العربي هي التبعية، والنظم التابعة عاجزة عن التحرير، ومن هنا فإن الخطوة الأولى فوق درب التحرير هي — في نظرنا — التخلص من التبعية، ولا يمكن في ضوء العلاقات الدولية المعاصرة التغلب على ظاهرة التبعية إلا بالتضامن، وتنسيق الجهود وتوحيدها، وقد يبادر البعض قائلاً: إن القضية ستطول، وقوى الغزو مستمرة في تنفيذ مخططاتها التوسعية الاستيطانية.

قلت قبل قليل إن النظم التابعة عاجزة عن تحرير الأرض، وأضيف هنا أن الشعوب المقهورة عاجزةٌ أيضاً عن خوض معارك التحرير، فلا تحرير — إذن — بدون حرية، ولا حرية بدون ديمقراطية.. •

الملحق رقم ١

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد يصف فيها الوضع في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي(*)

● «ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن أبـي المضاء رسولاً إلى الخليفة الإمام المستضيء بنورالله بن المستنجد برسالة فاضلية، تشتمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة والقيام بخدمة الدولة العباسية من جهاد العدو في أيام نورالدين، ثم فتح مصر، واليمن، وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بها، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وفتح معاقل لهم من جملتها قاعة كانت بثغر أيلة قد بناها العدو في بحر الهند المسلوك منه إلى الحرمين، واليمن، وغزا ساحل الحرم فسبـى منه خلقاً وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقاً، ففتحت هذه القلعة وصارت معقلاً لجهاد المسلمين، وموئلاً للمسافرين، وفيه: فصل في ذكر أهل مصر: ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلهم أغنام أعجام، إن هم إلا كالأنعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، ولهم شوكة وشكة، وحمة، وحمية، لهم حواش لقصرهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب العقول، مخاتله، ومن كُتّاب تفعل أقلامهم فعل الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجود سواد النحل، ودولة قد كبر عليها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير ومهابة تمنع من خطرات الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر يسمى بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليالي والنهار بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، فشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن، فأخرجناهم من القاهرة حتى بقي القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعه، وتمزقت بدعه، وأخفيت دعوته، وخفتت ضلالته، فهناك تمت لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة والرفع للواء الأعظم الأسود وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها، أيسر من إثم إبقائه، إلا أنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه وهلاك دولته.

فصل: وكان باليمن ما عُلم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبتدع المتمرد، وله آثار في الإسلام وثأر طالبه النبـي عليه الصلاة والسلام لأنه سبا الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس، ودان ببدعة صعبة، ودعا إلى قبر أبيه، وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة، وأحل الفروج المحرمة وأباحها.

فصل: ولنا بالمغرب أثر أغرب قد ملكنا مما تجاور منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر من مشاهيرها: برقة، قفصة قسطيلية، توزر، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله، سلام الله عليه.

ثم ذكر تشتت بلاد الشام بعد وفاة نورالدين وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، وساءت السيرة وخبثت السريرة.

فصل: وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم نجرد العزم لقلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على المسلمين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع.

وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الأقصى الذي أسرى الله إليه بعبده.

ثم ذكر فيه: أنه قدم الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نورالدين وكفالته، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويبالغون في ظلمه.

ثم طلب من الخليفة المستضيء بنورالله تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه، وسيوف عساكره ولمن يقيمه من أخ، أو ولد من بعده تقليداً يتضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً».

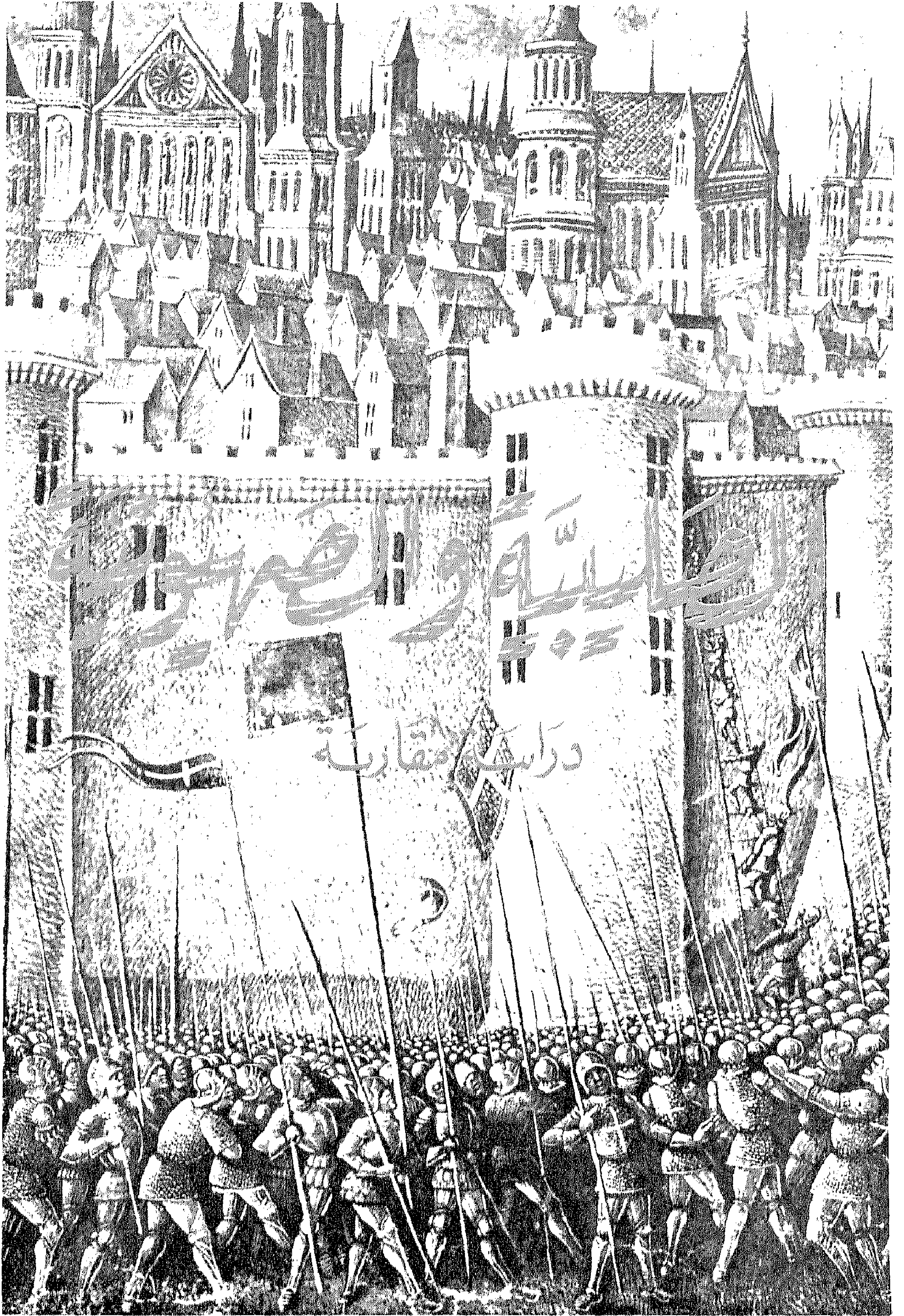
ملحق رقم ٢(*)

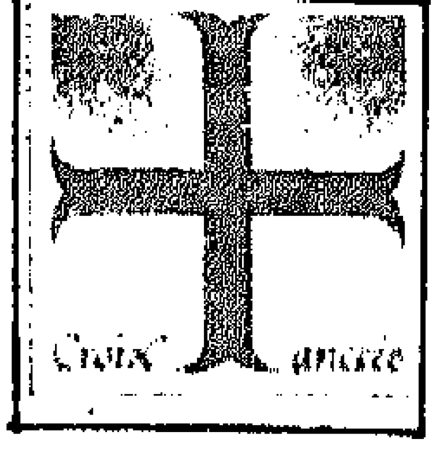
● «لما شرع نورالدين في الاستعداد لمواجهة الفرنج سنة ٥٥٩هـ راسل أمراء الأطراف يطلب منهم إعداد العدة للجهاد، وكان من بينهم فخرالدين قرا أرسلان أمير حصن كيفا، ولما سأله خواصه: «على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نورالدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا، فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدها، فقال: إن نورالدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نورالدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليّ، فلا بد من إجابة دعوته».

(*) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة ١٩٥٧، ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها.
(*) أبو شامة، كتاب الروضتين، القاهرة ١٩٦٢، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٠.

الهوامش

(١) الحديث هنا عن الظاهرة العامة في المجتمع العربي الإسلامي، وهذا لا يمنع من بروز مراكز انتعاش هنا وهناك.
(٢) انظر الملحق رقم ١ عن وضع العالم العربي الإسلامي في مطلع المرحلة الأيوبية.
(٣) إن مقارنة سريعة بين تصرف الفرنجة الصليبيين تجاه المسلمين إثر انتصاراتهم العسكرية، وتصرف المسلمين غداة قضائهم على معاقل الصليبيين تثبت في جلاء مدى تعصب الإفرنج وحقدهم ومدى تسامح المسلمين، وخصوصاً في عصر صلاح الدين. انظر في هذا الصدد: ابن واصل، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٧؛ أبو شامة، كتاب الروضتين، القاهرة ١٩٦٢.
(٤) إذا وقعت أحداث فردية معزولة مسّت التعايش الأخوي التاريخي القديم بين المسلمين والمسيحيين خلال هذه المرحلة، فالمسؤولية تقع أساساً باعتراف مؤرخين غربيين على عاتق الاحتلال الفرنجي.
(٥) انظر الملحق رقم ٢.
(٦) انظر على سبيل المثال: ابن واصل، مفرج الكروب، سبق ذكره؛ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، القاهرة ١٩٦٤.


الصليبية والصهيونية
دراسة مقارنة



د. هيثم كيلاني

قد يكون الوطن العربي أكثر مناطق العالم شهوداً لحروب وغزوات أجنبية، جسّدت مطامع الدول والتيارات والحركات الغازية في أرضه وموقعه وثرواته. ومن بين هذه الغزوات، تشغل الغزوتان الصليبية والصهيونية، على ما بينهما من بعد زمني، موقعاً متميزاً في السياق التاريخي للأمة العربية، فهما تكادان تكونان متشابهتين في بعض المقوّمات والأسباب والأغراض والوسائل والوقائع.

وحين يتصدّى الباحث لدراسة هاتين الحركتين، الصليبية والصهيونية، يلحّ عليه سؤال هذا محوره: كيف حدث أن تكونت بيئة ايديولوجية ثقافية جعلت الغزوة الصليبية، ومن بعدها الغزوة الصهيونية، مقبولتين أخلاقياً لدى أوروبا القرن الثاني عشر وأوروبا القرن العشرين.

من أجل محاولة تلمس المتشابهات والمختلفات في الصليبية والصهيونية، ستبحث هذه الدراسة في أصول الحركتين، وفي منهاجهما الاستعماري الاستيطاني، ووسيلتيهما العنف والإرهاب، وفي الاستراتيجية التي طبّقاها، لتنتهي، بعد ذلك، إلى بعض الملاحظات الختامية.

أولاً:
في الأصـــول

يمكننا القول إن مجموعة الأسباب والدوافع التي كَمَنت وراء الحركة الصليبية وحروبها، ترتدّ جميعها إلى الاستعمار، فكرة ومنهجاً وتخطيطاً وتنفيذاً. وإذا كان مفهوم الاستعمار في القرنين الحادي عشر والثاني عشر لم يبلغ مستوى النظرية السياسية المتكاملة، كمثل ما بلغه في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن المطامع والأغراض والمناهج والحروب التي جسّدتها الغزوة الصليبية، والأسباب والدوافع التي حركتها، والاحتلالات التي انتهت إليها، توفر للغزوة الصليبية جميع الصفات التي تصنّفها في تاريخ الاستعمار.

من المعروف أن الغزوة ارتدت حلّة الدين، وحمل أفرادها شارة الصليب، وادّعوا أن غايتهم انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين.

وواقع الأمر أن هذه الحروب كانت وليدة تفاعل عوامل كثيرة متشابكة، سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية. ولقد ركّز عدد كبير من المؤرخين الغربيين على الأسباب الدينية، وجعلوها في المقام الأول، بل جعلها بعضهم السبب الوحيد لهذه الحروب، قاصدين إسقاط المفهوم الاستعماري عنها.

ويمكن دحض هذه الأهمية التي أعطيت للأسباب الدينية بوقائع الحروب ذاتها، فقد اقترف الصليبيون مجازر ضد السكان المسيحيين في المناطق التي عبروها في طريقهم إلى بلاد الشام، ووجهوا الحملة الصليبية الرابعة ضد دولة مسيحية هي الدولة البيزنطية، وضد عاصمتها القسطنطينية[1]. وقد أورد هذه الوقائع مؤرخون فرنجة رافقوا الحملات.

ولقد تواترت الدراسات والوقائع لتؤكّد أن العامل الديني لم يكن سوى تُكَأة ومحرّض لتعبئة الجماهير وسوقها إلى الغزو، وأن الغزوة الصليبية هدفت إلى القضاء على القوى

الإسلامية كقوة فعالة في قيادة بلاد الشام، وإلى احتلال بعض أطراف المشرق العربي، وبخاصة فلسطين والمناطق التي حولها، لكفالة حمايتها والدفاع عنها. ولقد قويت هذه الفكرة في إطار الاستراتيجية البابوية، بعد هزيمة البيزنطيين في موقعة «ملاذ كرد» في العام ١٠٧١، وعجزهم عن صدّ اندفاع السلاجقة في الأراضي البيزنطية. وهو ما دعا البابوية إلى التفكير في أن «تتولى أوروبا الدفاع عن المنطقة وحجاجها الأوروبيين، وذلك باحتلال بلاد الشام»(٢)، وأن تعمل لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيطرتها، وبخاصة بعد أن تتالت نداءات النجدة من الأباطرة البيزنطيين إلى البابوية لمساعدتهم في صدّ السلاجقة المسلمين.

ولقد لقيت الدعوة البابوية القبول عند الملوك والأمراء في أوروبا، إذ راحوا يحلمون بإمارات يقيمونها في المشرق، تصبح من أملاكهم بأرضها وبشرها وثرواتها. فمن لم يستطع منهم أن يحوز ملكاً أو إمارة في أوروبا، نظراً إلى كثرة المطالبين بالملك والإمارة، فسيحقق بغيته في المشرق، ومن كان صاحب ملك أو إمارة، فستكون له غنيمة أخرى يضيفها إلى ما له من أملاك.

ولأنّ العامل الاقتصادي أحد أهم العوامل التي تشكّل مفهوم الاستعمار، وتحرك مؤسساته، فقد استطاع هذا العامل أن يحرك جماهير الأوروبيين للانضمام إلى صفوف الذاهبين إلى غزو المشرق. وقد استمد العامل الاقتصادي وجوده وتأثيره من النظام الإقطاعي والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك.

وبسبب الدافع الاقتصادي للغزوة الصليبية، احتل الغزاة منافذ طرق التجارة العالمية التي كانت تمر في المشرق العربي، ففي الشمال إمارة الرها، وعلى الساحل الشامي إمارتا إنطاكية وطرابلس ومملكة القدس، وفي الجنوب إمارة الكَرَك، مقابل العقبة، وأرسوا أسطولاً لهم في البحر الأحمر، ليُحْكِموا الطرق حول منافذ المنطقة.

وعند تقييم الغزوة الصليبية، يمكن الاقتباس من المؤرخ البريطاني برنارد لويس، حين قال إن الحملات الصليبية لم تكن سوى محاولة مبكرة للتوسع الاستعماري، وإن الدافع وراءها هو الاعتبارات المادية، أمّا الدين فقد اتخذ وسيلة لتهيئة النفوس لها(٣).

وعلى بعض اختلاف عن الغزوة الصليبية، انطلقت الغزوة الصهيونية في عصر قوّة الاستعمار وجبروته، فكرة ووسيلة. ولهذا كان من الطبيعي أن يلد الاستعمار الغربي، وهو في أوج طغيانه ومدّه وانتشاره، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الحركة الصهيونية (اليهودية). وكان من الطبيعي أن يكون قادة هذه الحركة مخلصين لأفكار الاستعمار الأوروبي وخططه وبرامجه، وأن ترعى الدول الاستعمارية وليدها، وتدعمه وتحميه.

وكان قد سبق نشوء هذه الحركة ولادة الصهيونية غير اليهودية من رحم الاستعمار الأوروبي مرت عبر مخاض طويل، يعود مطلعه إلى ثلاثة قرون قبل أن يعقد ثيودور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في العام ١٨٩٦، حين تأسست المنظمة الصهيونية العالمية.

لقد شهدت هذه القرون الثلاثة، التي سبقت مؤتمر بازل، أفكار مجموعة من المفكرين والسياسيين من غير اليهود، بدأوا نشر الفكرة الصهيونية عن الوعي القومي اليهودي الموجّه نحو فلسطين. وقد شكّلت حصيلة نظرياتهم ومفاهيمهم وممارساتهم ما يسمّى «الصهيونية غير اليهودية»، أو «الصهيونية الأممية»، أو «صهيونية الأغيار». وقوام الصهيونية غير اليهودية مجموعة من المعتقدات المنتشرة بين غير اليهود، والتي تهدف إلى تأييد قيام دولة قومية يهودية في فلسطين. وعلى ذلك، فالصهيونيون غير اليهود هم أولئك الذين يؤيدون أهداف الصهيونية، ويشجعونها بشكل صريح أو مقنّع(٤).

ولعلّ المنهج الذي سلكه نابوليون بونابرت، وهو يحاصر عكا في العام ١٧٩٩، مثل واضح على هذا النوع من الصهيونية المبكرة. فقد خطر له أن يستعين بيهود فلسطين في الاستيلاء عليها، فناداهم: «أيتها الأمّة الفريدة في نوعها، التي استطاعت شهوة الغزو والظلم، على مدى آلاف السنين، أن تحرمها من أرض أجدادها، ولكنها

لم تقو على حرمانها من اسمها، ولا من وجودها القومي»[٥]. غير أن هذا النداء بقي بلا صدى، فاليهود في فلسطين كانوا أقلية جدّ صغيرة، ولم يكن عامل الزمن يسمح بتعبئة يهود أوروبا لنجدة نابليون، إضافة إلى أنّهم لم يكونوا قد استعدّوا بعد، ليصبحوا قوّة غازية.

وإذا كانت غزوة نابليون قد انتهت، في سنوات قليلة، إلى ما انتهت إليه الغزوة الصليبية في قرنين، فإنّها جذبت اهتمام أوروبا نحو «الأرض المقدسة — فلسطين»، ضمن الدراسات الحضارية والأثرية لمنطقة المشرق العربي، على يد المستشرقين وعلماء الآثار، حين كثرت الرحلات والبعثات بغرض التنقيب وجمع المعلومات عن فلسطين وأهلها وتاريخها وطبيعتها ومُناخها وجغرافيتها. ونُشرت دراسات كثيرة كانت في منزلة الأساس العلمي الذي مهد للصهيونية، فيما بعد، السبيل إلى اغتصاب فلسطين.

لم يكن تظاهر نابليون بالصهيونية، لفترة وجيزة من تاريخه، حدثاً منفصلا عن تاريخ الاستعمار الفرنسي، رغم أن الصهيونية في فرنسا كانت تفتقر إلى الاستمرارية والتدفق والثراء الفكري التي تميزت بها الصهيونية في إنكلترا في القرن الثامن عشر.

ولقد انتعشت الصهيونية غير اليهودية في فرنسا، فيما بعد نابليون، عندما تجدّدت المناشط الاستعمارية على نطاق واسع، فامتد الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، والهند الصينية، وبرزت مطامعه في المنطقة العربية، وغيرها من مناطق آسيا وإفريقيا.

وفي حين برز ما يسمى المسألة الشرقية، ازداد بروز فكرة الوجود القومي اليهودي في الثقافة الأوروبية في أكثر الأوقات ملاءمة من الناحية السياسية. فارتبطت مطامع الاستعمار الأوروبي في المنطقة العربية بالأفكار والمطامع الصهيونية. ووجَدت فلسطين نفسها تسقط تحت قوى النفوذ الأوروبية المتصارعة. وكان لبريطانيا، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، كمركز رئيسي من مراكز الصهيونية غير اليهودية، وكقوة



□ خيالة فرنج.

استعمارية كبيرة، الدور الظافر في التأثير والتخطيط والتنفيذ لإقامة إسرائيل، على مراحل متتالية ومترابطة، وخطوة في إثر خطوة، كان آخرها منذ أربعين عاماً، حين أوْرثتْ الولايات المتحدة المهمة التاريخية.

ومع مطلع القرن التاسع عشر، بدأت فكرة «العودة» تنتشر في الأوساط الفكرية والسياسية اليهودية في أوروبا، وأخذت تستقطب الأنصار والمفكرين. ثم تجسّد ذلك كله في تيّارات وجمعيات وحركات متعدّدة، ظهرت في عدّة عواصم أوروبية، على أساس المناداة «بالقومية اليهودية»، والتحرر الذاتي، والعودة.

ومع نهاية سبعينات القرن الماضي، كان المُناخ النفسي والفكري مهيّأ لتقبل دعوة الهجرة إلى فلسطين. وعلى شاكلة الحملات الصليبية التي كانت كل واحدة منها تحمل رقماً يميزها عن غيرها، كانت الهجرات اليهودية إلى فلسطين كذلك. فانطلقت الأولى في العام ١٨٨٢، وتلتها هجرات أخرى، هدفت إلى استعمار الأرض،

وإنشاء «المجتمع اليهودي المستقل»، ثم إقامة الدولة.

وفي الحقبة البريطانية من الإعداد للمشروع الصهيوني، الذي تجسّدت ملامحه وأهدافه في مؤتمر بازل في العام ١٨٩٧، لم يكن صعباً على الصهيونية اليهودية السياسية أن تجد أنصارها في إطارين: أولهما الصهيونية غير اليهودية، وثانيهما الاستعمارية ذات الفكر الراسخ، والمطامع الواضحة، والقوة المسلحة الطاغية.

وهكذا التقت المصالح البريطانية والصهيونية، وتماثلت جميعها في إطار الاستعمار الأوروبي. ووجد الصهيونيون البريطانيون غير اليهود أن من المناسب وضع فلسطين تحت الانتداب، تمهيداً لتهويدها. وفي إطار الصهيونية غير اليهودية، صدر وعد بلفور في العام ١٩١٧، من أجل «إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». ولقد كان صدوره وليد تيّار صهيوني استعماري مشترك، كان مركزه وقوته الرئيسية قائمين في إنكلترا.

لقد كان للصهيونية غير اليهودية قادتها ومفكروها وسياسيوها وممثلوها في كل فترة من فترات التاريخ الذي يعود إلى القرن السادس عشر. ولقد تحوّل هذا النوع من الصهيونية إلى ايديولوجية سياسية للغرب المعاصر، لتفرز تلك المجموعة من القادة والسياسيين ــ وبخاصة في إنكلترا والولايات المتحدة ــ الذين أخذوا بيد الصهيونية وأقاموها في فلسطين كياناً استعمارياً استيطانياً.

ولقد هدفت تلك الايديولوجية إلى استعمار الوطن العربي، ثروات وموقعاً استراتيجياً، وسوقاً استثمارية وممراً إلى الهند. وليس هناك ما يلغي هذه المطامع، أو يحول دون تحقيقها، سوى مشروع وحدة عربية. وحتى تضع أوروبا الاستعمارية الحاجز الذي يعطّل ذلك المشروع، كان المشروع الصهيوني في قلب الوطن العربي، أي فلسطين. وإذا ما تحقق هذا المشروع، فسيكون القاعدة التي تضمن استمرار المصالح الغربية، بمختلف أشكالها وأنواعها، في هذه المنطقة الهامة من العالم.

إن هذا المفهوم السياسي الاستراتيجي الذي سيطر على العلاقة التناقضية بين الاستعمار الغربي والوطن العربي، يلقي الضوء على وقائع التاريخ الاستعماري وعلاقته بالحركة الصهيونية، فكراً ومفاهيم وخططاً وتنفيذاً، منذ نشوء الحركة حتى اليوم.

ولقد تواترت وتراكمت وقائع التاريخ الاستعماري الأوروبي، والتاريخ الأمبريالي الأميركي، وتاريخ الحركة الصهيونية، لتثبت أن المشروع الصهيوني مشروع استعماري، ورأس جسر للمصالح الغربية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، أقامتهما الدول الاستعمارية، واستغلّت اليهود واليهودية من أجل تنفيذهما، بغية تحقيق أغراض استعمارية، هي أبعد ما تكون عن الدين، والأخلاق، والإنسانية.

ويداً بيد مع الاستعمار، سعت الصهيونية إلى تحويل اليهودية من رابطة دينية أخلاقية روحية إلى رابطة استعمارية عنصرية، وزعمت أن «المسألة اليهودية» مسألة قومية، وطرحت لها حلاً قومياً، هو الدولة الاستيطانية.

ولئن كانت الفكرة الواهية القائلة بارتباط التراث اليهودي بفلسطين، هي التي قادت الصهيونية إلى إقامة مشروعها في هذا البلد، فإن موقع فلسطين الاستراتيجي في قلب الوطن العربي، وموقع الوطن العربي بمجمله، كانا العامل الحاسم في هذا الاختيار، وفي تبني حركة الاستعمار العالمي للمشروع الصهيوني. وفي حين تولت الصليبية بنفسها، بنزعتها الاستعمارية، محاولة تحقيق مشروعها في السيطرة على قلب الوطن العربي، فإن الاستعمار العالمي الحديث استخدم الصهيونية لتنفيذ مشروعه.

ونظراً إلى أن ميزان القوى بين المراكز الاستعمارية والصهيونية غير متوازن بشكل كبير، كان لا بدّ لهذه المراكز من أن تقوم، بالتناوب، بدور «الدولة الأم» للمشروع الصهيوني.

وهكذا اشتركت المراكز الأمبريالية في بناء المشروع، وهو إقامة قاعدة متقدمة في قلب الوطن العربي، للعدوان عليه، والتصدّي للحركة القومية العربية المعادية للنفوذ الأمبريالي في المنطقة. والتقت مصالح الشريكين، المراكز الأمبريالية والحركة الصهيونية، على بناء القاعدة، قوية توسعية مهيمنة، هذا لعدوانه وذاك

لاستيطانه. فكانت للمشروع هذه المهمة المزدوجة منذ بدايته إلى يومنا هذا.

وحتى يؤدي المشروع مهمته المزدوجة هذه، كان على الصهيونية أن توفّر الأمن لقاعدتها الاستيطانية. وهو أمر لا يتحقق إلّا إذا كان الاستيطان إجلائيّاً، وذلك بنزع سكان البلاد الأصليين من وطنهم، وتغييب وجودهم كشعب، وتذويبهم خارج حدود فلسطين، وتهويد البلد كاملاً، أرضاً وشعباً.

والصهيونية، كحركة سياسية تعتمد التخطيط في عملها، قد وعت أبعاد مشروعها ومتطلباته، فأقامت لذلك مؤسسات خاصة، وصاغتها لتتلاءم مع الأغراض التي من أجلها أنشئت وعاشت في حضانة الأمبريالية والأطماع الغربية في المنطقة العربية.

ومن هنا يظهر ذلك التمايز بينها وبين الصليبية، التي فقدت التخطيط الهادف، وتعدّدت القيادات فيها، وتنازعت السلطة في بعض الأحيان، ولم توفّر للاستيطان أسبابه التي لا بدّ منها حتى يستقر ويستمر.

وإذ يشترك الكيانان اللّذان أقامتهما الصليبية والصهيونية، وهما الدويلات الفرنجية وإسرائيل، في ارتباطهما العضوي بالاستعمار، فلسفة وتطبيقاً، وفي صفتهما الطبيعية ككيانين غريبين في المنطقة العربية، فإن الكيان الصهيوني يتميز أو يتفوق أو يشارك الكيان الصليبي في ثلاث صفات:

الصفة الأولى هي العنصرية. وهي صفة متأصلة في الكيان الصهيوني، وأساسية، ودائمة، لأنها نابعة من صميم العقيدة الصهيونية. ذلك أن السلالة، وليس الدين أو اللّغة، هي التي تجعل الشخص «يهودياً»(٦) في نظر الصهيونية. وقد انتهت هذه الصفة المتأصلة إلى ثلاث نتائج: الانغلاق العنصري، والتمييز العنصري، والتفوق العنصري. وهي نتائج كان لا بدّ لها إلّا أن تنتهي، من وجهة نظر الصهيونية، إلى نفي الشعب الفلسطيني وإلغاء وجوده.

وفي مقابل ذلك، يمكن القول إن الصليبيين، إذ جاؤوا غزاة محتلين، كانوا يشعرون بالتفوق العنصري، وقد وجدوا أن بإمكانهم، كمستعمرين، أن يُعبّروا عن «تفوقهم» ضمن إطار من التعايش التراتبي الطبقي الاستعلائي، مع أهل المنطقة، دون أن يُخرجوهم من ديارهم، أو يَنْفوا وجودهم.

الصفة الثانية هي العنف والإرهاب. وسيأتي الحديث عنهما ببعض التفصيل فيما بعد. وما نود أن نشير إليه هنا، هو أن العنف والإرهاب دلالتان على استعماريّة الحركتين الصليبية والصهيونية، ذلك أنهما — العنف والإرهاب — من مقومات الاستعمار الأساسية.

والصفة الثالثة هي التوسع الإقليمي. وهي صفة مشتركة بين الصليبية والصهيونية. فقد واجهت الصليبيةُ المقاومةَ العربية، والخشيةَ من تطورها وقوتها، بتوسيع رقعة الاحتلال، فامتدت المطامع إلى مصر، ثم إلى تونس. ولكن تناميَ المقاومة العربية للاحتلال، وتقلصَ الدعم الأوروبي، وضمورَ الزخم الديني، وهُزال الأسباب الأخرى التي عبّأت الجماهير والحكومات الأوروبية للحروب الصليبية، أدت كلها إلى عجز الدويلات عن التوسع.

وفي حين واجهت الصليبية، في إثر ذلك، مصيرها المحتوم، نجد الصهيونية لا تزال يشتدّ عودها في العدوان والتوسع، لأنها لا تزال تتلقى جميع الوسائل اللازمة والكافية للعدوان والتوسع من الأمبريالية التي تتبناها وتحتضنها، وبخاصة من الولايات المتحدة. إن الأدبيات الصهيونية التي تُعبّر عن المطامع في التوسع والنفوذ والسيطرة والهيمنة كثيرة ومعبّرة، وهي ترسم صورة واضحة لامبراطورية صهيونية معاصرة، في عصر زالت فيه الامبراطوريات الاستعمارية.

وإذا كانت الدوافع الكامنة وراء الحروب الصليبية خليطاً من أسباب دينية واقتصادية واجتماعية مصاغة في قالب استعماري، فإن المشروع الصهيوني، في جوهره، ليس مشروعاً دينياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، وإن لزمته هذه الصفات، تارة واضحة وتارة باهتة، وإنّما هو، أساساً، مشروع استعماري، ثمة ما يميّزه عن الوجود الصليبي في الأعوام المائتين التي حط خلالها رحاله في بلاد الشام، وما يميّزه أيضاً عن غيره من مشاريع الاستعمار الأخرى التي تشهدهاالعالم في العصر الحديث.



□ بن غوريون مع غولدا مائير.

وإذا كانت الدول الاستعمارية قد دخلت في حروب ومنازعات فيما بينها للانفراد بثمار الحركة الاستعمارية، فإن المشروع الصهيوني كان محل اتفاق جميع القوى الاستعمارية، فهي لم تختلف على أهميته وضرورته للمصالح الاستعمارية بمجموعها، وليس لمصلحة دولة استعمارية وحدها دون غيرها. وعلى هذا جاء المشروع الصهيوني استعمارياً «على المشاع»، جاهزاً للخدمة، وبخاصة إذا توافقت مصلحته مع مصلحة طالب الخدمة.

في حين التقت مصالح المراكز الاستعمارية عند الكيان الصهيوني، وتوافقت على تبنّيه ورعايته، لم تستطع المصالح الاستعمارية في الحركة الصليبية أن تستمرّ في توافقها وتعاونها لتُنجز مشروعها، إذ تفككت تلك المصالح تحت تأثير الحالة الاجتماعية والنظام الإقطاعي والنزاعات السلطوية، في الوقت الذي اشتدّت المقاومة العربية، وعمّ الوعي بمخاطر الغزوة، وولدت قيادات على قدر التحدي الذي جابهته الأمة العربية يومذاك.

لقد سيطرت النزعة الاستعمارية على الصليبية، فساقتها إلى المشرق على شكل غزوة مسلحة. وانطلقت الصهيونية من رحم الاستعمار الأوروبي، فجاءت وليداً شرعياً له، وأقامت دولة خاصة بمن أسمتهم «الأمّة اليهودية»، دولة يهودية خالصة، تابعة ومستقلة في آن، فهي وليدة الاستعمار، وهي، في الوقت نفسه لها استعمارها الخاص بُها.

ثانياً: في الاستيطان

لقد استغرقت سلسلة الحملات الصليبية حوالي مائتي عام، وهي مدّة طويلة جدّاً في تاريخ الحروب. وكان المستعمرون الذين استوطنوا بلاد الشام استطاعوا أن يحافظوا على أنفسهم بصعوبة كبيرة، ولم تبق الدويلات التي أقاموها تلك المدّة إلا بفضل الموجات المتعاقبة التي جاءت لنجدتهم على شكل حملات صليبية جديدة، وبفضل الحالة السيئة التي كان عليها المشرق العربي يومذاك.

كان هدف الفرنجة، منذ أول حملة صليبية، الاستيلاء على الأرض، وكان الاستيطان يتطلب حيازة أراض واسعة، ولهذا استقرت خطة الاستيطان على احتلال أراض على الساحل السوري، حتى تصان خطوط المواصلات مع الغرب، وعلى أراض في الداخل بعيدة قدر ما يستطيع الغزاة توفير الحماية لها. وفي جميع الأحوال، كانت الأرض مطلوبة حتى يُقيم الغزاة عليها، ويعيشوا منها، ويُقيموا إماراتهم وحكوماتهم عليها.

وكانت القوات الصليبية مؤلفة من القوات الإقطاعية، وقوات التعبئة العامة، وفرق الأخويّات الرهبانية الفرسانية العسكرية، وجماعات الحجيج، والمتطوّعة، والمرتزقة[٧]. وهي فئات مؤهلة للاستعمار الاستيطاني، والقيام بوظائفه، وإن ثبت، بعد ذلك، أنها لم تكن كافية لترسيخ أسس الاستيطان ومؤسساته.

وكانت الحملة الأولى، بصورة خاصة، مجهزة بقوة تتراوح بين ستين ألفاً ومائة ألف، على اختلاف بين المؤرخين. وكانت تضم مجموعة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة، وهم فئة غير مقاتلة. فكانت الحملة أشبه ما تكون بهجرة شعبية عزمت على الاحتلال والاستيطان بقوة السلاح، كجاليات مستعمرة في فلسطين وما يجاورها من البلاد[٨].

وكانت الطبقة الفرنجية الحاكمة في الإمارات الصليبية مؤلفة من الأرستقراطية العسكرية. وقد اعتمدت في حكمها على شبكة القلاع التي استولت عليها أو أقامتها. ويُلقي هذا الاعتماد ضوءاً على طبيعة الاستيطان الصليبي.

وكانت وظائف هذه القلاع تأمين الدفاع عن الحدود وعن الوجود الصليبي. وهي قواعد للهجوم، ومراكز لترسيخ السيطرة على مناطق الإمارة، وللاستعمار والتطوير الاقتصادي[٩]، ومساكن للإقامة والعيش، ومقرات للسلطة والقيادة، ومراكز إدارية، وثكن للجند، ومخافر للشرطة.

ولقد وجدت الصليبية في الحرب الأداة لغزو بلاد الشام وترسيخ كيان دويلاتها، والمحافظة على كيانها في المشرق. ولهذا كانت الحرب جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة في البلاد[١٠] وثمة مقولة مفادها أن «سورية اللاتينية أوجدت بالغزو والاستيطان»[١١]، وأن الدويلات الصليبية لم تكن «من نواح عدّة أكثر من مجرد مستوطنة عسكرية فجة»[١٢].

وبالرغم من تتالي الحملات، لم يستطع الصليبيون أن يشكلوا سوى أقلية قليلة في المناطق التي احتلوها. وكان فيهم المقاتلون والتجار، وقد ميزوا أنفسهم بما يميز به كل مستعمر غاز نفسه، من عنصرية وطبقية وقضاء مستقل واستعباد لأهل البلاد. وكان المقاتلون يمارسون في حياتهم اليومية، وفي غير أوقات القتال، الأعمال المدنية، المتمثلة في طبقة السادة الذين يديرون أملاكهم ويستخدمون الأجراء من أهل البلاد[١٣]، وفق نظام الإقطاع النافذ في أوروبا. وقد كان هذا النظام موضع صدام حاد بين سكان البلاد الأصليين والغزاة الأوروبيين[١٤].

ونقتبس من أحد المؤرخين قوله: «وكان الإفرنج قليلي العدد في ولاياتهم الخاصة. ولم يكونوا يوماً حتى في القدس وسواها من المدن المحتلة، أكثر من أقلية ضئيلة. ذلك أن كثيرين منهم، بعد أن تحقق الاستيلاء على القدس، اعتبروا أن تعهدهم قد أنجز، وعادوا أدراجهم إلى أوطانهم. ولا يخفى أن بقاء مثل هذه الدول الغربية كان رهناً بوصول إمدادات جديدة من المجندين بصورة متواصلة من الوطن الأول، وببقاء الأعداء مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة»[١٥].

لم تستطع القيادات الصليبية أن تُرسي قواعد راسخة للاستيطان في الأرض التي احتلتها، لتعدد تلك القيادات واختلافها، ولأنها عجزت عن مواجهة المشكلات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، في وقت أخذت فيه الموارد البشرية والمالية والمادية، وبخاصة الموارد العسكرية، تتقلص ثم تنضب. ولهذا كثرت طلبات التعزيز من أوروبا، التي فترت الروح الصليبية فيها، في إثر فشل الحملات المتتالية في الحفاظ على المكتسبات التي حازتها الحملات الأولى.

لقد كان بقاء الإمارات الصليبية مرهوناً، في نهاية المطاف، بوجود جيش ميداني مناسب، وحاميات كافية للقلاع. وقد عجز القادة

الصليبيون عن حل هذه المشكلة، فانقرضت ولاياتهم، ولم يكن أمامهم حل سوى الانسحاب.

وحتّى تتحاشى الصهيونية أن تَلقى هذا المصير، فقد وعت الدرس الصليبي الفاشل في الاستيطان في بلاد الشام، واستوعبت أسبابه، وأخذت تُعدّ لمشروعها العوامل والمقوّمات التي تنهض به، فاستندت إلى مجموعة من المبادىء التي تُرسي استيطانها في فلسطين على قواعد راسخة. ومن هذه المبادىء:

(أ) القوة فوق الحق. واستناداً إلى هذا المبدأ، يقرر هرتزل مؤسس الصهيونية أن «هذه الأمة اليهودية سوف تبقى، أما ما عداها فسوف يزول، بل ويجب القضاء عليه لأنّه غير أهل للبقاء»[١٦].

(ب) القوة ضرورة حتمية لبلوغ أهداف الصهيونية. والعمل السياسي سبيل لتعبئة الطاقات للحركة، وتجنيد الهيئات والمنظمات الصديقة من أجل المساعدة على بلوغ الأهداف.

(ج) الاستعمار الاستيطاني هو الوسيلة للاستيلاء على الأرض، وهو الذي يجسّد الإنجازات السياسية عن طريق فرض الوجود الصهيوني في فلسطين.

(د) الحركة الصهيونية حليف عضوي للأمبريالية. ولا غنى لها عن الارتباط العضوي بالدول التي تجسّد الأمبريالية وممارساتها.

(هـ) العمل العسكري ضرورة لا غنى عنها لفتح المجال أمام الاستعمار الاستيطاني، ليستولي على الأرض، وليحمي وجوده وإنجازاته. والرابطة بين العمل العسكري والاستعمار الاستيطاني وثيقة لا انفصام لها. فالقوة العسكرية هي الوسيلة التي توفر للاستعمار الاستيطاني النشوء والوجود. وعلى هذا الاستعمار أن يوفّر القاعدة الاجتماعية التي تسند القوة العسكرية، وتمدّها بالعناصر اللازمة لحياتها ونموها.

ومثلما تحولت الهجرة اليهودية من غاية «لتحقيق الخلاص» إلى وسيلة لدعم الكيان الاستعماري في فلسطين. تحوّل الاستعمار الاستيطاني من غاية لتحقيق الوجود الصهيوني في فلسطين إلى وسيلة لفرض الأمر الواقع المترتب على كل توسع تحوزه إسرائيل في حروبها.

يمثّل الاستيطان في فلسطين التطبيق العملي للصهيونية. وتبقى المقولة التي قالها الزعيم الصهيوني جابو تنسكي في العام ١٩٢٣: «الصهيونية هي استيطان، ولذا فهي تحيا وتموت مع قضية القوة المسلحة»، تبقى مقولة لها مغزاها وبُعدها الاستراتيجي في اختزال مسألة الغزوة الصهيونية كلها.

ويمكن القول إن مسألة الاستيطان الصهيوني تشكّل المحور المادي للصراع العربي الصهيوني، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم. وطوال هذه المدة، شكّل الاستيطان، بالنسبة إلى الصهيونية، الوسيلة والهدف معاً، واتصف بثنائية العمل في وقت واحد: عملية البناء الصهيوني وعملية هدم المجتمع العربي القائم.

لقد وعت الصهيونية جيّداً ما تتطلبه عملية الاستيطان، وحدّدت عناصرها الرئيسية الثلاثة: الأرض والإنسان والماء، وخططت لإعداد هذه العناصر وتوفيرها بدقة وشمولية ونظرة مستقبلية. واستخدمت الوسائل العلمية التي أتاحتها لها حضارة القرن العشرين[١٧].

تعود أصول النزعة الاستيطانية اليهودية في فلسطين إلى أصول وأطماع أمبريالية غربية تجسّدت، في القرن السابع عشر، في إنكلترا وفرنسا[١٨] بالدرجة الأولى، ثمّ في بروسيا والولايات المتحدة الأميركية[١٩] بالدرجة الثانية.

وعلى هذا يمكن القول إن عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين قد تمّ إعدادها وتهيئتها في المراكز الاستعمارية الغربية، وبخاصة بريطانيا. لقد وجدت الرأسمالية في هذه الدول أن توطين اليهود في فلسطين يحقق لها فوائد جمة، ويخدم مصالحها الاستعمارية. وهنا التقت الرأسمالية اليهودية والرأسمالية الأوروبية بمصالحهما المتداخلة، ليتمّ عن طريق هذا التلاقي تحريك اليهود واستقطابهم، ومن ثم ضخهم إلى فلسطين.

أنتج تبنّي الاستعمار الأوروبي لفكرة تهجير اليهود إلى فلسطين ولادة الأسس الفكرية والعقائدية للحركة الصهيونية، وكان للمفكرين اليهود الروس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ضلع كبير في بلورة تلك الأسس.

وحين بلغت الفكرة الصهيونية، في رحلتها، ثيودور هرتزل، ومؤتمر بازل في العام ١٨٩٧، انتقلت من الإطار الفكري والعمل غير المنظم، إلى الإطار المؤسسي والعمل المنظم. وفي هذه المرحلة، صعد المشروع الصهيوني إلى مستوى الاهتمام الدولي، إذ لقي العطف والتفاهم والدعم من حكومات ألمانيا وروسيا وبريطانيا، بخاصة من أجل الضغط على الدولة العثمانية حتى تفتح أبواب الهجرة لليهود إلى فلسطين.

شهدت عملية الاستيطان الصهيوني الهجرة الأولى بين العامين ١٨٨٢ و ١٩٠٣ (٢٥ ــ ٣٠ ألف مهاجر)، والهجرة الثانية بين العامين ١٩٠٤ و ١٩١٤ (٣٥ ــ ٤٠ ألف مهاجر)[٢٠]. حتى إذا وقعت الحرب العالمية الأولى، وثّقت الصهيونية علاقاتها بالطرفين الرئيسيين فيها، ألمانيا وإنكلترا. وحينما بدأت الهزيمة تحلّ بألمانيا، اتجهت إنكلترا إلى فرض انتدابها على فلسطين، وتبنّت الحركة الصهيونية وأهدافها تبنّياً مطلقاً، على أساس أن إنشاء كيان صهيوني في فلسطين يوطّد مصالحها في المنطقة العربية، ويوسّع امبراطوريتها الاستعمارية، ويؤسس لها قاعدة تتصدّى لحركة التحرر القومي العربي، وتفصل بين جناحي الوطن العربي. وقد كَمُنت هذه الأغراض كلّها في معنى وعد بلفور ومبناه.

وهكذا تدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ففي حين كان عدد اليهود في العام ١٨٣٩ لا يتجاوز ٩٠٠٠، أخذ يزداد ليصبح ٢٤٠٠٠ في العام ١٨٨٢، و ٥٠٠٠٠ في العام ١٩٠٠، و ٨٥٠٠٠ في العام ١٩١٤، و ١٢٢٠٠٠ في العام ١٩٢٥، و ٣٥٥٢٠٠ في العام ١٩٣٥، و ٥٦٣٨٠٠ في العام ١٩٤٥، و ٦٠٨٢٠٠ في العام ١٩٤٦، و ٦٤٩٦٠٠ في العام ١٩٤٨[٢١].

لقد أدركت الدول الأوروبية والولايات المتحدة، أن إقامة كيان صهيوني في فلسطين يؤدّي خدمات جليلة لمصالحها في المنطقة العربية. وهذا ما يفسّر تسابق هذه الدول إلى خدمة المشروع الصهيوني، والسعي لتنفيذه، ومن ثم حمايته ودعمه.

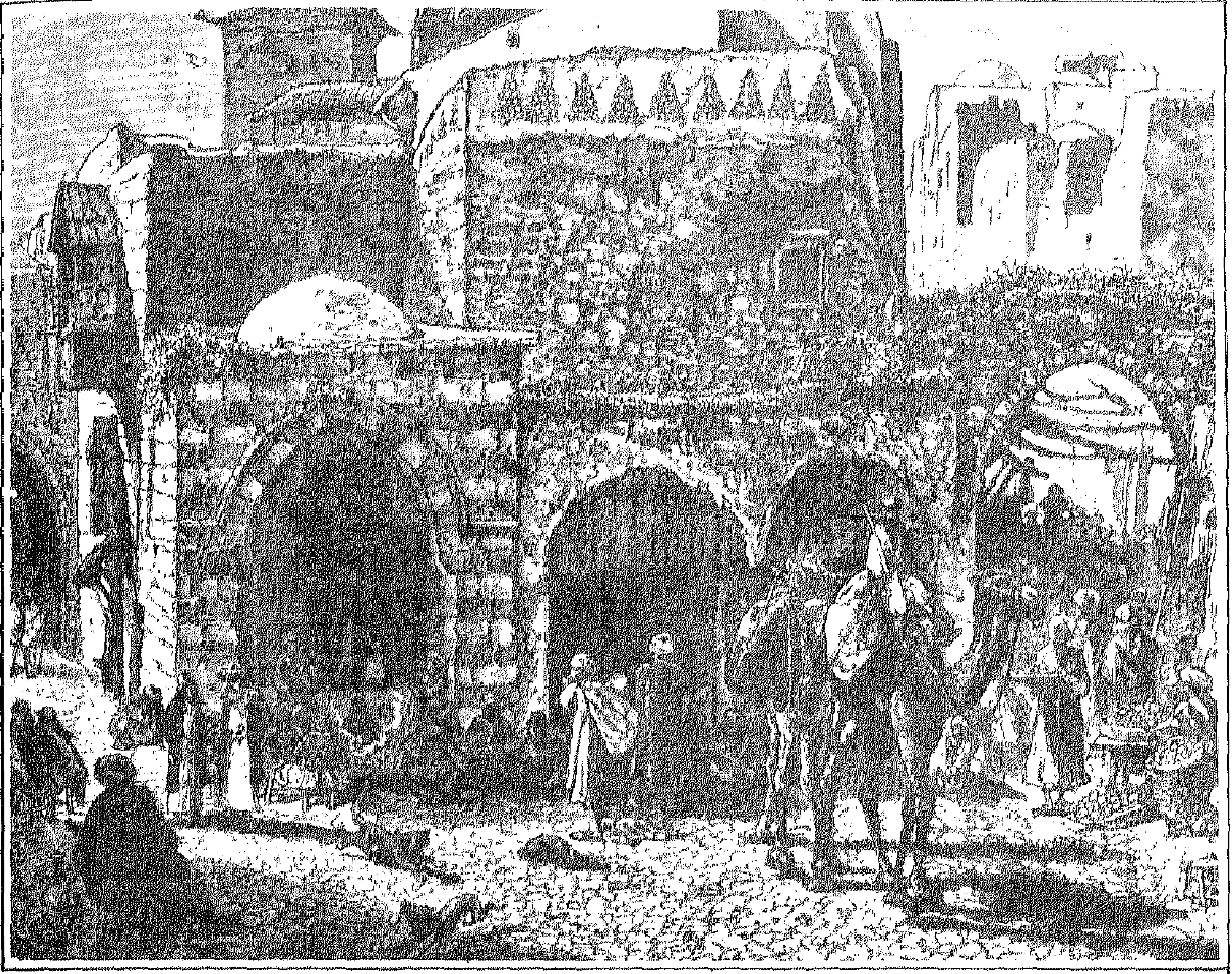
وبالرغم من أن أكثر من مائة عام مرت على هذا المشروع، وبالرغم من اختلاف المراحل التي مرّ بها وتنوعها، ظلت وسائله دون تغيير أساسي: الاستيلاء على الأرض بشتى الطرائق. وبأي ثمن، ونزع العرب من أرضهم بمختلف وسائل الإرهاب والتفقير وسلب لقمة العيش. واستقدام الإمكانات البشرية والمالية والعسكرية الضرورية لإقامة المستعمرات الاستيطانية ودعمها.

لقد مثّل المشروع الصهيوني، المولود من رحم الاستعمار الأوروبي، محاولة مخططة ومستمرة لخلق واقع استيطاني في فلسطين، قصد السيطرة عليها وتهويدها، فزرعت، منذ أواخر العهد العثماني، مستعمرات متفرقة، كانت أشبه بالجزر المعزولة في محيط عربي. ومع تبنّي الانتداب البريطاني لمشروع إقامة «الوطن القومي اليهودي في فلسطين»، أخذ الصهيونيون يستولون على مناطق كاملة. حتى إذا وفرت الدول الاستعمارية الغربية الشروط والعوامل الكافية لتكوّن الكيان الصهيوني في العام ١٩٤٨، أخذ الاستيطان كامل حريته ونشاطه فيما احتلته إسرائيل من أرض.

ومع احتلال إسرائيل أراضي جديدة في العام ١٩٦٧، حدث تطور أساسي جديد في إمكان استكمال المشروع الصهيوني، إذ أصبحت فلسطين بكاملها، وأراض عربية أخرى، واقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، ليدخلها الاستعمار الاستيطاني على مراحل، بدءاً بما سمي «مناطق الأمن» المتمثّلة، أساساً، في الجولان وغور الأردن وحول القدس، ومروراً بإقامة الكتل الاستيطانية والتجذر داخل المدن العربية الكبرى، واتجاهاً نحو «أرض إسرائيل الكاملة».

ثمة ثلاثة عوامل سيطرت على جميع خطط الاستيطان الصهيوني في فلسطين، سواء قبل الاحتلال في العام ١٩٤٨، أو بعد قيام إسرائيل، أو بعد حرب ١٩٦٧.

العامل الأول والأهم هو الدافع الأمني. فقد ارتبط تاريخ المستعمرات الصهيونية، بجميع أنواعها: كيبوتز، وموشاف، وناحال، بالخطط العسكرية الصهيونية، إنْ في تعيين مواقعها، أو تحديد عددها، أو في نوعيتها وتركيبها وطريقة بنائها. فهي قلاع عسكرية، مثلما هي مستوطنات مسكن وعمل، وسكانها جنود محاربون مدرّبون مسلّحون، مثلما هم عمّال ومزارعون. والوظيفة الأولى والأهم لهذه المستعمرات هي حماية



□ القدس.

الحدود والمناطق الاستراتيجية من أي هجوم أو ثورة أو نشاط فدائي. ويُلاحظ أن أكثر من نصف المستعمرات هو من نوع الناحال، أي من الوحدات العسكرية التي يعمل فيها المجنّدون، ويؤدّون خدمتهم العسكرية الإلزامية بإشراف الجيش.

ويتمثّل العامل السياسي في دور الأحزاب السياسية في دفع عملية الاستعمار الاستيطاني إلى أقصى مدى ممكن، بحيث تؤدّي العملية، في نهاية الأمر، إلى جعل انفصال الأراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ عن جسم الكيان الصهيوني أمراً مستحيلاً، ديمغرافياً واقتصادياً وواقعياً.

ويُراد من المستعمرات أن تخدم اقتصادياً ـــ وهذا هو العامل الثالث ـــ فتؤمّن مأوى للمهاجرين اليهود الذين لا تزال الصهيونية تطمع باستقدامهم إلى فلسطين المحتلة من مختلف أنحاء الأرض[٣٢]. وعلى هذه المستعمرات أن تعمل لاستغلال خيرات الأرض العربية، وأن تزاحم السكان العرب في أرضهم ورزقهم وعيشهم، وأن يؤدّي، في نهاية الأمر، إلى اقتلاع أو طرد أو تهجير هؤلاء السكان من وطنهم، لتصفو الأرض خالصة للصهيونيين.

وإذا كان الصليبيون قد تعايشوا مع سكان البلاد التي احتلوها، وحاولوا استغلالهم وبسط السيطرة عليهم، وبخاصة خلال الفترة التي ضعفت فيها المقاومة العربية للاحتلال، فإنهم لم يعملوا لإجلائهم عن وطنهم. أمّا الغزوة الصهيونية فإنها، بطبيعة دوافعها وأهدافها، نفي للشعب العربي في فلسطين، وإلغاء له ونقض لوجوده.

وفي حين كانت الغزوة الصليبية قوية وعنيفة منذ انطلاقتها الأولى، لأنها صدرت عن حركة غنية بطاقاتها البشرية والسياسية والاقتصادية

والدينيـة، فشلت الحركـة الصـهيونيـة خـلال السنوات الثلاثين التي سبقت الحرب العالمية الأولى، في تطبيق برنامجها الاستعماري، حين تصـدّت وحـدهـا لتنفيـذه[٢٣]. ولم يكن، بـدّ، حينذاك، من أن يمدّ الاستعمار الأوروبـي، ممثّلاً بإنكلترا، يده إلى وليده، ليعينه على السير في مشروعه.

وبمثل ما توافرت ظروف وأسباب أدت إلى عجز الصليبية عن التوسّع في الإمارات المحتلة، وإلى ضمور الموارد التي كانت تصبّ على هذه الإمارات من أوروبا الأم، وإلى تضيّق الشرايين حتى الاختناق، تجد الصهيونية نفسهـا اليوم عاجزة عن هضم ما احتلته توسعاً واستعماراً. وإذا كانت الأسباب متعدّدة، فإن أحدها نضوب التدفق البشري اليهودي على الأرض المحتلة. فبعد احتلال دام عشرين عاماً في الضفة الغربية وقطاع غزة والجـولان، واستعمار استيـطاني نشيط محموم، لم تجد إسرائيل أكثر من خمسين ألف شخص يعيشون في حوالي مائتي مستعمرة، أقاموها وحموها بقوة جيش الاحتلال. وهنا يقول وزير الخارجية الإسرائيلي السابق أبا إيبان: «لا يمكن، في أيّـة فتـرة، أن يتجـاوز عـدد الإسرائيليين في تلك المناطق نسبة ٤ أو ٥ من مجموع السكان هناك. ويعني هذا أن فكـرة الضم قد فشلت قانونياً وديمغرافياً عـلى حد سواء[٢٤].

ويشدّ انتباهنا هنا، ونحن في صدد المقارنة بين الصليبية والصهيونية، أن نلاحظ أن الصهيونية تعلّمت من التجربة الصليبيـة في الاستيطان، واستوعبت دروسها، ووفّرت لاستيطانها جميع الأدوات اللازمة له، وبخاصة أنها اتخذته وسيلة وهدفاً في آن واحد. وتجنّبت الأخطاء التي وقعت فيهـا الصليبيـة، التي لم تـول الاستعـمـار الاستيطاني العناية الكافية، ولم توال تنفيـذه كوسيلة وهدف، حتى إذا ضعفت الأسباب التي ولّدت انطلاق الحملات، وهَزُلت الروح الكامنة وراءها، تقلّص المدّ بالرجال والسلاح، إلى أن وجدت الصليبية نفسها أمام مصيرها الذي لا بدّ أن تلاقيه.

وفي حين ظنّت الغزوة الصليبية أن الوجود العسكـري والمؤسسـات المدنيـة تكفي لإقامـة دويلات تحكم وتستمر في الحكم، على أن تبقى الشرايين بين أوروبا وهذه الدويلات مفتـوحة ونشيطة، وبخاصة لنقل الإمدادات والقوى من الشّمـال إلى الجَنـوب، تـداركت الصهيـونيـة ما اعتور التجـربة الصليبيـة من نقص، حين أدركت أن الاستعمار الاستيطاني، أي الاستيلاء عـلى الأرض، هو الوسيلة إلى إقـامة الدويلة، وليست الدولة هي المنطلق للاستيطان، وإن كانت هي الوسيلة، فيمـا بعد، لاستكمـال مشـروع الاستعمار الاستيطاني.

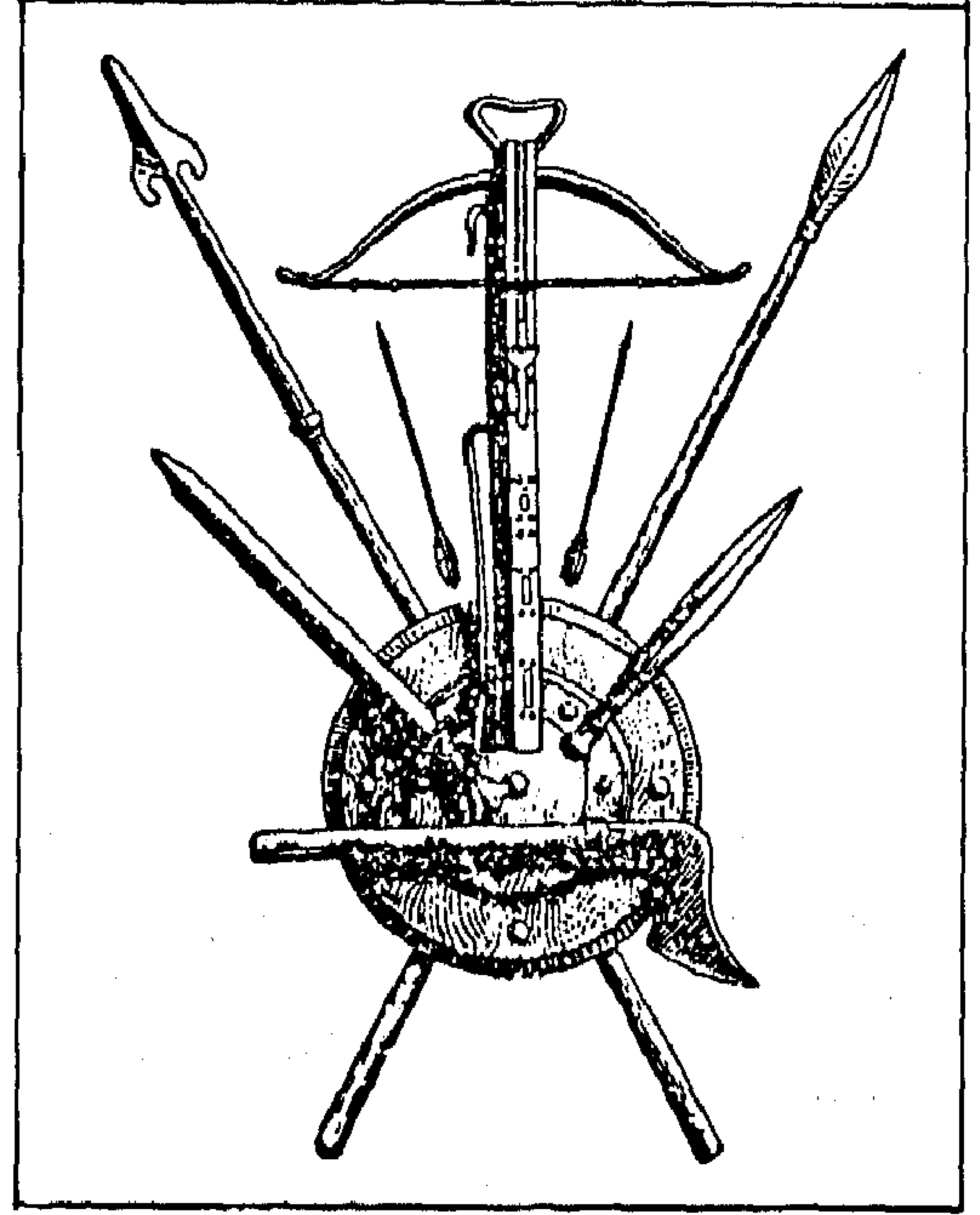
وهذا ما يفسّر تلك القداسة التي أحاطت بها الصهيونية مفهوم الأرض، من خلال تشديدها على الارتباط بها، ورفعها مهمة «افتداء الأرض» أي الاستيلاء على الأراضي العربية، إلى مستوى الفريضة الدينية[٢٥].

ثـالثـاً: في العنف والإرهاب

شهـد التاريـخ، قديمـه وحديثـه، غـزوات وفتوحات وحـروباً كثيـرة. وفي صفحات هـذا التاريخ، تحتلّ الحركتان الصليبية والصهيونية مكانة عالية في عمليات العنف والإرهاب، على اختلاف ما بينهما من أهداف في تلك العمليات، ومن ولوغ في القتل حتى الإبادة.

وإذا ما أردنا أن نختار بعض الأمثلة من الغزوة الصليبية، فإن ما جرى في معرة النعمان قد يكون أحد النماذج الواضحة. فبعد أن دخلها الصليبيـون يوم ١٠٩٩/١/١٣، قتلوا جميـع السكان على بَكْرة أبيهم، وفيهم جميع النساء والأطفـال، ليبثّـوا الرعـب في قلوب العـرب، ويُضعفـوا مقاومتهم، ثمّ أكلوا لحـوم الأطفال العرب بعد طهيها. وأكملوا عملهم بأن أحرقوا المدينة[٢٦].

وفي القـدس، اقتحم الصليبيـون المسجـد الأقصى. وروى مؤرخوهم الذين شهدوا الموقعة، أن الجنود كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين[٢٧]. ثمّ إنهم جمعوا جثث القتلى حتى تعـالت أكوامهم فحـاذت البيوت ارتفـاعاً[٢٨]. ولم يختلف هذا الوصف، بقليل أو كثـير، عمّا رواه المؤرخ العربـي ابن الأثير[٢٩].



□ اسلحة صليبيّة

وثمة من يقول إن عدد المسلمين الذين قتلهم الصليبيون منذ خروجهم من القسطنطينية حتى احتلالهم القدس، في تموز/يوليو ١٠٩٩، قد تجاوز نصف مليون إنسان، فيهم الكثير من النساء والأطفال. ويذكر ابن الجوزي أن عدد من ذبحوا من المسلمين في القدس وحدها تجاوز سبعين ألف شخص(٣٠). وقد وصف عدد من المؤرخين الطرائق الوحشية التي اتبعها الصليبيون في إزهاق هذه الأرواح(٣١).

وإذا كان الصليبيون، غداة استيلائهم على القدس، قد أحرقوا اليهود في معبدهم، فإن صلاح الدين الأيوبي، الذي كان يستعيد القدس في العام ١١٨٧، قد أذن لليهود بالعودة إلى المدينة المقدسة(٣٢).

وإذا كانت القرون الوسطى لم تعرف الإرهاب، بأشكاله وأساليبه المعاصرة، فإن الصهيونية أضافت إلى وسائلها في القتل والإبادة، هذا الإرهاب المعاصر، حتى احتلت المنزلة العليا في استخدامه والتفنن في أشكاله وأساليبه. ذلك أنها بالعنف والإرهاب، وحدهما، اغتصبت أرضا وأبادت ونفت واضطهدت شعباً. وما من مسؤول صهيوني، إلا كان إرهابياً، في الفكر أو الممارسة، أو في كليهما معاً. ومن يراجع تاريخ الإرهاب الصهيوني، سواء قبل إقامة الدولة الصهيونية أو بعدها، يجد أن معظم القادة والمسؤولين الصهيونيين هم قادة للمنظمات الإرهابية، السريّة والعلنية، أو مسؤولون أو عاملون فيها.

ولقد كان الإرهاب، على مدى أكثر من نصف قرن، أحد المقومات الفكرية الأساسيّة للحركة الصهيونية، وأحد الأساليب التي طبقتها الصهيونية لتحقيق غرضها الأول، وهو إقامة إسرائيل. لذا فقد اقترن إنشاء الكيان الصهيوني بأبشع أشكال الإرهاب وأفظع أنواعه. ثم أخذت إسرائيل عن الصهيونية الإرهاب، فكراً وأسلوباً، لتمارسه ضد الشعب العربي الفلسطيني والدول العربية المجاورة.

وتاريخ الحركة الصهيونية وإسرائيل حافل بسلسلة طويلة من أعمال الإرهاب والقتل الجماعي، بمثل ما هو التراث الفكري الصهيوني غنيّ جدّاً بالأعمال الفكرية التي تعبّر عن الإرهاب، عقيدة ووقائع. فقد نشر قادة الصهيونية وزعماء إسرائيل ومفكروهما مؤلفات كثيرة، بحثوا فيها الإرهاب، كعقيدة وسياسة ووسيلة، وتحدّثوا عن المنظمات الإرهابية وايديولوجيتها ونشوئها وتنظيمها وأهدافها وإنجازاتها والجرائم التي ارتكبتها. ويمكن القول إنه ليس في العالم القديم أو المعاصر تراث عسكري أو سياسي، لأي مجتمع بشري أو حركة سياسية، يشبه التراث الصهيوني والإسرائيلي عن الإرهاب.

وعندما فكّرت الصهيونية في إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، رأت أن ذلك لن يتمّ إلّا بإبادة سكان البلاد الأصليين، أو طردهم، عن طريق الإرهاب والترعيب والتخويف. وعلى هذا، شكّل الإرهاب والعنف، منذ البداية، صلب الخطة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

وهكذا استعملت الصهيونية في غزوها فلسطين، ومن ثمّ إسرائيل في تثبيت كيانها وتوسيع حدود احتلالها وتفريغ فلسطين من أهلها، أساليب كثيرة ومتنوعة، منها: القنابل في المقاهي والأسواق وعلى وسائط النقل، القنابل على الدوائر المدنية الحكومية، الاغتيال السياسي داخل فلسطين وخارجها، أخذ الرهائن ثم قتلهم،

نسف الفنادق، نسف سفارات أجنبية خارج فلسطين، لغم سيارات الإسعاف، نسف البنوك والسطو على أموالها، الرسائل الملغومة خارج فلسطين، نسف بيوت قروية ومبان سكنية بسكانها، ضرب أحياء مدينة بالمدافع، شنّ حرب نفسية لحمل المدنيين على الرحيل، نهب المدن، اغتيال موظفي الأمم المتحدة، مصادرة جماعية لمتلكات النازحين والغائبين، هدم قرى مواطنين بكاملها، طرد جماعي لمواطنين من البلاد، إطلاق الرشاشات على قبائل بدوية من أجل طردهم جماعيّاً من البلاد، نسف طائرات ركاب خاصة مع ركابها، استعمال النابالم ضدّ المستشفيات، قصف وإطلاق النار على أفواج اللاجئين الفلسطينيين، هجوم بالقنابل برّاً وجوّاً على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، طرد قادة فلسطينيين ومحاولة اغتيالهم، ضرب المدن العربية بقنابل النابالم، الاغتيال بطريقة لغم السيارات الخاصة، احتجاز نساء وأطفال من أقرباء المشبوهين كرهائن في معسكرات الاعتقال، قتل سكان قرى عربية، مثل: مذبحة دير ياسين، حيث قتل رجال عصابتي إرغون وشتيرن الإرهابيتين ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً ومثّلوا بهم، ليلة ٩ ــ ١٠/٤/١٩٤٨ ــ مذبحة قبية، حيث قتل الجيش الإسرائيلي ٤٢ رجلاً وامرأة وطفلاً ومثّل بهم، ونسف ٤١ بيتاً، ليلة ١٤ ــ ١٥/١٠/١٩٥٣ ــ مذبحة كفر قاسم، حيث قتل حرس الحدود الإسرائيليون ٤٧ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ٢٩/١٠/١٩٥٦ ــ مذبحة مخيم اللاجئين في خان يونس، حيث قتل الجيش الإسرائيلي ٢٧٥ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ٣/١١/١٩٥٦ ــ مذبحة مخيم اللاجئين في رفح، حيث قتل الجيش ١١١ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ١٢/١١/١٩٥٦.

وثمّة حقيقة أخرى كُشف عنها الغطاء في أواخر العام ١٩٨٦، تثبت أن خروج القسم الأكبر من الفلسطينيين من المناطق التي احتلتها الهاغناه في فلسطين في مرحلة إقامة إسرائيل، كانت نتيجة مباشرة للعمليات الإرهابية التي نفّذتها الهاغناه ومنظمتا إرغون وشتيرن، وليست نتيجة رغبات ونداءات الهيئة العربية العليا لفلسطين والحكومات العربية المجاورة، وهي الدعوى التي تشبثت بها الصهيونية لتفسير ظاهرة الهجرة الجماعية الفلسطينية من مناطق الاحتلال.

ولقد كُشف عن هذه الحقيقة الكاتب الإسرائيلي «بيني موريس» حين نُشر في كتاب حديث له[٣٢]، وثيقة هي تقرير من مخابرات الجيش الإسرائيلي، تاريخه ٣٠/٦/١٩٤٨، ويغطي المدّة من ٢٩/١١/١٩٤٧ إلى ١/٦/١٩٤٨، وجاء فيه أنّه، خلال المدّة المذكورة، غادر فلسطين ٢٣٩ ألف عربي من المناطق التي خضعت «للدولة اليهودية» في قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، و ١٥٢ ألف عربي من المناطق التي احتلتها القوات الصهيونية من أراضي الدولة الفلسطينية.

يثبت التقرير أن الهجرة العربية كانت ٥٥ ٪ منها بسبب عمليات الهاغناه (ثمّ الجيش بعد قيام إسرائيل في ١٥/٥/١٩٤٨)، في حين أنّ ١٥ ٪ من الهجرة كانت بسبب عمليات منظمتي إرغون وشتيرن، وما تبقى من الهجرة (أي ٣٠ ٪) كان نتيجة الذعر من تلك العمليات.

ويثبت التقرير أيضاً أن الهجرة العربية كانت على عكس رغبات الهيئة العربية العلياوحكومات الدول العربية المجاورة، وأن هذه الحكومات كافحت الهجرة «بالتهديد والترغيب وفرض العقوبات».

إضافة إلى ذلك، تشهد وثائق الأمم المتحدة، وبخاصة تقارير لجان التحقيق وقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن، على أن إسرائيل لم تترك مبدأ أو حُكْماً من مبادىء القانون الدولي وأحكامه إلّا خرقته أو انتهكته. وجميع تلك الانتهاكات تتعلق بحقوق الإنسان. والوسيلة التي اتبعتها في ذلك هي الإرهاب. وقد جرت وقائع ذلك كلّه ضدّ الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، إذ قامت إسرائيل بأعمال القتل الفردي والجماعي، وإخراج السكان العرب من أراضيهم ومصادرتها، وترحيلهم وطردهم وتشريدهم واعتقالهم وسجنهم وتعذيبهم حتى الموت، وفرض العقوبات الجماعية عليهم، والتعدّي على حرياتهم ومعتقداتهم الدينية، ومحاولة حرق أو تهديم الأماكن المقدسة، وتدنيسها، وحصار المدن والأحياء والقرى، ومنع التجول. وهي أعمال تقوم

بها سلطات الاحتلال والمستوطنون المستعمرون الإسرائيليون، بمعرفة السلطات أو تشجيعها أو تغاضيها عن أعمالهم. وينتظم هؤلاء في منظمات إرهابية سريّة، إلى جانب منظمات أخرى تعمل في الجهيرة، مثل: «منظمة الإرهاب ضد الإرهاب» (رمزها: ت.ن.ت)، و «غوش إيمونيم ــ كتلة الأوفياء»، و «حركة كاخ ــ هكذا»، و «ديكوي بوغديم ــ سحق الخونة»، وغيرها. وتؤكد الوقائع أن هذه المنظمات العلنية والسريّة، تلقى التأييد الضمني من الحكومة وبعض الأحزاب ومن سلطات الاحتلال.

وحينما تدعو «حركة كاخ» إلى طرد المواطنين العرب من فلسطين كلّها، ولا ترى «أي ظلم في قتل الفلسطينيين»، فإنّها تعبّر، في الجهيرة، عن نيّة الحكومة والأحزاب الإسرائيلية. وإذا لم تكن هذه قد كشفت عن نيّتها، فإنّ سلوكها وممارساتها تشهد على أنها تخلق جميع الظروف والعوامل لطرد المواطنين العرب من فلسطين، سواء بتهجيرهم بالقوة، أو بأن يهاجروا من وطنهم كرهاً بعد أن تغلق في وجوههم جميع أبواب العيش بأمن وكرامة.

وإضافة إلى هذه المنظمات المتخصصة، ذات الأهداف المحدّدة، والقيادات المسؤولة، يمكن اعتبار المستوطنين المستعمرين في الضفة الغربية وغزة والجولان في عداد الإرهابيين. فهم يقومون، وفي العلن، وبرعاية القانون الإسرائيلي، وحماية قوات الاحتلال، باعتداءات يومية، على المواطنين العرب، في المدن والقرى والمخيّمات. وهي اعتداءات دموية وحشية، تبلغ حدّ القتل الفردي والجماعي، كمثل ذلك الهجوم الذي شنّه بعض المستوطنين المستعمرين على بلدة حلحول، قرب الخليل، في شهر آذار/مارس ١٩٧٩، وأطلقوا النار على المواطنين العرب، دون تمييز، فقتلوا وجرحوا كثيرين.

ولقد تنوعت أشكال «إرهاب الدولة» وأساليبه في الكيان الصهيوني، مثل خطف الجيش الإسرائيلي، خمسة ضباط سوريين ولبنانيين (٢١/٦/١٩٧٢) كانوا داخل الأرض اللبنانية، ومثل الغارة الجويّة على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس (١/١٠/١٩٨٥).

وكانت مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا، اللذين يضمان عشرات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين، قرب بيروت (١٦ ــ ١٨/٩/١٩٨٢) نموذجاً يجسّد «إرهاب الدولة». فقد وضعت قيادة الجيش الإسرائيلي خطة المذبحة، وأشرفت على تنفيذها. وحاصرت المخيّمين، وحمت مرتكبي المذبحة، وقدّمت إليهم المساعدات. وانتهت العملية بقتل ٣٢٩٧ شهيداً.

وقد بلغ الأمر بالصهيونية أنّها لم تتورّع عن أن تستخدم الإرهاب، بمختلف أشكاله ووسائله، حتى ضدّ اليهود أنفسهم، إذا ما كان ذلك يساعد على تحقيق أغراضها. وثمّة أمثلة كثيرة على ذلك، منها نسف السفينتين «باتريا ــ ١٩٤٠» و «ستروما ــ ١٩٤٢» وإغراقهما بمن عليهما من ركاب يهود (٢٥٢ على الأولى، و ٧٦٠ على الثانية). ومن ذلك أيضاً ما أثبتته الوثائق والمعلومات بشأن تعاون الصهيونية مع النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، من أجل إجبار اليهود الألمان على الهجرة إلى فلسطين. فكان اضطهاد النازية لليهود الوسيلة التي اتفق عليها الطرفان من أجل بلوغ ذلك الهدف، وإلقاء القنابل على البيعات والأمكنة التي يتجمع فيها اليهود في بغداد وفي بعض مدن المغرب العربي، في الخمسينات. وتكررت هذه العمليات في عدّة مدن أوروبية، للغرض نفسه.

وإذا كان التركيز في هذه الدراسة قد وَضَح على العنف والإرهاب الصهيونيين، فلأنّ مصادر المعلومات عنهما غنية ومتوافرة، ولأنّهما جناحا صفة هي من طبيعة الصهيونية وعناصرها المكوِّنة لها. ولا يعني هذا التركيز نفياً أو إهمالاً للعنف والإرهاب الصليبيين، فكتب التاريخ سردت معلومات وتفصيلات كثيرة وذات دلالة.

رابعاً: في الاستراتيجية

ثمة مقولة في العلم العسكري، هي أن كل قوة عسكرية تقيم أو تفرض وضعاً معيّناً، تضع لنفسها، بطريقة ما من الطرائق، مفاهيمها الأمنية. وإذا كانت تلك القوّة استعمارية استيطانية، فلا بدّ لها من أن تشتمل مفاهيمها

الأمنية، من بين ما تشتمل، على مبادىء ثلاثة: احتلال الأرض، وتدمير العدو، والحسم.

وإن نحن عدنا إلى تاريخ الحركتين، لوجدنا أن الصليبية استطاعت، بواسطة الحملات المتتالية المتدفقة، أن تحتل من الأرض ما ظنّته، في المراحل الأولى من غزوتها، كافيا للاستيطان والاستقرار والاستمرار، وإقامة المؤسسات الحاكمة والمسيطرة والقادرة على مواجهة العدو. وكانت خطة الاحتلال تتضمن الأرض المطلوبة، وهي الأرض المقدسة، والبلاد المحيطة بها والكافية لحمايتها والدفاع عنها، والبلاد الساحلية التي تُبقي شرايين الاتصال والإمداد مفتوحة بين مصادر الحرب من جهة، ومواقعها الاحتلالية من جهة أخرى.

وحينما شعرت القيادات الصليبية أن ما احتلته من الأرض في بلاد الشام، لم يكن كافياً لحماية الإمارات الصليبية، وأن مصر تشكّل الطرف الثاني للكماشة العربية الإسلامية، توجهت إحدى الحملات إلى مصر لتجبرها على الكف عن تحرّشها بالقوات الصليبية، وعلى الخروج من ساحة الصراع. ولكن الحملة فشلت وارتدت على الغزاة هزيمة.

إلى جانب ذلك، لم تستطع الحملات، على تتاليها وغزارة تدفقاتها وإمداداتها، أن تدمّر عدوها، القوات والجماهير العربية، وإن هي تغلبت عليها هنا وهناك. ذلك لأن مصادر إمداد القوات العربية الإسلامية، وتدريبها، وتمرّس قياداتها التي توحّدت فيما بعد، وسيطرة أفكار ومفاهيم وأهداف استراتيجية واحدة على قيادة موحدة، أدّت جميعها إلى استعادة زمام المبادرة إلى أيدي القيادة المشرقية، والانطلاق بهجوم معاكس استراتيجي، استطاع أن يدمر جزءاً هاماً من قوات الخصم، وأن ينمّي في نفس العدو، بمرور الزمن، وتوالي الضغط والمقاومة الشعبية والصراع المسلح، اقتناعاً بأنّ الاستمرار في الصراع سيجرّه إلى خسارات متتالية، واستنزاف دائم لقواه.

ولأنّ الغزوة الصليبية لم تستطع أن تحتلّ من الأرض ما يكفي لحماية استعمارها وإماراتها وأهدافها، ولم تتمكّن من تدمير عدو يقيم في أرضه حيث الإمداد والتموين والدعم والدفاع



مشاة افرنج

عن الأرض والدين والمقدسات والأهل والحضارة، فقد فات الغزوة الصليبية القدرة على الحسم. وما كان لها من انتصارات تكتيكية في أغلب الأحيان، واستراتيجية في بعض الأحيان، لم تكن كافية لبلوغ الحسم الاستراتيجي النهائي المصيري. ولأنها لم تستطع أن تبلغ هذه المرحلة الحاسمة من الحسم الاستراتيجي، فقد انكفأت على نفسها، وقلّصت حجمها، حتى تلاشت من الوجود.

هذا في التجربة الصليبية. أمّا في التجربة الصهيونية، فقد كانت الدروس السابقة متراكمة أمام عيني الصهيونية، ومستوعَبة في فكرها، وبخاصة أن قاعدة الانطلاق نحو المشرق كانت، للصليبية والصهيونية، واحدة، وهي أوروبا، وأن محطة الاحتلال واحدة، وهي فلسطين، وأن الوسيلة واحدة، وهي الغزو الاستعماري الاستيطاني.

فكيف تحرّكت الصهيونية نحو هدفها، وكيف بلغته، وماذا فعلت بالمبادىء الأمنية الاستراتيجية التي ذكرناها.

ثمّة ملاحظات أولية يجدر ذكرها، ذلك أن أوروبا أرسلت حملاتها الغازية إلى المشرق في حرب معلنة جهاراً نهاراً، مع كل ما يترتب على الحرب من احتلال وقتل وتدمير. يضاف إلى ذلك،

أن أوروبا البابوية لم تكن ذات وجود مادي في المشرق. وكانت الامبراطورية البيزنطية ذات الكنيسة المنشقة، وهي إفراز أوروبي في الأصل، تعاني الضمور وتخشى الهزيمة.

هكذا كان الوضع حين انطلقت الصليبية نحو المشرق. أمّا الصهيونية، فلم يكن باستطاعتها أن تعبّىء أوروبا لتقاتل معها في العلن، ولم يكن لها من القوة البشرية والعسكرية ما يكفي لغزوة كاسحة تحتلّ الأرض وتدمّر العدو وتحسم الأمر. فلجأت إلى أسلوب آخر جدّ مختلف. فقد سبقتها أوروبا الاستعمارية إلى المنطقة العربية، سواء بواسطة النفوذ والهيمنة زمن الامبراطورية العثمانية، أو بواسطة الوجود الاستعماري البريطاني في فلسطين إثر الحرب العالمية الأولى.

وطالما أن أوروبا، ممثّلة بإنكلترا، موجودة في محطة الاحتلال، وهي فلسطين، فلتبدأ الرحلة نحو الهدف، تسللاً، ثم هجرة، ثم غزوة مسلحة.

وهكذا أخذت الهجرات تتتابع. وأخذ اليهود يبنون المستعمرات، ويصادرون الأرض أو يغتصبونها أو يشترونها بالعنف والإكراه، وذلك كله ضمن خطة استراتيجية محكمة، يموّلها الأثرياء اليهود والصهيونيون في أوروبا وأميركا، وترعاها إنكلترا بالتشريع والإدارة والحماية والتنفيذ.

وحينما توافرت الظروف لتطوير شبكة الاستعمار الاستيطاني إلى كيان دولة، استطاعت قوات الهاغناه والبالماخ والارغون وشتيرن أن تربط ما بين المستعمرات، باحتلال ما بينها من أرض، وأن تخرج «العدو» منها.

وإذا كانت الغزوة الصهيونية قد استطاعت، في حرب ١٩٤٨، أن تحتل أرضاً، فإنها لم تستطع أن تدمّر عدوها، وبذلك هي لم تبلغ الحسم. ولا تزال الغزوة الصهيونية، بعد أربعين عاماً من انطلاقها العسكري، على ما هي عليه، تزداد اتساعاً في احتلالها أرضا، ولكنها لم تقدر على تدمير عدوها. لذا فلا تزال الغزوة قائمة، ولا تزال مقاومتها فاعلة، ولا تزال الحرب سجالاً.

كانت القوة، اذن، هي الاساس الذي قامت عليه الامارات الصليبية في بلاد الشام، واستمرت بها فترة من الزمن. وكان عماد هذه القوة [illegible]

الميدان والمعاقل المحصنة. وكانت هذه المعاقل، والتي تشمل القلاع والحصون والمدن المحصنة، هي الأماكن التي مثّلت الجزر التي استقرت فيها معظم مظاهر الاستعمار الاستيطاني الصليبي وكانت مجموعة المعاقل المحصنة تشكّل أشبه ما تكون بمنظومة دفاعية مترابطة، ترفدها منشآت عسكرية استيطانية أخرى.

يضاف إلى ذلك، أن الإمارات الصليبية كانت محميّة بسلاسل من الجبال والمرتفعات التي تفصل بين السهل الساحلي والوادي الانهدامي. وقد أقام الصليبيون أهم تحصيناتهم على الضهرات الجبلية والممرات التي تربط ما بين الساحل والداخل.

وكانت القلاع الحدودية تتيح للصليبيين ملاقاة عدوهم قبل أن يتوغل عميقاً في الأرض المحتلة. وكان الجيش الميداني يحتشد في منطقة تقع خلف الحدود، حيث تتلاقى القوات القادمة من المعاقل المحصنة. وتستند القوات الصليبية، في قتالها، إلى هذه المعاقل، لتستمدّ منها العون والإمداد، وتلجأ إليها في حال التراجع.

كانت الصهيونية في مجال الأمن الاستراتيجي، أعمق فكراً وأشمل نظرة وأكثر حرصاً من الصليبية، فقد أدركت، منذ البداية، أن نجاح مشروعها الاستعماري والاستيطاني يتوقف على ما تستطيع توفيره من حماية وأمن لمستعمراتها. وهكذا نشأت التنظيمات المسلحة الصهيونية، وأبرزها هاشومير (١٩٠٩)، والهاغناه (١٩٢٠). ولم يقتصر مفهوم الأمن الصهيوني للهجرات والمستعمرات على الجانب العسكري فقط، بل تعدّاه إلى الأمن الاقتصادي والثقافي والمعنوي. وهكذا أرست الهجرة اليهودية الثانية إلى فلسطين (١٩٠٤ ــ ١٩١٤) أسس المشروع الصهيوني بمختلف جوانبه.

وكانت المستعمرات، في الأصل، مجتمعا عاملا مقاتلا مسلحا. فإلى جانب مهمتها كمؤسسات استعمارية استيطانية بشرية عاملة، كانت مراكز قيادة للوحدات المقاتلة، وقلاعا للدفاع، وقواعد للهجوم، ومراكز للتدريب على القتال. وكانت تشكّل، مجتمعة، نظاما متكاملا للدفاع الإقليمي، وبخاصة أنها بنيت في مناطق حيوية تسيطر على

محاور الهجوم والاختراق من جهة، وعلى موارد المياه والمراكز الاقتصادية من جهة أخرى.

وإلى مثل ما هدفت إليه الاستراتيجية الصهيونية، وهو شطر الوطن العربي إلى جزءين لا اتصال جغرافياً بينهما، وذلك باحتلال فلسطين، كانت الصليبية سعت قبلها إلى الهدف نفسه، وزادت عليه توسيع رقعة احتلالها، حتى تقطع الاتصال بين جناحي الوطن العربي، وبخاصة بين مصر والشام. لكن المدن الشامية الهامة، مثل دمشق وحلب وحمص وحماه، استعصت على الصليبيين، كما استعصت مصر عليهم فيما بعد. وحينما أصبح هذا الحزام من بلاد الشام إلى جانب مصر تحت قيادة صلاح الدين، أصبح في قدرته أن يسحق الإمارات الصليبية وينهي وجودها تقريباً.

وبمثل ما كانت القوة هي الوسيلة الأولى والمباشرة بين يدي الصليبية لتنفيذ استراتيجيتها، كانت القوة هي الوسيلة الطاغية والدائمة بين يدي الصهيونية لتنفيذ استراتيجيتها، لهذا كان من الطبيعي أن يقوم الفكر العسكري بالدور الأول والأهم في رسم السياسة الصهيونية الهادفة إلى زرع الوجود الصهيوني في فلسطين، وتطويره حتى يبلغ مرحلة الدولة، ثم حمايته وتوسيع إطاره الجغرافي والديمغرافي وحدود هيمنته وسيطرته. واستتبع ذلك أن تتبوأ المؤسسة العسكرية الصهيونية المنزلة العليا، سواء في مرحلة إنشاء الدولة أو بعد قيامها.

خامساً:
ملاحظات ختامية

كان من الطبيعي أن تكون أوروبا ظهيراً للغزوة الصليبية. فإذا ما تخلّى هذا الظهير عن وليده الذي نما واشتد عوده حتى عاش حوالي القرنين، كان لا بدّ لهذا الوليد من أن يضمر حتى يموت. وقد بدأ هذا الضمور حين أخذت بذور معارضة الفكرة الصليبية تظهر في أوساط المثقفين الأوروبيين، منذ أن فشلت الحملة الثانية، أي بعد نحو مائة عام من انطلاق الغزوة. وقد نمت المعارضة بمرور الزمن، وتتابع الهزائم في ميادين القتال، فخفت الحماسة، وأخذت الشرايين بين أوروبا والإمارات في المشرق تضعُف وتتقطع، حتى جاء ذلك اليوم الذي واجه فيه الوليد مصيره النهائي.

ويبدو أن هذا الدرس يلقى صداه في أذهان الباحثين الإسرائيليين. ولنأخذ مثلاً على ذلك كتاب المؤرخ اليهودي يوشع براور[٣٤]، أستاذ تاريخ العصور الوسطى في الجامعة العبرية بالقدس. ففي كتابه «عالم الحروب الصليبية»، لا يُخفي هلعه من المصير الذي آلت إليه المستعمرات والإمارات الصليبية في المشرق، بعد أن تخلى الظهير الغربي عنها، وبخاصة أنه يلاحظ نضوب الموارد البشرية التي كان يجب أن تتدفق من أوروبا على الإمارات حتى يستمرّ الوجود الصليبي قادراً على العيش والمقاومة والترسّخ.

وإذا كانت الصليبية استطاعت أن تحتلّ فلسطين وبعض أطراف الشام، فلأن التمزقات والصراعات وكثرة الدويلات وتنازع الحكام في المشرق العربي كانت الأرضية التي دخلت الصليبية عليها إلى المنطقة. وحينما استطاع نورالدين محمود، ومن بعده صلاح الدين، أن يوحّدا المشرق بشامه ومصره، تحرّرت القدس، وانسحر الوجود الصليبي.

ولقد ظلت هذه المعادلة قانوناً حكم الصراع آنذاك، فما إن عاد التمزق يفعل فعله في الدولة الموحّدة، حتى عاد الوجود الصليبي سيرته الأولى، فاحتل الساحل الفلسطيني ثانية، وسعى لغزو مصر، حتى يستقرّ له الأمر والحكم والاستيطان.

ولقد تميّزت المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية، بتعرض المشرق العربي لغزوين معاً، صليبي ومغولي. ففي حين كان المغول يدقّون أبواب بلاد الشام، كان لويس التاسع ملك فرنسا يقود حملة صليبية جديدة نحو مصر. ولقد فكّر لويس التاسع في التحالف مع المغول ليضع المشرق العربي بين طرفي كماشة. ولكن صلف المغول وقلّة خبرتهم عطّلا المشروع الصليبي[٣٥].

ولم تغب هذه الصفحة من تاريخ الصليبية عن واضعي المشروع الصهيوني، الذين

استولدوا المشروع من رحم المراكز الاستعمارية ذاتها. ولهذا سهل على الصهيونية أن تتحالف مع إنكلترا وفرنسا في شنّ حرب ١٩٥٦ على مصر.

وكان من الطبيعي أن يصاب المشرق العربي، في إثر هزيمته أمام الغزوة الصليبية، بعقدة فقدان الثقة بالنفس. فها هم قوم يقلّون عنهم حضارة، وعدداً وعدّة، يُنزلون بهم النكبات، ويحتلون أرضهم، ويقضون على مؤسساتهم، ويُخضعونهم لحكمهم.

ولعل ذلك يرجع إلى عجز القوى العسكرية في المشرق عن توفير الحماية للناس، لتعدّد دويلات تلك القوى، وتنازع حكامها السلطة، وعدم استيعابهم دلالات التحدّي الصليبي، وتغليب مصالحهم ومنافعهم الأنانية على مصالح الأمة. وحينما توافرت قيادات، مثل عمادالدين زنكي، ونورالدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، انعكس اتجاه هذه السلبيات، وعادت الثقة إلى النفوس، وردمت الهوة بين السلطة والجماهير. وبسلاح الوحدة، بدأ الهجوم المعاكس الاستراتيجي على الغزوة الصليبية.

وبمثل ما كانت الصليبية بعيدة عن رسالة المسيح، ولا مستند تاريخياً لأهدافها، ولا حق تتّكىء عليه، كانت الصهيونية عدوة الأديان السماوية كلها. فقد زوّرت التاريخ، وانتهكت ما استقرت عليه الإنسانية من قوانين وشرائع وأخلاق، واستمرت بفضل القوة، وبالمال والسلاح يتدفقان عليها من وطنها الأصلي، الغرب، تماماً كما كانت عليه الصليبية منذ ثمانية قرون.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا، أن انتصار الصليبية لم يكن تعبيراً حقيقياً عن ميزان القوى بين طرفي الصراع، بقدر ما كان مجسّداً لفراغ الكفة العربية الموقت من الميزان. فقد كانت القوات العربية، وما في المنطقة من موارد بشرية واقتصادية، كافية، إذا ما عُبّئت في جبهة موحدة، لصدّ الغزوة الصليبية وهزمها. وقد أثبتت هذه المقولة صحتها بعد نحو مائتي عام.

وبمثل ما كانت الحال في القرن الثاني عشر، كانت الحال أيضاً في القرن العشرين، تجاه الغزوة الصهيونية. ولا حاجة إلى التدليل على ذلك، فلدى العرب من الطاقات، إذا ما عُبّئت في إطار جامع موحد، ما يجعل منهم أمّة ذات قوة عالمية كبرى.

لقد نبعت الحركة الصليبية في أوروبا، ونظّمت صفوفها وهاجرت إلى المشرق العربي غازية مستعمرة. ومثلها فعلت الصهيونية، حين وُلدت في أوروبا، ومنها استمدت أصولها، وفيها تجذّرت أفكارها وتهيّأ لها المُناخ للنمو والتعبئة، ثم للهجرة إلى المنطقة ذاتها غازية مستعمرة.

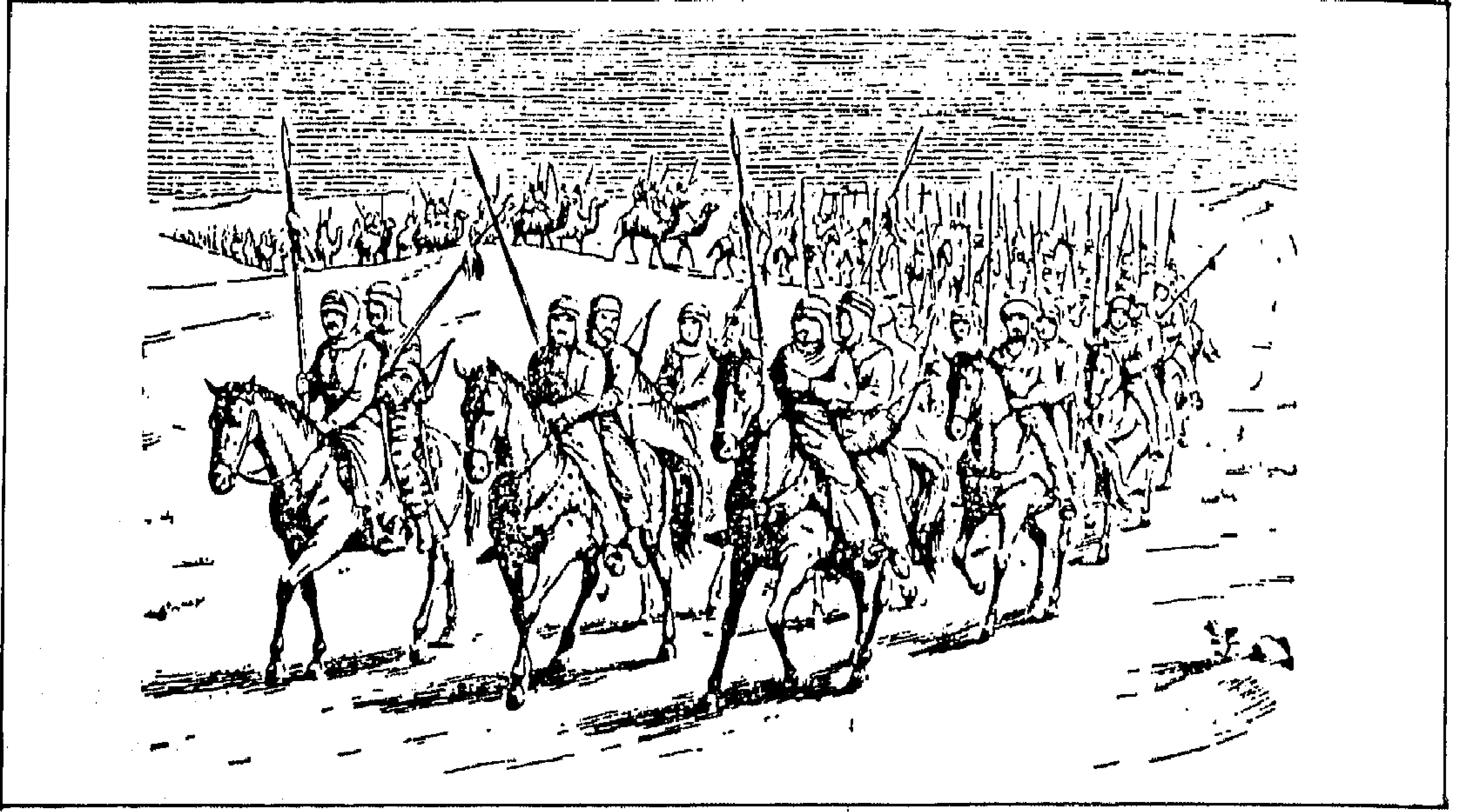
وإذا كان هذا التشابه في الجذور والأصول جاذباً للتفكير، فإن الظروف التي ساعدت الصليبية على النجاح في تحقيق أهدافها، ولو لمدة من الزمن، تكاد تكون هي نفسها التي وفرت للصهيونية عوامل نجاحها، مع التركيز على أوجه الخلاف ما بين الحركتين، وما بين القرون الوسطى والقرن العشرين.

ولأنّ الحركتين، على ما بينهما من بعد زمني، قد وُلدتا في بيئة واحدة، وتوجّهتا إلى مكان واحد، واشتركتا في الأغراض والوسائل، فهما تندرجان، حُكماً، في سياق تاريخي واحد. ذلك أن المنطقة العربية، والتي يُطلِق عليها الغرب أسماء متعددة، كانت منذ أكثر من عشرات القرون، ولا تزال، منطقة الصراع المصيري الرئيسي بين دول الشرق وحضاراته من ناحية، والأقوام والدول والحضارات الغازية من ناحية أخرى.

كان هذا هو مغزى غزوات الإسكندر المكدوني، والأباطرة الرومان، والحروب الصليبية، والاستعمار الأوروبي، والغزوة الصهيونية، وما بين ذلك وما بعده من غزوات واختراقات متنوعة ومتعددة، عسكرية واقتصادية وثقافية وغيرها(٣٦).

ولقد كانت أغراض الغزوات، التي امتدّت منذ الحروب الصليبية حتى الحروب الصهيونية، مجدولة، على تنوعها وتعدّدها واختلافها، حول محور واحد، هو تحطيم المحاولات الهادفة إلى إنشاء دولة عربية واحدة قوية في قلب منطقة الحضارة الإسلامية.

وهكذا يمكن القول، إذ نستقرىء التاريخ، إن ما يسمى أزمة الشرق الأوسط، لم تنشأ ابتداء من قضية فلسطين، وإنّما نشأت مع الحروب الصليبية، ونمت مع الاستعمار والأمبريالية،



□ طليعة للقوات العربية في القرن الثاني عشر أثناء التحرك.

وتعقدت مع الصهيونية. وذهبت، في كل مراحلها وأشكالها، وعلى تعدّد أدواتها وأساليبها، ذهبت إلى إلغاء الدولة العربية الواحدة، تحطيماً أو منعاً.

وليس غريباً أن يقودنا هذا الاستقراء للتاريخ، إلى القول إن الصهيونية، بالرغم من خصائصها المميّزة، ليست سوى الوجه المعاصر الأكثر عنصرية والأكثر عدوانية للاستعمار الغربي، كما كانت الصليبية، في عصرها منذ ثمانية قرون، ذلك الوجه المعبّر عن الاستعمار الغربي في القرون الوسطى.

إن بعض أوجه الشبه القائمة بين الصليبية والصهيونية، وبخاصة فيما يتعلق بالأهداف والوسائل والاستراتيجية، إضافة إلى الأحوال التي كان عليها المشرق العربي حين غزته الصليبية، والأحوال التي يعيشها الوطن العربي اليوم حين غزته الصهيونية، والنتيجة التي انتهت إليها الغزوة الصليبية، والأسباب العربية التي أدت إلى تلك النتيجة، إن ذلك كله يُغرينا بأن نُسقط ملامح الماضي على الحاضر، ونسبر العظات ونمتح العبر. وحينما نفعل ذلك، فإننا لا ننطلق من مقولة إن التاريخ يعيد نفسه، بالرغم من أن بعض أهل العلم والتاريخ «لم ينفوا أنّه إذا وجدت الأسباب والظروف نفسها التي أدت إلى بروز ظاهرة من الظواهر أن تعود هذه الظاهرة ثانية»(٣٧).

وإذا ما ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ العلاقات بين وطننا العربي والغرب، واستقرأنا أحداثه، حواراً وأخذاً وعطاء، وحرباً وسلماً، وتلاقح حضارات وتفاعل ثقافات، فإننا لا نستطيع إلّا أن نشعر بثقل الذكريات على وجداننا، ونحن في عصر تحرّر الشعوب وحقوق الإنسان وسقوط الاستعمار، ولا نستطيع إلّا أن ننظر إلى الوجود الصهيوني في وطننا على أنه امتداد للوجود الصليبي، بشكل ما من الأشكال، بالرغم ممّا يمكن أن نسوقه من اختلافات بين الوجودين، في الأصول والجذور والأسباب والوقائع والنتائج. إننا نذكر صلاح الدين الأوبي كثيراً، ونبحث عنه. ونحن نتطلّع إلى الوحدة العربية، ونصبو إلى لقاء سورية ومصر، ويُبَرِّح بنا الحزن إذ اقتنص الأعداء مصر وأخرجوها من مسيرة أمتها. ونحن نسمي أحد ألوية جيش التحرير الفلسطيني «لواء حطين». وما ندوتنا هذه سوى أحدث دليل على ما قلت. •

* * *

الهوامش

(١) د. امينة البيطار، «رؤية معاصرة للحملة الصليبية الأولى»، **مجلة الفكر الاستراتيجي العربي**، ع ٢، تشرين الاول/أكتوبر ١٩٨١، ص ١٨٩.
(٢) **اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمة حسن حبيشي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ٧.
(٣) برنارد لويس، **العرب في التاريخ**، بيروت ١٩٥٤، ص ٢١٤، نقلاً عن: تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، د.ت، ص ١٠٦.
(٤) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي**، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥، ص (٨ — ١٠).
(٥) كما ورد في: Franz Kobler, Napoleon and the Jews, New York 1975, p. 55.
(٦) د. فايز صايغ، **الاستعمار الصهيوني في فلسطين**، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٥، ص ٣٠.
(٧) ر. سي. سميل، **فن الحرب عند الصليبيين**، ترجمة العميد محمد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق ١٩٨٥، ص ١٤٩.
(٨) حسن حبشي، **الحرب الصليبية الأولى**، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٥.
(٩) ر. سي. سميل: **فن الحرب عند الصليبيين**، مصدر سابق، ص ١٠٧.
(١٠) المصدر ذاته، ص ٢٤.
(١١) المصدر ذاته، ص ٢٥.
(١٢) Barker, Sir Ernest, *Legacy of Islam*, T. Arnold and A. Guillaume, Oxford 1931, p. 54، نقلاً عن سميل، ص ٤٣.
(١٣) تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، د.ت، ص ٨٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٠٨.
(١٥) فيليب حتي، نقلاً عن: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، بيروت ١٩٧٣، ص ٣٦. ولم يذكر ناشر الكتاب المرجع الذي اقتبس منه.
(١٦) تيودور هرتزل، **دولة اليهود**، نيويورك ١٩٠٤، ص ١٢، نقلاً عن: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، **العسكرية الصهيونية**، ج ٢، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٣.
(١٧) عبدالرحمن أبو عرفة، **الاستيطان التطبيق العملي للصهيونية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٢.
(١٨) مثال على ذلك: طلب البيوريتانيون في إنكلترا من الحكومة، في العام ١٦٤٩ مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين. وفي العام ١٧٩٨ أعدت الحكومة الفرنسية خطة سرية لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين.
(١٩) كانت بروسيا والولايات المتحدة مصدر حماية لأعداد كبيرة من اليهود دخلوا فلسطين بطرائق غير شرعية. كما قامت الكنائس الأميركية بتقديم المساعدات إلى هؤلاء المهاجرين.
(٢٠) د. عبدالعزيز محمد عوض، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث**، ١٨٣١ — ١٩١٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٧، نقلاً عن:

Statistical Abstract of Palestine (1944-1945), p. 234, Department of statistical of the Jewish Agency for Palestine.

(٢١) وليم فهيم، **الهجرة اليهودية إلى إسرائيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ١٤٦، وكذلك:

Alex Weingrad, *Israel*, Pall Mal Press, London 1965, p. 12.

(٢٢) د. أنيس صايغ، **المستعمرات الإسرائيلية الجديدة منذ عدوان ١٩٦٧**، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٩، ص ٩ — ١٤.
(٢٣) د. فايز صايغ، **الاستعمار الصهيوني في فلسطين**، مصدر سابق، ص ١٦.
(٢٤) مقالة أبا إيبان «الضفة الغربية وغزة: الخطر من الداخل»، جريدة **سيتيزن** الكندية، ١٩٨٧/٥/٢.
(٢٥) خالد عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود ١٩٧٥ — ١٩٨٤**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا ١٩٨٦، ص ٣.
(٢٦) Amin Maluf, *The Crusades Thraugh Arab Eyes*, Al Saqi Books, London 1984.
نقلاً عن د. رؤوف عباس، مجلة **المستقبل العربي**، ع ٨، بيروت ١٩٨٥/٨، ص ١٦٧.
(٢٧) سعيد عبدالفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ج ١، ص ٢٤٣ — ٢٤٤.
(٢٨) **اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، مصدر سابق، ص ١١٩ — ١٢٠.

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت ١٩٦٦، ج ١، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤.
(٣٠) أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر آباد ١٣٥٨هـ، ج ٩، ص ١٠٥.
(٣١) تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، مصدر سابق، ص ٧٩.
(٣٢) روجيه غارودي، **أحلام الصهيونية وأضاليلها**، كتاب نشر بحلقات في جريدة «السفير» اللبنانية، ١٤/٣/١٩٨٣.
(٣٣) Benny Marris, *The Origins of the Palestinion Refugee Problem*, Cambridge University Press, 1987.
(٣٤) J. Prawer, *The World of the Crusades*, New York and Jerusalem, 1972.
(٣٥) أمين معلوف، مصدر سابق، د. رؤوف عباس، **مجلة المستقبل العربـي**، ع ٨، بيروت ٨/١٩٨٥، ص ١٦٧.
(٣٦) ورقة د. أنور عبدالملك، في ندوة «**الصهيونية العنصرية**»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧، ج ٢، ص ١٥٥.
(٣٧) د. أمينة البيطار، مجلة **الفكر الاستراتيجي العربـي**، مصدر سابق، ص ١٨١.



برقية شكر وتقدير للرئيس حافظ الأسد من ندوة حطين

● تلقى السيد الرئيس حافظ الأسد برقية تحية وتقدير وشكر من المؤرخين العرب المشاركين في ندوة حطين، التي انعقدت في دمشق رفعتها باسمهم الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة رئيسة الندوة.

وهذا نص البرقية:

إن المؤرخين والباحثين العرب المجتمعين في ندوة حطين التاريخية الكبرى، يرفعون إلى سيادتكم بالغ تقديرهم وخالص شكرهم، على مبادرتكم في إقامة هذه الندوة على أرض الشام، حيث جرت المعركة الفاصلة بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبـي، وحيث كانت دمشق منطلق الزحف والتحرير، وكانت العامل الحاسم في وحدة المشرق العربـي، التي أدت إلى انتصار العرب على الفرنجة الصليبيين، انتصاراً مجيداً خالداً في تاريخ هذه البقعة المباركة من الأرض.

إننا يا سيادة الرئيس ندرك الشبه والصلة بين غزو الفرنجة للمشرق العربـي وعدوان إسرائيل على البلاد العربية، ونعرف من الوثائق التاريخية التي بين أيدينا ومن الأبحاث التي قدمت في ندوتنا، أن غاية الصليبيين والصهيونيين واحدة وهي الاستعمار والاستيطان والاغتصاب والقتل والتشريد، ولكننا نثق أن تحرير الأرض واسترداد الحقوق في المعركة مع إسرائيل سيكون مماثلاً للتحرير واسترداد بيت المقدس في المعركة مع الصليبيين، ونثق أنكم في قيادتكم الحكيمة والشجاعة ستأخذون بالشعب العربـي في طريق النصر، كما أخذ صلاح الدين المشرق العربـي في طريق النصر، وأن الوحدة العربية التي تعملون لها وتبذلون في سبيلها ستكون أساس هذا النصر، ما دامت الوحدة هي حجر الزاوية في كل كفاح عربـي مظفر.

وما من شك أن الأرض العربية التي أعطت أمتنا صلاح الدين الأيوبـي، هي نفسها التي أعطت هذه الأمة حافظ الأسد، وأن البطولة في غدنا ستكون على مستوى البطولة في أمسنا، وأنكم القائد المرتجى للمعركة الحاسمة والمظفرة التي نخوضها مع عدوتنا إسرائيل في الزمان والمكان الملائمين.

دمتم ذخراً للعرب وأملاً والله يحفظكم ويأخذ بيدكم إلى ما فيه نصرة الأمة العربية على أعدائها.

وقائع معركة حطين

بقلم: د. سهيل زكار

من المسلّم به أن الحرب هي في البداية قرار سياسي وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري واقتصادي، وتأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة على رأس المشاكل التي تثيرها الحروب، والقيادة السياسية هي وحدها التي تقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب، وضمن المعطيات الجديدة بحيث يتحول النصر إلى إنجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار، لهذا لا بد من دراسة للحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ومملكة القدس بشكل خاص مع دراسة لدولة صلاح الدين والتركيز على الجوانب التي أثر بها الوضع السياسي والإدارة السياسية على المعركة.



نضيف إلى ما سبق هناك لا بد من استيعاب لقضايا الترابط والتنسيق بين القيادات السياسية والقيادات العسكرية ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش مع الدعم الاقتصادي والأمني الداخلي، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر، ويسهل هذا علينا فهم ما حدث في حطين، فالصليبيون كانوا غرباء عن الشام وأهله، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي، يعتمدون اقتصادياً ومالياً على ما وراء البحار، وعلى الرغم من السمة العسكرية البحتة للمؤسسة الصليبية فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين والاقتصاديين كان منعدماً.

فقبل حطين بأمد كانت مملكة القدس الصليبية تعيش صراعات على السلطة كان أبرز أطرافها ريموند الثالث كونت طرابلس وزعماء الداوية والاسبتارية، وسبب هذا تهاون ريموند مع صلاح الدين، وتسلم ملك جديد اسمه غوى لعرش القدس، وحاول غوى احتلال طبرية التي كانت من أملاك زوجة ريموند، فتقرب هذا من صلاح الدين. واستغل صلاح الدين هذه الأزمة فبعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وتمكنت هذه السرية من الوصول إلى أراضي الناصرة، وعندما حاولت قوة من الفرسان الصليبيين من الداوية التصدي لها أبادتها بشكل كامل، وعادت إلى صلاح الدين تحمل إليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه

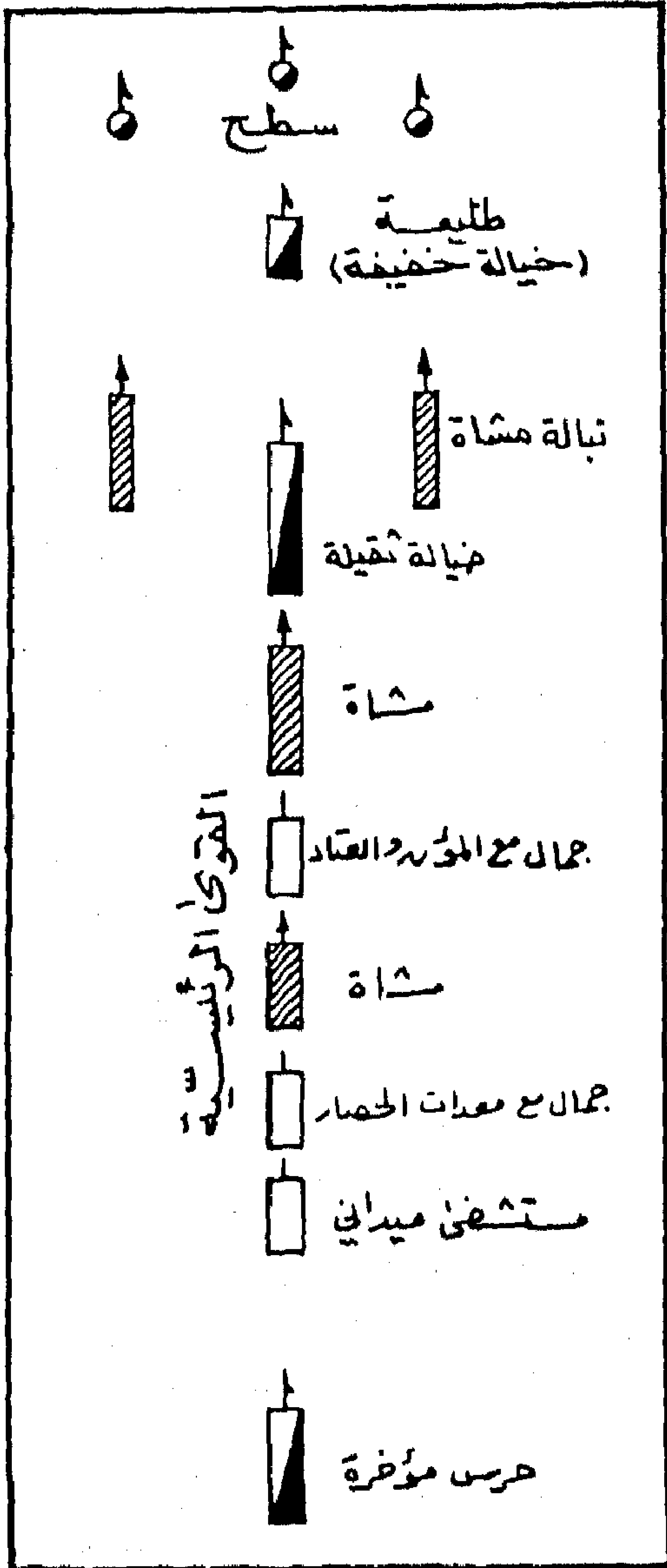
في حملته الكبرى، حملة حطين.

وإثر وضوح التهديدات الإسلامية جرى صلح شكلي بين قوى مملكة القدس، لكن هذا الصلح لم يُزل عشية حطين العداوات الشخصية والأحقاد، مما كان له أبعاد استراتيجية عميقة استغلها صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية وليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا على الأقل متكافئين، ثم إن ما قام به من ترتيبات عملية أثناء القتال، وبراعة في استخدامه لقواته، خاصة في اليوم الأخير للمعركة، يقابله إخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم، وإن هذا كله ترابط بانسجام مع خطته العامة وجاء نتيجة لمناورته في الأيام التي سبقت الملحمة الفاصلة، وهو يدل على أنه كان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لا تقل عن عبقريته السياسية والإدارية، ثم علينا أن نضيف إلى هذا كله أن التكتيك الذي أظهره المسلمون في المعركة هو على درجة عالية من الأهمية، ويبين بوضوح بعض أسس فن الحرب في الشرق الإسلامي في القرن الثاني عشر.

ويروى أن صلاح الدين قد أصيب بمرض عضال سنة ١١٨٥م وأنه عندما وقف بين الحياة والموت، رأى أن مصير الصليبيين معلق بالميزان، وتصور ببصيرته أن موته كان معناه بلا شك زوال الوحدة من بين صفوف المسلمين والعودة إلى حياة الفوضى وتبديد الطاقات مما سيمنح فرصة حياة جديدة للصليبيين في بلاد الشام.

ويروى أن صلاح الدين امتلأ بشعور عميق أن الله تعالى قد أنذره حتى يكف عن متابعة توسيع ملكه على حساب المسلمين، ذلك أن واجبه هو طرد الصليبيين المحتلين لذلك اتخذ قراره بإعلان الجهاد، وصمم على الزحف ضد القدس سنة ١١٨٧م بعدما ازدادت وعود أرناط حاكم الكرك.

وفي ربيع سنة ١١٨٧م دعا صلاح الدين إلى الجهاد وأخذت القوات تتقاطر نحو دمشق، وبعدما نجحت سرية ابنه الأفضل أوعز إليه في حلب لعقد هدنة مع فرنجة إنطاكية حتى تتمكن عساكر حلب من المشاركة في الحملة المقررة وقد فعل صلاح الدين ذلك على أرضية الخلافات



مخطط ترتيب المسير للقوات العربية في القرن العاشر.

الحادة التي كانت قائمة آنذاك بين القدس وإنطاكية.

وقام صلاح الدين بعرض جيوشه عند تل عشترا في أحواز بلدة لوى على مقربة من حدود الأراضي المقدسة، شرقي بحيرة طبرية، ومع حلول الأسبوع الثالث من حزيران وصل جميع الجند المسلم، وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح مجلساً حربياً لوضع الشكل التنفيذي

للخطط المرسومة، وصدرت الأوامر بالزحف ضد مملكة القدس، ويروى أن عدد القوات التي مرت أمام عارض جيوش صلاح الدين كان حوالي العشرين ألفاً من العساكر الديوانية والمتطوعة، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة هو العدد نفسه عند المقل، والضعف عند كثير من المؤرخين المنصفين، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه حتى لو قبلنا بأن تعداد الفرنجة كان عشرين ألفاً فإن الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لا تقل عن ثلاثة أضعاف قوات صلاح الدين نظراً لنوعية التسليح.

وأمر صلاح الدين قواته بالشروع بالزحف وقت صلاة الجمعة من يوم ٢٦ حزيران، ساعة وقوف الخطباء على المنابر في أنحاء الأرض وهم يتوجهون بالدعاء إلى الله تعالى بنصر المجاهدين في سبيله وإعزاز دينه، وبعد ما عبرت القوات الإسلامية الأردن جنوب بحيرة طبرية عسكرت هناك، وهكذا بدأ الهجوم فعلياً.

وفي هذه الأثناء كان الفرنجة قد حشدوا كل ما توفر لديهم من قوى، وأخرجوا صليب الصلبوت، ووصلتهم مساعدات مالية من أوروبا لا سيما من انكلترا، وتوجه ريموند نحو طبرية لتحصينها، وترك زوجته فيها ونصحها بمغادرة المدينة إذا ما هاجمها صلاح الدين وعجزت عن الدفاع عنها، ويشير قبولها بالبقاء في طبرية لا إلى شجاعتها فحسب ولكن لشدة تعصبها وحماسها الصليبي، وقد أظهر الصليبيون فيما بعد مثل هذا التعصب والحماس حين هبوا للدفاع عنها، فقادهم ذلك إلى حتفهم، ولا شك أن صلاح الدين كان مدركاً لهذا كله وقد أحسن استغلاله ببراعة متناهية.

واجتمع الجيش الصليبي العملاق في بلدة الصورية، وهو وإن ملك التفوق العسكري على الجيش المسلم كان بلا ظهير شعبي أو احتياط محلي، فقد ظل الصليبيون على الرغم من المدن الطويلة التي مرت على وجودهم في المشرق مجرد أفراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من جميع النواحي تعيش داخل قلاع حصينة كأجسام غير مقبولة وملفوظة.

وبعد ما حشد الفرنجة جيوشهم اللجبة في الفورية برزت أمام الملك غوى وأركانه مشكلة التكتيك، والاستراتيجية: كيف يمكن استخدام هذه القوات بشكل نافع ومؤثر، ويبدو أن غوى جمع هذه القوات في مكان واحد ولم يوزعها على القلاع والمدن لأنه شعر أن الصراع المقبل حاسم، صراع بين دولتين وحاكمين كل طرف منهما يمثل دين وحضارة وشعوب وأهداف ومطامع وقضايا.

ووقع الاختيار على منطقة الصفورية لتكون قاعدة للصليبيين لما تمتعت به من مزايا، فالصفورية لم تكن بعيدة عن الناصرة وبجوارها نبع ماء غني يكفي الجيش كله حتى في فصل الصيف وكانت المؤن متوفرة في القرى المجاورة.

وعلى بعد حوالي خمسة عشر ميلاً جثت مدينة طبرية على الشاطىء الغربي للبحيرة التي حملت اسمها، وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر، وترتفع الأرض خلف المدينة وتمتد جنوباً منها بشكل حاد إلى مستوى ألف قدم فوق سطح البحر، وتمتد جنوباً محاذية للبحرية وتشكل شرقاً صخرياً له ارتفاعات متساوية تقريباً، ويبدأ هذا الشرف في مقابلة المدينة مباشرة بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم، ويعرف باسم (قرني حطين) وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية (عيد النبي شعيب) وبمتابعة التوجه غرباً يصل الشرف إلى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة وألف من الأقدام. وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة إلى الشمال مباشرة من (قرني حطين) في الوادي، ويمكن أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال أي من طبرية وحطين، حيث أنها لا تبدو هكذا من الجنوب والغرب، ومرد هذا جزئياً أن الشرق يرتفع من شواطىء بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدماً تحت مستوى سطح البحر وجزئياً أن الأرض إلى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة إلى ثمانمائة وخمسين قدماً، وهي مليئة بصخور كبيرة، ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي إلى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهل الأحما (كفر

الأحما)(*).

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجود ممرين كانا يعبران التل، وسار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من منطقة في أهواز صفورية وعبر التل إلى الجنوب من طبرية مباشرة، وكان الطريق الثاني ينحرف شمالاً في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ويماشي في الغرب حواف قرني حطين، ويستمر باتجاه الشمال منحدراً إلى قرية حطين، ويتابع انحداره هابطاً باتجاه الشرق إلى شواطىء بحيرة طبرية، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن ألا تتماشى مع طرق القرن الثاني عشر، نجد أن الأوصاف المعاصرة للصليبيين، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين أنهم ساروا أولاً عبر طريق مباشرة، ساروا باتجاه الشرق يريدون طبرية، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالاً نحو ممر قريب من القرنين، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل الاستعمار الإنكليزي لفلسطين.

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الأراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة، وهي منطقة بلا ماء، أو على الأقل بلا نبع غزير أو جدول فيه مياه كافية لجيش كبير أثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية: في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة، وقرب بلدة طبرية، وكان هناك ماء إلى الجنوب في وادي سهل (الأحما)، لكن على الطريق المباشر ما بين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبداً.

ولا نعرف السبب الذي دفع الصليبيين إلى البقاء في الصفورية وإحجامهم عن منع صلاح الدين من عبور الأردن والزحف نحو طبرية، لعل مرد ذلك إلى خلاف بالرأي بين قادتهم، وأنهم كانوا في الصفورية متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة، وكان عليهم انتظار هجوم صلاح الدين فهم كانوا على ثقة بأنفسهم واطمئنان فقد حشدوا أكبر جيش حشده الصليبيون في فلسطين منذ حصار القدس للمرة الأولى.

ولم تكن الحرب بالنسبة لصلاح الدين مغامرة أو هواية، بل إن حملته كانت قرارا استراتيجياً له أبعاده السياسية والعسكرية التكتيكية وتم اتخاذ قرار صلاح الدين بعد دراسة شاملة واستطلاع إخباري وميداني واسع، وكان صلاح الدين يدرك بعد عبوره للأردن تمام الإدراك أحوال الفرنجة الداخلية، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم، لذلك كان عليه اقتلاعهم من قاعدتهم وجذبهم نحوه، واستدراجهم إلى شراك نصبها لهم، وعبأ صلاح الدين قواته على شكل قاد فيه شخصياً القلب، وقاد تقي الدين عمر صاحب حماه الميمنة والقائد مظفر الدين الميسرة، وحرك صلاح الدين قواته أولاً إلى منطقة (كفرسبت) وجهد في سبيل تحريك الصليبيين واقتلاعهم عن طريق المناوشات، لكن عبثاً حاول، وأخفقت هذه الطرائق في إثارتهم، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحلين بالصبر والحكمة، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شيء، إنما بشكل مدروس وفي غاية البراعة، على أنه والحق يقال كان تحركاً خطراً أيضاً، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية.

لقد عرف صلاح الدين بوجود زوجة ريموند في طبرية، وكان يعرف أخلاق فرسان الصليبيين وسهولة إثارة روح الفروسية لديهم، وكان هؤلاء إذا ما اندفعوا في اتجاه أصروا على اندفاعهم ولو كان في ذلك الموت الأكيد.

وقام صلاح الدين بمغامرته المدروسة فهاجم طبرية وأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية، وهو طريق بلا ماء ما إن يسلك لا مخرج منه، ففي يوم الثلاثاء الثاني من تموز وضع صلاح الدين الجزء الأساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري إلى الغرب من طبرية حيث تمكنت من إغلاق الطريق المباشر إلى المدينة وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياة لأنفسها، كما كان بإمكانها التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الجيش قد تمركز في مكان كانت الهزيمة فيه

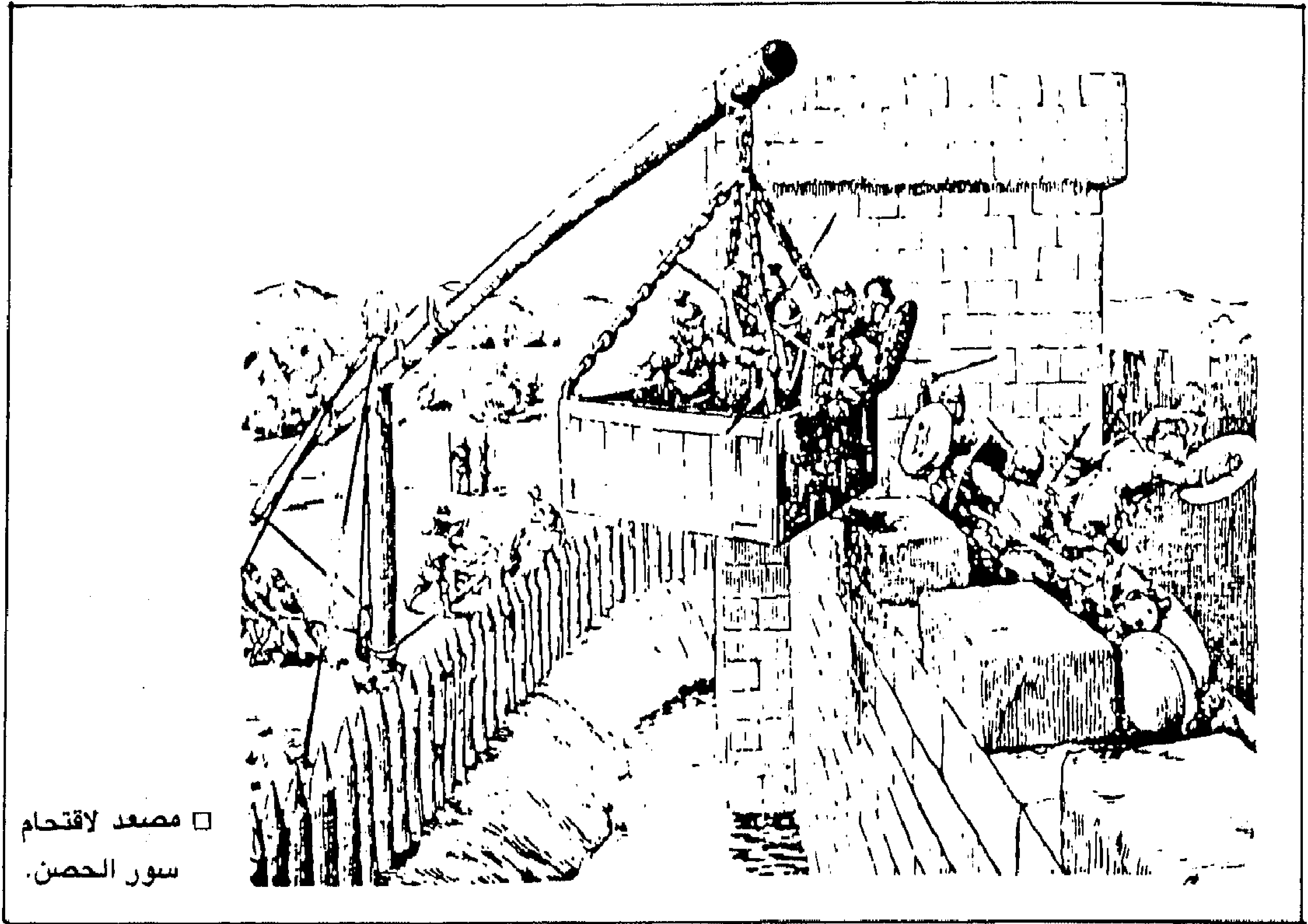
بالنسبة له أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقاً، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً في ظروف الفرار بعد القتال، ومع هذا كله نجد أن صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة، ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له، وهنـاك اعتصمت السيدة النبيلة مع حاميتها الصغيرة، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة أنفـدتها إلى الجيش الصليبـي المعسكر في صفورية، تصف سقوط طبرية وما نزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر محدق.

وقيل لقد استطاعت أميرة طرابلس وطبرية بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة حتى أوصلها إلى المعسكر الصليبي مسـاء يـوم الخميس، ويتساءل المرء هـل تسرب الرسـول ببـراعتـه الشخصيـة، أم أن أعـين رجـالات صلاح الدين شاهدته، لكن تركته يذهب، مثلما تركت قلعة طبرية بيد سيدتها، فهذا كان موجوداً في أصـل الخـطة؟ المهم أن الرسـول أخبـر الصليبيين أنهم ما لم يهبوا بكل سرعة وحماس إلى تقديم المساعدات والنجدات لطبـرية فـإن المدينة سيتم فقدانها إلى الأبد، وأنه غـادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والإحراق في أجزاء المدينة.

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة استـراتيجية للصليبيين، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة وقد طال بهم القعـود ـــ بالتحـرك والإقـدام عـلى تخليص طبـرية ولإنقـاذ السيـدة المحـاصـرة وتشعبت آراء القـادة حول هـذا المـوضـوع، وتوحدت عواطف الفرسان، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بأن عليهم التحرك في الصباح الباكر وقالوا أن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان، لا بل يفـرضـان ذلك، قـالوا ذلك تحركهم عـواطفهم وغرائزهم، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة، وفي الطريق إلى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجـاز، كما كـان أيضـاً جيش صـلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها جميعاً، لقد كان ـــ في الحقيقـة ـــ شرك منصوب لهم، لكن (الطعم) كان مغرياً لأصحاب العواطف الجياشة.

وكان الملك غوى قد عقد مجلساً حربياً لمناقشة الأمر حضره جميع البارونات ورجال الأكليروس، وخلال المناقشات حذر ريموند صاحب طرابلس من التوجه إلى طبرية واقترح التراجع نحو عكا واستدراج صلاح الدين نحوها، وبعد أخذ ورد، عـلى الرغم من موقف أرنـاط وجيـرالد رفض المجلس في حـوالي منتصف الليـل وانصـرف البارونات إلى خيمهم وهم عـلى ثقة تـامة أن الأوامر لن تصدر للجيش بالتحرك، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه، وجلس الملك بعد ذلك في سرادقه يروح عن نفسه إلى ساعة متأخرة من الليل، ودخل عليه في تلك الأثناء جيرالد مقدم الداوية، وكان عظيم التأثير عليه، وهو الذي جعل منه ملكاً للقدس، ولامه جيرالد على موقفه المؤيد لرأي ريمـوند وقـال مخاطباً إياه: «هل تصدق ما قاله هذا الخائن، وتؤمن بما قدمه من مشورة وآراء، إنه عار عليك أصلاً أن تستمع إليه، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك، وأنه أيضاً لعار عليك عظيم، كما هو مهين بالنسبة لك ـــ وأنت الذي توجت ملكاً منذ زمن غير بعيد، واستطعت على الرغم من ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هـذه الأرض ـــ أن تتراخى وتتهاون، وتدع مدينة هي على بعد ستة أميال منك، نفقدها لعدونا، إن هذه أولى المهـام التي ألقيت عـلى عـاتقـك، وأول الواجبات التي عهد بها إليك منذ جرى تتويجك واعلم جيداً، قبل أن ترى، أن الداوية سيجعلون أقبيتهم البيضـاء ويبيعونهـا أو يـرهنـونهـا ما لم ينتقم من المسلمين ما حل بـي وبهم من عار وإذلال (يشير إلى واقعة الناصـرة) امض واعلن في الجيش كله، أن على كل رجل حمل سلاحه الانضمام إلى جماعته للانضواء تحت لواء الصليب المقدس» والزحف نحو طبرية.

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم بعدم رفض أو تعديل مثل هذه الأوامر بعد صدورها، وكانت ساعة إصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل، فيها ترتخي الأجساد وتهبط المعنويات وتكثر الأحلام،


□ مصعد لاقتحام سور الحصن.

ويصف مؤرخ فرنجي يعتقد أنه كان في ذلك الجيش حالة الانزعاج بين الجند وأن بعضهم أصر على معرفة السبب في اتخاذ هذا القرار، لكن الملك رفض إعطاء التفسير وأصر على الزحف، فأطاعوه مكرهين والأسى يملأ قلوبهم ولربما — حسب عبارته — كان خيراً لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة أوامره».

ولقد حفظ لنا أدب حطين قصصاً كثيرة تصور الحالة النفسية المتدهورة للصليبيين في تلك الساعة من ذلك أن واحداً من مشاة المؤخرة ألقى القبض على امرأة مسلمة عجوز فأعلن أنها كانت ساحرة وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي، وانتشر الخبر، وهاج الجيش وماج، واضطرب الحال، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم، وجرى إيقاد نار عظيمة لإحراقها، وقيل أنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها، وزاد الاضطراب والهياج حتى أقدم أخيراً أحد الدجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه، وتناثر دماغها في كل مكان، وأصاب دمها الكثيرين، حتى قيل أن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها، ولقد رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي:

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفاً من ثلاثة أقسام، ففي المقدمة سار ريموند على أسس مرتبة، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه، ووقف الملك في القلب ومع رجاله وفرسانه وصليب الصلبوت محمولاً من قبل سقفي عكا واللد وبقي في المؤخرة «بالين صاحب إبلين» ومعه فرسان الداوية.

في فجر يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية، وكان معسكرهم مرصوداً من قبل المسلمين، ولذلك نقلت الأخبار بسرعة إلى صلاح الدين، الذي ما إن سمع بذلك حتى سر سروراً كبيراً ولسان حاله يقول: «جاءنا من نريد ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع، ولا عن فتحه وازع» وتخلى صلاح الدين عن الأشراف على تحرير قلعة طبرية والتحق بقواته تحت الشرف الكبير.

وما ان أخذ الصليبيون الطريق حتى شرع المسلمون في مناوشتهم من جميع الجوانب تمهيداً لفصل الرجالة عن الفرسان، ومضى الصباح وارتفعت الشمس نحو قبة السماء واشتد الحر وازداد العطش وعظم ولم يكن هنالك ماء وواضح أن التحرك المفاجىء للجيش، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل، واحتمال أن قادة الصليبيين قد تخيلوا أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح. قد جعل الفرنجة لا يحملون معهم الماء ولا حتى المؤن، ولعلهم لم يكن لديهم أوعية لحفظ الماء فنقله أثناء معسكرتهم في الصفورية، ومهما يكن السبب لقد تبرهن أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء.

وزحف الصليبيون نحو طبرية في ظل ظروف صعبة جداً، ونبال المسلمين تصيبهم وتعقر خيولهم، ووصلوا في حوالي منتصف النهار إلى قرية لوبية وهي في وسط الطريق إلى طبرية، وهنا ازداد ضغط كتائب الإسلام عليهم من كل ناحية وبدأ المسلمون في تنفيذ المرحلة الحاسمة من خطتهم في فصل الفرسان عن الرجالة، وكان فرسان الداوية يسيرون في مؤخرة الجيش، وضغط المسلمون ضغطاً هائلاً عليهم، وصل إلى حد أرغم فيه الملك غوى على إصدار أوامره بالتوقف ونصب الخيم وإقامة معسكر، وكان هذا قراراً انتحارياً وغلطة قاتلة، وباتت المسألة الآن ليست وقفاً على قرب المسافة من الماء، أو بعدها، بل على حقيقة أنه لم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى الصفورية ولا التقدم نحو الأمام إلا بصورة انتحارية لأنهم باتوا محاصرين داخل طوق شديد متين، وكان المكوث في المعسكر أمراً ليس ممكناً لانعدام الماء والطعام ولأنه ليس هناك أمل بنجدات، لأن الملك غوى لم يدع وراءه أي نوع من الاحتياط، فحتى حاميات القلاع كان قد ساقها معه وترك كل مكان بدون جند.

وتشير بعض الروايات إلى أن غوى قصد من إقامة معسكره في لوبية جمع شتات قواته والقيام بهجوم يوصله إلى الماء، وتعذر الهجوم وهنا اقترح عليه الانعطاف نحو التلال المودية إلى قرية حطين لقضاء الليل هناك حيث الماء وإمكانية الدفاع.

ويلاحظ المتتبع لتاريخ المعارك في العصور الإسلامية والعصور الوسطى الأوروبية أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة بتبديل الجيش لمواقعه القتالية كانت تقود إلى الفوضى وتؤدي إلى الهزيمة، وبالفعل ما ان غير الملك اتجاهه حتى فقد جيشه نظامه وتماسكه مما شجع المسلمين على زيادة هجماتهم، ومن جديد عندما وصل الملك إلى قمة حطين توقف ونصب سرادقه.

وحل ظلام وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء وهم تحت السلاح دونما أمل بالماء أو بالنجاة، وبلغ الإنهاك الجسدي لديهم حداً عالياً، وباتت البشائر واضحة تشير إلى أن ساعة دمار المؤسسة العسكرية اللاتينية باتت قاب قوسين أو أدنى.

لقد انتصرت العقيدة القتالية لدى المسلمين بعد هزائم عديدة مضت، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي، فقد زحف الصليبيون من صفورية يشكلون جيشاً عملاقاً، تخيلوا أنه لن يقهر، وأن ما من قوة على وجه الأرض يمكنها أن تتصدى له أو تعترض سبيله سار به قادته على الطريق المباشر نحو طبرية وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات اعتماداً على عددهم وعدتهم وشجاعتهم وتعصبهم، لكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى، فقد ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها، بل استدرجوا إليها وأرغموا على التوجه حيث دمارهم، حين غرقوا في بحر من الفوضى والتعب وصحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية، لكن كان هناك القوات الأساسية من جيوش الإسلام واقفة تنتظرهم فقط لتجهز عليهم.

لم يلمس الصليبيون في ليلتهم مع خيولهم الماء، وبات المسلمون حولهم في بحبوحة وفي راحة وتمكن حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة باستمرار، وتبعاً لبعض الرواة أمر صلاح بصب بعض الماء على الأرض على مرأى من الصليبيين ومسمع ليزيد عذابهم، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنوراً لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر

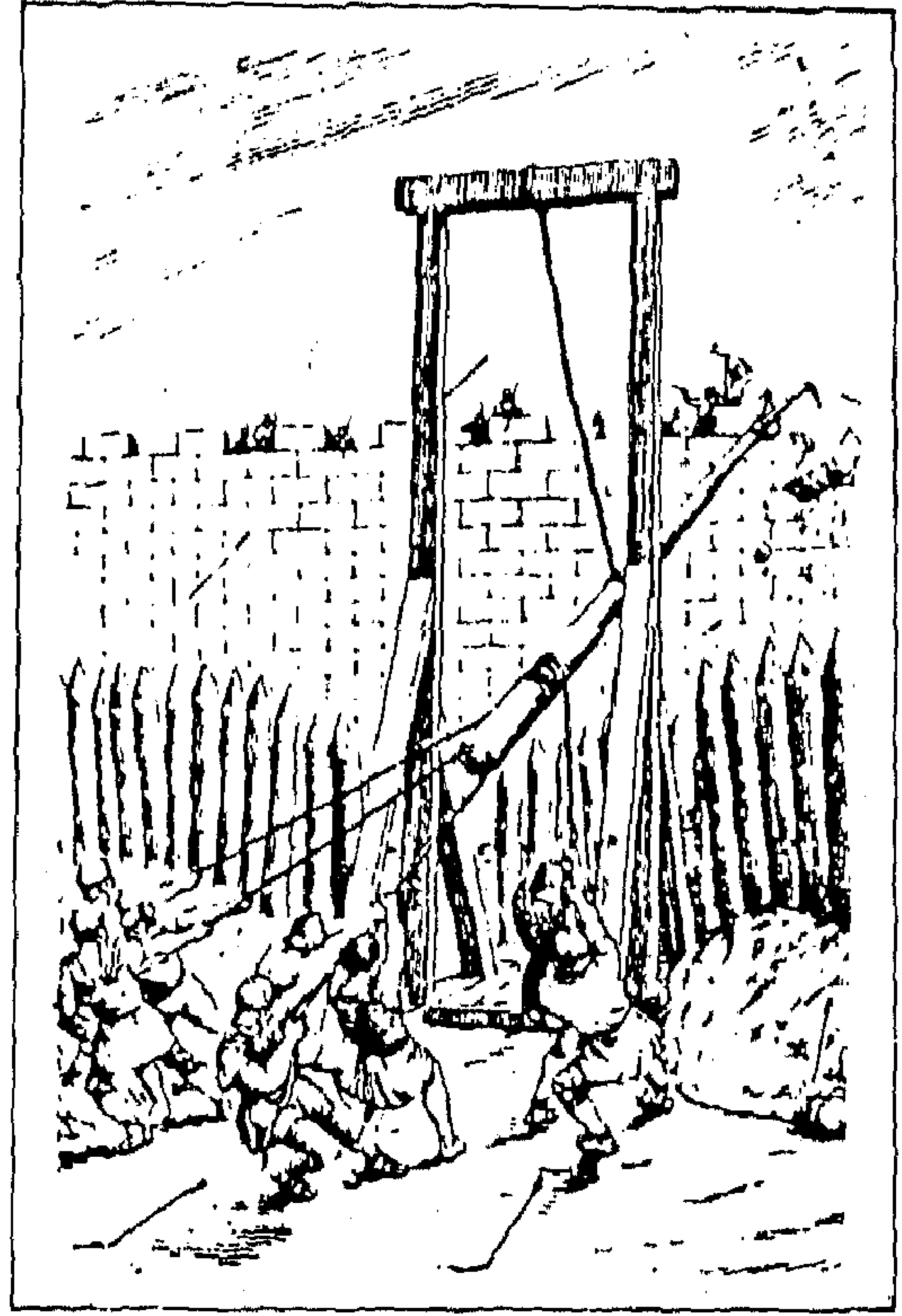
الصليبي، ولم تتوقف الهجمات وإطلاق النشاب والمواد المحرقة، وأصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات «الله أكبر، لا إله إلا الله»، ولذلك لم يعرفوا مذاق الراحة وغرقت في ظلمة الليل آمالهم كلها، وزالت معها شجاعتهم، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة.

كان المسلمون حتى الساعة يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم، لكن قويت الآن قلوبهم فبفضل قيادة صلاح الدين لهم وهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم، وحقاً صنع العماد الأصفهاني الكاتب، وكان من شهود المعركة، حين وصف تلك الليلة بقوله: «وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت وركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك، واستبشر رضوان، فهي ليلة القدر خير من ألف شهر ــ تنزل فيها الملائكة والروح، وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم: «فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة»، وبتنا والجنة معروضة، والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته، والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الإسلام وبديله».

وسهر صلاح الدين ليلته بطولها وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي، فأعطى كل كتيبة من الجند مهماتها ووزع كميات هائلة من النشاب، وأوقف «سبعين جمازة في حمى الوغى، يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه» وصلى الجميع وتوجهوا بالدعاء إلى الله.

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز كان الفريقان جاهزين، من أجل الصراع النهائي ولا شك أن كلا منهما أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في الشرق متوقف على نتيجة الصراع وعلى الرغم مما كان حدث في اليوم الماضي كان سلاح الفرسان الصليبي في الحقيقة ما يزال يملك قدرات هائلة على الخرق، ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصول إلى الممر إلى الشمال من القرنين ومن ثم الوصول إلى الماء مهما كان الثمن، وكانت المنطقة وعرة لا مجال فسيحاً فيها لعمل الفرسان الثقال ولحملتهم، وأدرك صلاح الدين هذا وهنا ظهرت عبقريته مجدداً، فقد كان ريموند الثالث في المقدمة ومعه أبناء زوجته الأربعة وريموند أمير إنطاكية وفرسانه، ومن جديد استدرج المسلمون هؤلاء الفرسان إلى «ما ظنوه مجالاً رحباً للحملة» لعزلهم عن الرجالة، وكان صلاح الدين يرغب في تأخير الملحمة حتى تصبح الشمس في كبد السماء وتشتد الحرارة، وفتحت قوات صلاح الدين الطريق قليلاً، وأفسحت المرور به، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفرنجة بالوصول إلى أهدافها أو النجاة ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر، لكنه وجد المسلمين هناك قد سدوا المنافذ كلها أمامه، وحاول أن يتخطاهم، ويفتح ثغرة أو منفذاً بين صفوفهم فحبطت أعماله، وأجبرت الرمايات الكثيفة مقدمة ريموند على الانحراف نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين، وتبعها بقية الفرنجة، وهناك التحمت القوتان الرئيستان من الجيشين، وكان الآن ترتيب الجيش الصليبي مختلفاً عما كان عليه بالأمس، ولدينا وصف وثائقي قدمه أحد الرواة الحضور في المعركة جاء فيه: «بعدما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية، صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهمة حماية الجيش بواسطة الرمايات، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة، وعليه تتم حمايتهم برماحهم، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق آمناً من خلال التعاون مع الفريق الآخر».

ويبدو أن الرجالة والسرجنتية المسلمين بالقسي العقارة والفؤوس قد وقفوا في الأمام وعلى الجناحين تمهيداً لهجوم الفرسان الثقال، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان أفسح الرجالة السبيل لهم في الأمام، ثم ما لبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين ويبدو أن الملك غوى قد تمركز ومعه فرسانه المختارون وصليب الصلبوت في قلب القطاع الرئيسي وكان هناك أيضاً الداوية والاسبتارية، ومن المقرر أن صليب



□ خطاف طويل لتخريب السور وفتح ثغرة.

الصلبوت كان الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذلك اليوم الحاسم.

وهجم الفرسان وضغطوا على المسلمين ضغطاً شديداً، فقتلوا عدداً منهم، وتراجع المسلمون أمامهم، ولم يكن عملهم هذا فراراً، بل عملاً تكتيكياً مرسوماً، لذلك أحبط جهد الفرسان وكان بلا مردود، وأخفقت خطة الفرنجة، فقد كان هجوم الفرسان بحاجة إلى دعم وحماية الرجالة، لكن هؤلاء عجزوا عن تلبية هذا المطلب، وأدى هذا إلى عزل سلاح الفرسان عن سلاح الرجالة، وتكتل الرجالة في مكان واحد، ورفضوا أوامر القتال، ولم يعد الآن بإمكان الفرسان الثقال والتركبلي إيقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب، استغاث الفرسان بالملك فلم يستطع إغاثتهم وكل ما فعله أمر مجدداً بنصب الخيم من أجل حماية صليب الصلبوت وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين، فقد أمل الملك أن تكون الخيم مكاناً لتجمع القوات المتبعثرة ولتعوض عن خسارة المشاة، لكن ما حدث مجدداً هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي، وصارت خيول الفرسان الدارعين بلا حماية.

لقد كان تكتيك المسلمين رائعاً، وأعمالهم القتالية مدهشة، تراهم ساعة في موقف الدفاع، وأخرى في موقف الهجوم المتحرك، وظل كونت طرابلس في المقدمة بعيداً عن الملك وعندما رأى آخر أعمال الملك عجز عن التراجع نحوه، وقرر الفرار حيث نظر نحو وجه من كان حوله وقال: «من استطاع العبور فليعبر، فالمعركة ليست لصالحنا، والقتال لا يمكن الاستمرار به».

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما أصابهم اليأس، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي، وأعلموه أن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلاً، فالشمس أحرقته والعطش أنهك قواه، وأسقف عكا ـــ أحد الأوصياء على صليب الصلبوت ـــ أصيب بضربة قاتلة، فسلم الصليب إلى أسقف اللد.

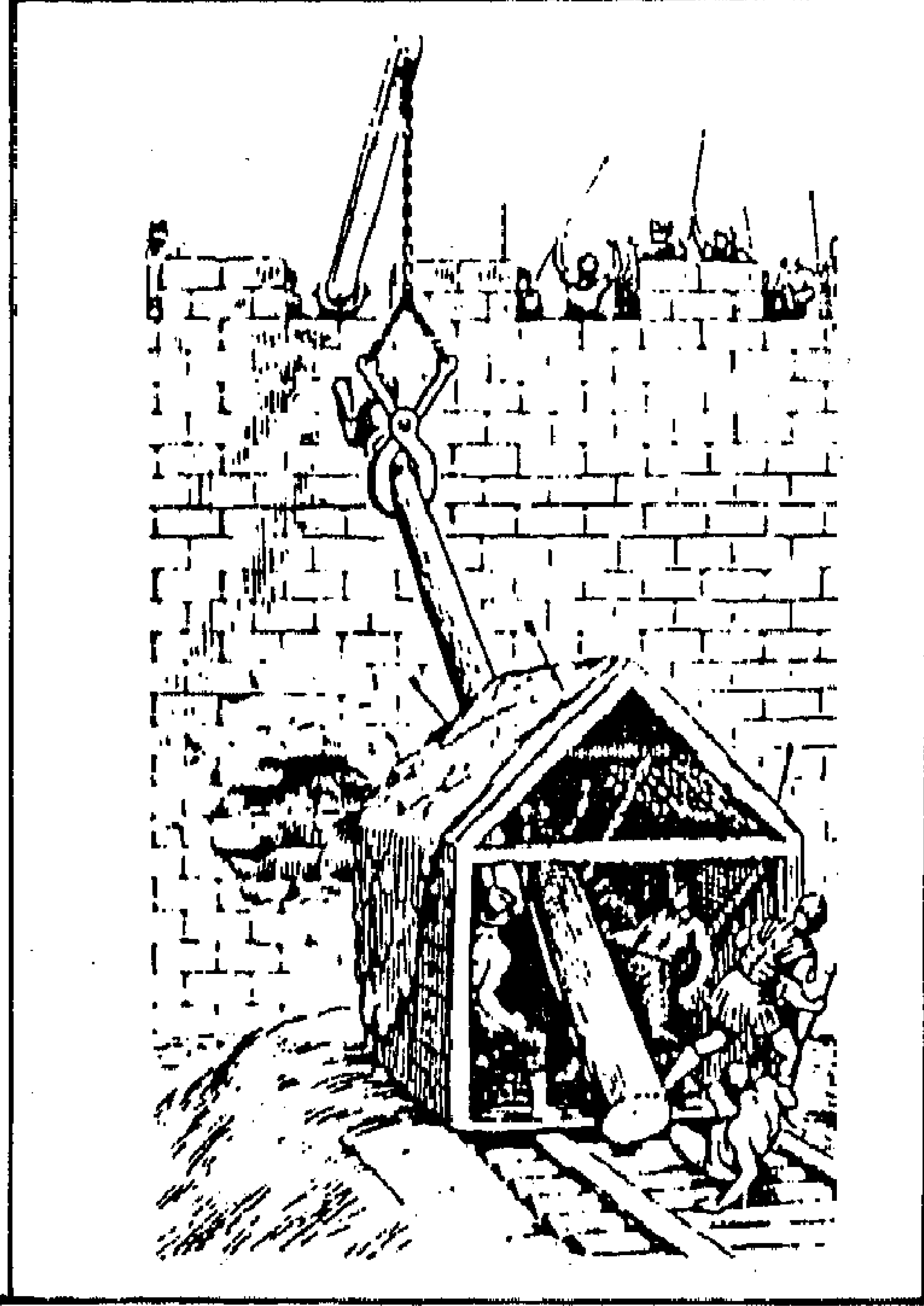
واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة، ووضحت صورة الأوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة وضغطوا حتى إبادتهم قتلاً وأسراً، وقام ريموند بحملة يائسة على ميمنة المسلمين فصد أولاً، ثم أخلي له الطريق وأغلق خلفه، ويبدو أن هذا حدث عند الظهر، وصحح أن ريموند صار الآن منفصلاً تماماً عن الجيش الصليبي. لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع كمية كبيرة من الفرسان وغدت الرقعة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكماً وأكثر ضيقاً، واقترب القتال من النهاية.

وحين شغل تقي الدين هذه الساحة فعل ذلك على شكل هجوم ساحق، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة، لكن المعركة لم تنته واستمر القتال عنيفاً جداً، وصلاح الدين يتابع الأخبار بنفسه ويوجه المعركة.

وتعرض الفرنجة الآن لمحنة جديدة، وجاء ذلك نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال، وكان قد أنهكهم القتال الشديد تحت شمس تموز المحرقة، ضاقت الآن صدورهم، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء، لا بل ربما فقد بعضهم حياته فعلاً نتيجة لذلك.

واشتد حال الصليبيين سوءاً، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم، فصاروا يعانون أكثر فأكثر من الحرارة والدخان، وقد أنقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض، لكن على الرغم من ذلك فإن بأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى آخر ساعات المعركة، واضطر بالتدريج الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين، ربما إلى القرن نفسه الذي التجأ إليه الرجالة من قبل، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ضربة المتهم إيلاماً شديداً أكثر من الحر والعطش والدخان والنشاب، وحتى من الهزيمة نفسها، ذلك أن تقى عمر صاحب حماة وقائد الميمنة قد تمكن بهجومه الكاسح الذي جاء عقب فرار ريموند من الاستيلاء على صليب الصلبوت، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين.

وقد يكون من الصعب بالنسبة للإنسان المعاصر تصور معنى خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجال، لكن الذين يفقهون في أساليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقدير مكانة أية أداة تؤثر على المقاتلين خاصة أثناء القتال، وكانت خشبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جداً لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم



□ ملقط جبار لالتقاط راس كبش يقوم بثقب ثغرة في السور.

خاصة، فهي الأداة التي من أجلها أثار هرقل ــ امبراطور بيزنطة صليبية القرن السابع ضد الامبراطورية الساسانية، لقد حملت هذه الخشبة مع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية، لاعتقادهم أنها تجلب ــ لا بل تضمن ــ التأييد السماوي لأعمالهم، وقد حفظ الفرنجة جذع الخشبة، وأعتنوا بها عناية فائقة، ولم يتم استرداد هذه الخشبة من قبل الفرنجة ثانية، واختفت آثارها، وقد بكاها المؤرخون والكتاب اللاتين وحزنوا حزناً شديداً لفقدانها حتى أن بعضهم اعتبر فقدانها خاتمة للمعركة.

وكان المسلمون قد عرفوا دين عدوهم، وأدركوا مكانة هذه الخشبة في معتقداته وقدروا كم هو مهم الاستيلاء عليها، وهكذا نعاود التأكيد على أن معركة حطين انتصر فيها التكتيك الإسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام، ولذلك كان النصر فيها باهظ الثمن وقد حدثنا العماد الأصفهاني عن الصليب وعملية الاستيلاء عليه: «ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت وهو الذي إذا نصب

وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ومسجودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدرر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحماته الرؤوس، تبادروا إليه وانهالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلف، ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشد مصاباً لهم، في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولا لهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو الههم، وتعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتعاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثاله صلباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً».

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع، وتجمع هؤلاء حول الملك، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته وقاموا بهجوم، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار، وبعد نجاح أولي تمكنوا فيه من دفع المسلمين إلى الخلف حيث وقف صلاح الدين، بادر هذا القائد الشجاع، فأمر على الفور بهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم، ومكن المسلمين المعاصرين هذه الخاتمة بقوله:

ولما حمل الإفرنج «تلك الحملات ازدادوا عطشاً وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم».

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر، وأفضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة، واربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثلما فعل، وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم، فالتفت والدي إلي وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة، فنزل السلطان، وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين. وأسروا أيضاً صاحب جبيل، وابن هنفري، ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً بليبانوس صاحب البترون، وهيوج صاحب جبلة وصاحب مرقية»، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل... إلى الآن بمثل هذه الوقعة.

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعدون بالآلاف، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت إلى حد أنهم يحاولون الفرار، ذلك أنهم وضعوا بالأسر، وتركوا

بلا حراسة حتى حملوا إلى دمشق وسواها. ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية: «وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون اسيراً أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم».

ولما انتهت أعمال القتال، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى: «نزل صلاح الدين من خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس أرناط صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فتسرب وأعطى فضله برنس أرناط صاحب الكرك فتشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ثـ كلم البرنس وقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداها لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدراً، فلما قتله وسحب وأخرج، ارتعدت فرائص الملك، فسكن جأشه وأمنه».

لقد عومل الأسرى معاملة إنسانية ممتازة وحملوا إلى دمشق حيث نـودي بهم أو أطلق سراحهم، وذلك باستثناء أرناط صاحب الكرك وفرسان الداوية والاسبتارية، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب حكم عليهم بالإعدام.

وكان عدد الفرسان الجرحى قليلاً، لكن لم ينج من حيولهم فرس واحد، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة، وقد أثر به المنظر تأثيراً عظيماً فقال: «إلى من عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة، فإن من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودراك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك فرسي وملك، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا ما هو سالم، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم».

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين، بعد جهود جبارة مضنية، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها، وربح صلاح الدين لأنه تفوق على عدوه الجبار بالاستراتيجية والتكتيك، فلقد عوض التفاوت المادي بين قواته وقوات عدوه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ونجح فيما استهدفه فدمر المؤسسة العسكرية الصليبية وخط بذلك بداية النهاية للوجود الفرنجي في الشرق، وبات تحرير القدس وبقية الأرض في متناول اليد.

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب، بل من أبطال التحرير، وقد انتمى إلى حضارة فيها «الرأي قبل شجاعة الشجعان» فالرأي هو الذي انتصر في حطين، وكان على كل حال رأياً مدعوماً بالقوة والعقيدة والأخلاق والشجاعة والإيمان وبراعة التنفيذ(١). •

الهوامش

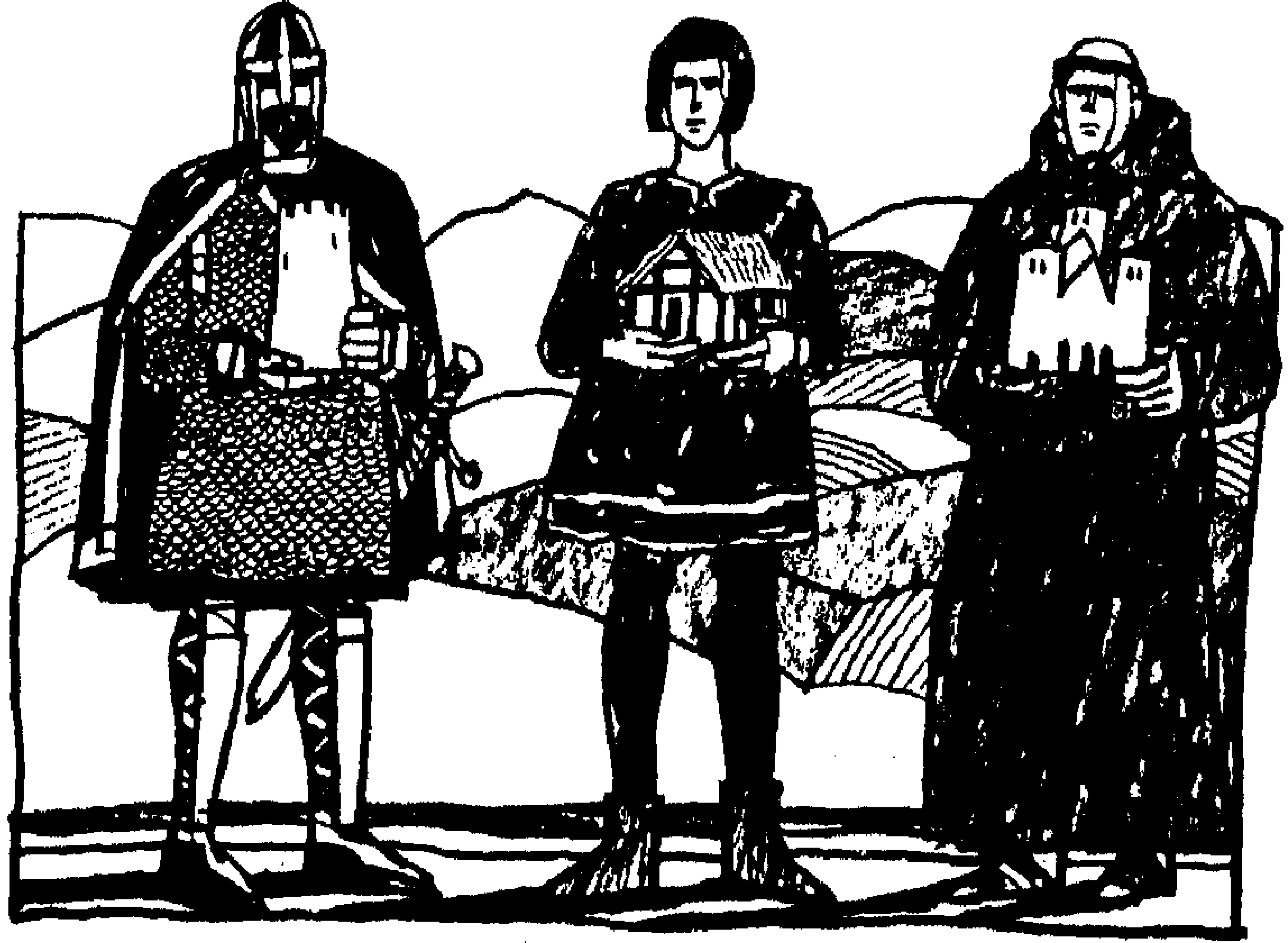
(*) قبل لوبية على اليسار، وما بين لوبية وقرية ناصرالدين وامتداداً إلى الجنوب حيث قرية كفرسبت في منطقة الشجرة.

(١) الفتح القسي: ٣٦ ــ ٥٠ النوادر السلطانية: ٤٩ ــ ٦٦، الروضتين: ٧٥ ــ ٨١. الإنس الجليل: ١/٣١٦ ــ ٣٢١. عيون الروضتين: ٢٢٣٣ ــ ٢٢٣٩. سفاء القلوب: ١٢٨ ــ ١٣٠. الكامل لابن الأثير: ١١/٥٤٦ ــ ٥٥٣. شذرات الذهب: ٤/٢٧٤ ــ ٢٧٥. البداية والنهاية: ١٢/٣٢٣ ــ ٣٢٧. السلوك: ١/٩٢ ــ ٩٣. المختصر في أخبار البشر: ٣/٧١ ــ ٧٤. طبقات الشافعية: ٤/٣٢٥ ــ ٣٤١. زبدة الحب: ٣٢٩. مراة الزمان: ١/٣٨٩ ــ ٤٠٢. الإعلام والتبيين: ٨١ ــ ٨٥. الحروب الصليبية لرفيق التميمي: ١٥٥ ــ ١٦٧. حياة صلاح الدين الأيوبي لأحمد بيلي: ١٥٣ ــ ٢١٠. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: ٥٦ ــ ٦٩.

The Crusades, by R. Pernqud, 163 — 176. The Art of war, by C. oman, 57 — 73. Crusading warfare, by. R. Smail 189 — 198. Raymond III of tripolis by. M. Baldwin, 96 — 135. A. History of the crusadesvol — I opp 563 — 621. the crusaders in the East, by W. Stevenson, 240 — 250, the crusades, by. T. Ancher, 265 — 281. A. History of the crusades, by S. Runciman, voi II, 436 — 474, Lane pool, 197 — 216 Saladin, 195 — 224.

□ صور هذا الموضوع مأخوذة من دراسة اللواء الركن المجاز سعيد الطيان.

□ ثالثوث الحملات الصليبية: الكنيسة، الاقطاع والنبلاء — المرتزقين.



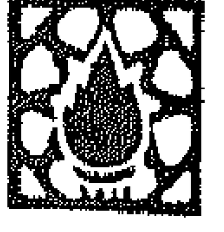
د. عبدالحميد حاجيات

الحملة الصليبية الأولى وأثرها في تطور العالم العربي

إن تقييم المعارك الكبرى في تطور الشعوب السياسي والحضاري، يتطلب التعرض إلى مختلف العوامل التي أدت إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والتي تشكل جذوره المتغلغلة في أعماق الأزمنة السالفة. ويقتضي من جهة أخرى التعرف على النتائج المترتبة عنها، التي قد تمتد عبر فترات طويلة.

والحملة الصليبية الأولى التي هي موضوع حديثنا هذا، من بين الحوادث التي تركت أثراً بالغاً على مدى الأزمنة والعصور، والتي تمخضت عن أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية سبقتها ومهدت لها خلال الحقب السالفة.

ولا شك أن تعليل الأحداث، الذي دعا اليه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، وحثّ عليه الباحثين، يمكن من تسليط الأضواء عليها، وتبين الدوافع الحقيقية التي أدت إليها وأحاطت بها. وفيما يخص الحملة الصليبية الأولى، فينبغي وضعها في إطار ذلك الصراع الطويل الذي ظل قائماً قروناً عديدة بين العالم العربي والامبراطورية البيزنطية. على أن المدة المحدودة التي ينبغي ألا يتجاوزها حديثنا هذا، لا تسمح باستعراض هذا الصراع ببعض التعمق والتفصيل، بل تقتضي الإيجاز الشديد في الإشارة إلى أهم مراحله ومكان هذه الحملة ضمنها.



لقد كان البيزنطيون، بعد تدهور الامبراطورية الرومانية أثر هجمات الشعوب المتبربرة، يسيطرون على البحر المتوسط، ويملكون معظم سواحله، ويهيمنون على الجانب الأوفر من النشاط التجاري الدولي. غير أن قيام الدولة العربية الإسلامية، وما تلاه من فتوح امتدت إلى أقطار شاسعة، في بلاد العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس، قد أحدث تحولاً جذرياً في مسار التاريخ البشري، حيث قضى على المملكة الفارسية، وزعزع أركان الامبراطورية البيزنطية، التي فقدت، في مدة قصيرة، معظم الأقطار الخاضعة لسلطتها، بينما امتدت هيمنة العرب إلى معظم أنحاء حوض البحر المتوسط، وعرفت تجارتهم ازدهاراً منقطع النظير.

وخلافاً لأكاسرة فارس، الذين لم يثبتوا أمام الفتح الإسلامي وانقرضت دولتهم في ظرف سنوات قليلة، فإن أباطرة بيزنطا مكثوا على عرش أسلافهم بفضل مناعة عاصمتهم التي صمدت أمام حصار الجيوش العربية ومحاولاتها المتكررة. فدامت امبراطوريتهم بضعة قرون رغم ما آل إليه الأمر من تقلص نفوذهم وتدهور شأنهم أيام الخلفاء الأمويين وفي عهد قوة العباسيين.

وينبغي الملاحظة أن الصراع العربي البيزنطي، بعد الصدمة الأولى، التي مكنت المسلمين من فتح العديد من البلاد وضمها للدولة العربية، عرف فترة توقف نسبي، نتيجة الفتن القائمة حول الخلافة، حيث أن هذه الفترة اتسمت بحركة مد وجزر جعلت الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية تعرف بعض الاستقرار في كثير من الأحيان، ويطرأ عليها تارة أخرى بعض التحول إثر غارات إسلامية أو بيزنطية، غير أن هذا التحول كان محدوداً جداً، لا يتعدى مستوى المدينة الصغيرة أو الحصن، كما حدث في عهد هارون الرشيد والمعتصم وغيرهما.

ونفس الوضع كان قائماً في الجبهة الغربية من العالم العربي، فيما يخص الحدود بين بلاد الأندلس الإسلامية وأوروبا الغربية المسيحية، إلى بداية القرن الخامس الهجري.

لكن ضعف الخلافة العباسية، ولا سيما أيام بني بويه، من جهة، وانهيار الخلافة الأموية بالأندلس، الذي أدى إلى قيام دويلات ملوك الطوائف، من جهة أخرى، قد سمحا للنصارى في آسيا الصغرى وفي شمال جزيرة أيبيريا بالتجرؤ على شن الغارات في اتجاه الحصون والثغور الإسلامية المجاورة للحدود وبينما فسح المجال للنورمان وغيرهم في الاستيلاء على معظم جزر البحر المتوسط، مثل قبرص وكريت وصقلية. أما البيزنطيون، فإنهم استطاعوا أن يقتحموا بعض الممتلكات الإسلامية في بلاد الأناضول وأرمينيا وكيليكيا، واحتلوا إنطاكية، وواصلوا تقدمهم إلى نهر العاصي فأصبحوا يهددون حلب. وكان لسيف الدولة الحمداني، خلال ذلك، مواقف بطولية خلدت ذكره في الجهاد ضد البيزنطيين، بالإضافة إلى ما قام به الفاطميون من جهود لصد هجماتهم على بلاد الشام.

إلا أن حركة الجهاد هذه لم تنشط بقوة إلا ابتداء من عهد السلاجقة، وخاصة أيام السلطان ألب أرسلان، الذي هزم البيزنطيين شر هزيمة في معركة مانزكرت (من بلاد أرمينية)، مما سمح للسلاجقة بالاستيلاء على قسم كبير من آسيا الصغرى. وقد هز انتصار مانزكرت أركان الامبراطورية البيزنطية، وأفقدها قوتها العسكرية لمدة سنوات عديدة، فراحت تستنجد بالبابوية وبملوك أوروبا الغربية.

والحقيقة أن ألب أرسلان لم يستغل انتصاره، ولم يواصل زحفه في اتجاه القسطنطينية. ولو فعل لتمكن بدون شك من فتح عاصمة البيزنطيين، ولوفر على المسلمين عناء ما يزيد على ثلاثة قرون، تخللتها الحملات الصليبية.

ثم إن وفاة ألب أرسلان كان لها أثر ملحوظ في إبعاد خطر السلاجقة عن العاصمة البيزنطية، واقتصر توسع المسلمين على امتلاك إنطاكية وأرمينية الصغرى وبعض سواحل آسيا الصغرى.

وبعد ذلك، ظهرت حركات مذهبية جديدة، واستفحل أمرها، فشغلت السلاجقة عن الجهاد، وسقط الوزير نظام الملك ضحية هذه الفتن ثم السلطان ملك شاه بعده بحوالي سنة. وتلت ذلك

اضطرابات وحروب من أجل المنافسة على العرش السلجوقي، مما أضعف شأن أمراء هذه الدولة.

عندئذ، عاد الأمل للبيزنطيين في استرجاع ممتلكاتهم بآسيا الصغرى والثأر لهزيمة مانزكرت، ومرة أخرى، اتجهت أنظار امبراطور القسطنطينية، الكيسوس كومنين، نحو بابا روما، أوربان الثاني، فاستنجد به، معرباً عن رغبته في توحيد صفوف النصارى ضد المسلمين، وطالباً منه مساعدة الامبراطورية البيزنطية على استرجاع ما فقدته من الممتلكات بآسيا الصغرى. فلقي طلبه ترحيباً حاراً لدى البابا. وكان ذلك السبب المباشر لاندلاع الحملة الصليبية الأولى.

* * *

ويبدو أن الأوضاع في أوروبا الغربية، وفي حوض البحر المتوسط على العموم، كانت ملائمة لقيام هذه الحملة، على أساس التعصب الديني. وذلك أن الكنيسة التي كانت تسيطر على المجال العلمي والتعليمي، لم تفتأ تزرع في قلوب اتباعها، وخاصة الفرسان والنبلاء بذور التعصب للمسيحية، وتضفي على تكوينهم العسكري طابعاً دينياً يجعل الفرد يعيش في بيئة تتسم بتسخير كل ما لديه من جد لخدمة دينه وإعلاء شأنه ومحاربة أعدائه.

ومن جهة أخرى، فإن هذه الحملة تندرج ضمن سلسلة أحداث سبقت الإشارة إليها، جعلت العالم المسيحي يحرز توسعاً ملحوظاً في حوض البحر المتوسط على حساب الدول الإسلامية، مما جعل هذه تفقد قسماً وافراً من سيطرتها على التجارة الدولية بعد أن خرج من حوزتها كثير من جزر البحر المتوسط، وأخذت دول أوروبا الغربية بالإضافة إلى النورمان تغزو سواحل البلاد الإسلامية في أفريقية وغيرها من المناطق.

ثم كان لسقوط طليطلة بين أيدي الملك الإسباني الفونسو السادس، سنة ٤٧٨هـ. / ١٠٨٥م، صدى عميق في نفوس نصارى أوروبا الغربية، حيث كان يمثل خطوة حاسمة في انطلاق حركة الاسترداد، مما جعل معنويات هؤلاء ترتفع بشكل محسوس، ونشاط الكنيسة يزداد حماساً في مجال الدعوة لغزو بلاد المسلمين. وخاصة بعد تدخل المرابطين وتلبيتهم نداء ملوك الطوائف وانتصارهم في معركة الزلاقة، بقيادة يوسف بن تاشفين، سنة ٤٧٩هـ. / ١٠٨٦م، حيث أصبحت الكنيسة تخشى وهن عزائم أتباعها واستسلامهم للخوف والهلع.

والظاهر أن البابوية وجدت في طلب الامبراطور البيزنطي مساعدتها في آسيا الصغرى فرصة مواتية، تمكنها من اكتساب حليف نفيس في دعوتها للحرب المقدسة ضد المسلمين. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تمتاز به بلاد البيزنطيين من تقدم حضاري في شتى المجالات، أدركنا الأهمية التي أولاها البابا أوربان الثاني لاستجابة نداء بيزنطيا. غير أنه حول هذا المشروع عن قصده، الرامي إلى المساعدة العسكرية في آسيا الصغرى، إلى حملة واسعة النطاق من أجل تحرير الأراضي المقدسة بالشام، وإقامة دولة مسيحية في بيت المقدس.

أضف إلى ذلك أن النظام الإقطاعي كان قد تبلور آنذاك في معظم أنحاء أوروبا الغربية وأن أسسه قد أخذت تبدو معالمها بوضوح، مما جعل طبقة الفرسان تلعب دوراً بالغ الأهمية في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية، وتشكل خطراً على نفوذ الملوك بفرنسا وانجلترا وغيرهما، لما اكتسبته من سلطة ونفوذ في الأقاليم الخاضعة لحكمها. فكان من مصلحة الملوك أن يتخلصوا من خطر النبلاء عن طريق تأييد الحركة الصليبية، وحث هؤلاء على المساهمة في هذه المغامرة، التي يرجون منها أن تخفف من وطأة الفرسان، وتنقص من خطرهم على سلطة الملوك.

وينبغي أخيراً الإشارة إلى أن الطريق إلى القسطنطينية كان قد أصبح مفتوحاً أمام الصليبيين براً، بعدما حققته الكنيسة من نجاح في عملية التبشير لدى البلغار وغيرهم من الشعوب المتبربرة، وكذلك بحراً بفضل ما قام به أهالي البندقية وجنوة وبيزة من الجهود بقصد السيطرة على التجارة الدولية عبر البحر المتوسط. وأصبحت القسطنطينية، في أعين اللاتينيين، تعتبر مرحلة ضرورية لتحقيق مشروع استرجاع بيت المقدس والأراضي المقدسة.

وهكذا، فإن طلب الامبراطور البيزنطي يد

المساعدة من بابا روما ومن يخضع لنفوذه الديني من ملوك أوروبا الغربية قصد إبعاد خطر السلاجقة عن بلاد آسيا الصغرى، قد تحول إلى مشروع واسع النطاق، يتضمن إغاثة البيزنطيين، باديء ذي بدء، ثم التوجه إلى بيت المقدس واحتلالها، ثانياً. ويبدو، حينئذ، أن كلًّا من الامبراطور والبابا كان يسعى إلى الاستعانة بالآخر لتحقيق أهدافه. فكان الأول يرمي إلى استرجاع المناطق الضائعة من آسيا الصغرى بينما كان الثاني يهدف إلى متابعة الحملة في اتجاه بيت المقدس لتحرير الأراضي المقدسة، محاولاً بذلك تحقيق أمنية غالية في نفوس النصارى. فكان مشروع البابا أوربان الثاني منطلق الدعوة للحملات الصليبية.

على أن العوامل المساعدة للصليبيين، المذكورة آنفاً، لم تكن كافية لإنجاح الحملة الأولى، التي لم تكن لتبلغ ما بلغته من النجاح النسبي، لولا الأوضاع المتدهورة في أقطار المشرق العربي، من ضعف شأن الخلافة العباسية، وقيام حركة الحشيشية والإسماعيليين ونشوب الحرب بين ابناء السلطان ملكشاة المتنازعين على العرش السلجوقي الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه أمام الصليبيين، الذين لم يجدوا جيشاً عربياً موحداً ومنظماً يتصدى لهجماتهم، ويوقف زحفهم. ولم يواجه الصليبيون، آنذاك، أية صعوبة للتسرب إلى بلاد الشام، إذ أن هذا القطر كان مسرحاً للمنافسة القائمة بين العباسيين والفاطميين على امتلاك تلك البلاد. ولا شك أن انقسام المسلمين كان أكبر مساعد للصليبيين في مسيرتهم نحو إنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس. وقصة هذه المسيرة وما تخللها من حوادث ونكسات، معروفة لدى الجميع، فلا حاجة لذكر تفاصيلها، وإنما ينبغي التركيز على أسباب نجاحها، وعلى نتائجها السياسية والحضارية.

وعلى الباحث، أولاً، أن يتساءل عن مدى صحة ما ورد من الأخبار في المصادر التاريخية الأوروبية، وما قد يوجد فيها من مبالغة في تمجيد أبطال الصليبيين من فرسان ونبلاء وملوك والإشادة بشجاعتهم وكفاءتهم ونبل أخلاقهم، وغير ذلك كما ينبغي التعرض لموقف المسلمين من الخطر الصليبي والتعرف على طريقة تصديهم له.

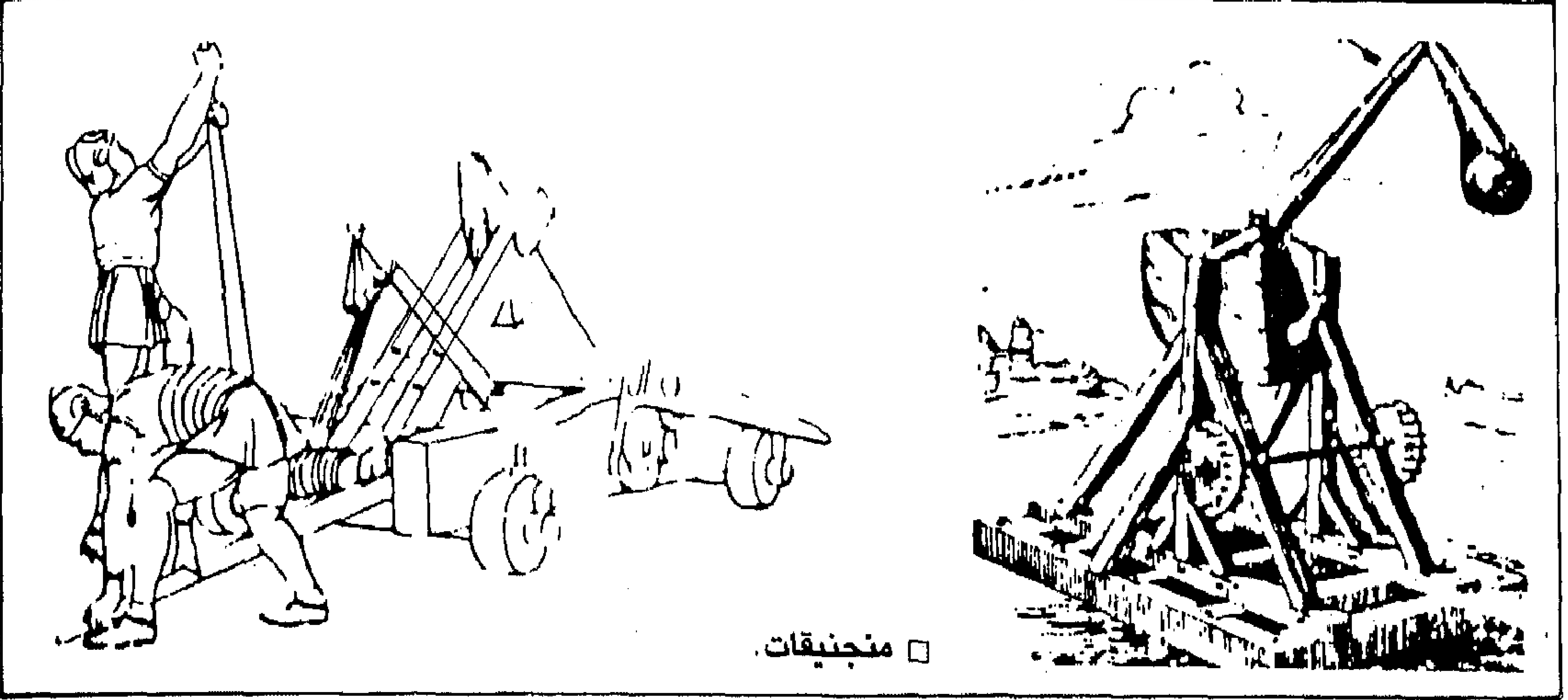
وفي هذا الصدد، يبدو أن المسلمين لم يدركوا نوايا الصليبيين بصورة جلية، ولم يتفطنوا لما كانت ترتكز عليه حملتهم من طابع التعصب الديني، والحقد الشديد للإسلام، إلا بعد أن تم استيلاؤهم على بيت المقدس. وتكونت مملكة بيت المقدس، وإمارات الرها وإنطاكية وطرابلس ومما يدل على ذلك أن الفاطميين لم يروا مانعاً من عقد إتفاقية مع الصليبيين، أدت إلى تمكن هؤلاء في إنطاكية، ومهدت لهم السبيل للاستيلاء خدعة على بيت المقدس، فكانت الكارثة الكبرى على المسلمين، وكانت هذه الحادثة المؤلمة من أهم أسباب ضعف الدولة الفاطمية وتدهورها، وقيام الدولة الأيوبية على أنقاضها.

والظاهر أن قلة اكتراث أهالي المشرق العربي بحقيقة نوايا الصليبيين هي التي لم تدفعهم إلى توحيد صفوفهم وتناسي اختلافاتهم من أجل التصدي للغزاة، خلال الحملة الصليبية الأولى. وقد يتساءل الباحث عن سبب قلة الاكتراث هذه، وخاصة فيما يخص رجال السلطة من ملوك وأمراء وقادة للجيش وغيرهم.

ولعل ذلك السبب يكمن بالدرجة الأولى فيما امتازت به روح الإسلام من تسامح إزاء أهل الديانات الأخرى، واحترام لمعتقداتهم وطقوسهم الدينية.

وهذه الظاهرة التي لم يتخل عنها المسلمون إلى يومنا هذا، لا تدفع إلى إقامة حركة مناهضة للغزو الأجنبي على أساس التعصب الديني، إذ أن هذا الشعور يكاد يكون منعدماً في المجتمع العربي الإسلامي.

ثم إن هناك شعوراً آخر، دعا إليه الإسلام وجعله من القيم السامية التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، ولكن لم يسارع إليه المسلمون إبان الحملة الصليبية الأولى، ويتمثل في ضرورة التعاون والتآزر بين المسلمين، وتقديم يد المساعدة بعضهم لبعض كما اقتضت الظروف ذلك، والحديث النبوي الشريف يزخر بالأخبار والأقوال التي تهيب بالمسلم إلى التصدي لكل خطر يهدد مصالح البلاد، والمساهمة في إبعاده بالنفس والنفيس. والحقيقة أن المسلمين لم يقفوا


منجنيقات.

صفاً واحداً أمام الغزاة الصليبيين. ولم يسارعوا لقتال هؤلاء قبل أن يستفحل أمرهم. وعندما بدأت جموع الغزاة تحتل الثغور والحصون والمدن الإسلامية في المناطق المجاورة للحدود، استولى الخوف والفزع على نفوس المسلمين وتخاذل معظمهم وتقاعدوا عز إغاثة المدن المهددة. ومن المواقف السلبية، التي نتج عنها ترجيح الكفة في صالح الصليبيين آنذاك، ذلك الاتفاق الذي تم بين الفاطميين والغزاة، والذي يقضي بالسماح لهؤلاء أن يحتلوا إنطاكية، شريطة أن يتمكن الفاطميون من الاستيلاء على بيت المقدس. غير أن الصليبيين، بعد امتلاكهم لإنطاكية، لم يحترموا هذه الاتفاقية بل خانوا العهد، ووجهوا ضرباتهم نحو الفاطميين، فاقتحموا بيت المقدس، وقتلوا بها كل من وجدوه من المسلمين، فبلغ عدد الضحايا حوالي سبعين الف قتيل.

وبعد، فإن دراسة وقائع الحملة الصليبية الأولى تفسر نجاح الجهود الكبرى والمشاق التي تحملها الغزاة من أجل تحقيق مشروع تحرير الأراضي المقدسة، وتحمل مسؤولية سقوط بيت المقدس وغيرها من المدن على المسلمين أنفسهم لتقاعدهم عن تنظيم الدفاع عن بلادهم وتنسيق الجهود للوقوف أمام العدو وإبعاد خطره.

وإذا كان الاشتغال بالتاريخ يهدف بالدرجة الأولى إلى استخلاص العبرة من تجارب الأمم، والاتعاظ بما تقدمه للأجيال اللاحقة من دروس وإرشادات، فإن استعراض أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى يشكل درساً مفيداً للعرب في مختلف العصور، ولا سيما في عصرنا هذا وقد تعرضوا لخطر الصهيونية والامبريالية المتحالفتين والعاملتين على تحقيق أطماعهما في المشرق العربي.

والذي يقارن بين الحملة الصليبية الأولى، وبين اغتصاب الصهاينة لجزء من الوطن العربي بفلسطين، يرى أن التاريخ يعيد نفسه في كثير من الأحيان، وأن العدو يستغل دائماً نقاط الضعف، وأخطرها الاختلافات القائمة في صفوف العرب وتقاعدهم عن التصدي لهجماته وتنسيق الجهود لإرغامه على التراجع.

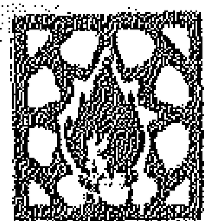
فحبذا لو اتعظ العرب بدروس التاريخ وتناسوا خلافاتهم وواجهوا الخطر كرجل واحد. ومن عرف أسباب النكسات، أدرك طريقة الخروج منها، وإعادة المياه إلى مجاريها. كما إن من درس المعارك الكبرى، وعرف أسباب الانتصارات التي حققها أبطال التاريخ اطلع على السبيل الذي يؤدي إلى النصر. ومعركة حطين احسن مثال لذلك.

ولا شك أن الدروس القاسية، التي لقنها الدهر للمسلمين حقبة من الزمان، خلال الحملات الصليبية قد أفادتهم في الكفاح المرير الذي خاضوه ضد الغزاة، والذي تألق في سمائه نجم نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما من الأبطال، الذين عرفوا كيف يستخلصون العبرة من الهزائم لتحقيق النصر. •

* * *

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ٥٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي ... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ١٠٠٠ ل.ل
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

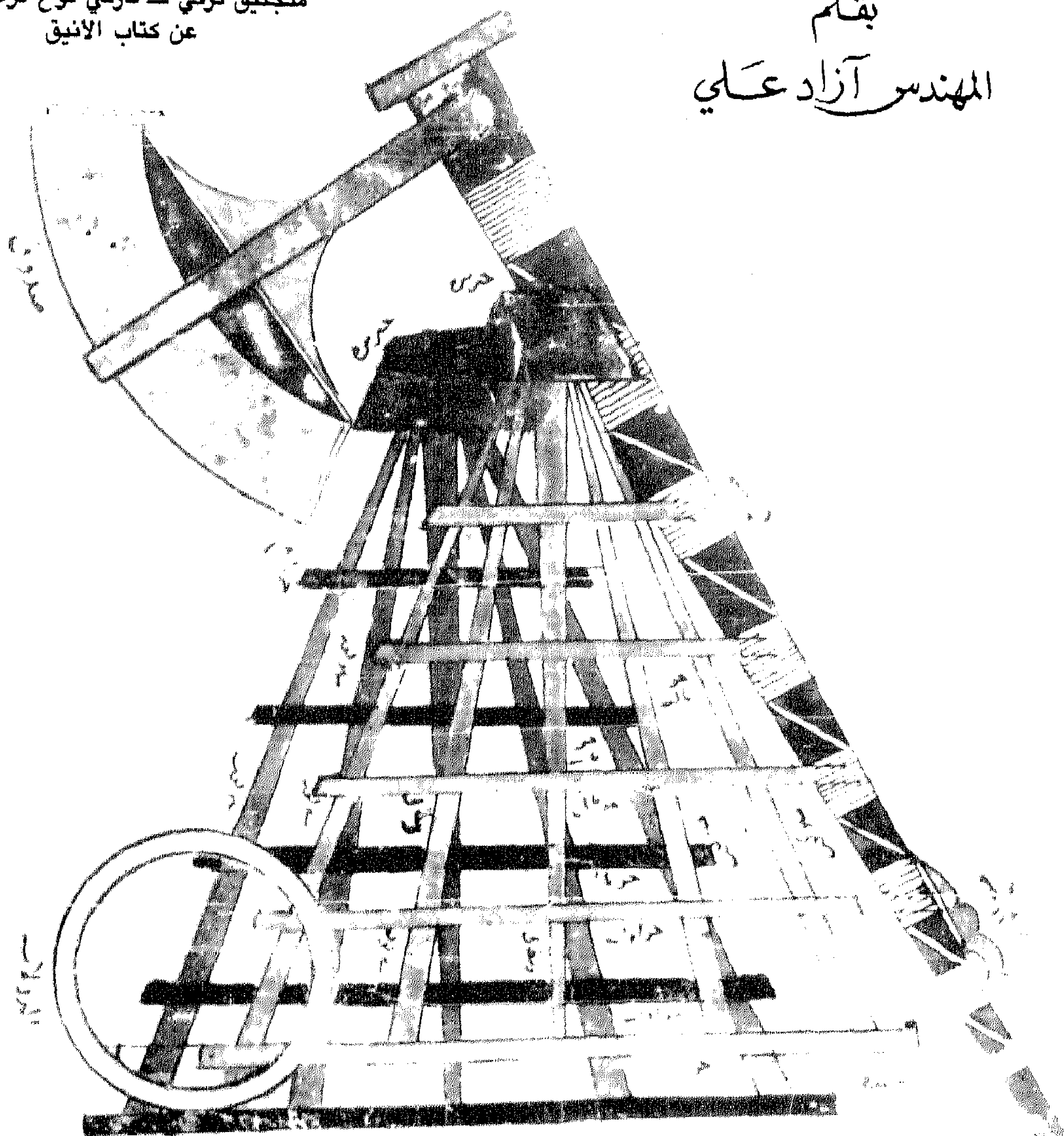
جميع المراسلات توجه بلسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

الصناعات الحربية في العهد الأيوبي ودورها في تحقيق النصر

بقلم
المهندس آزاد علي

منجنيق تركي ـ فارسي نوع قره بغري
عن كتاب الأنيق



قديما كانت الإدارة سلاحا وامتدادا فعالا ليد الإنسان. كانت صلة الوصل بينه وبين الطبيعة. ومسيرة الإنتقال من الأداة إلى السلاح، تطلبت مرحلة طويلة لتوزع الوظائف في المجتمع البشري. ودور السلاح في التاريخ والحضارة متميز وهام. أهمية ثبات وتلاشي الحضارات والدول.

ليس غريبا إذن أن نجد تلك الاهمية التي أعطيت للسلاح وصناعته واستخدامه في الدولة العربية الإسلامية ومنذ الفتوحات الأولى. فالمصادر العربية تشير إلى ذلك الإهتمام، سواء في كتب التاريخ او المصنفات العلمية القليلة نسبيا، او في الكتب اللغوية والمنوعة. وفي هذه الاخيرة يجد القارىء تفصيلات عديدة عن الأسلحة واصنافها، خصائصها وصفاتها. ففي كتاب السلاح من المخصص لابن سيده[1]. نرى تجاوزاً للوصف المرتبط بالتسمية والاستعمالات تصل إلى درجة استخدام مصطلحات لغوية دقيقة تعبر عن مراحل صناعة السلاح وصفاتها أثناء عملية التصنيع. كأسماء السيف أثناء عملية السبك أو الصقل والسقاية. وبالطريقة نفسها تستخدم مفردات للتعبير عن مراحل صناعة الرماح وخصائصها الفنية. وغيرها من الأسلحة، والأدوات التي تتطلبها الحروب والمعارك.

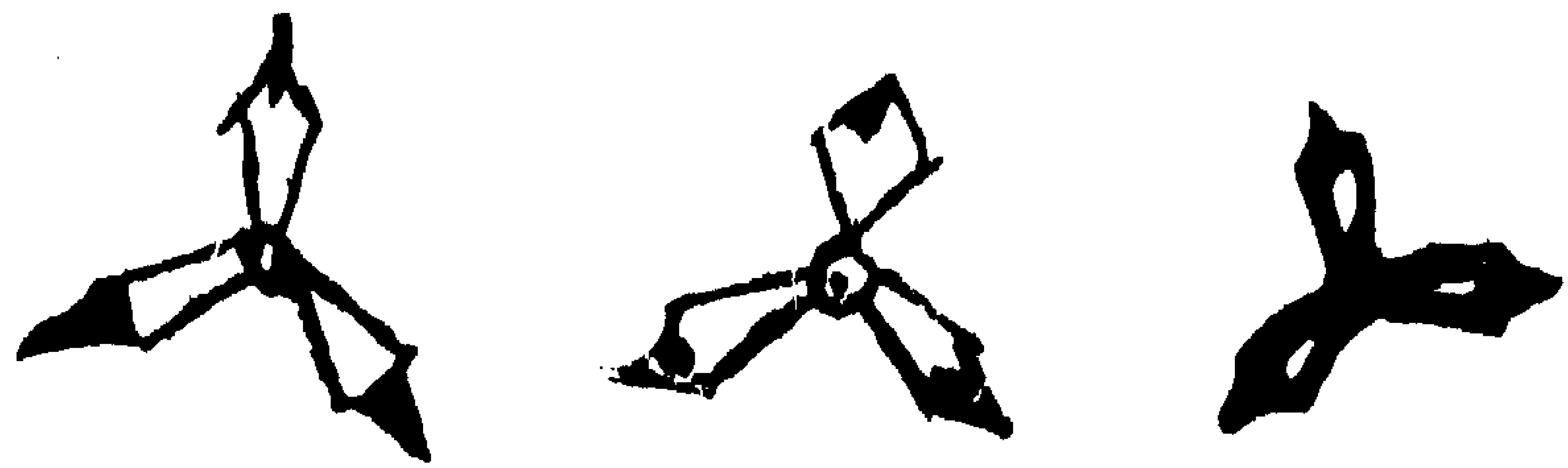
إلا أنه من المؤكد أن مرحلة الحروب الصليبية هي انعطاف هام في تاريخ الصناعات الحربية والعلوم العسكرية. بحكم اشتداد هجمة الفرنج، وزيادة الطلب على السلاح. وباعتبارها أصبحت ساحة تجارب حقيقية للأسلحة المستخدمة والمبتكرة.

مهما يكن فإن الخبرات العلمية والمهنية التي تراكمت في المجتمع العربي تم تطعيمها بخبرات شعوب الشرق الإسلامي، وتداخلت مع تلك القادمة مع غزوة الفرنج الأولى، لتشكل قفزة نوعية في الصناعات الحربية وانعطافاً في مسيرتها. لقد جاءت الإمدادات من مختلف المقاطعات العربية والإسلامية ومن ضمنها الأسلحة الجاهزة، والمواد الخام اللازمة لصناعتها. وتقاطر الفنيون والصناع. فجيء من الموصل بالتروس والرماح والنفط الأبيض. وكذلك أرسل أمير المؤمنين الناصر لدين الله من بغداد العتاد: «عملان من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار تقرض من بعض التجار على الديوان العزيز، خمسة من الزراقين المتقنين صناعة الإحراق بالنار»[2].

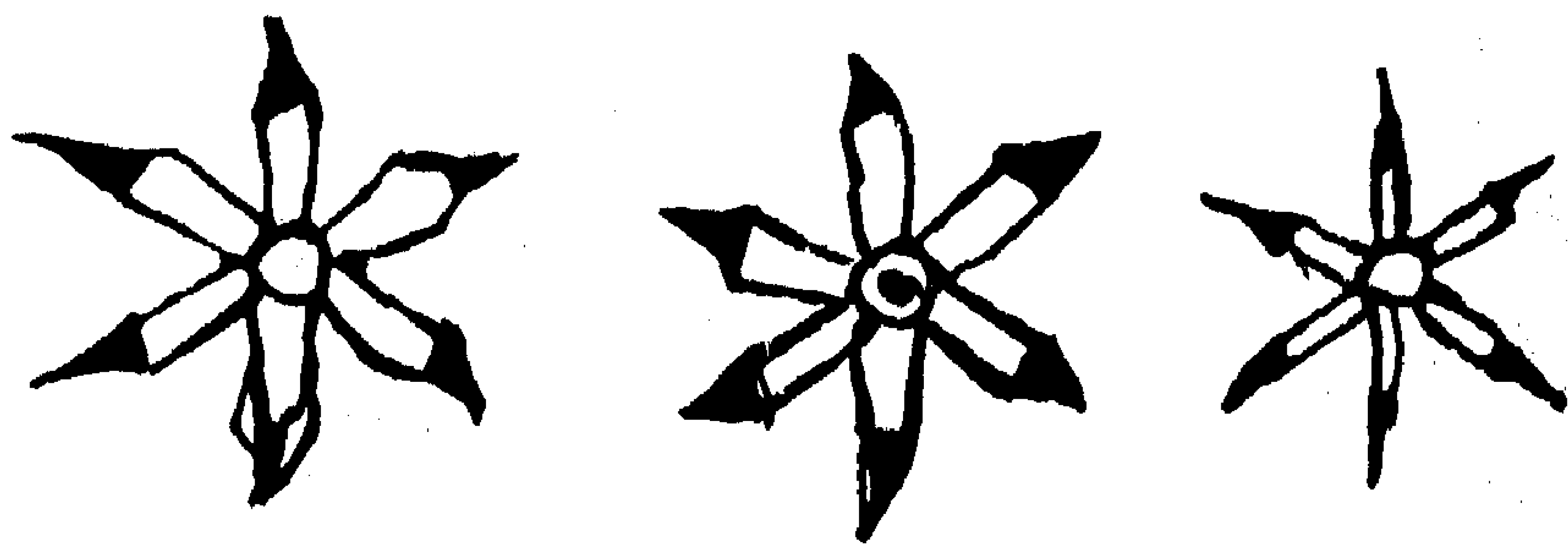
ويبدو أن الأسلحة كانت تصنع في مشاغل ثابتة في مراكز المدن الكبيرة والعواصم، ولكل مدينة أسلوبها في العمل تطبع أسلحتها بخصائص فريدة، حتى أصبحت السيوف تنسب



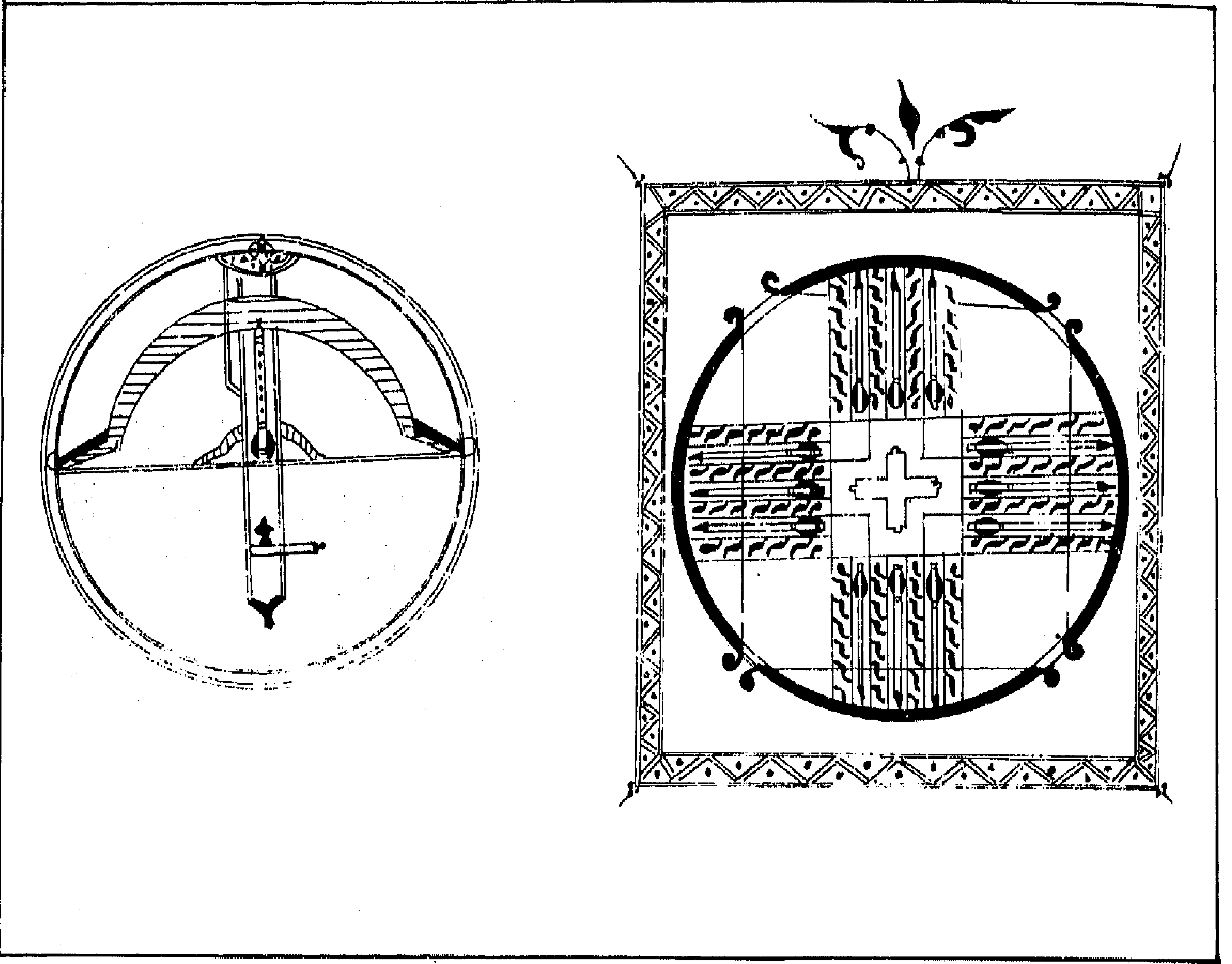
□ دروع فرنجية.



وتكوينها ان تكون لها ابدا شوكة قايمة
وشوكتان ثابتة في الارض كيف ما رميتها
وقد تعمل مسدسة وتكوينها ان ابدا لها
ثلث شوكات قايمة على وجه الارض وتقعد
في الارض على ثلثة شوكات كيف ما رميتها وهذه
صورتها



□ الحسك «الاشواء» وهي الغام سطحية.



□ برج رشاش «مسقط» افقي.

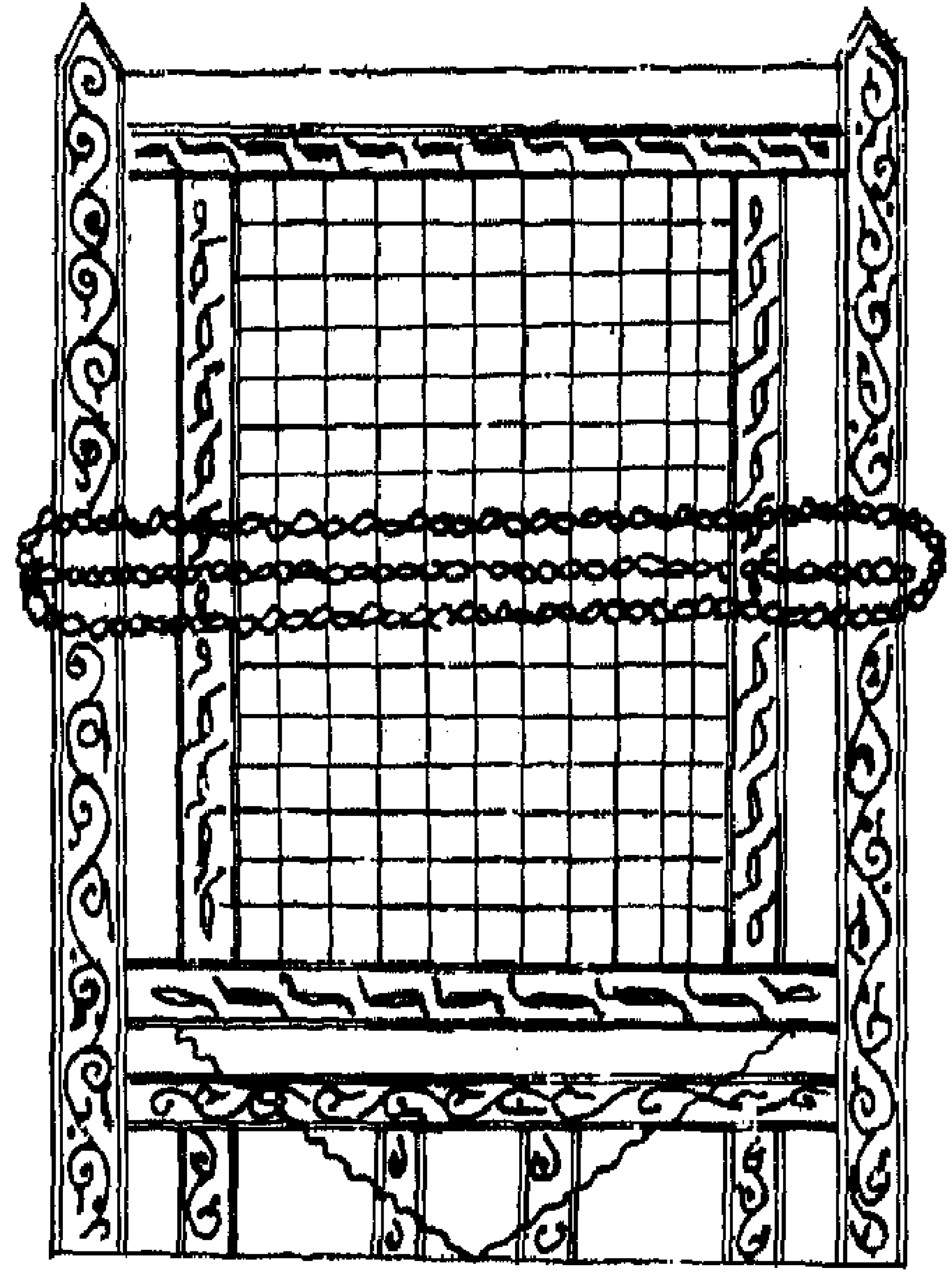
□ ترس تطلق من داخلها سهم.

إلى أماكن صناعتها، كاليمانية والدمشقية الشهيرة. لذلك عمد الأيوبيون إلى الاهتمام بهذه الحرفة والإشراف على مراكز إنتاج الفولاذ وسكب السيوف في دمشق، ثم إدارتها من قبل الدولة[٣]، إضافة إلى طريقة ميدانية للصناعة، كورشات ملحقة بقطعات الجيش. والتي كانت وظيفتها أقرب إلى الصيانة، أو لتركيب الآلات والعدد التي تحتاج إلى تحضير في ساحة المعركة.

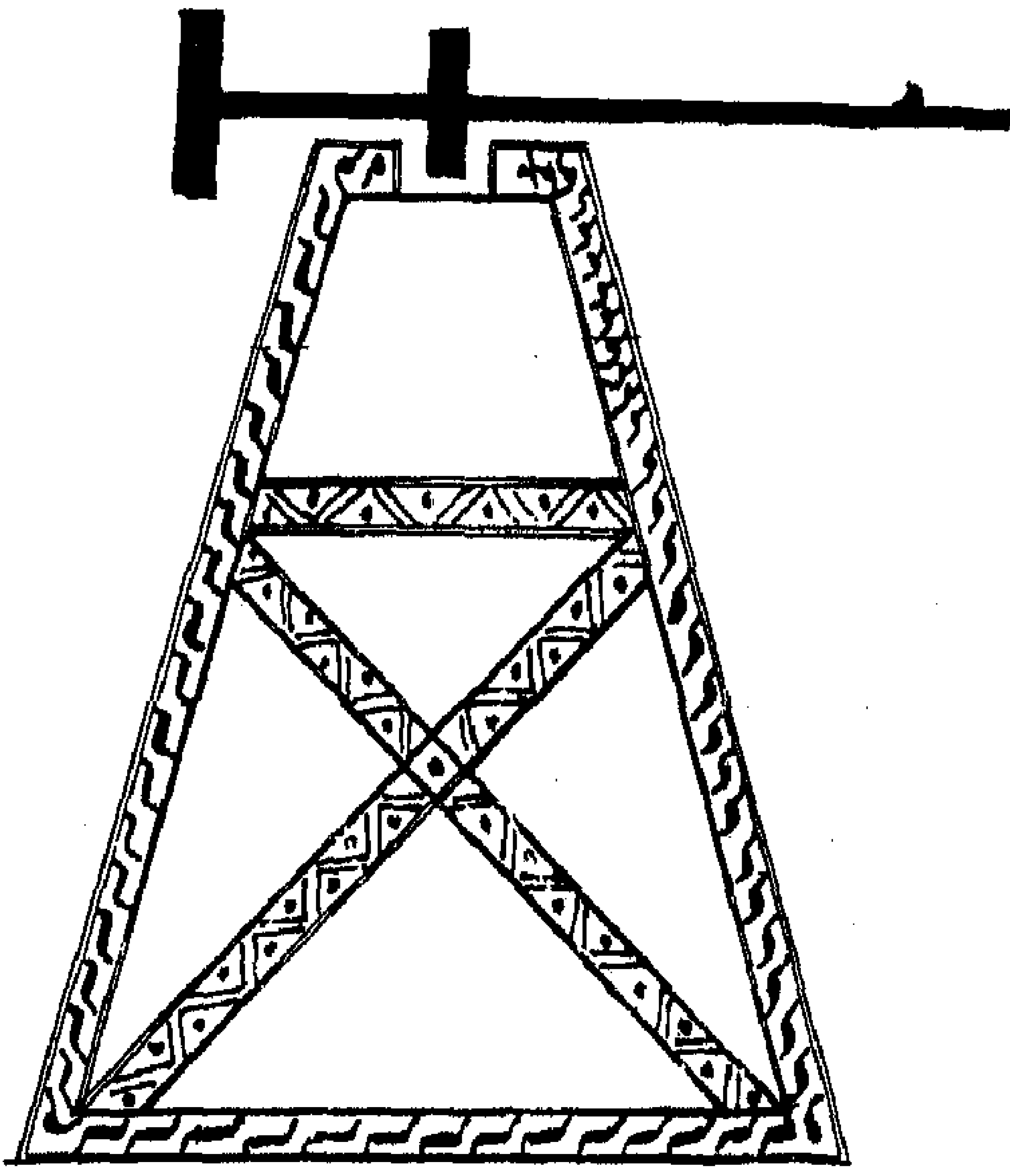
وهذه المجموعات الفنية كانت تستفيد من الأسلحة المغتنمة من الفرنج، فتدخل حسناتها على أسلحتها وتعيد صناعة التآلف منها خاصة معدني الحديد والنحاس. ففي معارك عكا عندما تمكن المسلمون من حرق الدبابة ــ الكبش استولوا على المعدن الداخل في تركيبها لإعادة سباكته من جديد: «وقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش، وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله»[٤].

فيمكن القول أن التجهيزات الحربية عند الطرفين كانت متقاربة من حيث المستوى التقني والأداء القتالي ولم نستنتج من المصادر والوثائق التي توفرت لدينا أنه تم الاستئثار من أحد الجانبين بنوع أساسي وهام من الأسلحة المتطورة دون الطرف الآخر. ولكن يبدو أن الاحتكاك المباشر بين أصناف الأسلحة جاء لصالح المسلمين حيث أدخلوا مميزات السلاح الفرنجي بسرعة أكبر على سلاحهم، لكون المعارك كانت تدور على أرضهم ولقرب مشاغل أسلحتهم وتواجد الصناع والمهندسين في المعارك.

ظهرت في تلك المرحلة مؤلفات عديدة، كتبت في الفروسية وفن الرماية والإدارة والتكتيك العسكري حتى جاءت على حساب تلك المؤلفات المختصة بدقة في الأسلحة، نذكر منها (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) لعلي بن أبي بكر الهروي، وهو كتاب جامع للمسائل المتعلقة بإدارة



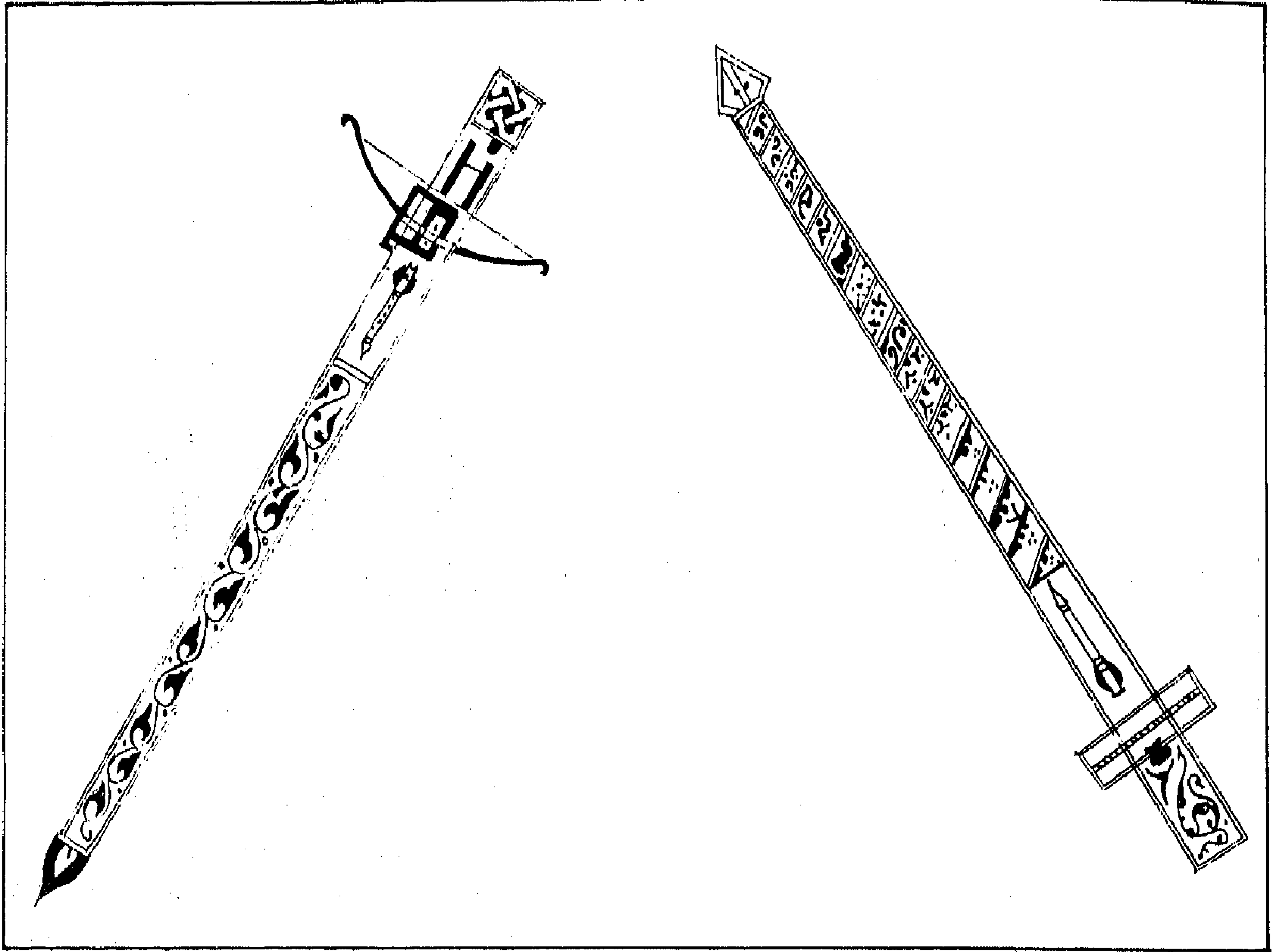
□ ستارة برجية



□ منجنيق عربي.

شؤون الدولة وتعيين القادة، والسياسة العسكرية والتعبئة والتجسس والإعداد: «... ولا يهمل أمر الصناع والمقدمين كالمعمارية والمنجنيقية والجرخية والزراقين والترسة والنقابين. ويجب على السلطان أن يتفقد خزائن السلاح والسيوف والرماح والكبودة والزرد والعدد، والتراس والحبوات والجواش، والجفتيات، وجياد الطوارق والحراب، والقسي وأوتارها والنبل والحسك وآلة النقوب والكلاليب للحروب، وأخشاب المنجنيقات والعرادات وحبال القنب، وكلما يطلب من آلة الحرب وكثرة الحجارة الكبار والكفيات الصغار، والحلق والمسامير والزفت والقار والكلس وجلود الجواميس والجمال والبقر والأوعال، والنفط والته والقدر وحوائجها، وليعتبر الأهراء وما فيها من الحبوب، كالحنطة، والشعير والعدس والجلبان وبيوت الأتبان، ويعتبر المخازن وما فيها من الملح، والأسمان والزيوت والأدهان وكثرة الشحوم، والنمك سود من اللحوم والكبود الملحة والأطراف المشرحة...»(٥).

وإلى جانب هذا الانتعاش النظري والإرشادات القيمة، تم التشجيع أيضاً في المجال التطبيقي الميداني عن طريق الاهتمام بالحرفيين والفنيين المتخصصين في مجال صناعة وتركيب السلاح والقذائف والذخيرة، ومنح المكافآت لمن يقوم باختراع أو أي استنباط في هذه المجالات. ففي معرض حديثه عن حريق أبراج الفرنج في عكا يقول العماد الكاتب: «وكان سبب الحريق أن رجلاً يعرف بعلي ــ ابن عريف النحاسين بدمشق ــ كان استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد، وأقام باذلاً للاجتهاد وغُري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره، وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره والناس يضحكون منه، ويفضون عنه ويقولون (هذا يضع ماله فيما لا يعنيه، وما هذا الهوس الذي وقع فيه) وهو يعد لذلك العمل الآلات، ويجد في تلك الأدوات ويكثر القدور، ويرتب الأمور»(٦). إلى آخر الرواية حيث يتمكن من إحراق الأبراج فينال التقدير والمكافأة من السلطان. كما يبين ابن شداد، أن السلطان

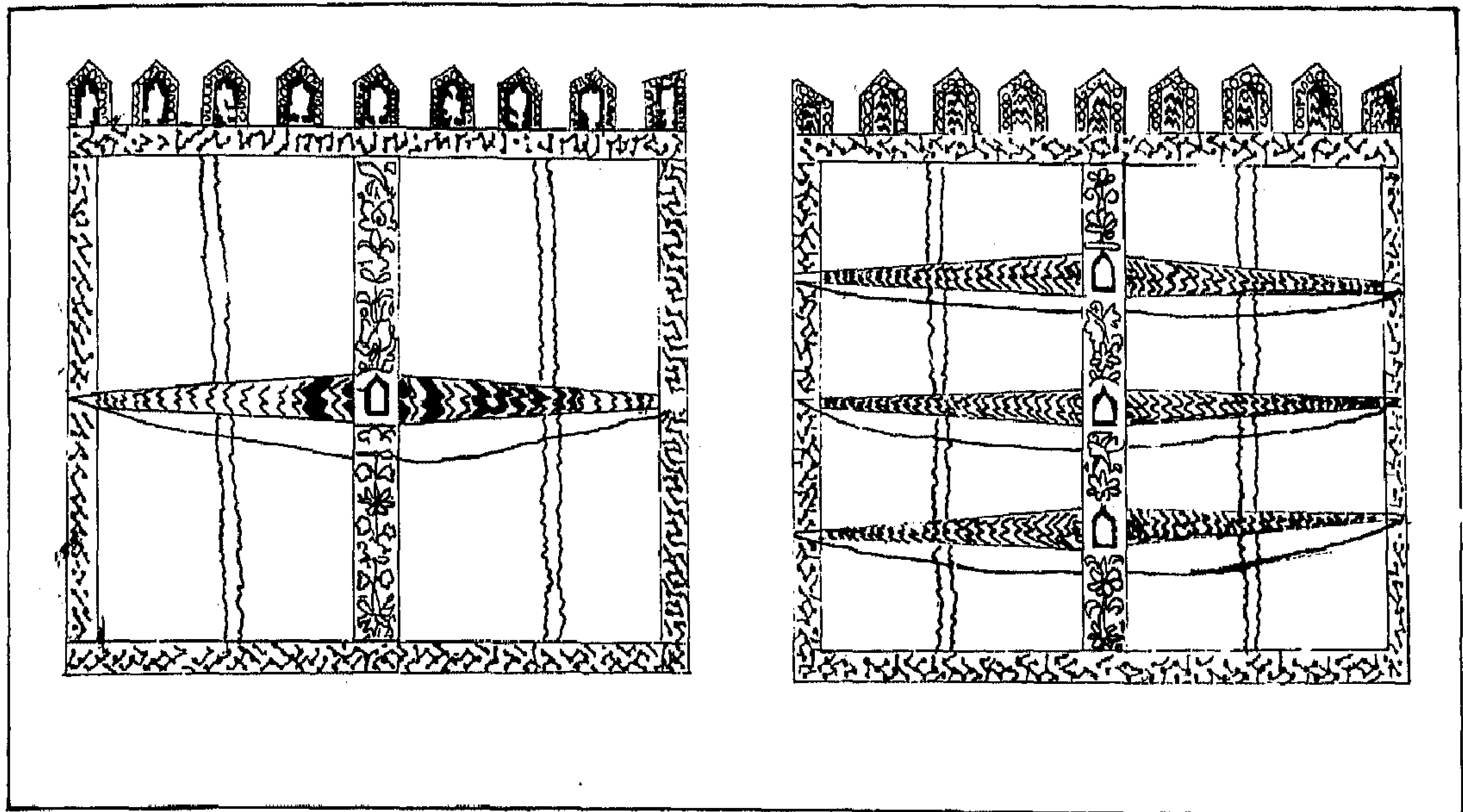


□ رماح تطلق في داخلها سهام

كثيراً ما كان يشرف على نصب المناجيق: «ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه وكنا طوال الليل في خدمته والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً ومطراً»[٧].

إن تضافر العوامل وتهيئة الظروف أدت في المحصلة إلى تبلور المعارف والمفاهيم العلمية النظرية وترسخت طرائق علمية لصناعة الأسلحة. فالنهضة العلمية ــ العسكرية الأيوبية الجديدة اعتمدت على المستوى المتطور الذي وصلت إليه المعارف والعلوم العسكرية في الدولة الفاطمية (المراحل الأخيرة)، ونخص بالذكر المهندس الحربي أبو الحسن بن الأبرقي الإسكندري. وبالرغم من قلة أو ندرة المعلومات المتوفرة عنه، وكما يبدو كان في خدمة الفاطميين، ويعمل في صناعة وتصميم السلاح في مدينة الإسكندرية. فأهم مصدر علمي عن صناعة السلاح في العهد الأيوبي كتبه مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي «تبصره أرباب الألباب وكيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء». وهو بدوره مجهول الهوية مثل أستاذه الاسكندري بالرغم من أننا في صدر المخطوطة[٨] نلاحظ أنه يسبق اسمه كلمة (مملوك) ولكننا لا نعتقد بصحة ذلك، فهو دارس تطرق لكيفية صناعة السلاح وقد سافر من أجل ذلك لتلقي العلم وخاصة إلى الإبرقي للتعلم منه وربما إلى أماكن أخرى: «أحد من سافر إلى جناب من ألف هذا الكتاب...»[٩].

ثمة فصل هام من هذا المخطوط باسم (ذكر فضيلة الرمي وأوصافه) متخصص في علم الرماية بالقسي، يذكر فيها بأسباب أسماء القسي وأنواعها وطرائق الرمي بها، بمختلف الوضعيات وخاصة تلك التي كانت تنسب إلى مشاهير

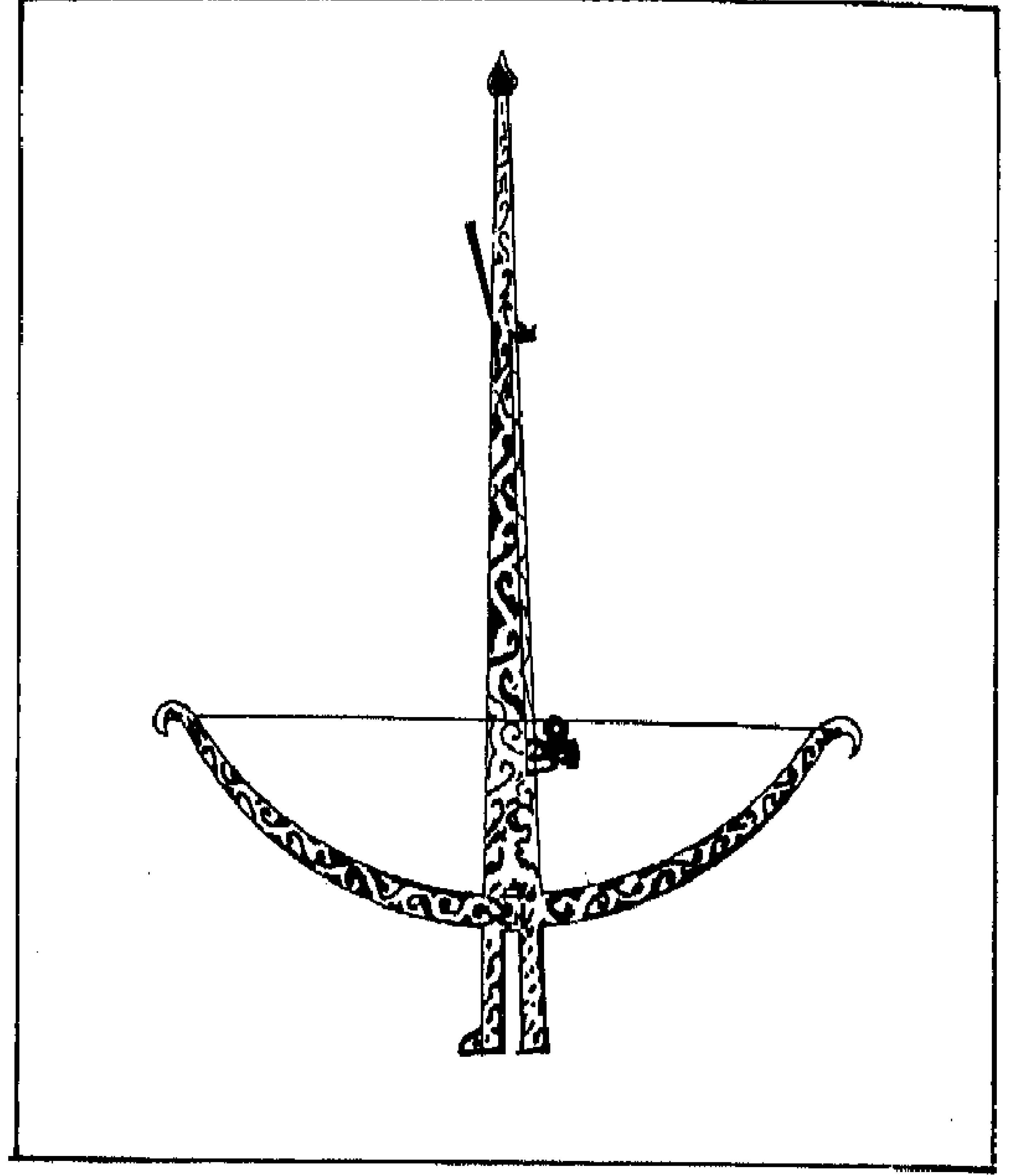


□ قوس بثلاثة مجاري.

□ قوس بمجرى واحد.

الفرسان، مع ذكر نموذج الرمي وصاحبها: «منهم محمد بن الحسن الهروي وكان يتربع بإزاء العلامة ويضع رجله اليسرى في اليمنى في التربيع ويجعل ثندوته اليسرى بإزاء العلامة..». ثم يعطي توجيهات لتأمين الدقة في التصويب: «إذا أردت أن ترمي الفارس الواقف فاجعل إشارتك قرب بوص سرجه فإنه إذا زاد سهمك أصاب الفارس وإذا نقص أصاب الفرس..». ويتحدث عن القوس العربية وكيفية تجربتها وقياس شدتها، أي قوة دفعها: «يجب أن يكون طول القوس العربية ستة أشبار ونصف شبر الرامي وأقوى القسي العربية ما بلغ وزن جره مائة وعشرين رطلاً وأضعفها ما كان وزن جره خميس رطلاً والوسطى ما بينهما وصفة معرفة أوزان القسي أن تأخذ القوس فتوترها وتعلقها في وتد شديد في الحائط... خذ نشابة وضع في فوقها الوتر والزقها بجانب الديمك بخيط شداً رخواً ثم أشدد على الوتر عند فوق النشابة بسير وثيقة محكمة جداً ثم علق بالشرابة ألواح رصاص كلما غلقت لوحاً نظرت إلى مقدار ما ينزل من النشابة فتزيد لوحاً ثانياً ولا تزال تفعل ذلك إلى أن ينتهي رأس النصل إلى نصف الديمك فإذا بلغت إلى هذا الموضع خططت الألواح واحداً واحداً وتركتها ترجع على مهل إلى أن تعود موترة ثم تنظر كم وزن الألواح التي علقتها على الحرير وصحة الوزن فما كان مبلغه من الأمناء والأرطال فهو مقدار قوة تلك القوس وقوة من يجرها»(١٠). وكما رأينا فإن قوة التوتر أو الدفع للقوس كانت تقاس بتلك الطرق التجريبية الفيزيائية الدقيقة.

أما قمة التكنولوجيا العسكرية العربية في تلك المرحلة وربما في كل تاريخها، تتجسد في صناعة القسي وآلات الرمي الوترية الزيارة (التي تقذف بفعل قوة التوتر) بمختلف أصنافها وأنواعها. وأهم تلك الأنواع هو القوس الزيار. سلاح متوسط ذو قوة دفع كبيرة جداً، ما يعادل عشرين ضعفاً قوة القوس الفردي العادي. والذي يمكن تركيزه على الأبراج أو نقله إلى ساحة المعركة. وتقسم إلى قسمين الأول بخانة (مجرى) واحد، أي يطلق سهماً واحداً. والآخر بثلاثة مجاري أي يمكن له إطلاق ثلاثة أسهم بالتتابع أو دفعة واحدة وأسهمها كبيرة وقد تكون من السهام الخطافة (قذائف بعيدة المدى قابلة للاشتعال والإحراق) «وأقربه إلى التحقيق من أنواعها ما وصفه لي الشيخ الأبرقي، حتى أنه بجودة قريحته وفرط ذكائه... وصف لي قوساً منها استخرجها يكون مقدار حيلها جر عشرين رجلاً يجرها بحيلة. عملها رجل واحد ويرمي عنها أشد الرماية».

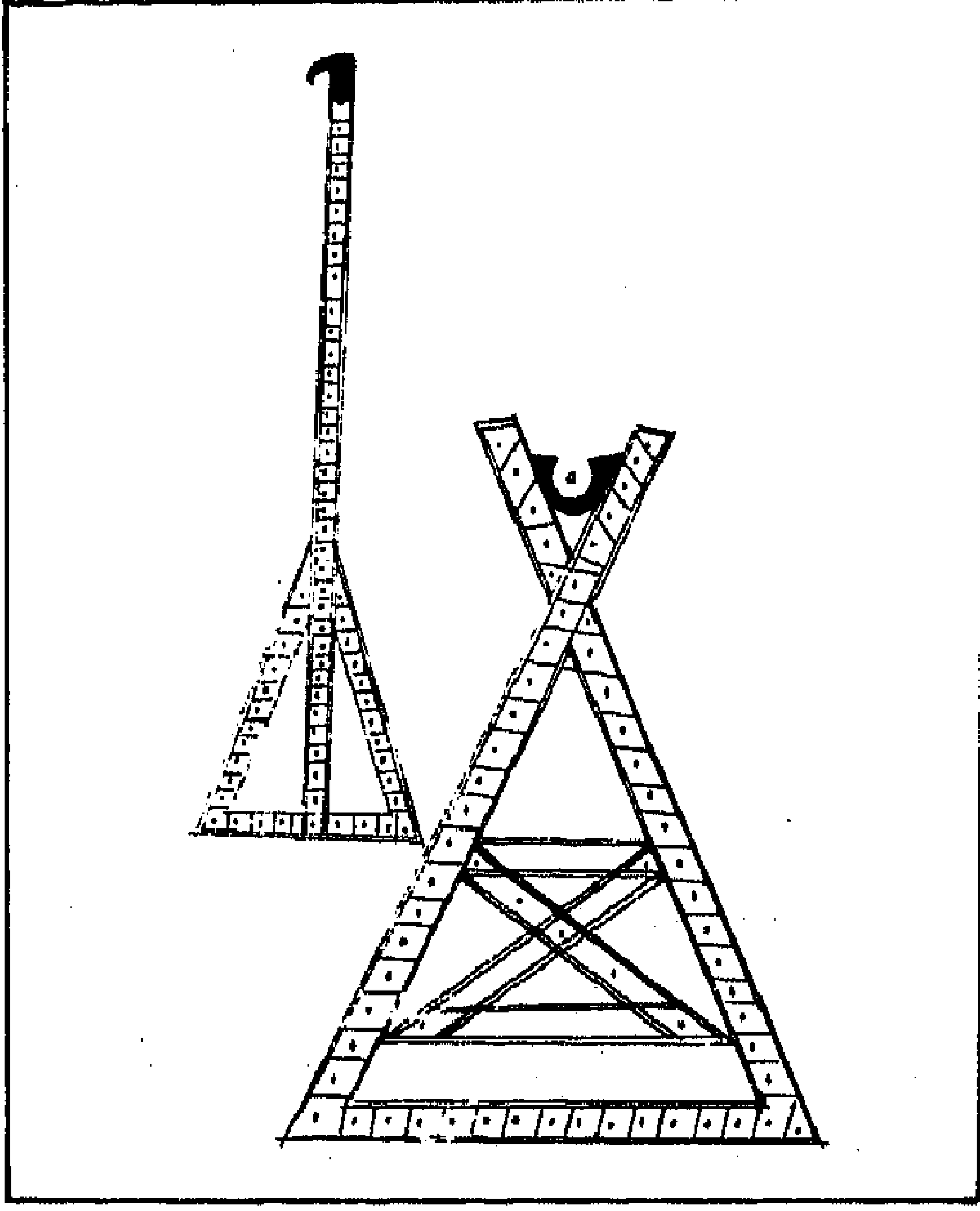


□ قوس تقذف القارورات

وقد ذكر الطرسوسي اختراعاً آخر، وهو برج رشاش لرمي السهام في مختلف الجهات بكثافة وكذلك تقوم بدور الخدعة العسكرية. ولكن ليس لدينا ثوابت بأنه تم صنعها أو استخدامها في إحدى المعارك 'أو الأماكن. ويبدو أنه مجرد تصميم هندسي ومشروع متطور لصناعة آلة قاذفة: «وذكر لي أيضاً الشيخ أبو الحسن الأبرقي المذكور أنه تعمل أربع قسي جرح في برج له أربع جهات ينصب في كل جهة منها قوساً ولكل منها مجراة تنتهي الأربع مجاري إلى قفل واحدة. ولكل مجراة فيها ثلاثة سهام أو أربعة ويرمي بهذه القسي الأربعة رجل واحد تخرج في دفعة واحدة ستة عشر سهماً...».

وبتضاعف القسي والنشاب تتضاعف الجهات. ويرمي بجميع ذلك رجل واحد فيظن أن في البرج رجالاً بعدد ذلك النشاب وهذه صفة ما ذكر وأوجب على نفسه عمله إذا دعي لذلك». وقائمة الأسلحة والمخترعات طويلة وخاصة القسي لكننا سنشير إلى تلك التي تطلق قارورات النفط لأهميتها وهي في الواقع قريبة من حيث آلية الحركة والقذف للمدافع التي ظهرت من بعدها.

إن الأهمية التي أولاها الصناع في تلك الفترة للسهام دفعتهم لابتكار أساليب متطورة لصناعة أسلحة متعددة الوظائف. وذلك كإدخال القسي إلى



□ منجنيق حربي

داخل أسلحة أخرى كالرماح المفرغة التي تطلق السهام من داخلها كالبنادق المعاصرة — ومن الواضح أنها فكرة بدائية للسبطانة — فتم بهذه الطرق زيادة الفعالية القتالية للسلاح كأداة متعددة الوظائف وكخدعة حربية أيضاً، وبنفس الطريقة تم اختراع ترس يحوي في داخله عند القبضة، قوساً صغيرة تطلق سهماً من فتحة مخفية في منتصف الترس. فتشبه بذلك مسدس معاصر مخفي: «الشيخ أبو الحسن الأبرقي عمل ترساً وفي باطنه قوس وبيد حامله سيف يقارع به خصمه فإذا لاح له انكشاف منه أخلت القوس فخرج السهم من كوج الترس الذي في وسطه فيصيب الخصم من حيث لا يعلم». ومن صياغة النص نعتقد أن الأبرقي صنعها بنفسه وأدخلها في مجال الاستخدام.

ويتابع الطرسوسي ذكر طرائق صناعة الأسلحة وإعداد القذائف بأسلوب علمي سهل ولغة واضحة. كقدور النفط الفخارية، والتي تصنع من مزج نسب محددة — نسبة المزج هي الأساس العلمي ومفتاح الصناعة — من المواد الكيميائية. وتحدث بإيجاز عن أصناف أخرى مختلفة من الأسلحة. كالدبابة والأبراج والستائر.

أما اللافت للنظر فإنه بيّن كيفية صناعة

أشواك معدنيـة (حسك)، وبمعنى آخـر ألغام سطحية تعوق حركة الفرسان وتدخل في أرجل الخيل.

أما بالنسبة إلى صناعة ونصب المنجنيقات، فيقسمها إلى ثلاثة أنواع:

١ ــ العربـي.

٢ ــ الفـارسي وهو التـركي. وربما يكـون الصيغة والشكل الأولي لنوع قره بقري.

٣ ــ الإفرنجي ــ من الواضح أنه مقتبس عن الإفرنج.

وبعد هذا الاستعراض السريع لا بد لنا أن نصل إلى نتيجة مؤكدة، وهي أن توفر السلاح ونوعيته قد سهـل كثيراً مواجهة الفرنج. حيث تم سـد الكثـير من الثغـرات. وحققت النهضـة الصناعية اكتفـاء ذاتياً وصـل إلى مستـوى التوازن الاستراتيجي. فالتكنولوجيا العسكريـة تحولت إلى قوة فعالة وقدرة قتالية تضافرت مع باقي العوامـل. من الإيمان بـالقضيـة، وروح التضحية، وقدسية الدفاع عن الوطن، ووحدة العـرب والمسلمين تحت قيـادة صـلاح الدين..

ولا يمكن لنا إلا أن نذكر مرة أخرى أن التقنية العالية التي وصلت إليها صناعة القسي بمختلف أنواعها والإجادة في استخدامها، شكلت عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلى نصرة المسلمين على الفرنج سواء في المعارك التي جرت في العراء كمعركة حطين، أو تلك التي دارت حول المدن، في القلاع والحصون. فتفوق العرب كان واضحاً في إنتاج واستخدام الأقـواس والأسهم، وإدخال التعديلات عليها حتى تتمكن من خرق دروع وجواشن فرسان الفرنجة، الذين كانـوا أشبه بحصون متحركة مطوقة بالحديد من الرأس إلى أخمص القدم.

•

المراجع حسب ورودها في النص
الهوامش

(١) المخصص لابن سيده ــ كتاب السلاح ص ٦ حتى ٧٦. طبعة بولاق، مصر ــ ١٣١٨هـ.
(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ــ ١٩٥٣ ص ٣١٤.
(٣) مجلة تاريخ العلوم العربية، العدد ١/١٩٨٧، د. احمد يوسف الحسن ــ اعتمد الباحث على صبح الأعشى للقلقشندي. وتاريخ دمشق ــ ابن عساكر.
(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي. عماد الدين الكاتب الأصفهاني ــ ص ٤٣٣.
(٥) التذكرة الهروية في الحيل الحربية ــ علي بن ابـي بكر الهروي (ت ٦١١هـ). تحقيق مطيع المرابط ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ــ ص ٨٤.
(٦) الفتح القسي ص ٣٧٠.
(٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ــ ابن شداد ــ طبعة مصر ١٩٠٣ ــ ص ١٦.
(٨) تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة من الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. كتبت بخط محمد بن سلمان ٧٠٩هـ ١٧١ ورقة، موضح، حجم وسط، آيا صوفيا باستانبول ٢٨٤٨ ــ محفوظة في معهد التراث ــ جامعة حلب ــ في مكتبة الميكروفيلم تحت رقم / ٥ /.
(٩) في مقدمة المخطوطة وردت بعد اسم الطرسوسي مباشرة.
(١٠) مجلة المعهد الفرنسي في دمشق، عام ١٩٦٨ ــ نشر هذا الفصل وعني به ودرسه ANTOINE BOUDOT-LAMOTTE ص ١٥٣.

أهم مراجع البحث

(*) حطين ــ مسيرة التحرير، د. سهيل ذكار.
(**) الأنيق في المناجيق ــ ابن أرنبغا الزردكاش ــ تحقيق الدكتور إحسان هندي ــ معهد التراث ــ جامعة حلب ١٩٨٦.
(***) القلاع أيام الحروب الصليبية ــ فولففانغ موليز ــ فيز ــ ترجمة محمد وليد الجلاد.





● فارس صليبي

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة التاسعة ● الأعداد ١٠٧ ـ ١١٠ ● أيلول (سبتمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧ ● الموافق محرّم ـ ربيع الثاني ١٤٠٨هـ



تاريخ العرب والعالم

الأعداد ١٠٧ ــ ١١٠ ● ايلول ــ كانون الاول ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: ١٠ دولار
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 9. No. 107-110. Sept-Dec 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



تاريخ العرب والعالم في عامها العاشر
تحديات وتصميم على الاستمرار

فاروق البربير



تسعة أعوام مضت ومجلة «تاريخ العرب والعالم» لا تزال مستمرة في الصدور على الرغم من الحرب المدمرة التي تلف لبنان منذ ثلاثة عشرة سنة..

لن نتكلم عن إنجازات المجلة.. ولكننا سنركز على إنجاز بارز واحد، هو بكل صراحة وبساطة، استمرار صدور المجلة. لقد بدأنا بالصدور في أواخر عام ١٩٧٨ بينما كان عدد كبير من الصحف والمجلات السياسية والثقافية يتوقف عن الصدور أو يهاجر إلى بلد آخر حيث وُفرت له جميع الإمكانات السياسية والمالية.

الحقيقة أن كلمة «الاستمرار» سهلة الاستعمال، ولكن الصعوبة الحقيقية تكمن في التطبيق.. فعلى مدى تسع سنوات عجاف، تعرضت جميع القطاعات في لبنان، وبصورة خاصة القطاع الإعلامي، إلى هجمات عسكرية شرسة، وإلى تدمير ونسف منظم ومدروس لعدد كبير من المؤسسات الصحيفة، مما أدى إلى هجرة الآلاف من الفنيين والاختصاصيين في هذا الحقل. وتركت الحرب اللبنانية بصماتها على كل القلوب وفي كل المناطق والقطاعات بدون استثناء.

وجاء عام ١٩٨٢ وجاءت معه أشرس وأخطر هجمة، تمثلت بالاجتياح الإسرائيلي إلى لبنان واحتلاله أول عاصمة عربية في تاريخ العرب المعاصر مما أدى إلى وضع اللمسات الأخيرة لهذا الانهيار المريع الذي شمل جميع القطاعات.

وادى الاجتياح الإسرائيلي ايضاً إلى دخول لبنان في مرحلة جديدة من الحرب تمثلت بالحرب الاقتصادية التي ادت إلى انهيار الليرة اللبنانية انهياراً كارثياً..

في ظل هذا الواقع المرير والقاسي، استمرت «تاريخ العرب والعالم» بالصدور.. وكان هذا الاستمرار، على الرغم من الصعوبات الأمنية والتقنية والمالية إنجازاً كبيراً بحد ذاته، لأن الاستمرار بحد ذاته، لمجلة ثقافية مستقلة غير مرتبطة بنظام أو بمؤسسة أو بفرد يمولها عمل غير طبيعي في ظل هذه الأوضاع الصعبة.

إن الاستمرار ليس سهلاً حين ترتفع أسعار الورق والطباعة ارتفاعاً اسطورياً كل ساعة! والاستمرار ليس سهلاً عندما تحاول أن تستقطب أحسن الكتاب فتصطدم بأن الأتعاب التي تدفعها لهم أصبحت تساوي عشر ما يستطيع أن يربحه هذا الكاتب من مجلة ثقافية أخرى تصدر في الخارج وتمول من الخارج..

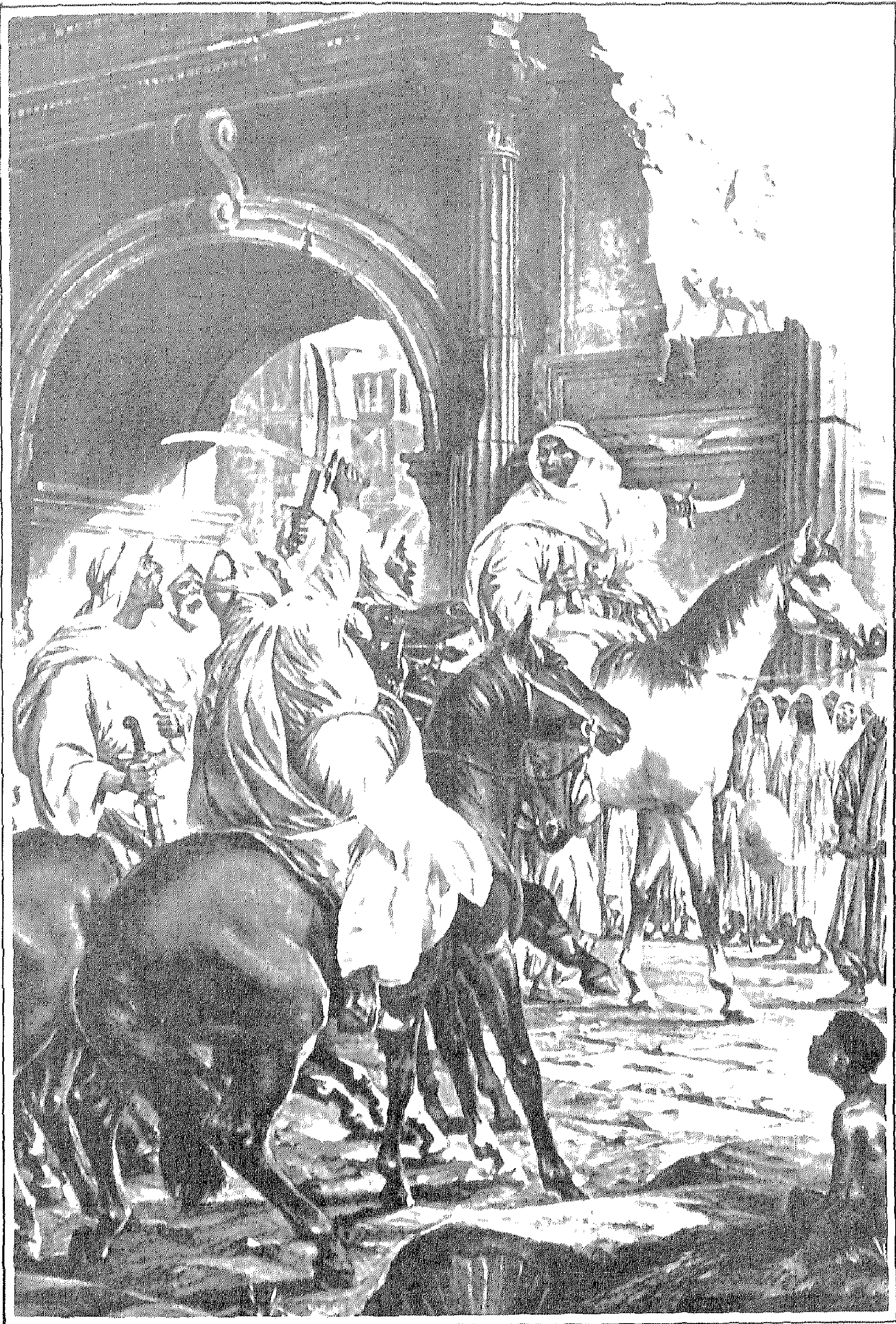
والاستمرار ليس سهلاً عندما يغلق مطار بيروت ولا نعلم إذا كان سيعاد فتحه بعد ساعات أو بعد شهر!

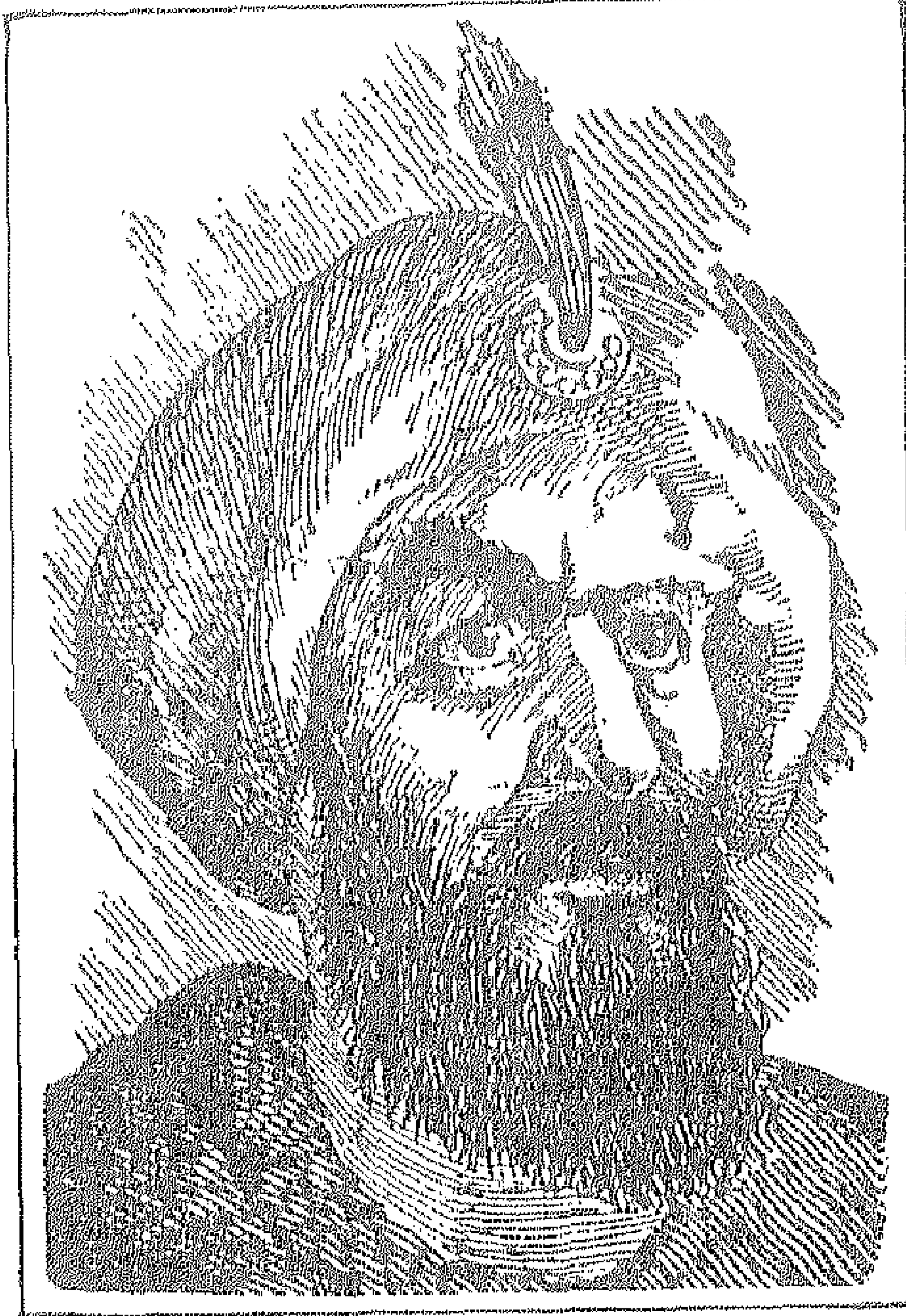
العراقيل أكثر من أن تعد أو تحصى تبدأ كما ذكرنا بارتفاع أسعار الورق والطباعة وتنتهي بانقطاع التيار الكهربائي بصورة دائمة..

ولعل اكثر ما يؤلمنا ويضغط على أعصابنا، هو عدم تمكننا من إصدار المجلة بانتظام كما وعدنا القارىء والمشترك..

كان هدفنا، ولا يزال، وسيبقى أن نصمد بوجه هذه العقبات وأن نبقى على سعر المجلة كما هو ولكن تكاليف الإصدار الأسطورية اضطرتنا إلى رفع سعر النخسة الواحدة وإلى رفع قيمة الاشتراك داخل لبنان، الذي لا يغطي تكاليف الأعداد التي تصل إلى المشترك.

وأخيراً.. نعد الجميع، وخاصة مشتركينا الكرام، بأن مجلة «تاريخ العرب والعالم» ستواصل المسيرة خلال سنتها العاشرة والسنين المقبلة، إن شاء الله، وهي كلمة ثقة وأمل بموازريها في لبنان وفي كل انحاء الوطن العربي، الذي من خلالهم تستمد قوتها ودعمها للاستمرار في رسالتها الثقافية.




صلاح الدين الأيوبي.

حطين وعين جالوت في القدس منظور تاريخي

د. محمد عيسى صالحيّة

اليهود فرق كثيرة منهم السامرة[1] والصدوقية[2] والعانانية[3] والربابنة[4] والعيسوية[5] والفريسيون[6] والكتبة (القراءون)[7] والأسينيون[8] والهيروديون[9] وغيرهم.

ولم تعرف مدينة القدس عبر تاريخها حتى القرن التاسع الهجري / السادس عشر الميلادي من هذه الطوائف خلا طوائف الربانيين والقرائيين والسامرة الذين يقيمون في مدينة نابلس وعند هؤلاء أن طور نابلس هو طورسينا، ونابلس هي المدينة المقدسة[10].

□ الدكتور محمد عيسى صالحية ـ جامعة الكويت ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ

□ ألقيت هذه الدراسة في «ندوة حطين» التي انعقدت في دمشق في تموز/يوليو ١٩٨٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين.



تؤكد المصادر اليهودية أنه حتى أواخر القرن التاسع الهجري / السادس عشر الميلادي كان عدد اليهود في المدينة المقدسة محدوداً، فبنيامين التطيلي الذي قام برحلته بين السنوات ٤٦١هـ / ١١٦٥م ــ ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، قرر أن عدد اليهود في المدينة كان نحو المائتين، كانوا يقيمون في حي مجاور لبرج داود[١١]، وذكر فتاحية الرتسبوني أو الرجنسبرجي الذي قام برحلته بين السنوات ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ــ ٥٨٣هـ / ١١٨٧م عن طريق براغ وبولونيا وكييف والقرم والقوقاز ثم عرج على أرمينيا والموصل فبغداد وإيران وسورية وفلسطين واليونان بأنه لم يكن في القدس حين زيارته إليها إلا يهودي واحد، كان يعمل صباغاً[١٢].

أما الرباني (Samuel ben Samson) الذي ارتحل إلى فلسطين سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م مع ثلاثمئة من يهود فرنسا وانجلترا، بناء على رسالة كان قد تلقاها صموئيل من ملك القدس جون برنار (John du Brienne)، لم يجد في استقباله سوى عشرة من اليهود فقط، هم كل من أدى الصلاة معه فوق جبل الزيتون[١٣].

وذكر الرباني (Moses b. Nahman) في كتابه تفسير التأويل (Biblical exegsis) حين وصل إلى القدس ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م هرباً من اضطهاد الصليبيين في إسبانيا، ووجد بيتاً خرباً بأعمدة مرمرية اتخذها كنيسة للصلاة، و (Nahmanides) أو (Rambam) كما يسمى أيضاً هو يهودي إسباني كان يقيم في برشلونة ثم لجأ إلى القدس بعد طرده من قبل حكام إسبانيا المسيحية حيث أقام في القدس سبع سنوات، بعث خلالها برسالة إلى ولده (Meshullam) وصف فيها أحوال القدس بين السنوات ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م ــ ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م، غير أن الرسالة ما زالت نصوصها موضع خلاف الباحثين من اليهود، فالبعض اعتمد الوثيقة التي عثر عليها في مكتبة ميونخ:

Bayerisch Staatsbibliothek, Munich, Cod. Heb 357. Fol 52.

والأخرى التي ادعى البعض أنه وجدها في تل كيسان ــ قرب عكا سنة ١٩٧٢م[١٤]. وجاء في رسالة إيليا الفراري (Elijah of Ferrara) الذي أرسلها من القدس سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م، أن عدد العائلات اليهودية في القدس كان لا يتجاوز ١٥٠ عائلة فقط[١٥].

كما أن الرباني (Meshullam ben. Menahem) الذي رحل إلى القدس سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م، ذكر أنه كان يقيم في القدس عند زيارته لها مائتان وخمسون عائلة يهودية من مجموع سكانها البالغ عددهم عشرة آلاف عائلة[١٦].

وحين زار الرحالة النصراني فيلكس فابري (Felix Fabri) المدينة سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م قدر عدد اليهود بالقدس ما بين مئة إلى مئة وخمسين عائلة فقط[١٧] أما الرباني (Obadiah Jare. b. Abraham) الذي رحل من مدينة (Bertinoro) بإيطاليا ووصل إلى القدس في ٢١ جمادى الأولى ٨٩٤هـ / ٢٥ مارس ١٤٨٨م ومن ثم أصبح رئيس الطائفة اليهودية في القدس ــ وصنف هناك تعليقاً على المشناة عرف باسم (Bertinoro) فقد ذكر في وثيقة مكتوبة ومنشورة أن في القدس سبعين عائلة يهودية فقيرة من أصل أربع آلاف عائلة كانت تقطنها آنذاك، وأضاف (Obadiah) بأن معظم العائلات اليهودية كانت من النساء، بحيث تكون نسبة الإناث إلى الرجال كنسبة ١:٧[١٨]. وكان (Obadiah) قد أرسل بين السنوات ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ــ ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ثلاث رسائل من القدس إلى أقاربه في إيطاليا وصف بها حال اليهود في المدينة المقدسة، وتحدث عن (Zekenim) الذي كان يعمل قيماً على أملاك اليهود في المدينة إضافة إلى عمله كجامع للضرائب[١٩].

وكان عدد اليهود في القدس حسب رواية أحد تلاميذ (Obadiah) حوالي مائتي عائلة، وذلك في سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م[٢٠].

وقد قدر مجير الدين العليمي، صاحب الأنس الجليل، الذي فرغ منه سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م، عدد اليهود بالمدينة المقدسة هو خمسمائة فقط، وهذا العدد يتفق وما أورده تلميذ (Obadiah)[٢١].

وحتى لو تجاوزنا عددهم في العهد المملوكي إلى العهد العثماني وبالذات في سنة ٩٨٠هـ /

١٥٧٢م فإن عددهم لم يتجاوز في القدس أكثر من ١١٥ شخصاً حسب ما جاء في وثيقة عثمانية ذكرت في السجل رقم ٥٥ ص ٢٠٧، تاريخها ١٩ جمادى سنة ٩٨٠ (دفاتر الإحصاءات: Tahrir Defteri)! (محفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول) ومجمل الوثيقة أن يهود القدس قد شكوا إلى دفتر دار ولاية الشام من الضرائب المفروضة عليهم، وأنهوا إليه بأن عددهم أقل مما هو مسجل في دفتر التحرير السابق، حيث ذكر في الدفتر السابق بأن عددهم ١٧٥ نفراً، خصصت جزية ٩٠ نفراً لجهة الخاص الشريف وجزية ٨٥ نفراً لجهة القدس الشريف. وبناء على ذلك فقد جرى إحصاء جديد لهم بتفتيش شاف وتحرير كاف بإشراف أمين الخراج، وتبين أن عددهم ١١٥ شخصاً. خصصت جزية ٦٠ نفراً لجهة الخاص الشريف، وجزية ٥٥ نفراً لجهة القدس الشريف، وكتب بذلك محضر، سجلت فيه أسماء الـ ١١٥ يهودياً وشهد على المحضر القاضي شرف الدين والقاضي عماد الدين ومحمد بن موسى وغيره[٢٢].

لعلي لا أبالغ حين أقرر بأن الارتباط الروحي والمادي بالمدينة المقدسة كان لا يشكل عقيدة عند اليهود، ولا شيئاً مهماً في تاريخ اليهود، بل أن العبارة المشهورة: «إن نسيتك يا أورشليم فلتقطع يدي اليمنى من جسدي وليلصق لساني بسقف حلقي». ما كانت إلا أمنية صليبية، أدعيت من قبل اليهود في العصر الحديث ووردت في كتاب لسترانج، فلسطين تحت الحكم الإسلامي، وما عرفها اليهود قبل ذلك[٢٣].

ويعلل (Benjamin Z. Kedar) سبب قلة عدد اليهود في المدينة، بأنه يعود لإجراءات الصليبيين الذين لم يسمحوا إلا لعدد قليل من اليهود بالإقامة بالمدينة[٢٣]، غير أن رسالة جون برنار (Gohn du Brienne) إلى صموئيل التي أشرنا إليها سابقاً تقلل من أهمية هذا العامل، فقد تضمنت الرسالة طلب الملك الصليبي إلى صموئيل بأن يحض يهود فرنسا وانجلترا على الرحيل إلى فلسطين، وهو (أي الملك الصليبي) سيضمن لهم الحماية وطيب الإقامة[٢٤].

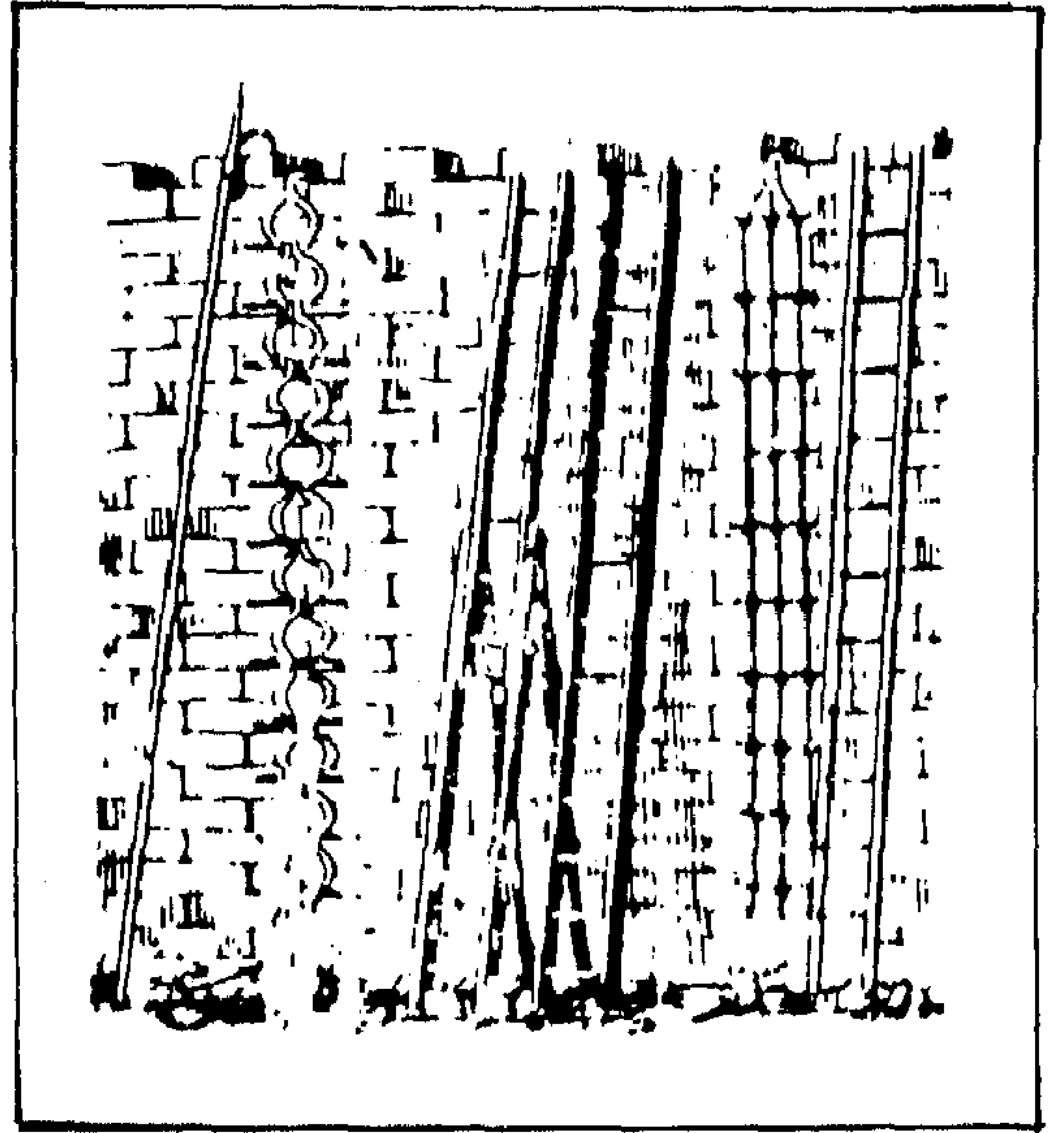
ولعل في نجاح الهجمة التترية على البلاد الشامية سبباً معقولاً في دفع سكان المدينة عموماً إلى هجر مدينتهم هربا من التتار، وكان اليهود الأسرع في الهرب من المدينة طلباً للنجاة[٢٥]، هذا علاوة على الأمراض والطواعين التي كانت تجتاح البلاد وتخيم في القدس مدداً طويلة[٢٦].

وعلى الجانب الآخر فإن عدداً من الباحثين أمثال (Marchall W. Baldwin)[٢٧]، و (Grousset)[٢٨]، وغيرهم ذكروا أن الشاعر يهوذا بن سليمان الحريري الطليطلي (عاش ١١٧٠م ــ ١٢٣٠م)، الذي نقل العديد من الكتب العربية إلى العبرية، وصاحب مقامات الحريري، والذي زار مصر وفلسطين والشام والعراق سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م قد أخبر بأن صلاح الدين الأيوبي قد سمح لليهود بالسكنى في المدينة وذلك بعد أربع سنوات من تحريرها سنة ٥٨٣هـ / ١١٧٨م، وقد التقط عدد من الباحثين اليهود أو المتعاطفين معهم هذه، المقولة، وعلى الأخص (Ashtor)[٢٩]، و (Kedar)[٣٠]، و (John M. Oesterreicher)[٣١] وردد هذه المقولة من الباحثين العرب. عاشور[٣٢]، وغوانمة، وكأنها حقيقة مسلم بها، وقد رجعت إلى نص المقامات التي نشرها البروفسور (Hirschfeld) والذي ساعده الحظ بالعثور عليها ضمن مقتنيات (Taylor) المحفوظة في كمبردج، والتي وجدت أصلاً في مخطوط هُرِّب من القاهرة، كان قد عثر عليه في مدينة الفسطاط، فلم أجد ذكراً للخبر، وكل ما ورد فيه هو:

«To wards the Marshall W. Baldwin Jews Saladin's attitude was less consistent. In Jerusalem he apparently encouraged Jewish immigration Perhaps hoping that they would prove valuable allies in the event a new Crusade».

وترجمته بالعربية «وبالنسبة لليهود فإن سياسة صلاح الدين كانت أقل تشدداً، ويبدو أنه شجع اليهود على الهجرة إلى فلسطين، لأنه ربما كان يأمل بأنهم سيقدمون مساعدة ضد الصليبية الجديدة»، ولم يسند (Baldwin) الخبر إلى أي راو، بل وقف عند ما ذكره.

وللحقيقة نقول إن هذه المقولة لا تدعمها روايات الرحالة من اليهود حتى من نسبت إليه. فلم يذكرها إسحاق بن يوسف بن شيلو الذي



□ سلالم اقتحام

وصل إلى المدينة سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م، ولا إيليا الفراري الذي ذكرناه سابقاً والذي كان في المدينة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، ولا مشالوم ابن مناحيم الذي زار المدينة ثلاث مرات بين السنوات ٨٨٦هـ / ١٤٨١م — ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م، ولا غيرهم، وحتى الباحث اليهودي (Menashe Harel) قرر أن اليهود لم يستجيبوا لدعوة صلاح الدين بالسماح لكل من شاء بسكنى القدس، ولكنهم استجابوا لدعوة ناحوم التي كانت سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م، بعد بنائه معبد ناحوم في المدينة فوصلت جماعات منهم بناء على دعوة ناحوم، وليس بناء على أمر صلاح الدين الأيوبي.

ومن ناحية أخرى فقد بالغ البحاثة من اليهود في ذلك فأشاعوا أن جماعات يهودية أخرى وصلت من المغرب وفرنسا ومن الأقطال الإسلامية المحيطة بفلسطين، وسكنت في القدس، مستندة إلى أمر صلاح الدين الأيوبي بالسماح لهم بالإقامة في المدينة، وبخاصة بعد تخريب مدينة عسقلان وهدم أسوارها سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م «وأضاف هؤلاء أن الوجود اليهودي قد اختفى من المدينة عندما عاد الفرنجة إليها سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م، فلم يكن في القدس خلا تاجر من بلبيس نجح في إقناع الصليبيين بالسماح لليهود بزيارة المدينة، وعمل على إبقاء دباغ يهودي في القدس ليخدم تجارته[٣٤]، ولكن بعد هزيمة الصليبيين النهائية سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م، أصبح من الميسور على اليهود الإقامة في المدينة، حتى إذا ما وقع الغزو التتري سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م غادرها اليهود، مولين الأدبار، وحتى دروج التوراة فقد هُرِّبت إلى مدينة نابلس، وخلت المدينة من اليهود إلى أن وقعت معركة عين جالوت في نفس السنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وتخلصت وتطهرت المدينة من الأطماع الأجنبية، واستقرت فيها الأحوال، ويعزو البعض ذلك إلى المرسوم الذي أصدره جقمق في أول عهده، فقد رسم جقمق سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، ببطلان جباية الرؤوس من اليهود بطريقة جماعية، وتؤخذ من كل فرد على حدة[٣٥]، فبدأت جماعات يهودية تعود إلى المدينة من إسبانيا المسيحية وانجلترا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال، هاربة من الاضطهاد الصليبي ولائذة بحمى الإسلام في ديار السلام غير أن الموسوعة اليهودية تقرر بأن المماليك راقبوا التسلل اليهودي إلى المدينة فلم يسكنها إلا عدد قليل من اليهود طوال العهد المملوكي[٣٦].

وإجمالاً، فإن اليهود سكنوا حارة في جنوب المدينة على مقربة من جبل صهيون. وجعلوا من معبد ناحوم (Nahman) مقراً لعبادتهم»[٣٧].

وجرت العادة بأن يطلق على زعيم اليهود لقب رئيس الطائفة اليهودية ومقره إما في مصر أو في الشام، وله سلطات تشريعية واسعة، إذ أنه يشرف على شؤون الطوائف الثلاث في بداية عصر المماليك على الأقل، كما ينظم علاقات الطائفة مع الدولة، وله حق أن يعين من يليه في درجات السلك الكهنوتي حسب شروط الدين اليهودي فيوقع العقوبة على المخالف[٣٨].

واشترطت الوثائق المملوكية فيمن يتولى رئاسة اليهود أن يكون من أكابر الكهنة وأعلم الأحبار، متميزاً بحسن أخلاقه ونزاهته، ويكون عارفاً بكتب اليهود وشرائعهم.

ويليه في المرتبة الحزان[٣٩] والشليمصبور[٤٠] والحبر[٤١]، وقد ذكر ابن العربي في رحلته إلى الشرق، أنه كان يفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود في القدس، وأن اليهود كان لهم

في القدس حبر يسمى بالتستري[٤٢].

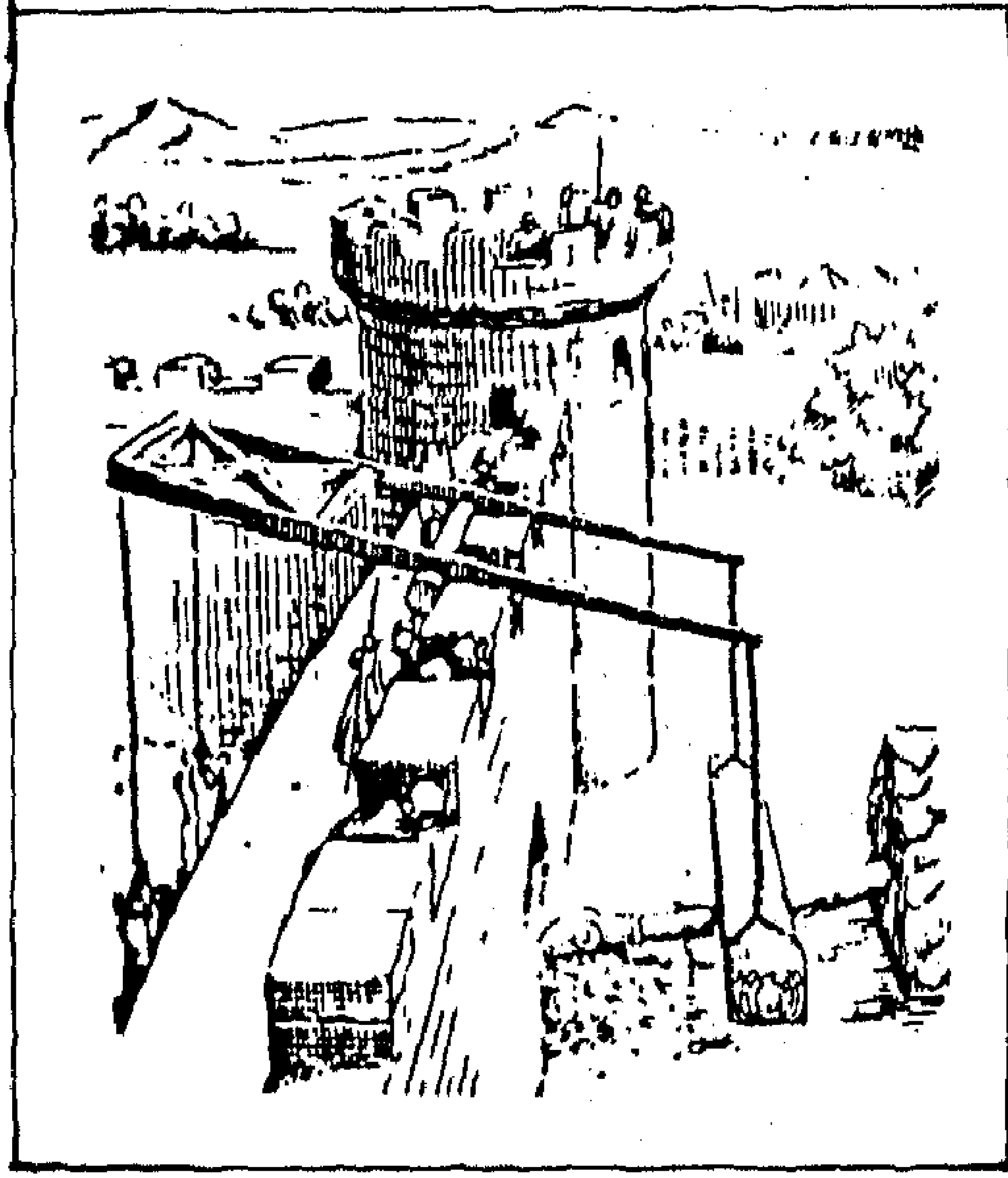
ومن الجدير بالذكر أن نواب السلطنة المملوكية هم الذين تولوا إصدار المراسيم بتعيين زعماء اليهود دون السلطان وذلك لزيادة حقارتها عن الوظيفة وبعدها عن الحضارة السلطانية، ويُعَنْوَن المرسوم بلقب «زعيم الطائفة» كأن يكون موجهاً لرأس الكهنة أو «أعلم الأحبار» أو «رئيس اليهود القراءيين والربانيين والعوام والسامرة»، أو «رئيس اليهود عامة»، غير أنه في الفترة المتأخرة من العصر المملوكي صار للسامرة «رئيس خاص بهم» دون سائر الطوائف اليهودية الأخرى»[٤٣].

ونظراً لقلة أعداد اليهود المقيمين في القدس فقد اكتفى رئيس الطائفة في الشام بتعيين حبر (ربان) لعبد ناحوم الذي كان قد بناه ناحوم بعد سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م وحبر آخر لمعبد الرام ليرأس احتفالات اليهود هناك في ٢٨ مايو من كل سنة[٤٤].

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي كان الحبر (الربان) يونان الأكبر (Jonas the elder) هو المتولى لمعبد القدس، وفي زمنه اشتعلت ثورة اليهود القرائيين ضد اليهود الربانيين لأسباب دينية[٤٥].

وخلت الوظيفة في معبد القدس لمدة قرنين من الزمان، بسبب الأحداث التي لفت فلسطين في عهد الغزوين الصليبي والتتري، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كان الربان (Abraham Yaari) الصباغ حبر المعبد، وإليه ينسب ترميم معبد اليهود على جبل الزيتون الذي كان مبنياً من رخام المرمر الأحمر والأخضر والمزركش، ويفهم من المصادر اليهودية أن (Yaari) كان قد قدم رشوة باهظة للحاكم المملوكي دون أن يذكر اسمه أو مكان ولايته حتى سمح له بالبقاء في القدس وتقلبه لتولية المنصب[٤٦].

ومن الذين تولوا منصب الحبر في القدس الربان صموئيل بن شمسون (شمشون) (R. Samuel ben Samson) أيضاً، الذي تولى وظيفة الحبرية سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م. وكذا الرباني حايم (Haim) الذي كان حبر القدس سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م وكذا الرباني يوسف

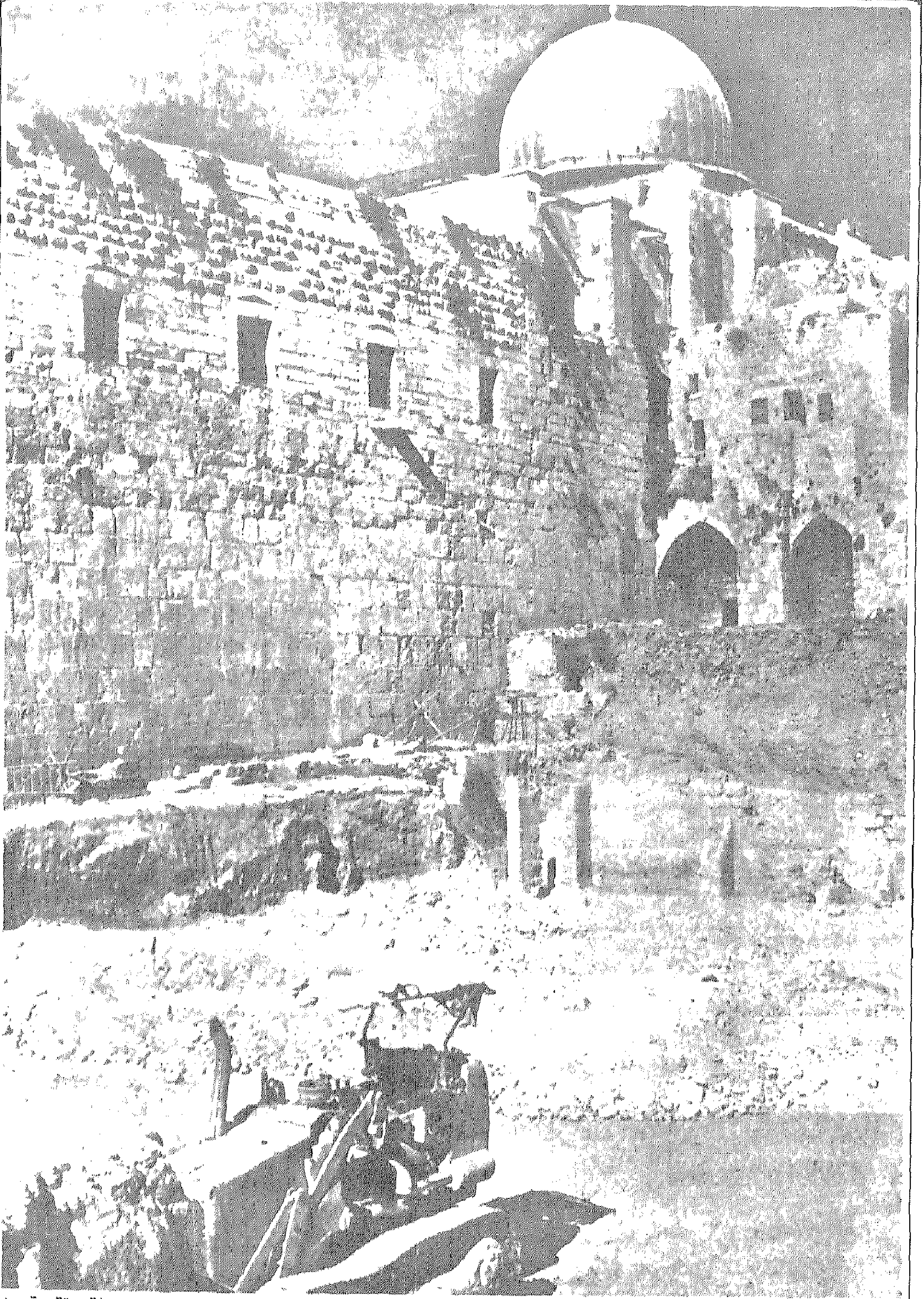


□ رافعة لكسر رأس كبش يثقب ثغره في السور

الذي تولاها بعده.

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي أطلق على زعيم اليهود في المدينة المقدسة لقب «رئيس الطائفة» وتولاها إسحاق هليفي (Issac haLevi-Asir Akatikvah) الذي كان قد وفد إلى المدينة مع عدد من اليهود الأسبان والألمان[٤٧]. غير أن المصادر اليهودية الأخرى لا تعضد رواية الموسوعة اليهودية حوله. وإنما تؤكد الوثائق اليهودية بأن الربان (Obadiah Jare b. Abraham) هو أول من تولى رئاسة طائفة اليهود في المدينة. وكان ذلك سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م، وكان (Obadiah) ذا معرفة واسعة وسمعة حسنة، وله تأثير على اليهود في القدس وقد انفرد (Obadiah) برئاسة اليهود بعد رحيل (Nathan Sholal) إلى القاهرة حيث أصبح رئيس الطائفة اليهودية هناك[٤٨].

ومن ناحية أخرى، فقد تولى الربان (Issac Sholal) رئاسة كافة الطوائف منذ سنة ٩٤١هـ / ١٥٤٤م، ولكنه كان يتخذ من القاهرة مركزاً له، ثم ما عتم أن ترك القاهرة بعد استقرار الوجود العثماني في الوطن العربي وانتقل إلى القدس، و (Sholal) هذا هو الذي نشر القوانين المحلية اليهودية (Ordinances)، وكذا القوانين الخاصة المتعلقة بتحقيق الرفاه لليهود (takkanol) وهذه



□ القدس المستهدفة من قبل الغزاة الصليبيون في الماضي والصهاينة في الحاضر. والصورة تظهر مرحلة متقدمة من اعمال الحفريات التي تستهدف الحرم الشريف.

الأخيرة كان (Sholal) قد اقتبسها من كتاب الربان (Moses Basla's) المسمى بكتاب السفر[٤٩].

هذا وقد درج نواب سلاطين المماليك على إصدار التقاليد بتولي رئاسة اليهود، ففي ربيع الآخر سنة ٦٨٤هـ / ١٣ يونيو ١٢٨٥م، صدر مرسوم يقضي بتولي الشيخ المهذب أبو الحسن ابن الموفق بن المنجم بن المهذب بن الحسن بن سمويب المتطبب رياسة اليهود على سائر طوائفهم الربانيين والقرائيين والسامرة ولكن في مصر، وكتبه ابن المكرم، كاتب الدرج آنذاك[٥٠]. ويستفاد منه أن التعيين جاء استجابة لرغبة الطوائف الثلاث في إقامته رئيساً للطائفة.

وبالرغم من تشدد السلطنة المملوكية في مراقبة رؤساء وأحبار اليهود لإنصاف رعاياهم وحفظ أموالهم، وعدم إرهاقهم بطلباتهم المتكررة، إلا أن ربانية اليهود ورؤساء طائفتهم في القدس، كانوا يستغلون الطائفة لتحقيق مكاسب شخصية لهم، بل ولا يتورع رؤساء اليهود وأحبارهم عن إيقاع الأذى بأفراد الطائفة دون وجه حق. فكان بعض هؤلاء الرؤساء سبباً في تردي حالة اليهود الاقتصادية، بل وإشعال الفتن بينهم، فرسالة يوناح الزعيم الأكبر (R. Jonah the elder) إلى إخوانه في الخارج، تخبر عن ثورة القرائيين ضد الربانيين، ولأنه يطلب الدعم المالي، فإنه يقول: «إن الحياة هنا قاسية، وفرص العمل محدودة، والضرائب مفرطة باهظة»[٥١].

وقد بينت رسائل رئيس الطائفة (Obadiah Jare b. Abraham) أي ظلم لحق باليهود من قبل رؤسائهم، إذ ذكر أن سلفه كان قد باع الساحات والبيوت التي كانت تعود ملكيتها إلى معبد ناحوم، والتي كانت تتخذ سكناً لأرامل الاشكناز في المدينة، ولم يبق منها إلا ساحة واحدة لا تكاد تكفي لأولئك الأرامل.

ويضيف (Obadiah) في رسائله، أن رؤساء الطائفة السابقين غالوا في فرض الضرائب على اليهود، وكانوا ظالمين في أحكامهم، لذا كانوا يفرضون ضرائب جديدة في كل أسبوع على أفراد الطائفة في القدس، وكل من لا يدفع يسلط عليه غير اليهود حتى يدفع[٥٢].

معاملة اليهود في المدينة

نظمت الشروط العمرية أحكام أهل الذمة والمستأمنين في دار الإسلام، وحرص أولو الأمر على مراعاتها وتطبيقها وفق ظروفهم، فتارة تكون الرقابة شديدة والتنفيذ صارماً، وطوراً تكون الرقابة رخوة، فلا يتقيد أهل الذمة والمستأمنين بأحكام[٥٣] عقد الذمة.

والأصل أن تعقد الذمة لليهود والنصارى لأن لهم كتاب، وتعقد لمن له شبهة كتاب كالمجوس والصابئة والسامرة[٥٤]، إن وافقوا أهل الكتاب في العقائد.

وعقد الذمة يكون بأن يقر الحاكم أو يأذن لأهل الذمة بالإقامة في ديار الإسلام على أن يبذلوا الجزية وينقادوا لأحكام الإسلام، ولا بد من شرط قبول أهل الذمة بذلك، وإذا ما عقد السلطان الذمة مع قوم، وجب أن يكتب أسماءهم وخلالهم وأنسابهم وأديانهم، ويجعل على كل طائفة منهم عريفاً يضبطهم ويعرف من مات منهم أو من أسلم أو غاب أو قدم أو بلغ سن الرشد، وعلى العريف أن يحضرهم عند أداء الجزية[٥٥].

ويتضح من المصادر المملوكية المعاصرة أن اليهود كانوا يستخدمون في المناصب الديوانية، فقد ذكر المقريزي أن أهل الذمة في مصر «... قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة، ولبسوا الثياب السرية وولوا الأعمال الجليلة»[٥٦].

وتنبهت السلطنة إلى مخاطر استخدام اليهود في مناصب تتصل بتنظيم المجتمع وخاصة حصر الإرث والجزية والخراج، فأصدر السلطان المملوكي الأشرف خليل في شعبان ٦٨٩هـ / يوليو ١٢٩٠م مرسوماً طلب فيه من الولاة والمتصرفين والمباشرين ألا يستخدم أحد من أهل الذمة والنصارى في شيء من المباشرات الديوانية، فصرفوا عنها في كل الولايات[٥٧] ومنها القدس بطبيعة الحال وقد وضع محمد بن علي بن النقاش المشهور بأبي أمامة سنة ٧٧٣هـ، رسالة تحت عنوان «المذمة في استعمال أهل الذمة في الكتاب عند الأمراء وفي جباية

الأموال، محفوظة في دار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣١٥ تاريخ.

ثم كان أن زار أحد الوزراء المغاربة مصر، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، ولما عاين أحوال اليهود بمصر، وهاله ما رآه من تمتعهم بلبس أفخر الملابس وركوبهم أفره السروج وعلو منازلهم، بادر الوزير بالاجتماع إلى الناصر بن قلاوون ونائب السلطنة سيف الدين سلار، وبالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وتحدث معهم جميعاً في شأن اليهود والنصارى في ديار الإسلام، وضرورة أخذهم بالشروط العمرية، ووصف لهم حال يهود ونصارى المغرب فيهود المغرب يلبسون الثياب الزرقاء ذوات الأكمام المفرطة السعة، والتي تصل لقرب أقدامهم، وبدلاً من العمائم فإنهم يلبسون كلوتات على أشنع صورة كأنها البراذيع، تبلغ إلى تحت آذانهم ومن ثم استبدلت بثياب صفر وعمائم صفر، ومنعوا من تعمير الكنائس والبيع، ولا يركبون سرجاً، بل ويراقبون مراقبة شديدة(٥٨) ونتيجة لتدخل هذا المغربي فقد رسم السلطان سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م بأن يلبس اليهود والنصارى عمائم مختلفة الألوان، فألبس اليهود العمائم الصفر والنصارى العمائم الزرق والسمرة العمائم الحمر(٥٩).

وتعددت المراسم السلطانية التي صدرت طوال عصر المماليك بشأن تطبيق الشروط العمرية على أهل الذمة بما فيهم اليهود، ففي سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ألزم اليهود بركوب الحمير على المعوج(٦٠) وعاد مرسوم السلطان الصادر ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ليؤكد على عدم جواز استخدام اليهود والنصارى في أي ديوان من دواوين الدولة وأن تكون عمائمهم عشرة أذرع، وألا يركبوا مع مكاري مسلم، وإذا مروا بالمسلمين ينزلون من على الحمير، ويظهروا المسكنة، وأنهم لا يدخلون الحمام إلا بخاتم من رصاص أو نحاس في أعناقهم(٦١).

وقد جددت هذه الشروط خلال السنوات ٧٨٢هـ(٦٢) و ٧٩٦هـ(٦٣) وفي سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م جددت الشروط بشكل صارم، حيث رسم السلطان (سيف الدين جقمق) بعقد مجلس بحضرته، دعا إليه القضاة الأربعة وغيرهم من مشايخ الإسلام كالأمين الأقصرائي وأركان الدولة من المباشرين وغيرهم، وأحضر إليه مؤنس بطريرك النصارى اليعاقبة وفتلوناوس، بطريرك النصارى الملكيين، وعبداللطيف من طائفة اليهود الربانيين، وفرج الله، أحد مشايخ اليهود القرائين، وإبراهيم كبير طائفة اليهود السامرة، وأشهد رؤساء أهل الذمة على أنفسهم، أن كلاً الزم شرعياً، بأن لا يجدد في كنيسة ولا في دير ولا في قلاية ولا في صومعة ولا في بيعة، مما هو في ديار الإسلام، لا بنفسه ولا بمن يستعين به ولا غيره، ولا يرم ما خرب أو تغيب من جدرانها وأخشابها وغير ذلك، ولا يدفع لمسلم خمراً وإن وقع فللسلطان حق تخريب جميع تلك الكنيسة أو الدير أو الصومعة أو القلاية(٦٤) التي تتجاوز الشروط العمرية.

ويمكن أن نستنتج من تعدد صدور تلك المراسيم، بأن الشروط العمرية لم تكن متبعة بدقة، ولم يلتزم بها اليهود والمسيحيون على الدوام، مما جعل الدولة تصدر المراسيم المتتالية لذلك، وغالباً ما يكون صدورها ضمن حملة عامة تنفذ ضدهم فرضتها علاقة بعض سلاطين المماليك مع ملوك الفرنجة السياسية والاقتصادية(٦٥).

ولعله من نافلة القول، بأن الإجراءات التي يرسم بها في القاهرة يلتزم بها في كافة أنحاء السلطنة المملوكية بما فيها القدس، حتى وإن لم تذكر في المصادر والوثائق، فهذه مراسيم تحمل طابع الشمولي، لأنها موجهة لكل النواب والمتصرفين والمباشرين في كل أنحاء السلطنة، وأما في القدس، فتقرأ في وثيقة مملوكية مؤرخة في ٢٦ جمادى الأولى ٧٩٦هـ. إن قاضي القدس قد أخذ التعهدات على ثلاثة من الجزارين اليهود، بألا يذبحوا الذبائح إلا لأنفسهم ولا يبيعوا ذبائحهم إلا لليهود، ذلكم انهم لا يذكرون اسم الله على الذبائح، وألزم اليهود الثلاثة بدفع عشرة آلاف درهم لإعمار قناة الحرم الشريف إن هم خالفوا ونقضوا ما تعهدوا به(٦٦).

ومن ناحية أخرى، فقد ثارت مسألة بين اليهود والمسلمين في المدينة المقدسة ٨٧٩هـ، وسببها قيام اليهود بتجديد كنيس لهم في القدس بدعم من السلطان المملوكي، فما كان من مسلمي

القدس إلا الاعتصام عصبة واحدة، وأنهوا إلى شيخ الإسلام أمين الاقصرائي وشمس الدين الجوجري وزين الدين الابناسي، بأن الكنيس محدث، ولذا يتوجب هدمها، فهدمت وسعى اليهود لدى السلطنة لاستصدار مرسوم بإعادة إعمار الكنيس، وكان أن ضرب السلطان جماعة ممن أفتوا بالهدم وغربهم عن المدينة، بحجة سرعة تنفيذهم لهدم الكنيس بغير إذن سلطاني شريف، ثم انتهز السلطان سيف الدين قايتباي مناسبة صعود القضاة ومشايخ العلم للحضرة السلطانية للتهنئة بشهر رمضان، وعقد مجلساً بسبب كنيس اليهود، لكنه وقع الخلاف بين القضاة ومشايخ العلم وكثر الخبط في المجلس وانفض على غير طائل فما كان من السلطان إلا أن رتب مجلساً آخر في دار يشبك الدوادار، حضره القضاة الأربعة ومنهم ولي الدين الأسيوطي الشافعي[٦٧]. وفي هذا المجلس أجبر القاضي شهاب الدين بن عبية على التراجع عن حكمه السابق الصادر منه في القدس الشريف. وأفتى العلماء من الشافعية والحنفية بمصر بجواز إعادة بناء الكنيس وكان قاضي الجماعة بالغرب، المالكي، شهاب الدين القلجاني، من أشد المتحمسين لتمرير الفتوى. وقد قوبلت الفتوى بالسخرية من الناس، فقال أحدهم فيها:

تفتي بعود كنيس وذاك منك جهلا
وتدعي فرط علم والله ما أنت إلا[٦٨]

لقد كان لليهود نفوذ في الدولة المملوكية، يعيشون في سعة ورخاء ورسائل الرحالة من اليهود خاصة، تؤكد بأن يهود القدس، كانوا ينعمون ببحبوحة من العيش، آمنون مستقرون في ظل الرعاية المملوكية. بل إن بعض سلاطين المماليك بلغوا حداً في التوسعة عليهم، وتجاوزوا الشروط العمرية وغضوا النظر عن ضرورة إلزام اليهود بها، فأذنوا لهم بمراسيم اشتراعية بإعادة تعمير كنسهم على غير هيئتها السابقة وقد صور الرحالة (Isaac ben Joseph ibn Chelo) الذي وصل القدس سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م، حال اليهود فقال «إن اليهود في القدس يعيشون في سعادة وراحة، ويمارس كل واحد منهم عبادته بكل حرية، والسلطة الحاكمة عادلة وعظيمة، دام عزها وبقاؤها، ولتبلغ ذروة مجدها»[٦٩]، ويضيف (Isaac) «بأن يهود المدينة أثرياء لاشتغالهم بالتجارة في كل شيء، ولهم حوانيت ودكاكين ممتازة»[٧٠].

وكان الرباني (Obadiah Jare)، أكثر إيضاحاً في وصفه لحال اليهود في القدس، فذكر «أن اليهود ليسوا مضطهدين عند العرب ولقد سافرت في جميع أنحاء فلسطين طولاً وعرضاً، ولم يعترض طريقي أحد لأن عرب فلسطين لطفاء وكرماء مع الأغراب، وخاصة مع الذين لا يعرفون لغتهم»[٧١].

وقرر (Obadiah) بأن العرب الفلسطينيين إذا ما رأوا اليهود مجتمعين مع بعضهم، فإنهم لا يتأثرون لذلك ولا ينزعجون، حتى لو قدر لأحد اليهود أن يبرز في العلوم، فمن السهل عليه الارتقاء لمنصب رئيس العرب واليهود في العلوم، فالوظائف يتولاها من كان مستحقاً لها دون الالتفات إلى دينة وطائفته وبلده[٧٢].

وحول الادعاءات التي كان يثور الجدل بشأنها في أوروبا، والمتصلة بالإفراط في فرض الضرائب على اليهود المقيمين في القدس أو الحجاج، ذكر (Obadiah) بأن اليهود الذين يقيمون في القدس يدفعون ٣٢ قطعة دراهم معاملة فقط عن كل رأس، جزية، تؤخذ من الغني، والفقير القادر على العمل، وتفرض على كل بالغ[٧٣].

وذهب (Obadiah) إلى أن رؤساء اليهود هم الذين يتفننون في فرض الضرائب على اليهودي كل أسبوع، وبين أن مبلغ الـ ٥٠ دوكاة، وهو مبلغ كبير نسبياً إنما يفرض على اليهودي الذي يصنع الخمور ويتاجر بها، وتدفع هذه الدوكات الخمسين كغرامة تأديب، حيث أن شرب الخمور محرم عند المسلمين[٧٤].

وعلى صعيد آخر، فإن اليهود المقيمين في المدينة احتفلوا بأعيادهم الدينية بكل حرية. فقد كانوا يجتمعون في يوم ٢٨ مايو من كل عام عند كنيس الرام حيث يرقد أحد أنبيائهم صمويل حسب اعتقادهم[٧٥].



□ القوات الصليبية بعد فشل الحملة الثانية على القدس.

كما كان اليهود يمارسون احتفالاتهم على جبل الزيتون بكل حرية أيضاً في شهر تشرين الأول بل وإن السلطنة المملوكية وفرت المساكن للحجاج للمبيت على جبل الزيتون(٧٦).

ويحتفل اليهود أيضاً عند قرية ميرون من عمل الزنار من صفد في منتصف أيار/مايو من كل عام حيث يتجمعون عند ناوس ماء يرشح، ويحملون ماءه لتبرك به(٧٧).

لقد راعت سلطنة المماليك عقد الذمة لليهود، وقدمت لهم الحماية والرعاية دونما إرهاق ضرائبي، وكانت بلاد الإسلام مفتوحة لليهود ليجدوا الأمن والسلام، ولكنهم ما كانوا إلا ناكرين.

«وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين وَلَتَعْلُنَّ عُلواً كبيراً»(٧٨).

«خطبة توقيع رئيس اليهود القرائين والربانين والعوام والسامرة كما وردت في مخطوط «قلائد الجمان في مصطلح مكاتبات أهل الزمان» لأحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمحفوظ في المكتبة البريطانية رقم ( ) ورقة ١٠٦ب».

أما بعد، حمداً لله على نعمه التي ما زالت تعم من الطوائف على كل أمة، وتوردهم مناهل الارزاق مع اختلافهم، ومسبل عليهم ستر الموهبة وذيل النعمة، وتلبسهم ملابس الأمن المعهود من عهد أهل الذمة.

ولما كان أهل الذمة اليهود، قد لاذوا بخدمة هذه الدولة الشريفة وتفيئوا بظلالها المنيفة، وحث الشرع المطهر على دفع مضارهم وحملهم على عهدهم الذي سبب صيانتهم واستقرارهم، تعين النظر في مصالحهم وإجرائهم على قواعدهم في إقامة رئيس عليهم من أكابرهم وأصلحهم، ورغب اليهود الربانيون والقراءون والسامرة في إقامة الحكيم الأوحد الرئيس المحترم الخادم الأمين ــ مهذب الدولة، بقية الملوك والسلاطين، إبراهيم بن الرئيس الأوحد سعد الدولة، داود بن الرئيس الكبير، أبو المنى بن موسى الهمه الله تعالى رشده، رئيساً عليهم لينظر في أحكامهم، ويتولى

امورهم وامور أيتامهم بمقتضى شريعتهم في حفظ ناموسهم، وإطابة خواطرهم ونفوسهم.

فلذلك رسم بالأمر الشريف، أسبغ الله به النعمة وأجزل فضله وإحسانه على كل أمة، أن يستقر الرئيس الأوحد المذكور أعلاه في رياسة اليهود الربانيين والقرائين والسامرة بمصر والقاهرة المحروسة وثغر الإسكندرية المحروس، وجميع بلاد الديار المصرية ــ حرسها الله تعالى ــ لا يخرج أحد عن أمر مهم من صغير ولا كبير ولا يتعداه من معروف ولا مشكور ولا جليل ولا فقير ولا ذو جاه للسلطان ولا بأمير وسبيل، من وقف عليه أنبناه إلى ما ولينا ومعاضدته ومساعدته فيما أحليناه، وحفظ نظام ناموسه، وإقامة حرمته لكونه، رأس هذا المنصب والمسمى برئيس ولتعويده بالمعاضدة على حمل جماعة اليهود المذكورين على طريقتهم، وليفوضوا إليه الحبس والترسيم وإقامة الحدود على المذكورين بمقتضى شريعتهم على خروجهم عن طريق الحق في زيفهم ومخالفتهم، ولينظر في أحكامهم وأنكحتهم وأوقاتهم المختصة بهم وصرفها لمن يستحقها وإيصالها لمن يتسلم منهم طريقاً وليتعهدم في أمر أيتامهم، وتنمية أموالهم وما تفرضه شريعتهم من الانفاق وصرفه بمقتضي وجوه الانفاق، والذي يحرم من يتعين عليه الحرمة منهم ويعضده بمقتضي شريعته عنهم، ويكتب اسمه في صدقاتهم ومساطيرهم على عادة أبيه وجده، فليبدأ ذلك مباشرة ترضيهم وليتوصين بطائفته وصية يسلك بهم طريقاً في دفع المضار توقيهم، والنواب يقفون عنده وحسبه انهم نوابه وجنده، ويقومون بالعمل يمارسهم به رعاية لمصالحهم وقصدهم، واعتماد أهل الوفاء بذمام عهدهم ويتقدمون بالشد من الرئيس المذكور ونوابه بثغر الإسكندرية المحروس وسائر الاعمال بالديار المصرية، ويعتمد مع نوابه ما يعمد معه من الإكرام، ويتعهد كل طائفة بما يحب من الرعاية والاحترام، ويكونون معه بمضاعفة الحرمة الوافرة الأقسام، ومن حالفه منهم، وخرج من طاعته من الطوائف المذكور، فيقابله أشد مقابلة، ويردع أيم ردع، بحيث تكون طوائفهم خائفين ولأمره تائبين، وله في كل أمر مبايعين.

وسبيل كل واقف على مرسومنا هذا من النواب والولاة والمتصرفين اعتماد ما تضمنه من غير عدول عنه، ولا خروج عن حكمه، والاعتماد في ذلك على الخط الشريف اعلاه، حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الهوامش

(١) السامرة: فرقة يهودية لا تؤمن بغير الأسفار الخمسة من التوراة. وينكرون كل نبوة بعد موسى باستثناء هارون ويوشع، ويتخذون من جبل الجرزيم بالقرب من نابلس قبلة لهم ويحجون إليه ويقدمون عليه الأضاحي، يأخذون بظاهر نصوص التوراة، ويعتمدون على رؤية الأهلة في تاريخهم. انظر عنهم: ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ١٤٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ١١/٣٩١. ابن فضل العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط محفوظ في خزانة ايا صوفيا بالمكتبة السليمانية ـــ بتركيا، رقم ٣٤٣٥، الجزء ٢٣ ورقة ٩ أ، ١٤٦ ب. ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ١/٩٠ ـــ ٩٢. قاسم عبده: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، ١١٣ ـــ ١١٥. أحمد سوسة: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ٧٤٨. الشهرستاني: الملل والنحل، ١/٢١٨ ـــ ٢١٩. ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ١/١١٧.

Moses Gaster: The Samaritanes. Their History Doctrines and Literature, London, 1925. Universal Jewish Encyclopaedia: Art: Samartines.

وانظر ايضاً التوراة السامرية (النص الكامل للتوراة السامرية باللغة العربية، ترجمة الكاهن السامري: أبو الحسن اسحق الصوري، نشرها أحمد حجازي السقا).

(٢) الصدوقية نسبوا إلى رجل منهم اسمه صدوق، يقولون إن العزيز هو ابن الله تعالى، وينكرون البعث والنشور والقيامة، لأن عقاب العصاة وإثابة المحسنين يحصلان في حياتهم، ويقبلون الأسفار الخمسة. انظر: سوسة: مفصل العرب واليهود، ٧٥٦ ـــ ٧٥٧. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ٢٣٩ ورقة ٩ أ.

(٣) العانانية: أصحاب عانان الداودي اليهودي، يقولون إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء، ويتبرأون من قول الأحبار، وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام وهم في الأندلس بطليطلة وطلبيرة. انظر: ابن فضل الله العمري: المسالك، ج ٢٣ ق ٩.

(٤) الربابنة أو الربانيون: وهم القائلون بأقوال الأحبار، وهم جمهور اليهود، وقد اتبعوا تفاسير علماء اليهود وفقهائهم في المشنا والتلمود، ورد ذكرهم في القرآن الكريم (سورة المائدة:٤٤)، يؤرخون بالأهلة. انظر: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج ٢٣ق٩ أ.حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، ص ٢٤٣.

Universal Jewish Ency. Art Rabbanite.

(٥) العيسوية: نسبوا إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، ابتدأ دعوته زمن آخر ملوك بني أمية، يقولون بنبوة عيسى ومحمد (ص)، وزعم أبو عيسى انه نبي جاء ليخلص بني إسرائيل من الملوك الظالمين، انظر الشهرستاني: الملل والنحل، ١/٢١٦. ابن فضل الله: المسالك، ج ٢٣ ق ٩ أ.

(٦) الفريسيون: يؤمن اتباعها بالقيامة وبالروح والملائكة، يحافظون على الشريعة ويتمسكون بها مع التقاليد الحرفية التي كان يتناقلها الخلف عن السلف، والكلمة مشتقة من الإفراز (فروشيم بالعبرية) حيث أطلق اللفظ على جماعة من كبار اليهود بمعنى المفروزين أو المنعزلين، وسموا أنفسهم بالأتقياء «حسيديم» وسموا جمهور اليهود عوام الأرض. انظر: قاسم عبده: أهل الذمة، ١١٠. سوسة: مفصل العرب واليهود، ص ٧٧٠. شاهين بن مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، ط. مصر ١٩٠٤، ص ١١٧ ـــ ١١٢. حسن ظاظا: الفكر الديني، ٢٥٢، ٢٥٦.

(٧) الكتبة (القراءون): وهم يعتبرون انفسهم، كتبة علماء الشريعة وحافظي تقاليدها، ولا يعترفون بغير التوراة، ولم يتقيدوا بما جاء في التلمود ويتمسكون بظاهر نصوص التوراة ويعتقدون بسابق القدر، ويعتمدون على الأهلة في تقويم وحساب أعيادهم، ويرجعهم البعض إلى عنان بن داود ت ٧٩٠م الذين ورد ذكرهم سابقاً. انظر: سوسة: مفصل العرب واليهود، ٧٧٣. مراد فرج: القراءون والربانيون، ٣٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣/٢٥٣. المقريزي: الخطط المقريزية ٢/٤٧٢، ٤٧٦. مؤرخ شامي مجهول: حوليات دمشقية، تحقيق حسن حبشي، ص ٤٠.

Universal Jewish Ency: Art, Karaites.

قاسم عبده: أهل الذمة، ١١١ ـــ ١١٢.

(٨) الأسينيون أو المغتسلون: فرقة تختلف عن بقية الفرق اختلافاً ظاهراً في العقائد، اعتزلت المدن وأقامت في المغاور والكهوف قرب البحر الميت، يحرمون نظام الرق، لا يقدمون الذبائح والقرابين، ويحرمون الملكية الفردية، يحتمون على انفسهم الطهارة فيغتسلون كل صباح، سموا اتباعها بالحسّديين، مالوا إلى التقشف والزهد، انظر: سوسة: مفصل العرب واليهود، ٧١١. شاهين بن مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، ١١٧، ١٢٢.

(٩) الهيروديون: طائفة سياسية من اليهود كانوا يميلون إلى هيرودس الكبير ليقربهم من الرومان، يقولون بأن لا ملك لليهود إلا الله، انظر، سوسة: مفصل العرب واليهود، ٧٩٢.
شاهين بن مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، ١١٧ ـــ ١٢٢.

(١٠) بنيامين بن يونة التطيلي: رحلة بنيامين، ترجمها عزرا حداد عن العبرية، ط. بغداد ١٩٤٥.

(١١) Adler: Jewish travellers, pp. 88-89.

(١٢) Op. Cit. Ibid, pp. 103-105.
Holtz (Avrham): The Holy City (Jews on Jerusalem), New York, 1971, p. 126.

(١٣) Zenjamin. Z. Kedar: The Jews of Jerusalem (1187-1267) and the role of Nahmanides in the re-esta-blishment of their Community. The Jerusalem Cathedra, Vol. 2. edited by Lee. 1. Levine, Wayne State University Press Detroit, 1982, p. 321.

(١٤) Holtz (Avrham): The holy city, pp. 126-127.

(١٥) Encyclopaedia Judaica, p. 74. Adler: Jewish travellers C. Elijah Ferrara) pp. 151-155.

(١٦) Adler: Jewish travellers, p. 189. Ency. Jud. p. 75.

(١٧) The Wanderings of Felix Fabri 1 the Library of the Palestine Pilgrims text Society, London, 1897. vol. 1 p. 213.

(١٨) Ency. Judaica p. 72, Adler: Jewish travellers, p. 235.

(١٩) Joseph Drory: Jerusalem in the Mamluk Period, Jerusalem Cathedra, vol. 1. 1981, pp. 191.

(٢٠) Ency. Jud. p. 76.

(٢١) Ency. Jud. p. 76.

(٢٢) العسلي: وثائق مقدسية ٢٨٤ ـــ ٢٨٥.

(٢٢م) Le Strange (Gyiy): History of Jerusalem, reprinted from Palestine under the Moslems, p. 23.

(٢٣) Kedar: The Jews of Jerusalem, p. 23.

(٢٤) Adler: Jewis travellers, p. 126.

(٢٥) غوانمة: نيابة بيت المقدس، ١١٢ و Martin: The Crusades, p. 127.

(٢٦) Adler: Jewish travellers, p. 153.

(٢٧) Marshall. W. Baldwin: The decline and Fall of Jerusalem 1174-1189 (A History of the crusades, vol. 1 pp. 621.

(٢٨) Grousset. R: Histoire des croisades et du Rayaume Franc. de Jerusalem 3 vol. Paris, 1936 (vol. 2. p. 821).

(٢٩) Ashtor, E: Saladin, the Jews, Hebrew union College, Annual 26, 1956.

(٣٠) Kedar: The Jews of Jerusalem, p. 321.

(٣١) John. M. Oesterreicher: The Jewish Presence in Jerusalem through the ages, New York, 1974. p. 143.

(٣٢) عاشور (سعيد): اليهود في العصور الوسطى، دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، ص ٩٤، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧.
غوانمة (يوسف): تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي، ط. عمان ١٩٨٢، ص ١٢٢ ـــ ١٢٣.

(٣٣) Marshall. W. Baldwin: The decline, p. 621.

(٣٤) Kedar: The Jews of Jerusalem, p. 21.
Adler: Jewish travellers, p. 248.

(٣٥) ـــ احمد درّاج: المماليك والفرنجة، ٤٥ ـــ ٤٦.

(٣٦) ENCY. Jud. p. 69.

(٣٧) بجير الدين العليمي: الإنس الجليل، ٢/٤٣.
— benjamin. Z. Kedar: The Jews of Jerusalem (Jerusalem Cathedra) vol. 2. 1982, p. 321.

(٣٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ١١/٢٨٨.

(٣٩) الحزان: من يشرف على الصلاة ويكون ملماً بأحكام التلمود عند الربانية، يتلو صلوات السبت والوعظ، انظر مراد فرج: القراءون والربانون، ١٨١.

(٤٠) الشليمصبور / الإمام الذي يصلي باليهود في كنائسهم، المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤١) الحبر او الربان: من يتولى القضاء والفصل في المنازعات بين افراد الطائفة والفتوى، ينهي ويأمر ولا يتقاضى أجراً، بل يرتزق من التجارة، مراد فرج: القراءون ٧٢ قاسم عبده: أهل الذمة، ١١٨.

(٤٢) ابن العربـي: الرحلة إلى المشرق (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة)، مجلة الأبحاث ـــ بيروت، ص ٨١ ـــ ٨٢.

(٤٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/١٩٤.

(٤٤) Kedar: The Jews of Jerusalem, 321. ENCY. Judiaca. p. 67.

(٤٥) Holtz: The holy City, p. 122.

(٤٦) Abraham Yeari: Iaroth Eretz, Yisteal, Tel-eviv-Gazit, 1943, pp. 47-5.

(٤٧) ENCY. Judica, p. 75.

(٤٨) ENCY. Judica. p. 76.

(٤٩) ENCY. Judica, p. 76.

(٥٠) ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢١٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ١١/٣٨٥ ــ ٣٩٢. ابن الفرات: تاريخ، ٨/٢٠.

(٥١) Holtz: The Holy City. p. 127.

(٥٢) Alder: Jewish travellers, p. 235.

(٥٣) حول الشروط العمرية انظر، ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ط. الأولى، دمشق ١٩٦١، بتحقيق صبحي الصالح. وشرح الشروط العمرية صبحي الصالح أيضاً، ط. دمشق ١٩٦١م. ابن جماعة: تحرير الأحكام المنشور في مجلة (Islamica)، م ٤ سنة ١٩٣٤م، نشره هانس كوفلر.

(٥٤) الأصل في السامرة انهم من اليهود، غير ان ابن جماعة أدرجهم مع من له شبهة كتاب لاختلاف توراتهم عن تلك التي عند الربانية والقرائيين، انظر ابن جماعة: تحرير الأحكام، ص ٢٨.

(٥٥) ابن جماعة: تحرير الأحكام، ٢٩.

(٥٦) المقريزي: السلوك، ج ٢ ق ٣ ص ٩٢٣، ٩٢٥.

(٥٧) المقريزي: السلوك ق ١ ج ٣ ص ٧٥٣.

(٥٨) موسى بن ميمون: مقالة دلالة الحائرين عناية (Joseph Lehouda) المنشورة بمجلة (Journal Asiatian. Tom. 14. Paris, 1842, pp. 11-14).

(٥٩) العيني: عقود الجمان في وقائع الأزمان ــ مخطوط خزانة أيا صوفيا رقم ٣٣١١ ورقة ٣٤ أ ــ ب.

(٦٠) المرجع السابق، ج ٢٦ ق ١٠٧.

(٦١) العيني: عقود الجمان، ص ٧٠ مخطوط أيا صوفيا رقم ٣٣١، ابن حجر: انباء الغمر، ١٨/٤ القرشي: معالم القربة، ٩٢ ــ ١٠٠.

(٦٢) ابن حجر: ابناء القمر، ٩٢ ــ ١٠٠.

(٦٣) الوثائق المملوكية رقم ٦٦/٢ وثيقة رقم ٦٣٦ تاريخ ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ. المنشورة في كتاب وثائق بيت المقدس بعناية كامل العسلي، ط. عمان سنة ١٩٨٠ ج ٢.

(٦٤) السخاوي: التبر المسبوك، ٣٩ ــ ٤٠.

(٦٥) الصفدي: الوافي بالوفيات (فيسبادن ١٩٦٩) ١٢٥/٧.

(٦٦) العسلي: الوثائق المملوكية، ٦٦/٢.

(٦٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ١٠٢/٣ ــ ١٠٣.

(٦٨) العليمي: تاريخ الإنس، ق ١٤٠ ب (مخطوط استانبول رقم ١٩٩٩ قره أوغلي).

(٦٩) Kedar: Jews of Jerusalem, p. 129.

(٧٠) Ibid. p. 129.

(٧١) Adler: Jewish travellers, p. 133.

(٧٢) Adler: Jewish travellers, p. 134.

(٧٣) Ibid, p. 134.

(٧٤) Ibid, p. 134.

(٧٥) النابلسي: الحضرة الإنسية في الرحلة القدسية، ص ١٠.

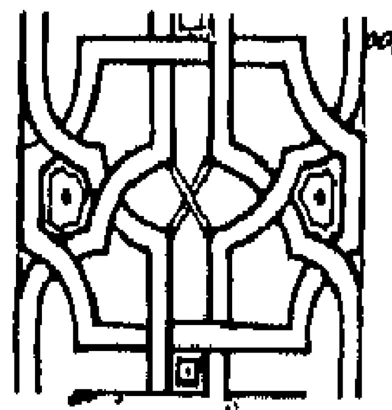
— Kedar: Jews of Jerusalem. p. 124.

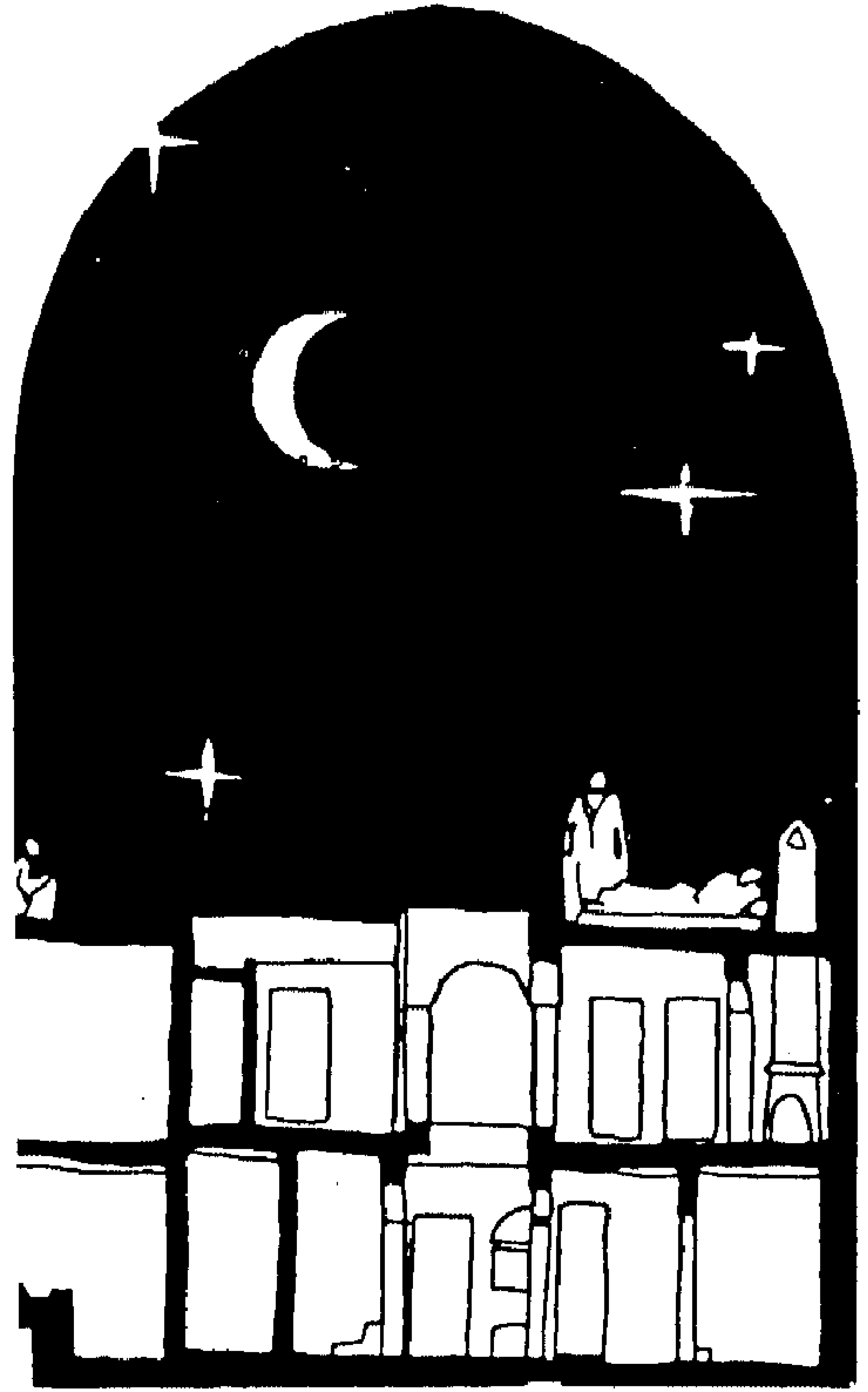
(٧٦) Kedar: Jews of Jerusalem, p. 124.

(٧٧) العثماني: تاريخ صفد. بعناية كلود كاهن.

— BSOAS. vol. 15, 1953, p. 80.

(٧٨) الإسراء:٤.





أضواء على تاريخ شبه الجزيرة العربية

د. زاهية قدورة

العرب شعب سامي يرتبط مع غيره من الشعوب السامية بروابط اللغة والأصل والموطن القديم، وهم أبناء الأمة العربية في أبعادها الحالية الممتدة من المحيط إلى الخليج. فهؤلاء العرب الذين يقطنون تلك البقاع قد جمعهم التاريخ المشترك واللغة المشتركة والمصير المشترك وأصبحوا يمثلون وحدة روحية وثقافية في عالمنا الحديث. وقد جرى بين الباحثين كثير من التساؤل عن وجود أسس عنصرية للأمة العربية، وبذلت جهود كثيرة لتحري أسس هذه الوحدة منها ما بني على أصل الساميين في الجزيرة وهجرتهم منها إلى شرق البحر المتوسط، وغير ذلك من الآراء والاتجاهات، فالجنس العربي ليس بدعة في ذلك وليس بحاجة إلى تحري اصوله بين الحفريات.

فالعرب تاريخ وحضارة وثقافة وليسوا خصائص عنصرية أو عرقية. لقد كانت فكرة العرب تتحكم في تفكير الباحثين في طبيعة الوحدة القومية، ولكن سير التاريخ واتباع نطاق البحث في حركات الأمم والشعوب قد أثبتت أن العرق الموحد الصافي لا يمكن أن يوجد في أية منطقة من مناطق الأرض ومع ذلك فإننا نتناول موضوع الأصل العربي كمرحلة من مراحل الفكر والتاريخ وكمقدمة ممهدة لدراسة الأمة العربية قبل أن تتخذ شكلها الحالي المتكامل.


لقد شهدت المنطقة العربية امتزاج الكثير من الشعوب خلال عصور التاريخ ومع ذلك فإن الجنسين الغالبين في أصولهما هما:

١ ـ الجنس السامي الذي كان منتشراً في غرب آسيا قبل ظهور الإسلام.

٢ ـ الجنس الحامي الذي كان منتشراً في شمال أفريقيا منذ أزمنة بعيدة.

وكلاهما فرع من عنصر البحر المتوسط، ويرى بعض العلماء مثل هروزني (hrozny) وبارتون (barton) إن الساميين والحاميين يرجعان إلى أصل مشترك، وإنهم أتوا من مكان واحد. ويقول العالم هروزني (hrozny) إن هذا المكان هو منطقة القفقاس وبحر الخزر «وإن سورية كانت محطة لهم ومنها تفرقوا إلى مصر وبلاد الرافدين وغيرها»(١). ويكاد الباحثون يتفقون على أن مهد الشعوب السامية هو الجزيرة العربية أو جزيرة العرب، ومن القسم الجنوبي بالذات. وقد عين البعض نجدا، والبعض الآخر ذكر العروض ولا سيما البحرين التي كان يقطنها الفينيقيون الذين هاجروا منها فيما بعد. ويجعل البعض وهم قلة، موطن الساميين أرض بابل أو مكاناً آخر في العراق، وهؤلاء المؤرخون متأثرون برواية «العهد القديم» القائلة بأن أقدم ناحية عمرها بنو نوح هي أرض بابل، ومن أشهر القائلين بهذه النظرية بعض المستشرقين، منهم فون كريمر (von kremer) وجويدي (guidi) وهومل (hommel) ١٨٧٩.

وقد اهتم الباحثون الغربيون بهذه الدراسات السامية، وكان ممن ذهب إلى أن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو جزيرة العرب، العالم الألماني شبرنجر (sprenger) ١٨٦١، إذ يرى أن نجدا هي موطن الساميين وقد زحفوا منها إلى الهلال الخصيب وطبعوه بالطابع السامي. «ومن هذا المخزن خرجت طبقات من البشر وسكنت في هذه الأرض التي اتسمت بالسامية»، وأيد هذه النظرية سايس (sayce) الذي قرر أن جميع الروايات والآثار السامية تشير إلى أن جزيرة العرب هي الموطن الأول الذي ظهر فيه الساميون(٢).

على أن الثقات من الباحثين يرجعون أصل الساميين إلى جزيرة العرب. ولما كان العرب قد سكنوا الجزيرة زمناً أطول مما سكنه غيرهم، وقد تأثروا بمحيط هذه الجزيرة أكثر من سواهم فإنهم لذلك أصدق الشعوب السامية تمثيلاً للسامية وأحفظهم لخصائصها.

وأهم الشعوب السامية: البابليون والآشوريون والأموريون والكنعانيون والفينيقيون والعبرانيون والعرب والأحباش.

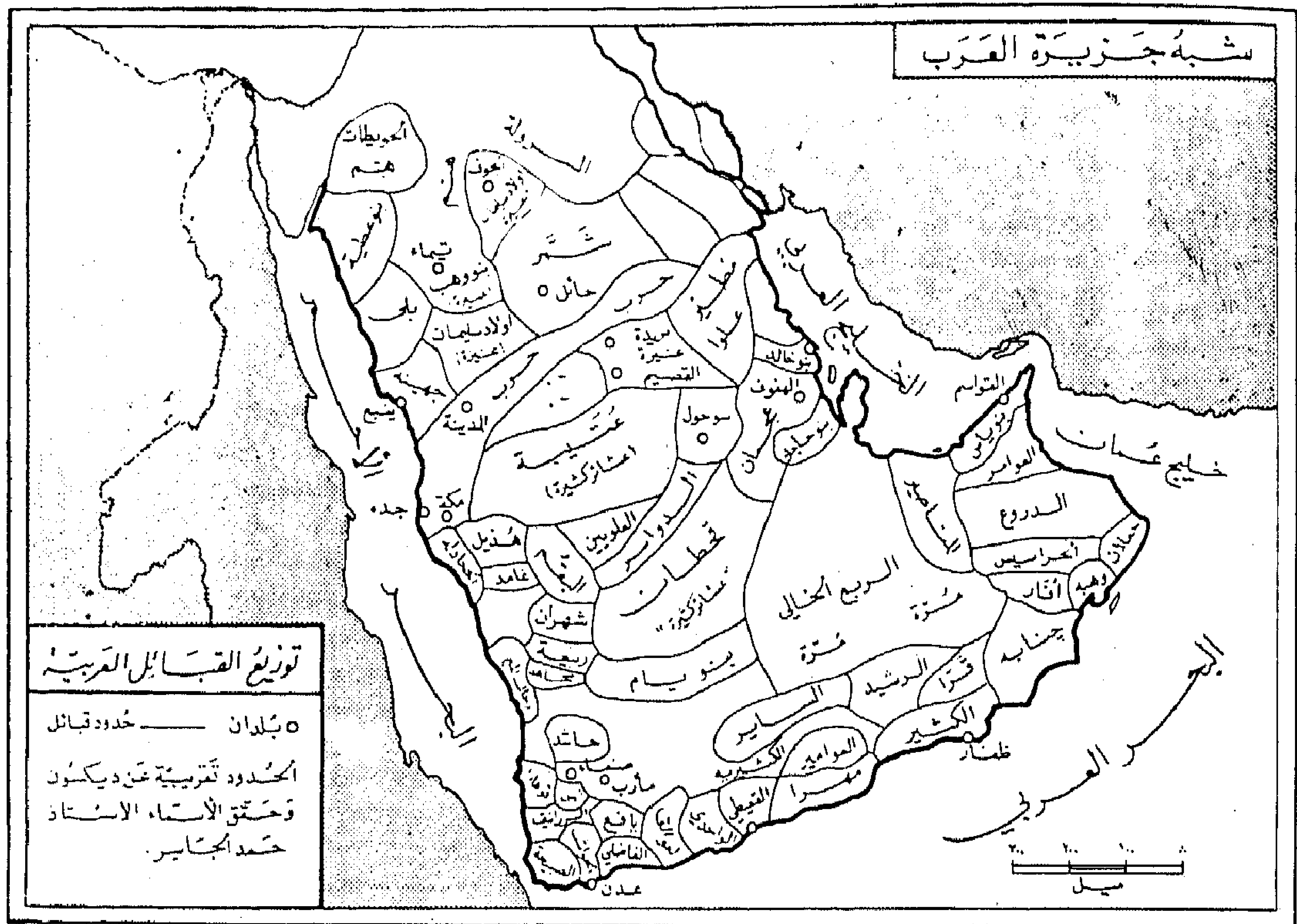
لقد خرج الساميون من الجزيرة العربية في هجرات متعددة إلى الهلال الخصيب. وكانت هذه الهجرات بداية عصر حضاري في المنطقة ويعزى خروج هذه الشعوب في رأي بعض العلماء إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت في العصور القديمة خصبة التربة، تمتاز بغزارة الأمطار ووفرة المياه وكثافة الغابات وضخامة الأشجار. وأنها كانت مأهولة بالسكان ميسورة المياه، وإن جوها كان خيراً من جو أوروبا في العصور الجليدية، إذ كانت الثلوج تغطي معظم أرض أوروبا في هذه العصور، ثم تغير الحال وتغير الجو عامة في العصر الحجري الحديث فذابت الثلوج بالتدرج وتغير جو الجزيرة العربية من خصب إلى جفاف مما دفع سكانها إلى الخروج في هجرات متتالية(٣).

وأهم هذه الهجرات:

أولاً ــ الهجرة الأولى: كانت سنة ٣٥٠٠ ق.م. واتجهت هذه الهجرة إلى الشمال الشرقي أو إلى وادي الفرات الأدنى، ومنها نشأت حضارة البابليين والأشوريين.

ثانياً ــ الهجرة الثانية: كانت سنة ٢٥٠٠ ق.م. أي بعد ١٠٠٠ عام من الهجرة الأولى.

وقد نزح في هذه الهجرة الأموريون والكنعانيون والفينيقيون إلى سوريا وسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية. وقد نزل الكنعانيون غربي الشام وفلسطين وانتشر الفينيقيون على طول الساحل السوري، والأراميون إلى جنوب الشام (فلسطين) ومن بعدهم (السريان) إلى داخل سوريا ـ أي سهل البقاع ـ .



ثالثاً ـــ الهجرة الثالثة: كانت سنة ١٥٠٠ق.م. وقد نزح في هذه الهجرة العبرانيون والأراميون، إلى جنوب الشام (فلسطين) ثم نزح الأنباط حوالي ٥٠٠ ق.م.(٤) ثم انطلق العرب المسلمون في القرن السابع الميلادي في فتوحاتهم الكبرى التي امتدت إلى أطراف الصين وغرب أوروبا.

هذه هي أهم الهجرات، وهناك هجرات، أخرى لم يكن لها مثل هذه المكانة التاريخية، على أن الفتح الإسلامي كان الانطلاقة الكبيرة التي انطلق العرب منها إلى هذه البلاد وامتزجوا بأهلها وأقاموا دولتهم الكبرى التي امتدت فيما بعد من المحيط إلى الخليج. ونذكر في هذه المناسبة ما قاله الدكتور فيليب حتي(٥): «إن البابليين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين شعوب كانت ثم زالت، أما العرب والمتكلمون بالعربية فإنهم كانوا ولا يزالون».

وكذلك زحف عدد من الأسر السامية إلى افريقيا وإلى مصر بالذات قبل أيام الأسر الفرعونية، على أنه في شمال أفريقيا، اختلط الأصل الحامي بجنس أشقر جاء إليها في الألف الثاني قبل الميلاد، وهو جنس يشبه سكان أوروبا الشمالية الغربية يتميز أهله ببياض البشرة واستطالة الرأس وطول القامة. وعلى أي حال فإن نظرية العلاقات على أساس الدم والعرق أو العنصر لم تعد في عصرنا هذا ذات أثر عميق في علاقات الشعوب(٦). فهناك عوامل أخرى تعمل على الجمع بين الأمم المختلفة أو إيجاد الفرقة بينها.

هناك عوامل كثيرة أقوى من العنصرية منها، اللغة الواحدة والمنطقة الجغرافية الواحدة والتاريخ المشترك والمصالح الاقتصادية المشتركة المتكاملة، والمصير المشترك.

هكذا نرى إن الجزيرة العربية كانت موطن العرب الأول، ولكن الهجرات المتتالية نحو الشمال ابتداء من ٣٥٠٠ ق.م. ثم الروابط التي وجدت منذ القدم، جعلت بلاد العراق وسوريا الطبيعية ـــ أي لبنان وسوريا والأردن وفلسطين ـــ ومصرٍ وشمالِ أفريقيا، بلاداً عربية

لغة وتاريخا وتراثا ومصيرا.

اما حدود العالم العربي فهي: من الشرق سلسلة جبال زغروس الفاصلة بين العراق وإيران، ومن الغرب المحيط الأطلسي وراء ساحل مراكش، ومن الشمال سلسلة جبال طوروس التي تفصل تركيا عن الهلال الخصيب، ومن الجنوب المحيط الهندي وأدغال أفريقية والصحراء الكبرى.

وتشمل الأقطار العربية التي تقع في آسيا، جزيرة العرب والهلال الخصيب الذي يتألف نصفه الشرقي من العراق ونصفه الغربي من سوريا الطبيعية، وهي وحدة جغرافية وطبيعية تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى صحراء سيناء في الجنوب، وبين طرفي الهلال الخصيب تقع بادية الشام، وهذا الهلال امتداد المستطيل الصحراوي وشبه الصحراوي إلى الجنوب أي الجزيرة العربية نفسها.

وفي افريقيا استوطن العرب وادي النيل ـ مصر والسودان ـ وانتشروا على طول الساحل من مصر إلى مراكش، وتشمل أفريقيا الشمالية المغرب العربي المؤلف من ليبيا وتونس والجزائر الواقعة على ساحل البحر المتوسط. ومراكش الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى. وهذه الأقطار العربية تؤلف بقعة عربية واحدة تحوي مختلف أنواع المناخ والتربة والموارد الطبيعية، فهي تكمل بعضها بعضاً وتؤلف مجموعة طبيعية ومنطقة اقتصادية متكاملة وشعباً عربياً واحداً تشده روابط اللغة والتاريخ والتراث والمصير المشترك.

والجزيرة العربية في ما أرى هي المنطلق الأول لهذه الأمة فلا بد من ذكر لمحة خاطفة عنها:

تشكل الجزيرة العربية قطعة مستطيلة مساحتها مليون وربع من الأميال المربعة. يحدها من الغرب البحر الاحمر، ومن الجنوب بحر العرب، وقسم من المحيط الهندي ومن الشرق بحر عمان وخليج البصرة، ومنهم من يرفع حدودها في الشمال إلى الفرات وحلب ومنهم من يدخل العراق وشرق الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان ضمن هذه الحدود، على أن أكثر الجغرافيين يرفعون الحدود إلى بادية الشام حيث تندمج فيها تدريجياً.

عرفت بلاد العرب منذ الجاهلية باسم جزيرة العرب، مع أنها في الواقع شبه جزيرة ولكنهم غلبوا عليها اسم جزيرة وذلك استناداً إلى وصف جغرافي العرب في القرون الوسطى[٧] حيث يجعلون حدودها الشمالية نهر دجلة ومنعطفً نهر الفرات والبحر المتوسط، أي يرفعون حدودها ويجعلون الهلال الخصيب جزءاً منها. وهذا التخطيط الجغرافي لجزيرة العرب، قد اقر به قدماء الكتاب من قبل ظهور علم الجغرافية عند العرب بقرون عديدة، وذكروا أن الهلال الخصيب جزء من جزيرة العرب. وبذلك قال المؤرخ القديم بليني[٨] في إن حدود جزيرة العرب تمتد إلى جبال أمانوس وتضم مدينتي الرها وحران.

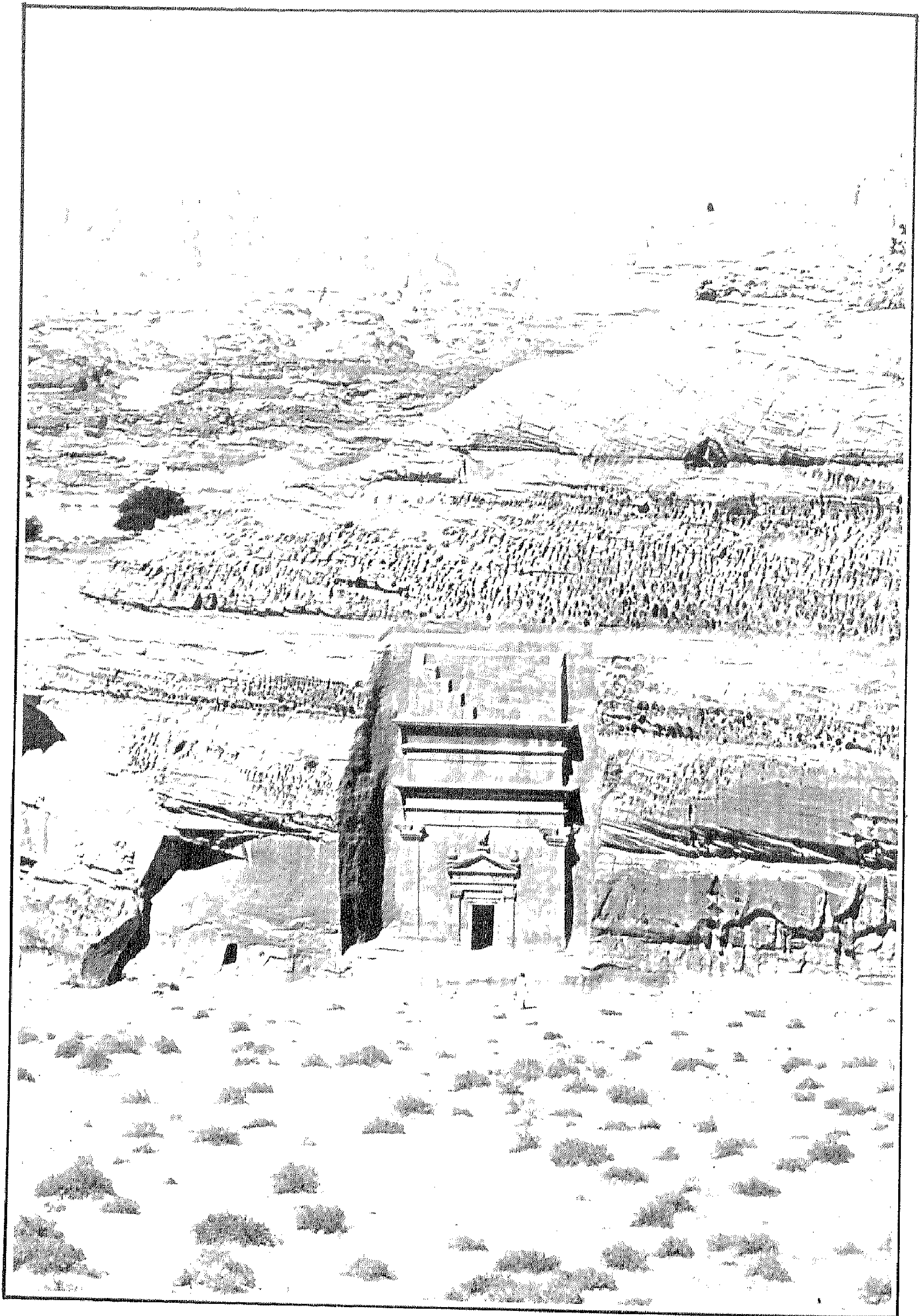
تقسم الجزيرة من حيث الطبيعة الجغرافية إلى اقسام: فيها الجبال الفاصلة والأراضي الخصبة والصحارى الشاسعة، ومناطق الخصب فيها الأودية والواحات، إذ ليس فيها ينابيع دائمة وليس فيها بحيرات ولا أحراج، وجوها على العموم حار غير إنه في المناطق الجبلية بارد ليلاً، ولا سيما في الشتاء ومعتدل بعض الاعتدال في الأماكن المجاورة للأودية.

تهب رياح على الجزيرة منها ما تعدل المناخ ومنها ما تحمل الرمال والحرارة وأشد هذه الرياح السموم.

وليس هناك انتظام في هطول الأمطار، فهي في بعض المناطق تهطل بشدة ثم تنقطع فجأة، أما الجبال فتعلو في الغرب، وفي منطقة الحجاز، وفي الجزء الأوسط من منطقة عسير، ثم في الجنوب اي في اليمن حيث توجد أعلى مرتفعات الجزيرة التي تبلغ ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر ثم تنخفض نحو الشرق والشمال إلى هضبة نجد.

أما في الجنوب فتنخفض حتى تبلغ السهول الصحراوية في الربع الخالي. ثم تعود فترتفع فجأة في الشرق في جبال عمان وتنحدر إلى الساحل محاطة بسهل ساحلي ضيق وبعضه محاط بسلاسل من الجبال.

هذه الجبال تقطعها الأودية التي تجري فيها السيول في بعض فصول السنة، فتظهر الأعشاب والمراعي حولها ويلاحظ أن مناطق الخصب موجودة في الأودية أكثر من غيرها، ومن هذه



□ قبر نبطي في مدائن صالح.

الأودية وادي الرمة.

والصحارى في الجزيرة العربية على نوعين: النفوذ في الشمال، الدهناء في الشرق، ويليها إلى الجنوب الربع الخالي، وتتفاوت تربة الجزيرة في إنتاجها ومحاصيلها، فتوجد بعض النباتات في الأودية وفي الواحات. وفي الصحارى توجد الأعشاب اليابسة، وأشجار الجزيرة قليلة وأهمها الحناء والنخل، وتعد النخلة الشجرة الرئسية فيها. ويزرع قليل من القمح وكثير من الشعير في جهات مختلفة، كما يزرع الأرز في عمان والاحساء، والكرمة في عدة جهات كالمدينة والطائف، ويزرع التفاح والرمان والبرتقال والموز في جهات قليلة إلا أن التمر هو المحصول الأول في مختلف الجهات.

وقد قامت في بلاد العرب في الجزيرة نفسها وفي الهلال الخصيب حضارات عريقة، كحضارة الأشوريين والبابليين والفينيقيين، إلى جانب الحضارة التي شهدتها اليمن كما يدل على ذلك تاريخها وإن كان ما وصلنا عن هذه البلاد قليلاً لضياع كثير من آثارها نتيجة للعوامل الطبيعية والجغرافية ولأن المنقبين لم يستطيعوا بعد التوغل توغلاً كاملاً في تلك البلاد واكتشاف ما خلفه القدماء من آثار.

وتأتي الدراسات والاكتشافات الحديثة لتجلي بعض الغموض عن تاريخ اليمن القديم، فقد كان لليمن مدينة عريقة منذ ١٢٠٠ ق.م. حيث قامت بها ممالك عدة - مملكة سبأ ومملكة حمير - وكان لليمن مركز تجاري مرموق، وكانت حالتها الزراعية مزدهرة وقد وصفت في المراجع القديمة على أنها بلاد غنية مترفة[٩] إلى درجة أطلق اليونانيون والرومانيون عليها لقب بلاد العرب السعيدة، وقد ذكرت ببعض المراجع القديمة باسم «اليمن الخضراء»[١٠].

ونحن نستدل على حضارة عرب الجنوب أي اليمن من النصوص القديمة من كتابات اليونان والرومان وبعض المراجع العربية القديمة التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي منها وهب بن منبه، والهمذاني في القرن العاشر في كتابه «صفة جزيرة العرب» أو كتاب «الأكليل» للهمذاني أيضاً الذي تحدث فيه عن آثار اليمن. وكذلك نشوان بن سعد الحميري في القرن الحادي عشر وهو صاحب كتاب «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم». وقد اهتم الباحثون الأجانب في التنقيب عن تلك الحضارة، وتمكنوا من العثور على بعض المعلومات في الكتابات القديمة التي اكتشفت على الحجر - أو حجر المعدن - وترجع إلى القرن الثامن[١١].

ومن المنقبين الأجانب نيبور المتوفي سنة ١٧٧٢ وهلفي سنة ١٨٧٠ وأدوار كلازر سنة ١٨٩٤ م كما أن المنقبين العرب في هذه المناطق احمد فخري (حي) وخليل يحي نامي (حي) وغيرهم. وفي شمال الجزيرة قامت دويلات عربية منها الأنباط في الشمال الغربي وهم أحد الشعوب العربية حينذاك، وتدل على ذلك الأسماء العربية الواردة في النقوش.

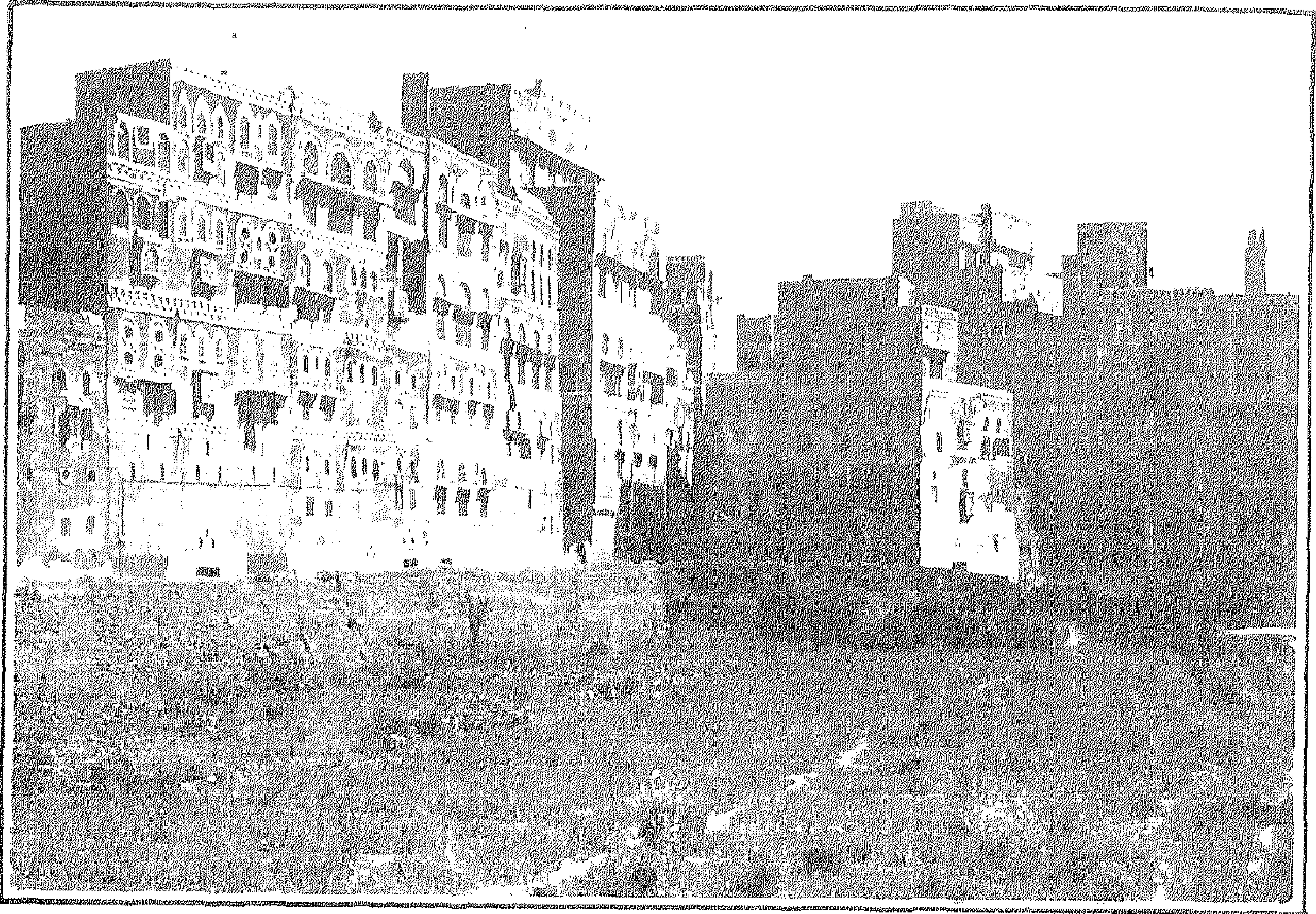
وقد اتخذت هذه الدولة عاصمتها «سلعا» أو «البطراء» وكان لها مدنية زاهرة في القرنين الثاني والثالث ق.م. والأول بعد الميلاد وقد قضى على هذه الدولة الرومان سنة ١٠٦ م.

وقامت الدولة اللحيانية في الشمال أيضاً في مدائن صالح وعاصرت دولة الأنباط واتصلت حدودها بحدودهم وكان لها شأن يذكر، على أن التاريخ لا يذكر كيف انتهت هذه الدولة.

ومن الدول أيضاً، دولة تدمر في صحراء الشام ولها مع الرومان حوادث كثيرة، وقد اشتهر من ملوكها ملكة تدمر «الزباء» التي اسرها الرومان وظلت تحت حكمهم إلى أن فتحها العرب بقيادة خالد بن الوليد.

وكذلك قامت قبل الإسلام بقليل دويلات عربية، منها دولة اللخميين في العراق وكانت تخضع للفرس، ودولة الغساسنة في الشام، وكانت تخضع للبيزنطيين، وكان سبب قيام هاتين الدولتين النزاع المستمر بين دولة الفرس شرقاً ودولة البيزنطيين شمالاً وغرباً، وكلاهما متاخم للجزيرة العربية.

وقد اتخذ ذلك النزاع بين الدولتين الكبيرتين ميداناً له بلاد العراق وسورية وفضلاً على ما كان من نزاع بينهما فقد كانت القبائل العربية تتسرب أحياناً إليهما فتحدث فيهما بعض الاضطرابات، ولهذا تطلعت كل من الدولتين المتاخمتين إلى الاستيلاء على المناطق المجاورة لهما في الجزيرة العربية، ولو بطريق غير مباشر



□ مدينة صنعاء.

فنصبت كل منهما ملكا يحميها من غزو أعدائها ويساعد على تنظيم هذه الدولة، ويمنع تسرب القبائل العربية إلى الداخل. فنشأ اللخميون على حدود فارس والغساسنة على حدود الرومان ولعبت هاتان الدولتان دوراً كبيراً في تاريخ العلاقات بين الفرس والروم والبلاد العربية.

هذه لمحة موجزة عن الجزيرة العربية مهد الشعب العربي[١٢]. ومن هذه الرقعة الجغرافية انطلق العرب خارج حدود جزيرتهم ولعبوا دوراً عظيماً في تاريخ البشرية وظلوا بين كر وفر إلى أن استوطنوا حيزاً كبيراً من الكرة الأرضية يقع بين المحيط الهندي وخط الاستواء جنوباً والخليج العربي وإيران شرقاً، وجبال طوروس وساحل البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً.

إن الدراسات حول الجزيرة العربية من أبناء الأمة العربية أثناء عصور الضعف لم تكن كثيرة بل لم يبدأ الاهتمام بها في العصور الحديثة على نطاق علمي واسع إلا منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب.

وبرغم كل هذا بقيت الدراسات عن الجزيرة العربية قليلة وهذا القليل غير متداول بصورة واسعة، وظل نشاط الاستعمار في أطرافها لا يكاد يهتم به الدارسون حتى ظهرت خيرات تلك البقاع وعمت النهضة أرجاء الشقيقات العربيات فبدأت الأضواء تلقى عليها، وانتباه العالم يتجه إليها على نحو ما يجري في الوقت الحاضر.

إن القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي قد شهد فترة تحول خطير في تاريخ العالم العربي فقد وقعت دول هذا العالم الواحدة بعد الأخرى ضمن إطار الدولة العثمانية، ولم يكن حظ الجزيرة العربية مختلفاً عن سواها من أقاليم العالم العربي تحت نفوذ العثمانيين الذين سيطروا على معظم أرجائها، واحتفظوا بسيطرتهم هذه حتى عقد الصلح مع تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتقاسمت إنكلترا وفرنسا، مناطق النفوذ بموجب معاهدة سايكس بيكو، ثم كانت فترة الوعي القومي العربي والنضال الوطني حيث تحررت البلاد العربية تباعاً في هذا القرن وأخذت تعمل على إعادة البناء والتطوير على جميع الأصعدة. ●

الهوامش

(١) جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص: ٢٨٩. وراجع مقدمة:
George Barton: Semitic and Hamitic origins-Philadelphia 1934.

(٢) راجع في ذلك: George Barton: Semitic and Hamitic Origines, Dames Hastings, Encyclopedia Religion and Ethnics Philadelphia 1934.

(٣) للتفصيل عن صلات العرب بالساميين وعن هجراتهم ورأي العلماء العرب والمستشرقين في هذا الموضوع، راجع جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص: ١٤٨ ــ ١٦٦، ومحمود كامل، العرب تاريخهم بين الوحدة والفرقة، ص: ٢٣ ــ ٣٩، ورينيه ديسو، العرب في سورية قبل الإسلام، ص: ١ ــ ٢٣. ترجمة عبدالحميد الدواخلي، مصر ١٩٥٩.

ومن أحدث القائلين بهذه النظرية، الأب هنري فليش في مقدمته للدراسات السامية:
P. Henri Fleisch: Introduction aux Etudes Semitiques, Paris 1949.

وكذلك المستشرق الإيطالي ساباتينو موسكاتي في «تاريخ وحضارة الأمم السامية».
Sabatino Moscati: Histoire et Civilisation des Peuples Semitiques, payot, Paris, 1955.

(٤) الأنباط أو النبط مملكة عربية، وقد استعمل الأنباط الآرامية في كتاباتهم، للتفصيل راجع جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص: ٥ ــ ٧٠، ورينيه دسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ص: ١٥.

(٥) تاريخ العرب، ج ١، ص: ٤.

(٦) وقد تزعم المذهب الذي ينفي العنصرية العرقية في البحث التاريخي العالم السويسري أوجين بيتار في كتابه «الأجناس في التاريخ».
Eugéne Pittard: Les Races dans L'Histoire Collection de L'Humanité, Paris.

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص: ١٣٧ ــ ١٣٨.

(٨) Pliny, Natural History, BK, V, ch. 21, BK. VI, ch. 32.

(٩) Pliny, BK, XII ch. 41.

(١٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جزء ٥، صفحة ٤٤٧.

(١١) جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص: ٢٩٥.

(١٢) وقد أصبحت الجزيرة العربية في وقتنا الحاضر موزعة بين ممالك وجمهوريات وسلطنات ومشيخات. ومع ذلك فهي جميعاً متجاورة الحدود متلاصقة الأرض يرتبط سكانها منذ أقدم العصور بوشائج وأواصر قوية يستحيل التغلب عليها.



● من رسالة طاهر بن الحسين ــ أحد قواد الخليفة المأمون ــ لابنه عبدالله:

«... ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالمبدأ والظنون السيئة بهم مأثم...».

● «واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع العامل في عمله، معاين لأمره كله. واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، وأملك نفسك عند الغضب وآثر الوفاء والحلم، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله، وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة.. وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم، فيقوى بك أمرهم، وتزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)



افريقية إلى العصر اليوناني

د. نقولا زيادة

من الأمور التي أصبحت موضع عناية الباحثين خلال العقود الأخيرة تاريخ القارة الافريقية. كانت افريقية من قبل تدرس على أن جزءاً منها كان مثلاً تابعاً للامبراطورية الرومانية، أو أن جزءاً آخر كان تابعاً للدولة العربية الإسلامية أو ان منطقة كانت، في وقت من الأوقات بريطانية أو فرنسية أو برتغالية أو اسبانية. اما الآن فهناك دراسات افريقية، جغرافية تاريخية أدبية دينية تحاول أن تكتشف ما يمكن تسميته الشخصية الافريقية.

وقد كان أكثر الباحثين والدارسين من الأجانب، لكن خلال العقود الثلاثة الأخيرة دخل الأفارقة أنفسهم الميدان. وقد صدرت كتب وبحوث ومقالات عديدة وضعها أهل البحث من هؤلاء في الجامعات الافريقية التي قامت في الدول التي استقلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

والمقالات الثلاثة، للدكتور نقولا زيادة، التي سننشرها تباعاً تتناول عرضاً مجملاً لتاريخ الشمال الافريقي من أقدم الأزمنة إلى الفتح العربي. والذي نأمله هو أن نتمكن من الحصول على مقالات تتناول تاريخ المناطق الافريقية الأخرى:

ــ متى ظهرت الصحراء الكبرى في افريقية؟

ــ ما هي العناصر البشرية الأولى التي صنعت التاريخ الافريقي، على الأقل في المنطقة الواقعة شمالي خط الاستواء؟

ــ ما هي السمات التي تعرف إليها الباحثون في حضارة ذلك الجزء من افريقية؟

ــ ماذا كان أثر القرطاجيين واليونان في تطوير الحضارة في الشمال الافريقي؟

هذه هي بعض الأسئلة التي يجيب عنها هذا المقال.

افريقية في العصور المبكرة



تخترق الصحراء الكبرى القارة الافريقية من شواطىء البحر الأحمر إلى سواحل المحيط الأطلسي، وتقع بين خطي عرض ١٠ و ٣٦ شمالاً تقريباً. وهذه الصحراء لم تكن دوماً على هذا النحو من القحولة والجفاف، وإنما بدأت هذه تظهر فيها منذ أواخر الألف الخامس وأوائل الألف الرابع قبل الميلاد. فقد كانت، إلى ذلك الحين، فيها الأنهار التي ترفد النيجر غرباً والنيل شرقاً، وكانت البحيرات فيها كثيرة، كما كانت تجمعات صغيرة للمياه تكاد تغطي أجزاء واسعة منها. ويتضح هذا من القيعان الكثيرة التي تشاهد في أنحائها، ومن مجاري الأنهار التي كانت تجري فيها. وحتى البحيرة الكبيرة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الصحراء الكبرى، وهي بحيرة تشاد، فقد تقلص حجمها وضاقت مساحتها خلال الآلاف الستة الماضية. ومما يدل على أن البلاد كانت غنية في مواردها وأن السكان كانوا يقيمون في أنحائها ويتنقلون في جهاتها هذه الصور المنحوتة على الصخور والتي جمعت مئات منها خلال السنوات الأخيرة، ولعلّ أوضحها تلك التي عثر عليها في تَسيلي.

فلما جفت الأنهار واختفت البحيرات هجرت الشعوب الإقليم منحدرة نحو الشمال والجنوب. والسبب الذي أدى إلى هذا العقم، فابتلع الخصب في الصحاري، أمر لم يهتد إليه العلم بعد. ولا شك في أنه واحد من العوامل الفعالة التي مرت على الكرة الأرضية منذ دُفِعَ خط الاستواء نحو الجنوب.

والمهم بالنسبة لنا هو أن قيام الصحراء على هذا الشكل وضع حجاباً بين الشعوب القاطنة في الشمال والشعوب القاطنة في الجنوب. أما في الشمال فقد ظل الاختلاط والتعارف والاتصال بين شعوب الشمال الافريقي وشعوب حوض البحر المتوسط والمشرق العربي مستمرة، ومن هنا كانت الزراعة وما تبع ذلك من صناعة وحضارة مما عرفه الشمال. أما الجنوب — أي جنوبي الصحراء — فقد تأخر عن ذلك قروناً طويلة، وفي واقع الأمر حتى مطلع العصور الحديثة تقريباً.

والخط الوحيد تقريباً الذي ظل يربط بين المناطق الجنوبية والمناطق الشمالية من القارة الإفريقية هو وادي النيل. ومن هنا كان تأثير الشعوب القاطنة في السودان، وحتى في منطقة البحيرات، في سكان مصر السفلى. ولعلّ هذا الطريق هو الذي انتقل عليه استعمال الحديد من مصر إلى تلك المناطق الجنوبية.

وإذا كان التحدي الذي تعرض له سكان وادي النيل فاضطروا، كي يؤمنوا معاشهم، إلى استغلال الأرض استغلالاً زراعياً منظماً، وإنشاء شبكات للري، وإقامة نظام إداري يضمن الأمرين، وانتهى الأمر بهم إلى إنشاء حضارة ترجع إلى مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، فإن سكان المناطق الجنوبية لم يضطروا إلى ذلك. لقد كان السكان قليلين (وظلوا كذلك إلى قبل نحو الف وخمسمئة من السنين) وكانت الأرض خصبة معطاء. فإذا نقص عليهم الرزق في بقعة رحلوا عنها إلى بقعة أخرى يأتيهم فيها رزقهم رغداً. وهذا التنقل المستمر هو الذي حال دونهم والاستقرار، ومن ثم لم يخلقوا حضارة زراعية مستقرة. بل ظلوا قبائل وشعوباً لها الطابع البدائي نسبياً.

وافريقية، هذه القارة الواسعةِ التي تبلغ مساحتها ثلاثة أمثال مساحة أوروبة، ظلت مجهولة نسبياً أكثر من جارتيها قارتي العالم القديم الأخريين. فنحن إذا استثنينا معرفة عن وادي النيل وحضارته القديمة، وما وصل إلينا من أخبار الشمال الإفريقي وشرق افريقية بين بربرة وسُفالا، فإن بقية السواحل الإفريقية بالذات لم تعرف إلا منذ القرن الرابع عشر الميلادي. (عرف الفينيقيون — القرطاجيون جزءاً من الساحل الأطلسي إلى نهر غمبيا فيما يرجح). وحتى هذه المعرفة اقتصرت على الشواطىء والسواحل، أما قلب القارة النابض فلم يتعرف



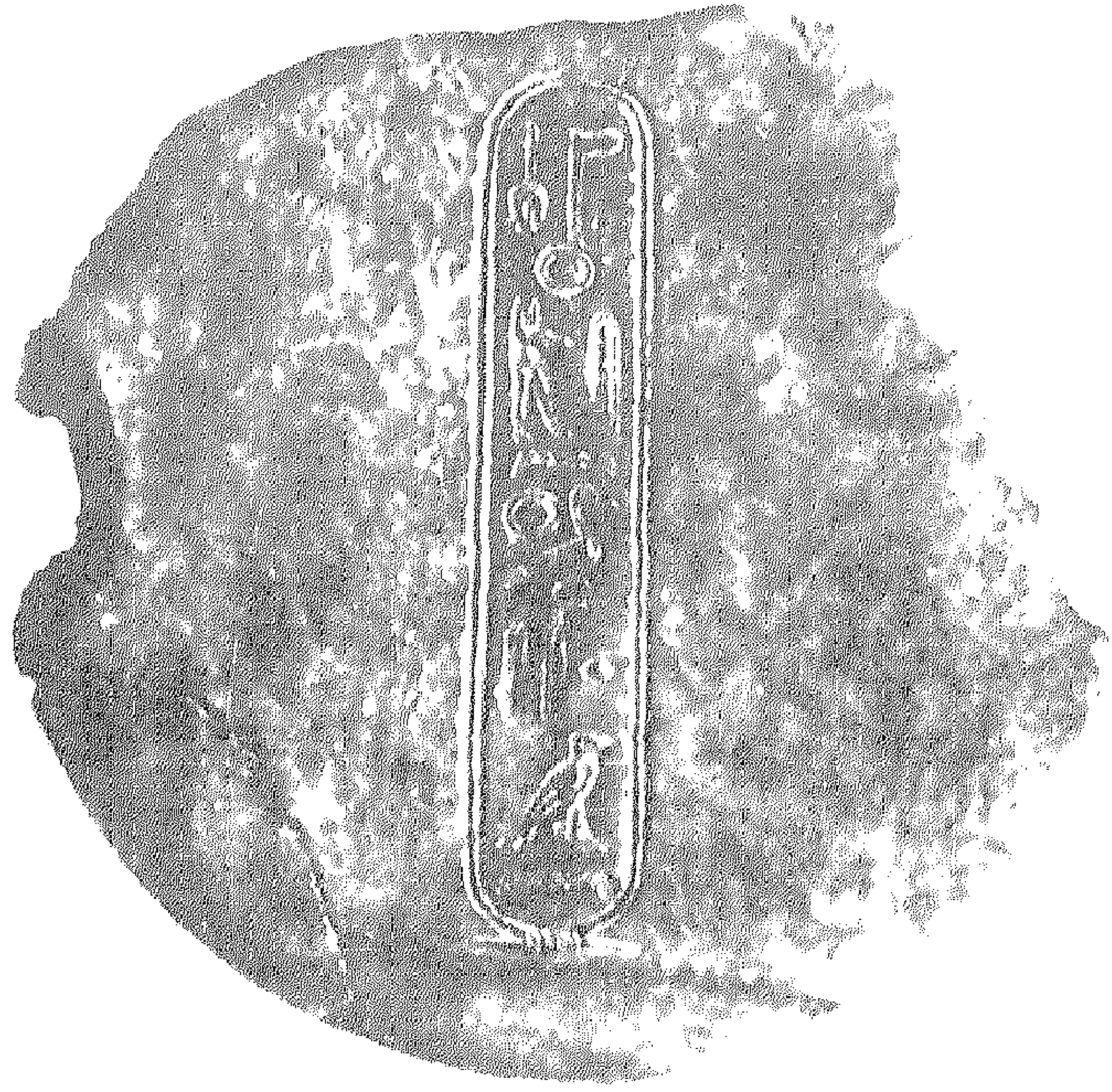
□ آثار فينيقية على احد سواحل افريقيا.

العالم إليه إلا في القرن الماضي. ومن سوء الحظ أن هذه المعرفة كانت مرتبطة بالاستغلال والاستعمار. أما المعرفة العلمية المبنية على تقصي الحقائق ونبش الآثار واستقصاء المصادر، فإنها بنت السنوات الأخيرة فقط. لكن التعرف إلى افريقية عن هذه الطريق يتسارع بشكل يدعو إلى الإعجاب أولاً ويحمل الناس على الاعتقاد بأننا في سبيل إدراك مشاكل افريقية التاريخية والبشرية عبر الآلاف الستة أو السبعة الماضية.

والأمر الذي عليه شبه إجماع هو أن افريقية هي مهد الإنسان ومنبته. «ذلك لأن العلماء عثروا في شرق افريقية على آثار توحي بأن تقدم الإنسان وتطوره في عهده الأول في الأبد الأبيد كان هنا. ويأملون أن يعثروا يوماً قريباً على آيات بينة تؤكد هذا الذي سيتقرئونه». فآثار الإنسان التي عثر عليها في مناطق شرق افريقية تدل على أنه هناك نشأ. أما الإنسان النيندرتالي الأوروبي فليس هو الأصل، على ما يرى الباحثون اليوم، لأنه أخفق في مجابهة الطبيعة ومن ثم فإنه اندثر.

ولكن متى ظهر هذا الإنسان الافريقي ـ الأصل؟ يبدو أنه قبل نحو ستين الف سنة انتقل هذا الإنسان إلى ما يسمى الإنسان المنتصب (homo erectus). وفي أعقاب الفترة البلستوسينية (الجيولوجية)، التي انتهت قبل نحو ١٢,٠٠٠ أو ما يقرب من ذلك (وقد يكون الزمن ١٠,٠٠٠ سنة) ظهر في افريقية الإنسان الحقيقي(العاقل) وهو المسمى هومو سابينس (homo sapiens). وتلا ذلك ظهور الشعوب الافريقية الأصلية الأصيلة التي كانت تنتظمها مجموعتان أو عنصران رئيسان، وعنهما تفرعت الشعوب والقبائل الأخرى. وهما البوشمينيد وأشباه الزنوج. والمجموعة أو الفئة الأولى هي التي تطورت في الصحراء والسودان وجنوب افريقية. أما الفئة الثانية فكان تطورها في افريقية الاستوائية ولما ظهرت الصحراء الكبرى انكفأت الفئتان نحو الجنوب واستمرتا في حياة الرعي والزراعة الأولية وتدجين الحيوان.

وتدل آثار العصر الحجري الحديث



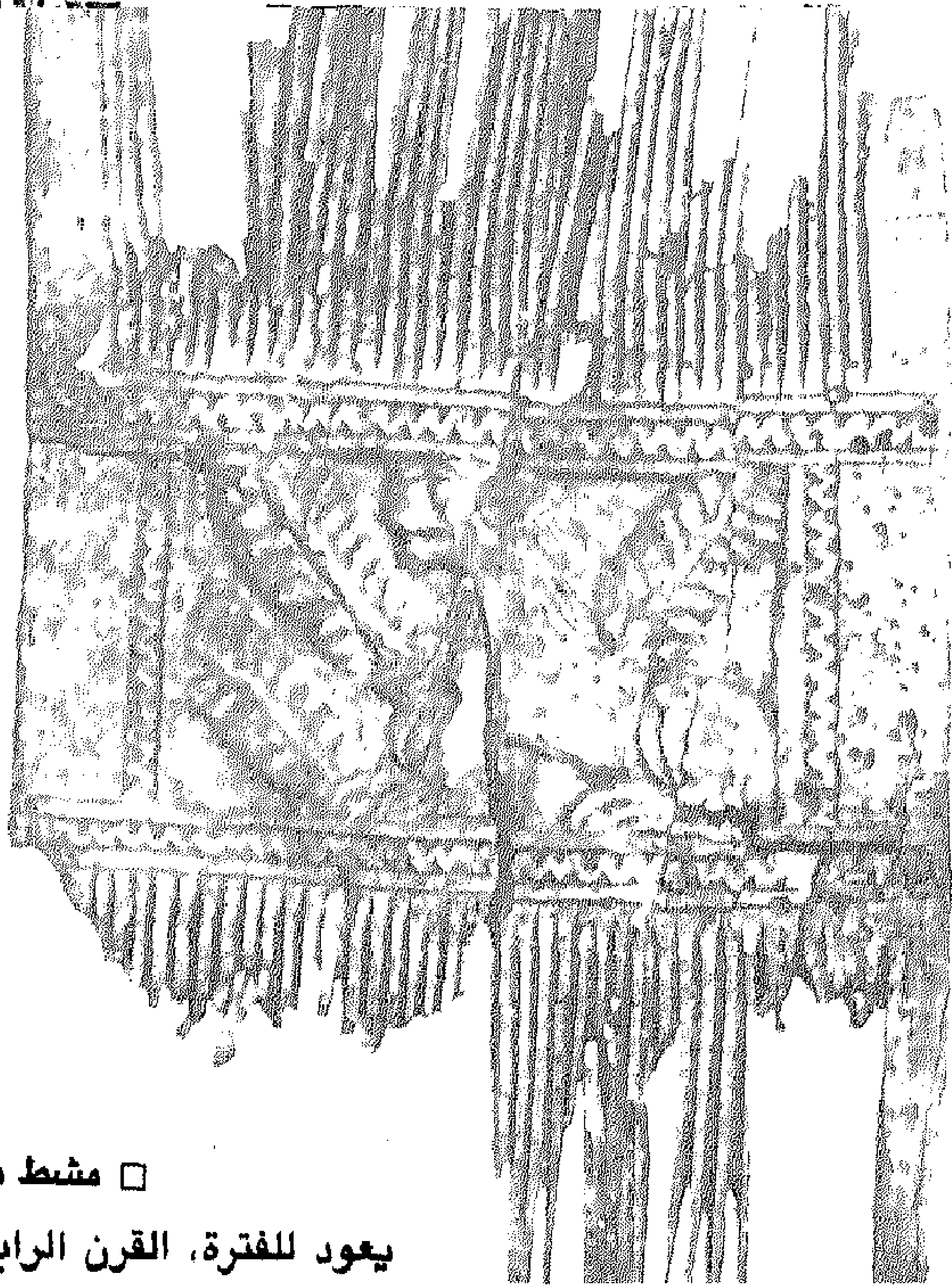
□ قطعة من المرمر تعود لعصر الهكسوس. الذين حكموا مصر من ١٧٣٠ حتى ١٥٦٠ ق.م.

(٣٥٠٠ ــ ٢٥٠٠ق) على أن البوشمينيد وأشباه الزنوج كانوا يتجاورون في الصحراء (أو فيما تبقى منها صالحاً للسكنى) وشرق افريقية وجنوبها. وهم الذين نقشوا على الصخور وصوروا حياتهم عليها، وقد مرّ بنا ذكر تَسِيْلِي على أنها نموذج لهذا العمل.

أما أقوام العصر الحجري الحديث في غرب افريقية فقد أخذوا بقطع الأشجار لاستثمار الأرض هناك في الألف الثالث قبل الميلاد. ويبدو أن سكان بعض المناطق في شرق افريقية اجتثوا الغابات أيضاً، بحيث أن منطقة البحيرات الكبرى خسرت الكثير من غاباتها في الألف الأول قبل الميلاد.

وثمة عنصر آخر من سكان افريقية هم الحاميون. ولكن لا نعرف تماماً من هم. وثمة شعب البانتو وهو جماعة لعلها نتجت عن تمازج بين الزنج والحاميين. وجماعة البانتو يكثرون في الجزء الجنوبي من القارة، كما يغلب الحاميون على شمال شرقي القارة، ويسود الزنوج في غرب القارة. إلا أنه يجب أن لا يفوتنا أن هذا التقسيم لسكان القارة الافريقية الذي يلجأ إليه علماء الأجناس البشرية مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغات المستعملة عند هذه الشعوب. وللعلماء الآن بحوث في لغات الجماعات الافريقية ذات قيمة كبيرة فيما يتعلق بتوزيع الشعوب ونمازجها وتطورها الحضاري.

في بلاد المشرق العربي الحالية تعتبر سنة ١٢٠٠ق.م. بدء العصر الحديدي. لكن في الواقع فإن استعمال الحديد لم ينتشر إلا بعد ذلك بمدة، لأن المعدن بحد ذاته ليس واسع الانتشار والذي عليه الباحثون هو أن الحديد وصل مصر في القرن الثامن قبل الميلاد، وشاع استعماله بعد ذلك بقليل. وإذا اعتبرنا كوش تتمة للحضارة المصرية، وأن الحديد انتشر من هناك إلى مناطق أواسط افريقية، فإن العصر الحديدي حديث العهد نسبياً في تلك المناطق. لكن ذلك لا يعني أنه وصل حوالي ٦٠٠ق.م. ذلك بأن استعمال آلات الحديد وأسلحته وأدواته شيء، والاهتداء إلى إذابة الحديد وتصنيعه شيء آخر. وهذان الأمران



□ مشط من العاج، وجد في مجدو بفلسطين يعود للفترة، القرن الرابع عشر ــ الثاني عشر قبل الميلاد.

لم تعرفهما كوش إلا حوالي ٣٠٠ق.م. وإذا تذكرنا أن الحكام والكهنة في كوش كانوا حريصين على الاحتفاظ بسر هذه المهنة، فمعنى هذا أن الحديد ــ إذابة وصنعاً ــ وصل إلى وسط افريقية وغربها في فترة قصيرة سابقة للميلاد. وقد يكون انتقال صناعة الحديد إلى تلك المناطق الافريقية لا من كوش ولكن من الشمال الافريقي. وحتى إذا أخذ بهذه النظرية فإن الزمن الذي وصل فيه الحديد إلى المناطق الافريقية المذكورة لا يمكن أن يختلف كثيراً عما ذكر قبلاً. لكن هذا كله دليل على بداءة العصر الحديدي في تلك الجهات، لا على الحصول على المعدن بكميات كبيرة بحيث يستطيع الجميع أن يحصلوا على أدواتها بالقدر الذي يريدون.

يبدو أن ما يسميه العلماء جنس البحر المتوسط تكون في حوض ذلك البحر حول سنة ١٥,٠٠٠ ق.م. أو بعد ذلك بمدة قصيرة. والعصور الحجرية في شمال افريقية تظهر فيها آثار حضارتين تعرف الواحدة الأورانية (حول ١٥,٠٠٠ق.م.) وكانت تتمركز في السواحل والتلال المصاقبة لها. وقد عثر على آثارها في مَشْتى العربي في شمال غرب الجزائر. ولعلّ أصل الذين صنعوا هذه الحضارة من الغرب. إلا أن بعض آثارها عثر عليها في برقة (ليبيا) ولعلّ أثرها وصل إلى مصر العليا حوالي سنة ١٠,٠٠٠ق.م. أما الحضارة الثانية فهي الكابسية (أو القفصية) التي ظهرت بين ٩,٠٠٠ و ٥,٠٠٠ق.م. وتمركزت في الأقسام الشرقية من جبال الأطلس الجزائرية ومنحدراتها نحو تونس. ويبدو أنها انتشرت شمالاً فأثرت في الحضارة الأورانية.

وقد وفد على المغرب، في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، جماعة تعرف باسم ليبو، جاءت من الشرق. وقد امتزجت هذه الجماعة بصانعي الحضارتين الأورانية والكابسية، ونتج عن ذلك البربر الذين كانوا يعمرون الشمال الافريقي في الزمن الذي أخذت بقاعه تسهم في التاريخ العالمي.

القرطاجيون واليونان في شمال افريقية

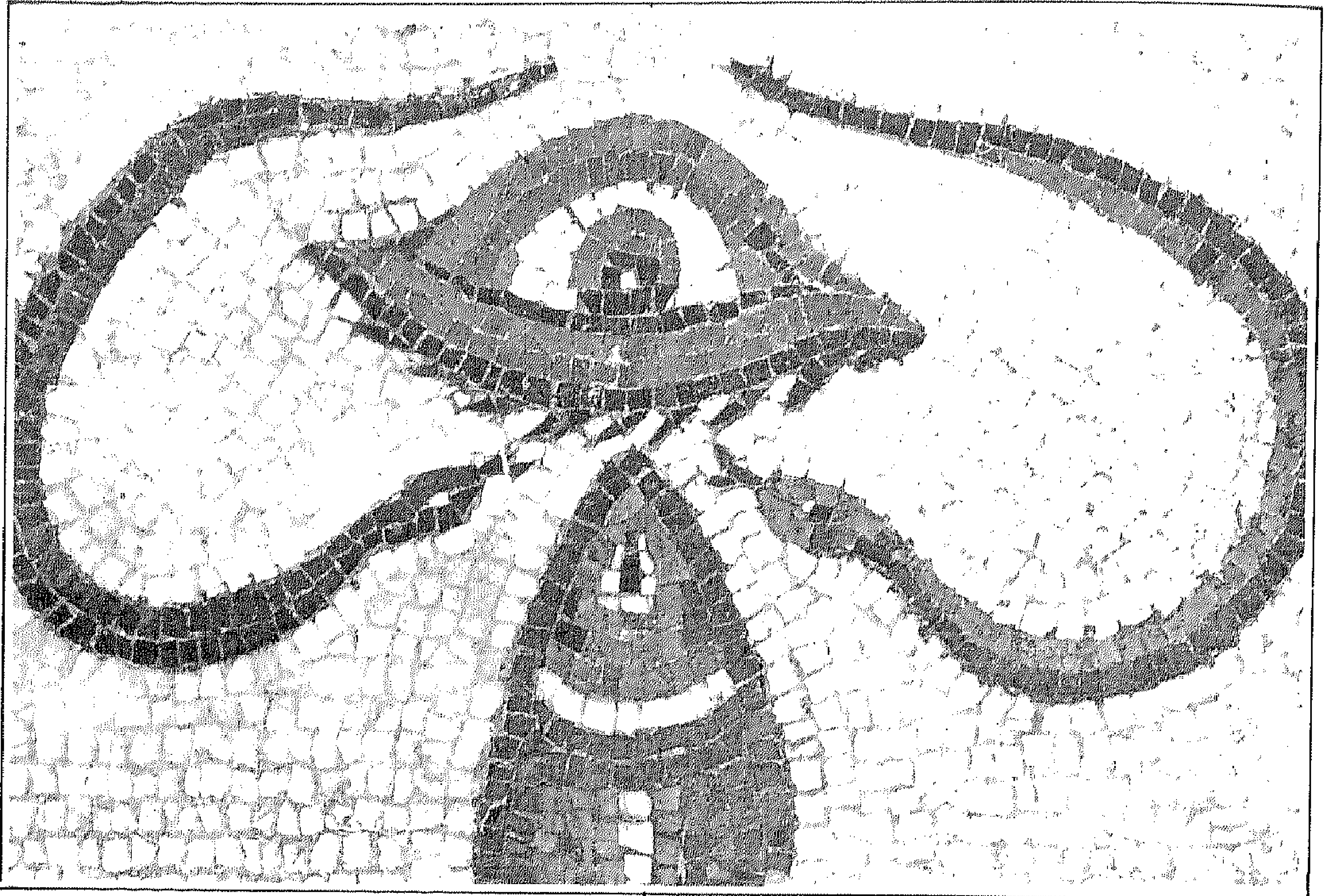
عرف العالم القديم انسياحاً للشعوب شمل مناطق واسعة منه بين سنتي ١٢٥٠ و ٩٠٠ق.م. ترتب عليه انتقال جماعات كثيرة من مواطنها الأصلية في اتجاه غربي. وكانت الجماعة الواحدة تزحم الأخرى. ويبدو أن بعض سكان العالم الإيجي تأثروا بذلك، فكان منهم شعوب البحر، التي استولت على ساحل بلاد الشام، وحاولت فئات منها الوصول إلى مصر فردت على أعقابها، واستقرت في الساحل الفلسطيني (هم الفلسطيّون الذين أعطوا اسمهم للبلاد). ولعلّ جماعات صغيرة منهم وصلت إلى الساحل الجزائري كما استقرت جماعة أخرى في الساحل التونسي الشمالي. إلا أن هذه الجماعات التي حملت معها عناصر من المدنية المتوية لم يكن لها أثر كبير على سكان البلاد. فالبربر، سكان الشمال الافريقي، بدأوا يسهمون في تاريخ تلك البلاد وما جاورها لما أنشأ الفينيقيون مستوطناتهم في الشمال الافريقي من جهة، ولما نزل اليونان برقة من جهة أخرى.

أصاب بلاد اليونان تفجر سكاني في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت نتيجته خروج أعداد كبيرة من سكان تلك البلاد قامت بإنشاء مستعمرات يونانية في حوض البحر الأسود والبحر المتوسط. وقد بلغ هذا التوسع ذروته بين سنتي ٧٥٠ و ٥٥٠ق.م.

والذي يهمنا من هذا التوسع ما يخص شمال افريقية. وثمة مدينتان: الأولى نوكراتيس (في الجهة الغربية من دلتا النيل) التي أنشأتها مليتوس سنة ٦٤٠ق.م. والثانية قوريني التي أنشأتها جماعة من جزيرة تيرا سنة ٦٣٠ق.م. ثم انضم إلى سكانها مهاجرون من جزيرة كريت ومن المورة. وقد انصرف أهلها، بعد أن انتقلوا من الشاطىء إلى أطراف سهل برقة (الجبل الأخضر) الخصيب، إلى الزراعة فأنتجوا القمح والشعير والكرم، واهتموا بتربية المواشي والخيول، كما عنوا بالسلفيوم وهو نبات كان يستعمل عقاراً ويستخرج منه العطر. وقد أنشأ سكان قوريني مدينة برقة حول أواسط القرن السادس قبل الميلاد، كما أن مدينة يوسبيربدس (بني غازي) أنشئت بعد ذلك بقليل وكانت تعتمد على المدن الأولى سياسياً.

لم يتعد انتشار اليونان في شمال افريقية برقة. أما الجزء الغربي من ليبيا فقد كان منطقة نفوذ فينيقية. ويبدو أنه في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد تم الاتفاق بين اليونان وجيرانهم في منطقة طرابلس على تعيين الحد الفاصل بين المنطقتين، وكان ذلك عند تلال فيلايني الواقعة على نحو ٢٠٠ كيلومتر إلى الغرب من بني غازي. أما انتشار اليونان في حوض البحر المتوسط الغربي فقد تمركز في ثلاث مناطق هي: جنوب إيطالية وجزيرة صقلية ومنطقة مساليا (مرسيليا). فلما اصطدمت مصالح هذه المدن اليونانية بالمصالح القرطاجية (تحت) ودخل الفريقان في حروب طويلة، جُرَّت المدن اليونانية في برقة إلى هذا النزاع.

كان الفينيقيون تجار حوض البحر المتوسط الشرقي حوالي سنة ١٢٠٠ق.م. إلا أنهم في الفترة التي تلت ذلك، وحتى قيام الامبراطورية الأشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، أصبحوا تجار حوض البحر المتوسط بكامله؛ وكانت المدن الفينيقية — أرواد وسميرا وبيروت وجبيل (ببلوس) وصور وصيدا وبخاصة المدينتين الأخيرتين — تتمتع بثروة ضخمة ونفوذ تجاري كبير. وأدى قبضهم على التجارة في غرب البحر المتوسط إلى اهتمامهم بإقامة مراكز تجارية بحرية بين المدن الأصلية وبين أسواقهم في شبه جزيرة إيبريا، إذ كانوا يحصلون من ترشيش (ترتسّوس) على الفضة والنحاس والرصاص والقصدير. ومن أجل ذلك أنشأوا، في القرن الحادي عشر أول مستوطنة لهم في قادس. أما الوصول إلى الأسواق الإسبانية فقد اقتضى من الفينيقيين أن يحاذوا الشواطىء الافريقية لضمان التزود بحاجاتهم والراحة للبحارين واللجوء إلى المرافىء الأمينة في حالة قيام الزوابع



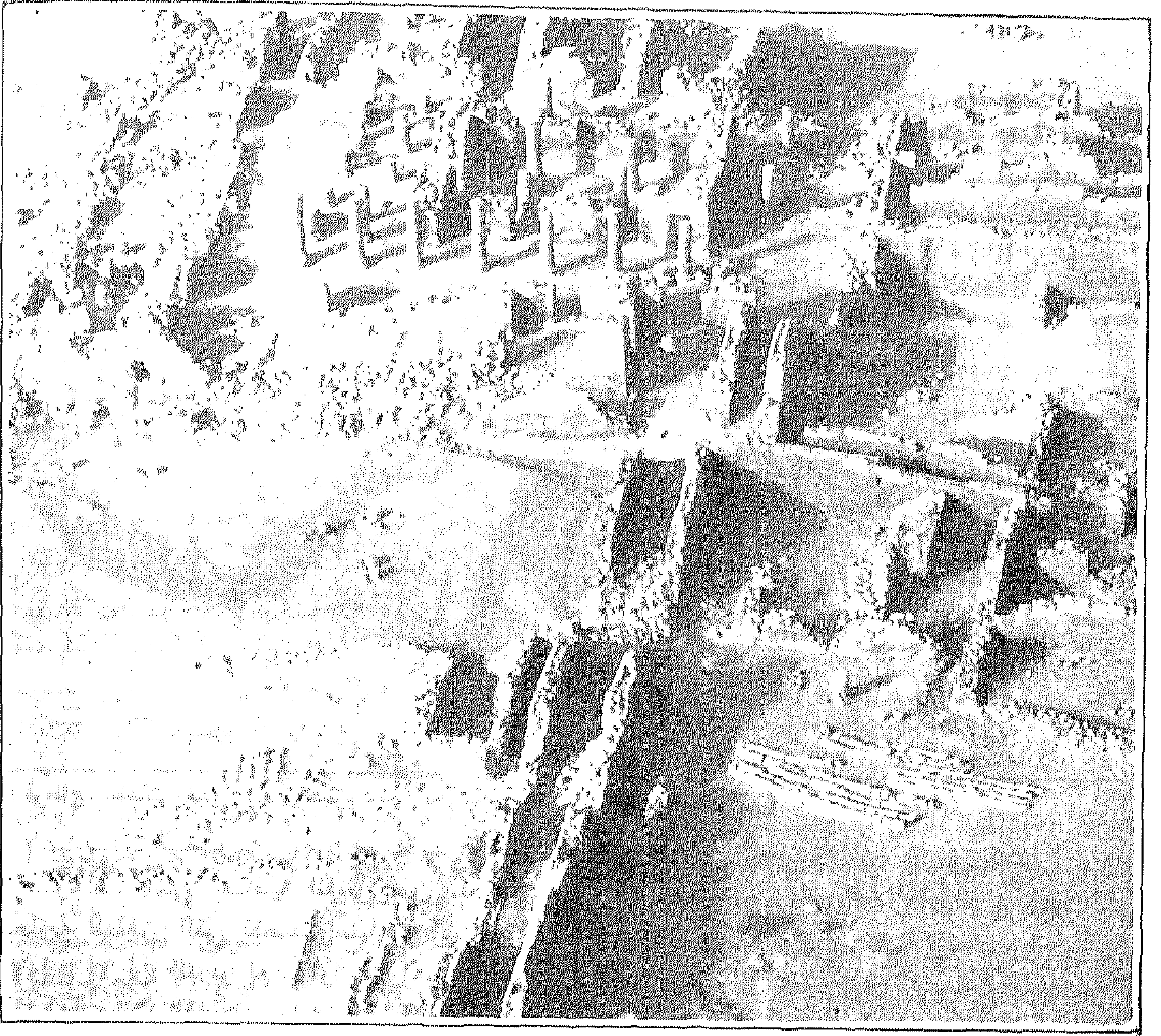
□ قرطاج، عتبات المنازل تحمل صور رموز تعويذية. (متحف سوسة ــ تونس)

والأعاصير البحرية. ومن ثم فقد كانت المستوطنات التي أقامها الفينيقيون محطات تجارية للسفن التي تقصد إسبانية بالدرجة الأولى. إلا أن البربر لم يلبثوا أن اعتادوا على مقايضة هؤلاء القادمين بما عندهم. فكان التاجر الفينيقي يقدم للسكان مصنوعاته الزجاجية والعاجية وأدوات الزينة والحلي والأقمشة، لقاء المواد الغذائية والجلود والعاج (الخام). وهكذا قامت على الشاطىء الافريقي تدريجاً المراكز الفينيقية التالية من الشرق إلى الغرب: ليبتس وأويا (طرابلس) وصبراتة وهَدْرومتُم (سوسة) وأتيكا وهبو (بونا أو عنابة) وشرشال وروسَدّير (مليلة)، وهذه كلها على شواطىء البحر المتوسط، كما قامت لكسوس على مقربة من العرائش الحالية، على الساحل الأطلسي. ومما لا ريب فيه أن هذه كانت نقطة الانطلاق لهم نحو القيام برحلات على الشاطىء الأطلسي جنوباً.

ومع أن هذه الأماكن تطورت فأصبحت مدناً تجارية كبيرة بسبب أنها تقع عند نهاية طريق للقوافل الآتية من الجنوب، فإن المستوطنة الفينيقية التي أصبحت مدينة كبيرة، وثم دولة وامبراطورية فهي قرطاجة (قرت حدشت).

أنشئت قرطاجة سنة ٨١٤ق.م. والقصة التي تدور حول إنشاء هذه المدينة تتلخص بأن اليسار كانت ملكة على صور وكان زو عمها. لكن أخاها ــ والقصة تسميه بِغْماليون ــ قتل زوجها واغتصب العرش، فهربت اليسار مع مؤيديها وانتهى بها المسار إلى حيث أنشأت، مع جماعتها، قرطاجة ــ القرية الحديثة.

هذه القصة الرومنطيقية لها أساس تاريخي. فالدكتور ديمتري برامكي يرى أن القضية ليست قتلاً واغتصاباً لعرش، بل إنها قضية سياسية تتعلق باحتلال أشور للمدن الفينيقية في القرن التاسع؛ ويبدو أن اليسار والحزب المؤيد لها كان يناهض الأشوريين، فرؤي أن الأفضل التخلص من هذه المعارضة، فكان أن قُتِلَ زوج اليسار (زكار ــ بعل) على يد بغماليون، الممالىء للأشوريين، والذي تولى العرش. وكان على اليسار وجماعتها أن يرحلوا عن صور ليتخذوا لأنفسهم موطناً جديداً. وهكذا كانت ولادة قرطاجة. ويبدو أن جماعة من أهل صيدا أيضاً انضموا إلى الصوريين. ولما جاء نبوخذ نصر الكلداني إلى بلاد



□ خرائب مسورات السوفا في السودان، اكبر شاهد على تمازج الثقافات القديمة.

الشام، في القرن السادس ق.م.، واستولى على المدن الفينيقية قاومته صور سنوات طويلة، فلما استولى عليها نكّل بأهلها، فهرب جماعة منهم إلى قرطاجة، التي كانت قد ازدهرت وكانت بحاجة إلى هؤلاء المغتربين. فالمستوطنات الفينيقية الأخرى لم تصل حتى ولا إلى جزء مما وصلت إليه تلك.

وقد أنشأت قرطاجة لها مراكز تجارية في جزر. صقلية وكورسيكا وسردينيا، ولعلّ دخول القرطاجيين إلى صقلية يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. وكانت مراكزهم في الجزء الغربي من الجزيرة، لأن اليونان كانوا قد سبقوهم إلى المناطق الشرقية منها.

وقد كانت العلاقات بين القرطاجيين واليونان في صقلية وإيطالية سلمية، لكن لما زاد عدد اليونان وقويت مستعمراتهم، رأت قرطاجة خطراً على تجارتها من هؤلاء اليونان. عندها قامت العداوة فقرطاجة تدمر مستعمرة (سنة ٥٨٠ق.م.) حاول اليونان إقامتها في غرب جزيرة صقلية. وفي سنة ٥٦٠ق.م. حاول القرطاجيون انتزاع الجزيرة بأجمعها من اليونان، لكنها فشلت. ولكن القرطاجيين دمروا مستعمرة ألالّيا اليونانية (سنة ٥٣٥ق.م.) وعندها اتخذ القرطاجيون من جزيرتي غوزو ومالطة مركزين للتجارة، كما أنهم زادوا مستوطنة في جنوب إسبانية.

كانت قرطاجة، بحكم موقعها الجغرافي

المتوسط على مقربة من تونس الحاضرة، وبسبب نشاطها وثرائها أصبحت زعيمة للمستوطنات والمراكز التجارية الفينيقية في حوض البحر المتوسط الغربي. إذ أن سكان هذه الأماكن كانوا ينظرون إلى قرطاجة على أنها الحامية ضد الاعتداء الخارجي، الذي كان يونانياً يومها. ولكن ما يمكن أن يسمى معاهدات دفاعية أصلاً تطور فأصبح امبراطورية بزعامة قرطاجة فهذه المدينة كانت ثرية وقوية، وهي التي تستطيع أن تقف ــ وقد وقفت ــ في وجه التوسع اليوناني وما رافقه من اعتداء. وقد احتفظت المستوطنات بالكثير من مؤسساتها مثل مجالسها الحاكمة وموظفيها المنتخبين، وهي مؤسسات كانت قرطاجة نفسها تحتفظ بها، وكانت جميع المستوطنات الفينيقية قد نقلت هذه التنظيمات معها من المدن الفينيقية الأصلية. وكل ما كانت قرطاجة تطلبه من المستوطنات في مقابل حمايتها هو الإشراف على تجارتها الخارجية وتقديم الجنود والمال والمواد الغذائية في حالة اشتباك قرطاجة في حرب مع أعدائها وكانت الامبراطورية القرطاجية في القرن السادس قبل الميلاد تضم المدن الفينيقية على الساحل الافريقي من لِكُسوس إلى لِبتِس وتلك الواقعة على الساحل الاسباني من قادس إلى حيث بنيت فيما بعد قرطاجنة (الثانية)، والتي كانت تقوم في غرب صقلية وفي سرود وجزيرتي مالطة وغوزو والجزر القريبة من الساحل التونسي.

كانت قرطاجة تصنع أشياء قليلة وصغيرة، ولم تكن على درجة من الاتقان يتيح لها أن تبيع مصنوعاتها في الأسواق الشمالية، بل كانت تقتصر في ذلك على الأسواق الداخلية. وكانت لها تجارة مع الساحل الأطلسي. فقد وصل هانو (حنّو) خليج غينية وأنشأ مستوطنات تجارية على الساحل.

كانت قرطاجة دولة ارستقراطية في النظم والمؤسسات ولذلك لم يكن لسكانها دور في إدارتها. وكانت تعتمد على المرتزقة في جيشها. إلا أنها، بحكم نشأتها وأصلها البحريين، فقد كان لها أسطول قوي، هو الذي يسر لها، بادىء الأمر، الانتصار على خصومها من اليونان، وحتى على الرومان أولاً.

كان الساحل التونسي يستثمر في زراعة الزيتون والحبوب والأشجار المثمرة، ومع ذلك فقد ظلت الزراعة ذات مركز ثانوي بالنسبة لقرطاجة. إن المصدر الأصلي للثروة وواردات الدولة كانت التجارة. وكانوا، على العموم، تجار وساطة، وكانت المقايضة سبيل الاتجار. ولعلّ ذلك هو السبب في ان قرطاجة نفسها لم تسك النقود إلا في القرن الرابع قبل الميلاد. والمتاجر التي عرفَتها قرطاجة هي الحجار الثمينة وبخاصة الذهب والفضة، والقصدير. أما المصنوعات فكانت تُسْتَوْرَدُ من مصر واليونان وكامبانيا الإيطالية، وتصدر إلى إسبانية وسردينية والقبائل البربرية إلى الجنوب.

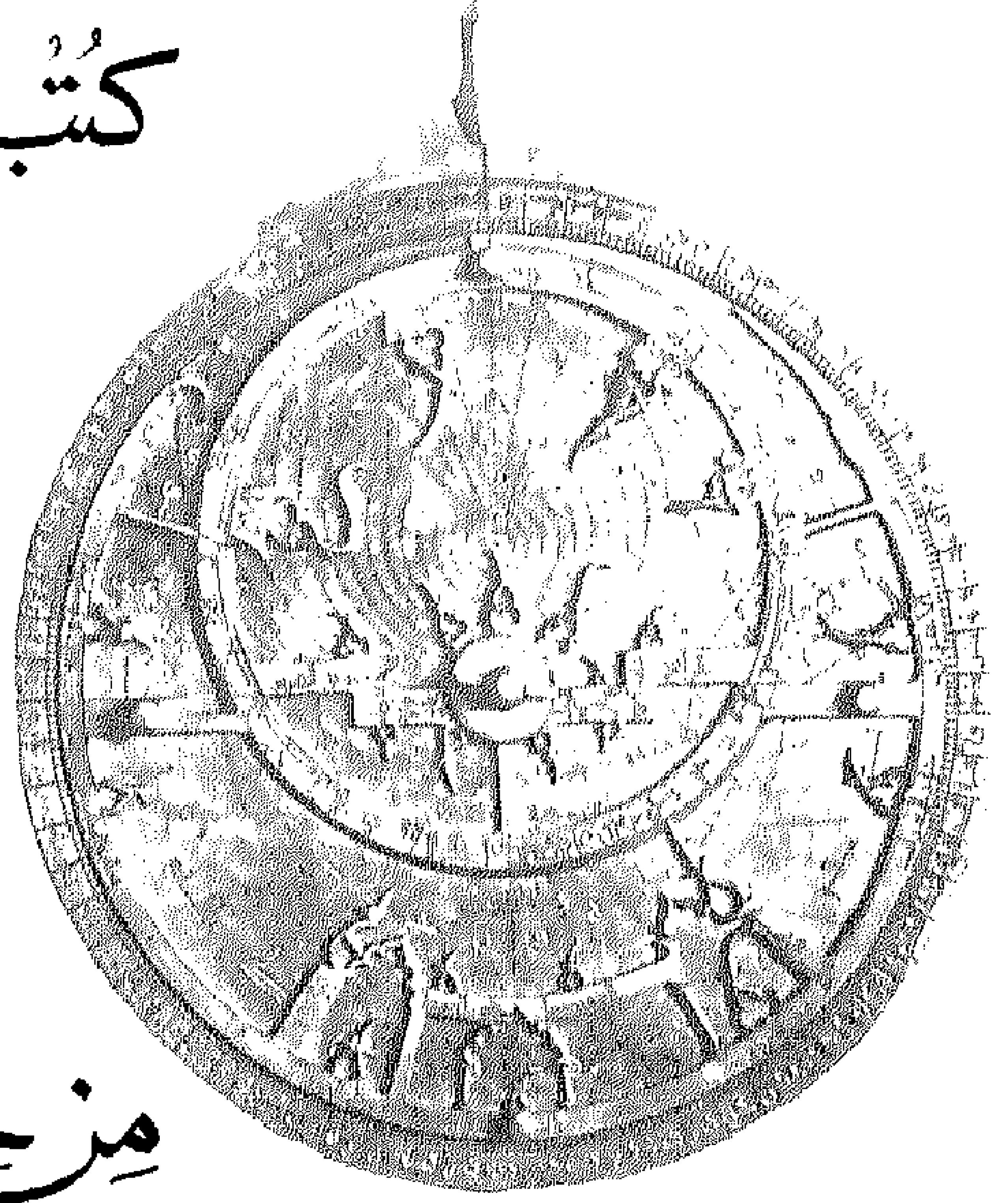
ومع أن القرطاجيين كانت لهم علاقات وثيقة ــ رغم الحروب التي كانت تستعر بين الفريقين بين الفينة والفينة ــ فإن تأثرهم بالمدينة الهلينية جاء متأخراً وكان ضئيلاً. فهو لم يبدأ إلا في القرن الرابع، وشمل أموراً مادية مثل الصناعات والبناء، لكنهم لم يتأثروا بالفكر اليوناني فلسفة وعلماً وما إلى ذلك وقد جاء التأثير عن طريق مصر لما اشتدت العلاقات بين قرطاجنة والبطالمة المصريين.

وقد أعجبَت قرطاجة عدداً من اليونان الذين استقروا فيها في القرن الرابع ق.م. وما بعده، كما وفدت إليها أعداد كبيرة من أصحاب المهن المختلفة إذ وجدوا فيها رزقهم. وأدى هذا إلى قيام طبقة من العمال والصناع والزراع الذين أصبح من الصعب على الحكومة الارستقراطية السيطرة عليهم. ولما كان كثير من المرتزقة في جيشها من هؤلاء، فقد أصبح الجيش، مع الزمن، يصعب ضبطه.

قرطاجة هذه بثروتها وقوتها وأسطولها وجبروتها وانتصارها على كثير من المستعمرات اليونانية. لكن منذ العقد السابع من القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت تواجهها قوة جديدة هي روما، التي كانت أيضاً تتطلع يومها نحو غرب البحر المتوسط. وقد اشتبكت الدولتان في ثلاث حروب انتهت بتدمير قرطاجة سنة ١٤٦ق.م. وعندها بدأ دخول الشمال الافريقي تدريجاً في إطار الامبراطورية الرومانية. ●

كتب السنن والحديث كمصدر للتاريخ:

صفحة من العلائق العربيّة - البيزنطيّة في السلم والحرب من خلال "سنن سعيد بن منصور"



أ. د. عمر عبد السّلام تدمري

منذ سنواتٍ عدّة، وعلى صفحات هذه المجلّة الغرّاء، كنت أشدّد في مقدّمة بعض الدراسات والأبحاث على ضرورة العودة إلى مختلف المصادر المتنوّعة في تُراث أمّتنا، وأن لا يقتصر اعتمادنا ــ حين نبحث في تاريخ صدر الإسلام وما عُرف بعده بالعصر الوسيط ــ على كُتُب التاريخ البحْتة، بل يجدر على البحّاثة والمؤرّخين لتلك الفترة أن يعتمدوا كلّ مصدرٍ غير «تاريخيّ» يساعد على إنماء معلوماتهم وإثرائها بالوقائع التي توفّر لهم مادّةً وفيرة من الأخبار والروايات. ومن هنا تأتي أهمّيّة العودة إلى كُتب التراجِم والطبقات والأنساب، وكُتب الأدب ودواوين الشعراء، وكتب السُنَن والحديث والفقه، وكتب الرحلات والجغرافية والبلدان، وكتب المعاجم والمصطلحات، وغيرها، في رفْد كتب التاريخ بالمعلومات الثَّرّة.

وفي هذه الدراسة سوف نتعرّف على صفحة من العلائق العربية ــ البيزنطية، سلْماً وحرباً، في القرن الأول الهجري، من خلال كتابٍ في السُنَن والحديث النبويّ الشريف، هو كتاب «سُنَن سعيد بن منصور».

ولمّا كانت حقْبة الصراع (العربي ــ البيزنطي) تُعتبر من أكثر الحقب التاريخية غموضاً في كثير من جوانبها، فإنّ كتاب «ابن منصور» في الأحاديث والسُنَن يحتلّ مكان الصدارةً بين أهمّ المصادر التاريخية المعروفة التي ترصد ذلك العصر بكلّ صدقٍ وأمانة في الرواية الموثّقة بالسند على الطريقة «الحديثية»، والتي كانت الركيزة الأسّ التي نهض عليها فنّ التأريخ عند العرب والمسلمين.

وسألخّص أهمّيّة هذا الكتاب في أمرين رئيسيّين:

أوّلهما: إنه من أقدم المصادر العربية المدوَّنة في تاريخ علم الحديث.

ثانيهما: إنه مصدر مهمّ لتاريخ الحياة اليومية والاجتماعية في عصر الصحابة، وفيه معلومات تاريخية نادرة لم أقف عليها في جميع كتب التاريخ المعروفة التي اطّلعت عليها حتى الآن.

أما المؤلّف فهو الإمام الحافظ سعيد بن منصور بن شُعْبة الخُراساني المكّي المتوفّى سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م. من معاصري المؤرّخ «محمدين سعد» صاحب «الطبقات الكبرى»، و «الإمام البخاري» صاحب «التاريخ الكبير» و «الصغير» و «الصحيح». وهو شيخ للإمام مسلم. وُلد بجَوْزَجان ونشأ ببَلْخ، وطوّف البلاد، وسكن مكة حتى تُوفّي بها. وكان أخذ على أئمّة الحديث، مثل الإمام مالك، والّليث بن سعد، وأبي عوانة، وأبي معشر، وابن إياد، وغيرهم. وروى عنه الأئمّة، مثل الإمام أحمد، والإمام مسلم، والإمام أبي داود، وغيرهم. ووُصف بأنه كان: ثقة من المتقنين الأثبات، ممّن جمع وصنّف. أملى نحواً من عشرة آلاف حديث من حِفْظه. وعُرف بـ: صاحب السُنَن المشهورة، التي لا يشاركه فيها إلّا القليل.

أمّا كتابه «السُنَن» فهو كتاب ضخم، لم يُعثر منه حتى الآن سوى على المجلّد الثالث فقط، وهو يتضمّن أبواب: الفرائض، الوصايا، النكاح، الطلاق، الجهاد. وهذا الباب الأخير هو الأهمّ الذي يعنينا في هذه الدراسة.

وقد اكتشف البحّاثة الدكتور محمد حميد الله نسخة فريدة من المجلّد المخطوط في مكتبة «كوبريلي» باستانبول سنة ١٣٨٠هـ. وقام بالتعريف بها وبصاحبها، ثم قام المحقق المحدّث «حبيب الرحمن الأعظمي» بتحقيق هذا المجلّد ونشره في قسمين، سنة ١٣٨٧هـ. وصدّره بمقدّمة للدكتور محمد حميد الله. اقتطِفُ منها الفقرات التالية لأهمّيّتها:

«.. إنّ مؤلّفنا يذكر ــ سوى الأحاديث النبوية ــ كثيراً من آثار الصحابة، وإنّ تحقيق ما هو جديد عنده ولم يُذكر في كتبٍ أخرى أمر يحتاج إلى بحثٍ خاصّ. ولكن يمكن لكلّ قارىء، ولو بنظرة عابرة، أن يجد في كتاب النكاح والطلاق مثلاً قضايا الحياة اليومية في عصر سيّدنا عمر، قضايا وقعت حقيقة وليست مفروضة، كما هو الحال في كتب الفقه، وهذه القضايا والحوادث مصدر مهمّ لتاريخ الحياة اليومية والاجتماعية في عصر الصحابة. وفعلاً وجدت معلومات مهمّة لم أكن أعرفها من قبل، من مصادر أخرى، وكذلك في كتاب «الجهاد» نجد صدى العلائق الدولية، خاصّة مع الفرس والروم البيزنطينيّين، وفيها حوادث لا نجدها في كتب التاريخ المتداوَلة.

وثانياً: إن فُضَلاء الإفرنج كانوا فكّروا ــ كما هو معروف ــ أنّ ما ذكره المحدّثون من أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ــ ممّن وصلت إلينا كُتُبهم ــ لا يصحّ انتسابه إلى النبيّ عليه السلام، حتى ولا إلى الصحابة رضي الله عنهم، بل هؤلاء المحدّثون (البخاري ومسلم وغيرهما) إمّا أنهم اخترعوا واختلقوا المتون والأسانيد من عند أنفسهم، وإمّا أنهم نقلوا في تآليفهم ما كان متداوَلاً على ألْسُن الناس في عصرهم، مما هو بالمعارف الشعبية وبالفولكلور أكثر شبهاً منه بالتاريخ. وكان أساس ادّعاء هؤلاء المستشرقين أنه لا يوجد كتب مَن كان قبل البخاري ومسلم، وأنه لا توجد حجّة على أنّ أسماء مَن ذكروا في الأسانيد مطابقة لحقيقة الحال.

من المعلوم، لو أننا طبّقنا العُشر العُشيْر من أصول هذا النقد الإفرنجي على كتب الإفرنج من اليهود والنصارى، وعلى كُتُب المجوس والبراهمة وغيرهم من الكتب الدينية ـ فضْلاً عن عامّة كُتُبهم التاريخية ـ لم يَثْبُتْ على النقْد منها شيء يُعتدّ به، ولكن لا نحتاج إلى مثل هذا الهجوم وإلزام الخصم بغير ما هو بصدده، بل نجيب كما يجاب على سؤآل سائل، فنقول: إنّ مثل هذه الاحتمالات لا ينتهض أمام ما اكتُشِف في السنين الأخيرة من كتب القدماء، من حسن

حظّ العلم والتاريخ، فمثلاً يقول البخاري: «عن أحمد بن حنبل، عن عبد الرزّاق بن همّام، عن مَعْمَر بن راشد، عن همّام بن منبّه، عن أبي هريرة، عن النبيّ عليه الصلاة والسلام...». فما دام لم يوجد لدينا إلّا «صحيح» البخاري، جاز مثل هذه الشكوك والشُبُهات، أمّا الآن «فمُسْنَد» أحمد بن حنبل مطبوع، و «مصنّف» عبد الرزّاق، و «جامع» مَعْمَر بن راشد كلاهما تحت الطبع [أقول: هذا في وقته، وقد طُبعا]، و «صحيفة» همّام بن منبّه مطبوع، ونرى عند المقابلة والمعارضة بينهما أنه لا يوجد أيّ فرق بينهما في الروايات المتعلّقة البتّة، فإذا فات الشرط فات المشروط، فبطُل زعْم من زعم أنّ متون البخاري وأسانيده مختَلَقة...

وكذلك الحال لصحيح الإمام مسلم بن الحَجّاج، فمن أساتذته سعيد بن منصور، ولعلّ يوماً من الأيام نعثر أيضاً على مؤلّفات الوسائط بين سعيد بن منصور، والنبيّ عليه السلام، فالحلقة الأولى من هذه السلسلة، لثاني الصحيحَيْن، صحيح مسلم ـ وهي حلقة ثمينة جدّاً ـ اكتشفت الآن ونتشرّف بتقديمها إلى أهل العلم، فكلّما روى مسلم عن سعيد بن منصور يمكن لنا أن نراجع سُنَن سعيد، ونتحقّق أنّ الإمام مسلم لم يكذب ولم يخترع شيئاً من عند نفسه، بل أدّى إلى مَن بعده ما تلقّى ممّن قبله بكل ديانة وأمانة»[1].

إنّ هذه المقدّمة النقديّة والعلمية الرائعة التي كتبها العلّامة الدكتور محمد حميد الله قبل نحو ثلاثين عاماً، لم أطالعْها إلّا الآن ونحن في الأيام الأولى من العام الهجري ١٤٠٨ (أواخر شهر آب ـ أغسطس ١٩٨٧) وهي تؤكّد قناعتي بضرورة الاعتماد والرجوع إلى كُتُب السُنَن والحديث وغيرها من كتب المعارف العربية كمصدرٍ أساس من مصادر التاريخ.

ومنْ حُسْن الحظّ أن عثر الدكتور البحّاثة على القسم الذي يتضمّن باب «الجهاد» من كتاب «السُنَن»، وفيه عدّة أحاديث وروايات تتناول نصوصها صدىً لبعض العلاقات الدولية بين المسلمين والفرس، من جهة، وبين المسلمين والبيزنطيين (الروم) من جهة ثانية، فضلاً عن علائق المسلمين بالمجوس، والنصارى، واليهود.

وسوف يقتصر بحثنا هنا على جوانب من العلائق العربية ـ البيزنطيّة، وما يتعلّق بها، حيث تتزامن هذه الدراسة مع انعقاد «مؤتمر تاريخ بلاد الشام» الذي تشهده الجامعة الأردنية في أواخر هذا العام، وقد خُصّصت أبحاث المؤتمر لدراسة العصر الأموي وما يقابله من العصر البيزنطي.

وأتناول في هذه الدراسة أحد عشر نصّاً من (باب الجهاد)، بعضها يتردّد في المصادر القديمة، وبعضها لم أجده في أيّ مصدرٍ أو مرجعٍ آخر حتى الآن. منها:

في عهد عمر الفاروق (٥) نصوص (رقم ٢٤٧٧ و ٢٦٠٥ و ٢٧٨٥ و ٢٧٨٧ و ٢٧٨٨).

وفي عهد عثمان (١) نصّ (رقم: ٢٦٦).

وفي عهد معاوية (٢) نصّان (رقم ٢٦٤٧ و ٢٦٤٨).

وفي عهد عبد الملك (١) نصّ واحد (رقم ٢٩٢١).

وفي عهد عمر بن عبد العزيز (٢) نصّان (رقم ٢٧١١ و ٢٨٢٢).

وطريقتي في العرض هي إثبات كلّ نصّ على حِدَة، ثم التعليق عليه.

في عهد الفاروق عمر

(رقم ٢٦٠٥) ـ حدّثنا سعيد قال: نـا[٢] عيسى بن يـونس، قال نـا[٢] الأوزاعيّ قـال: حدّثني ابن سُراقة:

أنّ أبـا عُبيـدة بن الجـرّاح كتب لأهـل دير طيايا:

«هذا كتاب من أبـي عُبيدة لأهل دير طيايا، إنّي قد أمّنتكم على دمائكم، وأموالكم، وكنائسكم أن تُسْكن أو تُخَرَّب ما لم تُحْـدِثوا، أو تـأووا محـدّثاً مُغيلة[٣]، فـإذا أنتم أحدثتم أو آويتم محدِثاً مُغيلة[٣] فقد برئت منكم الذّمّـة، وإنّ عليكم إقراء الضيف ثلاثة أيام، وإنّ ذمّتنا بريّة من مَعَرَّة الجيش.

شهد خالد بن الوليد، ويزيد بن أبـي سُفيان، وشُرَحبيل بن حَسَنَة، وقُضاعِيّ بن عامر».

التعليق على النصّ:

إنّ هـذا النصّ من كتاب أبـي عُبيـدة بن الجرّاح لأهل دير طيايـا، يُعتبر نصّـاً فريـداً لم نجده في جميع المصادر الأخرى. حتى أنّ الدكتور محمد حميد الله مكتشف كتاب «سُنَن سعيد بن منصور» لم يذكر نصّ هذا الكتاب في «مجموعة الوثـائق السياسيـة للعهد النبـويّ والخلافة الراشدة»[٤]. والذي ذكرته المصادر نصّ معاهدة خالد بن الوليد مع أهل دمشق في سنة ١٣هـ. وهو قريب من كتاب أبـي عبيدة لأهل دير طيايا، وفي المعاهدة بالإضافة إلى خالد: أبو عبيدة، وشُرَحْبيل، وقُضاعِيّ بن عامر. وقد رواه الإمـام الأوزاعيّ، عن ابن سُراقـة، أي بالإسناد نفسه الذي في «سُنن ابن منصور»[٥].

أمّا «دير طيايا» فلم يذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان» كما لم تذكره كتب الديارات، ولكنّ البـلاذُريّ يأتي على ذكـره في سياقـه لفتوحات أبـي عُبيـدة بن الجرّاح في نـواحي مدينة حلب، كما يذكر الدير «قُدامة بن جعفر» الذي ينقل عن «البلاذُري».

قال البلاذُريّ:

«وبلغ أبا عُبَيدة أنّ جَمْعاً للروم بين مَعَرَّة مِصْرين وحلب، فلقِيَهم وقتل عدّة بطارقة، وفضّ ذلك الجيش وسبـى وغنِم، وفتح مَعَرَّة مِصْرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بُوقاً، وفُتحت قرى الجومة وسَرْمِين ومَرْتحوان وتِيزين. **وصالحوا أهل دير طيايا** ودير الفسيلة على أن يَضِيفوا من مرّ بهم من المسلمين، وأتاه نصارى خُناصرة فصالحهم»[٦].

«**وأقول**»: بما أنّ «البـلاذريّ» توفي سنـة ٢٧٩هـ. على الأرجح، فهو قد اطّلع على «سُنَن ابن منصور» بشكلٍ أو بآخر، فاعتمد عليه في ذكر «دير طيايا»، وإن كان لم يُشِر إلى ذلك، ولم ينقل نصّ كتاب العهد. والخلاصة التي نصل إليها هي أن كتاب «السُنن» يوثّق كتاب «الفتوح» في هذه المعلومة حول الدير، على الأقلّ.

(رقم ٢٧٨٥) ـ حـدّثنا سعيـد قـال: نـا ابن عيّـاش[٧]، عن أبـي بكر بن عبـد الله بن أبـي مريم:

أنّ نساءً من المسلمين شهدن اليرموك مع أبـي عُبيدة بن الجرّاح، فكان بعضهنّ يقاتلنْ، وبعضهنّ يسقين المـاء، ويرتجـزْن ويقُلْن في ارتجازهنّ:

إنّـكـم إنْ تـقـاتـلـوا نُـعـانـقْ ونـفـرش النـمـارقْ[٨]
وإلاّ تـقـاتـلـوا نُـفـارقْ فِـراق غـيـر وامـقْ[٩]

التعليق على النصّ:

إنّ هذا النّصّ يعطينا ومضة مشـرقة عن النساء العربيّات المسلمات اللواتي خرجن مع المقاتلة للجهاد في بلاد الشام ضدّ الروم في موقعة اليرموك الفاصلة، فكان بعضهـنّ يقاتلن، وبعضهنّ يسقين الماء. ولم تُرْهبهنّ جموع الروم وجحافل الإمبراطورية.

أمّا الرجْز الذي كُنَّ يقُلنه في هذه المعركة، فهو مشهور عن «هند بنت عُتبة» وصواحبتها في غزوة أُحُد سنة ٣هـ. وهو:

نحن بنات طارقْ
نمشي على النمارقْ
إن تُقبلوا نُعانقْ
أو تُدبروا نفارقْ
فراق غيرِ وامِقْ[10]

وحديث «ابن منصور» لم نجده عند غيره، وخصوصاً عند مَن أرّخوا لمعركة اليرموك، وإن كنّا نجد في كتاب «تاريخ فتوح الشام» للأزْدي معلومة تشير إلى اشتراك المرأة العربية في تلك المعركة، وهو يذكر «خَوْلة بنت ثعلبة بن مالك بن الدُخْشُم» التي أقبلت نحو فئة من المسلمين انهزموا أمام الروم، وهي تحمل عموداً تحثّهم على العودة إلى القتال، وكانت ترتجز بقولها:

يا هارباً عن نِسوةٍ تقيّات
رُميتَ بالسَّهم وبالمَنِيَّات
فعن قليلٍ ما ترى سَبِيّات
غيرَ خطيّاتٍ ولا رضيّات[11]

(رقم ٢٧٨٧) ــ حدّثنا سعيد قال: نا إسماعيل بن عيّاش، عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه:

أنّ أسماء بنت يزيد الأنصارية شهدت اليرموك مع الناس، فقتلت سبعة من الروم بعمود فسطاط ظِلّتِها.

* * *

وهذا الحديث يؤكّد ما رواه الحافظ الطبراني، وهو يجعل قتلى الروم «تسعة». وقد رواه عن أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، عن أبيه، عن إسماعيل بن عيّاش، وبقيّة السند كما في «سُنَن ابن منصور»[12].

(رقم ٢٧٨٨) ــ حدّثنا سعيد قال: نا ابن عيّاش، عن ضمضم بن زُرعة، عن شُريْح بن عُبَيد الحضْرميّ، أنّ عبد الله بن قرْط الأزدي حدّثه قال:

غزوت الروم مع خالد بن الوليد، فرأيت نساء خالد بن الوليد ونساء أصحابه مشمّرات يحملن الماء للمهاجرين يرتجزن.

* * *

وهذا الحديث يؤكّد ما جاء في الحديث الأسبق (٢٧٨٥) عن معركة اليرموك.

(رقم ٢٤٧٧) ــ حدّثنا سعيد قال: نا أبو الحتروش شملة بن هزال قال: نا قتادة، أسند الحديث إلى عمر بن الخطّاب أنه كان له بريد يختلف بينه وبين ملك الروم، وأنّ امرأة عمر رضي الله عنه استقرضت ديناراً، فاشترت به عطراً، فجعلت في قوارير، فبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم، فما أتاها به فرّغتهنّ، وملأتهنّ جوهراً، وقالت: إذهب به إلى امرأة أمير المؤمنين عمر، فلما أتاها به فرّغتهنّ على بساطٍ لها، فدخل عمر على تغيئة[13] ذلك، فقال: ما هذا يا هذه؟ قالت: إني استقرضت من فلان ديناراً، فاشتريت به عطراً، فجعلته في قوارير، وبعثت به ــ تعني مع بريدك ــ إلى امرأة ملك الروم، فأرسلتْ به إليّ، فقال عمر عند ذلك: يا فلان! خذ هذا فاذهب به، فبعْه، فاقْضِ به فلاناً ديناراً، واجعل بقيّته في بيت مال المسلمين، ليس آل عمر أحقّ به من المسلمين.

* * *

التعليق على النّصّ:

يدلّ هذا النّصّ على أنّ العلاقات بين المسلمين والروم لم تكن عدائية بشكلٍ دائم، بل كانت المراسلات والهدايا متبادلة في عهد الخليفة عمر، بينه وبين ملك الروم (هِرَقْل)، وبين زوجته (عاتكة بنت زيد العدوية) ــ على الأرجح، وزوجة الإمبراطور (مارتينا).

وما جاء في سُنن ابن منصور يؤكّد صحّة ما ذكره المحبّ الطبري حيث يُثبت الحديث نفسه في كتابه[14].

في عهد عثمان

(رقم ٢٦٦٠) ــ حدّثنا سعيد قال: نا عبد الله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير بن نُفَير، عن أبيه قال:

لما فُتحت مدائن قبرس، وقع الناس يقتسمون السبْي، ويفرّقون بينهم ويبكي بعضهم على بعض، فتنحّى أبو الدرداء ثم احتبى بحمائل سيفه فجعل يبكي، فأتاه جُبير بن نُفير فقال:





□ فلس عربي بيزنطي (القطر ١٩ملم) الوجه والخلف.

ما يُبكيك يا أبا الدرداء؟ أتبكي في يومٍ أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟ وأذلّ فيه الكفر وأهله! فضرب على منكبيه، ثم قال: ثكِلَتْك أمُّك يا جُبير بن نُفير، ما أهْوَن الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينا هي أمّة قاهرة ظاهرة على الناس، لهم المُلْك، حتى تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى، وإنه إذا سُلّط السباء على قومٍ فقد خرجوا من عين الله ليس لله بهم حاجة.

التعليق:

من المعروف أنّ جزيرة قبرس هاجمها المسلمون مرّتين في خلافة عثمان رضي الله عنه، الأولى في سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م. والثانية في سنة ٣٣هـ / ٦٥٤م. وقد نصّت المصادر التاريخية على اشتراك أبي الدرداء في الحملة الأولى، ولم تنصّ عليه في الحملة الثانية، ولكنّ رواية ابن منصور في سُننه ورواية من جاء بعده تجعلنا نؤكّد اشتراك أبي الدرداء في الحملة الثانية أيضاً. وأنّ المسلمين عادوا من الجزيرة بالأسرى والغنائم، حيث أخرجها معاوية إلى أنطرطوس من ساحل حمص وجعلها في كنيسة هناك يُقال لها كنيسة معاوية، ثم قام بتوزيعها على المقاتلة[١٥].

والرواية عند ابن منصور تؤكّد ما رواه: الإمام أحمد بن حنبل، وأبو زُرْعة الدمشقي، وأبو نُعَيم الأصبهاني[١٦].

في عهد معاوية

(رقم ٢٦٤٧) ــ حدّثنا سعيد قال: نا إسماعيل بن عيّاش قال: حدّثني صفوان بن عمرو، وحريز بن عثمان:

أنّ جُنادة بن أبي أميّة الأزدي، وعبد الله بن قيس الفَزّاري وغيرهما من وُلاة البحر من بعدهم كانوا يرمون العدوّ من الروم وغيرهم بالنار ويحرقونهم، هؤلاء لهؤلاء وهؤلاء لهؤلاء.

(رقم ٢٦٤٨) ــ حدّثنا سعيد قال: نا إسماعيل بن عيّاش، عن صفوان بن عمرو، عن المشيخة،

عن عبد الله بن قيس الفزاري أنه كان يغزو على الناس في البحر على عهد معاوية، وكان يرمي العدوّ بالنّار ويرمونه ويحرّقهم ويحرّقونه. وقال: لم يزل أمر المسلمين على ذلك.

التعليق:

يؤكّد النّصّان السابقان على استخدام المسلمين للنار في حروبهم البحرية مع الروم البيزنطيّين، وأنّ النار الإغريقية التي استخدمها الأسطول البيزنطي كانت تجد نيراناً مماثلة لها من مراكب المسلمين، منذ أن أنشأ المسلمون أسطولهم البحريّ في أول خلافة عثمان، علماً بأنّ عبد الله بن قيس الفَزاريّ كان يتولّى إمرة السواحل منذ عهد الخليفة عمر في سنة ١٧هـ. وبقي أكثر من (٤٠) عاماً والياً على السواحل حتى أواخر عهد معاوية. كما كان «جُنادة» على غزو البحر أيام معاوية كلّها، وقبل ذلك كان على عهد عثمان وبقي إلى أيام يزيد بن معاوية. وهو الذي فتح جزيرة رودس سنة ٥٣ أو ٥٤هـ / ٦٧٤م[١٧].

في عهد عبد الملك

(رقم ٢٩٢١) ــ حدّثنا سعيد قال: نا إسماعيل بن عيّاش، عن صفوان بن عمرو:

أنّ الروم حربوا[١٨] إصطيبان الأحزم (كذا) ــ وكان ملكهم ــ والقوه في جزيرة من جزائر البحر، فمرّ به بَحّار فعرفوه، فحملوه حتى أخرجوه إلى أرض حوران، فأتى محمد بن مروان فاستغاث به، وكان يدعوه أخي، فقال اصطيبان لمحمد بن مروان: أتأذن لي بالدخول في السير في أرضك حتى أنفذ إلى أرض الروم؟ فقال: لا أستطيع أن آذن لك حتى يأذن لك أمير المؤمنين، فقال إصطيبان: إنّي قد عاهدت الله لئن ردّني إلى مُلكي لا أدع في أرض الروم مسلماً يصلّي [إلى] القِبلة إلّا أعتَقْتُه وجهّزته، على أن يقاتلوا معي. فاستأذن له محمد بن

مروان عبدّ الملك بن مروان، فأذِن له، فعبر في ارضـــه حتى بلغ أرض الروم نحـو ارمينيــة الرابعة(١٩). فاستنصر المسلمين، فقاتلوا معه حتى ظفر بعدّوه من الروم، وجعل يقتل عدّوه وأصحاب شوكته حتى ظهر عليهم، واستمكن من ملكهم ودانت له أرض الروم، فأعتق عند ذلك أسارى المسلمين، أتى بهم من أرض الروم كلّها فأعتقهم وحملهم حتى بلغوا أرض قِنّسـرين، وأعـطاهم خمسة دنــانيـر، واستحسن ذلك عبد الملك والمسلمون.

التعليق على النّصّ:

لا أبالغ إذا قلت إنّ هذا الخبر نادر وفريد في آنٍ، وإنّني لَعَلَى يقينٍ من أنّ الباحثين في تاريخ العلاقات العربية ــ البيزنطية يؤيّدونني في ذلك. حيث لم أجد هذا النصّ في المصادر العربية ولا في المصادر اليونانية.

والخبـر يتعلّق بـالإمبـراطور البيـزنــطي «جو ستنيان الثاني» المعروف بالأخرم، وقد ورد في الطبع خطأً «الأحزم» وهو تحريف، ويسمّيه «ابن منصـور»: «إصطيبـان». فـالمعـروف أن البيـزنطيين قـامـوا بثـورة ضـدّ الإمبـراطور «جـو ستنيان» وخلعـوه عن العرش في سنــة ٧٦هـ / ٦٩٥م. وجـدعوا أنفـه ولذلك عُـرف بالأخرم، ونُفي إلى جزيرة «خرسون» في شبه جزيرة القرم(٢٠).

وإذا كانت المصادر التـاريخية اليـونانيـة تتحـدّث عن إقامتـه في الجزيـرة حتى سنة ٧٩هـ / ٦٩٨م. ثم خروجه منها إلى امبراطورية الخَـزَر حيث استقبله خـاقــانهـا بـالتـرحيب والتشـريف وزوّجـه أختـه، ومـا أثـارتـه تلك التطوّرات من مخاوف لدى حكّام القسطنطينية، حيث طلبوا من خاقان الخَزَر إبعاده أو تسليمه إليهم حيّاً أو ميتاً لقاء جائزة سنيّة. وفيما كان الملك ماضياً في تنفيذ المؤآمرة علمت بها أخت الملك التي هي زوجة جوستينيان، ففرّ بقارب صيدٍ إلى منفاه القديم جزيرة خرسون، واستطاع بعد مغامرات عدّة أن يبلغ الساحل الغربـيّ للبحر الأسود وأن يقيم علاقات ودّية مع تريفل خاقان البلغار كيما يساعده في استعادة ملكه.

فإذا كانت المصادر اليونانية قد ذكرت ذلك كلّه، فإنّها تقفز فجأة من فوق أحداث سنة ٦٩٨ إلى سنة ٧٠٥م. لتتحدّث عن ظهوره أمام أسوار القسطنطينية مع تريفان خاقان البلغار، حيث اقتحم العاصمة البيزنطية واستردّ عرشه في السنة ٧٠٥م.(٢١). ولقد أغفلت تلك المصادر هذه الواقعة المهمّة التي ذكرها «ابن منصور» في «السُنَن»، حيث أسهم المسلمـون بشكلٍ أو بآخر في استعادة جوستنيان للعرش، وظهر أن الإمبراطور كان على علاقة وطيدة وحميمة مع محمد بن مروان حتى كان يخاطبه بأخي. وكان محمد أخاً لعبـد الملك الذي ولّاه على إقليم الجـزيـرة الفـراتيـة وارمينيـة وضُمّت إليـه أذْرَبَيْسجان في سنة ٨٣هـ / ٧٠٢م. وبقي على ولايتـه حتى مـات عبـد المـلك والوليـد بن عبد الملك(٢٢).

وما جاء في حديث «ابن منصور» يدلّ على تحـوّلٍ واضحٍ في العـلائق بين عبـد الملك والإمبراطور جوستينيان الذي كان بـدأ عهده بـإظهـار العـداوة للمسلمين، فـأخـرج الروم والجراجمة والأنباط والعبيد الأباق لقتالهم في سنة ٦٩هـ / ٦٨٩م(٢٣).

في عهد عمر بن عبد العزيز

(رقم ٢٧١١) ــ حـدّثنا سعيـد قـال: نـا إسماعيل بن عيّاش، عن الأوزاعيّ قال:

لما أقفل عمر بن عبد العزيز الجيشَ الذي كانوا مع مَسْلَمَة، كُسِر مركب بعضهم، فأخذ المشركون ناساً من القبط وكانوا خدماً لهم، فخرجوا يوماً إلى عيـدهم وخلّفوا القبـط في مركبهم، وشرب الآخرون، ورفع القبط القِلْع(٢٤)، وفي المـركب متاع الآخـرين وسـلاحهم، فلم يضعوا قِلْعهم حتى أتوا بيروت، فكُتب ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب عمر: نقّلوهم المركب وما فيه وكلّ شيءٍ جاؤا به إلّا الخُمْس.

التعليق:

وهذا نصّ فريد آخر يُتحفنا به «ابن منصور»، ويُثْري معلوماتنا عن ثغور الساحل الشامي ودورها في الصراع العربي ــ البيزنطي، وعن دور الأقباط في الغزوات البحرية للأسطول الإسلامي. والخبر هذه المرّة يرويه الإمام الأوزاعيّ الذي رابط ببيروت وتوفي بها سنة ١٥٧هـ. وكان معاصراً لوقائعه، ومشاهداً عياناً.

ويأتي هذه الخبر الواضح ليؤكّد ما ذهبتُ إليه في البحث الذي قدّمته إلى المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام المنعقد بالجامعة الأردنية في سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م. بعنوان «الفتح الإسلامي وسياسة الإسكان لساحل دمشق (لبنان)» حيث أوردت عدّة نصوص من المصادر التاريخية المختلفة التي تعطي للأقباط حضوراً في التاريخ الإسلامي وخاصّة في العصر الأموي، حيث أخلصوا في خدمة المسلمين فقادوا مراكبهم وقاتلوا البيزنطيّين معهم في عدّة مواقع. وها هو «ابن منصور» عن طريق «الأوزاعي» يضيف إلينا نصّاً ثميناً عن اشتراك القبط في غزوة مَسْلَمَة بن عبد الملك إلى القسطنطينية التي أمر بها الخليفة سليمان بن عبد الملك في سنة ٩٧هـ / ٧١٦م. وقد خرج مَسْلَمَة في البرّ، بينما خرج عمر بن هُبيرة الفزاري في البحر، ومعه بحّارة وغُزاة من طرابلس الشام وغيرها، ومات الخليفة فيما كان مَسْلمة وابن هُبَيرة لا يزالان عند أسوار القسطنطينية، وحين تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة في أوائل سنة ٩٩هـ / ٧١٨م. أمرهما بالعودة. فيكون تاريخ الخبر الذي رواه الأوزاعيّ إذن في السنة المذكورة[٢٥]. وهذا يعني أنّ الأقباط ظلّوا يسهمون في الغزو مع المسلمين، منذ فتح في خلافة الفاروق عمر، وحتى آخر القرن الأول الهجري، على الأقلّ. وقد أسهم لهم عمر بن عبدالعزيز نصيبهم من الغنائم، كما أسهم لهم معاوية من قبل حين عودته من غزوة قبرس[٢٦].

(رقم ٢٨٢٢) ــ حدّثنا سعيد قال: نا ابن عيّاش، عن عبد الرحمن بن أنعم، عن المغيرة بن سَلَمَة،

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: لمّا بعثه عمر بن عبد العزيز بفداء أسارى المسلمين من القسطنطينية قلت له: أرأيت يا أمير المؤمنين إنْ أبَوْا أن يفادوا الرجلَ بالرجل كيف أصنع؟ قال عمر: زدهم، قلت: إن أبَوْا أن يُعْطوا الرجل بالاثنين؟ قال: فاعطِهم ثلاثاً. قلت: فإن أبوا إلّا أربعاً؟ قال: فاعطهم لكلّ مسلمٍ ما سألوك، فَوَاللّهِ لَرَجلٌ من المسلمين أحبّ إليّ من كلّ مشركٍ عندي، إنّك ما فديت به المسلم فقد ظفرت، إنّك إنّما تشتري الإسلام. قلت: النساء! قال: نعم، إفْدهن بما تفدي به غيرهنّ. قلت: أرأيتَ إن وجدت امرأةً تنصّرت فأرادت أن ترجع إلى الإسلام؟ قال: إفْدِها بمثل ما تفدي به غيرها. قلت: أفرأيت العبيد أفديهم إذا كانوا مسلمين؟ قال: افدِهم بمثل ما تفدي به غيرهم. قلت: أفرأيت إن وجدت منهم من قد تنصّر، فأراد أن يراجع إلى الاسلام؟ قال: فاصنع بهم ما تصنع بغيزهم.

فصالحتُ عظيم الروم على كلّ رجلٍ من المسلمين، رجلين من الروم.

قال إسماعيل: وزاد فيه ناس من أصحابنا عن عبد الرحمن أنه سأل عمرَ بنَ عبد العزيز عن أهل الذمّة. فقال: افدِهم بمثل ما تفدي به غيرهم.

* * *

التعليق:

وهذا نصّ آخر لم أجده في أيّ مصدرٍ آخر. وهو يؤكّد على شدّة اهتمام الخليفة عمر بن عبد العزيز بفداء الأسرى المسلمين لدى البيزنطيّين. حتى أنه أشار بفداء أهل الذمّة أيضاً.

فقد ورد في المصادر التاريخية عدّة أخبار عن حرص عمر على إطلاق الأسرى، أذكر منها ما يلي:

● قال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني الحسن قال: أخبرنا الغَلَابيّ، عن ابن عائشة، عن أبيه،

أنّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى الأسارى بقُسْطنطينية: أمّا بعد، فإنكم تعدّون أنفسكم أسارى ولستم أسارى. مَعَاذ الله! أنتم الحُبَساء في سبيل الله. واعلموا أنّي لست أَقْسِم شيئاً بين رعيّتي إلّا خصّصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير، ولولا أنّي خشيتُ إنْ زدتُكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزِدْتكم. وقد بعثت إليكم فُلان بن فلان يُفادي صغيركم وكبيركم، ذَكَرَكم وأُنثاكم، حُرَّكم ومملوككم بما يُسأل، فأبشروا ثم أبشروا[٢٧].

«وأقول»: إنّ هذا النّصّ لا يفصح عن اسم رسول عمر إلى الإمبراطور، بينما يسمّيه «ابن منصور» في سُنَنه، وهو «عبد الرحمن بن أبي عمرة».

وورد في سيرة عمر لابن الجوزي أنّ عمر وجّه «عبد الأعلى بن أبي عمرة» رسولاً إلى طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام[٢٨]. فهو إذن «عبد الرحمن» أو «عبد الأعلى»، وكان له عشرة أولاد.

● وروى أبو عبد الله محمد، عن أبيه أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ. قال:

«أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمرّ بموضع، فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلّم عليه، فلم يردّ عليه السلام ــ مرّتين أو ثلاثاً ــ ثم سلّم عليه، فقال له: وأنّى بالسلام في هذا البلد؟ فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم. فقال له: ما شأنك؟ فقال: إنّي أُسِرْت من موضع كذا وكذا فأُتي بي إلى صاحب الروم فعرض عليّ النصرانيّة، فأبيت، فقال لي: إن لم تفعل سَمَلت عينيك. فاخترت ديني على بصري، فسَمَل عينيّ وصيّرني إلى هذا الموضع، يرسل إليّ كلّ يوم بحنطة فأطحنها وبخُبزة فآكلها. فلما سار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه.

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم:

أمّا بعد، فقد بلغني خبر فلان بن فلان، فوصف له صفته، وأنا أُقسِم بالله لئن لم ترسل إليّ لأبعثنّ إليك من الجنود جنوداً يكون أوّلها عندك وآخرهم عندي.

فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرعَ ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنّا لنحمل الرجل الصالح على هذا بل نبعث إليه به. فأقمتُ أنتظر متى يُخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف فيه الكآبة، فقال: تدري لِما فعلت هذا؟ فقلت: لا، ــ وقد أنكرت ما رأيت ــ فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أنّ الرجل الصالح قد مات، فلذلك فعلتُ ما رأيت. ثم قال: إنّ الرجل الصالح إذا كان بين القوم السّوء لم يُترك بينهم إلّا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف؟ ــ وأيست من بعثه الرجلَ معي ــ فقال: ما كنّا لنُجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته. فأرسل معه بالرجل»[٢٩].

● وروى الأوزاعيّ، عن سليمان بن حبيب المحاربي ــ وكان قاضياً لعمر بن عبد العزيز ــ قال:

كتب إليّ عمر بن عبد العزيز: أن أجِز للأسير ما صنع في ماله، فهو ماله يفعل به ما يشاء[٣٠].

● وروى الأوزاعيّ أيضاً فقال:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمّاله: أن فادوا بأسارى المسلمين وإنْ أحاط ذلك بجميع مالهم[٣١].



الهوامش

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية ـــ فرع طرابلس. مشرف على الدكتوراه والماجستير بالفرع الأول، بيروت. عضو الهيئة الاستشارية للمنشورات التاريخية في اتحاد المؤرّخين العرب. المدير المسؤول لرابطة إحياء التراث الفكري في طرابلس والشمال.

(١) أنظر مقدمة الدكتور محمد حميد الله في «سُنن سعيد بن منصور» في القسم الأول من المجلّد الثالث، الذي نشرته دار الكتب العلمية ببيروت (١٤٠٥هـ./١٩٨٥م.) مصوّراً عن الطبعة الأصلية الصادرة بحيدر أباد. ص ٢٢ ـــ ٢٤ وما قبلها في مصادر الترجمة لابن منصور.

(٢) اعتمد المحدّثون طريقة في السند مثل: «نا» وهي اختصار لكلمة «أخبرنا»، و «ثنا» اختصار «حدّثنا»، و «نبا» اختصار «نبّأنا» أو «انبأنا».

(٣) المُغيلة: الخيانة.

(٤) اعتمدت في هذا على الطبعة الثالثة من الكتاب (١٣٨٩هـ./١٩٦٩م.) طبعة دار الإرشاد ببيروت، ولا أدري إن كان الباحث الفاضل قد ذكر النصّ المذكور في طبعة لاحقة.

(٥) أنظر حول معاهدة خالد مع أهل دمشق: تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١٤٩/١ وفيه: «قُضاعة» بدل «قُضاعيّ»، وفيه ان الكتاب بتاريخ شهر رجب من سنة ١٤هـ. ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٠٥/٤ وفيه: «كُتب سنة ثلاث عشرة، أخرجه أبو موسى. قلت: في هذا نظر، فإنّ التاريخ لم يكن يُعرف في خلافة أبـي بكر وصدر من خلافة عمر رضي الله عنهما، ثم أحدِث بعد ذلك، والله أعلم». وفتوح البلدان للبلاذُري ١٤٤/١، والخراج وصناعة الكتابة لقُدامة بن جعفر ٢٩٢، وكتاب الأموال لابن سلّام رقم ٥١٩، وكتاب الأموال لابن زنجويه (مخطوطة بوردور، بتركيا) ورقة ٧٢ أ، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢٣٦/٣ رقم ٧١١٥، ومجموعة الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله ـــ ص ٣٧٤، ٣٧٥ رقم (٣٥٢) الطبعة الثالثة.

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ١٧٦/١ رقم (٤٠١) ـــ الخراج وصناعة الكتابة لقدامة ٣٠٤، ٣٠٥ وفيه «دير طايا».

(٧) هو اسماعيل بن عيّاش، مفتي أهل حمص ومحدّث الشام. وُلد سنة ١٠٦ وتوفي سنة ١٨١هـ. أنظر ترجمته ومصادرها في كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـــ ج ٤٧٨/١، ٤٧٩ رقم (٣١٦) ـــ طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء ببيروت ١٤٠٤هـ./١٩٨٤م.

(٨) النمارق: مُفردها نمرقة، وهي الطنفسة، أو الوسادة.

(٩) الوامق: المحبّ.

(١٠) انظر هذا الرجز في: سيرة ابن هشام ١٥١/٣، والسير والمغازي لابن إسحاق ٣٢٧، والمغازي للواقدي ٢٢٥/١، والطبقات الكبرى لابن سعد ٤٠/٢، والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البرّ ٤٢٥/٤، وأنساب الأشراف للبلاذري ٣١٧/١ رقم ٦٨٩، تاريخ الطبري ٥١٠/٢، البدء والتاريخ للمقدسي ٢٠١/٤، وثمار القلوب للثعالبـي ٢٩٧ رقم ٤٤٩، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥٣/٢، وأسد الغابة لابن الأثير ٥٦٢/٥، ونهاية الأرب للنويري ٩٠/١٧، وتاريخ الإسلام للذهبـي (المغازي) بتحقيقنا ـــ طبعة دار الكتاب العربـي، بيروت ١٩٨٧ ـــ ص ١٧٢، وعيون التاريخ للكتبـي ١٥٨/١، والسيرة النبوية لابن كثير ٣١/٣، والبداية والنهاية له ١٦/٤، وعيون الأثر لابن سيّد الناس ٢٥/٢، والروض الأنف للسُهَيلي ١٦١/٣.

(١١) فتوح الشام للأزدي ٢٢٣.

(١٢) أنظر الحديث في: المعجم الكبير للطبراني ١٥٧/٢٤ رقم ٤٠٣، ومجمع الزوائد للهيثمي ٢٦٠/٩، والإصابة لابن حجر ٢٣٥/٤، وشرح السير الكبير للشيباني ١٨٥/١.

(١٣) يقال: دخل على تفيئة فلان، أي على أثره.

(١٤) الرياض النظرة في مناقب العشرة، للمحبّ الطبري ـــ ج ٤٨/٢، أخبار عمر لعلي وناجي الطنطاويين ٣١٤.

(١٥) حلية الأولياء لأبـي نعيم ١٣٤/٥.

(١٦) انظر كتاب الزهد للإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ.) ـــ ص ١٧٦، وتاريخ ابـي زُرْعة (ت: ٢٨١هـ.) ج ١٨٧/١ رقم ٩٥، وحلية الأولياء لأبـي نُعَيم (ت: ٤٣٠هـ.) ج ٢١٦/١، ٢١٧.

(١٧) أنظر عن جُنادة وعبد الله بن قيس وغيرهما من وُلاة بحر الشام وغُزاته في عهد معاوية، دراسة لنا نُشرت في هذا المجلّد، العدد (٣٨) لسنة ١٩٨١ وانظر ما رواه سلمة بن الأكوع في شرح السير الكبيرة ١٤٦٩/٤.

(١٨) يقال حرب الرجل إذا سلبه ماله وتركه بلا شيء، فالمعنى هنا سلبوه مُلكه.

(١٩) قيل ارمينية اربع أرمينيات، ومن الرابعة مدينة شمشاط وقاليقلا وغيرهما.

(٢٠) Ostrogorowski — p. 123, 124، الروم وصِلاتهم بالعرب للدكتور أسد رستم ١/٢٦٩، ٢٧٠، الدولة البيزنطية للدكتور السيد الباز العريني ١٤٧.

(٢١) Dunlop — The History of the Jewish Khazars — p. 172.

(٢٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية بدمشق) ١٥/٤٧٣ ب ـ ٤٧٥ أ.

(٢٣) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ـ الطبعة الثانية، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ودار الإيمان بطرابلس ١٤٠٤هـ./١٩٨٤م. ـ ص ١٢٨ ـ ١٣٤ وراجع المصادر في الحواشي.

(٢٤) القِلْع: شراع السفينة.

(٢٥) انظر حول حصار القسطنطينية في هذه الغزوة: الحلقة الثانية من دراستنا بعنوان: غُزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي، ونشرت في العدد (٣٩) من هذه المجلّة، ففيها مصادر أساسية.

(٢٦) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/١٣٤، وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ١/١١٦، ١١٧ الطبعة الثانية.

(٢٧) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٩/٢٦٥، ٢٦٦، وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ١٤٤، ومختار الأغاني لابن منظور ٥/٣٤.

(٢٨) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ٢٦٣.

(٢٩) السيرة لابن عبدالحكم ١٤٨، ١٤٩، وبعض الخبر عند ابن الجوزي ٢٣٠، ٢٣١.

(٣٠) السيرة لابن الجوزي ١٠٦.

(٣١) السيرة لابن الجوزي ١٢٠.

● «الرجال هم الذين يصنعون التاريخ وليس العكس، ففي الفترات التي لا تتقدم ولا تتطور فيها القيادة يظل المجتمع متوقفاً تماماً. ويطرأ التقدم حينما تصبح الفرصة مواتية لقادة جريئين، بارعين يستطيعون تغيير الأمور نحو الأفضل».

(هاري س. ترومان)

● «يعرف الرجل العظيم بثلاث علامات: الكرم في القصد، والانسانية في التنفيذ، والتواضع عند النجاح».

(بسمــــارك)

● «المدير الناجح هو الذي يمتلك الحاسة الكافية لاختيار الرجال القادرين على تنفيذ ما يريد عمله. ويقدر على كبح نفسه من الدخول وسطهم أثناء قيامهم بالعمل».

(تيودور روزفلت)

● «إن العالم إذا ما تحرر من خوف العوز والعدوان، أصبح بلا شك مكاناً يستحق أن يعيش الانسان فيه، لأنه عندها لن يعاني ما يعانيه اليوم من فروق بين الطبقات الاجتماعية، ولن يخشى على ذريته غائلة الحاجة، ولن يكون فريسة للطمع والرغبة في التفوق. إن هذه النزوات سوف تتسامى وتتحول إلى عواطف أكثر نبلاً ونفعاً».

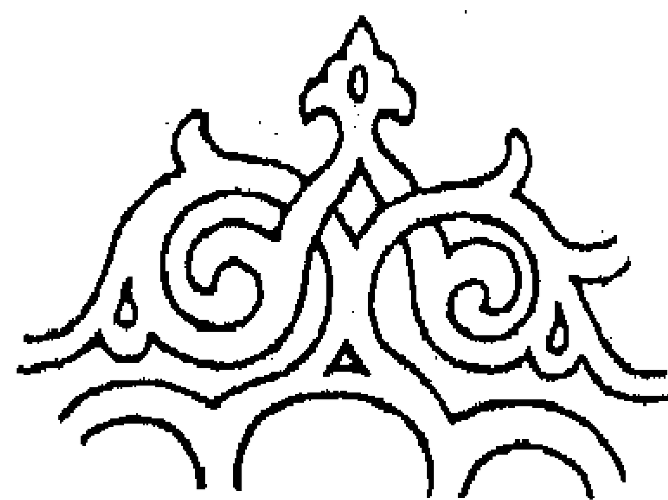
(برتران راسل)

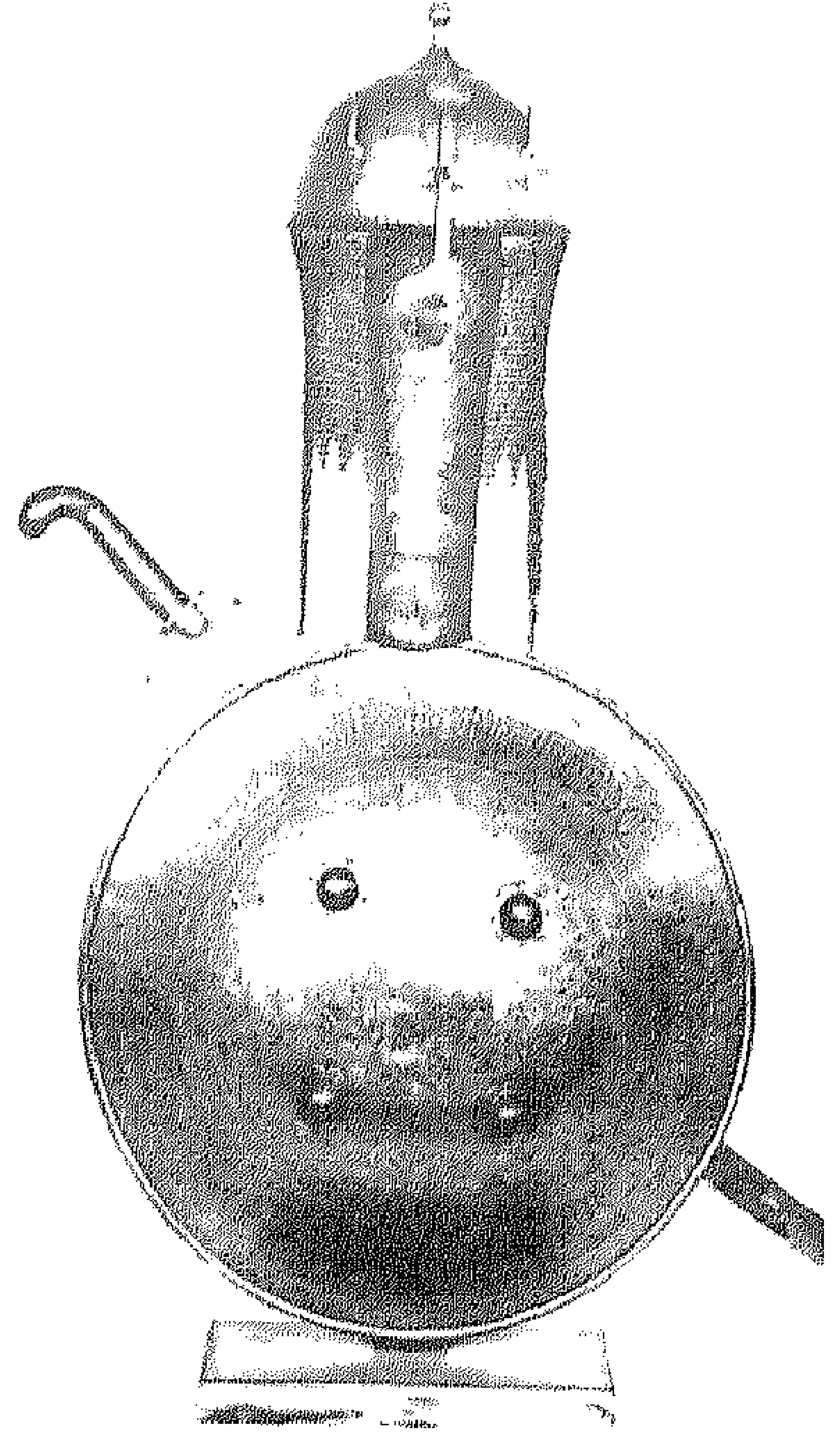
● «إن أقسى عقاب ينزل بالكذاب.. ليس هو عدم تصديق الناس له.. وإنما هو عدم استطاعته تصديق أحد...».

(برنــــاردشــو)

● «من يسأل سؤالاً يصبح غبياً لمدة خمس دقائق.. ومن لا يسأل يظل غبياً إلى الأبد».

(مثــل صيني)



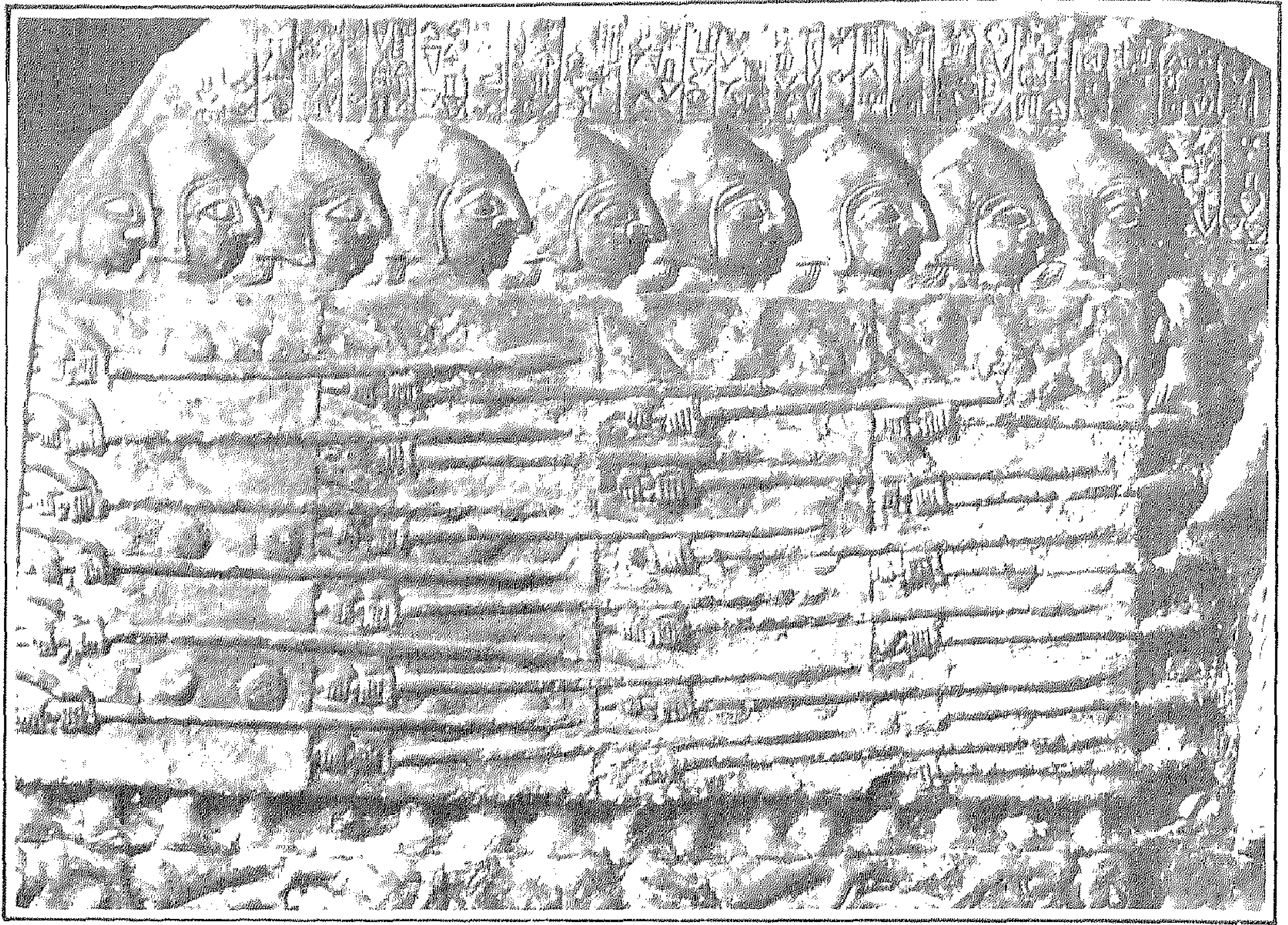


تاريخ الدروع

هاني أبو غريبة

عندما تعلم الإنسان استعمال المعادن ليصنع منها سلاحه، فقد خطا خطوة تكنولوجية هامة في اكتشافه هذا، لقد أصبح قادراً على صنع العديد من أنواع السلاح بتصاميم مختلفة ومعادن متنوعة لمختلف الأغراض والأهداف، فمنها ما كان للقطع وما كان للطعن والرماية. ومن ثم راح يصنع هذه الأدوات بكثرة وقد كان لاكتشاف معدن النحاس والبرونز الأثر البالغ في تنمية حضارات الشعوب القديمة عبر التاريخ البشري. إن اهتمامنا وتركيزنا في هذه الدراسة السريعة عن اكتشاف وتطوير الدروع الجسدية التي ظهرت مع ظهور الأسلحة الدفاعية والهجومية منذ بداية التاريخ وحتى عصرنا هذا.

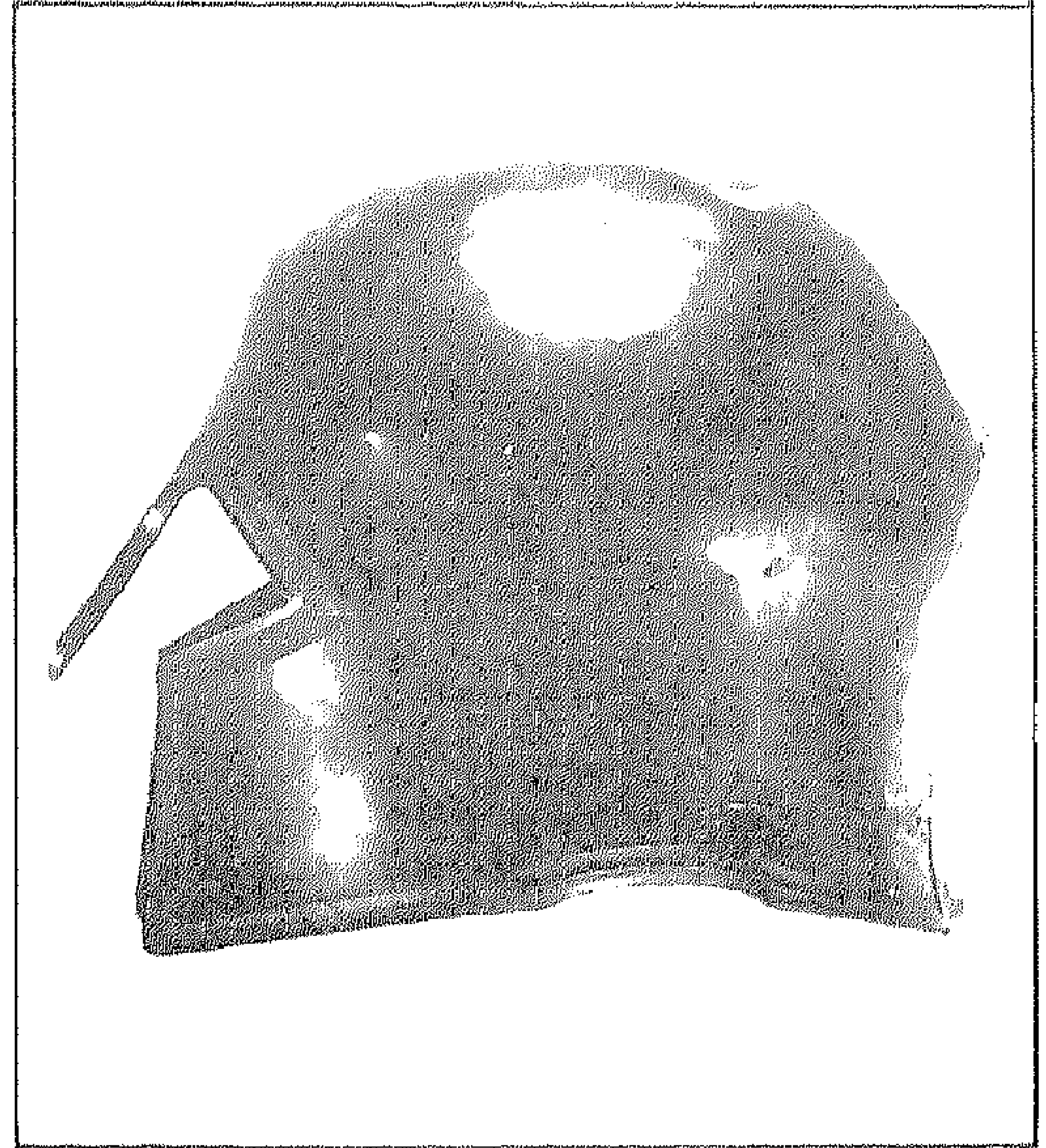
لقد تم إدخال الكثير من التطوير والتعديل على هذا الاختراع منذ ظهوره واستعماله وكان للعديد من الشعوب أدوار في إدخال الجديد على هذه الدروع حسبما تعلموه من حروبهم مع أعدائهم. وقد جاء هذا التطوير متلازماً مع اكتشاف الإنسان كيف يصنع السلاح وكيف يدافع عن نفسه ضد أعدائه. لكن ليس هنالك تاريخ دقيق أو محدد أو حتى درع أولى لنبدأ، إذ أن العودة إلى تاريخ المنشأة الحقيقي لهذه الدروع غير واضحة، فكل شعب يدعي أنه هو الذي اخترع الدروع وغيرهم اقتبسه عنهم. لذلك فإننا سنبدأ بالقطع التي نالت شهرة في عصرها من حيث استعمالها.



□ لوحة معدنية من العام ٢٥٠٠ق.م. تظهر أسلوب الدفاع وتحمل بطول الجسم، ويحارب الجندي من خلفها



من هنا فقد كان للدروع الايطالية ذات النظام الدائري شهرة واسعة وقد أُطلق على هذا النوع من الدروع اسم «مكسميليان ستايل»، وهو يتميز بسلسلة اضلع متوازية من النحاس تغطي سطح الدرع ما عدا درع الساق. إلا ان الاضلع لم تكن مرتبة ومصففة باحكام لكنها مع ذلك كانت تؤمن قوة مماثلة في الدفاع لما تؤمنه شرائح الحديد المموجة. وقد استمرت شهرة «المكسميليان ستايل» حتى عام ١٥٣٠م، حيث بدأ البحث عن مواد جديدة خفيفة واكثر فعالية في صناعة الدروع وهكذا بدأت رحلة تطوير الدروع. وبرغم من ان اتجاه التيار كان يهدف لتأمين دروع قوية وخفيفة في الوقت ذاته تعطي الجندي والفارس القدرة على المطاعنة بالسيوف والتثاقف بالرماح فقد كانت النتيجة عكسية، إذ ان الدروع الجديدة التي ظهرت في القرن السادس عشر كانت أكثر تعقيداً من سابقتها، لكن اسلوب صناعة هذه الدروع والدراسة التي وضعت في تصميمها اظهرت تقدم صانعيها في زمنهم. فالهدف كان بالنسبة لهم تأمين الحماية للجندي أو الفارس إلى أقصى درجة ممكنة ضد كافة أنواع الاسلحة المستخدمة في تلك الحقبة من التاريخ. السيوف، الخناجر، السهام، الرماح، الاحجار، الكرات الحديدية المسمرة وقذائف المنجنيق، كان على الدرع أن يصدها، ولهذا فقد طوَّر الايطاليون الدروع الجسدية بتكثيف الاضلع النحاسية والحديدية باسلوب متوازن وثابت بحيث تتسبب بانزلاق ضربة السيف مثلاً عن الأماكن الحساسة وغير المصفحة تصفيحاً متيناً، فمثلاً سلسلة اضلع متوازية على الكتف والرقبة تزلق ضربة السيف عن الرقبة، ولم يكن لهذا النوع من الدروع إلا نقطة ضعف واحدة وهي الوزن الثقيل الذي يعوق حركة المحارب، لكن الايطاليين فضلوا ضعف الحركة الجسمانية على ضعف الدروع الجسدية، فالحماية القصوى والإقلال من عدد الضحايا في المعارك كان هدفهم الاول، وبرغم من ذلك فقد اشتهر هذا النوع من الدروع في معظم القارة الاوروبية وعرف باسم «ثلث ارمور»



□ الخوذة الكورنثية المصنوعة من البرونز.

الدروع الألمانية

ومن جهة اخرى كان الألمان يتسابقون مع الايطاليين في صناعة الدروع، فالدروع الألمانية كانت تعرف «بالغوثك» وكانت تتألف من قطعتين عند الصدر مع خصر مزموم تنحدر من فوقهما شرائح النحاس والحديد مصفوفة بشكل مترابط، وكانت الدروع تشمل السواعد والاكتاف والساق والقدم ثم اضاف الألمان إلى ذلك خوذة مصفحة عرفت «بالساليت» لحماية الجمجمة والرقبة والوجه، فكانت تنحدر بتدرج من اعلى الرأس حتى الرقبة مشكلة مذنباً من الخلف وقناعاً حديدياً عند الوجه، وقد أخذت هذه الخوذة شهرة واسعة في القرن السادس عشر.

ومن ناحية اخرى، كانت صناعة الدروع تتطلب مواد اولية ضرورية في تصنيعها، فالحديد، والنحاس، والفحم والخشب، والجلود كانت أهم هذه المواد في التصنيع، لذلك فقد اشتهرت بعض المدن الاوروبية في هذا العمل لتوفر الامكانات لهذا المجال، اوغسبرغ، نورنبرغ، باسو وسولينجن في المانيا، باريس في فرنسا، ميلان في ايطاليا كانت من أشهر المدن في العصور الوسطى لنوعية دروعها وسلاحها، وقد عمدت كل مدينة إلى انتاج وتطوير الدروع الخاصة بها بشكل مميز وفريد وكل واحدة كانت تؤثر وتوحي للاخرى بأفكار التطوير والتحسين. وبهذا التمازج في الصناعة استطاع مصنعو العلب الحديدية أي الدروع إلى اعطاء مرونة عالية للمحارب بـرغم من كساء معظمهم جسده بالحديد الثقيل، فكان الفارس بلباسه العسكري الكامل والدروع والسلاح يستطيع أن يتحرك حسبما يشاء، فبامكانه الجلوس، الوقوف، التمدد، الجري وحتى امتطاء الفرس والنزول عنها، دون عناء أو اعاقة.

ولقد شهد القرن الخامس عشر مرحلة قطف ثمار الابحاث التي أُجريت لانتاج أفضل الدروع الجسدية الواقية، حيث أصبح المحارب مجهزاً تجهيزاً كاملاً من حيث السلاح والحماية الجسدية بالرغم من تغليفه كلياً تقريباً بالحديد. فدرع الصدر كان يغطي الصدر بكامله وامتد الدرع الواقي حتى الاكتاف والظهر، ولم يعد التدريع يقتصر على حماية الصدر والظهر بل تعداه ليبلغ اسفل الجسم كالحوض الاسفل والارجل والسواعد وذلك بإبدال نظام التدريع السابق المعروف «بدرع السلحفاة» واستبداله بما توصلت إليه طاقة الفكر البشري في ذلك الوقت، حيث تم اتباع اسلوب جديد للتدريع وهو تحويل درع السلحفاة إلى درع متكسر أي تصنع الدروع من قطع معدنية صغيرة بأحجام متوازية ومتساوية وتصفف بشكل انسيابي مع الواحدة فوق الاخرى وبعدها، مما يؤمن نسبة مرتفعة في القدرة على الحركة والمناورة اثناء المعارك وخصوصاً لاعضاء الجسم التي تتطلب تدريعاً مرناً قوياً وخفيفاً في الوقت ذاته، كالسواعد، والخصر والارجل، والرأس. ونشير هنا إلى أن هذا الاسلوب من التصميم في انتاج الدروع ما يزال يتبع حتى في عصرنا هذا لكن مع المزيد من التطوير والتحسين. وهكذا ومع هذا التطور الذي توصل إليه الانسان في تلك الحقبة من التاريخ، لم يعد من الضروري على المحارب أن يحمل درعاً متحركاً في يده الذي كان يسبب له اعاقة تامة في حركة سواعده لانه وجب عليه أن يحمله باستمرار في يده ويحارب باليد الاخرى، مما يجعله ضعيف القدرة على المناورة. بالاضافة إلى هذا المبدأ المتطور في تصنيع الدروع في ذلك الزمان، كان هنالك نظريات اخرى ملساء ومنحنية مما يجعلها قادرة على رد الضربات وازلاقها عن الهدف وقد تزامنت مع هذه الدروع، الخوذ المدرعة والتي تم

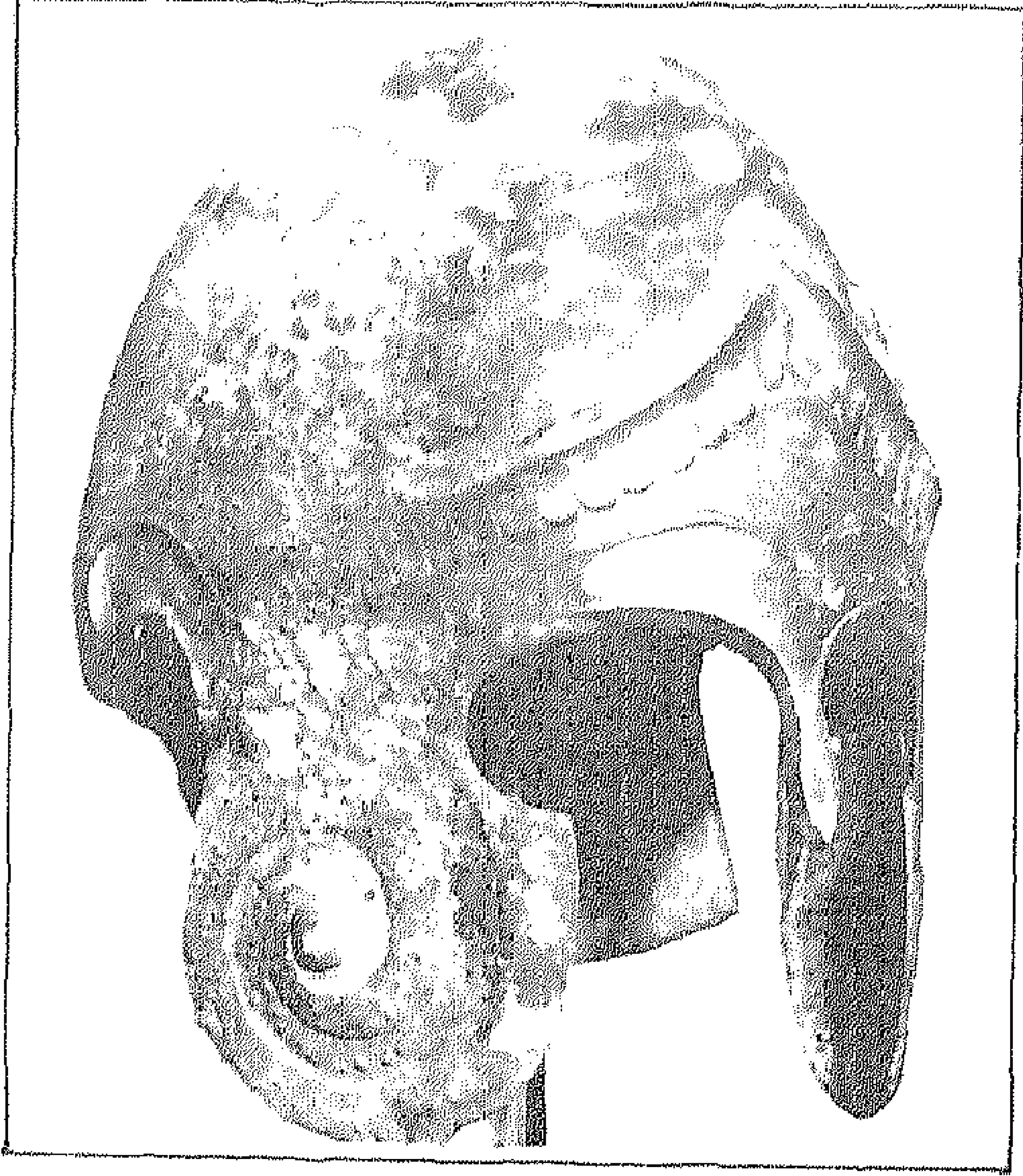
تحسينها أيضا لتتماشى مع تطور الدروع الجسيمة، حيث ادخلت تعديلات على شكل الخوذ فصممت بشكل انسيابي يساعد على تأمين انزلاق تام لاي ضربة على الرأس والوجه.

مع حلول القرن السادس عشر، بدأ استعمال معدن جديد هو البرونز في تصنيع الدروع، والخوذ، وكانت بداية ادخال هذا المعدن الجديد من خلال الخوذ، حيث وضعت أول خوذة من البرونز، بطريقة جديدة ومختلفة عن سابقتها، إذ أن الخوذ كانت تصنع قطعاً كبيرة ثم تركب على بعضها بدعائم أو بتلحيمها والاخريات. أما الخوذة البرونزية فقد تم صبها في قالب يأخذ شكل الرأس وبهذا تصبح الخوذة البرونزية قطعة واحدة صلبة من الصعب تحطيمها وقد تم دفع درع الوجه الموصول بالخوذة إلى الامام أكثر لحماية الوجه من التهشم من أي صدمة قوية. ومزيداً على ذلك تم تغليف الخوذة من الداخل بالجلد والقماش لتشكل فاصلاً مريحاً بين الخوذة والرأس، اثناء وضعها على الرأس واثناء تلقي الضربات خلال المعارك. وقد عرفت هذه الخوذة بالخوذة «الكورنشية». لكن هذه الخوذة تم تطويرها أكثر بسبب بعض نقاط الضعف فيها. وهي صعوبة التنفس، والرؤية والسمع الواضح لصغر فتحات التهوية والرؤية، وقد جاءت الخوذة الجديدة أفضل بكثير بعد تحسين هذه المسائل وقد عرفت الخوذة الجديدة باسم «كالسيديان»، واستعملت لفترة طويلة من الزمن.

أهم أنواع الدروع

لا بد في خضم هذا الحديث من ذكر أهم وأشهر انواع الدروع التي صنعت واستعملت بكثرة ونالت سمعة واسعة الواحدة تلو الاخرى، فأول هذه الدروع كان:

● درع الجلود والخشب: وهو أقدم انواع الدروع حيث لم يكن الانسان عندها قد توصل إلى تطوير استعمال المعادن بين يديه فكان يلجأ لحماية نفسه إلى استعمال الخشب والجلود، وقد كان هذا الاسلوب منتشراً بين المجتمعات البدائية، وكانت الجلود تركب خلف الخشب لرد الضربات عن الجسم عند اصطدامها بالدرع الخشبي، وقد استمر استعمال الجلود على هذا النحو حتى



□ خوذة الكالسيديان وهي تختلف بتصميمها عن الكورنثية.

بالدروع المعدنية لانها تشكل حاجزاً بين الجسم والدرع يمنع اصطدام الدرع المعدني بالجسم مباشرة.

●درع الصفائح المعدنية: (سكايل ارمور): أكثر انواع هذه الدروع استعمالاً، هي تلك المصنوعة من صفائح مستطيلة الشكل منحنية بشكل نصف دائري من اسفلها، وتثقب من اعلاها لتربط مع الاخريات على قطعة من الجلد أو القماش ثم تثقب من الاطراف لتثبت مع الصفائح الاخرى بشكل عامودي ثابت، تشبه في تركيبها شرائح جلد السمك، أو القرميد على السطوح، وكان هذا النوع من الدروع يصنع من الخشب، الجلد، الذهب، الفضة، النحاس، البرونز أو الحديد، لكن الاغلب كان للحديد والبرونز المطلي بالذهب والفضة. لكن ضعف القدرة على الحركة في هكذا نوع من الدروع سبب هبوطاً سريعاً لشهرته وخصوصاً بعد ظهور انواع اخرى من الدروع أكثر مرونة وليونة خلال الاستعمال. وسبب ضعف امكانية الحركة المرنة في السكايل ارمور أو دروع الصفائح المعدنية يعود إلى خطأ في تركيب الصفائح التي رصفت على بعضها بشدة مما جعلها تتغضن على بعضها وتمنع المرونة والسهولة في التحرك الجسماني لصعوبة تحرك المفاصل بين الصفائح ذاتها.



□ نموذج من درع إيطالي، الشرائح المعدنية الكبيرة مع خوذة مذنبة من الخلف والأطراف.

●درع الشرائح المعدنية:(لاميلارارمور): يتألف هذا النوع من الدروع من مئات الشرائح الصغيرة المستطيلة الشكل المصنوعة من الحديد والبرونز وتثقب بما يقارب الثمانية إلى أربعة عشر ثقباً من جميع الجوانب ومن الوسط أيضاً ثم بشكل عامودي على قطعة من الجلد ثم تثبت شرائح اخرى بشكل مسطح حسب اجزاء الجسم وبهذا الاسلوب يتمتع المحارب بسهولة الحركة أكثر. وقد انتشر هذا النوع من الدروع بكثرة وبسرعة في معظم انحاء العالم، فمن وسط آسيا، امتداداً إلى مونغوليا، وشرق روسيا، وإلى التيبت فالصين ثم كوريا واليابان.

● درع الحلقات المعدنية: (ميل ارمور): إن هذا النوع من الدروع قد استعمل أيضاً بشكل واسع وكثيف عند شعوب عديدة، وصناعته كانت تتطلب مهارة في حبك الاسلاك بالحلقات وكان ذلك يتطلب وقتاً وفناً دقيقاً في انجازه، ولذلك كان هذا النوع من الدروع غالي الثمن وخصوصاً عندما كانت الحلقات المعدنية تصنع من الذهب الخالص أو الفضة، وكان يقتصر استعمال هذا النوع على الملوك ورجالهم، أما النوع الذي استعمل بكثرة فهو المصنوع من حلقات نحاسية أو حديدية.

وعلى هذا الشكل استمرت صناعة الدروع حتى القرن التاسع عشر وتوقفت صناعتها لأنه لم يعد تستطيع اللحاق بالتطور الذي احدثته الاسلحة، لظهور البنادق جعل هذه الدروع دون أي فائدة للمحارب، ولهذا السبب لم تعد تصنع ولا تستعمل، إلى أن عادت لتظهر من جديد في العصر الحديث باسلوب جديد ومواد جديدة وفعالية

□ درع الماني من القرن السادس عشر، مصنوع من الحديد والنحاس يغطي الصدر ومزموم عند الخصر

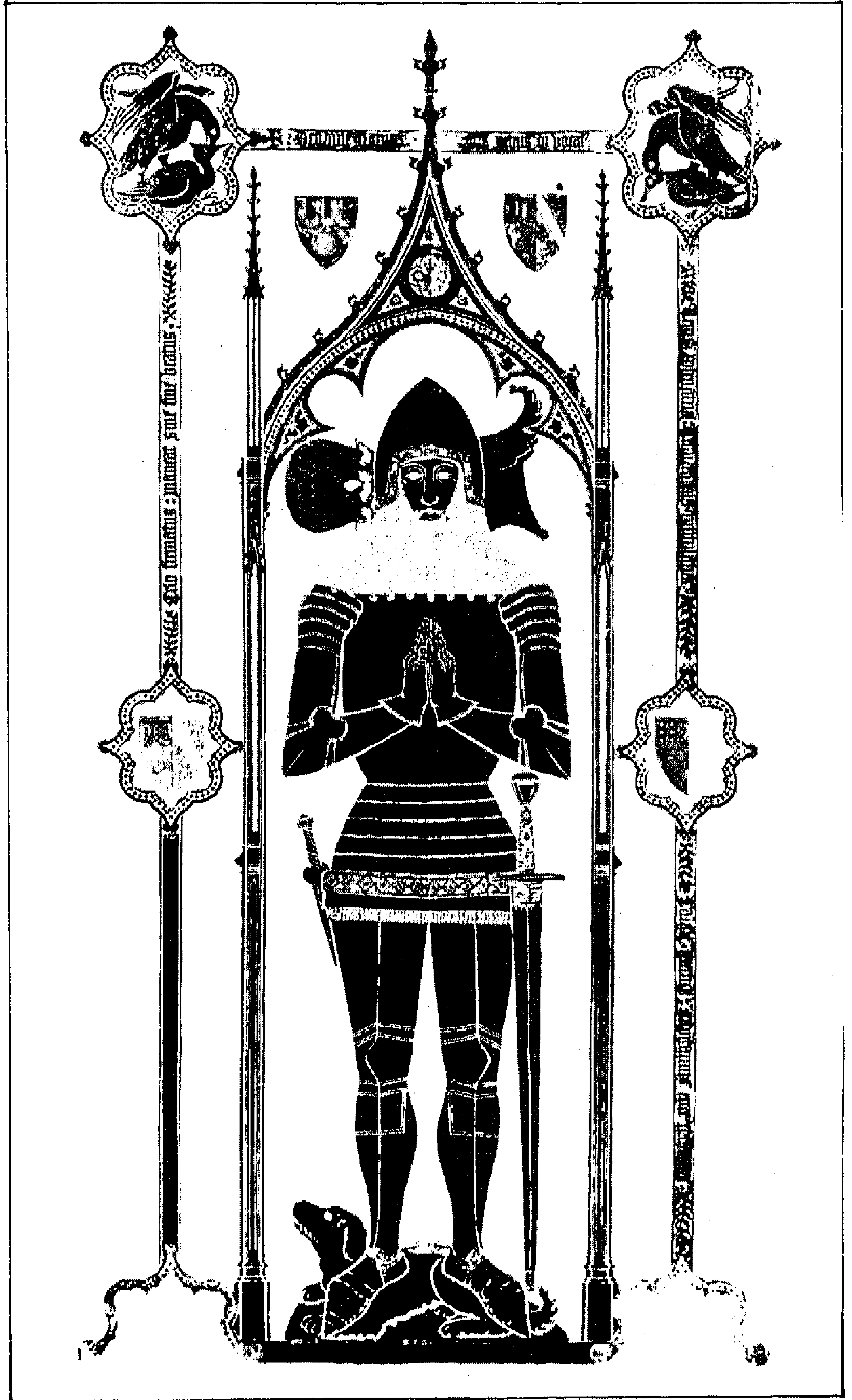


تتناسب مع تطور الاسلحة الحديثة، ونشير هنا إلى أن الكثير من الدروع الحديثة اخذت بمبدأ تصميمها عن القديمة ويبقى الفرق بالتكنولوجيا العصرية، وهذا ما سنوضحه في مرحلة العصر الحديث.

العصر الحديث

لم تكن فكرة الدروع المصفحة قد ظهرت تماماً بسبب تقدم الاسلحة بشكل اسرع من تقدم صناعة الدروع، فالتطور العلمي الذي وصله الانسان مكنه من الابداع من جديد في العديد من المجالات، ولم تكن تكنولوجيا القرن العشرين سوى الباب الواسع لعودة الدروع إلى الاستعمال الفعال والكثيف لدى الكثير من الدول في حقول الامن والدفاع والحماية. وقد اقتبست هذه التكنولوجيا الجديدة، المبدأ القديم وطورته ليتناسب مع اسلحة الحاضر المتطور، لكن الفرق بين الماضي والحاضر، إن دروع الماضي كانت كافية لصد جميع انواع الاسلحة، كالسيوف، والخناجر، والرماح، والسهام، والكرات الحديدية، والحجارة والكرات المسمرة الخ. أما دروع الحاضر فهي على انواع واشكال لانه اصبح من الصعب جعل درع واحد يقوم بكل انواع الحماية نظراً لاختلاف انواع الاسلحة المستخدمة حديثاً ولصعوبة دمج المواد المناسبة لصد هذه الاسلحة كلها في درع واحد، ولهذا السبب تنوعت الدروع حسب المهام والمتطلبات لذلك فللبداية هنالك ثلاث فئات أساسية مختلفة.

أولاً: الدروع العسكرية الحربية (وهي التي تستعملها الجيوش).



□ محارب بدرعه الكامل المصنوع من الصفائح والحلقات المعدنية.

ثانياً: الدروع العسكرية الامنة (وهي التي تستعملها الشرطة والمباحث).
ثالثاً: الدروع المدنية للحماية (وهي التي يستعملها الدبلوماسيون والشخصيات التي تحتاج للحماية).
وكل واحدة من هذه الفئات الثلاث تختلف عن الأخريين بالمواد المصنوعة منها، وبالشكل وبالوزن، وبالقدرة على صد الضربات، وبالقدرة على تأمين أعلى نسبة من الحماية. فمن السترات الواقية من شظايا القذائف والصواريخ إلى السترات المضادة للرصاص والسترات المضادة

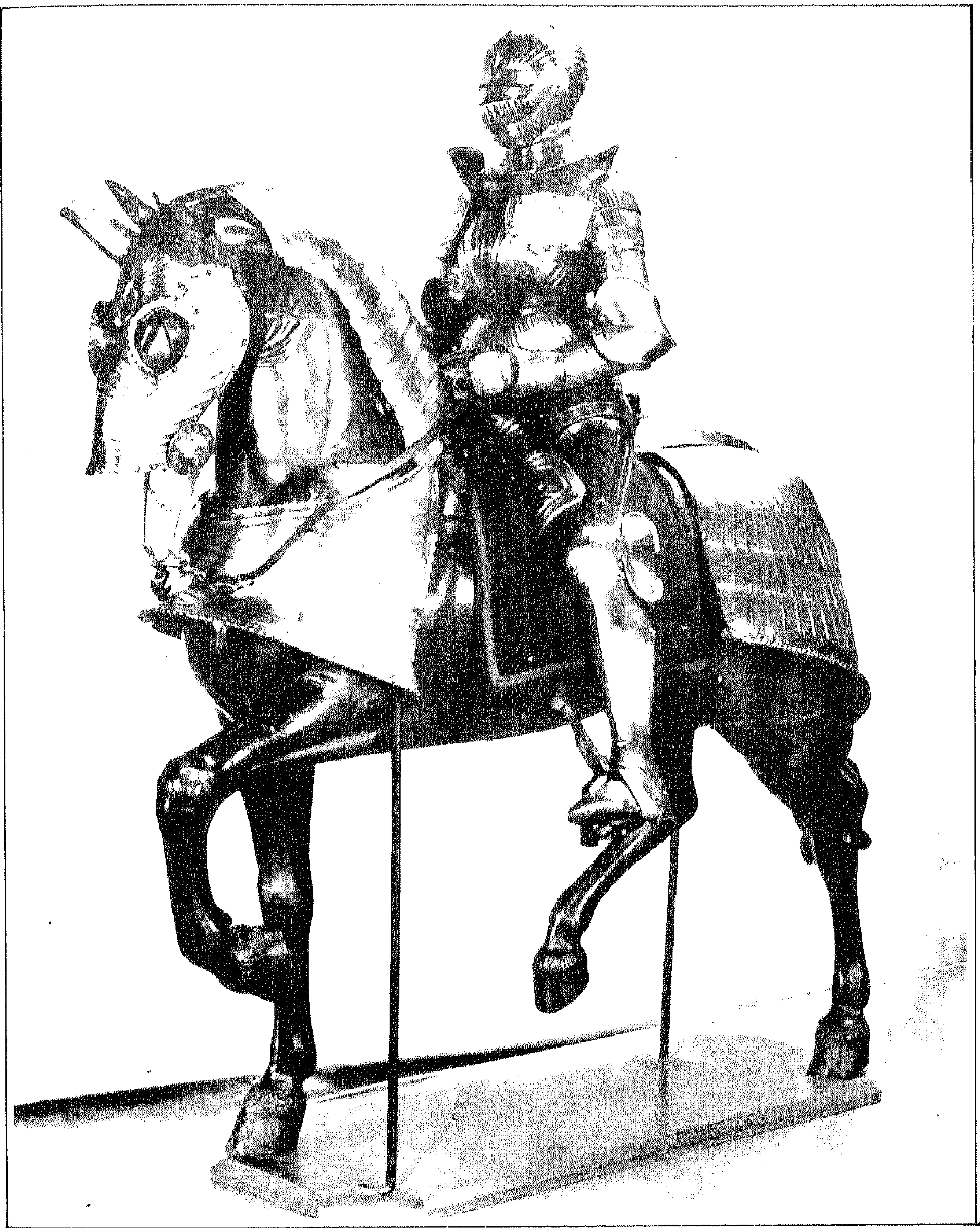


□ نموذج لدرع إيطالي كـامل، يكسو الجسم من أعلى الراس حتى أسفل القدمين بعد وضع الخوذة. مصنوع من الصفائح والحلقات المعدنية.

للقنابل والعبوات والمفرقعات على انواعها الخ.

السترات الواقية

لم يعد الحديد أو البرونز أو النحاس المعدن الجبار في صناعة الدروع ومقاومة السلاح، فمن يصدق أن قطعة من القماش المرصوص الخاص تقوم بما هو أقوى من الحديد، ويعرف هذا القماش باسم «الكفلار»، وهو المادة الاساسية في صناعة معظم انواع السترات الواقية ثم تركب عليها مواد اخرى حسب متطلبات الحماية، كشرائح وصفائح



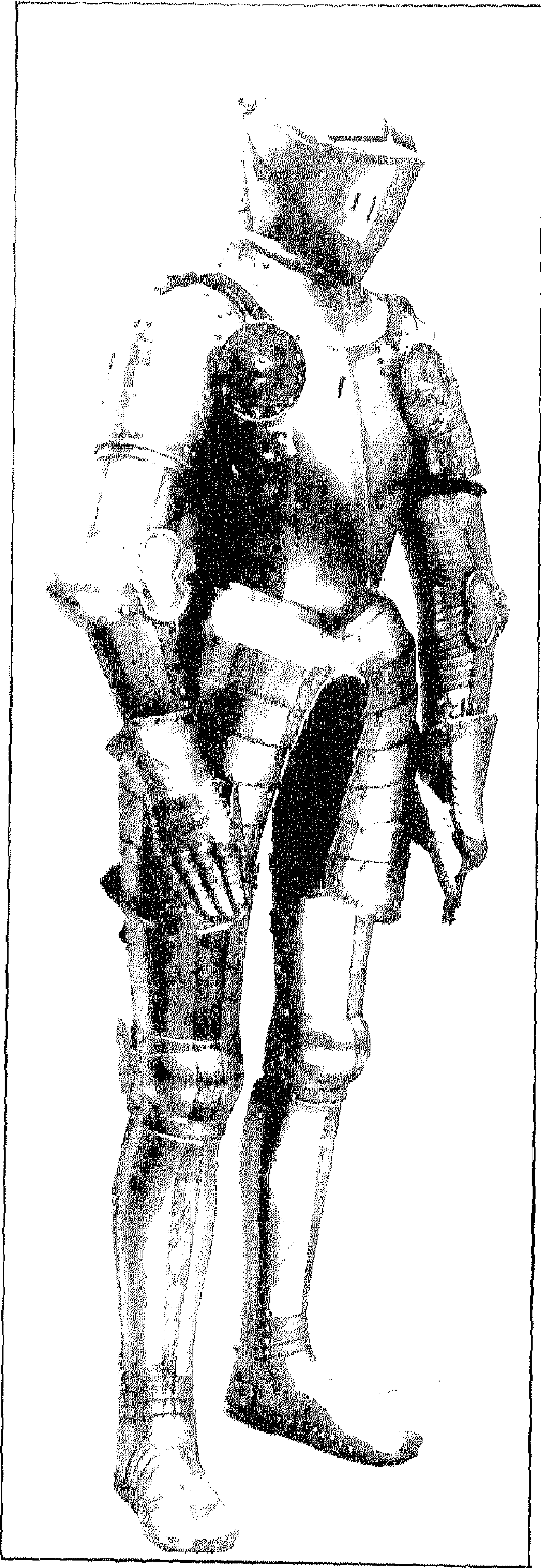
□ نموذج للمكسميليان ستايل الايطالي الذي اشتهر في عصره.

التيتانيم، أو الفايبر غلاس أو السيراميك وغيرها من المواد التي يتم تطويرها لكن ما يزال هناك تساؤل بالنسبة لما تستطيع هذه السترات الحديثة أن توفر من الحماية، فالهدف الاساسي لصناعي هذه الدروع ليس تحميل الجندي مواد تعوق قدرته على الحركة أو تكون ثقيلة جداً فتمنعه من المناورة المرنة خلال المعارك وهذا ما يحتاجه الجندي في الحروب ولهذا جاء مبدأ الحماية في التصميم لهذه

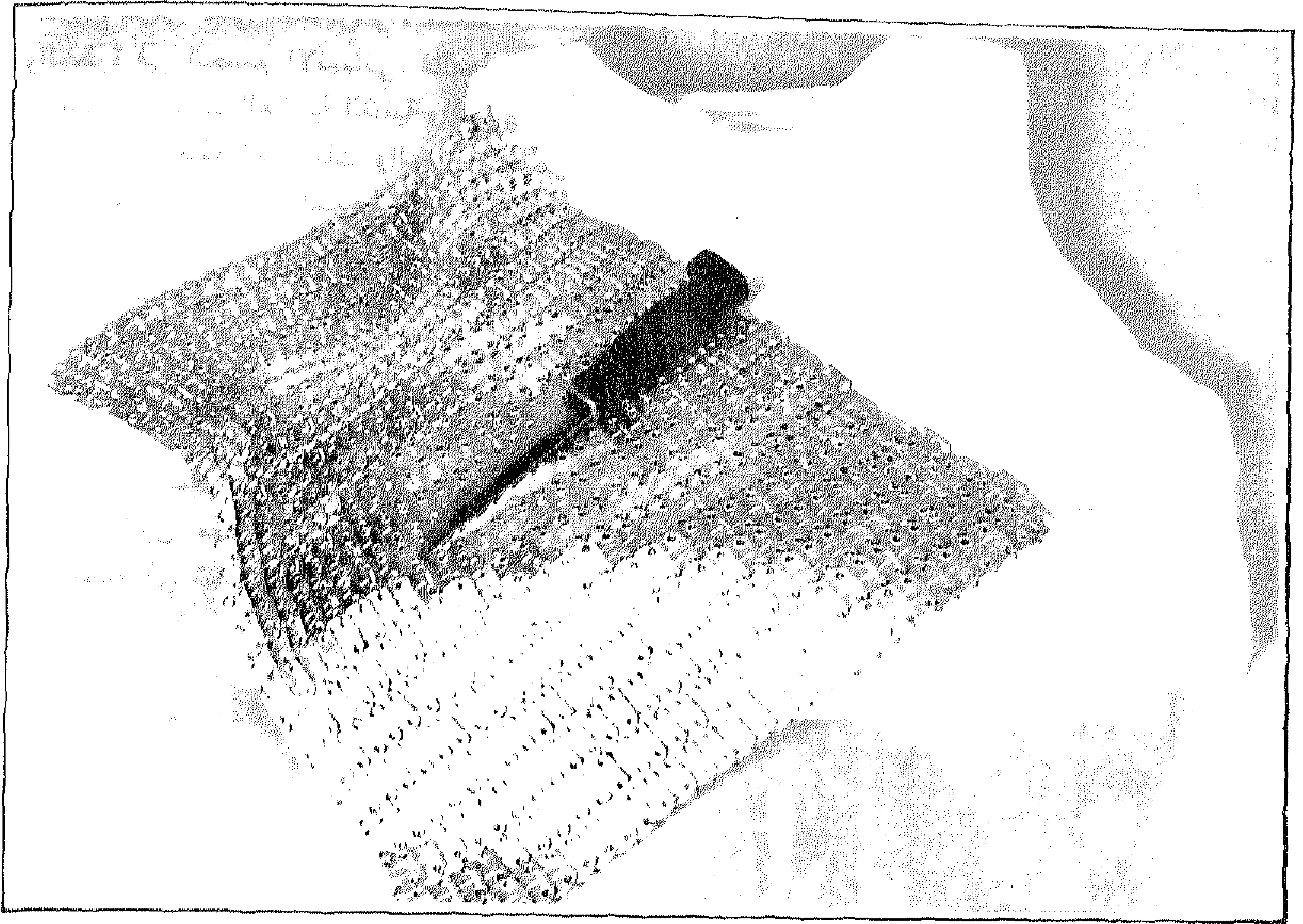
الدروع مركزاً على الاماكن والاعضاء الحساسة والخطرة في الجسم الانساني. فالمعلومات التي جمعت من الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية أظهرت أن معظم الاصابات والجروح جاءت في منطقة الصدر والبطن والحوض حيث القلب والرئة، والكبد والشرايين الاساسية، ولهذا فإن درعاً بحجم قدم مربع واحد على الاقل من الامام والخلف يؤمن حماية بنسبة ٧٥٪ من الاصابات الخطرة، شرط أن تكون المواد المستعملة قادرة على وقف معظم انواع الطلقات المستعملة. ونشير هنا إلى أن السترات المضادة للرصاص هي على نوعين: الأول مضاد للرصاص ذات السرعة المنخفضة أي تحت ١١٠٠ قدم بالثانية.

وعادة تتألف هذه السترات من مادة الكفلار المرصوص وتختلف في قدرتها على رد الطلقات حسب عدد الطبقات المستعملة من الكفلار. أما النوع الاخر فهو الذي يقاوم الطلقات ذات السرعة العالية وتتألف هذه السترات من الكفلار المرصوص وتركب عليه الواح السيراميك، أو الفيبرغلاس، أو الهكسهارد وغيرها من المواد.

إن التجارب الاولية التي وضعت السترات الواقية مجدداً في الخدمة بعد انقطاع لفترة من الزمن، كانت في الحرب العالمية الثانية وبشكل ضئيل جداً ولم تكن المحاولات ناجحة واستمرت الابحاث إلى أن تمت تجربة أول نوع من هذه السترات في الحرب الكورية قرب نهايتها، ثم وضعت هذه السترات في الخدمة الفعلية في الحرب الفيتنامية وكانت كافة السترات من النوع المقاوم لشظايا القنابل أو الصواريخ ولم تكن مصممة لصد الطلقات النارية. وتعرف هذه السترات بسترات الـ «Flak Jacket» ومنذ ذلك الحين بدأ التطوير الفعلي والجدي لجميع انواع السترات الواقية، فالحرب الفيتنامية علمت صانعي هذه السترات دروساً جديدة واعطتهم رؤية واضحة لكيفية صناعة هذه الدروع بشكل فعال أكثر، فتلك الحرب أظهرت ضرورة وجود سترات قادرة على مقاومة طلقات البنادق السريعة من ١٨٠٠ إلى ٣٦٠٠ قدم/ ثانية وحتى الان أفضل ما توصل إليه الخبراء في هذا المجال هو درع السيراميك المدعم



□ نموذج لدرع الصفائح المعدنية الذي يكسو الجسم بالكامل، وهذا يعطي حماية كافية من جميع الاخطار ومصمم بطريقة لا تعيق حركة المحارب. صنع في مدينة أوغسبرغ في المانيا الغربية.



□ سترة من الكفلار والتيتانيم تمنع اختراق الشظايا والسكاكين.

بالفيبر غلاس وهذا الدرع يشكل مانعاً ثابتاً لكافة انواع الطلقات فعند اصطدام الطلقات النارية بالدروع السيراميك فإنها تنهار فوراً وتتناثر ويمتص الدرع الامامي معظم طاقتها الاندفاعية بينما يمتص الفيبر غلاس المدعم من السيراميك القوة الباقية من طاقتها الاندفاعية، مسبباً لها انهياراً تاماً. وهكذا استطاعت هذه الدروع الجديدة أن تتقدم على الدروع التي استعملت في فيتنام

ويبقى أن نشير هنا إلى آخر نوع من السترات والدروع وهو الصنف الخاص بالمفرقعات والعبوات وهذا النوع من الدروع اقتبس تصميمه عن دروع العصور الوسطى حيث كان الفارس يكسو جسمه من اعلى الرأس حتى قدميه بالحديد مروراً بسواعده، وهذا هو الحال في درع المفرقعات لكن بدل الحديد فإن خبير المفرقعات يكسو جسمه ببذلة كاملة من الكفلار مع لوح من السيراميك على صدره وخوذة ذات زجاج مصفح ونظام تنفس بالاوكسجين ويضاف إلى هذه البزلة من الكفلار مواد مانعة للاحتراق ويمكن لهذه السترات أو البذلة الكاملة ان تحمي خبير المفرقعات من اخطار انفجار الشحنات الناسفة بين يديه، وذلك بالطبع حسب قوة هذه الشحنات، إذ ان هذه البذلة مصممة لتفادي اخطار الشحنات الخفيفة.

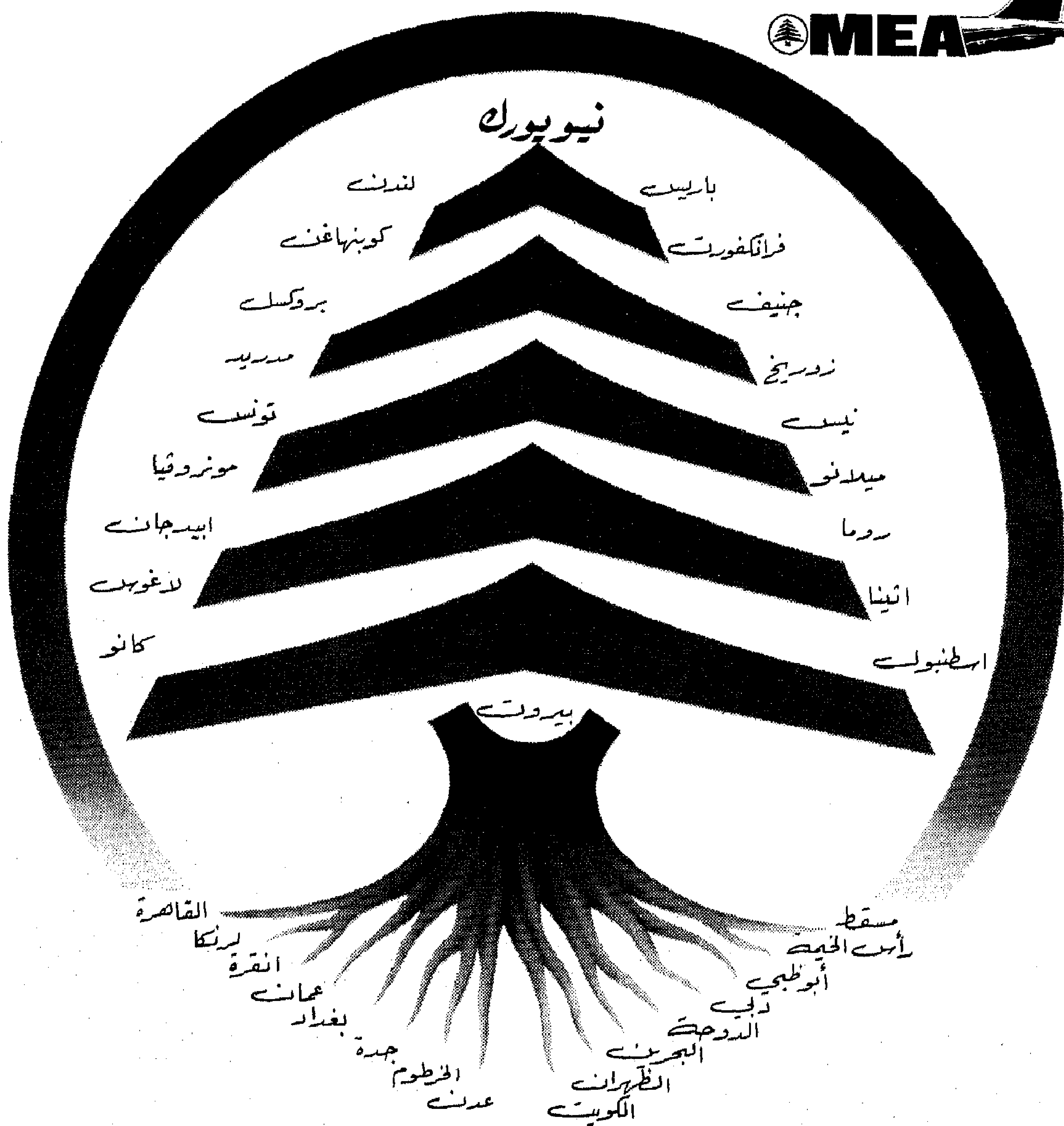
وهكذا يبقى السباق جارياً بين الدروع والسلاح وصانعيها فكل واحد يحاول استباق الاخر وكلما تطورت الاسلحة من السهام والرماح إلى الرصاص والقنابل، وتطورت معها الدروع، وغداً يصبح الرصاص من مخلفات الماضي وتحل محله اسلحة الليزر وبذلك يتوجب على صانعي السترات اختراع ما هو مناسب لمقاومة السلاح الجديد سلاح المستقبل ومواجهته بدرع المستقبل، وحتى ذلك الحين تبقى دروع اليوم الوسيلة الوحيدة لمواجهة اسلحة اليوم ورد خطرها عن اجسامنا إلى اقصى درجة ممكنة ويبقى الدرع فاصلاً بين الموت والحياة. ●

موطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

جذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا




من أعلام الخليج العربي
أحمد بن ماجد
خالد بن محمد القاسمي

لقد بزغ فجر عصر جديد مجيد في تاريخ العرب في منتصف القرن السابع الميلادي بعد أن أصبح للعرب المسلمين خلال مائة عام من وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم دولة مترامية الأطراف، وأصبحت لهم السيطرة البحرية على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

وأسس العرب المسلمون أيضاً مراكز عربية في أنحاء شتى من قارة آسيا مثل (كنكان) وساحل «الملبار» و «كرومندل» وجزائر «ملديف» و «سيلان» وامتد نشاطهم التجاري حتى شمل جزر «اندمان» وجزر «نيكوبار» وساحل «أركان» والملايو وسومطرة وجاوة ومع هذا النشاط التجاري انتشر الإسلام هناك.

وكانت الملاحة العربية صوب الشمال أو الجنوب تعتمد على اتجاه الرياح الموسمية وكانت عسيرة على وجه خاص حول جزيرة سيلان فالطقس هناك متقلب، والأعاصير هوج ولكن الملاحين العرب تخطوا تلك الصعاب الطبيعية فاخترعوا البوصلة والاصطرلاب فيما اخترعوا وألف الكتاب المسلمون كتباً في وصف الأرض والبحار والأنهار والبحيرات والأفلاك والنجوم، ونظموا في كل هذا الشعر أحياناً، ومن هؤلاء الكتاب السرخسي وابن خرداذبه وسليمان السيرافي وابن رستة وأبو دلب مسعر بن المهلهل الخزرجي والمسعودي والمقدسي وأبو حامد الغرناطي وابن جبير والقزويني وابن بطوطة والدمشقي والنويري والعمري وسليمان بن أحمد بن سليمان المهري، وأخيراً وليس بآخر ابن ماجد.



عاش شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي ــ أو النجدي ــ في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) ولقد ترك لنا مؤلفاته العلمية عن البحر وفن الملاحة في شكل مخطوطات هى الان في باريس وفينا ولننجراد ودمشق وجدة والموصل ويبرز من هذه المؤلفات كتابه (الفوائد في اصول علم البحر والقواعد)..

كان الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدى بن أبى الركائب النجدي يكنى بحاج الحرمين الشريفين والمعلم العربي وناظم القبلتين (مكة وبيت المقدس) شهاب الدنيا والدين أسد البحر ليث الليوث. وكان قد أطلع على مؤلفات الملاحين العرب الذين عاشوا منذ ظهور الإسلام حتى عصره والذين كانوا في اسفارهم يساحلون البر فحسب وكان أبوه «ربان البرين» أي بر العرب وبر العجم ــ كما كان جده من معالمة البحر المشهورين وقد حفز أبن ماجد إلى تأليف كتابه «الفوائد» خوفه من (أن يدركه الموت ونوادر الحكم في القلوب) كما يقول.

لم يرد تاريخ ميلاد أبن ماجد في مؤلفاته وأراجيزه ولم يذكر الملاحون العرب تاريخ وفاته ولكن العالم المصري الدكتور أنور عبد العليم استطاع تحديده على وجه التقريب فيما بين عامي ٨٣٥ و٨٤٠هـ وذلك من احدى قصائده المسماة «ضريبة الضرائب» التي نظمها وعمره يربو على الستين قليلاً وكان ذلك في عام ٩٠٠هـ (١٤٩٤ ــ ١٤٩٥م) ومعنى ذلك أن أبن ماجد ولد حوالي عام ٨٣٨ هـ في جلفار في عمان ــ ويرجح أنه عاش حتى سن السبعين وقد فرغ من تأليف كتابه «الفوائد» في حوالي عام ٨٩٥ هـ عندما كان عمره سبعاً وخمسين سنة. ونعلم منه أنه يقود السفن وهو في السابعة عشرة من عمره وقبل ذلك كان أبوه يصطحبه عند قيادته السفن وهو في سن العاشرة. وعلى الرغم من بلوغه سن الستين كان نشيطاً كما كان مولعاً بحرفته وكان ورعاً تقياً يبدأ سفره دائماً بالصلاة، وكان دوماً يحث الملاحين على الطهارة والعفة والامانة.

وكان ابن ماجد ــ فوق خبرته العظيمة بأعالي البحار ــ واسع الثقافة فقد قرأ أشعار الشعراء الجاهليين وغيرهم وكتب الشعر أيضاً، واطلع على ما كتبه (معالمة البحر) وكان يعرف اللغات الاجنبية مثل السنسكريتية والسواحلية والفارسية وكان يتقن اللغة الفارسية على وجه خاص محادثة وكتابة بفضل صلاته بمعالمة الخليج (الفارسي) في أثناء اقامته في جلفار. وكانت ثقته بنفسه عظيمة إذ كان يلقب نفسه برابع الليوث أو رابع الثلاثة.

قال في احدى أراجيزه:

والقوا سلاح الجهل لما تحققوا
مقالى في عرب وعجم وديلم
بقولي رابع لثلاثة
فحق لحسادي تموت وتغتم
بوادر علم البحر عني تفرعت
وخير صفات البحر تصدر من فمي

قام فاسكودى جاما برحلة للوصول إلى الهند في عهد الملك (مانويل) الثاني (١٤٩٥ ــ ١٥٢١م) وكانت سفنه أو (أغربته) ثلاثاً أو أربعاً تحمل أسماء قديسين وكان عليها مائة وخمسون بحاراً بدأ رحلته من البرتغال يوم ٢٥ مارس سنة ١٤٩٧م. وأبحر بمحاذاة ساحل افريقية حتى بلغ رأس الرجاء الصالح يوم ٢٢ نوفمبر من السنة ذاتها. وبعد أن اغرقت العواصف أحدى سفنه في يناير من عام ١٤٩٨م وصل إلى ثغر (ماليندي) في مملكة (كامبيا) «الان كينيا» في شهر مارس من عام ١٤٩٨م وطلب دى جاما من ملك ماليندى أن يدله على دليل يرشده إلى طريق الهند البحري فأرسل إليه (رباناً مسلماً) من «جوزرات» يسمى المعلم كاناكا وقد دهش دى جاما من معلومات هذا الربان العربي المسلم خاصة عندما أطلعه على خرائط وآلات عربية لرصد النجوم، وكان الربان ابن ماجد. وأبحر الاثنان يوم الثلاثاء ٢٤ ابريل سنة ١٤٩٨م متوجهين إلى (قليقوت).

وبعد عام من عودة دى جاما من الهند أرسل البرتغال حملة بقيادة (ديوجوديان) نزلت في جزيرة مدغشقر يوم ١٠ أغسطس سنة ١٥٠٠م ثم توالت حملات البرتغال الاستعمارية على الساحل الافريقي وعمان والخليج العربي والهند وسلبوا ونهبوا سفن المسلمين كما يروي ابن ماجد نفسه في أرجوزته (السفالية).

الف ابن ماجد الكثير من التآليف في فنون الملاحة، وقد بلغت في رأي بعض الباحثين اربعين، وفي رأي البعض الاخر ثلاثين. ولكن بعضها فقد. أما مؤلفاته المعروفة الان فهي:

١ ــ كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد: مقدمة وأثنى عشر فصلاً أو (فائدة) الفه وصنفه لركاب البحر ورؤسائه وانتهى من تأليفه في عام ٨٩٥هـ ويشدد في «المقدمه» على اهمية هذا العلم الذي به يمكن للانسان تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط كما يمكنه أن يكسب عيشه من البحر وأن يركبه مطمئناً.

وفي «الفائدة الاولى» يذكر تاريخ تطوير علوم البحر على أيدي الربابنة ويقول متواضعا أنه رابع الثلاثة ولكنه يبزهم...ويقول: «وقد وقرتهم بقولي اني رابعهم لتقدمهم في الهجرة فقط وسيأتي بعد موتي زمان ورجال يعرفون لكل واحد منا منزلته...».

وفي الفائدة الثانية» يلخص المعلومات والارشادات الضرورية للربان.

وفي «الفائدة الثالثة» يذكر للمنازل الفلكية والنجوم الملاحية.

وفي «الفائدة الرابعة» يذكر نجوماً وصوراً معينة ذات بروج ودرجات ودقائق ومجال طول وعرض وجهة وبعد..

وفي «الفائدة الخامسة» يعدد المراجع الفنية التي ينبغي لمعالمة البحر قراءتها جيداً وهى في الجغرافية الوصفية والفلكية والرياضية.

ويتناول في «الفائدة السادسة» بيت الابرة التي تسمى السمكة وسمكة الحقة ويقول فيها: «وأعلم أن للبحر عللاً فأحذر منها أولها نوم المعلم.. والحذر كل الحذر من صاحب السكان (أي دفة السفينة) لا يغفل عنه فأنه أكبر أعدائك.. وما صنفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لي خمسون سنة وما تركت صاحب السكان وحده الا أن أكون على رأسه أو من



□ خريطة العالم للإدريسي

يقوم مقامي».

ويتكلم في «الفائدة السابعة» عن (الباشيات) أي ارتفاع نجم بالنسبة إلى النجم القطبي – الحاه – وهو على أقل ارتفاع فوق الأفق والقياسات: ويوصي بالتدقيق في قياس ارتفاع النجم قائلاً: «فإني لم أترك في السماء نجماً إلا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته». ويقول: «فقياسات بحر قلزم العرب وبر الملل (أي الساحل) فيما يلي العجم وبر العرب لم يحوزها في زماني غيري».

وفي «الفائدة الثامنة» ينصح الربان الماهر بأن يتفقد خلل السفينة وهي على البر لم تنزل إلى البحر وخاصة مكان وضع البوصلة وبأن يستخدم البوصلة.

وفي «الفائدة التاسعة» وصف للسواحل: الساحل العربي والافريقي والبحر الأحمر من باب المندب إلى القصير والسويس، والبحر الرومي أي البحر الابيض المتوسط

وفي «الفائدة العاشرة» وصف للجزر الكبار المشهودات المعمورات ولا سيما جزيرة العرب وجزيرة القمر أي جزيرة مدغشقر وجزيرة شمطرة (سومطرة) وجزيرة الغور وجزيرة سيلان وجزيرة زنجبار وجزيرة البحرين وجزيرة أبن جاوان أو برخت وجزيرة سقطرة.

وفي «الفائدة الحادية عشر» ذكر لمواسم السفر من مختلف السواحل حسب مواسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر وعن البحر الاحمر يقول: «وخير السفر في البحر الذي في الاقاليم الشمالية في الماية ومن مسك اليمن مسك الحجاز لان بحر القلزم العربي لم ينغلق (يقفل) خصوصاً على المراكب المعتدة (القوية) ».

وفي «الفائدة الثانية عشر» يصف البحر الاحمر وجزره وشعابه المرجانية في عشرين صفحة، ويذكر المسافات بين المراسي المختلفة.. ويتكلم عن طبيعة قاع بعض الاماكن ويحذر من خطر الشعاب.

٢ ــ حاوية الاختصار في أصول علم البحار: وهي مؤلفة بالشعر من بحر الرجز في ستين صفحة وتقع في أحد عشر فصلاً ألفها ابن ماجد في عام ٨٦٦هـ (١٤٩٢م). ويذكر مثلاً في الفصل الاول اشارات تعين الربابنة على ادراك اقترابهم من البر كالطين والحشيش والبلد وحيوان الماء ولا سيما الحيات السامة المشهورة على ساحل الهند.

وبالاضافة إلى هذين الكتابين ألف ابن ماجد أراجيز منها الطويل ومنها القصير لتكون أيضاً مرشداً ملاحياً إلى طرق الملاحة ومنها «أرجوزة قبلة الإسلام في جميع الدنيا» التي ألفها في عام ٨٩٣هـ (١٤٨٨م) و «أرجوزة كنز المعالمة وذخيرتهم» في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها ألفها قبل عام ٩٠٠هـ و «الأرجوزة المنسوبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه» في معرفة المنازل وحقيقتها في السماء وأشكالها وعددها على التمام والكمال، القصيدة المكية وهي من مكة لجده إلى فرتك لكالكوت ودابول ككنكن وجوزرات والاطواح وهرامين، و «الارجوزة السفالية» (نسبة إلى سفالة على الساحل الافريقي) في معرفة المجاري والقياسات من مليبار وكنكن وجوزرات والسند والاطواح إلى السيف الطويل

العلوم البحرية يقول ابن ماجد، إن الناس تعلموا صناعة السفن على سواحل البحر وإن، أول ما سير المرء السفينة كان في الخلجان والاماكن المحمية وذلك قبل أن يخرج إلى عرض البحر ويؤكد ضرورة معاينة مكان البوصلة وادوات الملاحة مثل المرشد الملاحي (أو الراهبانج) والحقة والفانوس وآلة سبر الاعماق وأدوات القياس لرصد ارتفاع النجوم، كما يؤكد وجوب ملاحظة صاحب السكان وصون السفينة من كل خلل.

ولا ينسى ابن ماجد الصفات الانسانية في الربان والخلق المتين والعلم بالفنون الملاحية ومداومة التحصيل منها. فيقول عن علم البحر: «فأنه علم نفيس ولا يتم إلا بتمام العمر وما لا يدرك كله لا يترك كله وينبغي أن لا يتكبر فيه الإنسان».

لم يقتصر الاهتمام بحياة ابن ماجد وأمجاده البحرية على العلماء العلميين المحدثين فحسب بل كان للكتاب والادباء نصيب في اجلاء فضائله ومنهم الأديب رشدي صالح. فقد استحوذت عليه حياة ابن ماجد وأعماله وعصره، فكتب قصة طويلة عن حياته. يقول في خاتمتها: «وهل يحسن بنا أن نقول شيئاً ونحن نقرأ ما حدث لشهاب الدين..؟ أن نقرأ الفاتحة كلما اقتربنا من البحر.. أو سافرنا على سطحه وأن نقول لشهاب الدين: وداعاً أو نقول له إلى اللقاء».

كان الملاحون من أهل عدن يقرأون له الفاتحة كما طلب في أراجيزه كلما خرجوا إلى عرض البحر وفي الحاوية يطلب ابن ماجد ممن يقرأ كتبه أن يتلو له الفاتحة وسورة الاخلاص:

«اسأل الرحمن يا معواني
إذا تلوت النظم والمعاني
اقرا لي الحمد مع الاخلاص
تنفعني في العرض والإخلاص».

المراجع:

(١) حسن صالح شهاب: طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي ــ قسم الجغرافيا، جامعة الكويت، ١٩٨٣.
(٢) خالد سالم محمد: ربابنة الخليج العربي ومصنفاتهم الملاحية، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢.
(٣) حسن صالح شهاب: علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامي، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، ١٩٨٤.
(٤) د. عبدالأمير محمد أمين: القوى البحرية في الخليج العربي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٦.
(٥) حسين ندا حسين: الأهمية الاستراتيجية والنظام القانوني للطريق الملاحي البحري في الخليج العربي، دار الحرية للطباعة، بغداد: ١٩٨٠.
(٦) د. عبدالعزيز صالح: الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية، الأصدار الخاصة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت: ١٩٨١.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

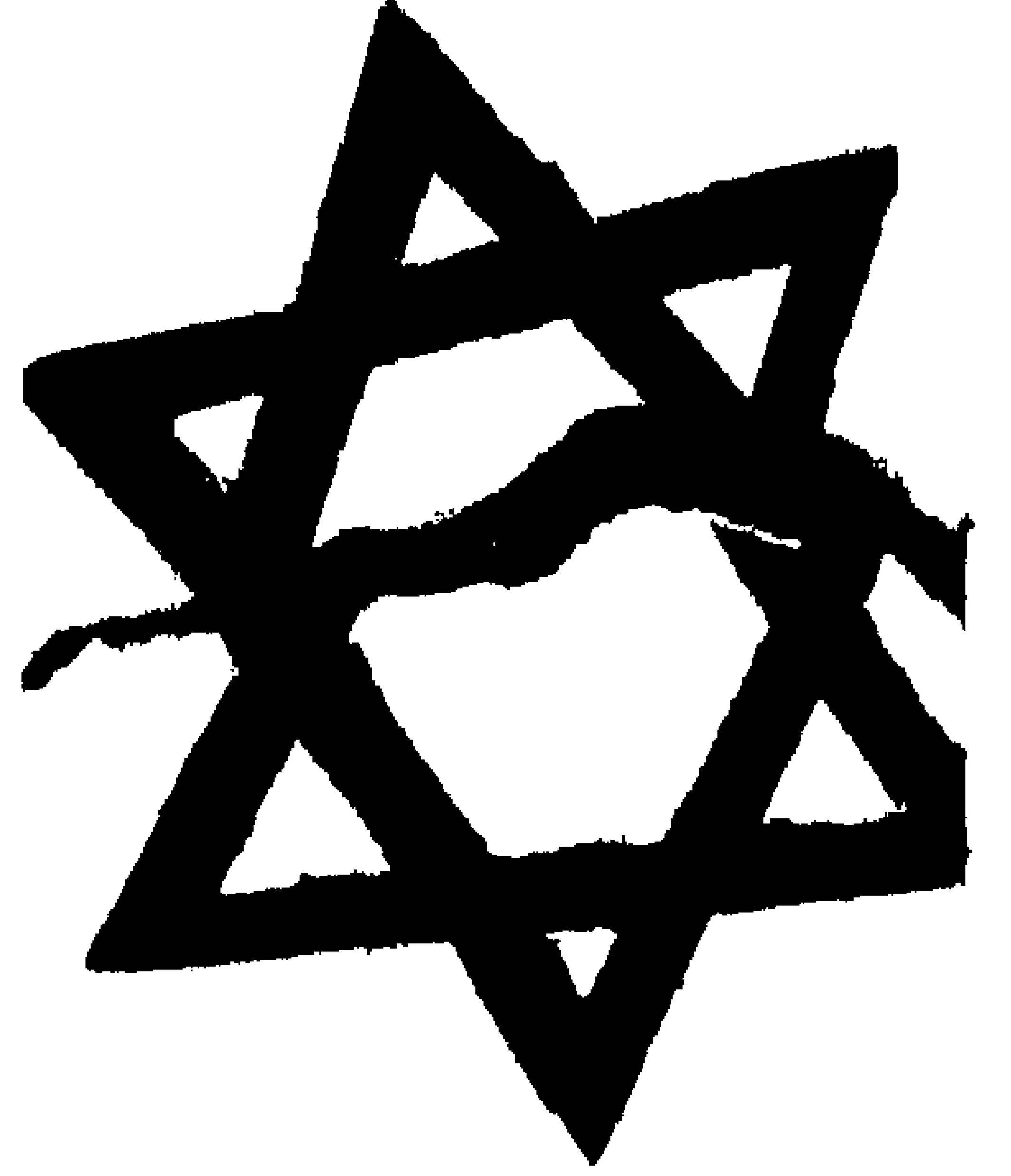


الاشتراكات

- في لبنان .... ١٠ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي......... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



الإعلام الصهيوني أطروحات ومواقف

إصـــدار

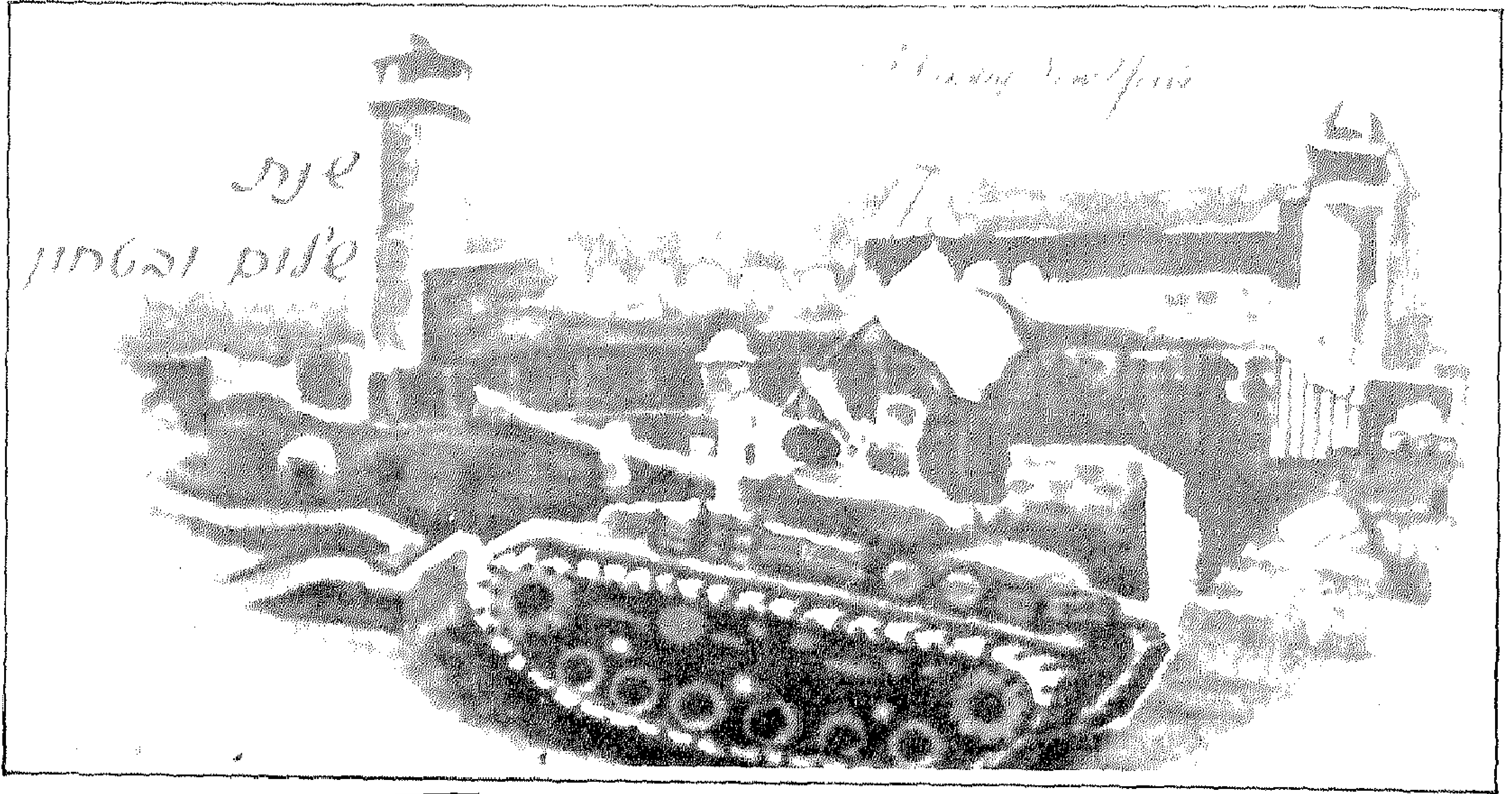
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

إن الصهيونية أكثر من أي ظاهرة سياسية أو فكرية أخـرى، هي سلعة إعلامية صنعها الإعلام، ابتداء من أسطورة، استغلها بدهاء ومعرفة ومثابرة، وطوع لها كل الظروف الفكرية والاجتماعية، واستطاع أن يؤولها ويقدمها على كل مستوى، في كل وقت، بالصورة المناسبة له، وأن يسخر مواقع إنتاج الأفكار وصناعة الراي العام، واتخاذ القرارات لخدمة مصالحه، وهكذا تغلغل في الجامعات ومراكز البحوث العلمية ودور النشر، وصناعة السينمـا، ووكالات الأنبـاء، والمصارف والشركات متعددة الجنسية، جنباً إلى جنب مع التغلغل في الأحزاب، والهيئات التشريعية والجمعيات الخيرية المحلية والعالمية، والمنظمات الرياضية، والاتحادات الفنية... وكل ذلك في تنسيق وثيق بين التنظيمات الصهيونية المحلية والإقليمية والعالمية، مما أدى إلى أن يكون كل فرد منها، في أي مكان وفي أي موقع، وفي كل وقت مسيساً مسؤولاً، يدعو ويعمل ويقاوم ويصمد.

إن هذه حقيقة، وإن استيعابها وتحليلها، والتصدي لها، إنما هو بداية الطريق إلى تركيز سياسة إعلامية عربية فعالة. وإن العرب لعلى ذلك قادرون، على الرغم من ضخامة المسؤولية، وما تتطلبه من إعداد وتنسيق، وعطاء ومثابرة.

هكذا صدر الدكتور محيـي الدين صابر المدير العام، الكتاب المرجعي الهام الصادر مؤخراً بعنوان: «الإعلام الصهيوني، اطروحات ومواقف» وهو نتاج جهد دؤوب بين المنظمة العربية والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.



□ بطاقة معايدة اسرائيلية بمناسبة رأس السنة، وهي وسيلة من وسائل الاعلام الصهيوني.

هذا الكتاب هو حصيلة ثرية لندوة الاعلام الصهيوني ومتطلبات المواجهة العربية التي عقدت في شهر مايو من السنة الماضية، وكانت تلك الندوة الخطوة الاولى على الطريق الطويل متمثلة في مهمة مزدوجة: تحليل منطلقات ومضامين واساليب ووسائل الاعلام الصهيوني وتحديد أشكال مجابهته فلسفة واتجاهاً ووسائل وأدوات وتنظيماً، فضلاً عن التنسيق في هذا المجال بين المؤسسات القطرية والقومية والعالمية.

لقد شارك في وضع هذا الكتاب الضخم عدد بارز من الخبراء والمختصين من العرب وغيرهم، وقد توزعت هذه المشاركات على أربعة ابواب عالجت الايديولوجية الصهيونية والاعلام من زاوية نقدية والتوجهات الجديدة للاعلام الصهيوني، وهذا الاخير والقضية الفلسطينية ثم موقف الاعلام الصهيوني من القضايا السياسية الراهنة.

وقد أسهم في هذا الكتاب الدكتور مجدي حماد الذي قدم لهذه البحوث باطار عام للاعلام الصهيوني والدكاترة ڤولتر هولشتابي، وفلاديمير جرانوف، ونافع الحسن ومحمد ربيع وجانس تيري وبشير نجم وبديعة امين وسلامة حجازي وحسين العودات وعبد الملك عودة.

وقد اعد مادة الكتاب للنشر الدكتور مجدي حماد وراجعها وأشرف عليها زكي الجابر وتوفيق فياض.

الاطار العام للاعلام الصهيوني

حدد الدكتور مجدي حماد الاطار العام الصهيوني، فبين ان هذا الاخير من رحم «الايديولوجية الصهيونية» واستمد منها كل محتويات خطابه السياسي وهذه هي اولى الحقائق في دراسة الاعلام الصهيوني، وتحديد «متطلبات المواجهة العربية» فالاعلام الصهيوني هو اولاً واخيراً اعلام ايديولوجي موجه ومن نوع خاص فإلى جانب امتلاكه بياناً واضحاً بالاهداف، فهو مفعم بالاساطير الغربية، وينهل من التوراة كيفما شاء كل ما يحتاجه من اسلحة وتبريرات وصور ورموز لتحقيق اهدافه وتبرز الدولة الصهيونية كنموذج صارخ لتوظيف الايديولوجية في خدمة السياسة العنصرية والعدوانية وتبريرها، وتحوير الاهداف والمصالح الحقيقية، حيث جرى احلال الخرافات والاساطير والاختلافات محل حقائق التاريخ وقوانين التطور التاريخي والموضوعي.

ولقد شكل قيام الدولة الصهيونية، نقطة تحول في مسيرة الاعلام الصهيوني، فإذا كانت الايديولوجية الصهيونية، «بلا وطن» في الماضي،

فقد اصبحت لها الان دولة تلاحقها منذ البداية «أزمة شرعية» بالغة الحدة على كافة المستويات ومن ثم قام أرباب صناعة الاعلام الصهيوني باعادة انتاجه وتطويره ليتلاءم مع الظروف والمتطلبات الجديدة. ورغم وجود الدولة، باعتبارها المركز الموجه للاعلام الصهيوني، إلا ان ذلك الاعلام يتميز بكونه اعلاماً متحرراً من القيود البيروقراطية وموجهاً تلقائياً من الايديولوجية الصهيونية العنصرية العدوانية ومشبعاً بها، فالدولة الصهيونية تكاد تكون من الدول النادرة في العالم التي تقوم فيها وزارة للاعلام. ويقوم الاعلام فيها على «قاعدة مثلثة» في كل زاوية منها مؤسسة رسمية يستمد منها التوجهات والمعلومات، وهي مكتب رئيس الوزراء، ووزارة الخارجية، والناطق الرسمي بلسان الجيش، وهذه المؤسسات توجه نوعين من الاعلام ، اعلام للداخل واعلام للخارج، وفي اطارهما هناك اعلام موجه للجمهور العبري والجاليات اليهودية واعلام موجه للشعوب العربية ومن ضمنها الشعب الفلسطيني، على شكل دعاية ودعاية مضادة وحرب نفسية وإعلام موجه للراي العام العالمي.

إن هذه «الخصوصية» التي يتسم بها الاعلام الصهيوني باعتباره وليد الايديولوجية الصهيونية تقودنا إلى حقيقة اخرى ربما تعتبر أكثر اهمية في دراسة الاعلام الصهيوني، وتحديد متطلبات المواجهة العربية وتنصرف إلى ان الايديولوجية الصهيونية بدورها تعتبر وليدة أكبر جريمة استعمارية استيطانية في العصر الحديث، تلك الجريمة التي تبلورت خطوطها في المؤتمر الصهيوني الاول الذي انعقد في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ واكتملت ملامحها بعملية الغزو الاستعماري الاستيطاني لارض فلسطين حتى تم اعلان قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨.

ولذلك فإن الصفة الاساسية للكيان الاجتماعي الصهيوني القائم في دولة اسرائيل، والتي يمكن اعتبارها مفتاحاً لفهم العديد من اوضاعه الاقتصادية الاجتماعية فضلاً عن تفاعلاته السياسية الداخلية والخارجية، تتمثل في انه تكوين استيطاني تبلور في اطار المفاهيم الاستعمارية ذات الطابع العنصري ومعنى ذلك ان الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية هي المتغير الاصيل في الكيان الصهيوني، وهي التي تحدد جوهر النظام السياسي السائد فيه وخصائصه وتفاعلاته ويتفرع عن ذلك ثلاث نتائج مترابطة:

أولها: ان التناقض الاساسي في ذلك الكيان يتمثل في التناقض بين القوى الصهيونية والشعب الفلسطيني.

ثانيهما: شيوع نوع من الانفصام والازدواجية على مستوى النظام السياسي والنظام الاقليمي.

وثالثها: ان هناك رابطة عضوية بين اسرائيل والقوى الاستعمارية الكبرى.

وبالتالي يمكن القول ان الكيان الصهيوني في فلسطين هو صنيعة تلك الايديولوجية الصهيونية وان اسرائيل تعتبر بمثابة «كيان مخطط» نشأ وتطور حسب تصورات الفكرة الصهيونية.

ويرى الدكتور مجدي حماد ان أهمية دور الايديولوجية الصهيونية يعود إلى عدة اعتبارات:

أولها: ان اسرائيل لم تعرف منذ قيامها أية ايديولوجية مضادة «للايديولوجية الصهيونية السائدة. فأفكار ما يعرف بقوى الرفض لا تعبر عن الايديولوجية واحدة كما ان نطاق تأثيرها ما زال محدوداً للغاية، ولذلك فإن وجود الايديولوجية السائدة دون تحد ملموس جعلها اداة مؤثرة لتوجيه وضبط السلوك السياسي والاجتماعي.

وثانيهما: ان الصهيونية قد تضمنت مجموعة من المفاهيم «المثيلوجية» وفي مقدمتها أفكار «الشعب المختار» و «أرض الميعاد» و «الخلاص» وهي عادة ما تتسم، شأن المفاهيم المثيلوجية عامة، بقوة التأثير والرسوخ.

وثالثها: استمرارية وجود النخبة السياسية التي ارتبطت بالايديولوجية الصهيونية، خاصة إذا وضع في الاعتبار ان البناء الايديولوجي الثقافي يتيح أمام تلك النخبة قدرتين أساسيتين في التحكم والضبط الاجتماعي: من ناحية أولى — ما يسبغه هذا البناء الايديولوجي الثقافي على النخبة من سمات «الكاريزمية» ويعطيها من اسباب القوة ما يجعل من الصعب على فئات اخرى ان تنشق عليها. من ناحية ثانية، ان هذا البناء هو الذي يهيء توصيل توجيهات ومفاهيم

تلك النخبة من خلال عملية التنشئة على نطاق قومي شامل.

ويلاحظ الباحث انه إذا كانت الايديولوجية الصهيونية هي محصلة للتفاعل بين هذه النظم العقائدية الست، إلا ان هذه النظم ليست متكافئة من حيث الوزن أو الاهمية، ويمكن القول ان الجوهر الاساسي للصهيونية يتكون من ثلاثة نظم عقائدية متكاملة: أولها، المفاهيم الدينية، وثانيهما، الفكرة القومية، وثالثها، العنصرية السياسية.

ويرى الباحث ان أبرز المقولات التي تبناها الاعلام الصهيوني كأساس لتبرير «شرعية» اغتصاب فلسطين وبناء دولة للمستعمرين الغزاة على أرضها و «شرعية» ممارسة أقصى درجات العنف والارهاب في محاولة لابادة شعبها فضلاً عن «شرعية» فرض نظام متكامل من القمع والعنصرية على من خضع من هذا الشعب للاحتلال الصهيوني هي: مبدأ العودة إلى «أرض الميعاد»، ومفهوم الرسالة الحضارية، وقيم الريادة والانجاز، ومبدأ حق تقرير المصير، وحق الفتح واعتبارات الامن القومي، واشاعة وهم الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط.

وعلى ضوء هذه المقولات الاساسية التي يتبناها الاعلام الصهيوني، يمكن القول ان الخروج من «العزلة» السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها اسرائيل نتيجة لاصرارها على اسباغ «الشرعية» على عملية اغتصاب وطن وتشريد شعب واتباع سياسة عنصرية وعدوانية وتوسيعية في المنطقة ــ يشكل في النهاية الغاية الرئيسية لنشاطات اسرائيل وعلى رأسها السياسة الخارجية.

وعلى ضوء هذا الاطار العام للاعلام الصهيوني، جرى تبويب الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب وتحديد ابوابه وفصوله، حيث قسم الكتاب إلى أربعة ابواب تتضمن عشرة فصول بالاضافة إلى المقدمة والخاتمة.

يتضمن الباب الاول وعنوانه «الايديولوجية الصهيونية والاعلام.. نظرة تقدمية» دراسة تحليلية للايديولوجية الصهيونية وبنيتها الرجعية والتطور التاريخي لها وذلك كله من المنظور الاعلامي. ولقد اشتمل الفصل الأول: «الايديولوجية الصهيونية.. الاسطورة والواقع» على اختيار لخمسة «أساطير» أساسية تتبناها الصهيونية على ضوء الواقع القائم في المنطقة: أولاها الانسانية الصهيونية، وثانيتها ــ فكرة الضحية، وثالثتها ــ رسالة الرجل اليهودي في تمدين فلسطين، ورابعتها ــ المعجزة الاسرائيلية، وخامستها ــ الوجه المسالم لاسرائيل.. وهكذا يصل إلى القول بأن اسرائيل ابعد من ان تكون قوة سلام، وإنما هي قوة عدوان متواصل وتوسع مستمر. أما الفصل الثاني ــ «الجوهر الرجعي للصهيونية» فهو يقدم دراسة تحليلية للايديولوجية الصهيونية من جهة نظر باحث ينتمي إلى المدرسة السوفيتية التي تربط ما بين الصهيونية والامبريالية العالمية في منظومة عدوانية واحدة. وانطلاقاً من هذا التوجه تنتقل إلى تحديد الوظائف الاساسية لجهاز الدعاية الصهيونية المعاصر الذي تساعده بالقطع حقيقة التغلغل الاعلامي الصهيوني في العالم.

أما الباب الثاني ــ «التوجهات الجديدة للاعلام الصهيوني» فيقدم في الفصل الأول دراسة أساسية عن الدور الجديد الذي أخذ يلعبه الاعلام الصهيوني في مواجهة النجاح الذي حققه الجانب العربي في التأكيد على جدية السعي من اجل السلام، وخاصة بعد اقرار مشروع فاس العربي للسلام، ويتلخص هذا الدور الجديد في العمل على احباط جهود السلام. ولقد تمت دراسة هذا التوجه الاساسي الجديد من خلال استعراض ثلاثة من ابرز التوجهات الاسرائيلية المعاصرة: أولها اتفاقية كامب ديفيد، وثانيها، سياسة المستعمرات وثالثها، الخيار النووي الاسرائيلي واستمراراً لدراسة هذا التوجه العام يركز الفصل الثاني على دراسة حالة تطبيقية للاعلام الصهيوني على الساحة الامريكية خاصة بعد حرب اكتوبر / تشرين الاول عام ١٩٧٣ وما احدثته من تغييرات على الساحة العربية والاسرائيلية. وكذلك تأخذ الدراسة في اعتبارها التأثيرات التي احدثها ظهور المقاومة الفلسطينية كتجسيد لارادة الرفض العربية ــ من ناحية وصعود نفوذ العالم الثالث في الامم المتحدة ــ من ناحية ثانية،

والتغيرات داخل اسرائيل نفسها سواء على مستوى القمع الذي تجري ممارسته ضد الشعب الفلسطيني وعلى مستوى حركات الاحتجاج والرفض الاسرائيلية مثل «حركة السلام الان» في اسرائيل ــ من ناحية ثالثة.

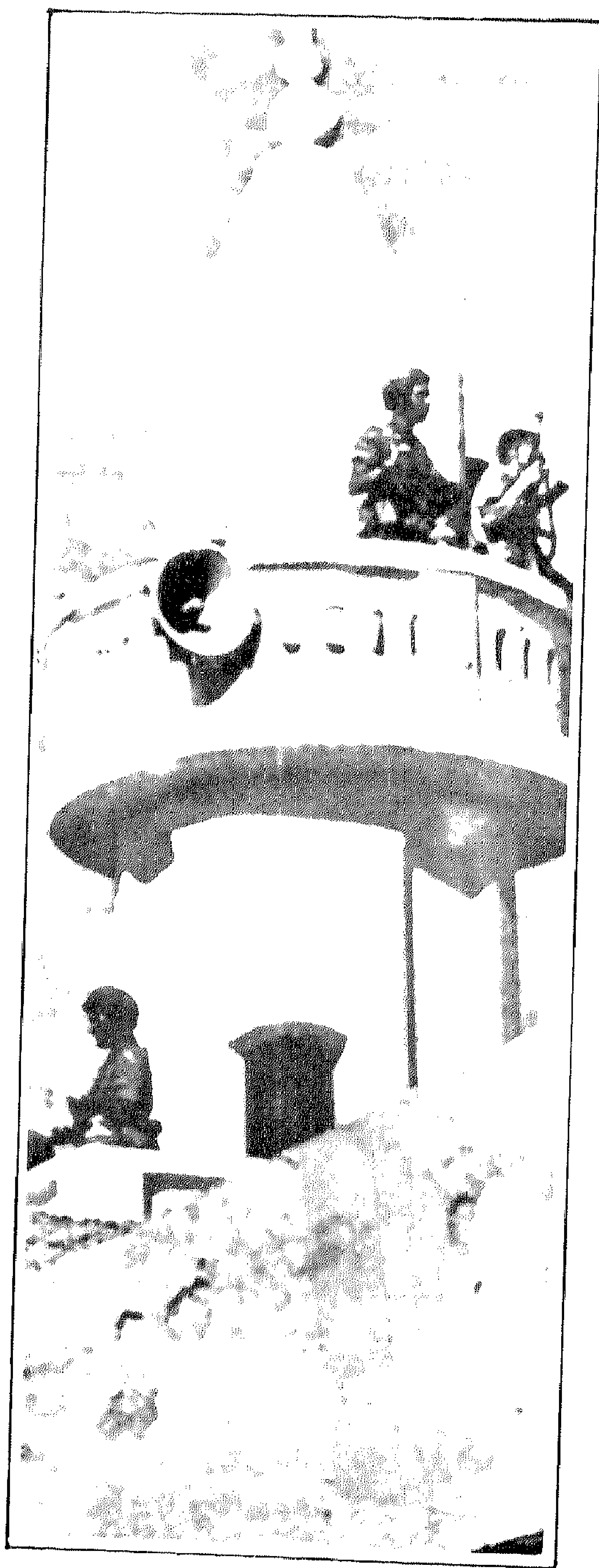
ثم انتقل الباب الثالث «الاعلام الصهيوني والقضية الفلسطينية»: الشعب والأرض إلى استعراض الجوانب المختلفة للصراع الاصلي والجوهري الذي جرى ويجري على أرض فلسطين وهو الصراع الفلسطيني ــ الصهيوني. وهكذا فقد عالج الفصل الاول ــ الصهيونية والفلسطينيون ــ المشكلة التي تفوق الوصف ــ الاتجاهات الصهيونية والاسرائيلية الاساسية تجاه الشعب الفلسطيني وأرض فلسطين من منظور تاريخي. وفي اطار أسس عقائدية مختلفة تتفق حول نقطة واحدة، وهي رفضه الاعتراف بكيان قومي فلسطيني في اعلامها الموجه للداخل والخارج. إلا ان ظهور منظمة التحرير الفلسطينية أرغم القوى الصهيونية في اسرائيل على اجراء نقاش حول الموقف والاتجاهات التي يجب ان تتبع تجاه الفلسطينين، لكن هذه «الادعاءات الصهيونية والاسرائيلية حول فلسطين» ــ وذلك بالاحالة إلى خمسة اسانيد أساسية: أولها ــ يتصل بالوضع الديموجرافي والثاني يرتبط بالمدى الاقليمي وقضية الحدود، والثالث يدور حول السياسة المائية، والرابع يرتكز على مطلب الامن، والخامس يعالج المنظور الديني للادعاءات الصهيونية. ولقد اعتمد هذا الفصل على نفس هذه الاسانيد الخمسة ذاتها لتنفيذ الادعاءات الصهيونية والاسرائيلية على أساس ان العملية لها دائماً وجهان والعبرة بالمصالح والتوجهات التي تحكم النظر إلى احد الوجهين.

كذلك تتضمن الدراسة تفنيداً لعدد آخر من الادعاءات الصهيونية والاسرائيلية، التي تجعل من حقائق التاريخ وابرزها عروبة فلسطين والنزعة التوسعية الاسرائيلية ــ قضايا مطروحة للنقاش. ولا شك ان نجاح الاعلام الصهيوني الاسرائيلي الذي جعل هذه الحقائق ما تزال مفتوحة للنقاش قد اعطى بالفعل مصداقية «الجانب الاخر» وشرعية للكذب.. ثم استعرض الفصل الثالث «موقف الاعلام الصهيوني من الشعب الفلسطيني» هذا الموقف الذي ينطلق من مبدأ نفي وجود الشعب الفلسطيني وانكار حقوقه وتراثه ومؤسساته. وعلى هذا الأساس فقد جاء شعار «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض» بحكم ضرورة اخلاقية بحتة لتبرير عملية لا اخلاقية بالمرة. لانه عندما «اكتشفت» جحافل الاستعمار الصهيوني التي اجتاحت البلاد ان فلسطين لم تكن خالية، وانما كان يسكنها شعب عريق في تاريخه وحضارته ومقومات وجوده فقد أصبحت مهمة هذه الجحافل العمل على الغاء هذه الحقيقة، فكانت حملات الابادة والتشريد والتهجير التي تشكل أكبر مظلمة في القرن العشرين. ولقد هدف الاعلام والادب الصهيونيين في الواقع إلى جعل هذه العملية تتم بدون ألم أو حتى وخز الضمير.

وينتقل الفصل الرابع إلى استعراض «تعامل الاعلام الصهيوني مع قضية فلسطين» انطلاقاً من وجود ثلاثة مستويات لهذا الاعلام، أولها ــ المستوى الفلسطيني (سواء داخل فلسطين المحتلة ١٩٤٨، أو في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧، أو الفلسطينيين في المنفى)، وثانيها ــ المستوى اليهودي، وثالثها ــ المستوى الدولي وتركيز الدراسة بصفة خاصة على تحليل التحول في النهج الاعلامي الصهيوني نتيجة للاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٧٣، وقد جرى هذا التحول الاعلامي ضمن اطار محاولة استيعاب الظاهرة واعطائها مضموناً سياسياً جديداً يتمثل في التأكد على جانب الامن الذي يحول دون اسرائيل والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وعلى ان الأرض هي الوطن البديل لهذا الشعب. وتتابع الدراسة مرحلة صعود الليكود والتمايز الذي حدث على المستوى الاعلامي بين توجهات الاذاعة والتلفزيون كأدوات حكومية والصحافة بتعبيراتها السياسية المختلفة.

أما الباب الرابع «موقف الاعلام الصهيوني من القضايا السياسية الراهنة» فقد انطلق من تحديد أبرز هذه القضايا في قضايا الاحلاف. التسليح حركات التحرر الوطني، التمييز

العنصري، وبالتالي فقد خصص الفصل الاول لاستعراض موقف الاعلام الصهيوني من هذه القضايا الاربع بشكل مباشر. وقد اشارت الدراسة إلى ان الاعلام الصهيوني يؤيد تحالف اسرائيل مع الدول الاستعمارية القديمة والجديدة وخاصة الامبريالية الامريكية كما يشجع تعاون اسرائيل مع حلف شمال الاطلسي تحت شعار حماية أمن اسرائيل أو الوقوف بوجه التهديد العربي أو «الخطر الشيوعي». كذلك يعتمد الاعلام الصهيوني إلى تشجيع سياسة التسلح وبيع السلاح إلى الانظمة القمعية والمستبدة في بلدان العالم الثالث، ويعادي بالتالي حركات التحرر الوطني في أي مكان من العالم. وفضلاً عن ذلك فقد اشارت الدراسة أيضاً إلى دفاع الاعلام الصهيوني عن الفكرة العنصرية. ولقد كانت هذه الفكرة الاخيرة ذاتها محل دراسة تفصيلية. في الفصل الثاني ــ النظام العنصري في جنوب افريقيا وعلاقته بالاعلام الصهيوني ــ وقد اشارت هذه الدراسة إلى ان الأساس في قيام النظام العنصري في جنوب افريقيا وعمله هو انه ظاهرة استعمارية وكيان استيطاني له مقوماته وعقيدته ومؤسساته السياسية والاقتصادية والثقافية والاعلامية وكشفت الثقافة السياسية للكيان الاستيطاني الابيض وحددت الثوابت والاصول في التصورات والمدركات الثقافية والاعلامية. ومن ثم تحدثت الدراسة عن التعاون والتفاعل والتبادل بين اسرائيل وجنوب افريقيا في قطاعات الاعلام والثقافة والاتصال والاقتصاد والسياسة فضلاً عن التعاون العسكري والنووي. وخلصت الدراسة إلى ان هذه العلاقة هي علاقة متميزة لا تتكرر في الحاضر ولن تتكرر في المستقبل، وانها علاقة مريحة وملائمة للجانبين، واشارت الورقة في مجال المواجهة إلى أهمية دعم التعاون العربي الافريقي على مختلف المستويات.



□ جنود الصهاينة ينتهكون حرمة المآذن.

* * *

□ فقد جون جريمشو ويلكنسون، النباتي الأميركي، بصره في الثالثة والعشرين ولكنه تعلم أن يميز بين الأزهار بمسها بطرف لسانه وكان في وسعه أن يسمي على الفور خمسة آلاف صنف منها.

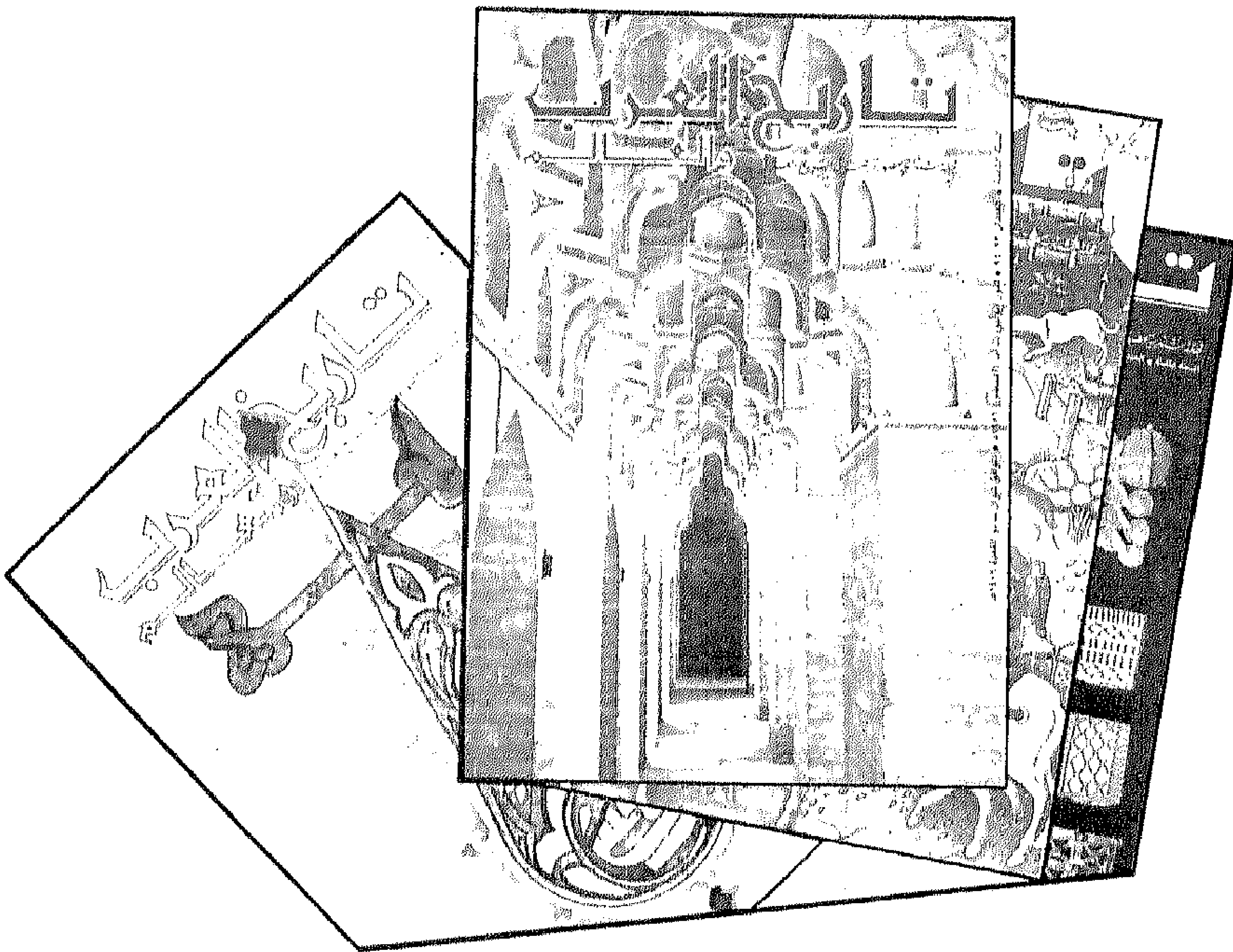
المجلة العلمية الأميركية



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ: «جورج إبراهيم ديب» عرض لرسالته الماجستير بعنوان: «دراسة وفهرست مجلة تاريخ العرب والعالم». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

دراسة وفهرست مجلة "تاريخ العرب والعالم"

إعداد: جورج إبراهيم ديب



□ رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية ــ الفرع الثاني ١٩٨٧م.

□ منحته اللجنة المؤلفة من المشرف الدكتور جوزف غانم، الدكتور جان شرف والدكتور إبراهيم ريشا تقدير حسن.

أهمية الرسالة



تكمن أهمية الرسالة في الكشف عن الدور الهام الذي تلعبه الدوريات بشكل عام والتاريخية منها بشكل خاص، كمصدر من مصادر التاريخ، وذلك من خلال دراسة تقويمية لإحدى الدوريات التاريخية، مجلة «تاريخ العرب والعالم» التي ساعد الباحث، من خلالها، في الكشف عن بعض حقب تاريخ لبنان والعالم العربي عن طريق وضع ثلاثة فهارس لها: زمني وموضوعات وأعلام، مما يُسهّل على الدارسين سبل البحث والتنقيب ويُجنّبهم عناء التحري والتقصي في محتوياتها.

هدف الرسالة

إلقاء الضوء على الدوريات التي أصدرها اللبنانيون منذ منتصف القرن الماضي إلى وقتنا الحاضر والتي تعتبر بحق مصدراً حياً من مصادر التاريخ، وذلك من خلال دراسة عامة لمجلة «تاريخ العرب والعالم» إحدى تلك الدوريات، خشية أن تصاب ما أصاب سابقاتها من النسيان، ونظراً لاهتماماتها بالكتابات التاريخية ولغناها بالتراث الإنساني الحافل بالعطاءات الفكرية.

هيكلية الرسالة

تقع الرسالة في ٢٣٦ صفحة، ضمن أربعة فصول إلى جانب مقدمة وخاتمة وفهرس بالمصادر والمراجع.

تناول الباحث في **الفصل الأول** دراسة وتقويم عام لمجلة «تاريخ العرب والعالم»، من حيث صاحبها، نشأتها، أهدافها، ماهية الفهرسة وأهميتها، مجلة «تاريخ العرب والعالم» والصحافة، آراء القرّاء في المجلة وأثرها فيهم، كتّابها، موضوعاتها، الاتجاهات العامة للمجلة وأخيراً مصطلحات عامة اعتمدها الباحث لتسهيل الإفادة من المقالات الواردة في المجلة وتوضيح ذلك أمام الدارسين.

ونقتطف من الجزء الخامس «مجلة تاريخ العرب والعالم والصحافة» الفقرة التالية:

لقد فتحت المجلة مجالات رحبة لأقلام المؤرخين والمفكرين وغيرهم، يقدمون على صفحاتها ثمرات عطاءاتهم الفكرية في جو طليق يتسع مداه وإن تضاربت مواقفهم وتناقضت ولا سيما من خلال المناظرات حول بعض الشخصيات التاريخية وغير ذلك.

ولقد تمكنت خلال: «عامها الأول أن تكسب آلافاً من القراء والأصدقاء والموجهين والناقدين، استطاعوا باحتضانهم الحار أن يحطموا أرقاماً قياسية في ميدان التوزيع وينتصروا لقضية الصحافة المتخصصة الجادة والملتزمة بطموحات وتطلعات الإنسان العربي».

فهذه المجلة التي تستمد بشكل عام، من التاريخ وجودها واستمراريتها، تقدم للقارىء عملاً ضخماً مثمراً، يمكنها من تأدية رسالتها على أفضل وجه ممكن.

ومهما يكن من أمر، فإن من طبيعة الصحيفة في الدرجة الأولى، تأمين نجاحها في الميدان الصحفي، وإثارة الجماهير، بموادها الحية النابضة لأن: «كل صحيفة أو مجلة تحرص على نجاحها... والنجاح المادي للصحف الملتزمة بخط وطني ليس هدفاً بحد ذاته وإنما هو وسيلة لوصول الكلمة الحرة المكتوبة لأكبر عدد من الجماهير».

وهذا التفاعل القوي بينها وبين رسالة الصحافة سمح لها بأن تتخطى نقطة اللارجوع، وتقف على قدميها، وتقطع أشواطاً بعيدة في هذا المجال الذي قادها نحو طريق النجاح مما جعل الباب أمامها مفتوحاً في عالم الصحافة في لبنان خصوصاً، وفي العالم العربي عموماً.

وإن الاهتمام الذي لاقته من قبل الصحافة، يعتبر شهادة قيّمة لها، نظراً لما تحملته عبر أسرة تحريرها من مسؤوليات ومهام جسام في إطار الدور الذي نذروا أنفسهم له، ألا وهو إعادة كتابة تاريخ لبنان والعرب، واكتشاف ما عفا عليه الزمن.

ولا يعني لنا، أن مجلة «تاريخ العرب والعالم»، هي المجلة الوحيدة التي تعنى بالتاريخ، بل ان هناك مجلات أخرى تقوم بأدوار مشابهة لها تقريباً، منها مجلة «دراسات تاريخية»، و «مجلة البحث التاريخي»، و «مجلة البحوث التاريخية».

ولقد تنوعت اراء الصحف والمجلات حول المجلة ومواقفها، بتنوع مصادرها، وذلك من خلال رؤيتهم الواضحة لمسيرتها وأهدافها المعلنة في افتتاحياتها وكتاباتها التاريخية.

ومما قيل عنها في هذا الصدد: «مجلة «تاريخ العرب والعالم» مجلة متخصصة تبحث في التاريخ العربي الغني بتراثه ودروسه وعبره. شاءها فاروق البربير لترد على احتياجات الفكر العربي الباحث. فجاءت تجمع بين دفتيها، عصارة نتاج الباحثين من الاعلام في عالمنا الحاضر وتقدم للمثقف العربي فصولاً جديدة من قراءات التاريخ... حتى صار صدورها الشهري موعداً لندوة مع الفكر رحيبة تعد بالعطاء».

وإن غناها بالمقالات المختلفة استهوت الكثير من القراء وجعلها: «ترضي قطاعاً كبيراً من المثقفين والمتخصصين».

واستطاعت المجلة أن: «تلقي الضوء على بعض القضايا المجهولة بأسلوب سهل وبسيط، وتقدم في الوقت نفسه معارف مفيدة للقارىء».

أما مجلة الأخبار الأردنية فكتبت تقول: «أصبح للتاريخ مجلته الشهرية في بيروت... وها هو فاروق البربير يحاول على طريقته إخراج مادة التاريخ من حرم الجامعات ووضعها بين أيدي الناس، دون أن تفقد رصانتها».

هذا قليل من كثير، مما جاء على صفحات الجرائد والمجلات اللبنانية والعربية، فهي تبين لنا مدى الدور الذي أحدثته في عالم الصحافة، بحيث جاءت لتساعد قدر الإمكان في سد فراغ ثقافي تاريخي طالما عانينا منه، ولتنفض عن تاريخنا غبار الزمن وتجعله في متناول الباحثين والقراء لكي نتلمس منه قضايانا الفكرية والإنسانية.

تناول **الفصل الثاني**، الفهرس الزمني من حيث اسم المؤلف، عنوان المقال، سنة الصدور ورقم الصفحات.

والفصل الثالث، تناول فهرس الموضوعات. وقد قسمه الباحث إلى خمسة أقسام:

— القسم الأول، يشير إلى عنوان المقال في المجلة.

— القسم الثاني، يشير إلى اسم المؤلف مع ذكر المترجم والمحقق في حال وجود ذلك.

— القسم الثالث: يشير إلى سنة الصدور.

— القسم الرابع، يشير إلى رقم العدد.

— القسم الخامس: يشير إلى رقم الصفحة.

أما **الفصل الرابع** والأخير، فيتناول فهرس الأعلام، من حيث أسماء الذين كتبوا في المجلة حسب الترتيب الأبجدي وعنوان ما كتبوا حسب التسلسل الزمني من غير ذكر اسم المترجم والمحقق وقد اتبع في هذا الفهرس المصطلحات التالية:

— القسم الأول يشير إلى اسم المؤلف.

— القسم الثاني يشير إلى عنوان المقال في المجلة.

— القسم الثالث يشير إلى سنة الصدور.

— القسم الرابع يشير إلى رقم العدد.

— القسم الخامس يشير إلى رقم الصفحة.

وأخيراً، الخاتمة التي يؤكد فيها الباحث على «أن أبرز ما يميز عملنا، هو أننا تحدثنا عن المجلة بشكل موسع قدر الإمكان في فصل واحد، فعرضنا تقريباً مجمل النواحي المتعلقة فيها وبصاحبها، كما استندنا إلى بعض المصادر والمراجع ولا سيما بعض أعدادها، لكي نقرّب عملنا في التكامل والموضوعية.

كما اننا تناولنا ثلاثة فصول تتعلق بفهرسة أعدادها وموضوعاتها، وأعلامها، مرتبين إياهم بشكل جلي مما يزيد في أهمية المجلة قيمة ووضوحاً». ●

* * *

□ الشجاعة الصغيرة الدائمة، أصعب مزاولة في الأقدام الكبير عرضا.

جوستاف لوبوت

□ إن فتح البلدان، وحمايتها، لا يكفيان وحدهما للسيطرة عليها والاحتفاظ بها، بل لابد معهما من مؤهلات خلقية.

اندريه موروا

تأديبُ عمر بن الخطاب لعمّاله(*)

كان عمرُ بن الخطاب جالساً في المسجد فمرَّ به رجل فقال: ويلٌ لك يا عمر من النار! فقال: قرّبوه إليّ. فدنا منه، فقال: لِمَ قلتَ ما قلت؟ قال: تستعملُ عُمَّالَك وتشترط عليهم، ثم لا تنظر: هل وَفَوْا لك بِشَرْطٍ أم لا؟ قال: وما ذاك؟ قال: عاملك على مصر اشترطتَ عليه فتركَ ما أمرته به، وارتكب ما نهيته عنه، ثم شرح له كثيراً من أمره.

فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه فاسْألا عنه، فإن كان كذَب عليه فأَعْلماني، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تُمَلِّكاه من أمره شيئاً، حتى تأْتيا به.

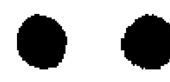
فذهبا فسألا عنه، فوجداه قد صدق؛ فجاءا به إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال صاحبه: إنه ليس عليه اليوم إذْنٌ. قالا: لَيخرجَنَّ إلينا أو لنحرقنَّ عليه بابه، وجاء أحدُهما بشُعْلَةٍ من نار.

فدخل الآذِنُ فأخبره، فخرج إليهما، فقالا: إنا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إن لي حاجة، تمهلانني إلى أن أتزود. قالا: إنه عَزَم علينا الا نُمْهلك.

فاحتملاه وأتيا به عُمَرَ، فلما أتاه سلم عليه فلم يعرفه، وقال له: من أنت؟ وكان رجلاً أسمر، فلما أصاب من رِيْف(1) مصر ابيضَّ وسمن ـ فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان. قال: وَيْحَك! ركبتَ ما نُهيت عنه، وتركتَ ما أُمِرتَ به، واللّهِ لأعاقبنك عقوبةً أُبْلِغ إليك فيها.

آتُوني بكساء من صوف وعصا وثلثمائةِ شاة من غَنَم الصدقة؛ ثم قال له: الْبس هذه الدُّرَّاعة(2)؛ فقد رأيتُ أباك، وهذه خير من دُرَّاعته، وخُذْ هذه العصا فهي خيرٌ من عصا أبيك، واذهب بهذه الشّيَاه فارْعَها في مكان كذا ـ وذلك في يوم صائف(3) ـ ولا تمنع السَّابِلَة(4) من ألبانها شيئاً إلا آل عمر، فإني لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئاً.

(*) ابن أبي الحديد: ٣ ـ ٩٨.
(١) الريف هنا: ارض فيها زرع وخصب.
(٢) الدراعة: جبة مشقوقة من المقدم.
(٣) يوم صائف: شديد الحر.
(٤) السابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم.



● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«من وُلّي من أمر المسلمين شيئاً، فولّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».
وقال:
«من وُلّي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ دابة».

● «كان الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول في القضاء: «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً».



تقرير عن وثائق ومصاحف المتحف الأسلامي في القدس:

المتحف الإسلامي في القدس، أحد المتاحف المهمة في فلسطين. وقد تأسس في عام ١٩٢٣ بمبادرة من المجلس الشرعي الأعلى. ويتألف من قاعدتين رئيسيتين، ويحتوي على مجموعات أثرية ثمينة ومصاحف، ومخطوطات ومسكوكات، وقطع معدنية وزجاجية ونقوش رخامية.

وجاء في تقرير وصلنا من محمد حسن حسين من عمان بالأردن أن المتحف يحتوي على مجموعة قيمة من الوثائق والمصاحف، ففيه حوالي ٩٠٠ وثيقة تعود إلى الفترتين المملوكية والعثمانية، مكتوبة بعدة خطوط، وتبحث في عدة مواضيع، منها محاضر بيع كروم وأملاك وشراء أرض وأملاك وعقود زواج، وتعيين قراء في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ومحاضر بحصر إرث، وغيرها.

وهناك عدد لا بأس به من المصاحف، يقدر بحوالي ٦٥٠ مصحفاً، تعود إلى مختلف الفترات الإسلامية، ومكتوبة بخطوط مختلفة، ومعظمها كان وقفاً على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وجزء منها كان وقفاً على بعض المساجد القديمة في المدن الفلسطينية الأخرى، حيث اعتاد الملوك والأمراء والولاة وقف المصاحف وكتب التفسير على المساجد، خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وتعيين القراء لتلاوتها.

وأهم هذه المصاحف مصحف مكتوب بالخط الكوفي، وهو عبارة عن الجزء الثاني من المصحف وتعود كتابته إلى القرن الثاني الميلادي، وكان وقفاً على قبة الصخرة، وجاء إلى المتحف عن طريق مكتبة المسجد الأقصى.

وهناك مصحف آخر مهم، وهو المصحف الكبير، يبلغ طوله ١١٠ سم، وعرضه ١٩٠ سم، وكان موقوفاً على المسجد الأقصى، ويذكر مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل (٢/٩٦) إن الذي اوقفه هو الملك الأشرف سيف الدين برسباي. وكان قد اهدي إليه في دمشق. وقد قرر على القراءة فيه الشيخ شمس الدين محمد بن قطلوبغا المغربي، وهو مكتوب على ورق صقيل بالحبر الأسود، وبخط ثلث متقن ومشكل الأحرف.

استحداث جائزة لبحوث الحضارة الإسلامية:

انشأ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) في الأردن جائزة اطلق عليها «جائزة عبد الله بن الحسين لبحوث الحضارة الإسلامية»، وقرر المجمع أن يمنح الفائز مبلغ ٣ آلاف دينار أردني ورصيعة ذهبية عليها شعار المجمع واسم الجائزة، وشهادة باسمه وعنوان البحث.

ويذكر أن الجائزة سوف تمنح كل سنتين، وآخر موعد لقبول بحوث الجائزة الأولى هو آخر نوفمبر ١٩٨٧.

جمعية جديدة باسم «الجمعية المغربية للتراث»:

اسس مجموعة من اساتذة الجامعات المغربية جمعية علمية اطلقوا عليها اسم «الجمعية المغربية للتراث»، وذلك بهدف إحياء تراث الامة في مختلف ميادين العلم والمعرفة. وقد اعتمدت الجمعية عدة وسائل لتحقيق اهدافها، منها: الفهرسة، التصوير، التحقيق، الطبع والنشر والتوزيع، التأليف والدراسة، الترجمة، إصدار النشرات والمجلات المتخصصة، تنظيم الندوات والمحاضرات، عقد المؤتمرات واللقاءات الثقافية والمشاركة فيها داخل المغرب وخارجه.

وتعقد الجمعية آمالاً كبيرة على المعاهد والمؤسسات والجمعيات المعنية بالتراث.. وعلى الأفراد من الباحثين والعلماء، في مساعدتها ومديد العون لها لوضع أهدافها موضع التنفيذ، كما تضع بالمقابل كل إمكاناتها المتواضعة في خدمتهم.

أخبار الجامعات والمؤسسات

فهرس شامل للمخطوطات العربية في جامعة الكويت:

يجري حالياً إعداد فهرس شامل للمخطوطات العربية الأصلية والمصورة المحفوظة في مكتبة المخطوطات بجامعة الكويت. ويقوم بالمهمة فريق عمل، يضم أمين المكتبة احمد الخازندار. وقد تم حتى الآن إنجاز حوالي ١٥ ألف بطاقة، ومن المتوقع أن يصل عدد البطاقات إلى ١٨ ألفاً، وسوف يصدر الفهرس قريباً شاملاً لجميع مقتنيات المكتبة منذ إنشائها، بما فيها الفهارس التي سبق إصدارها.

ويذكر أنه كان قد صدر فهرس للمخطوطات العربية المصورة الموجودة بمكتبة المخطوطات بجامعة الكويت عام ١٩٨٣، في جزأين، اعدهما الخازندار، وبلغ عدد العناوين فيهما ٢٠١٤ عنواناً موزعة على مختلف العلوم العربية والإسلامية.

فهرس للمخطوطات العربية بمكتبة عبد الله بن العباس في الطائف:

صدر عن المعهد «فهرس المخطوطات العربية بمكتبة عبد الله

بن العباس في مدينة الطائف». وتعد مكتبة عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما) من الخزائن التي عانت من الإهمال فترة طويلة، إلى أن قام الشيخ حسن عرب بفتحها في حوالي عام ١٣٨٤هـ، وانقذ ما يمكن إنقاذه من مخطوطاتها المكدسة في صناديق واكياس.

وتحوي المكتبة على مخطوطات كثيرة كانت للشيخ عبد الحفيظ بن عثمان بن محمد بن عثمان القاري (وكان حياً ١٣١٩هـ) وأخيه الشيخ محمد بن عثمان القاري. ويذكر أن الوالي التركي محمد رشدي باشا المتوفي ١٢٩١هـ، هو الذي أسس هذه المكتبة.

وجاء في التصدير الذي كتبه المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الأستاذ الدكتور محي الدين صابر:«أما هذا الفهرس الذي يقدمه المعهد في سياق خدمة التراث وإحيائه ومساعدة الباحثين والمحققين فهو عمل صالح، أنجزه في قدرة وأمانة عثمان حسين الأستاذ بالكلية المتوسطة في الطائف، وبذل فيه جهداً نافعاً. لقد قام الباحث بفهرسة المكتبة ووصف مخطوطاتها التي تبلغ خمسين واربعمائة مخطوط عداً، وصنفها ورتبها على الحروف الهجائية داخل تقسيمات العلوم، ملتزماً بمنهجية الفهرسة الصحيحة».

بدء المرحلة الثانية من مشروع البيبليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم:

بدأ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول في تنفيذ المرحلة الثانية من مشروع «البيبليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم»، وهي المرحلة الخاصة بالترجمات المخطوطة. وقد أعد المركز بطاقة اشتملت على أهم المعلومات التي ينبغي جمعها أو رصدها لكل ترجمة، هي:

اسم الكتاب: بالحروف اللاتينية، العربية، اللغة المترجم إليها. اسم المترجم. تاريخ الميلاد. تاريخ الوفاة. مكان وجود الترجمة. لغة الترجمة. تاريخها. نوع الترجمة: بدون تفسير، مع تفسير، مع النص العربي، بدون النص العربي، مستقلة، بين الأسطر، كاملة، ناقصة. اسم الناسخ. تاريخ الميلاد. تاريخ الوفاة. تاريخ الاستنتاخ. مكان الاستنساخ. مقاسات الكتاب. عدد الورق. عدد الصفحات. عدد أسطر الصفحة. نموذج الخط. نوع الورق. نوع التجليد. التزيينات. أول الكتاب. آخر الكتاب. القيودات والخصائص الأخرى. جهة الإعداد.

جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لعام ١٩٨٧:

أعلنت وزارة الشؤون الثقافية عن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لعام ١٩٨٧، وخصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب أهمية المخطوط أو الوثيقة التي توجد في الملكية الخاصة، كما يلي:

اولاً: للاهم من الكتب المخطوطة والمؤلفات والتقاييد والكناشات العلمية والمذكرات الشخصية وخطوط العلماء والكنانيش ونسخ الملحون ومجموعات الفتاوى او الرسائل ودواوين الأشعار والمجموعات الموسيقية، وكل ما هو مخطوط ولو كان على ورقة أو ورقات معدودة.

ثانياً: للوثائق أياً كان عمرها وموضوعها والظهائر والرسائل الرسمية أو الشخصية أو الرسوم العدلية والمحاسبات والإجازات العلمية وشهادات الأنساب، وغير ذلك.

وذكر بلاغ صادر عن الوزارة أن لجنة برئاسة وزير الشؤون الثقافية ستشرف على فحص هذه المخطوطات وتقييمها.

وأكدت الوزارة أنها اتخذت كل الاحتياطات لضمان إرجاع المخطوطات إلى أصحابها كاملة غير منقوصة، بدون إبطاء ولا تأخير فور انتهاء المعرض وأشغال اللجنة المختصة.

واوضح البلاغ أن قيمة المخطوطة او الوثيقة تتجلى في مدى الفائدة التي تعود على تاريخ الأمة وحضارتها، مشيراً إلى أن ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة في ثروة الأمة الفكرية. ولهذه الاعتبارات كلها قررت وزارة الشؤون الثقافية تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ في المكتبة العامة بالرباط للاستفادة منها.

وأكد البلاغ أن تصويرها لا يمكن أن يصيب المخطوط أو الوثيقة بأي ضرر، ولا يفقد أياً منها ماله من قيمة كمستند خطي، وكشف عن أن الوزارة لن تقبل المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديمها في المسابقة الحالية.

انتخاب ١٧ استاذاً كمراسلين لمجمع اللغة العربية في دمشق:

انتخب مجمع اللغة العربية في دمشق مؤخراً ١٧ استاذاً، ليكونوا اعضاء مراسلين له، وهم: عبد الكريم خليفة ومحمود إبراهيم ومحمود السمرة (الأردن)، محمد الحبيب بلخوجة ومحمد سويسي ورشاد حمزاوي (تونس)، صالح

التراث اخبار التراث اخبار التراث اخبار التراث

الخرفي (الجزائر)، رشدي الراشد ووديع فلسطين (مصر)، عبد الهادي التازي وعبد الرحمن الفاسي ومحمد ابن شريفة وعبد العزيز بن عبد الله ومحمد الفاسي (المغرب)، عبد الحليم الندوي (الهند)، اكمل الدين إحسان اوغلو (تركية)، أندره ميكيل (فرنسة).

الأمانة العامة للمؤرخين العرب تحذر من تشويه الكيان الصهيوني لتراثنا وتاريخنا:

دعت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في بغداد أقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب إلى ما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموماً، والتاريخ خصوصاً، وذلك بدراسة واعية عميقة، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة وأفكار مريضة، وطالبت بإحالته إلى الاتحاد لدراسته، والوقوف على ما فيه من أفكار تزيف الحقائق، وتشوه الواقع.

وأكدت في بيان أصدرته لفضح أساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الأمة العربية أن الأعمال الصوفية وتلك التي تعتمد على بحث الفضائل تستهوي الباحثين اليهود في ثناياها عن أمور لا تتفق وروح الإسلام، وأشارت إلى أن الجامعة العبرية في القدس أصدرت في بداية عام ٨٦ عدداً من الكتب المحققة، منها:

— انساب الأشراف، للبلاذري. وقد نشر النص بالعربية والهوامش بالإنجليزية، وما تم نشره يمثل الجزء الرابع من الكتاب. وقد حققه ماكس شوسلنجر. وهناك مجلدات أخرى نشرتها سابقاً الجامعة نفسها.

— ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا. حققه المجور، ونشر النص بالعربية.

— الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان. للسيوطي، وحققه أرازي.

— فضائل بيت المقدس، لأبي بكر بن احمد الواسطي.

— جوامع آداب الصوفية، للسلمي.

— آداب المريدين، للسهروردي.

واستطردت الأمانة في بيانها إن هناك نوعية أخرى من الأعمال حظيت باهتمام اليهود، تتمثل في الدراسات التي تقوم حول الأدب والتاريخ العربي والإسلامي.

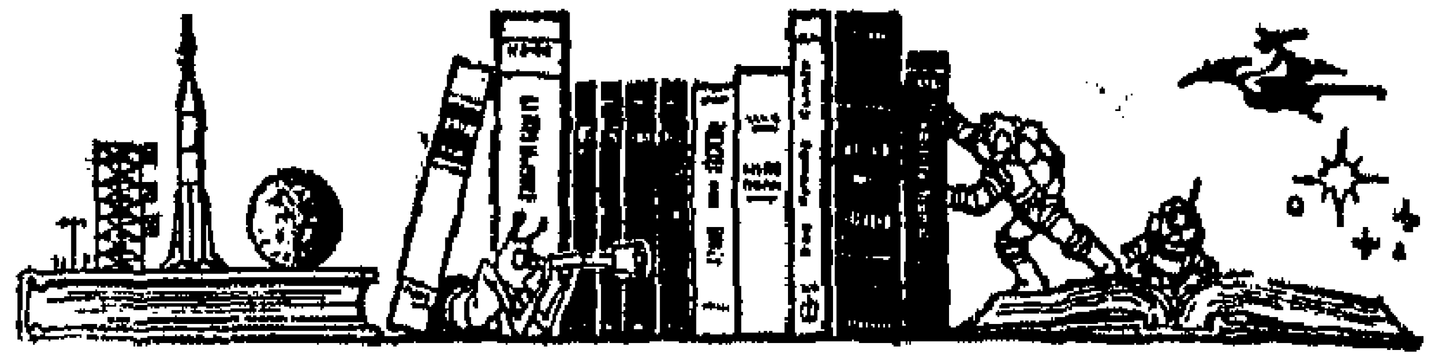
وأشارت إلى أن من الأعمال الهامة التي نشرتها الجامعة العبرية سلسلة بعنوان «دراسات القدس عن العربية والإسلام»، وهي سلسلة سنوية صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات، وتشمل اعمالاً قدمت إلى معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية في الجامعة، وتغطي موضوعات عديدة، منها التاريخ الإسلامي والحضارة والفكر في العصور الوسطى، وكذلك اللغة والآداب العربية، كما أشارت إلى دراسة مطولة عن الغزالي في ٥٨٤ صفحة قام بوضعها لزريوس يافح في، خمسة عشر عاماً، وكتاب بعنوان: «دراسات حول اليهودية والإسلام» ضم مجموعة من البحوث حول آداب وتقاليد المجتمع اليمني والمجتمع اليهودي في المغرب، والتاريخ الإسلامي ووثائق الجنيزا أشرف على تحريرها ابن آمي، وجاءت في مجلدين، وكتاب ثالث بعنوان «دراسات حول بدايات الإسماعيلية» لكاتب إسمه سترن. وقالت إن اهتمامات الدارسين اليهود بقضايا الإسلام وصلت إلى ماليزيا، فوضع احدهم كتاباً بعنوان: «الإسلام والمؤسسات الإسلامية في الملايو البريطانية ١٨٧٥ ــ ١٩٤١م»

ولفتت الأمانة الانتباه إلى الاهتمام الشديد لليهود بتاريخ فلسطين، حيث يعمدون عادة إلى إبرازه في صورة سيئة تعبيراً عن الوضع المتردي للمنظمة قبل حلولهم فيها، وفي هذا الإطار جاءت مجموعة دراسية نشرتها الجامعة العبرية بعنوان «دراسات حول فلسطين خلال العصر العثماني»، وسلسلة بعنوان «أوراق القدس» اهتمت بترسيخ فكرة الحق اليهودي في القدس، ونشر ضمنها: «الحق اليهودي في القدس» ليهودا بلوم، «الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط ــ مدخل» لياكوف هرزوج، «المفهوم الإسرائيلي للحدود الآمنة»



□ إنك تقرأ كتب التاريخ لتستفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج اعمالهم وتقرأ سير العظماء لتتشبه بهم، وتدرك موضع عظمتهم. وتقرأ الطبيعة والكيمياء لتستفيد من استكشاف قبلك لقوانين الطبيعة، فالحياة كلها تجارب، والتجارب مدرسة للانسان والاستفادة منها أهم سبل النجاح في الحياة.

احمد أمين



كتب وردتنا

□ **تاريخ العرب الحديث**
شبه الجزيرة العربية
كياناتها السياسية
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت .... د. زاهية قدورة

□ **في ذكرى معركة حطين**
منشورات وزارة الثقافة السورية ــ دمشق ١٩٨٧ .... تأليف: د. نور الدين حاطوم
د. عادل زيتون

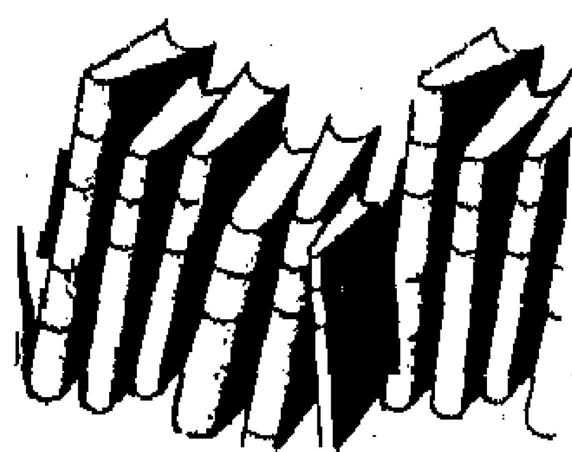
□ **بحوث في التاريخ الاقتصادي**
والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث
دمشق ١٩٨٥ .... د. عبد الكريم رافق

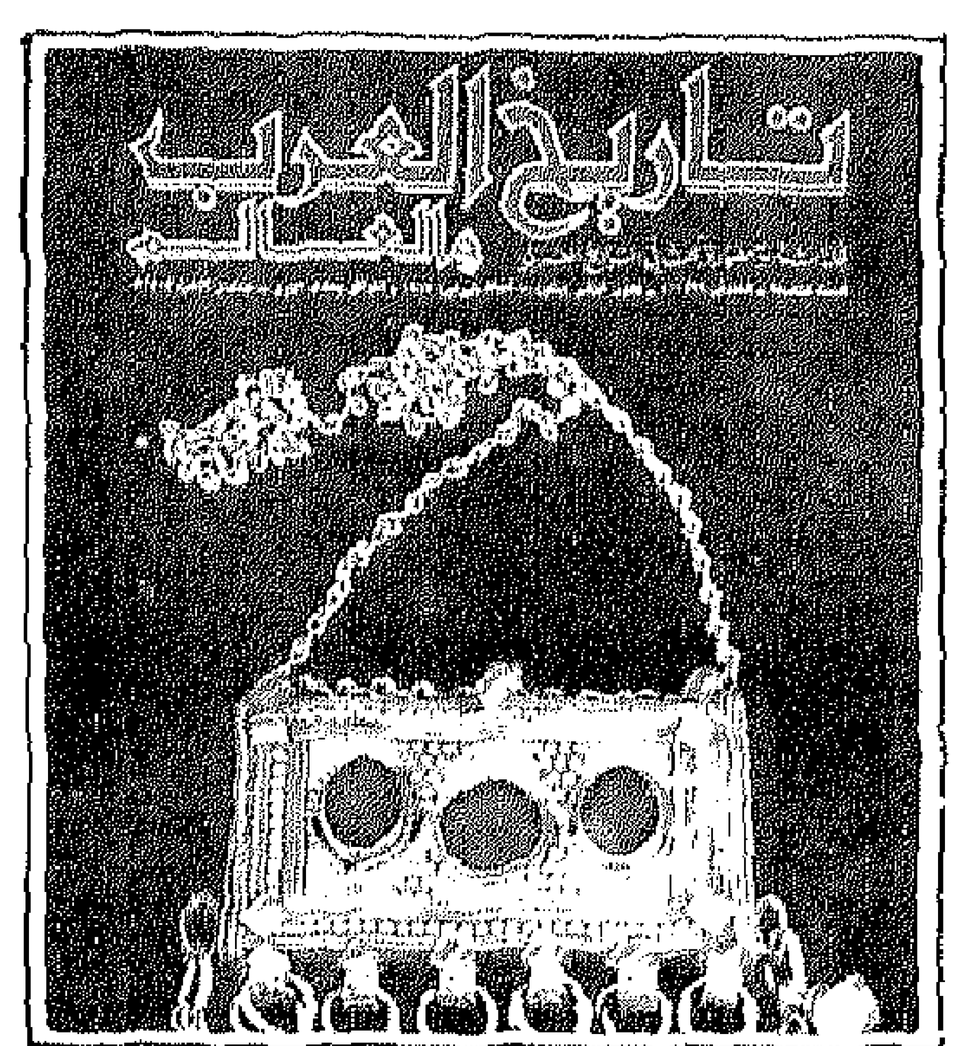
□ **من اسرار الحياة والكون**
الكتاب الخامس عشر(١٥) ابريل ١٩٨٧
سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ــ الكويت .... د. عبد المحسن صالح

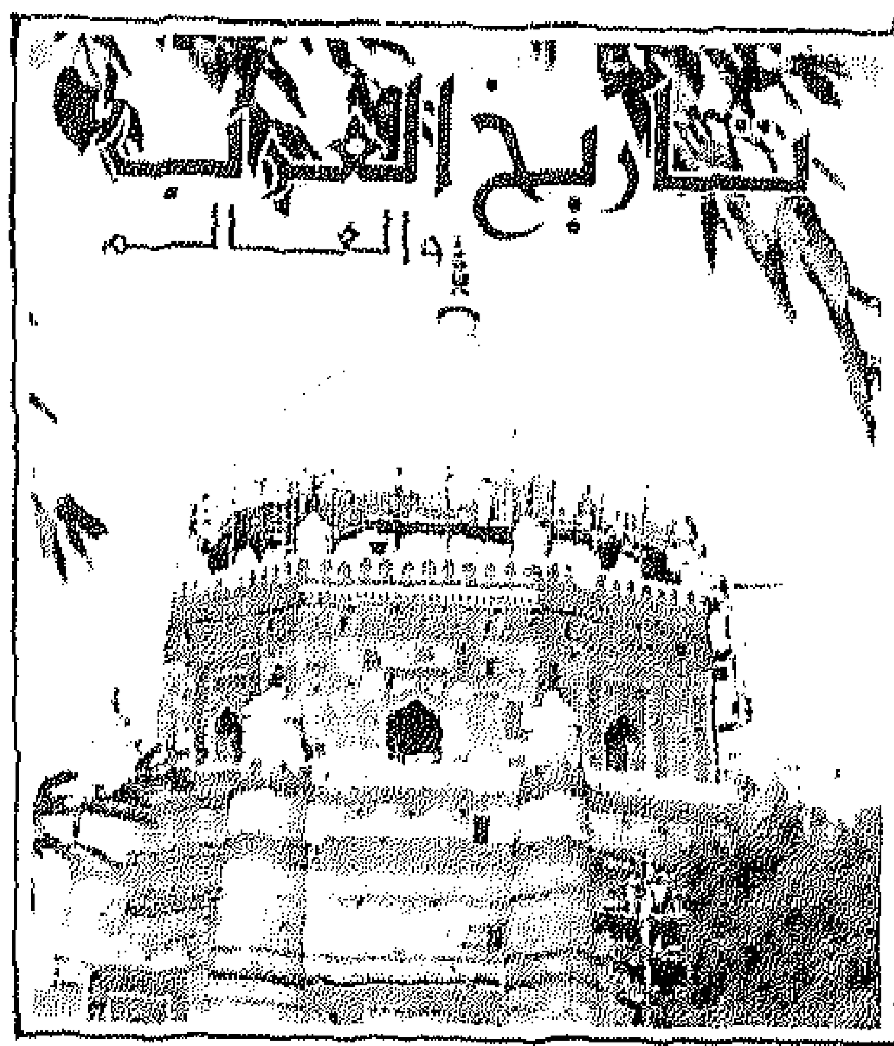
□ **العمالة الأجنبية وآثارها السلبية**
على دول مجلس التعاون الخليجي
دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ١٩٨٧ .... خالد بن محمد القاسمي

□ **اخبار ائمة الزيدية**
في طبرستان وديلمان وجيلان
سلسلة يصدرها المعهد الألماني
للأبحاث الشرقية في بيروت ١٩٨٧ (٢٨) .... جمعها وحققها: فيلفرد ماديلونغ

□ **من كتاب: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**
(سيرة صلاح الدين الأيوبي)
منشورات وزارة الثقافة السورية (٤٦) الطبعة الثانية
دمشق ١٩٨٧ .... تأليف: بهاء الدين بن شداد
اختار النصوص وقدم لها: محمد درويش



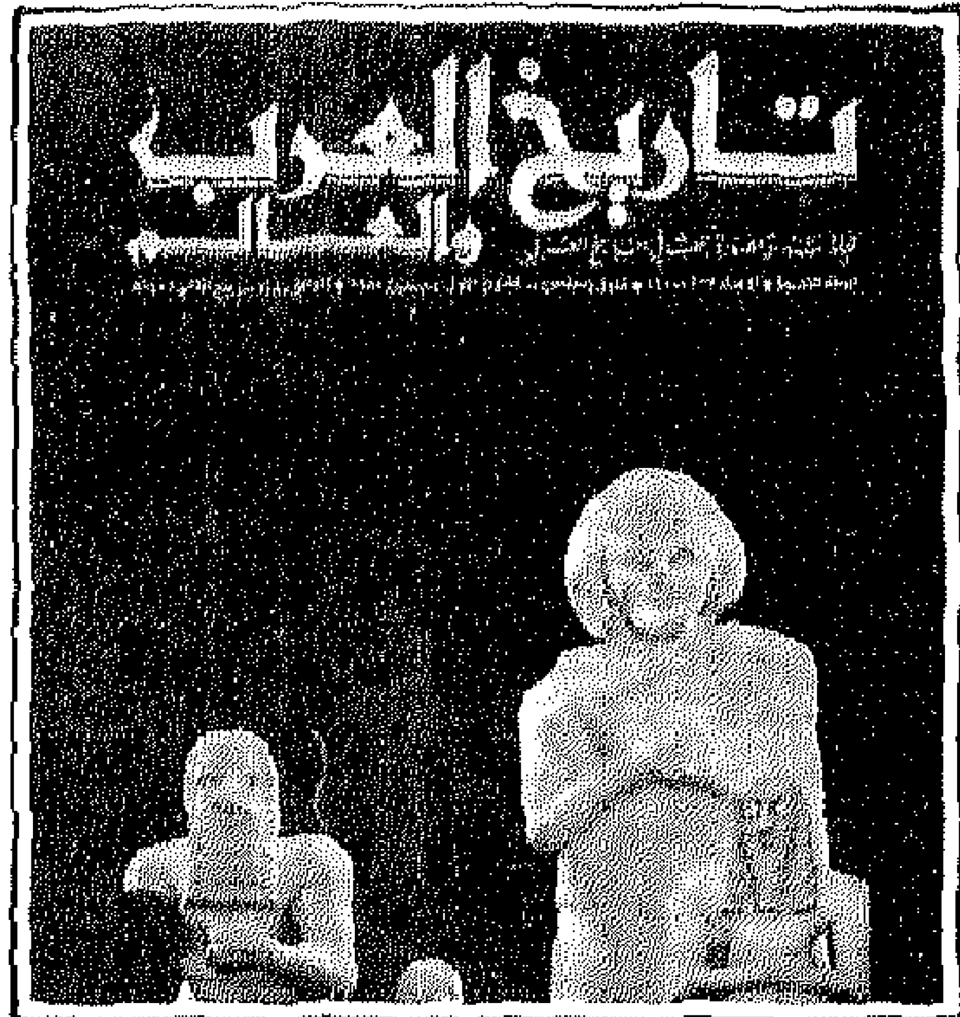








الفهرس العام للسنة التاسعة



□ رسم تخطيطي لدائرة البروج في نص لاتيني لكتاب «المجسطي» مترجم عن اليونانية. وهناك نص لاتيني آخر لكتاب بطليموس. هذا نقل عن إصلاح ثابت ابن قرة للترجمة العربية التي وضعها له إسحق بن حنين.
من كتاب: عبقرية الحضارة العربية.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩١٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الاول:
□ سوماريو وادي الرافدين
من كتاب: Splendors of the Past


Bibliotheca Alexandrina
0532210
